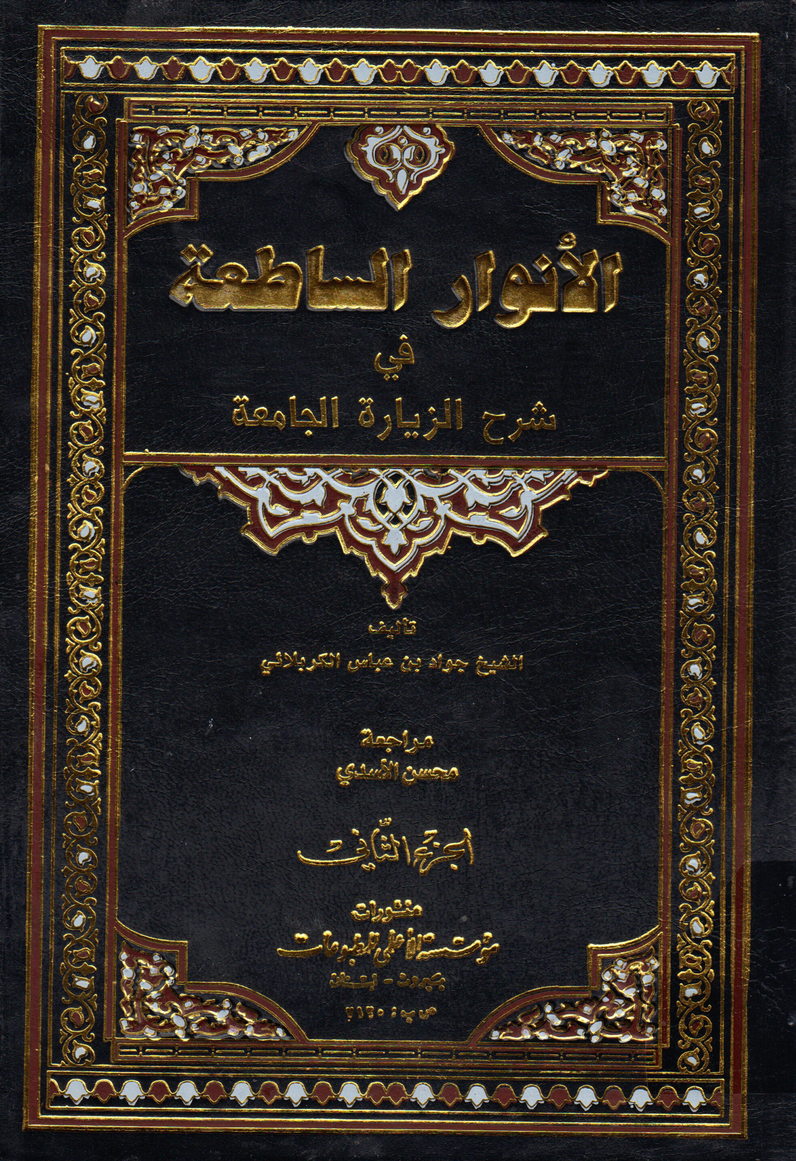

الأنوار الساطعة
في
شرح الزيارة الجامعة
تأليف
الشيخ جواد بن عباس الكربلائي
مراجعة
محسن الأسدي
الجزء الثاني
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب: ٧١٢٠

الأنوار الساطعة

في

شرح الزيارة الجامعة

تأليف

الشيخ جواد بن عباس الكربلائي

مراجعة

محسن الأسدي

الجزء الثاني

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص ب : ٧١٢٠

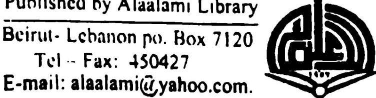
الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م



مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت ـ شارع المطار ـ قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور ـ ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ ـ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧





الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمّد وآله الطّاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أعداء الله.

وبعد، هذا هو الجزء الثاني من الأجزاء الخمسة لكتابنا «الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة».

ويشرع إن شاء الله من قوله عليه السلام: «وأصول الكرم» كتبته لمن يروم أن يحل مشكلاتها، ويفهم مغزاها عن طرق أهل البيت عليهم صلوات الربّ الودود.

قوله عليه السلام: وأُصول الكرم.

أُصول جمع أصل وهو ما يبنى عليه شيء، والكرم صفة لكل ما يرضى ويحمد ولها مصاديق، فكرامة كل أمر هو حسنه بنحو مرضي في جنسه أو نوعه أو شخصه ولذا قلّ من أمر إلّا ويوصف بها فيقال: إنه لقرآن كريم، ورسول كريم، وكتاب كريم، وزوج كريم، ومقام كريم، وقول كريم، وملك كريم، ورجل كريم، وغيرها، ولذا توصف جميع الأخلاق الحسنة بالكرم فيقال: مكارم الأخلاق، فكل صفة حسنة فهي كريمة.

ومكارم الأخلاق التي خصّ بها النبي صلى الله عليه وآله عشرة: اليقين والقناعة والصبر والشكر والحلم وحسن الخلق والسخاء والغيرة والشجاعة والمروة.

وقيل: الكرم هو سخاء النفس بما تحب، وردّ بأنه يلزم أن يكون صفة خاصة وهو كما ترى، بل هي عامة في أغلب الأمور كما علمت.

أقول: لعلّ الوجه بتفسير الكرم بسخاء النفس، أنّ هذه الصفة النفسانية تجمع صفات حسنة كثيرة ولها مصاديق كثيرة، فهي حقيقة الكرم، وهو من هذه الجهة يطلق على الأمور التي تطلق على الانسان باعتبار صفاته وأفعاله وذاته، إذا كان

سخي النفس، فتامل.

وكيف كان فالأئمة عليهم السلام أُصول الكرم أي أيّ أمر اتّصف بالكرم فهو منهم، وهم أصله في جميع الفروع، وفروع الكرم منهم عليهم السلام في الجميع، فهي ما كانت ظاهرة فيهم من القيام بأمر الله ونهيه، فهم عليهم السلام أكمل مصداق له بقوله تعالى: **﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقيٰكم﴾**[1] ومن بذل الفواضل للمستحقين بجميع مراتب البذل، وحيث إنهم عليهم السلام أُصول الكرم فهم ينابيعه ومفاتيحه وأسبابه في الوجود.

فكل موجود اتّصف بصفة كريمة حسنة من أيّ أمر كان فهي منهم عليهم السلام قد وصلت إليه.

وإنّما اتّصف كل موجود من الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وساير الموجودات بصفة الكرم أي بما يحسن فيه ويرضى ويمدح؛ لأجل قبول ولايتهم عليهم السلام فكلّ موجود قبل ذلك اتّصف بذلك الحسن الذي هو حقيقة الكرم، وإلّا فلا كرامة له كما ستجيء الإشارة إليه مفصلاً، وقد تقدم ما يدل عليه.

فعن كتاب الدرة الباهرة من أصداف الطاهرة ما روي عن مولانا أبي محمد الحسن العسكري (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه وعلى ابنه المهدي الموعود روحي له الفداء) ما صورته: «قد صعدنا ذرى الحقائق بأقدام النبوة والولاية، ونوّرنا سبع طبقات أعلام الفتوة بالهداية، فنحن ليوث الوغى، وغيوث الندى وطعناء العدى. وفينا السيف والقلم في العاجل ولواء الحمد في الآجل وأسباطنا حنفاء (خلفاء) الدين وخلفاء النبيين (وأسباطنا خلفاء الدين وخلفاء اليقين)، ومصابيح الأمم ومفاتيح الكرم، فالكليم أُلبس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء، وروح القدس في جنان الصاقورة، ذاق من حدائقنا الباكورة، وشيعتنا الفئة الناجية والفرقة الزاكية، صاروا لنا ردءاً وصوناً، وعلى الظلمة ألباً وعوناً، وستفجر لهم ينابيع الحيوان بعد لظى النيران لتمام الم وطه والطواسين»، وهذا الكتاب ذرة من

---

١ ـ الحجرات: ١٣.

جبل الرحمة، وقطرة من بحر الحكمة. وكتب الحسن بن علي العسكري عليهما السلام في سنة أربع وخمسين ومأتين.

فقوله عليه السلام : «مفاتيح الكرم» يشير إلى أنهم لما كانوا أصل الكرم ومحالّه، فلا محالة هم مفاتيحه، ويصل الكرم منهم إلى غيرهم.

وقوله عليه السلام : «والكليم ألبس حلة الاصطفاء.. الخ» يشير إلى ما ذكرنا من أنّ كل نبيّ أو ملك أو مؤمن فإنما اتّصف بصفة حسنة في حاله لأجل قبوله ولايتهم عليهم السلام فهم عليهم السلام لما عهدوا منه الوفاء بولايتهم، والتسليم لأمرهم، والرد إليهم، والوفاء بعهدهم عليهم السلام جعلوه من المصطفين الأخيار.

قوله عليه السلام : «وروح القدس»، المراد به (والله العالم) جبرئيل، وحدائق جمع حديقة يشير بها إلى علمهم ومعارفهم وولايتهم الكلية التي لا يحيط بها غيرهم.

وإنما عبّر عنها بالحديقة لنضارتها وصفائها وبهجتها، فهي عين الحياة وحياة الأشياء منه وفيها الحياة كانها تغلي وتفور، والصاقورة قيل هو في اللغة باطن القحف أي العظم المشرف على الدماغ، وقد يطلق على السماء الثالثة، وقد يطلق على العرش.

«والباكورة» أول الثمرة. فالمعنى (والله العالم) أنّ جبرائيل إنّما صار جبرائيلَ بما له من المقامات التسعة، التي ستجيء الإشارة إليها إن شاء الله؛ لأجل ذوقه من أوّل ثمرة معارفهم أي أدناها وأقلها؛ لأنه كنّى عليه السلام بها عن أول ظهور الثمرة بأول ظهور المعرفة والعلم، فلا محالة يكون أدناها وأقلها، وكان هذا الذوق في جنان الصاقورة في الجنة المتوسطة لحدائقهم عليهم السلام لا العالية كما لا يخفى.

فنمو جبرائيل إنما هو من تلك الثمرة الظاهرة أول ظهورها، فهذا منشأ حقيقة جبرائيل، فهم عليهم السلام حينئذ أصل الكرم لجبرائيل، حيث ذاق من تلك الثمرة فصار جبرائيل.

والحاصل أنهم عليهم السلام أصول الكرم بما له من المعنى،كيف وهم مظهر لكرمه تعالى

كما لا يخفى، وكرمهم فرع كرمه تعالى.

ولعله إليه يشير قول علي عليه السلام على ما روي عنه عليه السلام: «أنا فرع من فروع الربوبية» كما لا يخفى.

وفي الحديث الشريف نكات ودقائق يبيّنها أهل المعرفة في محله، والله العالم بحقائق الأمور.

قوله عليه السلام: *وقادة الأُمم.*

أقول: في المجمع: القود أن يكون الرجل أمام الدابة آخذاً بقيادها، وفيه: والقائد واحد القوّاد والقادة، وفي حديث علي عليه السلام: «قريش قادة ذادة»، وفيه: «الأُمة الخلق كلهم، وأُمة كل نبي أتباعه، ومن لم يتّبع دينه وإن كان في زمانه فليس من أُمته».

أقول: هذا إذا استعمل مضافاً إليه، وإلّا فهو الخلق كلهم كما عرفت.

وقد جاءت الأُمة بمعنى الجماعة، وبمعنى رجل جامع للخير يقتدى به، ومنه قوله تعالى: ﴿**إنّ إبراهيم كان أُمة قانتاً لله**﴾[1].

ثم إنّ الأُمة قد تطلق على غير الإنسان كقوله تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أُمم أمثالكم**﴾[2] فالأُمة لغة تطلق على الخلق إنساناً كان أم لا.

فقوله عليه السلام: «قادة الأُمم»، أي هم عليهم السلام قائدون للأمة إلى معرفة الله تعالى وطاعته في الدنيا بالهداية، وإلى درجات الجنان في الآخرة بالشفاعة الكبرى والوسيلة العظمى، وأيضاً هم قائدون للأنبياء وأُممهم كما اشتهر منهم عليهم السلام بطرق عديدة: «بعبادتنا عبدالله، ولولا نحن ما عبد الله».

وعن مولانا أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام ما وجد بخطه عليه السلام: «أعوذ بالله من

---

١ ـ النحل: ١٢٠.

٢ ـ الأنعام: ٣٨.

قوم حذفوا محكم الكتاب، ونسوا الله ربّ الأرباب، وساقي الكوثر في مواقف الحساب، ولظى الطامة الكبرى ونعيم دار الثواب، فنحن السنام الأعظم، وفينا النبوة والولاية والكرم، ونحن منار الهدى والعروة الوثق، والأنبياء كانوا يقتبسون من أنوارنا ويقتفون آثارنا، وسيظهر حجة الله على الخلق، والسيف المسلول لاظهار الحق، وهذا الخط للحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي أمير المؤمنين عليهم السلام».

قوله عليه السلام : «والأنبياء كانوا يقتبسون» الخ يدل على أنهم عليهم السلام كانوا قادتهم بأنوارهم إلى المعارف.

وكيف كان فمن أجابهم فيما أمروه، وأجابهم في قبول ولايتهم قادوه إلى المعرفة به تعالى وإلى الدرجات العلى.

ثم إن قودهم للتابعين إما بدعائهم للناس وتعريفهم، وأمرهم وترغيبهم إلى المعرفة، وهذا عام لكل أحد. وإما بالمعونة والتأييد بالمدد، وهذا لمن أجاب واستجاب وعمل بما أمروه، ويقابل هذا أنهم ذادّون ورادّون لمن لم يُجب وأنكر ولم يقبل، فإنهم عليهم السلام حينئذ يسوقونه بسبب إنكاره وعدم قبوله إلى الخذلان، ولعدم الاستجابة، والطبع والرين القلبي دعّوه إلى جهنم دعّا.

ففي الحقيقة هم المعلمون للخلق في عالم من عوالم الوجود، فهم الداعون والهادون النجدين طريق الخير وطريق الشر، فلا يهتدي أحد إلّا بهداهم، ولا يضل ضال بخروجه عن الهدى إلّا بترك ولايتهم.

هذا بالنسبة إلى جميع الخلق عاليهم ودانيهم في جميع العوالم، في عالم الذر والأرواح وفي الدنيا وفي الآخرة.

ثم إن هاهنا أحاديث لابد من ذكرها، ليتضح الحال فيما نرومه من المقال، فنقول وعليه التوكل:

في أمالي الطوسي[١]، بإسناده عن أبان بن عثمان، عن أبي عبدالله جعفر بن محمد عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: أين خليفة الله في أرضه؟ فيقوم داود النبي عليه السلام فيأتي النداء من عند الله عزوجل: لسنا إياك أردنا، وإن كنت لله تعالى خليفة.

ثم ينادي ثانية: أين خليفة الله في أرضه؟ فيقوم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيأتي النداء من قبل الله عزوجل: يا معشر الخلائق هذا علي بن أبي طالب خليفة الله في أرضه وحجته على عباده.

فمن تعلق بحبله في دار الدنيا فليتعلق بحبله في هذا اليوم، يستضيء بنوره، وليتبعه إلى الدرجات العلى من الجنات، فيقوم الناس الذين قد تعلّقوا بحبله في الدنيا فيتبعونه إلى الجنة.

ثم يأتي النداء من عند الله جلّ جلاله: ألّا من ائتم بإمام في دار الدنيا، فليتبعه إلى حيث يذهب به.

فحينئذ ﴿.. **تبرّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب * وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أنَّ لنا كرة فنتبرأَ منهم كما تبرّءُوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار**﴾[٢].

وفي الكافي بإسناده عن أبي الصامت الحلواني عن أبي جعفر عليه السلام: «فضّل أمير المؤمنين عليه السلام ما جاء به أخذ به وما نهى عنه انتهى عنه، جرى له من الطاعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ما لرسول الله صلى الله عليه وآله والفضل لمحمد صلى الله عليه وآله المتقدم بين يديه كالمتقدم بين يدي الله ورسوله، والمتفضل عليه كالمتفضل على رسول الله صلى الله عليه وآله والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حدّ الشرك بالله، فان رسول الله صلى الله عليه وآله باب الله الذي لا يؤتى إلّا منه، وسبيله الذي من سلكه وصل إلى الله تعالى.

---

١ ـ أمالي الطوسي ص٣٩.

٢ ـ البقرة: ١٦٦، ١٦٧.

وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وجرى للائمة واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وعمد الإسلام، ورابطة على سبيل هداه، لا يهدي هاد إلّا بهداهم، ولا يضل خارج من الهدى إلّا بتقصير عن حقهم، أُمناء الله على ما أهبط من علم أو عذر أو نذر والحجة البالغة على من في الأرض، يجري لآخرهم من الله مثل الذي جرى لأولهم، ولا يصل أحد إلى ذلك إلّا بعون الله تعالى».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا قسيم الله بين الجنة والنار، لا يدخلها داخل إلّا على حدّ قسيمي، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا الامام لمن بعدي، والمؤدّي عمن كان قبلي، لا يتقدمني أحد إلّا أحمد صلى الله عليه وآله وإني وإياه لعلى سبيل واحد، إلّا أنه هو المدعو باسمه، ولقد أعطيت الست علم المنايا والبلايا، والوصايا وفصل الخطاب، وإني لصاحب الكرات ودولة الدول، وإني لصاحب الميسم، والدابّة التي تكلم الناس».

قوله: «فضل أمير المؤمنين» (بالبناء للمجهول) يعني فضل على ساير الخلق قوله عليه السلام: إلّا أنه هو المدعو باسمه، أي باسم الرسالة والنبوة دوني.

وقوله عليه السلام: «والدابة التي تكلم الناس»، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون**﴾[1].

قال علي بن إبراهيم في تفسيره، قال أبو عبدالله عليه السلام قال رجل لعمار بن ياسر: «ياأبا اليقظان آية في كتاب الله قد أفسدت قلبي وشككتني.

قال عمار: وأيّة آية هي؟ قال: قول الله: ﴿**وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون**﴾ فأيّة دابة هذه؟ قال عمار: والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أُريكها، فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين وهو يأكل تمراً وزبداً، فقال: ياابا اليقظان هلم، فجلس عمار، وأقبل

---

١ ـ النمل : ٨٢.

يا كل معه، فتعجب الرجل منه، فلما قام عمار، قال الرجل: سبحان الله ياأبا اليقظان حلفت أنك لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس حتى ترينيها!! قال عمار: قد أريتكها إن كنت تعقل».

أقول: يعني أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي أصول الكافي بإسناده عن عبدالأعلى قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «السمع والطاعة أبواب الخير، السامع المطيع لا حجة عليه، والسامع العاصي لا حجة له، وإمام المسلمين تمّت حجته واحتجاجه يوم يلقى الله عزوجل، ثم قال: يقول الله تبارك وتعالى: **﴿يوم ندعو كل اناس بإمامهم﴾**».

وعن تفسير مجمع البيان: روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ألا تحمدون الله إذا كان يوم القيامة، فدعا كل قوم إلى من يتولونه، ودعانا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وفزعتم إلينا، قال: أين ترون يذهب بكم؟ إلى الجنة وربّ الكعبة قالها ثلاثاً».

قوله: «فزعنا»، أي قصدنا.

وفي أصول الكافي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام **﴿يوم ندعوا كل اناس بإمامهم﴾** قال: إمامهم الذي بين أظهرهم وهو قائم أهل زمانه.

فظهر من هذه الأحاديث أنهم قادة الأمم المقتدى بهم إلى درجات العلى، وإلى المعارف في الدنيا والآخرة، ولا نجاة لأحد إلّا باتباعهم والاقتداء بهم، فإنه المقصود من قوله عليه السلام: «وقادة الأمم»، أي لا غيرهم.

فعن تفسير العياشي عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام: «أنه إذا كان يوم القيامة يدعى كلّ بإمامه الذي مات في عصره، فإن انتبه اعطى كتابه بيمينه لقوله تعالى: **﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً﴾**[1] **﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اِقرأوا كتابيه * إني**

---

١ ـ الإسراء: ٧١.

ظننت أني ملاق حسابيه﴾[١].

والكتاب الإمام فمن نبذه وراء ظهره كان كما قال تعالى: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾[٢]، ومن أنكره كان من أصحاب الشمال الذين قال الله: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم﴾[٣] الخ».

وعن كتاب الرجال للكشي ﵀ فضالة بن جعفر عن أبان عن حمزة بن الطيار أن أبا عبدالله ﵇ «أخذ بيدي ثم عدّ الأئمة إماماً إماماً يحسبهم حتى انتهى إلى أبي جعفر ﵇ فكفّ، فقلت: جعلني الله فداك لو فلقت رمانة، فأحللت بعضها، وحرمت بعضها؛ لشهدت أن ما حرمت حرام، وما أحللت حلال، فقال: فحسبك أن تقول بقوله: وما أنا إلّا مثلهم لي ما لهم، وعليّ ما عليهم، فإن أردت أن تجيء مع الذين قال الله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أُناس بإمامهم﴾ فقل بقوله».

وعن الخرائج والجرايح في أعلام أبي محمد العسكري ﵇ قال أبو هاشم بعد أن روى كرامة له ﵇: فجعلت أفكر في نفسي عظم ما أعطى الله آل محمد ﷺ وبكيت، فنظر إليّ وقال: «الأمر أعظم مما حدثت به في نفسك من عظم شأن آل محمد ﷺ فاحمد الله أن يجعلك متمسكاً بحبلهم، تدعى يوم القيامة بهم إذا دعى كل أُناس بإمامهم، إنك على خير».

وعن كتاب الاحتجاج للطبرسي ﵀ عن النبي ﷺ حديث طويل وفيه: «يارسول الله أخبرنا عن علي هو أفضل أم ملائكة الله المقربون؟ فقال رسول الله: وهل شرفت الملائكة إلّا بحبها لمحمد ﷺ وعلي ﵇ وقبول ولايتها، إنه لا أحد من محبّي علي ﵇ نظف قلبه من الغش والدغل والعلل ونجاسة الذنوب إلّا كان أطهر وأفضل من الملائكة».

---

١ ـ الحاقة: ١٩ ـ ٢٠.

٢ ـ آل عمران: ١٨٧.

٣ ـ الواقعة: ٤١ ـ ٤٣.

وعن العياشي عن بشير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنه كان يقول: «ما بين أحدكم وبين أن يغتبط إلى أن تبلغ نفسه هيهنا وأشار بإصبعه إلى حنجره عليه السلام.

قال: ثم ناول آيات (آياًخ) من الكتاب قال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾[١] ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[٢] ﴿.. إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[٣].

قال: ثم قال: ﴿يوم ندعو كل اناس بإمامهم﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله إمامكم، وكم من إمام يوم القيامة يجيء يلعن أصحابه ويلعنونه».

وفي كتاب بصائر الدرجات بإسناده عن حماد بن عيسى قال: سأل رجل أبا عبدالله عليه السلام فقال: «الملائكة أكثر أو بنو آدم؟ فقال: والذي نفسي بيده لملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التراب، وما في السماء موضع قدم إلّا وفيه ملك يقدس له ويسبح، ولا في الأرض شجر ولا مثل غرزة عود إلّا وفيها ملك موكل كل يوم بعملها الله أعلم بها، وما منهم أحد إلّا ويتقرب إلى الله في كل يوم بولايتنا أهل البيت، ويستغفر لمحبينا ويلعن أعداءَنا، ويسأل الله أن يرسل عليهم من العذاب إرسالاً».

وتقدمت الاحاديث الدالة على أنه تعالى ما بعث الله نبياً إلّا بولاية علي عليه السلام وعلى أنه أخذ ولايته عليه السلام على الكل في الميثاق وعالم الذر، كما لا يخفى.

وعن توحيد الصدوق بإسناده عن محمد بن بشير الهمداني قال: سمعت محمد ابن الحنفية يقول: حدثني أمير المؤمنين عليه السلام «أن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة أخذ بحجزة الله، ونحن آخذون بحجزة نبينا، وشيعتنا آخذون بحجزتنا».

١ـ النساء: ٥٩.

٢ـ النساء: ٨٠.

٣ـ آل عمران: ٣١.

أقول: المراد بالحجزة الدين كما بيّنه الصادق عليه السلام في حديث أبي اليقظان.

وعن أمالي الصدوق[١] بإسناده عن أبي جعفر محمد بن علي عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خذوا بحجزة هذا الأنزع (يعني عليّاً) فإنه الصديق الأكبر، وهو الفاروق يفرق بين الحق والباطل، مَن أحبه هداه الله، ومن أبغضه أبغضه الله، ومن تخلّف عنه محقه الله، ومنه سبطا أُمتي الحسن والحسين، وهما ابناي، ومن الحسين أئمة الهدى أعطاهم الله علمي وفهمي، فتولوهم، ولا تتخذوا وليجة من دونهم، فيحل عليكم غضب من ربكم، ومن يحلل عليه غضب من ربه فقد هوى وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور».

أقول: هذه جملة من الروايات التي تحصّل منها: أن معنى كونهم قادة الأمم أنه لا يهدي هاد إلّا بهديهم كما هو قول محمد بن علي عليهما السلام وهذا يعمّ الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، والملائكة المقربين لا يهدي أحد منهم إلّا بهداهم.

وقوله عليه السلام في حديث محمد بن علي عليهما السلام: «ولا يضل خارج عن الهدى إلا بتقصير عن حقهم»، يدل على أنه كما لا هداية لأحد إلّا بهداهم، كذلك أنه لا ضلالة لأحد من الخلق إلّا بتقصيره من حقهم، والتقصير قد يكون بالتأخر عنهم، وقد يكون بالتقدم عليهم.

فالتقدم والتأخر عنهم وعليهم ضلالة عن طريق الحق الأعظم، فمن قصّر في حقهم بأحد الأمرين فقد قصّر عن طريق الحق، ومن كان كذلك فقد حقّت عليه الضلالة، فالهداية مستندة إلى هداهم عليهم السلام، والضلالة إلى نفسها وإلى تقصيرهم، إيذاناً بأن الضلالة تكون بسبب تقصيرهم، وأما الهداية فهو لطف منه تعالى في حقهم لمكان المتابعة.

---

١ - البحار ج٢٣ ص١٢٩ ح٦٠.

قوله عليه السلام: وأولياء النعم.

«الأولياء» جمع ولي، «والنعم» جمع نعمة: فالكلام يقع في مقامين:

المقام الأول: في معنى الولي والمقصود منه هنا فنقول:

قد علمت سابقاً أن الولي قد جاء بمعنى المحب والصديق والنصير والقريب والصاحب والمالك ونحوها.

وعلمت أن الأصل فيه هو ولاية الأمر، فيكون مشتقاً من الإمارة (بالكسر)، وبهذا المعنى أطلق على الأئمة عليهم السلام.

ففي البصائر عن الصادق عليه السلام قال: «نحن ولاة أمر الله».

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: قال الله عزوجل: «الائمة ولاة أمري وخزّان علمي».

فإذا أطلق عليهم عليهم السلام اسم الولي فيراد منه هذا المعنى، وأما إذا أطلق عليهم عليهم السلام مضافاً إلى شيء كما في المقام فيراد منه المعنى المناسب للمضاف اليه.

ففي المقام إما يراد منه معنى الصاحب بمعنى المالك أي هم عليهم السلام أصحاب النعم، أو أولىٰ بالتصرف فيها، ولهم الولاية في تصريفها أي بيدهم عليهم السلام إعطاء النعم للخلق كمّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً، وعموماً وخصوصاً، ومطلقاً ومقيّداً، فهم أولياء النعم يعني أن أمرها بيدهم في وساطتهم من الله تعالى إلى الخلق في هذه الأُمور.

ويدل على هذا ما في أُصول الكافي، عن أحمد بن عيسى، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزوجل: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾**[1] قال: «إنما يعني أولى بكم، أي أحق بكم وبأموركم من أنفسكم وأموالكم اللهُ ورسولهُ والذين آمنوا يعني علياً وأولاده الأئمة عليهم السلام إلى يوم القيامة»، الحديث.

وسيجيء بيانه في شرح قوله عليه السلام: «وأولي الأمر»، فدل هذا الحديث على أن النبي والائمة عليهم السلام هم أولىٰ بأمور الخلق من أنفسهم في جميعها، فلازمه أنهم عليهم السلام أولياء النعم، أي أولىٰ بهم من الخلق بالمعنى المتقدم، كما لا يخفى.

---

١ ـ المائدة: ٥٥.

ويدل على هذا أيضاً ما روي عن علي عليه السلام في حديث منه: «نحن صنائع الله، والخلق بعد صنائع لنا» أي بعد أن خلقنا وضعنا لنفسه وجعلنا خزائن كرمه خلق الخلق وصنعهم لنا.

وهذا الحديث مذكور في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لأولاده بعد ضربة ابن ملجم «لعنه الله» وأيضاً ذكره الحجة عليه السلام في التوقيع الوارد منه برواية المفيد رحمه الله كما في البحار في حالاته عليه السلام.

فهم حينئذ أولياء الله على خلقه؛ لأنهم العلة والغاية للخلق، فلا محالة هم أولى بالتصرف فيهم، وسيجيء بيانه إن شاء الله مشروحاً

المقام الثاني: في بيان معنى المراد من «النعم» فنقول:

عن القاموس: النعيم والنعماء الخفض والدعة والمال كالنعمة (بالكسر) جمعها نعم وأنعم، والتنعّم الترفّه، والاسم النعمة (بالفتح).

وفيه أيضاً: والنعمة المسرّة واليد البيضاء الخاصة كالنعمى والنعماء (بالفتح) ممدودة، إلى أن قال: ونعيم الله عطيته.

ثم إن النعمة قد تطلق ويراد منها الرسول والائمة عليهم السلام وولايتهم.

في مناقب ابن شهر آشوب عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها**﴾ قال: «عرفهم النبي صلى الله عليه وآله ولاية علي عليه السلام وأمرهم بولايته، ثم أنكروا بعد وفاته».

وفي أُصول الكافي بإسناده عن أبي يوسف القزّاز قال: تلا أبو عبدالله عليه السلام هذه الآية: ﴿**فاذكروا آلاء الله**﴾.

قال: أتدري ما آلاء الله؟ قلت: لا، قال: هي أعظم نعم الله على خلقه، وهي ولايتنا».

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وأما بنعمة ربّك فحدّث**﴾ قال: «أي حدثهم بفضائل علي عليه السلام».

وعن تفسير العياشي وغيره عن الصادق عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة لما سأله عن النعيم في هذه الآية: «يانعمان نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد»، الحديث.

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام: «نحن والله نعمة الله، التي أنعم بها على عباده، بنا يفوز من فاز».

وفي أصول الكافي بإسناده عن الأصبغ قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما بال أقوام غيّروا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وعدلوا عن وصيه، لا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب، ثم تلا هذه الآية: ﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار * جهنم**﴾[1].

ثم قال عليه السلام: نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده وبنا يفوز من فاز يوم القيامة».

ثم إن النعمة من الله تعالى وهي على قسمين ظاهرة وباطنة وهي أكثر من أن تحصى قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[2].

في روضة الكافي علي بن محمد عن بعض أصحابه رفعه قال: كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قرأ هذه الآية: ﴿**وإن تعدوا نعمه الله لا تحصوها**﴾ يقول: «سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلّا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه، فشكر جلّ وعزّ معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً كما علم علم العالمين أنه لا يدركونه، فجعله إيماناً علماً منه أنه وسع العباد فلا يتجاوز ذلك، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته، وكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف ﴿**تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً**﴾».

---

١ ـ إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩.

٢ ـ ابراهيم: ٣٤.

فعلم أنه لا يمكن لأحد إحصاؤها بالشكر، إلّا بالتقصير عن معرفتها، وقال تعالى: ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾[١].

فعن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى حماد بن زياد الأزدي قال: سألت سيدي موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾ فقال عليه السلام: «النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب».

وعن تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن جابر قال: قال رجل عند أبي جعفر عليه السلام ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة**﴾[٢].

قال: «أما النعمة الظاهرة فالنبي صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفة الله عزوجل وتوحيده. وأما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا، فاعتقد والله قوم هذه النعمة الظاهرة والباطنة، واعتقدها قوم ظاهرة ولم يعتقدوها باطنة، فأنزل الله ﴿**ياأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**﴾[٣].

ففرح رسول الله صلى الله عليه وآله عند نزولها أنه لم يقبل الله تبارك وتعالى إيمانهم إلّا بعقد ولايتنا ومحبتنا».

وأنا أقول: الحمد لله الذي جعلنا ممن اعتقدها ظاهرةً وباطنةً، وجعلنا من محبيهم عليهم السلام وبذلك ظهر طيب ولادتنا.

ففي معاني الأخبار[٤] بإسناده عن زيد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ياعلي من أحبّني وأحبك، وأحبّ الأئمة من ولدك، فليحمد الله على طيب مولده، فإنه لا يحبنا إلّا من طابت ولادته، ولا يبغضنا إلّا من خبثت ولادته».

---

١ ـ لقمان: ٢٠.

٢ ـ لقمان: ٢٠.

٣ ـ آل عمران: ١٧٦.

٤ ـ معاني الأخبار ص١٥٧.

وفيه بإسناده عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «من وجد بردَ حبنا على قلبه، فليكثر الدعاء لأمّه فإنها لم تخن أباه». هذا بعض الأحاديث في تفسير النعم ظاهرة وباطنة.

وربما يقال: إن النعم الباطنة هي الألطاف التي شملت الإنسان من حين كونه خلقاً روحياً قبل تعلقه بالبدن كما سيجيء، إلى أن تعلق به من لدن كونه نطفة إلى أن صار مولوداً خارجياً.

وهكذا بالنسبة إلى ساير عوالمه الآتية والنعم الظاهرة، وما أنعمه الله به عليه من لوازم وجوده، وما به رفع حاجاته المادية بأنواعها، وهي أكثر من أن تحصى.

وهذا بالنسبة إلى جميع الموجودات، فإن لها جهتين ظاهرة وباطنة، ففي كل منهما لها ألطاف منه تعالى بها قوام أمره.

وكيف كان فجميع تلك الألطاف يصل إليها بواسطتهم عليهم السلام فهم فيها أولياء النعم.

وقد يقال: إنّ النعمة الباطنة هي العقول، والظاهرة هي الأنبياء والرسل، أي علومهم ومعارفهم، التي وصلت منهم إلينا كما ورد التفسير بهما في قوله تعالى: ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾.

ثم إنه يدخل في النعم الباطنة جميع علوم القرآن وما للأئمة عليهم السلام وما منحه الله للأولياء من العقول، التي بها تحصل المعارف، والتميز بين الجيد والرديء والخير والشر، والناصح والغاش، والمصلح والمفسد، والضارّ والنافع في العاجل وفي الآخرة.

وهذه العقول لحظات وعنايات من الولي، ومناداة للمكلفين من جانب العقل الأول المحيط وهو حقيقتهم، وهذه هي أعظم نعم الله تعالى على أهل المعرفة، ومن لم يخالف مقتضياتها، بل هذا هو النور الذي يمشي به المؤمن في ظلمات النفوس من شهواتها، وغواسق إنياتها، وظلمات الطبايع، والمواد الجسمانية.

وإلى هذا النور أُشير في قوله عليه السلام في حديث رواه في الكافي بإسناده عن أبي خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: **﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾**[1] فقال: «ياأبا خالد النور والله الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة، وهم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السماوات والأرض، والله ياأبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين، ويحجب الله نورهم عمّن يشاء فيظلم قلوبهم، والله ياأبا خالد لا يحبنا عبد ويتولانا حتى يطهر الله قلبه، ولا يطهر الله قلب عبد حتى يسلم لنا، ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر».

فظهر أن العقل الكامل وما للمؤمن من المعارف إنما يكون لهم بواسطتهم ومن نورهم، وإليه يشير أيضاً ما رواه في الكافي الاثنان عن الوشا عن أحمد بن عمر، قال: سألت أبا الحسن عليه السلام لِمَ سمّي أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: «لأنه يميرهم العلم، أما سمعت في كتاب الله: **﴿ونمير أهلنا﴾**».

وفيه، وفي رواية أخرى قال: «لأن ميرة المؤمنين من عنده يميرهم العلم».

أقول: «الميرة» الطعام.

وفي رواية، قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام «لما أخذه بيده بعدما قرأ أمير المؤمنين عليه السلام آيات من سورة «المؤمنون» قال صلى الله عليه وآله: قد أفلحوا بك أنت أميرهم تميرهم العلم» (أي تطعمهم العلم).

هذا إذا كان أمير مشتقاً من المور (بمعنى الطعام) لا من الإمارة بمعنى الآمرية، فالاشتقاق حينئذ معنوي أي الاشتقاق الأعظم لا لفظي فإن أمر مهموز الفاء، **وَمَوَر معتل العين، كما لا يخفى فتدبر تعرف.**

---

١ ـ التغابن: ٨.

ويدخل في النعم الظاهرة بعد إرسال الرسل تأمير الأوصياء، واستحفاظ الحفظة، واستخلاف الخلفاء من الأوصياء، وإنابة العلماء عموماً أو خصوصاً، وإقامة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والمعلمين والمرشدين للمسترشدين في السلوك إليه تعالى وكذلك جميع الدعاة إلى الله تعالى.

فجميع هذه الأُمور نعم الله تعالى تكون للخلق من الولي المطلق، وهي آثاره التي اقتضى لطفه بالمكلفين ذلك، فالألطاف منهم تصل إلى الناس على طبقاتهم.

فجميع الموجودات من الأرواح والنفوس، والأشباح والأجسام، وما لها من التكاليف والشرعيات للمكلفين كلها من نعمهم عليهم السلام وجميع الكائنات رشحة من فيوضاتهم.

وإلى الكل يشير ما ورد في أُصول الكافي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال: «إنه لينزل في ليلة القدر إلى ولي الأمر تفسير الأمور سنة سنة، يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا، وفي أمر الناس بكذا وكذا، وانه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله عزوجل الخاص والمكنون العجيب المخزون، مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر.

ثم قرأ: **﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾**[1]».

وعن كتاب الاحتجاج للطبرسي سأل يحيى بن أكثم أبا الحسن العالم عن قوله تعالى: **﴿سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾** ما هي؟ فقال: «هي عين الكبريت، وعين اليمن، وعين البرهوت، وعين الطبرية، وحمة ما سيدان، وحمة أفريقية، وعين بلعوران ونحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا، ولا تستقصى»، الحديث.

وفي الأحاديث كثيراً ما أطلقت الكلمات على الأئمة عليهم السلام فتحصل من الجميع:

---

١ ـ لقمان: ٢٧.

أن الأخيار والخيرات الصادرة منهم، والصالحين والأعمال الصالحة الصادرة منهم، كلّها من كرمهم وإحسانهم، وفواضل طاعاتهم وحسناتهم، وذلك كله من شؤون ولايتهم وهم أولياء ذلك كله.

ثم إن من المعلوم كما علمت أن للإنسان عوالم يحتاج فيها إلى فيضه تعالى، وهو فيها غير قادر على قبول الفيض منه تعالى بلا واسطة إما لقصوره في عوالمه قبل الدنيا، وإما لبعده ومحجوبيته **عنه تعالى كما في عالم الدنيا، فهو لا محالة يحتاج** إلى واسطة بينه وبين خالقه.

ولعل إليه يشير ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الغدير، في ذكر النبي البشير النذير قال صلى الله عليه وآله: «وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، استخلصه في القدم على ساير الأمم على علم منه، انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس، وانتجبه آمراً وناهياً، أقامه في ساير عالمه في الأداء مقامه، إذ كان لا تدركه الأبصار، ولا تحويه خواطر الأفكار، ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار»، الخطبة.

فإن قوله عليه السلام: «أقامهُ في ساير عالمه.. الخ» يشير إلى ما ذكرنا من أنه سبحانه وتعالى جعلهم، وكذلك الأئمة بدليل الاشتراك في جميع الأمور (سوى النبوة) في مقام، وهو أنه لا يصل الفيض إلى أحد إلّا بواسطتهم.

فما يريد تعالى أن يصل من جوده إلى أحد فهو بواسطتهم كما لا يخفى، وسيجيء في شرح قوله عليه السلام: «إن ذكر الخير كنتم أصله وفرعه.. الخ» ما يزيد هذا وضوحاً، إن شاء الله تعالى.

قوله عليه السلام: وعناصر الأبرار.

في المجمع: العنصر الأصل والنسب والجمع العناصر، وفيه: البر (بالفتح) البار قوله تعالى: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم**﴾ الأبرار أولياء الله المطيعون في الدنيا لفي نعيم، وهو الجنة، إلى أن قال: وجمع البر أبرار، وكثيراً ما يخصّ الأولياء والزهاد والعباد.

أقول: «البر» **ـأي فاعل البرّ** (بالكسر) وهو بارّ يطلق على ما ذكر وعلى الملائكة، ومنه قوله تعالى: ﴿**كرام بررة**﴾ وبررة جمع بار، فالأبرار يعمّ الآدميين والملائكة، وتخصيص الأبرار بالآدميين والبررة بالملائكة لا وجه له، كما لا يخفى.

وأما العناصر فهو جمع عنصر وهو بمعنى الأصل، وهذا هو المراد منه هنا، ويستعمل بمعنى النسب، ومنه في وصف النبي ﷺ: لا يخالطه ﷺ في عنصره سفاح، أي لا يخالطه ﷺ في نسبه زنا.

وإنما أطلق على النسب العنصر لأن النسب أصل الإنسان.

ثم إن المراد من الأبرار لمكان الجمع المحلّى بالألف واللام، هو عموم أولياء الله المطيعين والزهاد والعباد، وكل فاعل للخيرات، والمطهرون من الكبائر من الآدميين والملائكة.

فحينئذ معنى كونهم عليهم السلام عناصر لهؤلاء على **معنيين**.

المعنى الأول: أنهم عليهم السلام أصل لكل من الأبرار (أي شيعتهم) من الأنبياء والمرسلين والأوصياء، وعباد الله الصالحين، والملائكة بلحاظ خلق أرواحهم؛ لأن أرواح هؤلاء خلقت من شعاع أرواحهم عليهم السلام، ولذا سمّي هؤلاء بالشيعة، فإن الشيعة من كان من شعاعهم عليهم السلام أو من مشايعتهم كما سيجيء قريباً، وسيجيء في الشرح إن شاء الله أن أرواح الأنبياء والمرسلين خلقت من فاضل شعاع أرواحهم، وأن أرواح الأوصياء خلقت من فاضل طينة صورهم المثالية، وأن أرواح المؤمنين من شيعتهم خلقت من فاضل طينتهم.

ففي الكافي بإسناده عن محمد بن مروان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن الله خلقنا من نور عظمته، ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه، فكنا نحن خلقاً وبشراً نوارنيين، لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيباً، وخلق أرواح شيعتنا من طينتا، وأبدانهم من طينة

مخزونة أسفل من تلك الطينة، ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيباً إلّا للأنبياء، ولذلك صرنا نحن وهم الناس، وسائر الناس همجاً للنار وإلى النار».

أقول: المراد بالنّاس:

أولاً: الناس بحقيقة الإنسانية.

وثانياً: ما يطلق عليه الإنسان في العرف العام.

وكيف كان فظاهر الحديث الشريف أن حقيقة أرواحهم عليهم السلام من نور عظمة الله تعالى.

وقوله: ثم صور خلقنا، إشارة إلى خلق أجسامهم النورانية وأمثالهم الصورية، التي هي كالجسد بالنسبة إلى ذلك النور.

وهذا (أي الخلق المثالي الصوري) هو المراد من قوله عليه السلام: «وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا»، فالشيعة خلقوا من فاضل هذه الطينة المعبّر عنها بقوله: «ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة تحت العرش».

وقوله عليه السلام: «ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيباً إلّا للأنبياء»، ظاهر في أن الشيعة لم يشاركهم في تلك الطينة إلّا الأنبياء عليهم السلام فهم في عرضهم في مقام الطينة.

وكيف كان فهم عليهم السلام أصل لخلق الشيعة والأنبياء كما لا يخفى.

وفيه، بإسناده عن أحمد بن علي بن محمد بن عبدالله بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله كان إذ لا كان فخلق الكان والمكان، وخلق الأنوار، وخلق نور الأنوار، الذي نوّرت منه الأنوار، وأجرى فيه من نوره، الذي نوّرت منه الأنوار، وهو النور الذي خلق منه محمداً وعليّاً، فلم يزالا نورين أولين، إذ لا شيء كوّن قبلهما فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبدالله وأبي طالب عليهما السلام».

فقوله عليه السلام: «وخلق نور الأنوار الذي نوّرت منه الأنوار»، ظاهر في أن جميع

المخلوقات النورانية خلقت من هذا النور الذي خُلق منه محمدٌ وعليٌ.

فالملائكة والأنبياء والمرسلون والشيعة، وكل من فيه شائبة نور الإيمان، خلق من هذا النور، الذي هو خَلق منه محمداً وعلياً عليهما السلام كما لا يخفى.

فقوله عليه السلام: «الذي خلق منه محمداً وعليّاً»، لا يراد البعضية من قوله منه؛ ليكون ساير المخلوقات النورانية في عرض خلق محمد وعلي، بل المراد منه البيان، أي أن ذلك النور هو نور محمد وعلي عليهما السلام.

ويدل على هذا ما رواه في الكافي بإسناده عن جابر بن يزيد قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «ياجابر إن الله أول ما خلق خلق محمداً وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظلّ النور أبدان نورانية بلا أرواح، وكان مؤيداً بروح واحدة وهي روح القدس، فبه كان يعبد الله وعترته، ولذلك خلقهم حلماء علماء بررة أصفياء يعبدون الله بالصلوة والصوم، والسجود والتسبيح والتهليل، ويصلون الصلوات ويحجون ويصومون».

فقوله عليه السلام: «أول ما خلق خلق محمداً صلى الله عليه وآله» ظاهر في أن الخلق الأول هو نوره صلى الله عليه وآله ومثله كثير في الأحاديث كما لا يخفى.

وكيف كان فدلّت هذه الأحاديث على أنهم أول الخلق، وأنهم خلقوا من نور عظمته، وأن جميع من سواهم خلقوا منهم على التفاصيل والمراتب المذكورة في الأحاديث.

فهم عليهم السلام أصل الأبرار من كل من سواهم، فمادة وجود من سواهم من فاضل نور محمد صلى الله عليه وآله وعلي والأئمة عليهم السلام.

وعن الصادق عليه السلام: «ان الله خلق المؤمنين من نوره، وصبغهم في رحمته، فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمّه أبوه النور وأُمّه الرحمة».

وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمه؛ لأن الله تعالى خلق المؤمنين من طينة الجنان، وأجرى في

صورهم من ريح الجنة؛ فلذلك هم أخوة لأب وأُمّ».

فقوله عليه السلام: «من طينة الجنان»، يشير (والله العالم) إلى ما تقدم من الطينة المخزونة، التي خلقت منه أجسامهم المثالية.

وفي بصائر الدرجات[1] بإسناده عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك، هذا الحديث الذي سمعته منك ما تفسيره؟ قال: وما هو؟ قال: «إن المؤمن ينظر بنور الله، فقال: يامعاوية إن الله خلق المؤمنين من نوره، وصبغهم في رحمته، وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية علىٰ معرفته يوم عرّفهم نفسه، فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمّه، أبوه النور وأمه الرحمة، وإنما ينظر بذلك النور الذي خلق منه».

ومثله حديث سليمان الجعفري فيه أيضاً بتفاوت يسير.

فهم عليهم السلام أصل الأبرار في الخلقة الروحية كما لا يخفى.

المعنى الثاني: لكونهم عليهم السلام عناصر الأبرار: إن جميع الخلق إنما نجا من نجا منهم بولايتهم والتسليم لهم، والأئتمام بهم، وإنما هلك من هلك بتركهم الولاية.

ففي الظاهر أن الأبرار إنما كانوا أبراراً؛ لأنهم تولّوا بهم، وتبرّأوا من أعدائهم، وأحبوهم، وأطاعوهم، واتبعوهم في طريقتهم، وردّوا الأمر إليهم، وسلّموا لهم فيما علموا، وما لم يعلموا، فبذلك كانوا أبراراً، فالأئمة عليهم السلام حينئذ أصل لهدايتهم ولكونهم وصيرورتهم أبراراً.

بل تقدم في معنى كونهم حفظة وروّاداً أنه في الحقيقة إنما قبل الأبرار هذه الأُمور المذكورة، التي بها صاروا أبراراً؛ لأنهم عليهم السلام أوردوهم ذلك، وهم عليهم السلام ذادوهم، عن الخلاف وهم عفوا عن تقصيرهم وسدّدوهم عن الخلل، وثبتوهم عن الزلل.

فالأبرار نالوا الخير بتيسيرهم وتحبيبهم الإيمان إليهم، وتزيينه في قلوبهم،

---

١ ـ بصائر الدرجات ص ٨٠.

وتكريههم الكفر والفسوق والعصيان، فهم عليهم السلام أصل ما برّ به الأبرار، بل هم عليهم السلام أبرّوا الأبرار أي جعلوهم أبراراً بأمر الله تعالى، أو أنهم عليهم السلام حكموا عليهم ببرهم أنهم أبراراً، وأنهم عليهم السلام أدلاء العباد على البرّ، فكان المتبعون هم العاملون بما دلّوا عليه أبراراً، حيث إنهم عليهم السلام أبرّوا نفوسهم المقدسة لتبرّ شيعتهم باتباعهم إياهم، أو أنهم عليهم السلام نبهوهم إلى البرّ أو ساقوهم إليه.

ففي جميع ذلك أنهم عليهم السلام الأصل في ذوات الأبرار وصفاتهم وأفعالهم، فلا مصداق للبرّ إلّا ما هو منهم عليهم السلام.

وإلى ما ذكرنا تشير عدة روايات: منها ما تقدم عن الكافي رواية أحمد بن عمر في تسمية أمير المؤمنين.. إلى أن قال عليه السلام: «لأنه يميرهم العلم».

ولا ريب في أن العلم والمعارف أصل لكون الإنسان بارّاً.

ومنها رواية أبي خالد الكابلي المتقدمة عن الكافي من قوله عليه السلام: «وهم والله ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله نورهم عمّن يشاء، فيظلم قلوبهم والله ياأبا خالد لا يحبنا عبد ويتولانا حتى يطهر الله قلبه، ولا يطهر الله قلب عبد حتى يسلم لنا، ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلماً لنا سلمه الله من شديد الحساب، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر».

فهذا صريح في أن محبتهم وولايتهم سبب لأن يطهر الله القلب، وأن ظلمة القلب إنما هي بعدم هذا النور في القلب كما لا يخفى.

ومنها ما في الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكلّ قوم هاد﴾ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله «المنذر ولكل زمان منا هاد يهديهم إلى ما جاء به نبي الله صلى الله عليه وآله ثم الهداة من بعده عليّ ثم الأوصياء واحد بعد واحد».

فالهداية التي هي سبب البر إنما هي منهم عليهم السلام.

ومنها: ما في بصائر الدرجات بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزوجل: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست

بربكم﴾[1] قال: «أخرج الله من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة كالذر، فعرفهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه، وقال: ألست بربكم قالوا: بلىٰ، وإن هذا محمد رسولي صلى الله عليه وآله وعلي أمير المؤمنين عليه السلام».

وفيه وفي الكافي بإسناده عن بكير بن أعين قال: كان أبو جعفر عليه السلام يقول: «إن الله أخذ ميثاق شيعتنا بالولاية لنا، وهم ذر يوم أخذ الميثاق على الذّر، والاقرار له بالربوبية، ولمحمد صلى الله عليه وآله بالنبوة، وعرض الله على محمد أمته في الطين، وهم أظلة وخلقهم من الطينة التي خلق منها آدم وخلق الله أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بالفي عام وعرضهم عليه وعرفهم رسول الله وعرفهم علياً ونحن نعرفهم في لحن القول».

ومنها: ما في البحار عن تفسير القمي بإسناده عن عبدالله بن جندب قال: كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام.. إلى أن قال عليه السلام: «إن شيعتنا لمكتوبون بأساميهم وأسامي آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا، ويدخلون مدخلنا»..

إلى أن قال: «نحن آخذون بحجزة نبيّنا، ونبيّنا آخذ بحجزة ربنا، والحجزة النور، وشيعتنا آخذون بحجزتنا، مَن فارقنا هلك ومن تبعنا نجا»..

إلى أن قال: «نحن نور لمن تبعنا، وهدى لمن اهتدى بنا، ومن لم يكن منا فليس من الإسلام في شيء»، الحديث بطوله.

وفي البحار عن مشارق الأنوار،أمالي الشيخ ص١٤٦، بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «ياعلي أنت الذي احتج الله بك على الخلائق، حين أقامهم أشباحاً في ابتدائهم، وقال لهم: ﴿ألست بربكم قالوا: بلىٰ﴾ فقال: ومحمد نبيكم؟ قالوا: بلىٰ، قال: وعلي إمامكم؟ قال: فأبى الخلق جميعاً عن ولايتك، والإقرار بفضلك، وعتوا عنها استكباراً إلّا قليلاً منهم، وهم أصحاب اليمين، وهم أقل القليل وإن في السماء الرابع ملك يقول في تسبيحه: سبحان من دلّ

---

١ ـ الأعراف: ١٧٢.

هذا الخلق القليل من هذا العالم الكثير على هذا الفضل الجليل».

ومنها: ما روي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل.. إلى أن قال عليه السلام: «كانوا نوراً مشرقاً حول عرش ربهم، فأمرهم فسبّحوا، فسبّح أهل السماوات بتسبيحهم، ثم أهبطوا إلى الأرض، فأمرهم فسبّحوا، فسبّح أهل الأرض بتسبيحهم، فإنهم لهم الصافون، وأنهم لهم المسبّحون، فمن أوفى بذمتهم فقد أوفى بذمة الله، ومن عرف حقهم فقد عرف حق الله تعالى»..

إلى أن قال عليه السلام: «وجعلهم نوراً في الظلم للنجاة، اختصهم لدينه، وفضلهم بعلمه، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، وجعلهم عماداً لدينه، ومستودعاً لمكنون سرّه، وأمناء على وحيه، ونجباء من خلقه، وشهداء على بريته، إختارهم الله وحباهم، وخصّهم واصطفاهم، وارتضاهم وانتجبهم وانتقاهم، وجعلهم للبلاد والعباد عمّاراً وأدلاء للائمة (للأُمة) على الصراط، فهم أئمة الهدى والدعاة إلى النفوس»، الحديث.

فالمستفاد من هذه أن الخلائق في عالم الذر كانوا سواء في التكليف، بمعنى أن كل واحد منهم متمكن من الاستجابة والامتناع؛ لما خلق الله فيهم من الاختيار على اختلاف مراتبهم في القرب والبعد منه تعالى، وكانوا أيضاً سواء في الظلمة والنور، ثم بعد الدعوة في عالم الذر بما علمت منه تعالى ومن محمد وآله عليهم السلام هم للإقرار بالتوحيد والنبوة والولاية، فمن أجاب بقلبه ولسانه، وعمل بما أمر به بجوارحه وأركانه، فهم حينئذ أبرار بذلك الإقرار والقبول والعمل، والسابقون منهم صاروا مقربين، والذي أنكر منهم ذلك صار إلى النار والجحيم.

فالأبرار إنما صاروا كذلك بالاقرار بولايتهم عليهم السلام فهم حينئذ عناصر الأبرار، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: ودعائم الأخيار.

الدعامة: (بالكسر) عماد البيت الذي يقوم به والجمع دعائم، وفي الدعاء «أسألك باسمك الذي دعمت به السماوات فاستقلت» أي أسندت به السماوات من الدعامة، وهي ما يسند به الحائط إذا مال يمنعه السقوط.

وفي الحديث: لكل شيء دعامة ودعامة الإسلام الشيعة.

وفيه: دعامة الإنسان العقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، فإذا كان تأييده من النور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً.

فيعلم من موارد استعماله أن الدعامة ما يسند إليه الشيء، بحيث يكون به قوامه سواء أكان أمراً خارجياً أم معنوياً كالإسلام ونحوه.

والأخيار جمع خيّر (بالتشديد) وهو الذي صلحت أعماله بعدما صلح دينه وجبلته.

فمعنى الجملة حينئذ أن الأئمة عليهم السلام هم دعائم الأخيار، أي أن الأخيار أسندوا إليهم بحيث يكون قوامهم وتحققهم واتصافهم بكونهم أخياراً مستنداً إليهم عليهم السلام بحيث لولاهم لما كانوا أخياراً.

فالأئمة عليهم السلام جعلوا الأخيار أخياراً إما باتباع الأخيار لهم في الأمور الخيرية، فاكتسبوها منهم عليهم السلام بالاتباع. وإما لأنهم سلكوا بهم مسالك الخير فصاروا أخياراً. وإما أنهم عليهم السلام أشرقوا عليهم من نورهم ومعارفهم الربانية، فصاروا أخياراً، وعلى أيّ حال يكون الخير فيهم مستنداً اليهم ومأخوذاً منهم عليهم السلام.

وتحقيق الحال يقتضي بسطاً في المقام، فنقول وعليه التوكل: الأخيار جمع خيّر وهو من اتصف بالخير، وهو بإطلاقه منصرف إلى الكامل أو الأعم منه ومن المراتب النازلة له. فالفرد الكامل منهم إذا كان مستنداً إليهم عليهم السلام وهم دعائمه فباقي المراتب بالأولى.

ثم إن الخيّر الكامل لا يكون إلّا مستنداً إليهم في جميع مظاهر الخير الذي

اتصف به، والمظاهر المتصورة للخير المطلق تكون أربعة: التوحيد والنبوة والإيمان وفيه الصفات الحميدة وقبول الأعمال، ففي هذه الأمور يكون الولي بما هو ولي، أو لاولياء بما هم أولياء دعائمها.

ثم إن هذه الأمور الأربعة يقع الكلام فيها من جهتين:

الأولى: في بيان علمها بحيث تظهر حقائقها على ما هي عليه في الواقع.

والثانية: في بيان تحقق حقائقها وكيفية الاتصاف والاشتمال بها.

أما الأولى: فيبيّنها بأجمعها الأحاديث الواردة عنهم في كل موضوع منها، بحيث تتبين لنا حقائقها علماً على ما هي عليها، وهي مذكورة في كل باب متعلق بأحدها، ولكن نحن نذكر أحاديثاً يبين بنحو الأجمال أن علم ذلك إنما هو عندهم عليهم السلام فلا بد من تلقيه منهم فقط.

وأما الثانية: أعني بيان تحقق تلك الحقائق، وكيفية الاتصاف بها، فنذكرها واحداً واحداً، فهٰهنا مقامان:

الأول: في بيان أن علم تلك الأمور عندهم عليهم السلام فقط، وأن علم كل أحد فيها إنما هو صادر منهم، فهم دعائم علم الاخيار في علوم تلك الأُمور الأربعة.

والثاني: في بيان تحقق تلك الأمور في أحد، وأنها منهم وهم دعائمها فنقول:

أما المقام الأول: قد علمت سابقاً أن مستقى العلم عندهم عليهم السلام كما تقدم الحديث عن الكافي عن صاحب الديلم.

وفيه أيضاً بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ليس عند أحد من الناس حقّ ولا صواب، ولا أحد من الناس يقضي بقضاء حق إلّا ما خرج منا أهل البيت، وإذا تشعبّت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصواب من علي عليه السلام».

أقول: وحيث إن جميع العلوم في جميع الأمور عندهم، قال أمير المؤمنين عليه السلام على ما صحّ عنه عند الفريقين من قوله عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني».

وفيه بإسناده عن أبي مريم قال: قال أبو جعفر عليه السلام لسلمة بن كهيل، والحكم بن عتيبة: «شرّقاً وغرّباً فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت».

وفي بصائر الدرجات وغيره بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام جالساً فجاءه رجل فقال له: ياأمير المؤمنين **﴿وعلى الأعراف رجال يَعرفون كلاً بسيماهم﴾**[1]؟ فقال له: «نحن على الأعراف، نحن نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذي لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف نوقف يوم القيامة بين الجنة والنار، فلا يدخل الجنة إلّا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه، وذلك بأن الله تبارك وتعالى لو شاء لعرف الناس نفسه حتى يعرفوه ويوحدوه، ويأتوه من بابه، ولكنا جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه».

وفيه بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزوجل: **﴿وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾**[2] قال: «هو والله علي عليه السلام الميزان والصراط».

أقول: فعلم من هذه الأحاديث أن العلم والمعرفة بالله تعالى، ولساير أمور الدين إنما هو منهم عليهم السلام فالأخيار بلحاظ العلم إنما هم أخيار، إذا كان علمهم عنهم عليهم السلام فهم دعائمهم في علم ذلك[3].

وأما المقام الثاني: أعني بيان أن تحقق تلك الأمور الأربعة من التوحيد والنبوة والايمان وما له من الصفات الحميدة وقبول الأعمال، التي بها تحقق كونهم أخياراً، إنما يكون منهم عليهم السلام وهم دعائمها بحيث لا يتحقق في أحد إلّا بهم فيتضح في

---

١ ـ الأعراف: ٤٦.

٢ ـ الأنعام: ١٥٣.

٣ ـ وتقدم ما يدل على هذا بل وما يوضحه فراجع.

أمور أربعة:

الأول: في أن التوحيد الوجداني والحضوري لكل أحد إنما هو بهم عليهم السلام فبيانه أن للتوحيد **مراتب**:

□ توحيد الذات.

□ توحيد صفاته تعالى.

□ توحيد الأفعال، فنقول:

لا ريب في أن البرهان العلمي بحيث يحصل التصديق بهذه، إنما هي بما صدر منهم عليهم السلام في بيانه كما علمت، وقد شرحه العلماء مفصلاً في كتب الكلام.

وإنما المقصود هنا بيان أن وجدان هذه الأمور لأحد إنما هو بهم عليهم السلام ومنهم وإليهم.

وحاصله: أنه قد علمت ما في الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث معاوية بن عمار عنه من قوله عليه السلام: «نحن والله الأسماء الحسنى، التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا»، وعلمت أنه تعالى إنما يعرف نفسه بأسمائه، فأسماؤه التي ترجع إلى صفاته تعالى كما تقدم هي ذواتهم المقدسة، التي هي مظاهر وحدانيته تعالى، وعلمت أن الولاية باطن النبوة، وهي مظهر التوحيد والوحدانية، حيث إن ولايتهم ولاية الله كما صرح به في كثير من الأخبار.

ومن أصرحها وأدلها على ذلك ما في الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿**هنالك الولاية لله الحق**﴾[1] قال: «ولاية أمير المؤمنين عليه السلام».

فإنه عليه السلام بين أن ولاية الله هي ولاية علي عليه السلام ولا ريب في أنه تعالى بولايته يفعل ما يشاء في الخلق الذي منه تعرّفه لعباده، فتعرّفه لهم إنما هو بعلي أمير المؤمنين عليه السلام.

---

١ ـ الكهف: ٤٤.

وتقدم قول الحجّة عليه السلام في دعاء رجب: «فجعلتهم معادن لكلماتك، وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك، التي لا تعطيل لها في كل مكان، يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك»، إلى قوله عليه السلام: «فبهم ملأت سماءَك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلّا أنت»، الدعاء.

فقوله «عج»: «يعرفك بها من عرفك»، وقوله «عج»: «لا فرق بينك وبينها».. الخ، ظاهر فيما قلنا من أنهم منشأ المعرفة وأصلها في المظاهر، وأنهم عليهم السلام مظاهر التوحيد خصوصاً قوله عليه السلام: «حتى ظهر أن لا اله إلّا أنت».

ومن المعلوم أن كل موحد في كل مكان وزمان، إنما يكون توحيده منهم، ومما منحوه له حيث إنهم عليهم السلام بما هم أركان التوحيد، ولا تعطيل لهم في كل مكان، فلا محالة لا ظهور للتوحيد في أحد إلّا بهم عليهم السلام وهذا هو المقصود من كونهم دعائم توحيد الأخيار.

ولعل إلى هذا كله يشير قول علي عليه السلام فيما تقدم: «لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا»، حيث إنه عليه السلام انحصرت معرفته تعالى بسبيل معرفتهم وطريقهم الواقعي لذلك، فتأمل.

وإليه يشير قول الحجة «عج» كما في تفسير نور الثقلين عن الخرائج والجرائح عن القائم «عج» حديث طويل فيه يقول لكامل بن إبراهيم المدني: «وجئت تسأل من مقالة المفوضة كذبوا، بل قلوبنا أوعية لمشية الله عزوجل، فإذا شاء شئنا والله يقول: ﴿وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله﴾».

فيعلم منه أن قلوبهم عليهم السلام أوعية مشيته تعالى، ومن المعلوم أن ظهور التوحيد لأحد إنما هو بمشيته تعالى وهي لا تكون إلّا فيهم عليهم السلام.

وكيف كان فحقيقة التوحيد هو تنزيهه تعالى عن الشريك في ذاته وصفته وفعله وعبادته، ولا تكون إلّا بما بينوه وأسّسوه، ودلّوا عليه بذواتهم المقدسة دلالة موصلة للمطلوب.

في الكافي عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله تعالى خلقنا فأحسن خلقنا، وصورنا فأحسن صورتنا، وجعلنا خزّانه في سمائه وأرضه ولنا نطقت الشجر وبعبادتنا عبدالله، ولولانا ما عبد الله».

فبهم عليهم السلام عبدالله بحيث لولاهم ما عبد الله.

فهم عليهم السلام أركان التوحيد وسبيله، وبابه الذي يؤتى منه، أي من ولايتهم، وهم المعلنون والواصفون للخلق التوحيد بما لهم من الولاية الإلهية. ومن المعلوم أن الشيء لا يتقوم إلّا بأركانه.

وإلى جميع هذه يشير قوله تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[1].

في تفسير البرهان بإسناده عن عبدالله بن بكر الأرجاني عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال: يقول الله: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾** «فأيّ آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق؟!».

فالتوحيد الذي أُشير إليه بقوله تعالى: **﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾** إنما هو بإراءته تعالى آياته في الأنفس لكي يظهر ذلك.

فقوله عليه السلام: «فأيّ آية غيرنا» الخ، معناه: أنه أيّ آية تكون غيرنا سبباً لظهور التوحيد والحق للخلق، فهم حينئذ تلك الآيات التي بها تبين الحق، فهم عليهم السلام محتاجون إليه تعالى، ومن دونهم يحتاج إليهم في كل شيء بما أغناهم الله من نفسه، فهم مظاهر غناه تعالى ومنشأ الألطاف.

فظهر أنهم عليهم السلام دعائم توحيد الأخيار، أعني التوحيد الظهوري والوجودي والحضوري.

ومجمل القول: أنه لا يظهر التوحيد إلّا في الروح المجرد الفاني عن حدوده الواله في خالقه، وهذا لا يكون إلّا فيهم عليهم السلام. ومن اتصف بهذه الصفات ترشح من نور

---

١ ـ فصّلت: ٥٣.

توحيدهم فيه.

وبما هم عليهم السلام أقرب الموجودات إليه تعالى أزلاً وفعلاً وأبداً، فهم السابقون المقربون، وما سواهم في دون مرتبتهم، فلا يكاد يظهر في أحد التوحيد إلّا منهم عليهم السلام لمكان القرب والأقدمية في الوجود.

هذا قطرة من بعض علوم التوحيد ونسأل الله تعالى بهم عليهم السلام أن يمنحونا من أنوار توحيدهم ومعارفهم.

ولهذا الكلام توضيح لا يكتب بل يبيّن بلسان الحال والأُنس من أهله عند أهله، خذه واُكتمه واغتنم والله الهادي.

وأما النبوّة: فقد تقدم أن باطنها الولاية فهي قائمة بها، فالولاية التي هي باطن النبوة، هي منشأ إرسال الرسل كلّهم، وهي أولاً وبالذات له تعالى، قال تعالى: ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾.

ومظهر هذه الولاية هو الأولياء، فأول المظاهر قلب النبي الأعظم الذي فيه ذلك التجلي الأعظم، ثم انتقل إلى الأئمة عليهم السلام فولاية النبي والأئمة عليهم السلام مظاهر لولايته تعالى.

وإليه تشير أحاديث كثيرة من قوله عليه السلام كما في بصائر الدرجات وغيره: ولايتنا ولاية الله.

ففي بصائر الدرجات بإسناده إلى أبي بصير قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «ولايتنا ولاية الله، التي لم يبعث الله نبياً قط إلّا بها»، ومثله غيره.

فهم عليهم السلام مظاهر ولاية الله في الخلق، فعن هذه الولاية الظاهرة أرسل الرسل، وبعث الأنبياء كما روي عنه صلى الله عليه وآله: «بعثت على الأنبياء في الأظلة».

وتقدم عن المفضل عن الصادق عليه السلام أنه قال: «أما علمت أنه تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله وهو روح إلى الأنبياء، وهم أرواح، فدعاهم إلى توحيده.

كيف وقد علمت: أن قلوبهم (أي أرواحهم المقدسة) أوعية لمشية الله تعالى،

ومعلوم أن كل شيء (منها إرسال الرسل) يكون بالمشية كما لا يخفى، هذا وقال الله تعالى: **﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾**[1]».

فعن عيون الأخبار بإسناده إلى ياسر الخادم عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «**ياعلي أنت حجّة الله، وأنت باب** الله، وأنت الطريق إلى الله، وأنت النبأ العظيم، وأنت الصراط المستقيم، وأنت المثل الأعلى».

وعن عبدالله بن عباس قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله فينا خطيباً، فقال في آخر خطبته: «نحن كلمة التقوى، وسبيل الهدى، والمثل الأعلى، والحجة العظمىٰ، والعروة الوثقى»، الخطبة.

ومعلوم أن المثل الأعلى من يكون جميع أفعاله في الخلق قائماً به، ومبيناً لأفعاله تعالى مطلقاً كما هو شأن المثل (بالتحريك).

فتحصل أن نبوة الأنبياء تكون من ولاية النبي والأئمة عليهم السلام **فهم دعائم الأنبياء في نبوّتهم**، وهي مأخوذة ومستندة إليهم عليهم السلام كما لا يخفى.

وأما الإيمان فإن له حقيقة تستقر في قلب المؤمن، وهو منه تعالى يكون في القلب، قال الله تعالى: **﴿أُولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾**.

فعن محاسن البرقي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «الإيمان في القلب واليقين خطرات».

ومن المعلوم أن نور الإيمان إنما هو من الإمام عليه السلام كما علمت في حديث أبي خالد الكابلي من قوله عليه السلام: «وهم والله ينورون قلوب المؤمنين»، الحديث.

فالإيمان إذا كان في القلب، فلا محالة يؤثر في الصفات والعمل الجوارحي، كما سيجيء تحقيقه مفصلاً **في وأبواب الايمان**.

وكيف كان فالأئمة عليهم السلام **دعائم إيمان الأخيار**، أي أن إيمانهم منهم عليهم السلام **فهم أصله**،

---

١ ـ الروم: ٢٧.

وأمّا لأنّ متعلق الإيمان سواء كان هو الله تعالى أو الرسول أو الأئمة عليهم السلام فـإنما هـو ببيانهم عليهم السلام وأنهم متعلق ذلك.

ومن المعلوم أن متعلق الشيء ومستقره الحقيقي كالأصل له، وأما قبول الأعمال فسيجيء في شرح قوله عليه السلام: «وبموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة»، إن الأعـمال لا تقبل إلّا بولايتهم وهي شرط القبول.

ومن المعلوم أن الشرط عماد المشروط، وسيجيء بيانه وتحقيقه، إلّا أنا نذكر حديثاً هنا يظهر به أصل المطلب.

ففيما أوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وآله ليلة المعراج أن قـال: «يـا محمّد وعـزتي وجلالي، لو أن عبداً عبدني حتى ينقطع، ويصير كالشن البالي، ثم أتـاني جـاحداً لولايتهم، لم أُدخله جنتي ولا أظلّه تحت عرشي»، الحديث. وسيأتي بتمامه مع غيره إن شاء الله تعالى.

قوله عليه السلام: وساسة العباد.

في المجمع: سست الرعية سياسة أمرتها ونهيتها، وساس زيد سياسة أمر وقام بأمره من السياسة، وهو القيام على الشيء بما يصلحه، وساسة جمـع سـائس أي القائم على الشيء بما يصلحه، والمدبّر لأُموره، والمربي له على كمال ما ينبغي.

وفيه: والعباد في الحديث والقرآن جمع عبد وهو خلاف الحر، والعـبيد مـثله، ويجمع أيضاً على أعبد وعبيد وعباد، إلى أن قال: والعبادة بحسب الاصطلاح هي المواظبة على فعل المأمور به، والفاعل عابد، والجمع عباد وعبده.

أقول: وأكثر ما يستعمل العباد جمعاً للعابد من العبادة، وأما العبيد فأكثر موارد استعماله في المماليك.

وأما العباد فيستعمل في المعنيين وهو وإن كان بمعنى خلاف الحر كما قيل إلّا أن المراد منه هنا العموم.

ولعلّه بلحاظ أن الجميع مملوك له تعالى، أو يراد منه من أقر بالعبودية اعتناء بهم دون غيرهم.

وكيف كان فهم عليهم السلام ساسة الخلق أجمع، فهيهنا **مقامان:**

المقام الأول: إعلم أن العبد له معنيان، أحدهما: المعنى المصطلح الشرعي وهو ما أشار اليه الصادق عليه السلام كما في مصباح الشريعة باب ١٠٠، وحروف العبد ثلاثة ع ب د ، فالعين علمه بالله والباء بونه عمّن سواه والدال دنو من الله تعالى بلا كيف وحجاب، الحديث.

ومن المعلوم أن هذه الدلالة اصطلاح منه عليه السلام وهذا في الحقيقة أيضاً أمر عرضي كما لا يخفى.

وكيف كان فالعبد بهذا المعنى مأخوذ من العبادة، ثم إن العبد وجمعه إذا نسب اليه تعالى فقيل: عبدالله وعباد الله، فلا شبهة لأحد في أن المراد منه حينئذ عبد رقّ، وعبد طاعة، وعبد عبادة أي من لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حيوة ولا نشوراً.

ومن زعم غير هذا حتى بالنسبة إلى الأنبياء والأوصياء عليهم السلام فهو مشرك كافر كفر الجاهلية الأولى، كما قيل في حق عيسى عليه السلام وردّهم الله تعالى بقوله: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾**[1].

ثم إن هنا كلاماً في كيفية كون العبد مخلوقاً له تعالى من حيث الوجود والماهية والخلق، وتأثير المشية فيه، فقد اضطربت كلمات الأصحاب في بيانه، ونحن نتركها خوفاً من عدم إصابة الحق فيه، بل نتبع ظاهر الشرع، ونسأل الله تعالى التوفيق والهداية إلى الحق، فهو الهادي إلى الحق المبين.

وإذا نسب إليهم عليهم السلام كما في بعض الزيارات: «عبدك وابن عبدك» يحتمل أن

---

١ ـ النساء: ١٧٢.

يكون هذا هو المراد من هذه الفقرة. «وساسة العباد» أي ساسة عبيدهم الذين تجب عليهم طاعتهم عليهم السلام.

فنقول: المحتمل لكوننا عبيداً لهم ثلاثة:

الأول: عبد طاعة وهذا مما لا خلاف فيه لأحد من الإمامية لقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾**(١).

في تفسير نور الثقلين عن احتجاج الطبرسي رحمه الله عن الحسين بن علي عليهما السلام له خطبة طويلة وفيها: «وأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عزوجل: **﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾** وقال: **﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلّا قليلاً﴾**(٢)».

ومثله أحاديث كثيرة في بيان تفسير هذه الآية، فإنها تدل على وجوب طاعتهم كوجوب طاعة الله ورسوله، ولا نعني بعبيد الطاعة إلّا هذا.

الثاني: كوننا عبيد رقّ لهم فيجري منهم عليهم السلام علينا أحكام العبيد مطلقاً، وهذا مما وقع النزاع فيه.

فذهب بعضهم إلى أنه ممنوع منه حتى أن بعضهم قال: لا يجب طاعة الإمام فيما يخالف حكمه (أي حكم الإمام) في الشرع، فلو أراد أن يصلي على الميت، وله وصي في ذلك، أو ولي، ولم يأذن الوصي أو الولي له لم يجز له عليه السلام التقدم في الصلوة بدون إذنه، بدعوى أن كونهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما سيأتي، إنما هو يدل على وجوب الطاعة لهم في الاحكام الشرعية، وما يرتبط بها كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يتعلق بمصالحهم.

---

١ ـ النساء: ٥٩.

٢ ـ النساء: ٨٣.

وهذا كلام فاسد وخطأ فاحش لا يلتفت اليه، والوجه فيه هو ما ذهب اليه كثير من أهل العلم والمعرفة من أنهم عليهم السلام كما دلّ عليه النقل والعقل أولى بالمؤمنين من أنفسهم بالأولوية، التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله ويدل عليه قوله تعالى: **﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾**[1].

في تفسير البرهان محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزوجل: **﴿النبيّ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أُمهاتهم وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾**[2].

فقال: «نزلت في الامرة إن هذه الآية جرت في ولد الحسين عليه السلام من بعده، فنحن أولى بالأمر وبرسول الله من المؤمنين والمهاجرين والأنصار»، الحديث.

وفيه، عن علي بن إبراهيم في قوله تعالى: **﴿النبيّ أولى المؤمنين من أنفسهم وأزواجه أُمهاتهم﴾** قال: «نزلت وهو أب لهم، ومعنى أزواجه أمهاتهم، فجعل الله المؤمنين أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وجعله صلى الله عليه وآله أباً لهم، ثم لمن لم يقدر أن يصون نفسه، ولم يكن له مال، وليس له على نفسه ولاية، فجعل الله تبارك وتعالى لنبيّه الولاية بالمؤمنين من أنفسهم وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير خم: ياأيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلىٰ، ثم أوجب لأمير المؤمنين عليه السلام ما أوجبه لنفسه عليهم من الولاية فقال: ألا من كنت مولاه فعلي مولاه»، الحديث.

فدلّت هذه الأحاديث على أولويتهم عليهم السلام بالأمر من غيرهم في جميع الأُمور وورد عن علي عليه السلام قوله: «نحن صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا».

وفي البحار[3] في بيان التوقيعات الواردة عنه «عج» وفيها: «نحن صنايع ربنا والخلق بعد صنائعنا».

---

١ ـ الأحزاب: ٦.
٢ ـ الأحزاب: ٦.
٣ ـ البحار: ج٥٣ / ص١٧٨.

ولا يبعد أن يكون مفاده مفاد قوله: «والخلق صنايع لنا» فتأمل.

وقوله تعالى في الحديث القدسي مخاطباً رسوله ﷺ: «خلقتك لأجلي، وخلقت الأشياء لأجلك»، فإن اللام فيهما ظاهر في الملك بلحاظ الآثار، أي أن جميع آثارهم لك، كما أن آثار المملوك ومنافعه لمولاه.

وقد يرد على هذا بأن ظاهر الأخبار عنهم يأباه، وهو ما رواه في الكافي بإسناده إلى محمد بن زيد الطبري قال: كنت قائماً على رأس الرضا عليه السلام بخراسان، وعنده عدة من بني هاشم، وفيهم إسحٰق بن موسى بن عيسى العباسي فقال: «ياإسحاق بلغني أن الناس يقولون: إنا نزعم أن الناس عبيد لنا، وقرابتي من رسول الله ﷺ ما قلته قط، ولا سمعته من أحد من آبائي قاله، ولا بلغني عن أحد من آبائي قاله، ولكن أقول: الناس عبيد لنا في الطاعة موالٍ لنا في الدين فليبلغ الشاهد الغائب».

وردّ بأنه محمول على التقية لمكان إسحاق بن موسى العباسي، إذ لا يخفىٰ على المتتبع نكلماتهم أنه يستفاد منه كوننا عبيدَ رقّ لهم، ولكنهم عليهم السلام لم يظهروا ذلك تقية من أعدائهم، ومن بعض مواليهم الذين لا كتمان لهم في الحديث كما لا يخفىٰ.

ولعلّه إليه يشير اشتهار التسمية عند الشيعة الخلّص بعبد النبي وعبدالعلي وعبدالحسين وغير ذلك من الأئمة عليهم السلام وهكذا عبد الزهراء، فإن فيها تلويحاً إلى أنهم عبد رقّ لهم.

وفي زيارة الحسين عليه السلام زيارة وارث المشهورة: «المقرّ بالرّق، والتارك للخلاف عليكم» فهو صريح فيما قلنا، ولكن لا ينبغي الإظهار به مطلقاً عند كل أحد.

هذا ولكن التحقيق أن يقال: (في معنى كوننا عبيداً لهم وهو المعنى الثالث) أن الملك الحقيقي كما حقق في محله، فإنما هو له تعالى، وأما في غيره فهو اعتبار، لا معنى له إلّا ترتب آثار المملوكية الاعتبارية من جواز التصرفات بالاستقلال.

وأما الملك الحقيقي الثابت له تعالى فله آثار حقيقية كما في قولهم عليهم السلام في الدعاء:

«آمسيت لك عبداً داخراً، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حيوٰة ولا نشوراً»، وكما في قولهم: «بيدك زيادتي ونقصي»، فان هذه وأمثالها من آثار الملك الحقيقي الثابت له تعالى.

ومن المعلوم أن صفة المالكية له تعالى إنما هي تظهر في محمد وآله المعصومين عليهم السلام حيث علمت أنهم عليهم السلام الأسماء الحسنى له تعالى، ومعنى كونهم كذلك ومظهراً لها أن آثارها تترتب على المماليك بالنسبة إليهم، فهم متصرفون فيهم بل وفي جميع الموجودات.

كيف وقد علمت ثبوت الولاية التكوينية لهم عليهم السلام بما لا مزيد عليه، التي حقيقتها التصرف فيها بإذنه تعالى، ومن آثارها إطاعة الموجودات لهم تكويناً، كما يظهر من معجزاتهم الباهرة، التي تجاوزت حدّ الإحصاء، هذا ثابت لهم تكويناً.

وأيضاً ثبت لهم وجوب إطاعة الخلق لهم من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين والمؤمنين وغيرهم بنص من الله العزيز الحكيم، وأحاديث من سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وهذه الإطاعة هي الملك العظيم الثابت لهم عليهم السلام.

ففي تفسير البرهان بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزوجل: **﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾**[1] إلى أن قال: «الملك العظيم أن جعل فيهم -أئمّة- من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم».

وفيه، ابن بابويه إلى أن قال: حضر الرضا عليه السلام جماعة مجلس المأمون لعنه الله إلى أن قال عليه السلام: **﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾** يعني الطاعة للمصطفين الطاهرين، فالملك هيهنا الطاعة لهم».

وفي الأحاديث الأُخر المروية فيه فسّر الملك بقوله عليه السلام الطاعة المفروضة.

وفيه بإسناد عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام.. إلى أن قال عليه السلام: **﴿أم لهم نصيب من الملك﴾**[2]، يعنى الامامة والخلافة فهم عليهم السلام المطاعون في الخلق.

---

١ ـ النساء : ٥٤.

٢ ـ النساء : ٥٣.

ولا ريب في أن وجوب الطاعة لمكان كونهم مظهراً لمالكيته تعالى للخلق، فهم بلحاظ هذه المظهرية ثبت لهم وجوب الطاعة تشريعاً، ولهم تلك الطاعة تكويناً كما علمت.

إذا علمت هذا عرفت انّا عبيد لهم في مثل هذه الأمور، أي لهم المالكية الحقيقية الثابتة له تعالى علينا، بما هم مظاهرها وبيد هم ترتيب آثارها.

ولعمري إن هذا فوق المالكية العرفية، التي يعبر عن المملوك بعبد رقّ، فان المالك لعبد رقّ لا يملك إلا جواز التصرفات الثابتة له من الشرع، وأين هذا من ثبوت وجوب الإطاعة بنحو إطاعته تعالى، وثبوت التصرفات التكوينية في العبيد إذا شاءوا بأمره تعالى كما دلت عليه معجزاتهم الباهرة.

وانما نفوا عليهم السلام كون الناس عبدَ رقّ لهم بلحاظ نفي آثار المالكية الاعتبارية، والتوسعة لهم في التصرفات، فلا يتوقف تصرفاتهم في نفوسهم وأحوالهم وأولادهم على إذنهم عليهم السلام لهم، ولا معنى لكون أحد عبد رقّ إلّا هذه المملوكية الاعتبارية بلحاظ الآثار.

فهذا المعنى وما له من الآثار في جنب كون الخلق مورد التصرفاتهم التكوينية، وآمريتهم التشريعية أمر حقير لا يعتنى به.

فالمهم هو ما ذكرنا من ثبوت الولاية التكوينية والتشريعية لهم عليهم السلام ووجوب الإطاعة لهم، وهم عليهم السلام لعلو مقامهم لم يعتنوا بهذه الأمور، بل جعلوا الناس في التوسعة كما لا يخفى.

وحيث علمت أن هذا المنصب والمقام ثابت لهم منه تعالى وهم مظاهره، فلا محالة لا يعملون هذه القدرة والولاية إلّا فيما أذن الله لهم كما ورد عنهم عليهم السلام: أنهم المقصودون من قوله تعالى: ﴿**عباد مكرمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾.

وقال الصادق عليه السلام في حديث كميت: «إن الله أقدرنا على ما نريد، ولا حول ولا

قوة إلّا بالله العلي العظيم»، أي نحن مقتدرون به تعالى، ولا حول لنا ولا قوة إلّا به تعالى.

فثبت انا عبيد لهم في الطاعة، ولهم علينا أعمال القدرة كيف شاؤوا بأمره تعالى.

وهذه المملوكية فوق مملوكية الرقية وإن كانت منفية للتوسعة كما علمت، وليس فوقها إلّا عبد العبادة، فنحن عباد الله تعالى في العبادة ولا نشرك به أحداً، وعبيد للأئمة عليهم السلام أي تجب علينا طاعتهم، ولهم التصرف فينا تكويناً كيف شاءوا باذنه تعالى، فلو أمر عليه السلام بأن نقتل أنفسنا في الجهاد دونه لكان واجباً علينا ذلك بنصّ من القرآن والحديث، فكيف بما دون إتلاف النفس من إتلاف الأولاد والأموال ونحوها، فتأمل تعرف.

وهنا أحاديث ربما يستفاد منها كوننا عبيدرقّ لهم عليه السلام في الواقع، ولكن لمكان التقية كما علمت لم يظهروا ذلك، بل أخفوه حفظاً لشيعتهم.

فعن الصادق عليه السلام أنه قال: «رحم الله شيعتنا أُوذوا فينا ولم نؤذ فيهم، شيعتنا منا، وقد خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بنور ولايتنا، رضوا بنا أئمة، ورضينا بهم شيعة، يصيبهم مصابنا وتبكيهم أوصابنا، ويحزنهم حزننا، ويسرهم سرورنا».

ونحن أيضا نتألم لتألمهم، ونطلع على أحوالهم، فهم معنا لا يفارقونا، ونحن لا نفارقهم؛ لأن مرجع العبد إلى سيده، ومعلوله على مولاه، فهم يهجرون من عادانا، ويجهرون بمدح من والانا، ويباعدون من ناوانا.

«اللهم أحي شيعتنا في دولتنا، وأبقهم في ملكنا ومملكتنا، اللهم إن شيعتنا منا، مضافين إلينا، فمن ذكر مصابنا، وبكى لأجلنا إستحى الله أن يعذبه بالنار» الحديث.

فقوله عليه السلام: «لأن مرجع العبد إلى سيده» ومعوّله على مولاه ظاهر فيما قلنا (والله العالم).

هذا وأنا أقول وأعترف: «بأني عبد رق لهم، لا أملك في قباهم لنفسي نفعاً ولا ضرّا ولا موتاً ولا حيٰوة ولانشوراً».

ومع ذلك أنا (إن شاء الله) عبد الله ومملوكه، وناصيتي بيده تعالى، يفعل بي ما يشاء رغماً على أنفي، وأنا (إن شاء الله) راضٍ منه فيما فعل بي، أرجو منه الزلفى لديه بولايتي لمحمد وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين).

ولعمري إن من اشتعل قلبه بنار محبتهم، فلذته إنما هي في إفنائه نفسه في طريق محبتهم، فلا يرى لوجوده محلّاً بالنسبة إليهم عليهم السلام فهو ذليل حقير في علوّ مقامهم، ويرى كونه عبد رق لهم فخراً لنفسه كما شوهد ذلك عن بعض الصحابة، وأين هذا الحال وإنكار كونه عبد رق لهم؟!.

ولعله إنما نفوا كون الناس عبيداً لهم عبد رقّ؛ لعدم كون غالب الناس محبّاً لهم بهذه المرتبة من المحبة، فالمحب يرى نفسه أقل من عبد رق لهم.

وأما غيره وإن كان واقعا كذلك إلّا أنه لا درك له حتى يقال: إنك عبد رق لمولاك، فالأولى إخفاء هذا عنه، وجعله في التوسعة كما علمت، والله الهادي إلى الحقّ الحقيق.

المقام الثاني: في معنى كونهم ساسة، فنقول: قد علمت أن السائس هو القائم على الشيء بما يصلحه، والمدبر لأموره، والمربي له على ما ينبغي.

فنقول: العباد يراد منه معناه العام من الملائكة والإنسان سواء كان المراد منه عبد طاعة، أو عبد عبادة لله، أو عبد رقّ، أو عبد التذليل، فإن العبد قد يكون بمعنى المعبد أي المذلل (بالفتح)؛ لأن العباد قد ذلّلوا بالتكليف الشاق، أو العبد المكرم كما أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾[١].

ففي جميع هذه الأمور حيث إنهم فقراء إليه تعالى لقوله: ﴿**ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد**﴾[٢].

ولا ريب في أن الفقير لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حيوة

---

١ ـ الإسراء: ٧٠.

٢ ـ فاطر: ١٥.

ولانشوراً كما علمت، فلابد لهم من مدبر حكيم وسائس عليهم، وهذه الصفات (أي صفة الحكمة والسياسة) له تعالى أولاً وبالذات، إلّا أنه علمت مراراً أن محمداً وآله ﷺ مظاهر أتم لها في الخلق فتجري تلك الأمور بهم.

فهم حينئذ ساسة العباد والخلق سواء أكان ملكاً أم بشراً، فهم عليهم السلام ساسة العباد، أي أنهم المعلمون طرق الرشاد، وكيفية السلوك إليه تعالى، والاقتصاد في الأمور والتربية لمن لا يعرف رشده لولا السائس، حيث إن السائس يصلح المسوس ويرشده بالتدريج والتسهيل الطبيعي المطابق للحكمة بتسبيب أسباب التربية، وتتميم القوابل الخلقية بالمعالجة الحكميّة الإلهية بحسب العلم والتعريف، وبحسب التدبير والتشريع والسلوك.

وقد علمت أن هذه الصفات كلها له تعالى إلّا أنهم عليهم السلام مظاهرها، ويعملون بها في الخلق بإذنه تعالى وإلهامه لهم عليهم السلام في جميع الموارد، قال الله تعالى في حقهم: **﴿عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**[١] وقال تعالى: **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون* ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾**[٢].

ولعمري إن هذه الآيات تعطي وتدل على أن الله خلقهم على ما وضعهم، وحيث إنهم بهذه المكانة من الواجديّة والعبودية له تعالى، فصلحوا لأن يكونوا ساسة العباد بنحو مرضيّ له تعالى دون غيرهم.

وهذا بالنسبة إلى الانسان والخلق في عالم الوجود لاريب فيه، ولذا وجبت طاعتهم علينا والتسليم لهم كما تقدم الحديث الدال عليه.

وفي الكافي بإسناده إلى أبي اسحٰق النحوي قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فسمعته يقول: «إن الله عزوجل أدّب نبيه على محبته فقال: **﴿وإنك لعلى خُلق**

---

١ ـ الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

٢ ـ الأنبياء: ٢٨ ـ ٢٩.

عظيم﴾[١] ثم فوض إليه فقال عزوجل: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فنتهوا**﴾[٢] وقال عزوجل: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾[٣].

قال: ثم قال: وإن نبي الله فوّض إلى علي وائتمنه فسلمتم وجحد الناس، فوالله لنحبّكم أن تقولو إذا قلنا، وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله عزوجل ما جعل الله لأحد خيراً في خلاف أمرنا».

وفيه أيضاً بإسناده إلى عبدالله بن سنان قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «لا، والله ما فوض الله إلى أحد إلّا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الأئمة، قال عزوجل: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾[٤] وهي جاريةٌ في الأوصياء عليهم السلام.

وكيف كان فلهم سياسة الخلق لتأدّبهم بآداب الله بعد إحاطتهم بمواليد الخلق بدواً وبقاء، فهم يعلمون مصالح العباد فيصلحونهم آناً فآناً في جميع شؤونهم.

وليعلم أن هذا ليس من التفويض المستلزم لعزل الله تعالى نفسه عن أمور الخلق، كما سيجيء في تحقيق التفويض إليهم، بل إنما هو لكونهم في مقام حدّ الوجوب والإمكان، فيتلقون منه تعالى شيئا فشيئا دون الخلق فيسوسون بما يتلقونه الخلق.

هذا كله بالنسبة إلى الخلق وأما بالنسبة إلى خصوص الملائكة:

فعن جامع الأخبار[٥]، للصدوق رحمه الله بإسناد عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إن الله خلقني، وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام من نور، فعصر ذلك النور عصرة، فخرج منه شيعتنا،

---

١ ـ القلم: ٤.

٢ ـ الحشر: ٧.

٣ ـ النساء: ٨٠.

٤ ـ النساء: ١٠٥.

٥ ـ جامع الأخبار ص٩.

فسبحنا فسبحوا، وقدسنا فـقدسوا، وهـلّلنا فـهلّلوا، ومجـدنا فـجدوا، ووحـدنا فوحّدوا.

ثم خلق الله السموات والأرض وخلق الملائكة، فمكثت الملائكة مائة عام، لا تعرف تسبيحاً ولا تقديساً ولا تمجيداً، فسبحنا وسبّحت شيعتنا فسبّحت الملائكة لتسبيحنا، وقدّسنا فقدّست شيعتنا، فقدّست الملائكة لتقديسنا، ومجّـدنا فـجّدت شيعتنا فمجدت الملائكة لتمجيدنا ووحّدنا فوحّدت شيعتنا فوحّدت الملائكة لتوحيدنا وكانت الملائكة لا تعرف تسبيحاً ولا تقديساً إلاّ من قبل تسبيحنا وتسبيح شيعتنا، فنحن الموحدون حين لا موحد غيرنا، وحقيق على الله تعالى كما اختصنا، واختصّ شيعتنا أن ينزّلنا أعلى عليين، أن الله سبحانه وتعالى اصطفانا واصطفا شيعتنا من قبل أن نكون أجساماً، فدعانا وأجبنا، فغفر لنا ولشيعتنا من قبل أن نستغفر الله».

وعن إرشاد القلوب بإسناده إلى محمد بن زياد قال: سأل ابن مهران عبد الله بن عباس عن تفسير قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبّحون﴾[1].

قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب عليه السلام فـلما رآه النـبي ﷺ تبسّم في وجهه وقال: «مرحباً بمن خلقه الله قبل أبيه آدم بأربعين ألف عام» فقلت: يارسول الله أكان الابن قبل الأب؟ فقال: نعم إن الله تعالى خلقني وخلق علياً قبل أن يخلق آدم بهذه المدة، خلق نوراً قسّمه نصفين، فخلقني من نصفه، وخلق عـلياً من النصف الآخر قبل الأشياء، فنورها من نوري ونور علي، ثم جعلنا عـن يمـين العرش.

ثم خلق الملائكة، فسبّحنا وسبّحت الملائكة، فهلّلنا فهلّلت الملائكة، وكـبرنا فكبرت الملائكة، وكان ذلك من تعليمي وتعليم علي، وكان ذلك في علم الله السابق أن الملائكة تتعلّم منّا التسبيح والتهليل، وكـل شيء يسـبّح الله ويكـبّره ويهـلله بتعليمي وتعليم علي، وكان في علم الله السابق أن لا يدخل النار محبّ لي ولعـلي،

---

١ ـ الصافات: ١٦٦.

وكذا كان في علمه أن لا يدخل الجنة مبغض لي ولعلي.

ألا وان الله تعالى خلق الملائكة بأيديهم أباريق اللجين مملوة من ماء الجنة من الفردوس، فما أحد من شيعة علي إلّا وهو طاهر الوالدين تقي نقي آمن مؤمن بالله، فإذا أراد أبو أحدهم أن يواقع أهله، جاء ملك من الملائكة الذين بأيديهم أباريق الجنة، فقطّر من ذلك الماء في إنائه الذي يشرب به، فيشرب هو ذلك الماء، وينبت الايمان في قلبه كما ينبت الزرع، فهم على بينة لمن ربّهم ومن نبيهم، ومن وصيّي علي، ومن ابنتي فاطمة الزهراء، ثم الحسن وثم الحسين والأئمة من ولد الحسين.

قلت: يارسول الله ومَن هم؟ قال: أحد عشر منّي أبوهم علي بن أبي طالب عليه السلام ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذي جعل محبة علي والإيمان سببين».

فقوله عليه السلام في حديث جابر: «فسبحنا فسبّحوا»، و قوله عليه السلام: «فسبحنا، وسبحت شيعتنا، فسبحت الملائكة»، وقوله صلى الله عليه وآله في حديث ابن عباس: «وكان ذلك من تعليمي وتعليم علي، وكان ذلك في علم الله السابق أن الملائكة تتعلّم منّا التسبيح والتهليل».

وقوله صلى الله عليه وآله: وكل شي يُسبّح الله ويكبره ويهلله بتعليمي وتعليم علي عليه السلام» وهذا ظاهر في أنه صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام علّموا الخلق والملائكة، وكلّ شيء أن يكبر الله ويهلله.

ومن المعلوم أن هذا التعليم هو الذي أوقف الملائكة على التسبيح والتهليل على ما هم عليه من المقام المعلوم لكل واحد منهم في مقام العبودية ومقام التدبير في الخلق.

ففي الحقيقة إنما وقف كلّ على مرتبته ووظيفته بتعليم النبي صلى الله عليه وآله والوصي عليه السلام وهذا هو حقيقة السياسة الإلهية الظاهرة في الخلق والملائكة كما لا يخفى.

هذا وقد ظهر مما تقدم ثبوت الولاية التكوينية لهم في الخلق مطلقاً، وهو معنى جامع يشمل سياستهم للخلق بتلك الولاية والتدبير كما علمته مفصلاً والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: *وأركان البلاد*

وفي المجمع: وركنت إلى زيد اعتمدت عليه.. إلى أن قال: وركن الشيء جانبه والجمع أركان.

أقول: أي جانبه الذي يعتمد الشيء عليه، فالركن هو المعتمد.

وعن القاموس : الركن (بالضم) الجانب الأقوى والأمر العظيم، وما يقوى به من ملك وجند وغيره.

وفي المجمع: والبلد يذكر ويؤنث والجمع بلدان، والبلدة: البلد والجمع بلاد مثل كلبة وكلاب.

وتطلق البلدة والبلاد على كل موضع من الأرض عامراً كان أو خلاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿**إلى بلد ميت**﴾[1] أي إلى أرض ليس فيها نبات ولا مرعى.

أقول: فالمعنى إنهم أركان البلاد أي المعتمد عليها.

والمراد من البلاد أهلها، أو الأعم، ومن نفسها العامرة دون الخربة، أي أن البلاد في الدنيا كلها أنفسها وأهلها بما لها من الآثار تعتمد عليهم عليهم السلام بحيث لولاهم لانعدمت بأصولها وفروعها، ويدل على هذا عدة من الأحاديث.

منها ما في الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: «والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض الله آدم عليه السلام إلّا وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة الله على عباده».

وفيه عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: تبقى الأرض بغير إمام؟ قال: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت».

أقول: أي انخسف بأهلها وذهبت بهم.

وفيه بإسناده عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال : قال: «إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل».

---

١ ـ فاطر : ٩.

أقول: المر د من العالم الإمام عليه السلام.

وفيه الاثنان عن الوشا قال: سألت الرضا عليه السلام هل تبقى الأرض بغير إمام؟ قال: «لا، قلت: إنا نروي أنها لا تبقى إلّا أن يسخط الله تعالى على العباد، قال: لا تبقى إذاً لساخت».

قال المجلسي رحمه الله: أي ليس مراد أبي عبدالله عليه السلام السخط الذي تبقى معه العباد فقال: لا تبقى إذاً لساخت.

قيل: إما حقيقة أو كناية عن هلاك البشر وذهاب نظامها.

أقول: الظاهر هو الهلاك الحقيقي كما لا يخفى.

وفيه بإسناده عن مفضل بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام.. إلى أن قال عليه السلام: «وكذلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى»، الحديث وقد تقدم بتمامه.

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: فضّل أمير المؤمنين عليه السلام.. إلى أن قال: «جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها»، وقد تقدم قوله عليه السلام: «أن تميد بأهلها، ظاهر في أن الحجة لولاه لمادت الأرض بأهلها».

وإليه يشير ما فيه بإسناده عن أبي هراسة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله».

وعن تفسير الفرات الفضل بن يوسف القصباني معنعناً عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام قال: «لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله».

وعن تفسير الفرات الفضل بن يوسف القصباني معنعناً عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام أنه قال: «أيها الناس إن أهل بيت نبيكم شرّفهم الله بكرامته، وأعزّهم بهداه، واختصّهم لدينه، وفضّلهم بعلمه، واستحفظهم وأودعهم علمه على غيبه،

فهم عماد لدينه شهداء عليه وأوتاد في أرضه قوّام بأمره»، الحديث.

وفيه، عن جعفر بن محمد معنعناً عن المفضل بن عمر قال: أبو عبدالله عليه السلام: «يامفضل إن الله خلقنا من نوره، وخلق شيعتنا منا، وسائر الخلق في النار، بنا يطاع الله، وبنا يعصى، يامفضل سبقت عزيمة من الله انه لا يتقبل من أحد إلّا بنا، فنحن باب الله وحجته، وأُمناؤه على خلقه، وخزانه في سمائه وأرضه، حللنا عن الله، وحرمنا عن الله، لا نحتجب عن الله إذا شئنا، وهو قوله تعالى:﴿**وما تشاءُون الاّ أن يشاء الله**﴾ وهو قوله صلى الله عليه وآله: «إن الله جعل قلب وليه وكر إرادته، فإذا شاء الله شئنا».

أقول: قوله: «وأوتاد في أرضه قوام بأمره»، وقوله: «بنا يطاع الله وبنا يعصى» وقوله: «فنحن باب الله»، ظاهر في أنهم عليهم السلام المعتمدون للخلق في جميع أمورهم، وبانضمام الأحاديث المتقدمة يظهر أنهم المعتمدون لأجساد الخلق وأجسامهم من الإنسان والحيوانات والأحجار غيرهم، إذ لولاهم لساخت ولماجت بأهلها، فأستقرارها جسماً وحالاً، وإيماناً ويقيناً وعبادة وهكذا إلى جميع الشؤون في جميع أنحاء الخلق، إنما هو بهم عليهم السلام وهو معنى كونهم أركاناً للبلاد.

والحاصل أن جميع ما سوى الله قوّام بهم عليهم السلام سواء كانوا ظاهرين في تصدي الأمور أم لا.

فإن هذه المنزلة من شؤون ولايتهم الالهية التكوينية والتشريعية سواء أكانوا ظاهرين ومبسوطي اليد، أو مخفيين مستورين، أو مقهورين بظلم الأعداء كما لا يخفى.

وهذا يظهر من الأدعية الواردة في مفردة الوتر من قوله: «أنت الله عماد السموات والأرض، وأنت الله قوام السموات والأرض».

ومنه يظهر لمن تدبر أن الحسن عليه السلام عماد هما، وأن الحسين عليه السلام قوامها.

وفي توحيد الصدوق بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن لله عزوجل خلقاً من رحمته خلقهم من نوره، ورحمته من رحمته لرحمته،

فهم عين الله الناظرة، وأُذنه السامعة، ولسانه الناطق في خلقه بإذنه وأُمناؤه على ما أنزل من عذر أو نذر أو حجة، فبهم يمحو السيئات، وبهم يدفع الضيم، وبهم ينزل الرحمة، وبهم يحيي ميتاً، وبهم يميت حيّاً، وبهم يبتلي خلقه، وبهم يقضي في خلقه قضيّته. قلت: جعلت فداك مَن هؤلاء؟ قال: الأوصياء» فهذا الحديث خصوصاً قوله عليه السلام: «وبهم يقضي في خلقه قضيته» ظاهر في أن قضاء الأمور التكويني والتشريعي في الخلق إنما هو بهم عليهم السلام يقضي في خلقه قضيته ظاهر في أن قضاء الأمور التكويني والتشريعي في الخلق إنما هو بهم عليهم السلام وهو معنى كونهم أركاناً للبلاد، والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

وقد يقال: معنى كونهم أركان البلاد أنهم مبدأ وجود كل شيء، كما دلّت الأحاديث على أن كل شيء خلق من أنوارهم، وأن كل شيء مظهر لمحمد وآله عليهم السلام، وأن الآثار الحسنة إنما رتبت عليها لقبولها الولاية.

فالمراد من البلاد أعم من بلاد الأرض والنفساني بلحاظ الحقيقة ونفس الأمر، وهو أيضا أعم منها ومن أهلها.

والحاصل: لمّا أن الأشياء خلقت من أنوارهم، والآثار الحسنة من قبول ولايتهم، فهم أركان لها والمعتمد لها كما لا يخفى.

وسيجيء بيان الأمرين أي أنهم منشأ وجود الأشياء، وأن الآثار الحسنة مترتبة على قبول الولاية فيما بعد إن شاء الله، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: وأبواب الإيمان

الكلام هنا يقع في أمور:

الأول: الأبواب جمع باب، وهو ما يدخل منه إلى شيء مكاناً أو معنىً ومن الثاني قوله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، ومن أراد المدينة فليأتها من بابها»، ومن لطيف مانقل: «إن أعرابياً دخل المسجد فبدأ بالسلام على علي عليه السلام ثم سلم على

النبي ﷺ فضحك الحاضرون وقالوا له في ذلك؟ فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: أنا مدينة العلم وعلي بابها فقد فعلت كما أمر ﷺ».

وفي المجمع: الأمن الأمان.

أقول: وهذا معنى عامّ، فالأمان في كل مورد يكون حسب ما يناسبه شرعاً وعرفاً، دنياً وآخرة، وبيان مصاديقه يطول بيانه وهو لا يخفى على المتتبع.

وفيه: الايمان لغةً هو التصديق المطلق إتفاقا من الكل.

وقوله ﷺ: التصديق المطلق أي العام، بيانه: أن الإيمان أفعال من الأمن، وهو يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد، فإذا عديَ بالهمزة في باب الأفعال عدى إلى مفعولين تقول آمنته غيري بمعنى جعلته ذا أمن منه، ثم نقل فقيل: آمنه إذا أصدقه، وحقيقته حينئذ آمنه التكذيب والخلفة، وهو فيه حقيقة لغوية، وإن كان أصله مأخوذاً من غيره، وتعديته بالباء كقوله تعالى: ﴿**يؤمنون بالغيب**﴾ لتضمينه معنى الاعتراف، وهو يتعدى بالباء يقال: اعترفت به.

وربما يمكن إطلاق ما آمنت على معنى ما وثقت، فحينئذ معنى آمنت أي وثقت، وحقيقته صرت ذا أمن به أي ذا سكون وطمأنينة كذا ذكروه.

فحينئذ كون الايمان بمعنى التصديق باعتبار أنه بتصديقه سكن نفسه وصيّره ذا طمأنينة وآمن من طرف المؤمن به، فارتفع به القلق والاضطراب عن النفس، حيث إن الشك موجب لقلق النفس واضطرابه، والإيمان باعث لسكونه.

وكيف كان، فالإيمان الدال على الأمن مقابل الريب الذى هو قلق النفس وإضطرابها، فإيمان المؤمن هو تصديقه الذى يوجب سكون نفسه.

وربما يؤيده بل يدل عليه حديث رفاعة: أتدري يارفاعة لِمَ سمّي المؤمن مؤمناً؟ قال: لا أدري، قال: لأنه يؤمن على الله بتنجيز أمانه.

أقول: أي بإيمانه ينجّز أمانه عند الله فيكون في أمنه تعالى، والظاهر أخذ الإيمان في لسان أهل الشرع بهذا المعنى، وأن يكون هذا هو الأصل في الذي نقل الاتفاق

من الكل عليه: من أن الإيمان لغة عبارة عن التصديق المطلق كما علمته من المجمع.

وكيف كان فالإيمان وخلافه الشك والقلق موردهما القلب.

فعن الصادق عليه السلام أنه قال: «الإيمان ثابت في القلب واليقين خطرات، فمرّة يقوى فيصير كأنه زبر الحديد، ومرة يصير كأنّه خرقة بالية»، وعنه عليه السلام: «كل قلب فيه شك فهو ساقط».

ثم إن الإيمان قد يعدّي بالباء فيقال: آمنت به فمعناه التصديق به تعالى، وقد يعدّى باللام نحو آمنت لله فمعناه الخضوع والقبول عنه، والاتباع لما يأمر، والانتهاء لما ينهي كذا ذكروه، هذا ما يرجع بلحاظ اللغة.

الثاني: في الفرق بين الإسلام والإيمان.

فنقول: الإسلام له إطلاقان عام وخاص، ومن الخاص قوله تعالى: **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**[١] فأطلق الاسلام في الآية الشريفة على الدين الذي هو حقيقة الإيمان.

وعن أمالي الطوسيّ[٢]، بإسناد المجائعي عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام قال: «الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل» ومثله غيره فالإسلام حينئذ يساوق معنى الإيمان كما لايخفى.

ومن الأول قوله تعالى: **﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾**[٣].

في الكافي[٤]، بإسناده عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: **﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل**

---

١ ـ آل عمران: ١٩.

٢ ـ أمالي الطوسي ج ٢ ص ١٣٧.

٣ ـ الحجرات: ١٤.

٤ ـ الكافي ج ٢ ص ٢٤.

الايمان في قلوبكم﴾ فقال: ألا ترى أن الإيمان غير الإسلام؟ وإليه يشير ما فيه. عن فضيل بن يسار[١] عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الايمان في قلوبكم﴾ فقال: ألا ترى أن الايمان يشارك الإسلام والإسلام لا يشارك الإيمان؟ ومثله غيره وهو كثير.

فعلى هذا الإسلام أعم من الايمان، والإيمان فوقه بدرجة.

فعن تفسير علي بن إبراهيم، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله فضل الإيمان على الإسلام بدرجة، كما فضّل الكعبة على المسجد الحرام» وهناك أحاديث أُخر بينت هذاالفرق، وشرحه العلماء بما لا مزيد عليه فراجع البحار، هذا في الفرق بين الإسلام والإيمان بنظر، الأخبار، والله العالم.

الثالث: في بيان حقيقة الإيمان.

قد دلّت الآيات والأخبار على أن الايمان حقيقة تقبل الزيادة والنقصان، قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾[٢]

وفي الكافي بإسناده عن أبي عمير والزبيري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: أيها العالم إلى أن قال قلت: ألا تخبرني عن الايمان إلى أن قال قلت: «صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه. . ، قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل فمنه التام المنتهى تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه»، الحديث، فدل على قبوله الزيادة والنقصان، وأيضاً ربما عرف الإيمان بأمر بسيط. كما في الكافي بإسناده عن سلام الجعفي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإيمان فقال: «الإيمان أن يطاع الله ولا يعصى» وربما عرف بتفصيل؛ كما في الكافي، الأربعة، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الإيمان

---

١ ـ الكافي ج ٢ ص ٢٥.
٢ ـ الأنفال: ٢.

له أركان أربعة: التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله تعالى»، وهكذا نظيره من الأحاديث المفصّلة لحقيقة الإيمان.

وربما عرف الإيمان بانه مبثوث على الجوارح كلها، كما دلّت عليه أحاديث كثيرة، منها:

عن أبي عمير والزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام الحديث الطويل الذي ذكرَ فيه لكل جارحة إيماناً يخصّها بعمل خاص، وعلى هذا قد اضطربت في تحقيقه كلمات الأصحاب، (رضوان الله عليهم).

فربما يظهر من كلمات بعضهم أن له معان متعددة متباينة على سبيل الاشتراك اللفظي.

ومن بعضهم أنه لا يقبل التفاوت والتشكيك والكمال والنقص.

ومن بعضهم أنه ذو شأن واحد لا يتعداه إلى غيره.

ومن بعضهم أنه عبارة عن مجموع عدة أمور مختلفة متباينة في محال مختلفة، يسمى ذلك المجموع من حيث المجموع إيماناً، بحيث ينتفي اسم الكل بانتفاء البعض هذا.

ولكن التحقيق أن يقال: إن لفظ الإيمان باق على معناه الأصلي، ولكنه اختصّ باعتبار متعلقه.

فهو عبارة عن إيمان الإنسان نفسه من طرف الحق سبحانه أي بتصديقه يجعل نفسه في المأمن الإلهي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إن المتقين في مقام أمين﴾[1] ويزيل بذلك عن نفسه القلق والاضطراب بحصول السكون والثقة والأمن له من طرف الحق سبحانه. وآمنه التكذيب والمخالفة.

وبعبارة أُخرى: بالإيمان يعطي حالاً ويكسب ويأخذ حالاً، يعطي للحق الأمن من التكذيب والمخالفة فلا يكذب بآيات ربّه، ويكسب ويأخذ الأمن

---

١ ـ الدخان: ٥١.

النفساني والسكون والثقة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وعلى ربّهم يتوكلون﴾[١] عقيب قوله تعالى: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾[٢].

وهذا الأخذ والعطاء مغرسه القلب، كما علمت أن الايمان مورده القلب لقوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[٣].

وقوله ﷺ: «الإيمان ثابت في القلب»، توضيحه: أن لشجرة الإيمان أصلاً هو المعرفة والاعتقاد القلبي بالمعنى المتقدم من الأخذ والعطاء في قبال الشك، مع قبول القلب تلك المعرفة في مقابل الجحود القلبي والإباء النفساني.

ومن المعلوم أن هذا القبول النفساني، وما يقابله من الجحود النفساني، تتفاوت درجاتها بالنسبة إلى تمامية الرسوخ في النفس وعدمه فيهما أي في ا-القبول والجحود فهذان أمران:

الاول: المعرفة والاعتقاد القلبي.

والثاني: قبول القلب تلك المعرفة.

فالأول ثبت بدرك العقل حسب الأدلة والبراهين، أو بتركها لغلبة الجهل والشبهات، والثاني عمل القلب من القبول والجحود، وهو من صنع الله تعالى في العبد، كما دلّت عليه الأحاديث.

في توحيد الصدوق[٤]، بإسناده عن محمد بن حكيم، قال: قلت لأبي عبدالله ﷺ: المعرفة صنع من هي؟ قال: «من صنع الله عزوجل، ليس للعباد فيها صنع».

وفيه ، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «ستة أشياء ليس للعباد فيها صنع: المعرفة

---

١ ـ النحل : ٩٩.

٢ ـ الأنفال : ٢.

٣ ـ الحجرات : ١٤.

٤ ـ توحيد الصدوق ص ٤١٠.

والجهل، والرضا والغضب، والنوم واليقظة».

ومن المعلوم أن الجحود من آثار الجهل، ولهذا الكلام شرح يطول بيانه.

وفي الكافي[١]، بإسناده عن الفضيل، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أُولئك كتب في قلوبهم الإيمان، هل لهم فيما كتب في قلوبهم صنع؟ قال: «لا».

وحقيقة هذا الإيمان هو تسليم العبد جميع ما أنعمه الله إلى من يجب الإيمان به، مع الاعتقاد بأن تصرّفه لا يكون إلّا على وجه يصلح بحاله، وهو أمين فيما يعامل معه ولو قتله، أو أخذ جميع أمواله، أو أمر بقتل أولاده، أو فرق بينه وبين عياله، قال تعالى: **﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**[٢] وقال تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾**[٣].

القمي عن الباقر عليه السلام وفيه: «وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب على زيد بن حارثة زينب بنت جحش الأسدية من بني أسد بن خزيمة، وهي بنت عمة النبي صلى الله عليه وآله فقالت: يارسول الله حتى اوامر نفسي فانظر؟ فأنزل الله عزوجل: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾** الآية. فقالت: يارسول الله أمري بيدك فزوّجها إياه»، فمن مورد الآية يعلم أن المؤمن ليس له اختيار في قبال قضاوة الله والنبي، حتّى بالنسبة إلى ما يرجع إلى نفسه كما لا يخفى.

ثم إنّ للإيمان بعد هذين الأمرين أغصاناً باعتبار التأثر بمقتضى تلك المعرفة القلبية، وظهور آثارها في القلب بحدوث الحالات النفسانية، التي تقتضيها تلك المعرفة، وارتفاع أضدادها على درجاتها غير المتناهية، ولها ثمرات وفروع تترتّب

---

١ ـ الكافي ج ٢ ص ١٥.
٢ ـ النساء: ٦٥.
٣ ـ الأحزاب: ٣٦.

عليها من فعل ما تقتضي تلك المعرفة فعله، وترك ما تقتضي تركه على اختلاف الأفعال، والتروك في قوة الاقتضاء وضعفه بحسب مرتبتها.

وبعبارة أُخرى: تترتب على قبول القلب تلك المعارف حالات نفسانية من التوكل والرضا والتسليم والتفويض وأمثالها، التي ذكرت في الأحاديث، ويترتب على تلك الحالات، وتلك المعارف والأعمال الخارجية من إتيان الصلوات والعبادات والأفعال الحسنة المترتبة على جميع الجوارح كل على حسبه.

فتحصل من الجميع أن للإيمان أربعة شؤون:

الاول: شأن في مقام الاعتقاد.

الثاني: شأن في مقام قبول القلب والنفس تلك المعارف.

الثالث: شأن في مقام الحالات والأخلاق والملكات.

الرابع: شأن في مقام العمل.

ومن المعلوم أن نسبة كل سابق إلى لاحقه كنسبة الأصل للفرع والبذر للزرع إذا الاعتقاد هو المؤثر في قبول ما بعده، والقبول فرع الاعتقاد، الذي هو القبول في القلب، وهذا القبول القلبي سبب لانبعاث الحالات النفسانية الموافقة لتلك المعرفة، وهذه الحلات هي مبدأ الأفعال والتروك الخارجية، ومثاله الذي يبين هذا المعنى مثال من أخبر بمجيء أسد في مكانه، فإيمانه بالمخبر وخبره هو اعتقاد صدقه وقبول كلامه، وإذا اعتقد وقبل اثر في حقه حوفاً وهو الحال الحاصل له بعدهما.

ثم بعد ذلك يتصدى ويطلب الهرب، فيهرب حينئذ بإرادته المنبعثة عن خوفه،فهذه مراتب أربع فبحصولها يكمل إيمانه بالمخبر حيث آمنه التكذيب والمخالفة، وجعل نفسه ذا أمن من الشك والاضطراب بقبوله خبره اعتقاداً أو قبولاً وحالاً أي خوفاً وعملاً أي هرباً.

فكل مؤمن بالنسبة إلى الدين ومتعلقات الإيمان ـ على ما سيأتي بيانه ـ إذا كان في هذه الشؤون الأربعة فهو مؤمن حقيقة كامل في إيمانه.

ومن المعلوم أن كل هذه الشؤون لها مراتب، فلو كان في شأن من هذه الشؤون الأربعة واجداً لجميع مراتبه فهو من الكمّلين، وإذا نقص في كل شأن بعض مراتبه فبقدره ينقص إيمانه.

وهنا قسم آخر في الكمال والنقص باعتبار تلك الشؤون الأربعة، كلها أو بعضها. فإن كانت كلها موجودة مع مراتب كل واحد منها فهو الأكمل. وإن انتفى أحدها فإن كان المنتفي هو الأول أو الثاني انتفىٰ الإيمان رأساً، كما تنتفي الشجرة بانعدام أصلها أو ساقها الكبير المتصل بالأصل، فلو انتفت العقيدة والقبول النفساني فلا إيمان أصلاً.

وإن كان المنتفي الثالث أو الرابع، أو هما مع وجود الأولين فلا تنتفي أصل شجرة الإيمان إنما ينعدم كماله.

فهذا الايمان كالشجرة الناقصة التي لا غصن لها أو لا ثمره لها كما لا يخفى.

فبانتفاء الثالث الذي هو كالغصن، أو الرابع الذي هو كالثمرة باختلاف مراتبهما تنتقص الشجرة، أو الإيمان وبإكمالهما وما لهما من المراتب تكمل الشجرة والإيمان، هذا إذا كان الأوّلان اللذان هما كالأصل لشجرة الإيمان موجودين.

وأما إذا كانت صورة الثاني والثالث موجودتين بدون الأولين كإيمان المخالفين أو المنافقين، فلا ريب في أنه لا ينفع هذا الإيمان إذ ليس هذا الغصن والثمرة شجرة حقيقة، بل صورته أو شبيهة بالشجرة وليس منها.

فالمتظاهر بهذا النحو من الإيمان أي المتظاهر بالغصن والثمر بدون الأصل هو المنافق أو المتصنّع أو المرائي أو ذو سمعة، بل في الحقيقة ليس إيمانا، كما أن في وجود الغصن والثمرة بدون الأصل ليس شجرة، وإنما هو تشاكل وتشابه الشجرة الأصلية.

وهكذا هذا الايمان ليس إيماناً بل يشابه الإيمان الأصلي، ويترتب عليه أحكام المؤمن في الدنيا من حلّية المناكح والمواريث والذبائح، هذا في الدنيا وقبل ظهور الحال، إذ الدنيا وما لأهلها من الأحكام إنما هي قائمة بالصورة.

وأما إذا حان وقت الحكم بالواقع كزمان الظهور للحجّة روحي له الفداء، أو القيمة التي فيها ظهور الحقائق لقوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾[1] فيضمحل هذا الإيمان. وينكشف الكفر الباطني.

وإليه يشير ما عن الصادق عليه السلام: إن الشهادتين تؤخذان من المخالف فيحشر في زمرة الكفار.

ففي محاسن البرقي[2]، عن أبان بن تغلب، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إذا قدمت الكوفة إن شاء الله فارو عني هذا الحديث؛ «من شهد أن لا إله إلّا الله وجبت له الجنة» فقلت: جعلت فداك يجيئني كل صنف من الأصناف فاروي لهم هذا الحديث؟ قال: نعم، ياأبان بن تغلب إنه إذا كان يوم القيمة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في روضة واحدة فيسلب لا إله إلّا الله إلا من كان على هذا الأمر».

وكما ورد أيضاً هذا المضمون في ذيل قوله تعالى: ﴿ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾[3] وسيأتي بيانه إن شاء الله.

ثم إن الفارق بين الإيمان الحقيقي والصوري هو أن الإقرار باللسان يحكي ظاهراً عن الاعتقاد والقبول الباطنيين، وهو الإقرار بالحق قلباً والإقرار اللفظي معاً.

فإن كان الأولان أي الاعتقاد والقبول القلبي موجودين في الباطن، فهو إيمان حقيقي وإلّا فإيمان صوري لفظي تترتب عليه الأحكام الظاهرية.

فظهر مما ذكرنا أن الإيمان أمر وجداني له مظاهر أربعة كما علمت، وكل مرتبة منها لفظي وهو ما ظهر باللفظ سوى المرتبة الرابعة، التي هي العمل، فإن طابق

---

١ ـ الطارق: ٩.

٢ ـ محاسن البرقي ص ١٨١ ح ١٧٤.

٣ ـ الحجر: ٢.

اللفظ واقعه القائم بالقلب فهو إيمان حقيقي وإلّا فهو نفاق في كل مرتبة، وربما يكون في بعض المراتب حقيقياً وفي بعضها يكون نفاقاً.

ثم إنه سيأتي مفصلاً أن الإيمان في جميع مراتب صحته وقبوله لدى الحقّ مشروط بالولاية فهي ركن فيها ثابت بالآيات والأحاديث وسنذكرها مشروحة إن شاء الله تعالى.

إذًا علمت هذه المراتب والشؤون للإيمان فاعلم أن الأحاديث الواردة في أبواب الإيمان المتفرقة بالألسنة المختلفة كل منها يشير إلى بعض هذه المراتب والشؤون، وإلى آثارها التي هي العلامة لوجود الإيمان في الجملة في تلك المرتبة، أو لبيان العلامة المطردة لوجود الإيمان أي مرتبته مما ورد من أن الإيمان ما هو في القلب بالألسنة المختلفة.

فبعضها ينظر إلى مرحلة العقيدة.

وبعضها إلى مرحلة القبول القلبي.

وما ورد من أن الإيمان هو التوكل ونحوه مثلاً كما هو لسان كثير من الأخبار، فهو ناظر إلى بيان الحالات المنبعثة عن القبول القلبي كما علمت.

وما ورد من أن الإيمان هو مبثوث على الجوارح، فهو ناظر إلى مرحلة الأعمال والأفعال، التي هي آثار تلك الحالات.

وحيث إن كل هذه المراتب إما صدق حقيقي أو صوري نفاقي، ولذا وردت أحاديث متضمنة لعلامات الإيمان، التي بها يعلم أنه حقيقي أو صوري، فهذه الطائفة وما لها من ذكر العلامات كقوله ﷺ: علامة الإيمان احتمال الأذى مثلا، ينظر إلى هذه الجهة من التمييز بين ـ الحقيقي منه والصوري

وما ورد من أحاديث كثيرة خارجة عن حدّ الإحصاء يدل على اشتراط قبول الإيمان، وما لها من الحالات والأفعال بالولاية، فهو ناظر إلى هذا الشرط الإلهي الواقعي، وسيجيء في بيان علية الولاية لقبول الإيمان في مراتبه إن شاء الله تعالى.

ثم إنه لا يخفى على المتتبع الناقد المبصر تطبيق الأحاديث الواردة في الأبواب المتفرقة للإيمان بالألسنة المختلفة على كل واحد من تلك الشؤون والمراتب التي ذكرناها.

ولا يخفى عليه أيضاً أن كل مرتبة منها حيث تكون مختلفة بحسب الشدة والضعف والرسوخ القلبي وعدمه، فلا محالة تكون آثارها مختلفة.

ولذا ترى الآيات والأحاديث تبين تلك الآثار على اختلافها لتلك المراتب لما هي مختلفة.

ولعمري إنَ ما ذكرناه هو الضابط الكلي في تطبيق الأحاديث المختلفة بأسرها على موارد ذلك الضابط، والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

الأمر الرابع: في بيان متعلق الإيمان.

فنقول وعليه التوكل: المهم في هذا الأمر بيان القبول القلبي، وهو الأمر الثاني حسب ما تقدم من بيان شؤون الإيمان.

وذلك أن الأمر الأول أعني العقيدة القلبية فإنما هي ثابتة بالأدلة الواردة في لسان الشرع ولسان العقل، فهي التي تؤدى إلى العقيدة القلبية، وتثبت متعلقها عند العقل والعاقل في القلب في جميع الشؤون، وبيانه موكول إلى علم الكلام من هذه الجهة.

وأما الأمر الثالث والرابع أعني الحالات والأفعال المنبعثة عن تلك العقيدة، والقبول القلبي: فهي أمران قائمان بالشخص المؤمن، ومن حالاته وشؤونه فلا متعلق له.

نعم: الحالات الحاصلة للإنسان لابدّ من عرضها على المحكمات؛ لتميز حقّها من باطلها كما سيأتي.

وأما الأمر الثاني أعني القلبي: فحيث إنه يتعلق لشيء هو المقبول للقلب، الثابت له من العقل والقلب بالأدلة المتقنة، فلابد من بيان ذلك المقبول بأقسامه،

وهو المقصود بيانه في هذا الشرح وبيان أبوابه.

فنقول: متعلق الإيمان إنما هو التوحيد والرسالة والولاية وشؤونها وهوالمعارف الإلهية والإخبارات الإلهية فمحكى هذه الأمور هو متعلق الإيمان.

في تحف العقول[١] دخل عليه (أي على الصادق عليه السلام) رجل فقال عليه السلام له: ممن الرجل؟ فقال: من محبيكم ومواليكم، فقال له جعفر عليه السلام «لا يحب الله عبد حتى يتولاه، ولا يتولاه حتى يوجب له الجنة، ثم قال له: من أيّ محبينا أنت؟ فسكت الرجل، فقال له سدير: وكم محبوكم يابن رسول الله؟! فقال: على ثلاث طبقات:

طبقة أحبونا في العلانية ولم يحبونا في السّرّ.

وطبقة يحبونا في السّرّ ولم يحبونا في العلانية.

وطبقة يحبونا في السّرّ والعلانية، هم النمط الأعلى، وشربوا من العذب الفرات، وعلموا تأويل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلى، الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مسّتهم البأساء والضراء، وزلزلوا وفتنوا فمن بين مجروح ومذبوح، متفرّقين في كل بلاد قاصية، بهم يشفي الله السقيم ويغني العديم، وبهم تنصرون، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون، وهم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وخطراً.

والطبقة الثانية النمط الأسفل أحبونا في العلانية، وساروا بسيرة الملوك، فألسنتهم معنا وسيوفهم علينا.

والطبقة الثالثة النمط الأوسط أحبونا في السّرّ ولم يحبونا في العلانية ولعمري لئن كانوا أحبونا في السّر دون العلانية فهم الصوامون بالنهار القوامون بالليل يرىٰ أثر الرهبانية في وجوههم، أهل سلم وانقياد. قال الرجل: فأنا من محبيكم في السّر والعلاينة، قال جعفر عليه السلام: إن لمحبينا في السّر والعلانية علامات يعرفون بها، قال الرجل: وما تلك العلامات؟!

---

١ ـ ص ٢٤١ كلامه عليه السلام في وصف المحبة.

قال ﷺ: تلك خلال، أولها: أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته وأحكموا علم توحيده، والايمان بعد ذلك بما هو وما صفته، ثم علموا حدود الإيمان وحقائقه وشروطه وتأويله، قال سدير: يابن رسول الله ما سمعتك تصف الإيمان بهذه الصفة؟! قال: نعم ياسدير ليس للسائل أن يسأل عن الايمان ما هو؟ حتى يعلم الإيمان بمن، قال سدير: يابن رسول الله إن رأيت أن تفسر ما قلت.

قال الصادق ﷺ: مَن زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك، ومَن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقرّ بالطعن؛ لأن الاسم محدث، ومَن زعم أنه يعبد الاسم والمعنى فقد جعل مع الله شريكاً، ومن زعم أنه يعبد المعنى بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب، ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد؛ لأن الصفة غير الموصوف، ومن زعم أنه يُضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير وما قدروا الله حقّ قدره.

قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟ قال ﷺ: باب البحث ممكن، وطلب المخرج موجود، إن معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه. قيل: وكيف تعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال ﷺ: تعرفه وتعلم علمه، وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أنّ ما فيه له وبه كما قالوا ليوسف: ﴿إنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب. أما ترى الله يقول: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ يقول: ليس لكم أن تنصبوا أماماً من قبل أنفسكم تسمّونه محقّاً بهوى أنفسكم وإرادتكم.

ثم قال الصادق ﷺ: ثلاثة ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ من أنبت شجرة لم ينبته الله، يعني من نصب أماماً لم ينصبه الله، أو جحد من نصبه الله، ومن زعم أن لهذين سهماً في الاسلام، وقد قال

الله: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾[1]» وستأتي بقيته.

أقول: إنما ذكرنا الحديث بتمامه لما فيه من الفوائد الجمة والمعارف الكبيرة وكيف كان، فقوله عليه السلام: «تعرفه وتعلم علمه، وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك.. الخ»، يبين أن التوحيد الحقيقي وهو الثابت له بهذه المرتبة.

بيانه: أن المعرفة به تعالى إما علمية ثابتة بالأدلة والبراهين، وهو لا يفيد إلّا اصل الوجود وهذا واضح لكل أحد، كل بحسب دركه حتى العجائز قال الله تعالى: ﴿أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾[2].

ومعلوم أن هذه المعرفة علميّة أي يعلم بوجوده حسب، وهو أدنى المعرفة، وهي لازم لكل أحد.

ففي الكافي، باب أدنى العرفة بإسناده عن الفتح بن يزيد، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن أدنى المعرفة فقال: «الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير، وأنه قديم مثبت موجود غير فقيد، وأنه ليس كمثله شيء».

فالعلم والإقرار بهذه الأمور هو أدنى المعرفة اللازمة لكل أحد.

ثم إنه قد يترقى العالم بهذا إلى المرتبة الأعلى منها، وهي مرتبة مشاهدة صفاته تعالى، فيرى الحق في صفاته تعالى.

وهذه المرتبة وإن كانت أعلى من الأدنى إلّا أنها إما مصادق لقوله عليه السلام: ومن زعم أنه يعبد المعنى بالصفة لا بالإدراك، فقد أحال على غائب، وأما مصداق لقوله عليه السلام: ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير، وما قدرو الله حق قدره.

بيانه: أن العارف به تعالى عن طريق الصفات، لا تكون معرفته به بنفسه تعالى، بل بالصفات المشيرة إليه تعالى، فهو تعالى حينئذ غائب عن هذا العارف،

---

١ ـ القصص : ٦٨.

٢ ـ ابراهيم : ١٠.

ومن المعلوم أنه أحاله على غائب، فهذه المعرفة وإن كانت صحيحة وعليها أغلب الناس، إلّا أنها ليست بكاملة لكونها معرفة صفاتية لا عينية.

وأما العارف به بطريق إضافة الموصوف إلى الصفة، فلا محالة تنحصر معرفته به تعالى بما هو مضاف إلى الصفة، وأما المعبود فوق تلك الصفات فلا معرفة له به تعالى، ولازمة تصغيره تعالى إذ ذاته المقدسة غير منحصرة الآثار بخصوص هذه الصفات، التي يكون مضافاً إليها بل هو تعالى غير متناه وهو واسع عليم بحيث لا تحيط به صفاته بحيث تكون صفاته الظاهرة مبيّنة له تعالى فقط، بل هو تعالى فوق ما يتصور من حيث إضافته إلى الصفات.

ولذا قال عليه السلام في حق هذا العارف وإن كان محقاً: «فقد صغّر الكبير وما قدروا الله حق قدره»، فاستشهاده بهذه الآية إشارة إلى ما ذكره من تصغير الكبير.

ففي تفسير نور الثقلين[1]، عن التوحيد، قال: قال زرارة: قال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله لا يوصف وكيف يوصف وإنه قال في كتابه: ﴿**وما قدروا الله حقّ قدره**﴾، فلا يوصف بقدر إلّا كان أعظم من ذلك».

وفيه، عنه، بإسناده عن أبي الحسن العسكري عليه السلام.. إلى أن قال بعد ذكر قوله تعالى: ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيٰمة والسموات مطويات بيمينه**﴾[2] فقال عليه السلام «ذلك تعيير الله تبارك وتعالى لمن شبّهه بخلقه، ألا ترى أنه قال: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾»، الحديث.

وكيف كان: فهذه المعرفة أيضاً ناقصة، حيث عرف الله تعالى من حيث الإضافة إلى صفاته تعالى مع أنه أكبر من أن يوصف هكذا.

ولذا بعد هذين القسمين قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟ قال عليه السلام: «باب البحث ممكن، وطلب المخرج موجود»، إن معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة

---

١ ـ تفسير نور الثقلين ج ٤ ص ٥٠.

٢ ـ الزمر: ٦٧.

الغائب قبل عينه. فبيّن عليه السلام أمرين بنحو الضابط لتحصيل المعرفة الحقة ويميّزها عن غيرها.

وحاصله: أن المعرفة الحاصلة عن شهود المعروف هو المعرفة الحقيقية بدون دخالة الصفات لتحصيل تلك المعرفة، إذ هي حينئذ قبل الصفات، وهذا بخلاف معرفة الغائب عن الشهود، فإنه إذا كان المعروف غائباً فلا محالة، أوّلاً تتعلق المعرفة بصفات الغائب فيذكر الغائب بصفاته، ثم منه تحصل المعرفة بعين الغائب، كما كان في أقسام المعرفة السابقة من الصحيحة منها فإنها كلها كانت كذلك.

وكيف كان: فتوضيح المعرفة الشهودي الحاصلة عن شهود المعروف، بدون دخاله الصفات فيها، هو ما ذكره عليه السلام بعدما قيل له: وكيف تعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال عليه السلام بقوله: «تعرفه وتعلم علمه وتعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أن ما فيه له وبه كما قالوا ليوسف: ﴿**إنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي**﴾، فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره ولا أثبتوه بتوهم القلوب» الحديث.

بيانه: أنه ذُكر لمعرفة الرب طريقان:

الطريق الأول: السير الآفاقي وهو وحده لا يوجب معرفة حقيقة؛ لأن إيجاب الموجوادت الآفاقية للمعرفة إنما هو لكونها آثاراً وآيات، وهي لا توجب إلّا علماً حصولياً بوجود الصانع تعالى، وهو علم متعلق بقضية ذات موضوع ومحمول أعني قولنا: الصانع موجود، وهذا من المفاهيم القائمة بالنفس وجوداً ذهنياً.

هذا مع أنه قام البرهان على أنه تعالى وجود محض لا مهيّة له، فيستحيل دخوله في الذهن.

فكل ما وصفه الذهن وتصوره واجباً، وحكم عليه بمحمولاته من الأسماء والصفات فهو غيره سبحانه البتة، ولهذا الكلام مجال للبحث مذكور في محله، ولعله سيجيء توضيحه فيما بعد، فهذا الطريق لا يفيد معرفة شهوديّة.

الطريق الثاني: أعني السير الأنفسي وهو منتج معرفة حقيقية شهودية، بيانه إجمالاً: أن يوجّه الإنسان وجهه للحق سبحانه، وينقطع عن كل صارف شاغل عن نفسه إلى نفسه حتى يشاهد نفسه كما هي، أي يشاهدها محتاجة بذاتها إلى الحق سبحانه، وما هذا شأنه لا تنفك مشاهدته عن مشاهدة مقوّمه.

نعم في حال انقطاعه عن نفسه وحدودها فإذا شاهد الحق حينئذ سبحانه عرفه معرفة ضرورية بأنه المقوم والقائم بنفسه وقيّوم كل شيء، ثم عرف نفسه به حقيقة لكونها محتاجة محضة قائمة الذات به سبحانه، ثم يعرف كل شيء به تعالى هكذا.

وإلى هذا يشير قوله عليه السلام فيما تقدم تعرفه وتعلم علمه، وتعرف نفسك به، ولاتعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أن ما فيه له وبه كما قالوا ليوسف.. الخ» فهذه معرفة شهودية بدون د خالة الصفات بل معرفة له تعالى به تعالى، كما لا يخفى.

وقوله عليه السلام: «وتعلم علمه» بفتح العين واللام بمعني العلامة أو خصوص الاسم، أي تعرفه ثم تعلم علائمه وأوصافه به تعالى فهو مصداق لقوله عليه السلام قبلاً: «إن معرفة عين الشاهد قبل صفته».

ثم قال: «وتعلم نفسك به تعالى لا بغيره» وكونه بكسر العين وسكون اللام تكليف محض كما لا يخفى.

وبالجملة فإذا شاهد ربّه هكذا عرفه وعرف نفسه وكل شيء به تعالى.

وإلى ذلك أيضاً يشير ما في توحيد الصدوق مسنداً عن عبدالأعلى، عن الصادق عليه السلام في حديث: «ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك؛ لأن الحجاب والصورة والمثال غيره، وإنما هو واحد موحد فكيف يوحّد من زعم أنه عرفه بغيره، إنما عرف الله من عرفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنما يعرف غيره، ليس بين الخالق والمخلوق شيء والله خالق الاشياء لا من شيء يسمى بأسمائه فهو غير أسمائه، والأسماء غيره، والموصوف غير الوصف.

فمن زعم انه يؤمن بما لا يعرف فهو ضالّ عن المعرفة، لا يدرك مخلوق شيئا إلّا بالله، والله خلو من خلقه وخلقه خلو منه»، الحديث.

وهذا الحديث الذي هو من غرر أحاديثهم عليهم السلام كالحديث السابق يشير إلى ما ذكرناه، ونشير إلى بعض ما يدل على ما ذكرنا قوله عليه السلام: وإنما هو واحد موحد أي واحد محض لا كثرة فيه أي هو تعالى وجود محض لا مهيّة له، فلا يدخل في الذهن، فليس بنحو يوجد تارة في الخارج وأخرى في الذهن، كساير الموجودات.

وحيث إنه تعالى وجود محض فلا يستلزم معرفة شيء لمعرفته تعالى، ضرورة أن معرفة شيء آخر هو العلم به وتصوره في الذهن، ولا يمكن أن يكون المتصور الذهني معرفاً لما هو وجود محض إذ لا تعلق للاعتبار به تعالى، فهما من هذه الحيثية متباينان فلا يمكن معرفة المباين بالمباين الأعلى فرض الاتحاد وهو خلف كما لا يخفى.

هذا مضافاً إلى أن العلم بشيء إذا كان موجباً للعلم بشيء آخر لزم أن يكون كل منهما لهما جهة اختلاف وجهة اتحاد فيلزم من هذا التركب فيهما.

وحيث إنه تعالى لا تركب فيه فيمتنع أن يعرف بغيره بهذا الوجه.

ولعل إليه يشير قوله عليه السلام: «ليس بين الخالق والمخلوق شيء، فلو عرفته بالعلم التصوري، فقد جعلت بينك وبينه شيء، وهذا بخلاف ما لو عرفته به تعالى».

وإليه يشير أيضاً قوله عليه السلام: «إنما عرف الله من عرفه بالله» وعليه يتفرّع قوله عليه السلام: «فمن زعم أنه يؤمن بما لا يعرف فهو ضالّ عن المعرفة أي بما لا يعرفه بنفسه».

والسر الأصلي والبرهان الجلي على أنه تعالى لا يعرف إلّا به، هو قوله عليه السلام: «لا يدرك مخلوق شيئا إلّا بالله أي أن كل شيء معروف بالله الذي هو نور السموات والأرض، فكيف يعرف بغيره؛ لأنه تعالى مقوم كل ذات غير متقوم بالذات، فكل ما سواه تعالى متقوم به وغير متقوم بالذات».

ومن المعلوم أن العلم بغير المستقل وغير المتقوم ذاتاً بعد العلم بالمستقل الذي

يقومه.

وبعبارة أخري: العلم أولاً وبالذات يتعلق بالمستقلّ بالذات، ثم بالمتقوم بغيره؛ لأن وقوع العلم يقتضي استقلالاً في المعلوم بالضرورة أي تحقّقاً وثبوتاً فيه.

وحينئذ فالعلم بغير المستقل وغير المتقوم بالذات إنما هو تكويناً يتبع المستقل الذاتي الذي هو معه.

والحاصل: الموجود الذاتي المستقل هو مقوم كل شيء خارجي أو ذهني أو نفس الأمري.

فالآثار التي منها العلم إنما هو بالذات متعلق بالموجود بالذات والمتقوم بالذات، فثبت أنه لا يدرك مخلوق مطلقاً شيئاً إلّا بالله تعالى.

ثم إنه لا تتوهم أن ذلك يوجب حلولاً أو اتحاداً تعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً، إذ مرجع الكلام إلىٰ أن الكل والآثار مترشح منه تعالى.

فالإسناد بالذات في كل شيء اليه تعالى وبالعرض إلى الخلق، ففي ظرف الانقطاع عن الحدود الخلقية يدرك ذلك الاستناد الحقيقي، وأين هذا من الاتحاد أو الحلول؟

ولذا ردّاً لهذا التوهم الفاسد قال عليه السلام: «والله خلو من خلقه وخلقه خلو منه».

فان قلت: يلزم من إدراك المخلوق كل شيء بالله تعالى أن يستلزم العلم بالشيء علماً بشيء آخر، وهذا نفاه صدر الحديث بالبيان المتقدم من أنه تعالى وجود محض، فلا يتعلق به العلم التصوري.

قلت: المنفي في صدر الرواية هو تحقق العلم الحصولي بالنسبة إليه تعالى بعلم آخر، والثابت في الذيل هو العلم الحضوري فالاستلزام المنفي هو في العلم الحصولي. وهذا بخلاف العلم الحضوري لنا بالله تعالى، فتأمل تعرف إن شاء الله.

والحاصل من الكل: أن البرهان والأحاديث دلّت على أن المعرفة الفكرية

العلمية ليست بمعرفة حقيقية، بل هي ما كانت بالنحو الذي ذكرنا من معرفته تعالى به لا بغيره.

ولذا سئل رسول الله صلى الله عليه وآله بم عرفت ربك؟ قال صلى الله عليه وآله: «عرفت الأشياء بربي»[١] وإلى ما ذكر يشير ما رواه في الكافي[٢] بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان».

فقوله عليه السلام: «اعرفوا الله بالله» يشير إلى ما ذكرنا من معرفته به تعالى.

وهذا كله بيان لمتعلق الإيمان الذي أُشير اليه بقوله عليه السلام في حديث سدير: «نعم ياسدير ليس للسائل أن يسأل عن الإيمان: ما هو؟ حتى يعلم الايمان بمن».

وما ذكره عليه السلام تفسير لقوله: «حتى يعلم الإيمان بمن»، يظهر مما ذكرنا من بيان المتعلق للإيمان، ثم إنه يجري هذا البيان بعينه بالنسبة إلى الرسالة والولاية وشؤونهما، وكذلك بالنسبة إلى صفاته تعالى وأفعاله، وجميع المعارف والإخبارات الالهية، فلا نطيل بالبيان؛ لأنه غير خفي على البصير الماهر المتتبع والله الهادى إلى الصواب، هذا كلّه في الإيمان.

الأمر الخامس: في بيان معنى كونهم أبواب الإيمان.

فنقول وعليه التوكل: معنى كونهم أبوابه أنه لا يعرف الإيمان علماً ولا حالاً ولا متعلقاً ولا تحصيلاً إلّا بهم، فيجب على الكل إتيان هذه الأبواب لتحقق الإطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر.

ففي الكافي[٣] بإسناده عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام قال: «الأوصياء هم أبواب الله عزوجل، التي يؤتى منها، ولولاهم ما عرف الله عزوجل، وبهم احتج الله

---

١ ـ انظر كتاب جامع السعادات.

٢ ـ في باب أنه لا يعرف إلاّ به.

٣ ـ في باب أنه لا يعرف إلاّ به.

تبارك وتعالى على خلقه».

وفيه، عن الصادق عليه السلام وفي بصائر الدرجات باب ١، قال عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بأسبابها، فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً، عرفه، من عرفه وجهله، من جهله ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن».

وعن بصائر الدرجات، بإسناده عن هاشم بن أبي عمار، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «أنا عين الله، وأنا جنب الله، وأنا يد الله، وأنا باب الله»[1].

وعن معاني الأخبار[2] بإسناده عن الثمالي، عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «ليس بين الله وبين حجته حجاب، فلا لله دون حجته ستر، نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم، ونحن عيبة علمه، نحن تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده، ونحن موضع سرّه».

وقد تقدم حديث أبي عبدالله عليه السلام من قوله: كان أمير المؤمنين عليه السلام «باب الله الذي يؤتى منه».

وعن أبي جعفر عليه السلام كما في بصائر الدرجات.. إلى أن قال عليه السلام: «فإن رسول الله صلى الله عليه وآله باب الله الذي لا يؤتى إلّا منه، وسبيله الذي مَن سلكه وصل إلى الله، وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وجرى في الأئمة واحداً بعد واحد».

وقد تقدم الحديث بتمامه، وتقدم حديث جابر عن السجاد عليه السلام من قوله: «ياجابر أوتدري ما المعرفة؟ المعرفة إثبات التوحيد أولاً، ثم معرفة المعاني ثانياً، ثم معرفة الأبواب ثالثاً»، الحديث.

وقد تقدم أيضاً عن احتجاج الطبرسي حديث ابن كوّا.. إلى أن قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نحن البيوت التي أمر الله أن يؤتى من أبوابها، فنحن أبواب الله

---

١ ـ البحار ج ٢٤ ص ١٩٤.

٢ ـ البحار ج ٢٤ ص ١٢.

وبيوته»، الحديث.

والأحاديث التي دلّت على أنهم عليهم السلام أبواب الايمان والعلم، وأبواب الله كثيرة جدّاً في متفرقات الأخبار.

ثم إنه قد علمت أن الباب: هو ما يدخل منه إلى شيء خارجي أو معنوي، وكونهم أبواباً أي إلى المعاني والمعارف والتوحيد، ولا ريب في أنهم أبواب للعلوم كلها، كما نطقت به الأخبار المتواترة.

وأما كونهم أبواب تحصيل تلك المعارف والحالات المعنوية أما علماً فظاهر حيث إنهم عليهم السلام بيّنوا كيفية السلوك إليها كما ذكرناه فيما تقدم، وأما وجداناً أي تحصيل الحقائق الواقعية بالسلوك أو بهم عليهم السلام.

أما الأول: فقد مرّ فيما تقدم.

وأما بهم فبيانه: أنه قد تقدم أنهم حقيقة الأسماء الحسنى له تعالى، وأنها وسعت كل شيء بما لها سعة في حدّ نفسها.

ومن المعلوم أن جميع الموجودات خصوصاً الأرواح لا تصل إلى الكمال إلّا بالأسماء. ولما كانت هي أنفسهم الشريفة فلا محالة تكون الكمالات بهم عليهم السلام.

فهم عليهم السلام الواسطة بين حقائق تلك الأسماء بما لها من السعة، وبين الموجودات الخارجية، والأرواح الكائنة في صراط الكمال كل على حسبه، فتلك الجهة الواسطية هي المعبر عنها بكونهم أبواباً لنيلها.

وهذا المقام كما علمت من شؤون ولايتهم التكوينية وهي مقام السفارة الإلهية، والترجمان الإلهي، ومقام الإفاضة من عالم الإطلاق الاسمي إلى عالم الموجودات الخارجي التكويني.

والى هذا كله أُشير في الزيارة كما تقدم «إرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليكم، وتصدر من بيوتكم» وقد تقدم بيانه.

وبعبارة أخرى: هم باب الله إلى الخلق بمعنى أن القوابل المهيّئة والماهيات

الإمكانية تكون حياتها وجميع ما لها من ربها، وتقبلها لتلك الفيوضات إنما هي بواسطتهم، حيث إنهم عليهم السلام أبواب تلك الفيوضات والمعارف، فهم أبواب الخلق من الله إليهم.

فحقائق الإيمان تتحقق في القلوب بإفاضتهم عليهم السلام كما أشار إليه أيضاً قوله عليه السلام فيما تقدم: «والله ياأبا خالد إن الأئمة هم الذين ينوّرون قلوب المؤمنين».

والحاصل: أن حقائق الإيمان قائمة بهم، ولا تكون لأحد إلّا بإفاضتهم عليهم السلام فتكويناً لا ينال أحد شيئا إلّا بهم.

وقد تقدم وجه تسمية أمير المؤمنين بأنه عليه السلام يمير العلم للمؤمنين، كما تقدم شرحه. وإليه يشير قوله عليه السلام: وسبيله الذي من سلكه وصل إلى الله.

هذا والذي يدل على هذه الأمور أي كونهم عليهم السلام أبواباً وواسطة لنيل تلك الحقائق أن العلماء والكمّلين من المؤمنين والأبدال وغيرهم إنما استفادوا تلك المقامات منهم عليهم السلام.

وإليه يشير ما في حديث جابر المتقدم.. إلى أن قال جابر: «وأنا ما أعرف من أصحابي على هذه الصفة واحداً!! قال: ياجابر، فإن لم تعرف منهم أحداً فإني أعرف منهم نفراً قلائل يأتون ويسلّمون ويتعلّمون من سرّنا ومكنوننا وباطن علومنا»، الحديث، وسيجيء فيما بعد توضيحه إن شاء الله.

الأمر السادس: اعلم أن للايمان إطلاقين في لسان الأخبار:

أحدهما: الايمان بمعنى التصديق القلبي بشيء من الدين، الذي هو فوق الإسلام بدرجة، ودون اليقين بدرجة.

ففي الكافي، والوافي، باب فضل الإيمان على الإسلام، بإسناده عن الوشا عن أبي الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: «الايمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الايمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسّم في الناس شيء أقل من اليقين».

فعلم منه أن الإيمان هو التصديق بما وراء الحجاب، وهو ما دون اليقين والتقوى، واليقين الذي هو الكشف للواقع هو فوقه، كما لا يخفى.

وثانيهما: إطلاقه على اليقين وعلى جميع المراتب التي تكون لأولياء الله تعالى.

ففيه بإسناده عن إسحاق بن عمار، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد، وهو يخفق ويهوى برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف أصبحت يافلان؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، وقال له: إن لكل يقين حقيقة، فما حقيقة يقنيك؟ فقال: إن يقيني يارسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي واظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربي، وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون على الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: هذا عبد نور الله قلبه بالإيمان، ثم قال له: اِلزم ما أنت عليه، فقال الشاب: اُدع الله لي يارسول الله أن أُرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستشهد بعد تسعة نفر، وكان هو العاشر».

فهذا الحديث وارد لبيان اليقين، وما له من الحقيقة والعلامة، وهو فوق درجة الإيمان بالمعنى السابق.

ومع ذلك أطلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه لفظ الإيمان بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا عبد نور الله قلبه بالإيمان».

ووجه إطلاقه صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان على اليقين، هو أن حقيقة الإيمان هو القبول والعقد القلبي والسكون إلى شيء كما علمت.

وهذا المعنى هو المراد بقوله عليه السلام في حديث سدير: «نعم ياسدير ليس للسائل أن يسأل عن الإيمان ماهو؟ حتى يعلم الإيمان بمن».

ولذا فسّر الامام عليه السلام متعلق الإيمان بالتوحيد الشهودي علىٰ ما علمت من بيانه.

وكيف كان، فالإيمان يطلق في كلماتهم عليهم السلام علىٰ اليقين والمراتب العالية للتوحيد كما علمت.

وعليه فقوله عليه السلام: وأبواب الإيمان، ليس المراد منه أبواب الإيمان التصديقي، الذي هو فوق مرتبة الإسلام ودون مرتبة اليقين، بل يعمّ جميع موارد إطلاقات الإيمان من اليقين وما قبله من مراتب الإيمان كما لا يخفىٰ.

فهم عليهم السلام أبواب جميع المقامات العالية للأولياء.

ولعله بهذا اللحاظ قيل: إنّ للإيمان مراتب، وعدّ من مراتبها مراتب اليقين. وإليه يشير من أنّ سلمان كان في الدرجة العاشرة من الإيمان، ويراد أنه كان في درجة اليقين أيضاً، والله الهادي إلىٰ الحقّ.

ويمكن أن يقال: إنّ وجه إطلاق الإيمان علىٰ اليقين هو أن اليقين الحقيقي ما كان حقّ اليقين، وأمّا مادونه من عين اليقين وعلم اليقين، وإن كانا من اليقين، إلّا أنهما لا يخلوان من حجاب علىٰ الواقع فيشترك مع الإيمان الذي هكذا، ضرورة أنّ الإيمان هو مع الحجاب علىٰ الواقع، فبهذا اللحاظ أطلق الإيمان علىٰ كثير من موارد اليقين، كما في الحديث المذكور: فإن زيد بن حارثة لم يعلم أنه كان في مقام حق اليقين، بل كان إما في مقام عين اليقين أو علم اليقين، فإن مقام علم اليقين أيضاً يقتضي ما قاله زيد بن حارثة، قال الله تعالىٰ ﴿كلّا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم﴾.

ضرورة أن الواصل إلىٰ مقام حق اليقين لم يبق له عين ولا أثر كما حقق في محله، والله العالم بحقائق الأُمور.

الأمر السابع:

قد علم مما ذكرنا أن معنىٰ أنهم أبواب الإيمان: أنه من سبيلهم، وطريق معرفتهم وبيانهم يصل الإنسان إلىٰ الحقائق، فيعلم أنهم عليهم السلام أركان هذه الحقائق ونفس معانيها، وهم تلك الحقائق في نفس الأمر، فلا يوجد إلّا بهم ومن عندهم، فمن أراد تلك الحقائق فلابد من الارتباط والاتصال بهم وتقدم في المقدمة كيفية الارتباط ولها علامات ذكرت في الأخبار.

ولذا نذكر في هذا الأمر أحاديث تجمع لحقائقها وعلاماتها، وتكون بمنزلة التمييز بين الواجد لها وعدمه، فنقول:

ففي الكافي، بإسناده عن عجلان أبي صالح، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام أوقفني علىٰ حدود الإيمان، فقال: «شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، والإقرار بجميع ما جاء به من عند الله، وصلوة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا وعداوة عدونا والدخول مع الصادقين».

وفيه، بإسناده عن ابن أبي اليسع، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أخبرني بدعائم الإسلام التي لا يسع أحد التقصير عن معرفة شيء منها، والتي من قصر عن معرفة شيء منها فسد عليه دينه ولم يقبل منه عمله، ومن عرفها وعمل بها صلح له دينه، وقبل منه عمله ولم يضر به مما هو فيه لجهل شيء من الأمور جهله، فقال «شهادة أن لا إله إلّا الله، والإيمان بأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحقّ في الأموال الزكاة، والولاية التي أمر الله تعالىٰ بها، ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله» الحديث.

وفيه عن أبي الجارود، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: يابن رسول الله هل تعرف مودتي لكم، وانقطاعي إليكم، وموالاتي إيّاكم؟ قال: فقال: نعم، قال: فقلت: فإني أسألك مسألة تجيبني فيها، فإني مكفوف البصر، قليل المشي، ولا أستطيع زيارتكم كلّ حين قال: هات حاجتك، قلت: أخبرني بدينك الذي تدين الله عزوجل به أنت

وأهل بيتك؛ لأدين الله عزوجل به، قال: «إن كنت أقصرت الخطبة، فقد أعظمت المسألة، والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذي ندين الله عزوجل به: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله والاقرار بما جاء به من عند الله، والولاية لولينا والبراءة من عدونا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا والاجتهاد والورع».

وفيه، باب درجات الإيمان ومنازله، بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله تعالىٰ وضع الايمان علىٰ سبعة أسهم: علىٰ البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثم قسم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل، محتمل، وقسم لبعض الناس السهم ولبعض السهمين ولبعض الثلاثة، حتىٰ انتهوا إلىٰ سبعة، ثم قال: لا تحملوا علىٰ صاحب السهم سهمين، ولا علىٰ صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم. ثم قال كذلك حتى انتهوا إلىٰ سبعة».

وفيه، باب حدود الإسلام، بإسناده عن الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بني الإسلام علىٰ خمس، علىٰ الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية».

وفي الكافي، بإسناد حسنة عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام إلىٰ أن قال: «ثم قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه، وباب الأشياء ورضا الرحمن، الطاعة للإمام بعد معرفته، إن الله تعالىٰ يقول: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولىٰ فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾».

«أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحجّ جميع دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له علىٰ الله حقّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان»، الحديث، وسيأتي بتمامه.

وفي الكافي والوافي، باب فضل الإيمان، بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: «يا جابر أيكتفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟! فوالله ما شيعتنا إلّا من اتقىٰ الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلّا بالتواضع والتخشع

والأمانة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة، والبرّ بالوالدين، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن وكفّ الألسن إلّا من خير، وكانوا أُمناء عشائرهم في الأشياء.

قال جابر: فقلت: يابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة!! فقال: «يا جابر لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحبّ عليّاً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعالاً».

فلو قال: «إني أحبّ رسول الله ﷺ فرسول الله خير من علي، ثم لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبّه إياه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عنده، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله تعالىٰ، وأكرمهم عليه أتقاهم، وأعملهم بطاعته».

«يا جابر والله ما يتقرب إلىٰ الله تعالىٰ إلّا بالطاعة، ما معنا براءة من النار، ولا علىٰ الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلّا بالعمل والورع».

أقول: ما ذكرناه في الجملة معناه هو دينهم، وهو الولاية والإيمان، وهذه الصفة أي الإيمان والولاية لا تقوم إلّا بالموصوف، أعني ما ذكروه من الشيعة بما له من الصفات، والفرع لا يتحقق إلّا بالأصل، وهم عليهم السلام في جميع ذلك أبوابه فلا يوجد الإيمان إلّا عنهم، ولا تتحقق هذه الصفات في شيعتهم إلّا بهم، ولا يصعد أحد بعمله إليه تعالىٰ إلّا بهم، ولا يقبل الله أعمالهم إلّا بهم عليهم السلام ولا يمدح أحد مؤمناً بإيمانه إلّا هم، فقولهم في ذلك مصدق.

فألواح قلوب الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، والشهداء والصالحين، وكلّ ساكن ومتحرك، وكلّ رطب ويابس، وكلّ مقبل بإقباله، وكلّ مدبر بإدباره إنما ينتقش فيها من الإيمان والمعارف، أو الطبع والخذلان بهم عليهم السلام. فهم أبوابها أجمع صلوات الله عليهم أجمعين.

جعلنا الله لهم ومعهم وإليهم، ومن مواليهم وشيعتهم ومتبعيهم، والعاملين

بأمرهم، والمنتهين بنهيهم في الدنيا والآخرة بمحمد وآله عليهم السلام والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: *وأُمناء الرحمٰن.*

أقول: أُمناء جمع أمين، وفي المجمع: المؤتمن على الشيء ومنه محمد صلى الله عليه وآله أمين الله علىٰ رسالاته.

فمعنىٰ أنهم عليهم السلام أُمناء الرحمن: أنه سبحانه إئتمنهم علىٰ دينه في حفظه عن التغيير والتبديل والتحريف عن مواضعه، وعن إعمال الرأي فيه، والنطق عن الهوىٰ بل هم عليهم السلام **﴿عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**.

ومعنىٰ كونهم أُمناء: أنهم مطهرون عمّا ينافي الأمانة، ومبرّأون عنه، لانّ خلاف الأمانة، وهو الخيانة يكون لأُمور:

منها: التخلق بالأخلاق النفسانية من التكبر والحسد والحقد وغيرها.

ومن المعلوم كما سيجيء بيانه أنهم عليهم السلام معصومون مطهرون من الرجس بنصّ آية التطهير، فلا يظلمون في شيء بتضييع الأمانة لهذه الشهوات، **ومنها:** معرضية السهو والنسيان.

ومن المعلوم أن هذا منفيّ عنهم عليهم السلام لما سيجيء في شرح قوله عليه السلام: «عصمكم الله من الزلل» من أنهم محفوظون بحفظه تعالىٰ لقوله تعالىٰ: **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** بل علمت أن الحفظة من الملائكة إنما هي بأمرهم ومن شؤونهم، ومن آثار ولايتهم التكوينية.

وقد تقدم قول الباقر عليه السلام عن كتاب كشف اليقين في حديث.. إلىٰ أن قال: «ونوراً في الظلم للنجاة، اختصهم لدينه، وفضلهم بعلمه، وآتاهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، وجعلهم عماداً لدينه، ومستودعاً لمكنون سرّه وأُمناء علىٰ وحيه» الحديث.

فالله تعالىٰ جعلهم عليهم السلام كذلك فلا محالة يحفظهم عن السهو والنسيان، كيف وقد علمت أنهم حفظة وشهداء علىٰ الخلق، وأن لهم الولاية التكوينية.

وحينئذ كيف تجمع هذه المقامات مع السهو والنسيان؟ كما لا يخفىٰ علىٰ أنّ آية التطهير وآية التكريم تدلان علىٰ نفي السهو عنهم بالملازمة العقلية.

وربما يقال: إنّ قوله تعالىٰ: ﴿ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون﴾[1] يدل علىٰ أنهم حيث يكونون مخاطبين بهذا الخطاب تأويلاً، لم يصدر منهم سهو، بدعوىٰ أن السهو إنما يحصل بالالتفات إلىٰ غيره تعالىٰ، ومن لم يلتفت لم يسه ولم يغفل ولم ينس، فتأمل.

ومنها: الجهل، فإنه منشأ للخيانة ولو عن قصور، ومن المعلوم أنه منفي عنهم لما تقدم أنهم خزان العلم، ولقوله تعالىٰ: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ فليس فيهم جهل يوجب خلاف الأمانة كما لا يخفىٰ. وسيجيء أيضاً بيانه.

ومنها: وجود ما ينافي الأمانة ومن المعلوم نفيه عنهم عليهم السلام وذلك أن الذي استحفظوه وهو لوازم ذواتهم المقدسة، فحقيقتهم هو جوهرة قدسية منزهة عما يوجب الخلاف مطلقاً، ولازمها الأمانة والتحفظ.

ومعلوم أن الشيء لا ينقلب عما هو عليه إلّا بإرادته تعالىٰ. والله أراد نفي الرجس عنهم، وأراد تطهيرهم، فهم عليهم السلام خزائن الغيب، والمخزون فيها هو عين صفاتهم وحقيقتهم، التي ظهرت أشعتها في الخلق، كما لا يخفىٰ، ولعلّه سيجيء في طي الشرح ما يوضح ذلك.

ومنها: وجود ما يوجب عدم الوفاء وهو منفي عنهم؛ لأنه تعالىٰ علم منهم الوفاء بما اشترط عليهم، وأخبر بذلك في آية التكريم، فهم عليهم السلام مؤتمنون علىٰ أنفسهم فحبسوها علىٰ طاعته، وحفظوها عن معصيته، كيف لا يكون كذلك. وأن ذواتهم المقدسة هي غيبه، الذي عنده تعالىٰ مفاتحه لا يعلمها بحقيقتها إلّا هو

---

١ ـ الحجر: ٦٥.

وأنفسهم عليهم السلام التي لا علم لأحد بها إلّا له تعالىٰ حيث إنها النفوس الملكوتية الإلهية، بل هي ذات الله العليا، التي خلقها وهي حقيقتهم وشجرة طوبىٰ، وسدرة المنتهىٰ، وجنة المأوىٰ لا يصل إليها أحد، وهي حقيقة ولايتهم التكوينية، التي لها التصريف والتصرفات الكونية، ومن كان كذلك فكيف يحتمل في حقّه خلاف الأمانة، والله العالم الهادي إلى الحقّ المبين؟!

ومنها: أنّ قلوبهم لا ريب في كونها محل مشيّة الله تعالىٰ وإرادته، وإنما جعلها محلّاً لها لما ائتمنهم عليها وعلم تعالىٰ أنهم لا يشاءون ولا يريدون إلّا ما شاء وأراد الله تعالىٰ، وبالملازمة ينفي عنهم خلاف ما أراد وشاء، فقال تعالىٰ في حقّهم: **﴿عباد مكرمون ۞ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**[1] وقال تعالىٰ: **﴿وما تشاءُون إلّا أن يشاء الله﴾**[2] وقال تعالىٰ: **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون﴾**[3] فهو تعالىٰ حفظهم أن لا يجدوا لأنفسهم ولا لشيء من ميولاتها ولا لشيء من مشياتها إعتبار وجود ولا وجود اعتبار ولا ينظرون إليها بالاستقلال أبداً.

في تفسير البرهان، بإسناده عن أبي الحسن الثالث عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالىٰ جعل قلوب الأئمة مورداً لإرادته، وإذا شاء شيئاً شاءوه وهو قوله **﴿وما تشاؤن إلّا أن يشاء الله﴾**».

فعلم أنه ليس في نفوسهم المقدسة ما يوجب خلاف الأمانة، فهو المؤتمنون علىٰ دينه كما يُحبّ الله ويرضىٰ.

وأما وجه الإضافة إلى الرحمن دون ساير صفاته تعالىٰ؛ لأن الرحمن كما تقدم اسم دال على الرحمة الواسعة،التي وسعت كلّ شيء وكلّ أحد برّاً كان أم فاجراً،

---

١ ـ الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٧.

٢ ـ الإنسان : ٣٠.

٣ ـ الأنبياء : ٢٨.

مؤمناً كان أم فاسقاً، فالخلق كلّهم مشمولون بالرحمة الواسعة، ومستفيضون منه تعالى الفيض في جميع شؤونهم.

ومن المعلوم أن الأئمة هم المفوض إليهم أمر الخلق، كما سيجيء بيانه، وهم الواسطة في ايصال الفيوضات منه تعالىٰ إليهم، فهم عليهم السلام في جميع ذلك مؤتمنون حتىٰ بالنسبة إلىٰ أعدائهم.

كما يومئ إليه ما في الكافي، بإسناده عن الحسين بن مصعب الهمداني قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ثلاثة لا عذر لأحد فيها: أداء الأمانة إلىٰ البرّ والفاجر، والوفاء بالعهد إلىٰ البر والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين».

فهم عليهم السلام أول مصداق لإداء الأمانة حتىٰ بالنسبة إلىٰ الفاجر، فهم أُمناء الرحمن أي مؤتمنون في إيصال الفيض إلىٰ الفجار أيضاً بلا صدور شائبة خلاف أبداً.

وفي الحديث: إن علي بن الحسين عليه السلام قال: «لو أن قاتل أبي جعل عندي السيف الذي قتل به أبي أمانة لأديته له إذا طلبه».

فهم أُمناء الرحمن للكلّ بمعنىٰ أنهم عليهم السلام ينظرون إلى الخلق بنظر الله إليهم، حيث شملتهم الرحمة الواسعة منه تعالىٰ فهم عليهم السلام بهذه الجهة والنظرة يتعاملون مع الخلق، وهم أُمناؤه تعالىٰ في ذلك، ولذا ترىٰ أمير المؤمنين عليه السلام يرفق بقاتله.

ففي البحار، باب كيفية شهادته، في حديث طويل إلىٰ أن قال: «.. ثم التفت إلىٰ ولده الحسن عليه السلام وقال له: اِرفق يا ولدي بأسيرك، وأرحمه وأحسن إليه، وأشفق عليه، ألا ترىٰ إلىٰ عينيه قد طارتا في أمّ رأسه، وقلبه يرجف خوفاً ورعباً وفزعاً؟

فقال له الحسن عليه السلام: «يا أباه قد قتلك هذا اللعين الفاجر، وأفجعنا فيك، وأنت تأمرنا بالرفق به، فقال له: نعم يا بني نحن أهل بيت لا نزداد علىٰ الذنب إلينا إلّا كرماً وعفواً، والرحمة والشفقة من شيمتنا لا من شيمته، بحقّي عليك فأطعمه يا بني مما تأكله»، الحديث.

فعلم أنهم عليهم السلام يتعاملون مع الخلق كما يعاملهم الله بالرحمة الواسعة، نعم، في أي

مورد انتفت الرحمة الواسعة انتفىٰ لطفهم عليهم السلام عنه؛ لانتفاء موضوعه، لا، والعياذ بالله لظلم منهم له، فقتلهم الاعداء وإجراءُهم الحدود إنما هو بأمره تعالىٰ في موارده، التي لا تشملها الرحمة الواسعة، كما لا يخفىٰ.

وملخص القول: إنّ الرحمن هو العلة لاستوائه تعالىٰ علىٰ العرش، أي هو العلة للطفه تعالىٰ علىٰ الخلق كلّهم بداعي هذه الصفة، وإلّا فأين التراب وربّ الأرباب؟!

ففي التوحيد.. إلىٰ أن قال: حدثني مقاتل بن سليمان، قال: سألت جعفر بن محمد عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿**الرحمن علىٰ العرش استوىٰ**﴾ فقال: «استوىٰ من كلّ شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء».

فيعلم أنه تعالىٰ استوىٰ على الأشياء كلّها برحمته، حيث إن الرحمة هي الصفة الجامعة لصفات الإضافة المتعلقة لصفات الخلق، وهي الرحمة الواسعة التي وسعت كلّ شيء، وانبسطت في الخلق آثارها، فهي خزائن غيبه التي أظهر عنها أفاعليها في جميع الخلق، وأظهر بها صنائعه، وأبان بها أوامره ونواهيه.

وبها أظهر فضائله في الخلق، ومنها ظهر بنيان عفوه وعدله، وانتشر بها كرمه وآلاؤه وبآثارها حمده الخلائق، وأثنىٰ عليه أهل الثناء، وبها خلق ما خلق من الخلق العلوي والسفلي بأقسامها من الملائكة وأصناف الخلق والحيوانات، وبها أعطىٰ كلّ شيء خلقه ما به قوامه ومعاشه، وبين بها وظائف المخلوقات، وبها أجرى الأقلام الإلهية بما مضت به الاحتام، وبها جعلت الأسباب بإطلاقها مؤثرات في الوجود في التكوينيات والتشريعيات والترقيات المعنوية في جميع عوالم الوجود.

والحاصل: أنّ صفة الرحمة هي التي جعلت الخلائق بأسرها في مجاري وجودها في التأثير والتأثر والترقي والتعالي والفعل والانفعال كلّها ولولاها لبقيت الموجودات في أسر احتياجها محرومة عن جميع الفيوضات، باقية في ظلمات

الإمكان وقعر سجون الفقر.

فكونهم عليهم السلام أمناء الرحمن إشارة إلىٰ أنّ جميع موارد إعمال الرحمة في الخلق إنما هو بهم؛ لأنه تعالىٰ كما علمت أشهدهم خلقها، وأنهىٰ علمها إليهم، وهم عليهم السلام الحجّة البالغة عليهم أجمعين.

وقد يقال: إنّ إشهادهم للخلق هو عبارة عن عرض ولايتهم علىٰ الخلق كلهم.

ففي المحكي عن السرائر لابن إدريس، عن جامع البزنطي عن سليمان بن خالد، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ما من شيء وما من آدمي ولا أنسي ولا جنّي، ولا ملك في السموات والأرض إلّا ونحن الحجج عليهم، وما خلق الله خلقاً إلّا وقد عرض ولايتنا عليه، واحتج بنا عليه، فمؤمن بنا وكافر وجاحد حتىٰ السمٰوات والأرض والجبال، الآية يعني الشجر والدواب»، الحديث.

ومن المعلوم: أنه تعالىٰ لم يعرض ولايتهم علىٰ الخلق إلّا بعد ما ائتمنهم علىٰ جميع ما استوىٰ به من رحمانيته علىٰ عرشه.

فهم عليهم السلام مؤتمنون عليها، وأمرهم الله تعالىٰ أن يؤدّوا الأمانات إلىٰ أهلها، فأدّوا الأمانة إلىٰ أنحاء الخلق بأنحاء الأداء، فأدّوا إلىٰ كل ذي حقّ حقّه. حتىٰ بالنسبة إلىٰ أنفسهم الشريفة فأدّوا إليها جميع ما لها من الحقّ والاستحقاق.

ومن ردّ الأمانات هو أنه تعالىٰ لما عرفهم نفسه وعرفهم عليهم السلام استحقاقه تعالىٰ، بأن يسبح ويهلل ويكبّر ويوحّد لما عرفهم نفسه تعالىٰ، وعرفوا ما له تعالىٰ من الاقتضاء الذاتي من العظمة والجمال بما يستحق تعالىٰ به أن يحمد ويسبح، إلىٰ آخر ما قلناه فأدّوا أمانة الباري تعالىٰ أي عملوا بما تقتضيه ذاته المقدسة مما ذكرنا.

فأولاً عرفوه حقّ معرفته بما منحهم الله ذلك، فسبحوه وحمدوه بحقائقهم عليهم السلام وهللوه وكبروه بتوحيدهم عليهم السلام له تعالىٰ، وعبدوه حقّ عبادته بما عرفهم نفسه، وحيث عرفوا ذلك الأمر الإلهي، وأدّوا أمانته تعالىٰ إليه فأفصحوا عن ذلك كلّه بقولهم: **﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾**.

ثم إنّهم عليهم السلام منحوا لأهل التقوىٰ والمعارف تقواهم ومعارفهم، فصاروا (أي الخلق) بذلك أتقياء وعرفاء بالله، وهكذا بالنسبة إلىٰ كل مقام لأولياء الله، فإنما هو منهم عليهم السلام كما تقدمت الإشارة إليه. فهذه الأمور من أداء الأمانة بأنحائه من شؤون كونهم أُمناء الرحمن.

والحاصل: أنهم عليهم السلام هبطوا إلىٰ الأرض مطهرون عن جميع الآفات والنقائص المنافية لقداستهم الذاتية.

قال الحسين عليه السلام: «إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار، فأرجعني إليها بكسوة الأنوار، وهداية الاستبصار حتىٰ أرجع إليك منها، كما دخلت إليك منها مصون السرّ عن النظر إليها، ومرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها، إنك علىٰ كلّ شيء قدير»، الدعاء.

فالمطلوب له عليه السلام بهذا الدعاء هو هذه القداسة الذاتية، وقد منحهم الله تعالىٰ بما لم يمنح به غيرهم، قوله عليه السلام: حتىٰ أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها، يشير إلىٰ ما حاصله.

يتّضح بتوضيح مراده عليه السلام:

فقوله ـ إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار ـ أي سيدي أنت أمرت عبادك بأن يرجعوا إلىٰ آثار قدرتك في آيات الآفاق والأنفس، ليصلوا بذلك إلىٰ معرفتك حيث قلت: **﴿أفلم ينظروا إلى السماء كيف بنيناها وزيناها﴾**[١] **﴿.. وإلىٰ السماء كيف رفعت﴾**[٢] وقوله: **﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾**[٣] وقوله: **﴿.. أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾**[٤] وغيرها من الآيات الآمرة بالتفكر في آيات الآفاق، ولكني أسألك وأرجوك أن ترجعني إليك بإراءة تجلّيات أنوارك؛ لتكون بنورك توصلني

---

١ ـ سورة ق : ٦.

٢ ـ الغاشية : ١٨.

٣ ـ النساء : ٨٢، محمد : ٢٤.

٤ ـ ابراهيم : ٩.

إليك، وأسألك أن تهديني إليك بهداية استبصارك.

فقال عليه السلام «فأرجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار ـ اللهم أرجعني إليك هكذا ـ حتىٰ أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها ـ أي أرجعني إليك بتجلّياتك حتىٰ أصل إلىٰ شهود حضرتك وجمالك بدون التوجّه إلى الآثار ـ كما دخلت إليك منها ـ أي كما أني وإن كنت من آثارك ومظاهرك إلّا أنه قد دخلت إليك، أي اتصلت بنور عزّك الأبهج منها أي من وجودي الذي هو من الآثار، فأعرضت عنها ومحوت الحدود فانياً عن نفسي وملحقاً بنور عزّك الأبهج».

وقوله عليه السلام «مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها ـ أي اِفعل بي هذا في حال كوني محفوظ النظر إلىٰ الآثار، وهمّتي مرفوعة عن أن يعتمد عليها، أو أني اتصلت بنور عزّك الأبهج حال كوني مصون النظر إلىٰ الآثار، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها».

وكيف كان فالمطلوب له عليه السلام منه تعالىٰ هو هذه القداسة الروحية التي تحصل منها أمانة النفس والروح والسرّ، التي هي ملاك كونهم عليهم السلام أُمناء الرحمن والحمد لله وحده.

قوله عليه السلام: وسلالة النبيين.

أقول: السلالة بضمّ أوله، قال في المجمع: والسلالة: الخلاصة؛ لأنها تسلّ من الكدر ويكنىٰ بها عن الولد.

والسلالة: النطفة أو ما ينسلّ من الشيء القليل، إلىٰ أن قال: وسلالة الوصيين أولادهم، إلىٰ أن قال: والسل انتزاعك الشيء وإخراجه برفق.

أقول: فسلالة الشيء ما انسل من صفوته، سميت بذلك؛ لأنها تسل من الكدر الذي يمكن أن يكون في المنسّل منه، ولذا عبّر عنها بالخلاصة.

وبهذا الاعتبار قيل للنطفة السلالة؛ لأنها خلاصة الطعام والشراب وصفو

الغذاء وكذا إطلاقها على الولد. فسلالة الوصيين أولادهم الذين من صفوتهم، فالمتصفون بالصفوة منهم يقال لهم السلالة لا مطلقاً، كما لا يخفىٰ.

وفي المحكي عن شرح الفقيه في شرح هذه الفقرة قال[1]: فإنهم عليهم السلام ذرية نوح وإبراهيم وإسماعيل ظاهراً، ومن طينة الأنبياء والرسل روحاً وبدناً، كما نطقت به الأخبار المتواترة، الخ.

أقول: ربما يقال: إنّ ظاهر كلامه رضوان الله عليه أن لا يكون المنسلِ أعلىٰ من المنسلّ منه ، إذ الولد من سلالة أبيه.

فيلزم أن يكون الأئمة والأنبياء طينتهم واحدة، ويلزم إما أن يكون الأنبياء بما هم المستلّ منهم أعلىٰ منهم عليهم السلام أو لا أقل من مساواتهم معهم وهو كما ترىٰ.

إلّا أن يقال: إنّ مراد الشارح هو بيان أن أرواحهم وأبدانهم لم تنسل من أرواح وأبدان غير الأنبياء من ساير الناس، الذين فيهم العهر والسفاح والزناء الموجب لتكوّن السلالة المنسلة منهم، بل في عالم الوجود لم تنسل أرواحهم وأبدانهم إلّا من تلك الأرواح والأبدان الطاهرة. فسياق الكلام هو بيان طهارتهم عن تكونهم بغير هؤلاء الطاهرين، لا في مقام بيان إثبات الفضيلة لهم عليهم السلام لكونهم عليهم السلام منسلّين من تلك الأرواح والأبدان، بل الأمر بالعكس كما لا يخفىٰ.

وكيف كان فظاهر كلامه ما تقدم.

هذا مع أنّ الدليل لا يأبىٰ عن كون الولد أفضل من الأب، بل دلّت الأخبار وانعقد الإجماع من الشيعة علىٰ أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله خير الخلق كما تقدمت الإشارة إليه، وسيجيء أيضاً، وعلىٰ أنّ عليّاً عليه السلام نفسه صلى الله عليه وآله بنصّ آية المباهلة من قوله تعالىٰ: ﴿وأنفسنا﴾.

ومن المعلوم أنّ المراد من كونه عليه السلام نفسه صلى الله عليه وآله المماثلة في الفضيلة لا الاتحاد، ومماثل الأفضل أفضل، فيكون علي عليه السلام أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وآله وما يجري لعلي

---

١ ـ هو الشيخ محمد تقي المجلسي الأول رحمه الله.

يجري لأولاده الأحد عشر الطيبين كما صرحت به الأحاديث المتقدمة.

وهذا يقتضي اختلاف طينتهم عليهم السلام مع طينة النبيين من حيث أرواحهم وطينتهم عليهم السلام، ومن حيث أبدانهم وأجسامهم وخلق نطفهم عليهم السلام وخلق أرواح الشيعة وأنها من فاضل طينتهم، فنقول وعليه التوكل:

ففي الكافي بإسناده عن محمد بن مروان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: «إنّ الله خلقنا من نور عظمته، ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه فكنّا نحن خلقاً وبشراً نورانييّن لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيباً، وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا، وأبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفل من ذلك (تلك) الطينة ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيباً إلّا للأنبياء.

ولذلك صرنا نحن وهم الناس، وصار سائر الناس همج للنار وإلىٰ النار، ومثله أحاديث أُخر بهذا المضمون.

فدلّ هذا الحديث ونحوه علىٰ أنّ الطينة التي خلقوا منها لم يكن لأحد من الخلق فيها نصيب، ودلّ علىٰ أنّ شيعتهم خلقوا من فاضل طينتهم، ولم يجعل الله لأحد فيما خلق منه شيعتهم نصيباً إلّا الأنبياء كما علمت، وإليه يشير قوله تعالىٰ: **﴿وإنّ من شيعته لإبراهيم﴾**(١).

فعن مجمع البيان، روىٰ أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ليهنئكم الاسم قلت: وما هو؟ قال: الشيعة، قلت: إنّ الناس يعيّروننا بذلك، قال: أما تسمع قول الله سبحانه: **﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾** وقوله: **﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾** إنتهىٰ.

فأشار عليه السلام بقوله: أما تسمع، إلىٰ أنّ هذا الاسم هو الذي أطلق علىٰ إبراهيم عليه السلام فالشيعة في مرتبته عليه السلام».

---

١ ـ الصافّات: ٨٣.

ولعلّه إليه يشير قوله عليه السلام: «ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منهم نصيباً إلّا الأنبياء»، كما لا يخفىٰ.

وكيف كان فأرواحهم عليهم السلام خلقت من نور عظمته تعالىٰ، كما دلّت عليه أحاديث كثيرة ربما نذكرها في طي الشرح وقد تقدم بعضها، ودلّت الأحاديث أيضاً علىٰ أنّ الأنبياء خلقوا من شعاع نورهم.

في البحار[1]، عن جابر بن عبدالله قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: «أول شيء خلق الله تعالىٰ ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر إلىٰ أن قال صلى الله عليه وآله: وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله.

ثم نظر إليه بعين الهيبة فرشح ذلك النور، وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كلّ قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين».

فحينئذ إذا كان خلق أرواح شيعتهم من شعاع نورهم، وأيضاً إذا كان خلق أرواح الأنبياء من شعاع أنوارهم، فلا ريب في أنّ نورهم عليهم السلام تحت حقيقتهم أي منشعبة منها ومنفعلة بها، وأن ذلك الشعاع الذي خلقت منه حقائق الأنبياء تحت نورهم أي منشعبة منه ومنفعلة به.

فحينئذ كيف يكونون عليهم السلام قد حصلوا أو سلوا من طينة الأنبياء، فحينئذ لابد من حمل كونهم سلالة النبيين علىٰ أحد معنيين:

أحدهما: أن أنوارهم وضعت في تلك المحال الشريفة الطيبة الطاهرة أعني: أصلاب الأنبياء والأرحام المطهرة.

توضيحه: أن تلك الأصلاب والأرحام المطهرة، التي تستقر وتستودع فيها تلك الأنوار الطيبة الطاهرة إنما هي قشور لتلك الألباب، أحاطت تلك الأنوار بها كإحاطة الأشعة بالسراج، وهم مدّبرون بتلك الألباب فقدرها في ساير أطوارها

---

١ ـ البحار ج ٢٢ ص ٢٣.

بمقتضى الأسباب الالهية الجارية في تلك المحال الشريفة، فتلك الأنوار مفارقة لتلك المحال الشريفة في التقدير وإن كانت مقارنة لها في التدبير، فهي سبب لشرافة تلك المحالة الشريفة.

ولأجل هذا كان كلّ من انتقل إليه ذلك النور المفارق أشرق وجهه، وعـرفه نوراً حتىٰ يعرف بذلك النور ويستبان في وجهه وغرسه إلىٰ أن ينتقل منه إلىٰ الرحم الطاهرة، فيسلب منه ذلك النور ويتلالأ بوجه الحامل به المنتقل إليها إلىٰ أن تضع الجنين، فيخرج مشرقاً بما فيه فتشرق به الأرض وتسلب أمّه النور.

فهم عليهم السلام بما هم تلك الأنوار، وإنما صارت سلالة لتلك الأصـلاب والأرحـام لشرافتها الذاتي فهي بالإضافة إلىٰ محالها سلالة أي أشعة نوريّة أُضيفت إلىٰ تـلك المحال، لا أنها استلت منها ليكـون المسـتلّ مـنه أشرف مـن المسـتل، كـيف وإن شرافتهم بسبب تلك الأنوار، وإلىٰ ما ذكرنا تشير أحاديث كثيرة، نذكر بعضها.

في البحار عن كتاب كنز جامع الفوائد، روىٰ الشـيخ أبـو جـعفر الطـوسي بإسناده عن الفضل بن شاذان عن رجاله، عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قـال: «إنّ الله تبارك وتعالىٰ خلق نور محمد من إختراعه من نور عـظمته وجـلاله، وهـو نـور لاهوتية الذي تبدّىٰ وتجلّىٰ لموسىٰ عليه السلام في طور سيناء، فما استقر له ولا أطاق موسىٰ لرؤيته، ولا ثبت له حتىٰ خرّ صعقا مغشياً عليه، وكان ذلك النور نور محمد صلى الله عليه وآله.

فلما أراد أن يخلق محمداً منه قسم ذلك النور شطرين، فخلق من الشطر الأول محمداً صلى الله عليه وآله ومن الشطر الآخر علي بن أبي طـالب عليه السلام ولم يخـلق مـن ذلك النـور غيرهما خلقهما بيده ونفخ فيهما بنفسه لنفسه، وصورهما علىٰ صورتهما، وجـعلهما أُمناء له وشهداء علىٰ خلقه وخلفاء علىٰ خليقته، وعيناً له عليهم ولساناً له إليهم. قد استودع فيهما علمه، وعلّمهما البيان واستطلعهما عـلىٰ غـيبه، وبهـما فـتح بـدء الخلائق، وبهما يختم الملك والمقادير.

ثم اقتبس من نور محمد فاطمة ابنته، كما اقتبس نوره من نوره واقتبس من نور فاطمة وعلي والحسن والحسين كاقتباس المصابيح، هم خلقوا

من الأنوار، وانتقلوا من ظهر إلىٰ ظهر، ومن صلب إلىٰ صلب، ومن رحم إلىٰ رحم في الطبقة العليا من غير نجاسة، بل نقل بعد نقل لا من ماء مهين، ولا نطفة خشرة كسائر خلقه، بل أنوار انتقلوا من أصلاب الطاهرين إلىٰ أرحام الطاهرات؛ لأنهم صفوة الصفوة اصطفاهم لنفسه؛ لأنّه لا يرىٰ ولا يدرك ولا تعرف كيفيته ولا إنيّته، فهؤلاء الناطقون المبلغون عنه، المتصرفون في أمره ونهيه، فبهم تظهر قدرته، ومنهم ترىٰ آياته ومعجزاته، وبهم ومنهم عبادة نفسه، وبهم يطاع أمره.

ولولاهم ما عرف الله ولا يدرى كيف يعبد الرحمن، فالله يجري أمره كيف يشاء فيما يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[١].

وفيه أيضاً وفي تفسير البرهان[٢] للسيد البحراني، محمد بن العباس مرفوعاً إلىٰ محمد بن زياد، قال: سأل ابن مهران عبدالله بن عباس عن تفسير قوله تعالىٰ: **﴿وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبّحون﴾**.

فقال ابن عباس: إنا كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب عليه السلام فلما رآه النبي ﷺ تبسّم في وجهه وقال: «مرحباً بمن خلقه الله قبل آدم بأربعين ألف عام»، فقلت: يا رسول الله أكان الابن قبل الأب؟!

قال: «نعم، إن الله تعالىٰ خلقني وخلق علياً قبل أن يخلق آدم بهذه المدة، وخلق نوراً فقسمه نصفين، فخلقني من نصفه، وخلق علياً من النصف الآخر قبل الأشياء كلّها، ثم خلق الأشياء فكانت مظلمة، فنورها من نوري ونور علي، ثم جعلنا عن يمين العرش، ثم خلق الملائكة فسبحنا فسبحت الملائكة، وهللنا فهللت الملائكة، وكبرنا فكبرت الملائكة، فكان ذلك من تعليمي وتعليم علي، وكان ذلك في علم الله السابق أن لا يدخل النار محبّ لي ولعلي، ولا يدخل الجنة مبغض لي ولعلي»، عليهما وعلىٰ آلهما السلام.

---

١ ـ البحار ج ٣٥ ص ٢٩، أقول: ونقله أيضاً السيد هاشم البحراني في غاية المرام.

٢ ـ تفسير البرهان ج ٤ ص ٣٩.

«ألا وإنّ الله عزوجل خلق الملائكة، بأيديهم أباريق اللجين، مملوة من ماء الحياة من الفردوس، فما أحد من شيعة علي إلّا وهو طاهر الوالدين تقي نقي مؤمن بالله، فإذا أراد أبو أحدهم أن يواقع أهله، جاء ملك من الملائكة الذين بأيديهم أباريق من ماء الجنة، فيطرح من ذلك الماء في آنيته، التي يشرب منها، فيشرب من ذلك الماء وينبت الإيمان في قلبه كما ينبت الزرع.

فهم علىٰ بينة من ربهم ومن نبيهم ومن وصيهم علي ومن ابنتي الزهراء ثم الحسن، ثم الحسين، ثم الأئمة من ولد الحسين عليه السلام فقلت: يا رسول الله ومَن الأئمة؟ قال: أحد عشر مني وأبوهم علي بن أبي طالب، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذي جعل محبة علي والإيمان سببين»، إنتهىٰ.

فعلم أنّ روح المؤمن ونطفته المعنوية أيضاً من ماء الجنة.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، قال ابن عباس: كيف ينظر بنور الله؟ قال عليه السلام: لأنا خلقنا من نور الله، وخلق شيعتنا من شعاع نورنا، فهم أصفياء أبرار أطهار متوسمون، نورهم يضيء علىٰ من سواهم كالبدر في الليلة الظلماء».

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن معاوية بن عمار، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك، هذا الحديث الذي سمعته منك، ما تفسيره؟ قال: وما هو؟

قال: إن المؤمن ينظر بنور الله، فقال عليه السلام: «يا معاوية، إنّ الله خلق المؤمنين من نوره، وصبغهم في رحمته، وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية علىٰ معرفته يوم عرفهم نفسه، فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمّه، أبوه النور وأمّه الرحمة، وإنما ينظر بذلك النور الذي خلق منه».

وفي البحار[١]، عن أمالي الشيخ بإسناده عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول

١ ـ البحار ج ٣٠ ص ٣١.

الله ﷺ يقول: «كنت أنا وعلي على عين العرش، نسبّح الله قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما خلق آدم جعلنا في صلبه، ثم نقلنا من صلب إلى صلب في أصلاب الطاهرين وأرحام المطهرات حتى انتهينا إلى صلب عبدالمطلب، فقسمنا قسمين، فجعل في عبدالله نصفاً، وفي أبي طالب نصفاً، وجعل النبوة والرسالة فيّ، وجعل الوصية والقضية في علي، ثم اختار لنا اسمين اشتقهما من أسمائه، فالله محمود وأنا محمد، والله العلي وهذا علي، فإني للنبوة والرسالة وعلي للوصية والقضية».

وفي البحار[1]، عن كتاب رياض الجنان لفضل الله بن محمود الفارسي، قال: وبإسناده مرفوعاً إلى جابر بن يزيد الجعفي، قال: قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: «يا جابر كان الله ولا شيء غيره ولا معلوم ولا مجهول، فأول ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمداً ﷺ وخلقنا أهل البيت معه من نوره وعظمته، فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر، يفصل نورنا من نور ربنا كشعاع الشمس من الشمس، نسبّح الله تعالى ونقدسه ونحمده ونعبده حقّ عبادته.

ثم بدا لله تعالى عزوجل أن يخلق المكان فخلقه، وكتب على المكان لا إله إلّا الله، محمد رسول الله علي أمير المؤمنين ووصيّه، به أيّدته ونصرته.

ثم خلق الله العرش فكتب على سرادقات العرش مثل ذلك.

ثم خلق الله السموات فكتب على أطرافها مثل ذلك.

ثم خلق الجنة والنار فكتب عليهما مثل ذلك.

ثم خلق الملائكة وأسكنهم السماء، ثم تراءى لهم الله تعالى، وأخذ عليهم الميثاق له بالربوبيّة ولمحمد ﷺ بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية.

فاضطربت فرائص الملائكة، فسخط الله على الملائكة، واحتجب عنهم، فلاذوا بالعرش سبع سنين يستجيرون الله من سخطه، ويقرّون بما أخذ عليهم

---

١ ـ البحار ج ٢٥ ص ١٧.

ويسألونه الرضا فرضي عنهم بعدما أقرّوا بذلك، وأسكنهم بذلك الإقرار السماء، واختصهم لنفسه، واختارهم لعبادته، ثم أمر الله تعالىٰ أنوارنا أن تسبح فسبّحت فسبّحوا بتبعنا، ولولا تسبيح أنوارنا ما درواكيف يسبّحون الله ولا كيف يقدّسونه.

ثم إنّ الله عزوجل خلق الهواء، فكتب عليه لا إله إلّا الله، محمد رسول، علي أمير المؤمنين وصيه، به أيّدته ونصرته.

ثم خلق الجن وأسكنهم الهواء، وأخذ الميثاق منهم بالربوبية، ولمحمد ﷺ بالنبوة ولعلي عليه السلام بالولاية فأقرّ منهم بذلك مَن أقر، وجحد منهم من جحد، فأول من جحد إبليس لعنه الله، فختم له بالشقاوة وما صار إليه.

ثم أمر الله تعالىٰ عزوجل أنوارنا أن تسبح فسبحت، فسبحوا بتسبيحنا، ولولا ذلك ما درواكيف يسبّحون الله.

ثم خلق الله الأرض فكتب علىٰ أطرافها لا إله إلّا الله محمّد رسول، عليّ أمير المؤمنين وصيه، به أيدته ونصرته، فبذلك يا جابر قامت السموات بغير عمد وتنبت الأرض.

ثم خلق الله آدم عليه السلام من أديم الأرض، فسوّاه ونفخ فيه من روحه، ثم أخرج ذريته من صلبه، فأخذ عليهم الميثاق له بالربوبية ولمحمد ﷺ بالنبوة ولعلي عليه السلام بالولاية، أقرّ منهم من أقرّ، وجحد مَن جحد، فكنّا أول من أقرّ بذلك.

ثم قال لمحمد ﷺ: وعزتي وجلالي وعلوّ شأني، لولاك ولولا علي وعترتكما الهادون المهديّون الراشدون ما خلقت الجنة والنار، ولا المكان ولا الأرض، ولا السماء ولا الملائكة ولا خلقاً يعبدني.

يا محمد: أنت خليلي وحبيبي وصفيّي وخيرتي من خلقي، أحبّ الخلق إليّ وأول ما ابتدأت إخراجه من خلقي، ثم من بعدك الصديق علي أمير المؤمنين وصيك، به أيدتك ونصرتك، وجعلته العروة الوثقىٰ ونور أوليائي ومنار الهدىٰ، ثم هؤلاء الهداة المهتدون.

من أجلكم ابتدأت خلق ما خلقت، وأنتم ضياء خلقي فيما بيني وبين خلقي خلقتكم من نور عظمتي، واحتجت بكم[1] عمّن سواكم من خلقي، وجعلتكم أستقبل بكم وأسأل بكم (أي جعلت الناس يستقبلون بكم إليّ وأنتم قبلة لهم).

وسيأتي في شرح قوله: مَن قصده توجه بكم، ما يوضح ذلك إن شاء الله.

فكلّ شيء هالك إلّا وجهي وأنتم وجهي، لا تبدون ولا تهلكون ولا يبيد ولا يهلك من تولّاكم، ومن استقبلني بغيركم فقد ضلّ وهوىٰ، وأنتم منار خلقي وحملة سرّي وخزّان علمي وسادات أهل السموات وأهل الأرض.

ثم إنّ الله تعالىٰ هبط إلىٰ الأرض في ظلل من الغمام والملائكة (نسبة الهبوط إليه تعالىٰ كناية عن أمره، وتوجهه إلىٰ الأرض لجعل الخليفة فيه) وأهبط أنوارنا أهل البيت معه، وأوقفنا نوراً صفوفاً بين يديه، نسبّحه في أرضه كما سبّحناه في سمواته، ونقدّسه في أرضه كما قدسناه في سمائه، ونعبده في أرضه كما عبدناه في سمائه.

فلما أراد الله إخراج ذرية آدم عليه السلام لأخذ الميثاق سلك ذلك النور (أي نورهم عليهم السلام) فيه، ثم أخرج ذريته من صلبه يلبّون، فسبّحناه فسبّحوا بتسبيحنا، ولولا ذلك لا درواكيف يسبحون الله عزوجل، ثم تراءىٰ لهم بأخذ الميثاق لهم بالربوبية، وكنا أول من قال: بلىٰ، عند قوله: ألستُ بربكم، ثم أخذ الميثاق منهم بالنبوة لمحمد صلى الله عليه وآله ولعلي عليه السلام بالولاية، فأقر من أقر وجحد من جحد.

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: فنحن أول خلق الله، وأول خلق عبدَالله وسبّحه، ونحن سبب خلق الخلق، وسبب تسبيحهم وعبادتهم من الملائكة والآدميين، فبنا عرف الله، وبنا وحد الله، وبنا عبد الله، وبنا أكرم الله من أكرم من جميع خلقه، وبنا أثاب من أثاب، وبنا عاقب من عاقب، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿**وإنّا لنحن الصّافون * وإنا**

---

١ ـ وفي نسخة واحتججت، ولعلّه الصحيح واحتججت، وكيف كان فليس المراد منه بمعنى الاحتياج، كما لا يخفىٰ، منه.

لنحن المسبّحون﴾[١] وقوله تعالىٰ: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾[٢].

فرسول الله ﷺ أول من عبد الله تعالىٰ، وأول من أنكر أن يكون له ولد أو شريك، ثم نحن بعد رسول الله، ثم أودعنا بذلك النور صلب آدم عليه الصلاة والسلام، فما زال ذلك النور ينتقل من الأصلاب والأرحام من صلب إلىٰ صلب ولا استقر في صلب إلّا تبين عن الذي انتقل منه انتقاله وشرف الذي استقر فيه حتىٰ صار في صلب عبدالمطلب فوقع بأُم عبدالله فاطمة فأفترق النور جزأين؛ جزء في عبدالله وجزء في أبي طالب، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وتقلبك في السّاجدين﴾[٣] يعني في أصلاب النبيين وأرحام نسائهم.

فعلىٰ هذا أجرانا الله تعالىٰ في الأصلاب والأرحام وولدنا الآباء والأُمهات من لدن آدم عليه السلام» إنتهىٰ.

وإنما نقلنا هذه الأحاديث بطولها لما فيها من المعارف الجمة، والإشارة إلىٰ بيان كونهم سلالة وصفوة، كما لا يخفىٰ.

فظهر أنهم عليهم السلام بحقيقتهم أسرار الملك الوهاب، قد انجلت في تلك العوالم، التي مرت إليها الإشارة من جانب منها، فدلّت علىٰ أنهم عليهم السلام متعينون متميزون، وأنهم إنما تعلقوا بتلك المحال الشريفة فصاروا سبباً لشرافتها، فهم عليهم السلام أُودعوا في تلك الأصلاب والأرحام بما هم أنوار كونيّة وأشباح نورانية، لهم من الكمال والشعور والدرك في جميع تلك العوالم.

ولذا دلّت الأحاديث الكثيرة علىٰ أنهم كانوا يتكلمون في بطن أُمهاتهم كما روي ذلك في فاطمة الزهراء والحسين صلوات الله عليهما، وغيرهما، كما لا يخفىٰ.

---

١ ـ الصّافات: ١٦٦، ١٦٧.

٢ ـ الزخرف: ٨٢.

٣ ـ الشعراء: ٢١٩.

ثم إنه قد عبر عنهم بالنطف في بعض الأخبار، ولكن من المعلوم أنه لا يراد منه النطف المادية، التي تكون لساير الخلق؛ وذلك لأن النطفة في لسان أهل البيت تستعمل في التي هي عالم الغيب أي النطفة النورية والمعنوية.

في المحكي عن تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «النطفة تقع بين السماء والأرض علىٰ النبات والثمر والشجر، فيأكل الناس منه والبهائم فتجري فيهم»، الحديث.

وفي الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن في الجنة لشجرة تسمىٰ المزن، فإذا أراد الله أن يخلق مؤمناً أقطر منها قطرة، فلا تصيب بقلة ولا ثمرة أكل منها مؤمن أو كافر إلّا أخرج الله تعالىٰ من صلبه مؤمناً».

أقول: وهذه الرواية تشرح المراد من قوله في الحديث السابق: «النطفة تقع بين السماء والأرض» وأنه ليس المراد منها النطفة المادية بل المراد منها المعنوية والنورية. ولهذا الحديث شرح مفصل راجع الوافي في باب صون المؤمن من الشر، فإذا كانت النطفة في المؤمن هكذا ففيهم عليهم السلام بطريق أولىٰ فأولىٰ.

فتحصل من الجميع أن المراد من كونهم سلالة النبيين، بمعنىٰ الصفوة والخلاصة من النبيين، وإن لم يكونوا من نوع طينتهم، بل هم أشرف منهم كما علمت.

لكن اقتضت الحكمة الإلهية في مقام نزولهم عليهم السلام إلىٰ عالم الدنيا من طريق التناسل، أن تتعلق تلك الأنوار بتلك المحال الشريفة المناسبة لها في مراتب النزول في كلّ شيء منها بحسبها.

وحيث لم يكن محال أشرف من أصلاب النبيين، فنزلوا إليها بإذن الله تعالىٰ، ثم سلّوا وتخلصوا منها بالولادة، فقيل: بهذه الاعتبارات سلالة النبيين.

وقد يقال: إنّ المراد من السلالة الأولاد أي أنهم في الظاهر أولاد النبيين؛ لأن الولد سلالة أبيه ولكن فيه ما فيه.

الثاني: من معنىٰ كونهم سلالة النبيين هو أنّ المراد من النبيين نفس رسول

الله ﷺ.

بيانه: أنّ النبيين قد أطلق في الآية الآتية علىٰ خصوص النبي ﷺ فأُريد من لفظ الجمع خصوص النبي ﷺ.

ففي تفسير نور الثقلين[١]، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أعينونا بالورع، فإنه من لقى الله عزوجل منكم بالورع، كان له عند الله فرج، إن الله عزوجل يقول: **﴿من يطع الله ورسوله فأُولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً﴾** فمنّا النبي ﷺ ومنّا الصديقون والشهداء والصالحون».

وفيه بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام «إنه قال لأبي بصير: يا أبا محمد لقد ذكركم الله في كتابه فقال: **﴿أُولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً﴾**.

فرسول الله ﷺ في الآية النبيون ونحن في هذا الموضع الصديقون والشهداء وأنتم الصالحون فتسموا بالصلاح كما سماكم الله عزوجل».

وفي البحار[٢]، من كتاب رياض الجنان لفضل الله بن محمود الفارسي بحذف الأسانيد، عن أنس بن مالك قال: بينا رسول الله ﷺ صلىٰ بنا صلٰوة الفجر، ثم استوىٰ في محرابه كالبدر في تمامه، فقلنا: يا رسول الله إن رأيت أنّ تفسّر لنا هذه الآية قوله تعالىٰ: **﴿أُولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾**.

فقال النبي ﷺ: «أما النبيون فأنا، وأما الصديقون فعلي بن أبي طالب، وأما الشهداء فعمّي حمزة، وأما الصالحون فابنتي فاطمة وولداها الحسن والحسين» الحديث.

---

١ ـ نور الثقلين ج١ ص٤٢٦.

٢ ـ البحار ج٢٥ ص١٦.

وعن تفسير علي بن إبراهيم: وأما قوله: **﴿مَن يطع الله والرسول فأُولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً﴾**.

«فالنبيين رسول الله، والصديقين علي، والشهداء الحسن والحسين والصالحين الأئمة، وحسن أولئك رفيقاً القائم من آل محمد ﷺ» الحديث.

أقول: لا بعد في إطلاق النبيين عليه ﷺ فإنه نظير قوله تعالىٰ: **﴿إن إبراهيم كان أُمة قانتاً﴾**[١].

ففي تفسير نور الثقلين في تفسير العياشي، عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليه السلام، عن قول الله: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾** قال: «شيء فضل الله به».

أقول: أي فضل الله بأن جعله كالأُمة مع أنه واحد تعظيماً بشأنه.

وفيه عن أبو بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿إنّ إبراهيم كان أُمة قانتاً لله حنيفاً﴾** قال: «سماه الله أُمّة».

وفيه، يونس بن ظبيان، عنه عليه السلام: «إن إبراهيم كان أُمة قانتاً: أُمة واحدة».

فكما أطلق الله تعالىٰ لفظ الموضوع للجمع عليه تعظيماً بشأنه، فكذلك أطلق هنا لفظ النبيين عليه ﷺ لعظم شأنه وعلو مقامه في النبوة، كما لا يخفىٰ.

فحينئذ معنىٰ كونهم سلالة النبيين أي سلالة النبي محمد ﷺ، فحينئذ يتجه المراد من الشارح المجلسي الأول رحمه الله فإنهم عليهم السلام قد سلوا من محمد ﷺ جدهم سلّ النور من النور، كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «أنا من محمد ﷺ كالضوء من الضوء».

---

١ ـ النحل: ١٢٠.

فظهر من جميع ما ذكرنا: أن كونهم سلالة النبيين أنهم ودائع الله عند الأنبياء، وهم أدّوا ودائعه كما أمرهم، هذا بالنسبة إلىٰ حقيقتهم النورانية، ثم تعلقت تلك الأنوار بالنطف الطيبة تعلق ما بالقوة بما بالفعل كتعلق الشجر في غيب النواة.

وظهر أن أرواح شيعتهم من فاضل طينتهم، وأن حقيقة نطف شيعتهم من ماء العرش، وهم الطيبون أباً وأمّاً، بل ورد أنّ حقيقة أنوار الشيعة كأنوارهم عليهم السلام بنحو يفوق أنوار الأنبياء وأرواحهم.

ففي بصائر الدرجات بإسناد رفعه إلىٰ أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأول، جعلهم الله خلف العرش، لو قسم نور واحد منهم علىٰ أهل الأرض لكفاهم».

ثم قال عليه السلام: «إنّ موسىٰ لما سأل ربّه ما سأل، أمر واحد من الكروبيين فتجلّىٰ للجبل فجعله دكّاً، فيعلم أن حقيقة أنوارهم في الكروبيين خلف العرش فضائلهم أكثر من أن يحصىٰ».

كيف وهم شعاع أنوار الأئمة عليهم السلام والفضل للأصل، وهو أنوار محمد وآله الطاهرين ويعجبني أن أختم الكلام بما نقل في فضل سيد الأنام محمد صلى الله عليه وآله عن عمّ النبي صلى الله عليه وآله العباس بن عبدالمطلب قال:

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حين يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ... ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين ... وقد ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صالب إلىٰ رحم ... إذا مضىٰ عالم بدا طبق
حتىٰ احتوىٰ بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض ... وضاءت بنورك الأُفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النو ... ر وسبل الرشاد نخترق

قوله عليه السلام: وصفوة المرسلين.

الصفوة مثلثة الصاد: الخلاصة، والكلام في هذا كالكلام في الجملة السابقة، فكونهم صفوة المرسلين أي أن طينتهم من طينة لم يجعل الله لأحد من الخلق فيهن نصيباً كما دلّ عليه حديث محمد بن مروان عن أبي عبدالله عليه السلام المتقدم.

ويدل على هذا ما في البحار عن كتاب رياض الجنان[1] ففيه: ومن ذلك ما رواه جابر بن عبدالله قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أول من خلق الله تعالىٰ ما هو؟ فقال: «نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كلّ خير، ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله.

ثم جعله أقساماً فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحبّ ما شاء الله.

ثم جعله أقساماً، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله.

ثم جعله أجزاءً، فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر والكواكب من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله.

ثم جعله أجزاءً فخلق العقل من جزء، والعلم والحلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله.

ثم نظر إليه بعين الهيبة، فرشح ذلك النور، وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة فخلق الله من كلّ قطرة روح نبيّ ورسول.

ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين.

ونظيره أحاديث كثيرة كما لا يخفىٰ، لمن راجع البحار فيستفاد منه أنهم عليهم السلام صفوة المرسلين حيث إن نوره صلى الله عليه وآله أول مخلوق له تعالىٰ».

---

١ ـ البحار ج ٢٥ ص ٢١.

ومعلوم بضميمة ساير الأحاديث الكثيرة أنّ أرواح الأئمة عليهم السلام خلقت من نوره صلى الله عليه وآله كما علمت وتعلم، فظهر أنّ أرواحهم أول خلق له تعالىٰ قبل خلق كلّ شيء، فكانوا يهللون الله ويسبحونه حول العرش بمدة، لا يحيط به العقل ولا يثبته القلم، وسيجيء بيانه عند شرح قوله عليه السلام: «خلقكم الله أنواراً».

ويدل علىٰ طول مدة خلقهم قبل الكلّ ما في تفسير البرهان، عند قوله تعالىٰ **﴿وهو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه علىٰ الماء﴾**[1].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام كما في البحار في كتاب السماء والعالم أنه سئل عن مدة ما كان عرشه علىٰ الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء فقال: «تحسن أن تحسب؟ فقال له: نعم، فقال: لو أنّ الأرض من المشرق إلىٰ المغرب، ومن الأرض إلىٰ السماء حبّ خردل، ثم كلفت علىٰ ضعفك أن تحمله حبّة حبّة من المشرق إلىٰ المغرب حتىٰ أفنيته، لكان ربع عشر جزء من سبعين ألف جزء من بقاء عرش ربنا علىٰ الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء ثم قال: إنما مثلت لك مثالاً».

وفي حديث مثله، قال عليه السلام في آخره: وأستغفر الله عن التحديد بالقليل، فحينئذ إذا كان بقاء العرش على الماء، لا يدخل تحت حصر، كيف بأنوارهم عليهم السلام التي خلقت قَبل كون العرش على الماء، فسبقتهم على الخلق لا بكيف ولا بوصف، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وآله فقال: «نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق منه كلّ خير، ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله».

فقوله صلى الله عليه وآله: «ما شاء الله»، يشير إلىٰ تلك المدة التي لا توصف، وكذلك ساير الإقامات التي ذكرت في الحديث، وحدّد بقوله: «ما شاء الله»، لا يعلم كيفيته ولا مقداره كما لا يخفىٰ.

ولعله اليه يشير قوله تعالىٰ: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر**

---

١ ـ هود : ٧.

قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[١].

وقوله تعالىٰ: **﴿ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم﴾**[٢].

فعن تفسير علي بن إبراهيم، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾** الآية، قال: «قد أخبرك أنّ كلام الله ليس له آخر ولا غاية ولا ينقطع أبداً».

أقول: لا ريب في أنّ عدم انقطاع الكلام يحكي عن عدم انقطاع المحكي به كما لا يخفىٰ.

وفي البحار عن مناقب آل أبي طالب، وتحف العقول، والاحتجاج، سأل يحيىٰ ابن أكثم أبا الحسن العالم عليه السلام عن قوله تعالىٰ: **﴿سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾** ما هي؟

فقال: «هي عين الكبريت وعين اليمن وعين البرهوت وعين الطبرية وحمة ماسيدان وحمة افريقيّة وعين باحوران، ونحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا ولا تستقصىٰ».

فهذا الحديث بين معناها الظاهري ومعناها التأويلي.

فقوله ونحن الكلمات.. الخ يشير إلىٰ أنّ حقيقتها ذواتهم المقدسة، التي لا تدرك فضائلهم ولا تستقصىٰ، وإطلاق الكلمة والكلمات عليهم عليهم السلام كثيرة.

ففي البحار عن تفسير القمي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام فإن يشإ الله يختم علىٰ قلبك، قال: «لو افتريت ويمح الله الباطل، يعني يبطله ويحقّ الحقّ بكلماته يعني بالأئمة والقائم من آل محمد (عج)» الخبر.

وفيه، عن بصائر الدرجات بإسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: **سمعته يقول:**

---

١ ـ الكهف: ١٠٩.

٢ ـ لقمان: ٢٧.

«إن الله إذا أراد أن يخلق الامام من الامام بعث ملكاً فأخذ شربة من تحت العرش، ثم أوصلها أو دفعها إلىٰ الامام فيمكث في الرحم أربعين يوماً لا يسمع الكلام، ثم يسمع بعد ذلك، فإذا وضعته أُمّه بعث ذلك الملك الذي كان أخذ الشربة، ويكتب علىٰ عضده الأيمن: وتمت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم»، فمكاتبته علىٰ عضده يبين أنه عليه السلام حقيقة الكلمة ومصداقها.

وفيه عن مناقب آل أبي طالب، يحيىٰ بن عبدالله بن الحسين، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون﴾** قال: «نحن هم».

فإن الظاهر أنّ المراد من قوله: «نحن هم»، أنهم الكلمة التي ذكرها الله للعباد المرسلين.

وكيف كان فأُطلقت الكلمة على الأئمة عليهم السلام وعلىٰ الامامة وعلىٰ ولايتهم كما لا يخفىٰ علىٰ المتتبع لآثارهم.

كل هذا يشير إلىٰ أنهم الخلق الأول إلىٰ الآخر، الذي هو كلماته التي تحكي عن أنواع الخلق، فكلّ خلق شأن من شؤونهم.

فهم في جميع المراتب صفوة الله وصفوة المرسلين وصفوة جميع الخلق، ولعمري إنّ حديث جابر أحسن بيان لهذا، فإنه بيّن أنهم عليهم السلام بعد أن خلقهم الله، وأمرهم بالادبار لتشييد نظام عالم الوجود، فأخذوا عليهم السلام ينزلون من مقام إلىٰ مقام الذي بيّنه صلى الله عليه وآله في هذا الحديث، وكلما وصلوا مقاماً في نزولهم بقوا فيه يسبحون الله بكلّ لسان يمكن في ذلك المقام بكلّ لغة ممكن، إلىٰ أن وصلوا إلىٰ آخر مقام من مقامات الاختصاص.

فلما حصلوا هناك ولحظهم سبحانه بعين الهيبة، رشح من أنوارهم تلك القطرات المذكورة، التي كان من كلّ منها روح نبيّ من الأنبياء إلىٰ آخرهم فهم الصفوة، أي اصطفاهم واختارهم من الأنوار الخالصة، التي لا ظلمة ولا دناسة

فيها، فهم في جميع مراتب النزول التي مرت إليه الإشارة: مصطفون ومصفون وملحوظون باللحاظ الإلهي الربوبي في مستو واحد وإن نزلت بهم المقادير إلىٰ مراتب الخلقة، وهم دائماً في حفظه تعالىٰ وكنفه، وفي صدر كلّ منزلة ومرتبة كانت لأحد من الخلق، ولذا هم السابقون إلىٰ الإجابة له تعالىٰ في الذر، وفي عالم الدنيا والتكليف.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج ما يقرب من هذا اللفظ: «أنزلوهم أحسن منازل القرآن» أي أيّ منزلة ذكرت في القرآن لأي ممدوح بلسان الوحي.

فمحمد صلى الله عليه وآله في أحسن تلك المنزلة في جميع مراتبها، فأنزلوهم في منازلهم، ولا تنحّوهم عنها، فهم صفوة الله والمرسلين فضلاً عن النبيين وعن ساير الخلق.

وربما يقال: إنّ كونهم صفوة المرسلين ككونهم سلالة النبيين، إلّا أنّ السابقة يراد بها اصطفاهم ذاتاً وروحاً وخلقاً أوليّاً، وبهذه الجملة الثانية يراد بها اصطفاهم بلحاظ مقام البعث والتبليغ، فإنه صلى الله عليه وآله مبعوث بأعلىٰ مراتب التوحيد، وهاد إلىٰ أقوم مراتب العبودية كما يقول تعالىٰ: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين**﴾.

نعم: هذا الاعتبار الثاني فرع الاعتبار الأول، كما لا يخفىٰ.

وإلىٰ أهمية مقام الصفوة يشير ما عن الكاظم عليه السلام قال: «لن يبعث الله رسولاً إلّا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله ووصيه علي عليه السلام».

وعن الصادق عليه السلام قال: «ما من نبي جاء قطّ إلّا بمعرفة حقّنا، وتفضيلنا علىٰ من سوانا» كما تقدم.

وتقدم قول الصادق عليه السلام: «إنما أمر الناس بمعرفتنا والتسليم لنا والردّ إلينا فيما اختلفوا». كل ذلك يشير إلىٰ علو مقامهم وأنهم عليهم السلام بمرتبة فوق الخلق ودون الخالق، ولذا أمر الأنبياء والناس كلّهم بمعرفتهم وتفضيلهم علىٰ من سواهم.

اللّهم إجعلنا ممن أقرّ بفضلهم، وسلم لهم، وتبعهم في ولايتهم، وجعلته معهم في

الدنيا والآخرة، ومن محبيهم، وخالص شيعتهم بمحمد وآله الطاهرين والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: وعترة خيرة ربّ العالمين.

أقول: الكلام في شرح هذه الجملة يقع في أمور خمسة:

الأول: في معنى العترة والآل والأهل والرهط فنقول: قال المجلسي الأول رحمه الله في المحكي عنه: العترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأقربون، وهم أهل بيته كما ورد متواتراً عنه صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، والخيرة بسكون العين وفتحها: المختار، إنتهىٰ.

أقول وفي معاني الأخبار[1] للصدوق رضوان الله عليه، قال مصنف هذا الكتاب قدس الله روحه: حكىٰ محمد بن بحر الشيباني، عن محمد بن عبدالواحد صاحب أبي العباس تغلب في كتابه الذي سماه كتاب الباقرية، أنه قال: حدثني أبو العباس تغلب، قال: حدثني ابن الأعرابي وقال: العترة قطاع المسك الكبار في النافجة وتصغيرها عتيرة، والعترة: الريقة العذبة وتصغيرها عتيرة، والعترة شجرة تنبت علىٰ باب وجار الضب، وأحسبه أراد وجار الضبع، لأن الذي للضب مكو وللضبع وجار.

أقول: وعن القاموس: والوجار بالكسر والفتح حجر الضبع وغيرها، قيل: وقوله: وغيرها لا يدل علىٰ أنه يستعمل في الضب أيضاً، وفيه ما لا يخفىٰ.

ثم قال: وإذا خرجت الضب من وجارها تمرغت علىٰ تلك الشجرة فهي لذلك لا تنمو ولا تكبر، والعرب تضرب مثلاً للذليل والذلة، فيقولون: أذل من عترة الضب. قال: وتصغيرها عتيرة. والعترة ولد الرجل وذريته من صلبه، فلذلك سميت ذرية محمد صلى الله عليه وآله من علي وفاطمة عليهما السلام عترة محمد صلى الله عليه وآله.

---

١ ـ معاني الأخبار ص ٩١.

قال تغلب: فقلت لابن الأعرابي فما معنى قول أبي بكر في السقيفة: **نحن عترة رسول الله ﷺ**؟ قال: أراد بلدته وبيضته، وعترة محمد ﷺ لا محالة ولد فاطمة عليها السلام.

والدليل علىٰ ذلك ردّ أبي بكر وإنفاذ علي عليه السلام بسورة براءة وقوله ﷺ: «أُمرت ألّا يبلغها عنّي إلّا أنا أو رجل مني» فأخذها منه ودفعها إلىٰ من كان منه دونه، فلو كان أبو بكر من العترة نسباً، دون تفسير ابن الأعرابي: أنه أراد البلدة، لكان محالاً أخذ سورة براءة منه ودفعها إلىٰ علي عليه السلام.

وقد قيل: إنّ العترة الصخرة العظيمة، تتخذ الضبّ عندها حجراً يأوي إليه، وهذا لقلّة هدايته.

وقد قيل: إن العترة أصل الشجرة المقطوعة، التي تنبت من أُصولها وعروقها، والعترة في غير هذا المعنىٰ قول النبي ﷺ «لا فرعة ولا عتيرة».

الفرع بالتحريك: أول ولد تنتجه الناقة، كانوا يذبحونه لآلهتهم يتبركون بذلك، والعتيرة أيضاً هي الذبيحة، التي كانت تذبح للأصنام في رجب فيصبّ دمّها علىٰ رأسها.

قال الأصمعي: كان الرجل في الجاهلية ينذر نذراً علىٰ أنه إذا بلغت غنمه مائة أن يذبح رجبيّه (رجيبه) وعتايره، فكان الرجل ربما بخل بشاته فيصيد الضباء ويذبحها عن غنمه عند آلهتهم ليوفي بها نذره. وأنشد الحارث بن حلّزة:

عنتاً باطلاً وظلماً كما ... تعتر عن حجرة الربيض الضباء

يعني يأخذونها بذنب غيرها كما يذبح أُولئك الضباء عن غنمهم.

وقال الأصمعي: والعترة الريح، والعترة أيضاً: شجرة كثيرة اللبن، صغيرة يكون نحو القامة.

ويقال: العتر، الضباء، الذكر، عتر يعتر عتراً، إذا نعظ.

وقال الرياشي: سألت الأصمعي عن العترة، فقال: هو نبت مثل المرز نجوش

ينبت متفرقاً.

أقول: قال الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة[١]، قال أبو عبيدة (هو القاسم بن سلام، كظلام، المتوفى ٢٢٣ وكان من المشاهير في اللغة والحديث والأدب) في كتاب الأمثال، حكاه عن أبي عبيدة: العتر والعطر أصل للانسان، ومنه قولهم: عادت لعترها لميس (العتر: الأصل، ولميس اسم امرأة مثل يضرب لمن يرجع إلىٰ عادة سوء تركها، واللام في لعترها بمعنىٰ إلىٰ، كما في التنزيل: **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾** أي عادت خلق كانت فارقته.

ثم قال ﷺ في معاني الأخبار: قال مصنف هذا الكتاب ﷺ: والعترة علي بن أبي طالب وذريته من فاطمة، وسلالة النبي ﷺ وهم الذين نصّ الله تبارك وتعالىٰ عليهم بالامامة علىٰ لسان نبيّه ﷺ وهم اثنا عشر، أولهم علي وآخرهم القائم عليهم السلام علىٰ جميع ما ذهبت إليه العرب من معنىٰ العترة.

وذلك أنّ الأئمة من بين جميع بني هاشم ومن بين جميع ولد أبي طالب كقطاع المسك الكبار في النافجة، وعلومهم العذبة عند الحكمة والعقل (الحل والعقد)، وهم الشجرة التي قال رسول الله ﷺ: «أنا أصلها وأمير المؤمنين عليه السلام فرعها، والأئمة من ولده أغصانها، وشيعتهم ورقها، وعلمهم ثمرها». وهم عليهم السلام أُصول الاسلام علىٰ معنىٰ البلدة والبيضة. وهم عليهم السلام الهداة، علىٰ معنىٰ الصخرة العظيمة التي يتخذ الضبّ عندها حجراً يأوي إليها لقلة هدايته. وهم أصل الشجرة المقطوعة؛ لأنهم وتروا وظلموا وجفوا وقطعوا ولم يوصلوا فنبتوا من أُصولهم وعروقهم، ولا يضرّهم قطع من قطعهم، وإدبار من أدبر عنهم، إذ كانوا من قبل الله منصوصاً عليهم علىٰ لسان نبيه ﷺ.

ومن معنىٰ العترة هم المظلومون المأخوذون بما لم يجرموه ولم يذنبوه. ومنافعهم كثيرة، وهم ينابيع العلم علىٰ معنىٰ الشجرة الكثيرة اللبن، وهم عليهم السلام ذكران غير

---

١ ـ كمال الدين ص٢٤٣.

أُناث علىٰ معنىٰ قول من قال: إنّ العترة هو الذكر، وهم جند الله عزوجل وحزبه، علىٰ قول الأصمعي: إن العترة: الريح، قال النبي ﷺ: «الريح جند الله الأكبر»، في حديث مشهور عنه ﷺ.

والريح عذاب علىٰ قوم ورحمة لآخرين، وهم عليهم السلام كذلك، كالقرآن المقرون إليهم بقول النبي ﷺ: «إني مخلف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

قال الله عزوجل: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً﴾.

وقال عزوجل: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأمّا الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلىٰ رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾.

وهم عليهم السلام أصحاب المشاهد المتفرقة علىٰ المعنى الذي ذهب إليه من قال: إنّ العترة هو نبت مثل المرز نجوش ينبت متفرقاً، وبركاتهم منبثّة في المشرق والمغرب، إنتهىٰ ما عن معاني الأخبار.

قال الصدوق رحمه الله في كمال الدين وتمام النعمة[1]: قال مصنف هذا الكتاب رحمه الله: إن سأل سائل عن قول النبي ﷺ: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي ألا انهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض»، فقال: ما تنكرون أن يكون أبو بكر من العترة، وكلّ بني أمية من العترة، أو لا تكون العترة إلّا لولد الحسن والحسين عليهما السلام فلا يكون علي بن أبي طالب من العترة؟ فقيل له: أنكرت لما جاء به اللغة.

ودل عليه قوله ﷺ فأما دلالة قوله ﷺ فإنه قال: عترتي أهل بيتي.

والأهل مأخوذ من اهالة البيت، وهم الذين يعمرونه، فقيل لكلّ من عمّر البيت أهل، كما قيل لمن عمّر البيت أهله ولذلك قيل لقريشي: آل الله لأنهم عمّار

---

١ ـ كمال الدين ص ٢٤١.

بيته، والآل: الأهل.

قال الله عزوجل في قصة لوط: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾[1].

وقال: ﴿إلّا آل لوط نجيناهم بسحر﴾[2].

فسمي الأول أهلاً، والآل في اللغة: الأهل، وإنما أصله أنّ العرب إذا ما أرادت أن تصغر الأهل قالت: أهيل، ثم استثقلت الهاء، فقالت: آل وأسقطت الهاء فصار معنى الآل كلّ من رجع إلى الرجل من أهله بنسبه، ثم استقر ذلك في الأُمة، فقيل لمن رجع إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله بدينه: آل. قال الله عزوجل: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

وإنما صح أنّ الآل في قصة فرعون متبعوه؛ لأن الله عزوجل إنما عذبه علىٰ الكفر ولم يعذبه علىٰ النسب، فلم يجز أن يكون قوله: ادخلوا آل فرعون، أهل بيت فرعون، فمتىٰ قال قائل: آل الرجل فإنما يرجع بهذا القول إلىٰ أهله إلّا أن يدل عليه بدلالة الاستعارة كما جعل الله عزوجل يقوله: ﴿أدخلوا آل فرعون﴾.

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ما عنىٰ إلّا ابنته، وأما الأهل فهم الذرية ومن الرجل وولد أبيه وجده ودنيه» كذا في الأصل علىٰ ما تعورف، ولا يقال لولد الجد الأبعد: أهل.

ألا ترىٰ أنّ العرب لا تقول للعجم: أهلنا وإن كان إبراهيم عليه السلام جدّهما.

ولا تقول من العرب مضر لاياد: أهلنا، ولا لربيعة.

ولا تقول قريش لسائر ولد مضر: أهلنا.

ولو جاز أن يكون سائر قريش أهل الرسول عليه السلام بالنسب، لكان ولد مضر وسائر العرب أهله، فالأهل أهل بيت الرجل ودنيه.، فأهل رسول الله صلى الله عليه وآله بنو هاشم دون سائر البطون.

فإذا ثبت أنّ قوله صلى الله عليه وآله: «إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله

---

١ ـ هود: ٨١.

٢ ـ القمر: ٣٤.

وعترتي أهل بيتي»، فسأل سائل ما العترة؟ فقد فسّرها هو ﷺ بقوله «أهل بيتي» وهكذا في اللغة أنّ العترة شجرة تنبت علىٰ باب جحر الضب.

قال الهذلي:

فما كنت أخشىٰ أن أُقيم خلافهم　　لستة أبيات كما تنبت العتر

إنتهىٰ.

أقول: هذا البيان كاف لبيان المعاني اللغوية لكلمة الآل والأهل والعترة.

وقد تقدم في شرح أهل بيت النبوة بيان معان الأهل، وأنه لا يراد منه في مثل هذه الاطلاقات إلّا الأئمة عليهم السلام، فراجع.

وأما الرهط فسيجيء في ذكر الأحاديث الواردة في الباب.

وأما السلالة فقد تقدم بيانه.

وأما الذرية فسيجيء بيانها في شرح قوله عليه السلام: وذرية رسول الله ﷺ.

وهنا أحاديث كثيرة دلت علىٰ بيان المراد من هذه الكلمات فنذكر بعضها إن شاء الله تعالىٰ.

ففي معاني الأخبار للصدوق[1] رحمه الله، بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي تارك فيكم أمرين، أحدهما أطول من الآخر كتاب الله عزوجل حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض طرف بيد الله وعترتي ألا وإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض»، فقلت لأبي سعيد: من عترته؟ قال: أهل بيته.

وفيه بإسناده، عن غياث بن إبراهيم، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين عليهم السلام قال سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن معنىٰ قول رسول الله ﷺ: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»، من العترة؟ فقال: أنا والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين،

---

١ ـ معاني الأخبار ص٨٩.

تاسعهم مهديهم وقائمهم لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم حتىٰ يردوا علىٰ رسول الله ﷺ حوضه».

وفيه[١]، بإسناده عن محمد بن سليمان الديلمي، عن أبيه، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك من الآل؟ قال: ذرية محمد، قال: فقلت: ومن الأهل؟ قال: الأئمة عليهم السلام فقلت: قوله عزوجل: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ قال: والله ما عنىٰ إلّا ابنته.

وفيه[٢]، بإسناده عن عبد الله بن ميسرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنا نقول: اللّهمّ صلّ علىٰ محمد وآل محمد، فيقول قوم: نحن آل محمد!! فقال: إنّما آل محمد من حرم الله عز وجل علىٰ محمد نكاحه.

وفيه بإسناده عن صاحب تغلب يقول: سمعت أبا العباس تغلب يسأل عن معنىٰ قوله ﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين»، لِمَ سمّيا بثقلين؟ قال: لأن التمسك بهما ثقيل، وتقدم حديث أبي بصير عن الصادق عليه السلام من قوله فقلت: من عترته؟ قال: أصحاب العباء، الخ.

أقول: حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة بين الفريقين وقد وردت بطرق كثيرة جداً، كما لا يخفىٰ.

فالعترة قد قرنهم رسول الله ﷺ بالقرآن وبين فضلهم وما هم.

وهذه الجملة إشارة إلىٰ أنهم عليهم السلام عترة رسول الله ﷺ المشار إليها في قوله ﷺ: «وعترتي أهل بيتي».

ثم إن الظاهر من هذه الأحاديث أن المراد من العترة هم الأئمة عليهم السلام وهذا هو المعلوم من مراده ﷺ إلّا أنه ربما يقال: بأن الظاهر من موارد ورود الحديث عنه ﷺ هو خصوص أصحاب الكساء الخمسة عليهم السلام وإن باقي الأئمة إنما يدخلون فيهم من جهة اللزوم العقلي أو الشرعي الثابت من أدلة الاشتراك أو الدّالة بأن

---

١ ـ معاني الأخبار ص ٩٤.
٢ ـ معاني الأخبار: ٩٣.

التسعة عليهم السلام كالخمسة عليهم السلام من حيث الذات والصفات والأفعال.

ثم إن الكلام في هذا بعد العلم بأنه يجري لآخرهم ما يجري لأولهم، كما تقدم بلا طائل، كما لا يخفىٰ.

بقي شيء وهو أنه روي عن الفريقين خصوصاً عن العامة: أنه في قراءة عبدالله ابن مسعود: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين (ورهطك منهم المخلصين)﴾ وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً.

وفي البحار عن كنز الفوائد بإسناده عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزوجل: ورهطك منهم المخلصين قال: علي وحمزة وجعفر والحسن والحسين وآل محمد صلوات الله عليهم خاصة[١].

فيعلم من هذا الحديث ونحوه أنّ رهط النبي هو ما ذكره الباقر عليه السلام لا غيرهم.

أقول: إن حديث الثقلين من الأحاديث المشهورة المتواترة بين الفريقين، وقد وردت بالسنة مختلفة، وتضمنت علىٰ حقائق خفية عن كثير من الناس فلا بأس بذكره، ثم الاشارة إلىٰ تلك الحقائق ونستمد منه تعالىٰ التوفيق لذلك فنقول.

في معاني الأخبار وإكمال الدين[٢]، بإسناده عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض كهاتين، وضمّ بين سبابتيه»، فقام إليه جابر بن عبدالله الأنصاري فقال: يا رسول الله ومَن عترتك؟ قال: «علي والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين إلىٰ يوم القيٰمة»، وقد تقدم مثله أيضاً آنفاً.

وفي البحار في غيبة النعماني، قال النبي صلى الله عليه وآله في خطبته المشهورة التي خطبها في

---

١ ـ البحار ج ٢٥ ص ٢١٣.
٢ ـ معاني الأخبار ص ٩١.

مسجد الخيف في حجة الوداع: «إني وإنكم واردون علي الحوض، حوضاً عرضه ما بين بصرىٰ إلىٰ صنعاء، فيه قدحان عدد نجوم السماء، وإني مخلّف فيكم الثقلين الثقل الأكبر القرآن والثقل الأصغر عترتي وأهل بيتي، هما حبل الله ممدود بينكم وبين الله عزوجل، ما إن تمسكتم به لن تضلوا، سبب منه بيد الله وسبب بأيديكم».

علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن رسول الله ﷺ أنه قال في جملة كلام: ألا وإني سائلكم عن الثقلين؟ قالوا: يا رسول الله ﷺ وما الثقلان؟ قال: «كتاب الله الثقل الأكبر طرف بيد الله وطرف بأيديكم فتمسكوا به لن تضلوا ولن تزلوا، والثقل الأصغر عترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض كإصبعي هاتين وجمع بين سبابتيه، ولا أقول كهاتين وجمع بين سبابته والوسطىٰ، فتفضل هذه علىٰ هذه.

ثم إنّ الكلام في شرح هذا الحديث يقع في جهات، ذكرها المجلسي رحمه الله في البحار[1]، إلّا إن المهم الإشارة إلىٰ بعض أسرار الحديث.

فنقول وعلىٰ الله التوكل: قال بعض الأعلام وأهل المعرفة ما لفظه وحاصله مع توضيح لمحصوله: لا يخفىٰ عليك أنّ الكتاب كتابان: كتاب صامت وهو ما بين الدفتين، وكتاب ناطق وهو الأئمة عليهم السلام.

ففي تفسير القمي، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلّا أنّ العلم الذي هبط به آدم من السماء إلىٰ الأرض، وجميع ما فضّلت به النبيون إلىٰ خاتم النبيين عندي وعند عترة خاتم النبيين، فأين يتاه بكم بل أين تذهبون؟».

وفي النهج: «وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين، لا ينطق بلسان ولابد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال».

فقوله عليه السلام «إنما هو خط يشير إلى القرآن الصامت» وقوله عليه السلام: «وإنما ينطق عنه

---

١ ـ البحار ج ٢٣ ص ١٠٤ ـ ١٦٦.

الرجال» يشير إلى القرآن الناطق.

وكيف كان فالكتاب الناطق مشتمل علىٰ ما اشتمل عليه الصامت، لما تقدم من قول الصادق عليه السلام من أن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿**بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم**﴾ هو صدورهم عليهم السلام.

والكتاب الصامت مبين لما اشتمل عليه الناطق كمناهاة مكتوب القرآن لملفوظه فهما كالسبابتين وكلّ منهما دال علىٰ الآخر، كالمرآتين المتقابلتين اللتين يظهر في كلّ منهما الآخر بما انعكس فيها، فإنه لا ريب في أن كلّ ما اشتمل عليه القرآن من معرفته سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله وآثاره، ومعرفة حقائق الأشياء في المبدإ والبرزخ (والمعاد) والمعارف ووجوه الحكمة، فيها وبيان صفات المواليد الثلاثة، وأحوال الانسان وشقاوته وسعادته وما يؤدي إلىٰ كلّ منها. وبيان ما وقع وما يقع إلىٰ الأبد، وأحكام الله سبحانه وغيرها مما يدل عليها دلالة لفظية، كلّها موجودة في نفس الامام عليه السلام منقوشة بالوجود العلمي، الذي هو أعلىٰ مرتبة من الوجود اللفظي والكتبي، بل نفوسهم الشريفة مصاديق لتلك المعارف الإلهية، فإن هذا هو المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم**﴾ وقد تقدمت الإشارة إليه وسيجيء أيضاً.

إذن كلّ ما يحكي عنه القرآن بجميع أنواعه حكاية لفظية وصفية تدل عليه علوم الامام عليه السلام دلالة علمية مرآتية، أي فكما أن المطلع علىٰ ألفاظ القرآن ينتقل منها إلىٰ تلك المعاني، كذلك المطلع علىٰ علومه عليه السلام ينتقل إليها، وكلّ أثر يوجده الكتاب الصامت من التقريب والتعريف والتعليم والبشارة والإنذار والتكميل والترقّي إلىٰ عالم القدس والنصح والدعاء، إلىٰ الله سبحانه بأنواع المقربات، كلّها يترتب علىٰ الامام أعني الكتاب الناطق، بل الموجود في الناطق نفس المعاني والحقائق القرآنية بوجودها النفس الامريّة، الذي تجلىٰ بها الله تعالىٰ لنبيه والأئمة عليهم السلام.

قال الصادق عليه السلام[1]: «لقد تجلىٰ لخلقه في كلامه، ولكنهم لا يبصرون، فهو تعالىٰ إنما تجلىٰ بتلك الحقائق لا بتلك الألفاظ»، كما لا يخفىٰ.

ضرورة أن الألفاظ قوالب يحكىٰ عنها، فالإمام عليه السلام هو الذي عنده علم الكتاب، وكلّ شيء أحصىٰ الله سبحانه في الامام المبين بنصّه الكريم، وسيجيء بيانه بالوجود العلمي والواقعي، وأحصىٰ سبحانه كلّ شيء في الكتاب الكريم بالوجود اللفظي، قال تعالىٰ: ﴿**تبياناً لكلّ شيء**﴾ وقال تعالىٰ: ﴿**لا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين**﴾.

ومن المعلوم الفرق الظاهر بين كتاب العلم أي الكتاب الصامت اللفظي، وبين كتاب نفس العالم المنتقش فيها العلوم والمعارف تكويناً.

ومعنىٰ كون الإمام عليه السلام كتاباً ناطقاً أنه كتب الله سبحانه في لوح نفسه المقدسة معاني القرآن وألفاظه أيضاً فإن الوحي النازل عليه صلى الله عليه وآله إنما هو يمثل الموحىٰ به بتمام وجوداته من الواقعي واللفظي كما حقق في محله، وهو هكذا انتقل في قلب الامام عليه السلام كما حقق في محله.

فهو تعالىٰ تجلىٰ فيه في نفس الإمام عليه السلام بصفاته وآياته وأفعاله مع استجماع الامام عليه السلام لسائر الشؤون من تخلقه بما يستحقه القرآن ويستدعيه ويندب إليه من الأخلاق الحميدة، ومن علمه عليه السلام بما يرغب إليه من الأفعال المحمودة، ومن امتثاله عليه السلام لأحكامه المرضية في جميع المقامات.

فهو عليه السلام كتاب إلٰهي كتبه الله بيده ما به تجلّيه تعالىٰ، وهو عليه السلام انقاد وعمل بمقتضاه، فهو عليه السلام بهذا الاعتبار كتاب ناطق ينطق عما انتقش في نفسه الشريفة وتجلّىٰ فيها من ربّه؛ ولذا يخبر الإمام عنه تعالىٰ بلا واسطة، وقد تقدم بيانه وشرحه، فهو عليه السلام الداعي إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ نحو دعاء القرآن مع زيادة القبول والدعاء بالفعل فإن دعاءه مستجاب قطعاً، وهو يدعو ربّه بشراشر وجوده بأفعاله وصفاته

---

١ ـ البحار ج ٩٢ ص ١٠٧.

وجوده بما هو هو عليه السلام.

وسرّه أن حقيقة الامام عليه السلام لما كانت تلك المعارف، فهي لا محالة تدعو بذاتها وبحقيقتها إلىٰ العمل والتخلق الظاهري، وإلىٰ التشبه بتلك المعارف، التي هي من عنده تعالىٰ ظهرت في نفسه الشريفة.

وقد حقق في محلّه: أن الكمال الحقيقي إنما هو بالتشبه بالمبدإ صفة وعملاً، خصوصاً بنحو يناسب الهيكل البشري في الظاهر بنحو يحكىٰ بشراشر وجوده الظاهرية والباطنية عن التوحيد والصفات الربوبي، كما لا يخفىٰ، فهذا هو الإنسان الكامل المظهر لصفاته تعالىٰ علىٰ الإطلاق.

والحاصل: أن الناطق والصامت من حيث الحكاية عن المعارف متشاركان في جميع المقامات، وإن ازداد الناطق علىٰ الصامت بأُمور أُخر كما علمتها، وكلّ منهما يدل علىٰ صاحبه، ويشهد بحقيقته وتبيّنه، إذ جميع صفات الإمام مسطور في الكتاب، ويشهد له بذلك ويبيّنه، وإلّا لم يكن فيه تبيان كلّ شيء، كما أن جميع صفات القرآن لفظاً ومعنىً وغيرهما تحصىٰ في الإمام عليه السلام ويشهد الإمام له بالحقيقة تفصيلاً علماً ولفظاً وتخلقاً وهو عليه السلام علىٰ صورة القرآن تماماً كاملاً مع إجابته وقبوله، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وآله في الحديث المشهور: علي مع الحقّ والحقّ مع علي وقوله صلى الله عليه وآله: «علي مع القرآن والقرآن معه». وإليه يشير ما في تفسير العياشي عن نوير بن أبي فاضة، عن أبيه، قال: قال علي عليه السلام: «ما بين اللوحين شيء إلّا وأنا أعلمه»[١].

وفيه عن يونس، عن عدّة من أصحابنا، قالوا: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّي لأعلم خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وما هو كائن كأنّه في كفّي»، ثم قال عليه السلام: «من كتاب الله أعلمه، إن الله يقول: فيه تبيان كلّ شيء»[٢].

---

١ ـ تفسير العياشي ج١ ص١٧.

٢ ـ تفسير العياشي ج٢ ص٢٦٦.

بقي شيء وهو أنه قد يقال علىٰ ما ذكر: يكون الامام عليه السلام هو الثقل الأكبر دون الكتاب، مع أن الخبر السابق مصرح بخلافه. قلت: افتح مسامع قلبك لما يتلىٰ عليك من الأسرار الربوبي.

وحاصله: أنه لا ريب في أن حقيقة القرآن إنما هي تجل منه تعالىٰ في قلب النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام فحينئذ لكلّ منهما مقامان: ظاهري وباطني.

فالقرآن: له مقام الظاهر: وهو مقام اللفظ والكتب والتصور الذهني، وله مقام الباطن: وهو مقام نفس تلك الحقائق والمعارف المتجلّية.

والإمام عليه السلام: أيضاً له مقامان: مقام الظاهر وهو مقام البشرية الموسومة بمقام الإمامة والخلافة الإلهية التي تتلو مرتبة النبوة، فهو في هذا المقام لافظ للحقائق وكاتب لها، ومبين لمعانيه التصورية، وله عليه السلام أيضاً المقام الباطني وهو حقيقة نفسه المقدسة، التي تجلت فيه وفي قلب النبي تلك المعارف، إذ علمت أن القرآن حقيقته هو آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم، فتلك الآيات البينات الكائنة في صدورهم هي حقيقتهم ومقامهم الباطني.

والامام مشتمل علىٰ جميع تلك المقامات، ومع ذلك لا تبطل المقايسة المذكورة في الحديث نظراً إلىٰ اتحادهما حينئذ؛ وذلك لأن المقايسة بين الكتاب والعترة، أي بين الكتاب الصامت والكتاب الناطق قد تكون بلحاظ مقام الظاهر من القرآن مع مقام الظاهر من الإمام، أو مع مقام الباطن له عليه السلام وقد يكون بلحاظ مقام الباطن للقرآن مع المقام الظاهر له عليه السلام أو مع المقام الباطن.

فهذه صور أربع، فلابد من أن يعلم أنه أي صورة تكون مراداً له صلى الله عليه وآله في المقايسة وتفضيله الكتاب علىٰ العترة بقوله صلى الله عليه وآله في الكتاب الثقل الأكبر وفي العترة الثقل الأصغر.

فحينئذ نقول: لا ريب في أن المقايسة لم تلاحظ بالنسبة إلىٰ مقام الظاهر من الكتاب، ومقام الظاهر من الامام، إذ هما من هذه الحيثية مشتركان في بيان

الحقائق، كلّ منهما يصدّق الآخر.

وكذا لم تلاحظ المقايسة بين المقام الباطني لهما، إذ علمت أن القرآن بباطنه وحقيقته هو حقيقة الامام، فهما حينئذ متحدان ذاتاً بحقيقة واحدة، لها مبرزان أحدهما: لفظ الكتاب، والآخر: بيان الامام، كما لا يخفىٰ.

فبقي قسمان، أحدهما: المقايسة بين مقام ظاهر الكتاب مع مقام باطن الامام، ولا ريب في أن هذه المقايسة لم تكن مراداً له ﷺ. إذ من المعلوم أن مقام باطن الامام عليه‌السلام أفضل وأكبر من مقام ظاهر القرآن، مضافاً إلىٰ أن هذه المقايسة لم يكن لها وجه، إذ الناس بعد لم يعلموا واقع الامام بما له الولاية، وبما هو حقيقة القرآن، بل كما تعلم أن هذا أمر علم تدريجاً فيما بعد.

فبقي القسم الرابع وهو أنه ﷺ لاحظ المقايسة بين مقام باطن القرآن؛ لأنه ﷺ في مقام أهمية القرآن والرجوع إليه، مع مقام ظاهر الامام. إذ العامة لا يعرفون من الامام حين ذاك إلّا الامام الظاهري دونه بما له من المقام الواقعي، كما لا يخفىٰ. فالتفضيل في كلامه ﷺ للكتاب علىٰ الامام بهذا اللحاظ.

ومن المعلوم أن هذا التفضيل لا ينافي ما ذكرنا من أشرفية مقام الامام عليه‌السلام في الباطن إذ كلّ هذا يرجع إلىٰ أفضلية القرآن بواقعه الذي هو واقع الامام، فالامام في الواقع هو عين القرآن، فمرجع كلامه ﷺ في الافضلية إلىٰ أن القرآن وواقع الامام أكبر من الثقل الأصغر أعني مقام ظاهر الامام عليه‌السلام.

توضيحه: أن القرآن بحقيقته الواقعية والنفس الأمرية التي هي تجلياته تعالىٰ، فهو بهذا الاعتبار في مقام الفضل الالهي تبارك وتعالىٰ، ومقام الاقتضاء لسوق كلّ قابل له إلىٰ الكمال. فلا ريب في أنّ القرآن بهذا اللحاظ الواقعي أكبر شأناً، وهو الثقل الأكبر، حيث إنه حينئذ من كلام الحقّ ومنسوب إليه تعالىٰ وفعله المطلق. وهو بهذا اللحاظ أكبر شأناً من الامام بلحاظ كونه عليه‌السلام في مرتبة الانفعال والاجابة لهذا التجلي الأكبر، حيث إن الأول هو من صفات الحق، وهذا من صفات العبد

أعني تقبله عليه السلام تلك المعارف.

فالمقايسة في كلامه صلى الله عليه وآله بهذا اللحاظ لا بلحاظ أنّ الامام هو الآية الكبرىٰ التامة للحقّ تعالىٰ، فإنه عليه السلام بهذا اللحاظ كما علمت عين القرآن الواقعي، كما لا يخفىٰ.

ولك أن تقول: إنّ المقايسة لوحظت في كلامه صلى الله عليه وآله بين القرآن بجميع مراتبه المندرجة فيه، التي هي هكذا عند الامام واقعاً، وبين الامام بما هو مشتمل لنتائج المعارف الظاهرة فيه عليه السلام مع قطع النظر عن كونه عليه السلام حاملاً لحقائق القرآن الواقعية بنفسه الشريفة.

ولك أن تلاحظ المقايسة بين القرآن بجملتها، بما هو كلام صادر عن الأئمة عليهم السلام في الظاهر قولاً أو مع ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة، وبين الامام بما هو بشر مبين لتلك الحقائق لفظاً وعملاً وحقيقة. ومعلوم أن القرآن بهذا اللحاظ أكبر من العترة بما هم بشر فتأمل تعرف.

ولعمري إن الكتاب في الصدر الأول من الإسلام كان بمثابة من العظمة عند المسلمين، وهم بعد لم يكونوا كاملين عارفين بمقام الولاية للأئمة الطاهرين، ولذا كان النبي صلى الله عليه وآله يبين شؤون الولاية لهم تدريجاً، ومع الاحتياط في بعض الموارد تلويحاً. فالعترة لم تكن عند الناس بمثابة الظهور فيما لهم من الولاية الإلهية كما لا يخفىٰ هذا على المتتبع للآثار.

وحينئذ فالنبي المعظم كان يخاطب القوم بما هو ظاهر عندهم، وما هو معقول لهم، وكان صلى الله عليه وآله يلاحظ حال السامعين، وعدم قابليتهم لكشف أزيد مما هو ظاهر عندهم. والوجه فيه أنّ أهل الظاهر الذين هم جمهور الأصحاب من المؤمنين منهم والمنافقين كانوا في الظاهر يرون كتاب الله منتسباً إلىٰ الحق ومضافاً إليه تعالىٰ، ويرون الإمام بل النبي مستقلاً بشراً ظاهرياً غير مضاف إليه سبحانه.

فحينئذ لا محالة يكون الأول أشرف من الثاني إذا لوحظا كذلك، فهو صلى الله عليه وآله

لاحظ النسبة بينهما مما هو معتقدهم في الظاهر وتكلم معهم علىٰ قدر عقولهم، وإن كان أهل الحقّ قد هداهم الله إلىٰ الحق المبين الذي بيّناه.

وحيث إن المشي منه ﷺ كان هكذا في بيان المعارف الإلهية، فإنه ﷺ بين الحقائق الواقعية والولاية الثابتة لهم تدريجاً، وكذلك الأئمة عليهم السلام فإنهم أرادوا سوق المسلمين المعتقدين في الظاهر بما ذكر إلىٰ حقيقة الأمر ببيان التأويل للآيات القرآنية بولايتهم وبشؤونهم وبحقيقتهم، كي يأخذها أهل المعرفة ويبقى الأعمىٰ في ظاهر ما صار إليه المسلمون كما هو المراءى منهم.

فالأخبار المتقدمة التي علمتها للإشارة إلىٰ سوق الافهام إلىٰ تلك المعارف وأنها حقائق قامت بهم عليهم السلام.

فمنها ما رواه علي بن إبراهيم القمي، عن أبي بصير بسند متصل في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ عن أبي عبدالله عليه السلام إنه قال: «الكتاب علي، لا شك فيه هدىً للمتقين»، قال: «فيه تبيان لشيعتنا».

وكذا نقله في تفسير البرهان[1]، وقوله ﷺ: «إنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض»، فيه إشارة إلىٰ ما ذكر.

وقد علمت وجه عدم الافتراق، حيث إنهما في الواقع متحدان، كلّ منهما يشهد علىٰ الآخر، فهم لا يفارقون الكتاب، والكتاب لا يفارقهم، بمعنىٰ أنهم عليهم السلام في جميع أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم لا يخرجون فيها عما حكم به الكتاب، والنبيّ الكريم في الصغيرة والكبيرة والدقيقة والجليلة، والكتاب أيضاً لا يفارقهم، لم يظهر من القرآن حقّ لأحد من الخلق في جميع الأحوال والأقوال والأعمال، والاعتقادات في ظاهر ولا باطن ولا ظاهر ولا باطن باطن، ولا تأويل ولا باطن تأويل، ولا قصة ولا مثال، ولا اعتبار ولا استدلال ولا اخبار، ولا حكم ولا علم ولا غير ذلك مما يطابق الشرعي الواقعي والوجودي التكويني إلّا بهم

---

١ ـ البرهان ج١ ص٥٣.

وعنهم وهم.

وإليه يشير ما في البحار عن عيون الأخبار، بإسناد التميمي، عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال الحسين عليه السلام: خطبنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فقال: «سلوني عن القرآن أخبركم عن آياته فيمن نزلت وأين نزلت».

وفيه عن أمالي الصدوق، عن أبي جعفر عليه السلام، قال أمير المؤمنين عليه السلام «ما نزلت آية إلّا وأنا عالم متىٰ نزلت، وفيمن نزلت، ولو سألتموني عمّا بين اللوحين لحدثتكم».

وفيه عن البصائر، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ما يستطيع أحد أن يدعي أنه جمع القرآن كلّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء»[1].

وفيه عن تفسير العياشي، عن الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر عليه السلام قال: وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم، نحن نعلمه.

وفيه عنه، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «نحن الراسخون في العلم، فنحن نعلم تأويله».

ولنعم ما في العلل لمحمد بن علي بن إبراهيم، العلة في قوله صلى الله عليه وآله: «لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض» أنّ القرآن معهم في قلوبهم في الدنيا، وإذا صاروا إلىٰ ما عند الله عزوجل كان معهم، ويوم القيمة يردون الحوض وهو معهم.

فظهر من جميع ما ذكرنا معنى العترة، ومعنىٰ هذه الجملة أي قوله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين، وعلم معناها اللغوي ومعناها الواقعي النفس الامري، الذي هو المقصود من هذه الجمل، وحقيقتها غيب لا يعلمها إلّا هم، أو من أرادوا أن يعرفوه كما علمت من خبر أبي الصامت المتقدم عن البصائر من قوله: فمن يحتمله؟ قال: من شئنا. ثم إن في حديث الثقلين إشارة إلىٰ نكتة أُخرىٰ، وهي أنه لابد من التمسك بهما دون أحدهما، إذ بعد ما أنهما لن يفترقا لا موضوع للتمسك بأحدهما، كما لا يخفىٰ. فالافتراق محال ولذا عبر عنه بلفظ لن الذي هو لنفي الأبد كما حقق في محلّه.

---

١ ـ البحر ج ٩٢ باب القرآن.

فالمتمسك بظاهر القرآن دون العترة كما عليه أهل السنة لا يغنيهم من الله شيئاً كما ستجيء الاشارة إليه.

وأما التمسك بالعترة دون القرآن فلا مورد له إلّا من الغالين فيهم، فإنهم تمسكوا بهم بدون ما وصفهم الله في كتابه، ولعلّه يكون هذا من بعض العوام، فتأمل.

وأما كيفية التمسك بهما فتقدم شرحه فيما تقدم، وسيجيء إن شاء الله تعالىٰ، ولا بأس بذكر بعض الأحاديث الواردة في بيان هذا الأمر.

ففي البحار، عن البصائر، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما والله، إنّ في أهل بيتي من عترتي لهداة مهتدين من بعدي يعطيهم (الله): علمي وفهمي وحلمي وخلقي، وطينتهم من طينتي الطاهرة، فويل للمنكرين لحقهم، المكذبين لهم من بعدي، القاطعين فيهم صلتي، المستولين عليهم، والآخذين منهم حقّهم، ألا فلا أنالهم الله شفاعتي».

وفيه، عنه بإسناده عن محمد بن عمر، عن الحسن، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سرّه أن يحيا حيوتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة، التي وعدني ربي، قضيب من قضبانها غرسه بيده، ثم قال له: كن، فكان، فليتول علي بن أبي طالب من بعدي، والأوصياء من ذريتي فإنهم لا يخرجونكم من هدىٰ، ولا يعيدونكم في ردى، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم».

وفيه، عنه بإسناده عن أحدهما عليهما السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سرّه أن يحيا حيوتي ويموت ميتتي، ويدخل جنة ربي جنة عدن غرسها بيده، فليتول علي ابن أبي طالب عليه السلام والأوصياء من بعده، فإنهم لحمي ودمي أعطاهم الله فهمي وعلمي»، وفيه ما لفظه.

أقول: روى البرسي في مشارق الأنوار، عن ابن عباس، قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «معاشر الناس! إنّ الله أوحىٰ إليّ أني مقبوض، وأنّ ابن عمّي هو أخي ووصيّي، وولي الله وخليفتي، والمبلغ عني، وهو إمام المتقين، وقائد الغر

المحجلين، ويعسوب الدين، إن استرشدتموه أرشدكم، وإن تبعتموه نجوتم، وإن أطعتموه فالله أطعتم، وإن عصيتموه فالله عصيتم، وإن بايعتموه فالله بايعتم، وإن نكثتم. بيعته فبيعة الله نكثتم، إنّ الله عزوجل أنزل عليّ القرآن وعلي سفيره، فمن خالف القرآن ضلّ، ومن تبع غير علي ذلّ.

معاشر الناس، ألا انّ أهل بيتي خاصتي وقرابتي وأولادي وذريتي ولحمي ودمي ووديعتي، وانكم مجموعون غداً ومسؤولون عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهم، فمن آذاهم فقد آذاني، ومن ظلمهم فقد ظلمني، ومن نصرهم فقد نصرني، ومن أعزّهم فقد أعزّني، ومن طلب الهدىٰ من غيرهم فقد كذبني، فاتقوا الله، وأنظروا ما أنتم قائلون غداً، فإني خصم لمن كان خصمهم ومن كنت خصمه فالويل له».

أقول: في هذه الأحاديث الشريفة وأمثالها وهي كثيرة جدّاً، بيان كاف لكيفية التمسك بهم والتبري من أعدائهم، وتقدم شرحه في المقدمة.

الأمر الثاني: في بيان كونهم خيرة.

أقول: الخيرة بسكون الياء وفتحها فهو المختار، والمراد رسول الله ﷺ.

ففي تفسير نور الثقلين في اعتقادات الإمامية للصدوق ؒ.. وقال النبي ﷺ «أنا أفضل من جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، ومن جميع الملائكة المقربين، وأنا خير البرية وسيد ولد آدم».

وفي المحكي عن رواية ابن عمر[1]: إنه ﷺ قال: إنّ الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً، ثم اختار قريشاً فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أزل خياراً من خيار، ألّا من أحبّ العرب فيحبني أحبهم ومن أبغض

---

١ ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، للمحقق الخوئي ؒ ج٧ ص١٠٩.

العرب فيبغضني أبغضهم»، هذا في كونه مختاراً بحسب الآباء.

وفي شرح النهج للخوئي[1] ﷺ، وعن المناقب لأحمد بن حنبل والنسائي عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من النور شيء اهتدىٰ، ومن أخطأ ضلّ، ثم فسر علي عليه السلام فقال: إنّ الله عزوجل حين شاء تقدير الخليقة وذرء البرية، وإبداع المبدعات، ضرب الخلق في صور كالهباء قبل وجود الأرض والسماء، وهو سبحانه في انفراد ملكوته، وتوحّد جبروته، فأشاع نوراً من نوره فلمع، وقبساً من ضيائه فسطع، ثم اجتمع ذلك النور في وسط تلك الصور الخفية، فوافق صورة نبينا محمد ﷺ وقال الله له: أنت المختار المنتخب، وعندك ثابت نوري، وأنت كنوز هدايتي»، الحديث.

ويقرب منه ما رواه في معاني الأخبار ص١٠٢، بإسناده عن سعيد بن جبير عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «علي سيد العرب، فقلت: يا رسول الله ألست سيد العرب؟! قال: أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب، قلت: وما السيد؟ قال: من افترضت طاعته كما افترضت طاعتي».

وعن النبي ﷺ أنه قال: يا علي لا يعرفك إلّا الله وأنا، ولا يعرفني إلّا الله وأنت، ولا يعرف الله إلّا أنا وأنت». وهذا يعطي مقاماً للنبيّ والوصي، ليس فوقه مقام وهو معنىٰ المختار المطلق، كما لا يخفىٰ.

وحاصل معنى الحديث: أنّ الشيء لا يعرف غالباً إلّا بصفته إذا كان غائباً، فعلمك بزيد ومعرفتك به إنما هو بالصورة التي تصورته بخيالك، فالعلم هو تلك الصورة، وهو عين المعلوم، وهو زيد أي منطبق عليه صدقاً، فهذا هو العلم بزيد أو المعرفة به، ولكنه علم حصولي قائم بنفسك.

ثم إنك إذا رأيت زيداً بعينك، فحينئذ تعرفه بالمشاهدة، لا بواسطة تلك الصورة الخيالية القائمة بنفسك، بل حينئذ تكون معرفتك به حضورياً.

---

١ ـ منهاج البراعة .. ج٧ ص١٠٣.

إذا علمت هذا، فاعلم: أنّ مراتب معرفة الله بالنسبة إلى العارفين به تعالىٰ كثيرة، فالأغلب علمهم به تعالىٰ حصولي بنحو تقدم.

ولكن هذا الحديث يعطي أنّ النبي والوصي وكذا الأئمة بدليل الاشتراك كما تقدم، معرفتهم به تعالىٰ معرفة حضورية لا بواسطة الصور الخيالية، بل هم عليهم السلام في مقام المشاهدة، فهم يعرفون بالحضور، كما تقدمت الاشارة إليه مراراً.

نعم: هذا بالنسبة إليه تعالىٰ ليست معرفة بالكنه، بل معرفة حضورية ليست فوقها معرفة لأحد.

وحاصلها أنه تعالىٰ تجلىٰ بجماله الحقيقي وأسمائه وصفاته لهم، وحيث إنهم صفاته فقد تجلىٰ تعالىٰ بهم لهم، وإلىٰ هذه الحقيقة يشير ما ورد عنهم عليهم السلام كما سيجيء أنه احتجب ربّنا بنا وأطلق على النبي صلى الله عليه وآله الحجاب الأعظم، وأطلق عليهم عليهم السلام الحجب كما في الزيارة الرجبية.

وأما بالنسبة إلىٰ معرفة النبي والوصي معرفة بالكنه، أي أن قوله صلى الله عليه وآله «يا علي لا يعرفك إلّا الله، وأنا ولا يعرفني إلّا الله وأنت» تكون المعرفة منهما كلّ بالنسبة إلىٰ الآخر معرفة بالكنه، أي أن علياً عرف محمداً بالكنه، ومحمد عرف عليّاً بالكنه بنحو لا يشاركهما في معرفتهما أحد كما لا يخفىٰ.

فحينئذ إذا انحصرت معرفته تعالىٰ فيهما عليهما وآلهما السلام لا غير، فلازمه أنهما المختاران لله تعالىٰ لذلك المقام، وهو مقام المعرفة الخاصة المختصة بهما كما لا يخفىٰ.

وفي مصباح الشيخ والاقبال وغيرهما، في خطبة يوم الغدير والجمعة، عن أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ أن قال عليه السلام: «وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، استخلصه في القدم علىٰ ساير الأُمم علىٰ علم منه، اِنفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس، وانتجبه آمراً وناهياً عنه، أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه، إذ كان لا تدركه الأبصار، ولا تحويه خواطر الأفكار، ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار.

لا إله إلّا هو الملك الجبار، قرن الاعتراف بنبوته بالاعتراف بلاهوتيّته، واختصه من تكرمته بما لم يلحقه أحد من بريّته، فهو أهل ذلك بخاصته وخلته، إذ لا يختص من يشوبه التغيير، ولا يختار من يلحقه التظنين.

وقد أمر بالصلوة عليه مزيداً في تكرمته، وطريقاً للداعي إلىٰ إجابته، فصلى الله عليه، وكرم وشرف وعظم مزيداً لا يلحقه التقييد، ولا ينقطع على التأبيد».

إلىٰ أن قال عليه السلام في وصف العترة الطاهرة: «وإن الله تعالىٰ اختص لنفسه بعد نبيه من بريته خاصة، علاهم بتعليته، وسما بهم إلىٰ رتبته، وجعلهم الدعاة بالحق إليه، والأدلاء بالإرشاد عليه لقرن قرن وزمن زمن، أنشأهم في القدم قبل كلّ مذروء ومبروء، أنواراً أنطقها بتحميده، وألهمها شكره وتمجيده، وجعلها الحجج له علىٰ كلّ معترف له بملكة الربوبية، وسلطان العبودية، واستنطق به الخرسات بأنواع اللغات بخوعاً له بأنه فاطر الأرض والسموات.

وأشهدهم خلقه، وولاهم ما شاء من أمره، وجعلهم تراجم مشيته وألسن إرادته، عبيداً **﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون﴾** يحكمون بأحكامه، ويستنون بسنته، ويعتمدون حدوده وفرضه، ولم يدع الخلق في بهماء صماء، ولا في عمياء بكماء، بل جعل لهم عقولاً مازجت شواهدهم، وتفردت في هياكلهم، حققها في نفوسهم، واستعبد لها حواسهم، فقرر بها علىٰ أسماع ونواظر وأفكار وخواطر ألزمهم بها حجته، وأراهم بها محجته، وأنطقهم عما شهدته بألسن ذربة، بما قام فيها من قدرته وحكمته، وبين عندهم بها **﴿ليهلك مَن هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة﴾** وإن الله لسميع بصير شاهد خبير»، الخطبة.

أقول: تضمنت هذه الخطبة من أسرار الولاية، وغوامض العلم ما لم تتضمنه غيرها، فصلوات الله علىٰ قائلها كما هو أهله ويستحقه، ثم إنه لابد من شرح بعض جملها المشكلة ليتضح المراد منها.

فنقول وعلىٰ الله التوكل: **قوله ﷺ: استخلصه في القدم.**

أقول: المراد من القدم ما يعم السرمد الذي هـو وعـاء المشـية الإلهـية، فـإن روحه ﷺ بمثابة من العظمة والسعة بحيث يسع مشيته تعالىٰ.

ولذا قال تعالىٰ: «ما وسعتني أرضي ولا سمائي بل وسعني قلب عبدي المؤمن» وقال ﷺ: «قلوبنا أوعية لمشية الله»، والقدم الزماني والدهري أي استخلصه قبل خلق الزمان والدهر، والقدم اللغوي أي السبق المطلق بـالنسبة إلىٰ أيّ مـتأخر فرض، والقدم الشرعي أيضاً أي الذي هو عبارة عن ستة أشهر.

والحاصل: أنه لما دلت الأحاديث علىٰ أن أرواحهم خلقت من نور عظمته قبل خلق أيّ شيء فهم السابقون بحقيقة السبق الذاتي، والأقسام المذكورة مظاهر لتلك القدم، وأسبق بالنسبة إلىٰ الخلق، كما لا يخفىٰ.

ولذا قد يقال: إن المراد من السبق السبق قبل هذا العالم.

كما قال ﷺ فيما نقل عنه ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين». وقـال ﷺ: «كنت وليّاً وآدم بين الماء والطين».

نقل هذا عن ابن أبي جمهور الأحسائي في كتابه المجلّىٰ قوله ﷺ: «اِنفرد (رسول الله) عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس»، يعني أنه ﷺ بما هو هـو انـفرد، ولا مشاكل له ولا مماثل له في خلق الله، فمشيته تعالىٰ لم تتعلق إلّا به ﷺ.

إذ ليس شيء هناك يساويه في الرتبة؛ ليكون مثله، فتشمله المشية أيضاً، فهو بنفسه الشريفة القوية العظيمة قائم بتلك.

كما قال ﷺ فيما تقدم: «ونوري محيط بالعظمة ونور علي محيط بالقدرة، فليس في عالم الامكان أشرف منه ولا مساوٍ له إلّا ذاته المقدسة، ولا يدانيه في تلك المرتبة الأعلىٰ ﷺ لقوله تعالىٰ: ﴿وأنفسنا﴾، حيث جعله الله نـفس النـبي ﷺ كـما تـقدم قوله ﷺ: أمراً وناهياً»، أي جعله مظهر أمره ونهيه في تكاليف العـباد، فـلا يـظهر مراده تعالىٰ من التكاليف إلّا منه ﷺ.

قوله ﷺ: أقامه في ساير عالمه في الأداء مقامه، إذكان لا تدركه الأبصار، الخ.

أقول: قد تقدم أنّ ذاته المقدسة لا تتعلق به معرفة أحد بالكنه، وهو تعالىٰ جلّ أن يمس خلقه بذاته لتنزهه عن الحوادث، فخلق لنظام الوجود خلقاً جعلهم وسائط للفيض والتربية، فذاته المقدسة يفعل ما يشاء في الوجود به، فهو ﷺ قائم مقام الربّ في الأداء عنه تعالىٰ.

فهذا نظير قوله ﷺ كما تقدم: والحمد لله الذي منّ علينا بحكام يقومون مقامه لو كان حاضراً في المكان، فهم قائمون مقامه تعالىٰ في الفعل والأداء.

وبعبارة أُخرىٰ: إنه قال: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**﴾ الآية فهذا الكلام يشير إلىٰ أنه ﷺ له مقام الظاهرية للحقّ تعالىٰ، فهو تعالىٰ ظاهر به ﷺ في جميع الخلق، ووجهه الذي يتوجه إليه العباد. ولنعم ما قيل بالفارسية:

ظهور تو بمن است وجود من از تو   ولست تظهر لولاي لم أكن لولاك

فهو تعالىٰ ظاهر به أي كل شيء أراد الله أن يؤديه إلىٰ الخلق، فإنّه لا يكون إلّا به.

فلا يمكن لأحد أن يتلقى الفيض من جهة الخلق إلّا بواسطته ﷺ؛ لأنه الرابطة بين الحكمين أي المشية الالهية ونزول متعلقه إلىٰ أحد والاستفاضة به، فهو حقيقة الربط بين الخالق والخلق والواسطة بينهما.

فترتب الآثار من المقبولات الكونية والقابلات الوجودية، تتوقف عليه ﷺ

قوله ﷺ: قرن الاعتراف بنبوته بالاعتراف بلاهوتيته.

أقول: قد تقدم أنّ معرفة الامام فضلاً عن النبي هو معرفة الله، وذلك لأنه تعالىٰ تجلىٰ بصفاته وعلمه فيهم وهم حقائق أسمائه الحسنىٰ، وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

ولا فرق بينهم وبينه تعالىٰ إلّا إنهم عباده، الخ.

وحينئذ فالتكليف منه تعالىٰ للعباد بتحصيل المعرفة، لا يرجع إلّا إلىٰ معرفتهم، وإن ما وراء رتبته ﷺ ورتبتهم عليهم السلام ووجوب معرفته ومعرفتهم، لا يكلف الله تعالىٰ العباد بذلك؛ لأن الخلق لا يحتملون ما وراء ذلك فهو موضوع عنه، إذ لا يتوقف وجودهم ونظام دينهم ودنياهم إلّا علىٰ معرفته ﷺ فقط لا علىٰ غيره مما هو وراء ذلك.

فهو تعالىٰ قرن الاعتراف بنبوته بالاعتراف بربوبيته، إذ بالأول يحصل الثاني للاقتران الحاصل من كونه مظاهر أسمائه.

لا يقال إذا وضع عن الناس معرفة الذات، وإنه لا معنىٰ لمعرفته تعالىٰ إلّا بمعرفتهم، إذ هو تعالىٰ بحقائقهم عرف نفسه هذا، ومن المعلوم أن العبادة تتوقف علىٰ المعرفة، وحيث لا معرفة للذات فلا عبادة للذات، وهذا خلاف ظاهر الشرع والشريعة وسنن الأنبياء والأولياء والأئمة عليهم السلام وغيرهم، بل ربما يستشم منه الشرك، لأن العبادة من العباد ترجع إلىٰ عبادتهم عليهم السلام وهو شرك بل كفر.

لأنا نقول أولاً: إنه قد عرفت أن معرفتهم بالنورانية، وبما منحهم الله تعالىٰ هو معرفته تعالىٰ بالدلالة الالتزاميّة، فحينئذ يعبده العابدون بما عرف نفسه بهم عليهم السلام فالمعبود حينئذ هو الله تعالىٰ، فأين هذا من الشرك؟!

وثانياً: إن أرواحهم عليهم السلام بما هم أسماؤه الحسنىٰ، وبما هم مظاهر له تعالىٰ كما تقدم عن السجاد عليه السلام من قوله عليه السلام: «ونحن مظاهره فيكم»، له اعتباران.

الأول: أن يلاحظوا بالاستقلال، ولا ريب في أنهم عليهم السلام حينئذ مخلوقون، وليسوا حينئذ مظاهر له تعالىٰ، كما إذا لوحظ المرآة استقلالاً، فحينئذ لا ترىٰ فيها الصورة كما لا يخفىٰ. وبهذا الاعتبار معرفتهم ليست معرفة الله تعالىٰ، بل مجرد مفاهيم كسائر المفاهيم إلّا أنها من أحسن المفاهيم.

الثاني: أن يكونوا فانين عن أنفسهم، بحيث لا ينظر إليهم عليهم السلام بالاستقلال، بل بالنظر الآلي بحيث لا يرىٰ فيهم إلّا ظهوره تعالىٰ، وسيأتي لهذا البحث تحقيق في

محله.

وحينئذ تكون معرفتهم آلةً لمعرفته تعالىٰ، والعابد العارف به تعالىٰ من طريق معرفتهم هكذا لا يرىٰ إلّا الله، ولا يعبد إلّا الله تعالىٰ كما لا يخفىٰ، فتدبر.

قوله: إذ لا يختص من يشوبه التغيير، أقول: هذا علة اختصاصه تعالىٰ النبي المعظم بتلك المقامات والكرامات.

وحاصله: أنه تعالىٰ علم منه ﷺ الوفاء بما اشترط عليه من العمل بأعباء الرسالة، وكذلك بالنسبة إلى الأئمة عليهم السلام وعلم عدم تغيرهم عما وضعهم الله فيه، وعلم حقيقة عبوديتهم وعدم خروجهم عما هو وظيفتهم، فلذا اختصهم بتلك المقامات إذ لا يختص الله من يشوبه التغيير، أي من يعرضه التغيير بمتابعة النفس والهوىٰ أو الشيطان والعياذ بالله.

وأما هو ﷺ فحيث لم يكن كذلك فاختصّه الله بذلك، فإنه ﷺ كما وصفه: هو السراج المنير، وأنه لعلىٰ خلق عظيم، وأنه ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، وأنه لذكر ونور من ربّه تعالىٰ فلا إله إلّا الله ربّ كل شيء ومالكه.

وقد يقال: إن حقيقة النورانية بما هو من نور عظمته تعالىٰ كما تقدم، فهو ﷺ منه تعالىٰ كانفصال شعاع النور من المنير فلا محالة هو ﷺ قائم ببقاء الله تعالىٰ لا بإبقائه، فلا محالة لا يعرضه ما يعرض المخلوقين من الآفات والحدود الخلقية فهو ﷺ حينئذ أشبه بالمبدإ تعالىٰ من غيره، فلا محالة يختص بالله تعالىٰ لكمال المشابهة الذاتية، ولعدم التغيير ذاتاً؛ لأنه موجود ببقائه تعالىٰ، وسيجيء في آخر الشرح في معنىٰ صلوات الله تعالىٰ عليه ﷺ من أن معناه هو تطهيره تعالىٰ روحه المقدسة عن كلّ ما يلزم مخلوقاً من الآفات.

وكيف كان فحقيقته المقدسة بمكان من النزاهة، بحيث لا يشوبه التغيير لكمال قربه إليه تعالىٰ ومشابهته به، فلذا اختص الله تعالىٰ إذ لا يختصّ الله تعالىٰ من يشوبه التغيير، فتأمل تعرف إن شاء الله.

قوله عليه السلام: «وأمر بالصلوة عليه»، أقول: فيه إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ أمر عباده بالصلٰوة عليه صلى الله عليه وآله وهي عبادة منهم له تعالىٰ بالامتثال لأمر الصلاة، وإنما أمر تعالىٰ ذلك مزيداً في تكرمته، الخ، أي أن الصلاة له أثران:

الأول: رفع لشأنه صلى الله عليه وآله فإنها وإن كانت من حيث إنه ثناء عليه صلى الله عليه وآله كما يليق بجنابه ومقامه صلى الله عليه وآله إلّا أنه من حيث إنه طلب منه تعالىٰ يكون بهذه الجهة عبادة له تعالىٰ وامتثالاً لأمره.

وكيف كان فهذه العبادة سبب لرفع شأنه صلى الله عليه وآله وذلك لأن النبي أول مقرب له تعالىٰ، فهو مشاهد ومقترن به تعالىٰ بالقرب الحقيقي، وهو تعالىٰ لا غاية له ولا نهاية ولا بداءة في الامكان ولا أولية، فالمقترن القائم بما هو هكذا لا محالة يكون مظهراً لتلك الأمور، فهو صلى الله عليه وآله أيضاً لاقترانه به تعالىٰ لا نهاية له في الرفعة فدائماً له إمكان الرفعة.

ولعله إليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾ فأمر الله تعالىٰ عباده بالصلٰوة عليه طلباً لرفعة شأنه صلى الله عليه وآله منه تعالىٰ، فهو صلى الله عليه وآله في نفسه لا غاية ولا نفاد له إلّا إليه تعالىٰ، فهو مغمور في بحر الأحدية لا مرجع له صلى الله عليه وآله إلّا إليه في جميع شؤونه.

ومن هذا يظهر أنّ الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وعلىٰ الأئمة لها هذه الفائدة العظيمة فيالها من فائدة ما أعزّها وأعظمها، وسيجيء لهذا قريباً مزيد بيان فيما بعد إن شاء الله.

الثاني: هو ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «وطريقاً للداعي إلىٰ إجابته» أي أنّ هذه الصلاة سبب لإجابته تعالىٰ دعاء الداعي كما سيجيء إن شاء الله من الأمر بالصلٰوة عند الدعاء منه تعالىٰ، وأنها سبب للقبول والإجابة، وسيجيء بيانه مفصلاً في محله إن شاء الله.

قوله عليه السلام: «وإن الله تعالىٰ اختص لنفسه بعد نبيه صلى الله عليه وآله من بريته خاصة، علّاهم بتعليته وسما بهم إلىٰ رتبته» الخ. فيه إشارة إلىٰ أمرين.

الأول: أنه تعالىٰ جعلهم عليهم السلام مساوين لمحمد صلى الله عليه وآله في كلّ ما يريد الله لجميع

المخلوقات من الوساطة المذكورة آنفاً، وإليه يشير ما في دعاء ليلة الجمعة في السحر من قوله: «وأشهد أنهم في علم الله وطاعته كمحمد ﷺ».

نعم: ربما اختلفوا في الظاهر في مظاهر مراتب ذواتهم، وأنهم في جميع المراتب بعد مرتبة النبي ﷺ بدليل قوله: «بعد نبيه»، كما لا يخفىٰ، إلّا أن يراد من البعدية البعدية في الظهور والزمانية لا المرتبة الرتبيّة، كما ربما يستفاد تلك من قوله عليه السلام كمحمد ﷺ.

الثاني: أنه يستفاد من قوله عليه السلام: «وعلّاهم بتعليته»، أنهم عليهم السلام إنما بلغوا ما بلغوا بمحمد ﷺ وهو كذلك، فإن كلماتهم عليهم السلام مشحونة بأنهم إنما اقتبسوا الفضائل منه ﷺ أو أنه تعالىٰ رفعهم إلىٰ المكان الذي رفعه ﷺ إليه؛ لأن مقامهم عليهم السلام من مقامه ﷺ وطينتهم واحدة ونور واحد، إلّا أنه ﷺ هو السابق، وهم التابعون له في جميع العوالم الربوبية والفضائل الإلهية، فهم عليهم السلام رأوا ما رآه ﷺ وسمعوا ما سمعه ﷺ فهم في رتبة متأخرة عنه ﷺ فتأمل قوله: «لقرن قرن وزمن زمن».

أقول: اللام للغاية أي اختصهم وعلاهم لتلك الأغراض من الدلالة والإرشاد لجميع القرون والأزمان السابقة واللاحقة، كما دلّت عليه الأحاديث كما سيجيء من أنه ﷺ وأنهم عليهم السلام حجج الله علىٰ جميع الخلائق حتىٰ الأنبياء، وفي جميع العوالم والأزمنة كما أن هذا هو مقتضىٰ كونه ﷺ خاتم الأنبياء، وأنه لا نبي بعده، فلا يختار الله تعالىٰ عليهم في الأبد خلقاً يقدمهم عليهم، كما لا يخفىٰ.

وقد يقال: إنّ المراد منه أنه تعالىٰ جعلهم بحيث يظهرون في جميع الأوقات والأزمنة في كلّ عالم من جنسه أي من جنس ذلك العالم، فهم الحجج علىٰ العوالم في كلّ عالم بحسبه، ويظهرون لهم في جنس ذلك العالم، فإنهم عليهم السلام مظاهر له تعالىٰ لاسمه الظاهر ولسرّه الباطني الذي به يكون تعالىٰ قيوماً للأشياء.

أقول: هذا المعنىٰ في نفسه أمر ممكن، ربما يستفاد من بعض الأحاديث أنهم عليهم السلام كذلك في العوالم.

ولعله تجيء الإشارة إليه في طيّ الشرح، إلّا أن هذا لم يعلم كونه المراد من هذه الجملة، والله العالم.

قوله عليه السلام: «أنشأهم في القدم»، المراد من القدم ما تقدم معناه في قوله عليه السلام: «استخلصه في القدم».

وفيه إشارة إلىٰ أنهم عليهم السلام في مثل رتبة رسول الله صلى الله عليه وآله في الاستخلاص والإنشاء في القدم.

وقوله: «قبل كل مذروء ومبروء».

الأول: إشارة إلىٰ عالم الذر أي أنه تعالىٰ أنشأهم قبل مذروء.

والثاني: إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ خلقهم وأنشأهم قبل خلق البريّة أي الناس في خلقه الأبدان.

قوله عليه السلام: «أنطقها»، أي أنه تعالىٰ أنطقهم عليهم السلام فنطقوا بحقيقة حمده وبحقيقة شكره وبحقيقة تسبيحه، فعلمت الملائكة والناس ذلك منهم عليهم السلام كلّ في مقامه، بل جميع الموجودات علمت التسبيح منهم، إذ لكلّها التسبيح له تعالىٰ كما دلّ عليه قوله عليه السلام في الزيارة الجامعة في يوم الجمعة: يسبح الله بأسمائه جميع خلقه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولهذه الجملة معنىً آخر سيجيء في طيّ الشرح إن شاء الله تعالىٰ.

قوله عليه السلام: «وأشهدهم خلقه وولّاهم من أمره»، قد تقدم أنه تعالىٰ أشهدهم خلق السموات والأرض.

والخلق بمعنىٰ أنه تعالىٰ إمّا خلق الأشياء بمنظرهم ومرآهم، بل علمت أنهم بحقيقتهم النورية منشأ خلق الخلائق بالتفصيل السابق في الحديث، وعلمت أنه تعالىٰ خلق الخلق لهم وخلقهم عليهم السلام لنفسه تعالىٰ. وإما أنه تعالىٰ أشهدهم لهم بعد خلقها، والأول هو الأظهر من الأحاديث المتقدمة كما لا يخفىٰ.

فهم عليهم السلام العارفون بحقائق الأشياء ولهذه الإحاطة والتمكن من الخلق ولّاهم

الله تعالىٰ ما شاء من أمره، أي مما يرجع إلىٰ نظام الخلق وتربيتهم مما هو عبارة عن ولايتهم التكوينية التي عرفت معناها وتفصيلها.

وقوله عليه السلام: «وجعلهم تراجم مشيته»، قد علمت أن قلوبهم عليهم السلام أوعية لمشيته تعالىٰ وما تشاءون إلّا أن يشاء الله، فهم عليهم السلام مشية الله وتراجمتها فهم المترجمون لها، أما بأفعالهم، إذ علمت أنهم لا يفعلون إلّا بما شاء وأراد، ففعلهم مبين لما شاءه تعالىٰ، كما أنّ قوله عليه السلام: وألسن إرادته، يشير إلىٰ هذا أيضاً أي أنهم عليهم السلام ألسن بيان إرادته تعالىٰ.

ويمكن أن يراد منه أنه كما أن أفعالهم وما هو شأن من شأنهم مصاديق وتراجم مشيته، كذلك هم عليهم السلام بوجودهم وشؤونهم من أفعالهم وأقوالهم وأعمالهم كلّها ألسن تكويناً لارادته تعالىٰ أي إنّ إرادته تعالىٰ تنطق بالمفعولات الصادرة عنهم، فهم نطق إرادته تعالىٰ.

قوله عليه السلام: عبيداً ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ الآية، هذه الجملة في حكم العلة؛ لكونهم عليهم السلام تراجم مشيته وألسن إرادته، وذلك لأنهم عليهم السلام عبيد له تعالىٰ بحيث لا يسبقونه بالقول، ولو بكلمة أو أقل وهم بأمره يعملون.

واعلم: أن دلالة كلمة العبيد على الانقياد والخضوع له تعالىٰ أشد، وأكثر من دلالة العباد عليها.

بيانه: أن العباد جمع للعبد بمعنى العبادة غالباً، وأما العبيد فجمع له بمعنىٰ المملوكيّة الحاكية عن مسلوبية كلّ شيء.

ولذا يقال للمملوكين من الخلق: عبيد، فيقال: هؤلاء عبيد فلان، مثلاً، أي ليس لهم في قبال فلان اختيار تصرف أبداً.

ولذا لما أجاب أمير المؤمنين عليه السلام عن أسئلة حبر من الأحبار فقال: يا أمير المؤمنين فنبي أنت؟ فقال: «ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله» قال

الصدوق رحمه الله: يعني بذلك عبد طاعته لا غير ذلك[١] أي ليس لي شيء إلّا وهو منه صلى الله عليه وآله.

فإذا أُضيفت هذه الكلمة إليه تعالىٰ ـ ولو معنىً كما في هذا الحديث ـ فإن قوله عليه السلام: «عبيداً»، أي لله تعالىٰ، فيراد منه أنهم عليهم السلام ليس لهم تصرف من قبل أنفسهم في شيء، بل لا يتجاوزون مشيته وإرادته تعالىٰ.

فالعباد يعبدونه عبادة خالصة، فيمكن أن يكون لهم اختيار في بعض أفعالهم، وأما العبيد فلا اختيار لهم في شيء أبداً.

ثم إنه قد يطلق العباد بمعنى العبيد كما في قوله تعالىٰ: ﴿عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ وذلك لتفسير قوله تعالىٰ: لا يسبقونه، الآية، وبشهادة قوله عليه السلام: عبيداً ﴿لا يسبقونه بالقول﴾، الآية. فإنه اقتباس للآية الشريفة، كما لا يخفىٰ، فتأمل.

وقوله عليه السلام: «يحكمون بأحكامه ويستنون بسنته، ويعتمدون حدوده وفرضه»، إشارة إلىٰ بيان مصاديق ألسن إرادته من هذه الجهات.

وقوله عليه السلام: «يعتمدون»، لعلّه إشارة إلىٰ أنهم عليهم السلام لا يلتفتون قلباً ولا لساناً إلىٰ غير حدوده تعالىٰ، بل هم معتمدون ومتعمدون لإجراء الحدود الإلهية فقط والله العالم.

قوله عليه السلام: «ولم يدع الخلق في بهماء صمّاء ولا في عمياء بكماء»، أقول: اعلم أن من أعظم نعم الله تعالىٰ علىٰ عباده العقل، فإنه الحجة الباطنة لله تعالىٰ.

ففي تحف العقول، عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام.. إلىٰ أن قال: «يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلىٰ عباده إلّا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة لله، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأعقلهم أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة»، إلىٰ

---

١ ـ الحديث مذكور في توحيد الصدوق.

أن قال عليه السلام: «يا هشام إن لله علىٰ الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة.

فأما الظاهرة: فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام.

وأما الباطنة: فالعقول.

وفي البحار، عن العلل، عن علي بن أبي طالب، عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث.. إلىٰ أن قال صلى الله عليه وآله: «ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت»[1].

وفيه عن روضة الواعظين، قال النبي صلى الله عليه وآله: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له».

وفيه عن الاختصاص، قال الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله أن يزيل من عبد نعمة، كان أول ما يغير منه عقله»، والأخبار في فضل العقل كثيرة جدّاً.

والسرّ فيه أنّ الأنبياء جاءُوا بالعلم والمعارف عن الله تعالىٰ؛ لتكميل العباد، ولا يمكن لأحد أن يستفيد منها إلّا بالعقل كما صرحت به الأخبار.

فقوله عليه السلام: «ولم يدع الخلق»، الخ، إشارة إلىٰ أنه كما أنه تعالىٰ أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب، التي علمت أنها الحجة الظاهرة له تعالىٰ، كذلك لم يخلقهم في بهماء صماء عمياء بكماء، بحيث لا يفهمون، ولا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يتكلمون، بل جعل فيهم غريزة العقل، فيه مازجت شواهدهم، أي بالعقل أدركت حواسهم ما هو مقتضىٰ دركه. فالحواس الكائنة في الانسان بالعقل الممزوج به يحس ما يحس. فقوله: مازجت شواهدهم، المراد بالشواهد تلك الحواس الكائنة فيه.

وقوله: «تفردت في هياكلهم»، أي أنه تعالىٰ جعل العقل في الإنسان بحيث امتاز وتفرد هيكله البشري به عن غيره، لا بغيره من سائر الغرائز الحيوانية.

وقوله: «حققها في نفوسهم»، أي أثبتها فيها، فهي المدار للتكليف وللحساب ولحسن الأفعال، وساير الأمور الصادرة منه، وجعلها فيه بحيث استعبد لها

١ ـ البحار ج ١ ص ٩٩.

الحواس، فكلّ حاسّة تطيع تكويناً العقل الكائن في صاحبها كماً وكيفاً، فمن كمل عقلُه كثر علمه ومعارفه ومشاهداته وعبادته، وهكذا ساير الكمالات فيه.

وإلىٰ هذا كله يشير قوله عليه السلام: فقرر بها علىٰ أسماع، أي بالعقول قرر الأسماع، مقرّها في السماع الحقيقي والصوري، وهكذا بالنسبة إلىٰ قوله عليه السلام: ونواظر وأفكار وخواطر، فكلّ هذه إنما يعمل مقتضاها بالعقل المقرر فيه.

وبعبارة أُخرىٰ: أنه تعالىٰ منح للمكلفين العقل، وهو بنفسه يدرك المعاني والحقائق والرقائق، فالحقيقة الإنسانية والروح الإنساني بواسطة مزجها بالعقل تدرك الحقائق بالعقول، وتدرك النفوس الصور بها، وتدرك الروح الأشباح بالحس المشترك بها، وتدرك الروح بالعين الألوان بها، وتدرك الروح بالأذان الأصوات بها، وتدرك الروح الروائح بالحلمات بها، وتدرك الروح بالبشرة الملموسات بها.

والحاصل: أن هذه المشاعر ظاهرها وباطنها الكائنة في الإنسان، إنما يدرك بها الروح مقتضياتها بواسطة العقول الممزوجة بها.

ففي الحقيقة أن تلك المدركات إنما هو بالعقل، كما أن البصر إنما يدرك المبصر بالنور.

ولذا قال عليه السلام: «ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت» كما تقدم.

ومعنىٰ ممازجة العقل بها ظهور العقل بما له من الدرك في تلك الحواس. ففي كلّ حاسة يظهر العقل بما يناسبه، وما هو حقّه ومستحقه في تلك الحاسة، حسب الحكمة الإلهية في خلقها، وقد جعلها فيها بحيث يستعملها أي العقول صاحبها في تلك الحواس فيما يراد منها من الآثار، كما لا يخفىٰ.

قوله عليه السلام: «ألزمهم بها حجته»، أي ألزم الانسان والخلق بما فيه من تلك الحواس والمشاعر والشواهد حجته أي العقل، الذي علمت أنه الحجة الباطنة له

تعالىٰ علىٰ خلقه.

قوله عليه السلام: «وأراهم بها محجته» أي أعلمهم أي الخلق بسبب العقول، التي مازجت شواهدهم محجته أي أنبياءه ورسله والأئمة، وما جاءوا به من عند الله، وما بيّنوه من المعارف وغوامض العلوم والأدلة العقلية.

فإن كلّ هذه إنما يراه الانسان والخلق منهم عليهم السلام ويقبله منهم عليهم السلام بالعقل الممزوج بشواهدهم وحواسّهم.

وقوله عليه السلام: «وأنطقهم عما شهدته بألسن ذربة، بما قام فيها من قدرته وحكمته، وبيّن عندهم بها ﴿**ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حي عن بينة**﴾ وأن الله لسميع بصير شاهد خبير»، الخطبة.

يريد عليه السلام بهذا أنه تعالىٰ جعل تلك الحجة الباطنة، التي مازجت حواسهم، وتحققت في نفوسهم أعني العقل بمثابة من الدرك والنورانية والوضوح، بحيث أنطقهم عما شهدته نفوسهم بعقولهم بألسن ذربة فصيحة بليغة، كما أُشير إليه في قوله تعالىٰ: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ وكذلك ساير آيات الفطرة، وساير الأحاديث الدالة علىٰ أن التوحيد هي الفطرة المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾ كما في توحيد الصدوق وغيره.

وإنما نطقوا بذلك بألسن ذربة فصيحة بسبب ما قام وثبت فيها، أي في نفوس الخلق من قدرته وحكمته، التي ظهرت للإنسان، ويتخلق بالعقل الكائن فيه، وبسبب أنه تعالىٰ بيّن عندهم تلك الحقائق بتلك العقول.

وحينئذ فمن هلك فإنما يهلك عن بينة، ثابتة في ذاته ونفسه، أعني عقله حيث خالف عن وضوح ما هو حقيقته وفطرته، ويحيىٰ من حي كذلك بالعقل والوضوح، لا بالجهل والاتفاق.

وقوله عليه السلام: «وإن الله لسميع بصير شاهد خبير»، إشارة إلىٰ أن الإنسان بما له من الأفراد المتفاوتة في الترقي بالعقل إلى الدرجات العالية، أو المتنازلة بجهله وسوء

اختياره إلى الدركات المتسافلة، وما بين النوعين من المراتب كلّها بمسمع ومرءى ومنظر وشهود وخبرة منه تعالىٰ، فلا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو العالم بجميع خلقه كمّاً وكيفاً وحالاً ومقاماً، والخلق وشؤونه لا يخفىٰ عليه، قال تعالىٰ: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[1].

وفي الحديث القدسي: وكيف يخفىٰ عليّ شيء أنا مبتدئه، والحمد لله ربّ العالمين.

الأمر الثالث: في معنى الرب وبما له من المعنى العام، وبما هو المراد منه بما هو مضاف إلىٰ العالمين.

فنقول وعليه التوكل: فعن الصحاح: ربّ كلّ شيء: مالكه، وذكر غيره للربّ معنى المالك والمدبر والسيد والمربي والمنعم والصاحب والمصلح.

والتحقيق كما قاله بعض الأكابر: أن الأصل في معنىٰ هذا اللفظ هو التربية، وإصلاح شأن المربوب.

وذكر شيخنا البهائي ﷺ في تفسير التربية هنا أنّها تبليغ الشيء كماله تدريجاً وهو جيد جدّاً.

ثم: إن المراد بالتربية ليس خصوص التغذية بالمعنى الأعم للحيوان والنبات، بل إصلاح الشأن مطلقاً من رزق وتكميل وإعطاء ما يحتاج إليه، ودفع ما يضاره وينافيه، بل خلقه أيضاً، إن أُريد بالمربوب الشيء الذي أعطىٰ خلقه ثم هدىٰ، وروى القمي عن الصادق ﷺ في المحكي عنه أنه قال في معنى الرب: «خالق المخلوقين».

فالرب: هو القائم بأمر المربوب من هذه الجهات كلّها أو بعضها علىٰ حسب ما تقتضيه الحكمة كمّاً وكيفاً بنحو يكون مرجع المربوب في جميع شؤونه إلىٰ ربّه.

---

١ ـ الملك : ١٤.

ومن المعلوم أن الرب إذا كان بمعنى التربية بالمعنى المذكور فلازمه كون المربي مالكاً ومدبراً وسيداً ومربياً ومنعماً بالتربية، وصاحباً له ومصلحاً كما لا يخفىٰ، خصوصاً بالنسبة إليه تعالىٰ.

فهذه التفاسير تفسير يلازم حقيقة معنى الرب وهو ما ذكرناه.

وإلىٰ هذه الحقيقة بما لها من الآثار أُشير فيما روي في العيون وتفسير الإمام، علىٰ ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام: يعني مالك الجماعات من كلّ مخلوق، وخالقهم وسائق (سائر) أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون، ومن حيث لا يعلمون، يقلب الحيوانات في قدرته، ويغذوها من رزقه، ويحوطها بكنفه، ويدبّر كلاً منها بمصلحته الجمادات بقدرته، يمسك ما اتصل منها من التهافت، والمتهافت عن التلاصق، والسماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، والأرض أن تنخسف إلّا بأمره.

ثم إنّ أهل اللغة وغيرهم قالوا: إنّ الربّ اسم من أسمائه تعالىٰ، ولا يقال في غيره إلّا بالإضافة.

قال الصدوق في التوحيد: ولا يقال لمخلوق: الربّ، بالألف واللام؛ لأن الألف واللام دالّتان علىٰ العموم، وإنما يقال للمخلوق: ربّ.

ولعلّ وجه عدم استعماله في غيره تعالىٰ بدون الإضافة، أو مع الألف واللام من جهة أن حذف المتعلق والمضاف إليه يفيد العموم كالألف واللام، حيث لا عهد مع أن معناه العام منحصر فيه تعالىٰ، كما لا يخفىٰ.

فحينئذ لا يطلق علىٰ غيره إلّا مضافاً أو نكرة حيث لا عموم له.

ثم إنّ الرب في هذه الجملة أعني قوله عليه السلام: «وعترة خيرة ربّ العالمين» يراد منه المعنىٰ العام الشامل لجميع لوازمه السبعة المذكورة، فإنها كلّها منطبقة عليه تعالىٰ بحقّ الانطباق، فهو تعالىٰ المالك والمدبر والسيد والمصلح والمربي والمنعم والصاحب كما لا يخفىٰ.

نعم: قد يقال: إن المراد من كونه صاحباً هو المصاحبة لا المالكية كما لا يخفىٰ،

وهو أيضاً تعالىٰ مصاحب للمربوب، قال الله تعالىٰ: **﴿وهو معكم﴾** وقال: **﴿ألا إنه بكلّ شيء محيط﴾**[١]، وفي الدعاء: «يا صاحب كلّ نجوىٰ».

ثم إن الرب قد علمت بعمومه لا يطلق إلّا عليه تعالىٰ. وأما في غيره تعالىٰ فيطلق مضافاً إلّا إذا كانت الإضافة بنحو يفيد العموم، فلا يطلق حينئذ أيضاً إلّا عليه كما في المقام.

فإن الرب لما أُضيف إلىٰ العالمين التي تعلم أنها اسم لما سوى الله، فهو رب لما سواه، فلا محالة لا يطلق إلّا عليه تعالىٰ.

ثم إن الخيرة لما أُضيفت إلىٰ ربّ العالمين، يراد من الرب كما علمت ذاته المقدسة، التي هي مربية للجميع، ولا محالة تكون خيرة هذا الرب خيرة فوق جميع المختارين، وعترة هذه الخيرة عترة فوق جميع الأنام.

فالمضاف يكسب من المضاف إليه جميع ما له من الشأن والعظمة والرفعة كما لا يخفىٰ.

ويستفاد حينئذ من هذه الإضافة أنه ﷺ هو المربي بأمر الله، واختياره تعالىٰ لساير الخلق، والمصلح لما فسد منهم، والمدبر لهم بما فيه صلاحهم من الأمر والنهي والتأديب والإرشاد، التي بها ينال الخلق حظوظهم من الدرجات والمقامات العاليات.

ومن هنا يعلم شدة اعتنائه تعالىٰ جلّ جلاله بتربية عباده، وحسن تدبيره لهم، وإصلاحهم، وجزيل نعمه عليهم حيث اختار من خلقه خيرته وخير خلقه ﷺ؛ لايصال هذه الخيرات إليهم، حيث علم تعالىٰ أنه ﷺ شديد العناية بما فيه صلاح نظامهم ودينهم ودنياهم ونفوسهم، والآيات القرآنية والأحاديث المروية مشحونة ببيان أوصافه الشريفة التي لا توجد في غيره.

---

١ ـ فصّلت : ٥٤.

ويكفيك في بيان هذه الصفات البالغة فيه ﷺ كمال الغاية الثابتة له ﷺ بحسب الرتبة العالية الممكنة في أحد بكمالها وتمامها قوله تعالىٰ: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءُوف رحيم﴾[1] والحمد لله.

الأمر الرابع: في معنى العالمين.

في المجمع: قوله تعالىٰ: ﴿هدى للعالمين﴾ العالمون بفتح اللام أصناف الخلق، كلّ صنف منهم عالم، جمع لا واحد له من لفظه.

وقيل: العالم يختص بمن يعقل وجمعه بالواو والنون.

وذهب أكثر المتكلمين إلىٰ أن العالم إنما هو الجسماني المنحصر في الفلك العلوي، والعنصري السفلي.

وعن بعض العارفين: المصنوع اثنان: عالم الماديات وعالم المجرّدات.

والكائن في الأول: هو الجسم والفلك والفلكيات، والعنصر والعنصريات والعوارض اللازمة.

وفي الثاني: هم الملائكة المسماة بالملإ الأعلىٰ، والعقول والنفوس الفلكية، والأرواح البشرية المسماة بالنفوس الناطقة.

وقيل: العالمون جمع عالم بفتح اللام اسم لما يعلم به، كالخاتم لما يختم به غلب فيما يعلم به الصانع سبحانه مما سوى الله، أي يستعمل فيما سواه تعالىٰ بما هو علامة له تعالىٰ ولصنعه.

وقيل: عالم اسم لكلّ أحد من أفراد الإنسان بلحاظ أنه أنموذج من العالم الكبير لما فيه ما فيه حرفاً بحرف. وإليه يشير ما هو المنسوب إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام:

أتزعم أنّك جرمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر. الخ

أقول: المستفاد من الجميع أن هذا اللفظ العالم يستعمل لما هو مشتمل علىٰ

---

١ ـ التوبة: ١٢٨.

الجمع والعموم في معناه، ولم يستعمل في المشخصات، وهذا له مصاديق كما علمتها، فهو موضوع للجمع كالأنام والرهط.

نعم: فيمن يعقل كالملائكة والثقلين كما نقل هذا عن ابن عباس والأكثرين، وعليه فهو مشتق من العلم وخصّوا المذكورين بالذكر للتغليب.

وأما على القول: إنه اسم لما يعلم به الخالق والصانع كما تقدم، فهو مشتق من العلامة، وجمع حينئذ ليشمل كلّ جنس مما سمي به، وأما جمعه بالواو والنون دون الألف والتاء تغليباً لما فيه من صفات العقلاء.

وكيف كان فإذا حلي بالألف واللام يفيد العموم، فيشمل جميع العوالم، قال بعضهم: يقال: عالم الملك وعالم الانس وعالم الجن، وعالم الأفلاك وعالم النبات وعالم الحيوان، وليس كما توهم اسماً لمجموع ما سوىٰ الله بما هو أحد مصاديقه لا بالحصر، كما لا يخفىٰ.

وعدّ بعضهم العوالم إلىٰ أن قال: والذي عندنا من العوالم تسعة وثلاثون ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعمائة وثمانون عالماً.

ثم إن في بيان امتياز العالم عن عالم آخر كلاماً يطول بيانه مفهوماً ومصداقاً، ولا فائدة في بيانه، هذا بحسب اللغة وموارد الاستعمال لهذه الكلمة، أعني العالم وجمعه.

وفي الخصال، بإسناده عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿**أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد**﴾.

فقال: «يا جابر تأويل ذلك، أن الله عزوجل إذا أفنىٰ هذا الخلق وهذا العالم، وأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار جدد الله عزوجل عالماً من غير فحولة ولا أُناث يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلهم، لعلّك ترىٰ أن الله عزوجل إنما خلق هذا العالم الواحد، وترىٰ أن الله عزوجل لم يخلق بشراً غيركم، بلىٰ والله لقد خلق الله تبارك وتعالىٰ ألف ألف

عالم، وألف ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأُولئك الآدميين».

أقول: والأحاديث الكثيرة دلّت علىٰ كثرة العوالم من عالم الدنيا والآخرة وعالم الملائكة، وعالم جابلقا وجابلسا، والعوالم العرضية والطولية، وبيانها وتحقيقها يطول ولا فائدة فيه فعلاً، كما لا يخفىٰ.

فدلت هذه الجملة بمجموعها علىٰ أنهم عليهم السلام عترة خيرة ربّ العالمين بحيث لهم عليهم السلام وله صلى الله عليه وآله ـ لمكان كونهم مختارين له تعالىٰ بما علمت ـ مقام إصلاح جميع البرية، بل جميع ما في الوجود وتربيتهم وإصلاحهم وإرشادهم وتبليغهم المراتب العالية.

ولعمري إنهم عليهم السلام من أعظم نعم الله تعالىٰ علينا؛ لأنهم سبب وصولنا إلى المعارف والمقامات العالية بمتابعتهم والاقتداء بهم علماً وعملاً وحالاً واعتقاداً ومعرفة، كما لا يخفىٰ والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: ورحمة الله وبركاته.

الكلام هنا يقع في أُمور ثلاثة:

الأول: في المعنى المراد من الرحمة في هذه الجملة.

الثاني: في بيان أن السلام والرحمة والصلاة هل تزيد في محلّهم عليهم السلام ومثوباتهم من الله تعالىٰ أم لا؟

الثالث: في معنى البركة والمراد بها هنا.

أما الأول: فنقول: قد عرفت تحقيق الكلام في معنى الرحمة في شرح قوله عليه السلام ومعدن الرحمة، إلّا أن الظاهر أن المراد من الرحمة المعطوفة على السلام هاهنا هو الرحمة الخاصة التي ليست فوقها رحمة.

في سفينة البحار[1]، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿والله يختصّ برحمته من**

---

١ ـ سفينة البحار ج ١ ص ٥١٧.

يشاء﴾ قال: المختص بالرحمة نبي الله ووصيه صلوات الله وسلامه عليهما وآلهما، إن الله خلق مائة رحمة وتسعاً وتسعين رحمة عنده مذخورة لمحمد وعلي وعترتهما عليهم السلام ورحمة واحدة مبسوطة علىٰساير الموجودين.

أقول: قد علمت أن حقيقة الرحمة منه تعالىٰ هو العطف على العبد، ومعلوم أن العطف إنما هو شيء هو مصداق للرحمة من الفضائل والفواضل، وحيث ترىٰ أنهم عليهم السلام بمكان من العطف منه تعالىٰ بحيث لا يدانيهم أحد، كما نطقت به الآثار بل والآيات القرآنية فهم أقرب الخلائق إليه، وأكثرهم مورداً لألطافه تعالىٰ من حيث الكمالات من التوحيد والقدرة والصفات الحميدة.

كيف وقد علمت أن لهم الولاية المطلقة من الله تعالىٰ، فهم عليهم السلام مختصون بمصاديق رحمته تعالىٰ بحيث لم يشاركهم أحد فيها.

وأما سائر الخلق حتى الأنبياء والملائكة، فجميع ما عندهم من الألطاف الدنيوية والأُخروية والمعنوية، فنسبتها إليهم نسبة الواحد إلى المائة، بل علمت: أن هذه الواحدة أيضاً شاملة للموجودين بواسطتهم فهي منهم وكلّها منه تعالىٰ، والتحديد بلحاظ التقريب وإلّا قال عليه السلام: «ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود»، فرحمته تعالىٰ لا تحد ولا تنعت.

ففي سفينة البحار، قال النبي صلى الله عليه وآله: «أوحىٰ عزوجل إلىٰ داود، كما لا تضيق الشمس علىٰ من جلس فيها، كذلك لا تضيق رحمتي علىٰ من دخل فيها».

وفيها، عن الصادق عليه السلام «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالىٰ رحمته حتىٰ يطمع إبليس في رحمته»، فقوله عليه السلام: «ورحمة الله»، يراد منها الرحمة المختصة لهم عليهم السلام بما اختصهم الله تعالىٰ بها كما علمت.

ثم إن الرحمة قد ذكرت لها معان في اللغة: من العطف وإيصال الفضائل، أو رفع المكاره أو هي الحياة في عالم الغيب، بل وفي الشهادة، وبمعنىٰ المغفرة، ولكلّها شواهد وموارد استعملت فيها في الكتاب، فهي بجميع معانيها وما هو المخصوص بهم يراد

منها في المقام فجميع رحماته تعالىٰ عليهم عليهم السلام.

وسيجيء في شرح قوله عليه السلام: «والرحمة الموصولة»، أن الرحمة أُطلقت في الآيات والأخبار عليهم عليهم السلام وأنه ما المراد منها حين أُطلقت عليهم عليهم السلام.

إلّا أن الكلام في أن الزائر إذا كان من أهل المعرفة فيقصد بها هذا المعنىٰ، وإلّا فإن قصد بها ما قصد به الإمام عليه السلام الآمر بهذه الزيارة، فلها أيضاً وجه وإلّا فلا يعلم أن مجرد التلفظ بها يكون مستعملاً في هذا المعنىٰ.

وحينئذ فللزائر كما تقدم أن يجد في تحصيل المعرفة حتىٰ تكون زيارته كاملة من حيث قصده للمعاني بما لها من المصاديق الكاملة.

وعن تفسير الامام عليه السلام قال عليه السلام: وأما قوله: «الرحيم» فإن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «رحيم بعباده المؤمنين، ومن رحمته خلق مائة رحمة، وجعل منها رحمة واحدة في الخلق كلّهم، فبها تتراحم الناس، وترحم الوالدة ولدها، وتحنّ الأُمهات من الحيوانات علىٰ أولادها، فإذا كان يوم القيامة أضاف هذه الرحمة الواحدة إلىٰ تسع وتسعين رحمة فرحمها أُمة محمد صلى الله عليه وآله ثم يشفعهم فيما يحبون له الشفاعة من أهل الملة، حتىٰ أن الواحد ليجيء إلى المؤمن من الشيعة فيقول له: اشفع لي فيقول له: أي حقّ لك عليّ؟ فيقول: سقيتك يوماً ماء فيذكر ذلك فيشفع له فيشفع فيه.

ويأتي آخر فيقول: إنّ لي عليك حقّاً، فيقول: ما حقّك؟ فيقول: استظللت بظل جداري ساعة في يوم حارّ فيشفع له، فيشفع فيه، فلا يزال يشفع حتىٰ يشفع في جيرانه وخلطائه ومعارفه، وأن المؤمن أكرم علىٰ الله تعالىٰ مما يظنون».

الأمر الثاني: اختلفت كلمات القوم في أن الأعمال الصالحة هل تزيد في درجاتهم عنده تعالىٰ أم لا؟ وإلى كلٍّ ذهب فريق، ولكلّ منهما دليل وردّ وإيراد ذكرت في محلّها.

ولكن مجمل القول في ذلك: أنه قد تقدم في باب الولاية وما لها من المعنىٰ أن لهم من الله تعالىٰ مقام الولاية الإلهية، بحيث لا يشاركهم أحد حتىٰ الأنبياء والملائكة

المقربون والأحاديث في ذلك كثيرة جدّاً، وهناك أحاديث دلّت علىٰ صفات الامام بنحو لا يشارك فيها أحد، وهي كثيرة وقد تقدم بعضها.

ومنها ما عن الكافي، عن الرضا عليه السلام في حديث طويل في أوصاف الإمام إلىٰ أن قال عليه السلام: الامام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل، ولا نظير مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه، ولا اكتساب بل اختصاص من المفضل الوهاب فمن ذا الذي يبلغ معرفة الامام»، الحديث.

فيستفاد من هذا الحديث وأمثاله أن مقامهم السامي موهبة منه تعالىٰ لهم بحيث لا يدانيهم أحد، كما سيجيء إن شاء الله في شرح قوله عليه السلام: **﴿آتاكم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾**.

نعم: هذا المقام السامي الثابت لهم إنما هو فوق مقام الموجودين من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين من الأولين والآخرين إلىٰ يوم الدين.

وأما ذواتهم المقدسة بالنسبة إلىٰ ذاته المقدسة جلّت عظمته فهي قابلة للزيادة، حيث إنهم عليهم السلام وان كانوا فوق الخلق طراً، إلّا أنهم بالنسبة إلى الذات المقدسة، التي لا تناهى له جلّت آلاؤه مربوبون مخلوقون، فهم في مقام الاستفادة من الذات المقدسة فقط، وهذا المقام السامي أعطاهم الله من غير طلب ولا اكتساب كما علمت من كلام الرضا عليه السلام.

فلهم المقام الثابت السامي فوق كل مقام، بحيث لا يدانيهم أحد، وهم مع ذلك في مقام الزيادة من ذاته المقدسة كما تقدم من قوله عليه السلام: «وإنما العلم ما يحدث ساعة بعد ساعة» وقوله عليه السلام: «إنا لنزداد كلّ ليلة جمعة».

وتقدم أن معناها أنهم عليهم السلام في مقام حدّ الوجوب والإمكان، فهم مستمدون دائماً من ذاته المقدسة، وهم عليهم السلام في الزيادة منه تعالىٰ مع حفظ مقامهم الثابت لهم بحيث لا يدانيهم أحد. وإليه يشير قوله تعالىٰ: **﴿وقل ربّ زدني علماً﴾** وقوله صلى الله عليه وآله

علىٰ ما نقل عنه ﷺ: «ربّ زدني فيك تحيراً».

فالصلاة عليهم وطلب الرحمة منه تعالىٰ، وإهداء الأعمال الصالحة لهم عليهم السلام إذا كانت في معرض القبول من أحد، فإنما يؤثر في ازدياد درجاتهم بهذا المعنىٰ، لا أنه يؤثر في مقام ولايتهم وعلو درجاتهم بالنسبة إلىٰ الخلق.

فإن قلت: فعلىٰ هذا فأي أثر لعبادتهم عليهم السلام له تعالىٰ بعد ماكان مقامهم السامي ثابتاً لهم عليهم السلام منه تعالىٰ بلا طلب ولا اكتساب، وبعد عدم تأثير الصلوات والدعوات في مقامهم عليهم السلام؟ بل هناك أحاديث دلّت علىٰ أنهم إنما بلغوا إلىٰ ما بلغوا بالأعمال الصالحة والطاعات له تعالىٰ.

ففي حديث المعراج المعروف: «يا أحمد هل تدري لأيّ شيء فضلتك علىٰ ساير الأنبياء؟ قال: لا، قال الله تعالىٰ: باليقين، وحسن الخلق، وسخاوة النفس، ورحم الخلق، وكذلك أوتاد الأرض لم يكونوا أوتاداً إلّا بهذا».

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «إن بعض قريش قال لرسول الله ﷺ: بأيّ شيء سبقت الأنبياء، وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ قال: إنّي كنت أول من آمن بربّي، وأول من أجاب حين أخذ ميثاق النبيين وأشهدهم علىٰ أنفسهم، ﴿**ألَست بربّكم قالوا بلىٰ**﴾».

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «سئل رسول الله ﷺ بأي شيء سبقت ولد آدم؟ قال: إنني أول من أقرّ بربي، إن الله أخذ ميثاق النبيين وأشهدهم علىٰ أنفسهم ﴿**ألست بربكم قالوا بلىٰ**﴾ فكنت أول من أجاب».

. والأحاديث كثيرة في أن الأئمة عليهم السلام إنما بلغوا إلى المقامات بالعمل، كما لا يخفىٰ على المتتبع.

وظاهر هذه الأحاديث أنهم عليهم السلام إنما بلغوا بالأعمال الصالحة والصفات الحميدة وعبادته تعالىٰ، **فكيف التوفيق بين هذه وبين ما ذكر من مقامهم الثابت لهم منه تعالىٰ بلا طلب ولا اكتساب؟**

قلت: إستمع لما يتلىٰ عليك في حلّ ما أشكل عليك، فإنه قل ما تظفر به، وحاصل الجواب بعد ذكر روايات تناسب المقام، فنقول:

في الكافي بإسناده عن أبي عبدوا الله عليه‌السلام قال: إن العبّاد ثلاثة، قوم عبدو لله عزوجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالىٰ طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عزوجل حبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة.

وفي النهج قال عليه‌السلام: «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار».

وعن الخصال وأمالي الصدوق والعلل، بإسنادهم عن يونس بن ظبيان قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه‌السلام: «إن الناس يعبدون الله عزوجل علىٰ ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع. وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة. ولكنّي أعبده حبّاً له عزوجل فتلك عبادة الكرام وهو الأمن لقوله عزوجل: ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ ولقوله عزوجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ فمَن أحبّ الله أحبّه الله، ومَن أحبّه عزوجل كان من الآمنين»[١].

وقد اشتهر عن أمير المؤمنين عليه‌السلام قوله عليه‌السلام: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

إذا علمت هذا فنقول: لا ريب في أنّ العبادة خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة إنما يرجع واقعها إلىٰ حبّ النفس والعمل، لها إلّا أنه تعالىٰ بفضله وكرمه قبلها حينئذ عبادة لنفسه تعالىٰ.

---

١ ـ جامع أحاديث الشيعة في أحكام الشريعة ص ١٠٤ و ١٠٥.

فالعبادات المأتي بها هكذا لا محالة تؤثر في زيادة المثوبات، أو رفع المكاره الدنيوية أو الأُخروية عن العابد بفضله وكرمه تعالىٰ.

وأما الذي يعبده حبّاً له أو شكراً له فإنما يعبد الله وحده، لا يريد بعبادته إلّا أنه تعالىٰ أهل لها، ولا يعبده لما يرجع منها إلىٰ نفسه، فهذا العابد قد فنىٰ عن نفسه وعن الخلق كلّهم وليس يقصد إلّا مولاه، كما ورد التفسير لقوله تعالىٰ: **﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات..﴾**[1].

في تفسير الصافي وغيره عن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها؟ فقال: «الظالم يحوم حول نفسه، والمقتصد يحوم حول قلبه، والسابق يحوم حول ربّه عزوجل».

فظاهر الحديث أن السابق لا يحوم إلّا حول ربّه، قد تخلىٰ عن النفس والقلب، أي لا يعمل لهما بل لا يقصد إلّا ربّه، وهذا هو المقام السنّي الذي ليس فوقه مقام.

قال الصادق عليه السلام كما في تفسير الصافي وغيره عند قوله تعالىٰ: **﴿واذكروا الله كثيراً﴾** قال عليه السلام: «ما أنعم الله علىٰ عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره».

- وكيف كان فهذه الطائفة لا مقصد لهم إلّا مولاهم، قد خلعوا عن النفس بشئونها، فعبادة هؤلاء خالصة له تعالىٰ، ولم يكونوا كذلك إلّا لأنهم أحبّوا مولاهم فقط، فهم أحسن مصداق لقوله تعالىٰ: **﴿والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾** فلا محبوب لهم سواه تعالىٰ.

وإلىٰ هذه العبادة الخالصة أشار الصادق عليه السلام بقوله: «ولكنّي أعبده حبّاً له فتلك عبادة الكرام» أو قوله عليه السلام في الحديث السابق عنه: «فتلك عبادة الأحرار».

أقول: الأحرار جمع حرّ وهو المتخلص نفسه من جميع القيود سوىٰ قيد العبودية لربه تعالىٰ، فخرج عن قيد حبّ النفس وحبّ الآخرة فضلاً عن حبّ الدنيا كما حقق في محله، فهؤلاء لا يعمل في قلبهم شيء سوىٰ محبة خالقهم.

وأما الكرام: فهم المأمونون عن عذابه تعالىٰ، وعن أي عتاب منه تعالىٰ، فهم

---

١ ـ فاطر: ٣٢.

في مقام الأمن المشار إليه بقوله تعالىٰ ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾.

وأما المحب الذي يعبد الله حبّاً له فهو محبوب له تعالىٰ لمتابعته للنبي ﷺ بسبب الحبّ له تعالىٰ، فصار هذا الحبّ والمتابعة سبباً لكونه محبوباً له تعالىٰ، فالذي هو محب له تعالىٰ ومحبوب له لا يعمل إلّا بمقتضىٰ المحبة ولا يحوم إلّا حول ربّه.

فهذه العناوين الثلاثة أي العباد بما هم من الكرماء الآمنين والأحرار والمحبين، الذين قد صفاهم الله من كدر كما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة.

فعبادتهم إنما هي بعد ما منحهم الله تعالىٰ من الكرامة والأمن والحبّ، فهم قبل العمل قد حباهم الله تعالىٰ بتلك الكرامات، فعبادتهم ليست لتحصيل شيء من المقام، بل قد أعطاهم الله من فضله أحسن المقام وإنما يعبدونه حبّاً له.

وإليه يشير ما عن النهج، عن أمير المؤمنين عليه السلام كما تقدم من قوله: «وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار».

إذ من المعلوم أن العبادة بما هي مأتي بها شكراً إنما هو بعد العطية إذ الشكر وما هو مصداقه يكون بعد العطاء كما لا يخفىٰ.

فحيث إنه تعالىٰ حباهم بتلك المقامات التي أشار إليها الرضا عليه السلام بلا طلب ولا اكتساب، فهم عليهم السلام عملوا بأحسن العمل وعبدوه حقّ العبادة، كلّ ذلك شكراً له لما منحهم الله تعالىٰ في ابتداء الخلقة.

وقد أشار إلىٰ عبادتهم بقوله تعالىٰ: ﴿عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ وكذا ساير الآيات بمثلها، كما لا يخفىٰ.

والحاصل: أنهم عليهم السلام وكما علمت خلقهم تعالى قبل الخلق كلهم أجمعين، وحمّلهم علمه، وأعطاهم تلك المقامات الشريفة، وجعلهم وسائط بينه وبين الخلق، وبعثهم إلىٰ الثقلين بعد ما أكملهم بتلك الكمالات.

وحيث علم منهم الوفاء قبلهم، وقدّمهم وأعطاهم أجر عملهم قبل عملهم لما علم منهم الوفاء بالعمل، فهم عليهم السلام يعملون بعد ما منحهم الله تعالىٰ ما منحهم شكراً

له.

وإليه يشير قوله عليه السلام في دعاء الندبة من قوله: .. الذين استخلصتهم لنفسك ودينك، إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم، الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها، فشرطوا لك ذلك، وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقربتهم، وقدمت لهم الذكر العلي والثناء الجلي..». الدعاء.

فقوله: «فقبلتهم وقربتهم»، إشارة إلىٰ ما ذكرنا من أنه تعالىٰ أعطاهم أجرهم في أول يوم الوجود؛ لما علم منهم الوفاء، فهم الواجدون لتلك المقامات لطفاً منه تعالىٰ بلا طلب ولا اكتساب.

نعم: إنما منحهم لما علم منهم الوفاء، وهم عبدوه شكراً لهذه العطايا الجزيلة والمواهب الجليلة.

فتحصل من الجميع أن لهم مقاماً شامخاً، أي مقام الولاية المطلقة الكبرىٰ، فهذه المنزلة إنما هي منحة منه تعالىٰ لهم بلا طلب ولا اكتساب، وإنما هم يعبدونه حقّ العبادة شكراً وحبّاً له لا لتحصيل تلك المقامات.

ثم إنّ أيّ عمل يوجب بنفسه استحقاق تلك المقامات العالية الثابتة لهم؟!

ولعلّ هذا هو السرّ في كون عبادتهم شكراً له، أي لا يمكن أن تكون عبادتنا سبباً لتلك الألطاف، وإنما نحن نشكره لتلك الألطاف.

فإن قلت: علمه تعالىٰ بأنهم عاملون بالوظائف صار سبباً للطفه لهم، فالسبب هو عملهم، غاية الأمر لما علم تعالىٰ أنهم يعملون حباهم قبل العمل، وأما بالنسبة إلينا فحيث لم يعلم الوفاء منا فالعطية تابعة منه تعالىٰ للعمل وإلّا فلا.

قلت: نعم، إلّا أنهم منحهم الله تعالىٰ ما لم يمنح به أحداً، وتلك المنح والمقامات سابقة على العمل قد أعطاها لهم في ابتداء الوجود.

وقد علمت أنها منح لا يمكن كونها مسبباً عن عمل، ولا يمكن ولا يكون عمل

قابلاً للسببية لتلك المنح العظيمة، فهي بلحاظ عظمتها وجلالتها، نعم لا تكون معلولاً ومسبباً لأيّ عمل وإن عظم وكثر.

وبهذا النظر صحّ أنها بلا طلب ولا اكتساب، وحينئذ تكون أعمالهم وعباداتهم عليهم السلام شكراً له فقط، ولم يعلم قطعاً أن أعمالهم الآتية هي السبب لتلك الألطاف العظيمة، بل الممكن واقعاً أن تكون شكراً كما هو ظاهر كلماتهم عليهم السلام.

نعم: ربما يقال إنه من الأحاديث المذكورة عقيب قولنا إن قلت، يظهر أنهم السابقون في الإجابة في عالم الأرواح والذّر، فهم قد أعطوا العبودية والإطاعة له تعالىٰ في سابق الخلقة قبل ساير الخلق، فحينئذ يتوهم أنها سبب لتلك الألطاف.

ولكن يدفعه أنّ تلك الاجابات منهم عليهم السلام أيضاً كأعمالهم وعباداتهم في الدنيا، إنما كانت بعد ما منحهم الله تلك العنايات الأزلية كما علمت.

وحاصل الكلام: أن عباداتهم كانت حبّاً وشكراً له، ولا نظر لهم فيها لما يرجع إليهم من المثوبات، وإنما هي ألطاف خاصة ابتدائية منه تعالىٰ لهم فقط، وهذا أمر لا ينفيه العقل، ولا يرده الاعتبار، بل بملاحظة الأحاديث الواردة في بدو خلقهم تساعده، كما لا يخفىٰ.

ثم: إن الغرض بيان أن المقام المختص بهم مقام موهبتي لا كسبي، أعني المقام الولاية الكبرىٰ المتقدم ذكرها، لا أن أعمالهم لا تؤثر فيهم شيئاً، بل علمت أنهم عليهم السلام في مقام حدّ الواجب والإمكان فهم دائماً مستمدون منه تعالىٰ.

فأعمالهم وأعمال شيعتهم لهم إنما يؤثر فيهم: إذا سلمنا التأثير لها في استفادتهم منه تعالىٰ فوق ما منحهم بما لم يمنح به أحداً من العالمين، كيف وأن ذاته المقدسة لا حدّ لها ولا نهاية، وهم مربوبون له تعالىٰ ومستفيدون منه تعالىٰ دائماً، فهم دائماً في الزيادة منه تعالىٰ، فهم كما وصفهم الله تعالىٰ عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وإليه يشير ما في شرح الصحيفة السجادية بما حاصله أنه ما الفائدة في الدعاء

له ﷺ؟ فقيل: إن الدرجة له ﷺ ثابتة بأسباب منها الدعاء.

وردّ بأنه غير صحيح لأن درجاته ﷺ أعطاها الله تعالىٰ له بدون طلب ولا اكتساب بنحو لا يؤثر فيه دعاء داع.

فحينئذ معنى الدعاء هو الامتثال لأمره تعالىٰ بقوله: ﴿**صلوا عليه وسلّموا تسليماً**﴾. فإن دعاءنا امتثال لهذا الأمر ضرورة أن المقام المنيع له ﷺ ثابت بصلواته تعالىٰ وصلوات الملائكة، وإنما أمرنا بالدعاء والصلوات متابعة وانقياداً له تعالىٰ بالدعاء له ﷺ أيضاً، تشبيهاً به تعالىٰ وبالملائكة، وفائدة الدعاء حينئذ هو زيادة الإيمان لنا والزلفىٰ لديه تعالىٰ.

ثم قال: ولعلّ الأقرب إلىٰ الصواب هو ما ذكره بعين ما ذكرناه آنفاً من أنهم في مقام حدّ الواجب والإمكان.

فالدعاء يؤثر في ترقيهم في المقامات الربوبية، التي لا نهاية لها، كما لا يخفىٰ والحمد لله ربّ العالمين.

الأمر الثالث:

وأما قوله عليه السلام: وبركاته، عن القاموس: البركة محركة النماء والزيادة والسعادة، والتبريك الدعاء بها، وبارك علىٰ محمد وآل محمد أدم له ما أعطيته من التشريف والكرامة، وتبارك الله (تقدّس وتنزّه صفته) خاصة بالله.

وعن الكافي وغيره في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**وجعلني مباركاً**﴾ قال عليه السلام: «أي نفّاعاً».

وحينئذ معنىٰ وبركاته عليهم عليهم السلام أي أدام الله لكم من الخير التام، والنفع العام، والسعادة العظمىٰ، والرياسة الكبرىٰ، والزيادة علىٰ أهل الدنيا.

فعطفها علىٰ الرحمة يفيد طلب هذه الأمور لهم عليهم السلام منه تعالىٰ فهو دعاء لتنمية رحمته لهم عليهم السلام وزيادتها بإسعادهم عليهم السلام بالقرب منه تعالىٰ لهم ولأتباعهم من شيعتهم.

فالبركة مطلقاً طلب للنفع التام بالنسبة علىٰ ما أنعم به من النعم الدنيوية والأُخروية، كما لا يخفىٰ، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله ﷺ: السّلام علىٰ أئمّة الهدىٰ.

أقول: الكلام هنا يقع في مقامين:

الأول: في معنى الأئمة.

والثاني: في معنى الهداية.

أما الأول: فنقول: الأئمة بالياء والهمزة جمع إمام. قال في المجمع: وأصل أئمة أءممة فألقيت حركة الميم الأولىٰ على الهمزة، وأُدغمت الميم في الميم، وخففت الهمزة الثانية؛ لئلا تجتمع همزتان في حرف واحد مثل آدم وآخر ـ الخ.

وفيه: قوله: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾ أي يأتم بك الناس فيتبعونك ويأخذون عنك، لأن الناس يأمون أفعاله أي يقصدونها فيتبعونها، الخ.

وفي معاني الأخبار، قال مصنف هذا الكتاب ﷺ: سألت أبا بشير اللغوي بمدينة السلام عن معنى الإمام؟

فقال: الإمام في لغة العرب هو المتقدم بالناس.

والامام هو المطمر وهو التر الذي يبني عليه البناء.

والامام هو الذهب الذي يجعل في دار الضرب ليؤخذ عليه العيار.

والامام هو الخيط الذي يجمع حبّات العقد.

والامام هو الدليل في السفر في ظلمة الليل.

والامام هو السهم الذي يجعل مثالاً يعمل عليه السهام، إنتهىٰ.

فالامام هو العالم والرجل الجامع للخير ومن هو علىٰ الحق، والامام هو المتقدم بالناس.

وفي المحكي عن معاني الأخبار سمي الامام إماماً؛ لأنه قدوة للناس منصوب

من قبل الله تعالىٰ مفترض الطاعة.

وعن تفسير القمي، عن علي عليه السلام أنه قال: أنا والله الامام المبين أبين الحقّ من الباطل.

وفي معاني الأخبار، عن الباقر، عن آبائه، عن الحسين بن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾، قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله هو التورية؟ فقال صلى الله عليه وآله: لا، قالا: فهو الانجيل؟ فقال: لا، قالا: فهو القرآن؟ فقال: لا، قال: فأقبل أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «هو هذا، إنه الامام الذي أحصىٰ الله تبارك وتعالىٰ فيه علم كلّ شيء».

وفي المحكي عن خطبة اللؤلؤة، عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف بني أُميّة وبني العباس، قال عليه السلام فيهما: «إنهم أئمة الكفر وخلفاء الباطل»، الخبر.

وقد روىٰ طلحة بن زيد عن الصادق عليه السلام أنه قال: «الأئمة في كتاب الله إمامان، إمام عدل وإمام جور، قال الله تعالىٰ: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ لا بأمر الناس، وقال: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلىٰ النار﴾ يقدمون قبل أمر الله، ويأخذون بأهوائهم خلافاً لما في كتاب الله».

أقول: الأحاديث كثيرة في بيان معنىٰ الامام حسب المراد منه في استعماله في الكتاب والسنّة وعند الأئمة عليهم السلام ولعلّه سيأتي إن شاء الله بعض الأحاديث في بيانه في الشرح.

وفي إضافة الأئمة إلىٰ الهدىٰ إشارة إلىٰ أنهم أئمة الحقّ وأئمة العدل المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ فمصداقها فيهم عليهم السلام.

والمراد من الأئمة هنا بما لها من المعاني المتقدمة للإمام، فإنهم عليهم السلام هم الكاملون في الإمامة بجميع معانيها، كما لا يخفىٰ.

وأما الأمر الثاني: أعني معنى الهداية ومعنىٰ كونهم أئمة الهدىٰ.

فنقول: في المجمع: والهدىٰ: الرشاد والدلالة، والبيان يذكر ويؤنث، والهدىٰ: هديان، هدىٰ دلالة، فالخلق به مهديون، وهو الذي تقدر عليه الرسل، قال تعالىٰ: **﴿وإنك لتهدي إلىٰ صراط مستقيم﴾** فأثبت له الهدىٰ الذي معناه الدلالة والدعوة والبينة، وتفرّد هو تعالىٰ بالهدىٰ الذي معناه التوفيق والتأييد كما قال: **﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾**.

أقول: المنفي هو الهداية المختصة به، ثم إنه يظهر من قوله تعالىٰ **﴿قل الله يهدي للحقّ﴾** وقوله تعالىٰ: **﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾** وقوله: **﴿إنّ علينا للهدىٰ﴾** وقوله تعالىٰ: **﴿أو أجد على النار هدىٰ﴾** وقوله: **﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هديٰهم﴾** وقوله تعالىٰ: **﴿وهديناه النجدين﴾** إن جميع موارد الاستعمالات فيها هو بمعنى الدلالة.

قال بعض الأفاضل كما في المجمع: وبهذا يظهر ضعف القول: بأن الهداية إن تعدت إلىٰ المفعول الثاني بنفسها كانت بمعنى الدلالة الموصلة إلىٰ المطلوب، وإن تعدت باللام أو بإلى كانت بمعنى الدلالة علىٰ ما يوصل.

فإن المراد (والله العالم) من قوله تعالىٰ: **﴿قل الله يهدي للحق﴾** هو الهداية الموصلة مع أنّها تعدت باللام، وقوله: **﴿هديناه النجدين﴾** يراد منه الدلالة علىٰ ما يوصل مع أنّها تعدت بنفسها، ومثله قوله: **﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾**.

فعن الصادق عليه السلام: أي عرّفناه إما آخذاً وإما تاركاً، فالمراد منه هو الدلالة والتعريف كما فسر مع أنها تعدت بنفسها.

أقول: الهداية بحسب المعنىٰ علىٰ ما عرفت وعلىٰ ما هو المشهور قسمان:

ـ هداية بمعنىٰ إراءة الطريق إلىٰ المطلوب.

ـ وهداية بمعنى الإيصال إليه.

وأما اللفظ الدال علىٰ أحدهما فلا تعين له لأحدهما، بل يستفاد كلّ منهما

بحسب القرائن اللفظية أو المعنوية، كما لا يخفىٰ.

وأما معنى الهداية من الرسول ﷺ أو الأئمة عليهم السلام سيأتي معناها.

وأما الهداية منه تعالىٰ، فقيل: إنها أقسام.

منها: إفاضة القوىٰ التي يتمكن بها العبد من الاهتداء إلىٰ مصالحه كالقوىٰ العقليّة والحواس الباطنية والمشاعر الظاهرة.

ومنها: نصب الدلائل الفارقة بين الحقّ والباطل والصلاح والفساد.

ومنها: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

ومنها: أن يكشف عن قلوبهم السرائر، ويريهم الأشياء كما هي بالوحي والالهام والمنامات الصادقة، وهذا القسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء.

ثم: إن طلب الهداية منه تعالىٰ في جميع الأمور المطلوبة المرغوبة فيها قد يكون بلسان القول، وقد يكون بلسان الاستعداد.

فما يكون بلسان الاستعداد لا يتخلف عنه المطلوب.

وما يكون بلسان القول ووافقه الاستعداد استجيب وإلّا فلا (أي يمكن أن يستجاب وان لا يستجاب) كذا قيل.

أقول: ولعلّ الطلب بلسان الاستعداد هو المشار إليه في قوله تعالىٰ **﴿وآتيناكم من كلّ ما سألتموه﴾** كما فسر بعضهم السؤال بسؤال الفطرة والاستعداد كما حقق في محلّه، هذا بمقتضىٰ كرمه وفضله حيث لا يرد سائله، ولا يرد سؤالاً حقيقياً بمثل سؤال الفطرة والاستعداد.

وأما إذا كان بحسب اللفظ فإن اجتمع مع شرائط الاستجابة استجيب وإلّا فلا، كما هو مقتضى الأحاديث الواردة في باب الدعاء.

وأما الهداية من الرسول ومن الأئمة عليهم السلام فهاهنا أحاديث فسّرت ذلك ودلّت عليها فلابد من ذكرها، ثم بيان ما يحتاج منها إلىٰ البيان:

فنقول: في الكافي، بإسناده عن الفضيل، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله

عزوجل: ﴿ولكلِّ قوم هاد﴾ فقال: «كلّ إمام هاد للقرآن الذي هو فيهم».

وفيه بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزوجل: ﴿إنما أنت منذر ولكلّ قوم هاد﴾، فقال: «رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر ولكلّ زمان منّا هاد يهديهم إلىٰ ما جاء به نبيّ الله صلى الله عليه وآله ثم الهداة من بعده علي عليه السلام ثم الأوصياء واحد بعد واحد».

وعن بصائر الدرجات، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وإنك لتهدي إلىٰ صراط مستقيم﴾ قال: «يعني تأمر بولاية علي وتدعو إليها وهو الصراط المستقيم».

وعن مناقب ابن شهر آشوب عن الكاظم عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ﴾ قال: «أي هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيه والولاية هي دين الحق».

وفيه، عن أبي جعفر عليه السلام في الآية، قال: «الهدىٰ سبيل علي عليه السلام أي قوله تعالىٰ: سمعنا الهدىٰ آمنّا به».

وعن الكافي، عنه عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقىٰ﴾ قال: «من قال بالأئمة واتبع».

وعن معاني الأخبار، عن علي عليه السلام قال في خطبة له: «أنا الهادي وأنا المهتدي».

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: «إنهم هداة مهديون أي الأئمة عليهم السلام».

وفي الوافي عن الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنكم لا تكونون صالحين حتىٰ تعرفوا، ولا تعرفون حتىٰ تصدقوا، ولا تصدقون حتىٰ تسلّموا أبواباً أربعة، لا يصلح أولها إلّا بأخرها، ضلّ أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهاً بعيداً، إن الله تعالىٰ لا يقبل إلّا العمل الصالح، ولا يتقبل إلّا بالوفاء بالشروط والعهود، ومن وفىٰ لله بشروطه، واستكمل ما وصف في عهده نال ما عنده واستكمل وعده. إن الله تعالىٰ أخبر العباد بطرق الهدىٰ وشرع لهم فيها المنار، وأخبرهم كيف يسلكون فقال: ﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ﴾ وقال: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ فمن اتقىٰ الله تعالىٰ فيما أمره لقي الله تعالىٰ مؤمناً بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله.

هيهات هيهات فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا، وظنوا أنهم آمنوا، وأشركوا من حيث لا يعلمون أنه من أتىٰ البيوت من أبوابها إهتدىٰ ومن أخذ في غيرها سلك طريق الردىٰ، وصل الله تعالىٰ طاعة ولي أمره بطاعة رسوله وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله، وهو الاقرار بما نزل من عند الله ﴿**خذوا زينتكم عند كلّ مسجد**﴾ والتمسوا البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فإنه. قد خبركم أنهم ﴿**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾[1] إن الله قد استخلص الرسل لأمره ثم استخلصهم مصدقين لذلك في نذره فقال: ﴿**وإن من أُمة إلّا خلا فيها نذير**﴾ تاه من جهل وإهتدىٰ من أبصر وعقل.

إن الله تعالىٰ يقول: ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[2] وكيف يهتدي من لم يبصر وكيف يبصر من لم ينذر (لم يتدين)؟ اتبعوا رسول الله ﷺ وأقرّوا بما نزل من عند الله، واتبعوا آثار الهدىٰ فإنهم علامات الإمامة والتقىٰ. واعلموا أنه لو أنكر رجل عيسىٰ بن مريم عليه السلام وأقرّ بمن سواه من الرسل لم يؤمن، اقتصوا الطريق بالتماس المنار، والتمسوا من وراء الحجب الآثار تستكملوا أمر دينكم وتؤمنوا بالله ربكم» إنتهىٰ.

فهذا الحديث بيّن الأمر بما لا مزيد عليه، وبيّن أنهم الهداة وأنه لابد من متابعتهم لما معهم الدلائل والبراهين علىٰ مدعاهم. ضرورة أن الهداية تلزمهم وتتبعهم بحيث كأنهم أئمتها مع أنهم أئمة الناس في الهداية.

وقوله عليه السلام: «ضلّ أصحاب الثلاثة»، يشير إلىٰ أنه الاشتمال بظاهر الصلاح والمعرفة وإظهار التصديق، ما لم يكن من أهل التسليم لولي الله، لا يفيده شيء كما شرحه وبرهن عليه فيما بينه عليه السلام.

---

١ ـ النور: ٣٧.

٢ ـ الحج: ٤٦.

ثم: إنه يستفاد من هذه الأحاديث تصريحاً وتلويحاً أمور أهمها: أنها تشير إلىٰ أن الهداية بما لها من الأهمية إنما المقصود منها الهداية إلىٰ ولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام، فالاهتداء بالولاية من أهم الأُمور في نظر الأئمة عليهم السلام كما يظهر من مطاوي كلماتهم، ومن تأويلهم كثيراً من الآيات بالولاية، كما لا يخفىٰ علىٰ من راجع تفسير البرهان خصوصاً مقدمته، فهم عليهم السلام يهدون الخلق إلىٰ الولاية بأمره تعالىٰ.

والسرّ فيه ما علمت سابقاً من أن الولاية هي أساس الأمر وذروة الأمر وسنام الأمر، إذ بها يعرف الله تعالىٰ ومعارفه وأحكامه، وينجز وعده ووعيده وتجري بها حدوده.

والحاصل: أن فعلية الدين في جميع شؤونه ومصاديقه من المبدإ إلىٰ المعاد وما بينهما، إنما هي بالولاية وبهداية ولي الأمر وإشارته كما تقدم مفصلاً.

ومن هذا يعلم أن المهتدي هو الذي اهتدىٰ إلىٰ الولاية، وإلّا فلو عبد الله طول دهره بأحسن الوجوه ما نفعه ذلك كما سيجيء بيانه مفصلاً، وتقدمت الإشارة إليه مراراً.

فإياك أن تخرج عن هذه الدرعة الحصينة ولاء أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله كما أُشير إليها في الأدعية، فإنه من التفت عن هذا السمت المستقيم، فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

فظهر بحمد الله تعالىٰ أن معنىٰ كونهم أئمة الهدىٰ أنهم عليهم السلام أدلة الهدىٰ المطلق المشار إليها في القرآن، فتلك الهداية منهم بل هم عليهم السلام نفس الهدىٰ.

فعن تفسير الفرات، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿فإما يأتينكم مني هدىٰ﴾** قال عليه السلام: «علي بن أبي طالب عليه السلام»، وهم المرشدون والهادون كما قال علي عليه السلام: «أنا الهادي وأنا المهتدي»، كما تقدم، كيف لا وهم المهديون من الله سبحانه وتعالىٰ ومكرمون بكرامته كما قال: **﴿عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾** وإنهم عليهم السلام **هادون بالله تعالىٰ إلىٰ الله سبحانه فيوصلون إلى المطلوب من شاءوا كما**

ظهرت منهم تلك الأُمور في كثير من الناس، وإلىٰ ما يوصل إلى المطلوب حسب ما تقتضيه الحكمة بل هم المطلوب والمطلوب ألطافهم ومنوياتهم. كما تقدم من قوله عليه السلام: «إنما أمر الناس بمعرفتنا والتسليم لنا والردّ إلينا».

ثم: إن من إضافة الأئمة إلىٰ الهدىٰ يستفاد الاختصاص، أي أن أئمة الهدىٰ مختصة بهم لا تكون في غيرهم كما علمته من الأحاديث المتقدمة.

كيف وقد دلّت الآثار علىٰ أنهم مع الحق والحق معهم وفيهم وبهم ومنهم ولهم، فلا يفارقهم الهدىٰ ولا يفارقونه حيث علمت أنهم حقائق القرآن وأحسن مصاديقه. ونحن نشكر الله علىٰ هذه النعمة العظمىٰ التي ليست فوقها نعمة.

ثم: إن كونهم هداة علىٰ أقسام من حيث القول، ومن حيث العقل، ومن حيث التصرف في الأرواح والنفوس، ومن حيث الذات، أي هم حقيقة الهداية بذاتهم، سيجيء الكلام في بيانها في شرح قوله عليه السلام: «والأدلّاء علىٰ مرضاة الله» إن شاء الله تعالىٰ.

قوله عليه السلام: ومصابيح الدجىٰ.

في المجمع: المصباح: السراج الثاقب المضيء، ويعبّر عن القوة العاقلة والحركات الفكرية الشبيهة بالمصباح، ومنه قوله عليه السلام: «فزهر مصباح الهدىٰ في قلبه».

وفيه: دجىٰ كغنىٰ أي مظلم، وفي الحديث: «الامام عالم بما يرد عليه من ملتبسات الدجىٰ ومعميات السنن، أي عالم بما يرد عليه من الأُمور المظلمة التي لا ظهور فيها لغيره».

والدجىٰ في العبارة هنا جمع دجية بضم أوله وسكون الجيم وهي الظلمة، والمراد ظلمات العدم والشك والجهل والفناء وكلّ أمر مبهم.

فالظلمة حجاب على الواقع مطلقاً كلّ بحسبه.

وظلمة العدم عبارة عن الموجودات المقدرة، التي لم يوجد بنور الوجود كما تقدم الحديث عنه ﷺ: «إن الله خلق الأشياء في العدم، ثم رشّ عليها من نور وجوده، فالظلمة هو المانع لدرك الشيء ذاتاً أو صفة أو خصوصية والنور خلافه ورافعه وطارده».

ثم: إنه قد علمت أن معنىٰ الظاهر للمصباح هو السراج، ولكن يراد منه هنا معناه الكنائي وهو النور.

ثم: إن النور قد يراد منه الوجود، فحينئذ كونهم عليهم السلام مصابيح الدجىٰ أي بأنوارهم ظهرت الموجودات، كما دلّت عليه كثير من الأحاديث من أن شيعتهم خلقوا منهم بل كلّ شيء خلق منهم كما تقدمت الإشارة إليه.

وقد يراد منه اليقين كما في كثير من الأحاديث بل والآيات. فحينئذ اليقين بالمعارف والمبدإ والمعاد لا يكون إلّا بأنوارهم، وهم مصابيحه فبنورهم يرفع الشك ويحصل اليقين في القلب، كما تقدم في حديث أبي خالد من أنّ الأئمة هم الذين ينورون قلوب المؤمنين.

وقد يراد منه العلم، ومن المعلوم أن المعلوم والمعارف الحقة إنما أُفيضت علىٰ ألواح القلوب القابلة بهم عليهم السلام، وقد تقدم أن أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي يمير العلم للمؤمنين، أي يطعمهم وهذا ظاهر لا سترة عليه.

وقد يراد منه أي من النور حيثية التأثير في المستنير، وسوقه إلىٰ المطلوب كالسراج المستعان به في الطريق للسير إلىٰ المقصد، وهم عليهم السلام لهم هذه الجهة أيضاً، فالأولياء بنورهم يستضيئون ويسيرون إلىٰ الدرجات العلىٰ باستعانة نورهم، فهم عليهم السلام علة الدرجات، وجعلت المكرمات والسعادات لهم لما استضاؤوا بنورهم عليهم السلام.

والحاصل: أن حقيقتهم عليهم السلام هو النور كما عبر عنها في القرآن بالنور في قوله

تعالىٰ: ﴿.. والنور الذي أنزلنا﴾[١] ﴿.. النور الذي أنزل معه﴾[٢] المفسر في كلماتهم بذواتهم المقدسة.

فحقيقتهم عليهم السلام النور أي حقيقة المقامات والدرجات والسعادات، فمن اتصل بهم واستضاء تحت ظل حقيقتهم بنفي حدوده وآرائه وأهوائه.

وبعبارة أُخرىٰ من فنيٰ عن نفسه في قباهم كذلك، حصلت له تلك الأُمور كما تقدم.

ففي تفسير البرهان وغيره، محمد بن يعقوب بإسناده عن عمار الساباطي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: **﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير * هم درجات عند الله﴾** فقال: الذين اتبعوا رضوان الله هم الأئمة عليهم السلام وهم والله يا عمار درجات للمؤمنين، وبولايتهم ومعرفتهم إيانا يضاعف الله لهم أعمالهم، ويرفع لهم الدرجات العلىٰ.

فعلم منه أنهم عليهم السلام نفس درجات المؤمنين وبولايتهم أي بتسليط ولايتهم علىٰ أنفسهم بحيث لا يكون في أنفسهم ما يخالف ولايتهم، وبمعرفتهم من أنهم الأسماء الحسنىٰ ومظاهر الحقّ، والاستضاء بأنوارهم يضاعف الله لهم أعمالهم ويرفع لهم الدرجات العلىٰ بظهور درجاتهم عليهم السلام فيهم، كما لا يخفىٰ.

هذا وقد تقدم في شرح وموضع الرسالة أنهم عليهم السلام لهم مقام المعاني أي معاني الحق والربوبية والأسماء الإلهية، ولهم مقام الأبواب أي الإراءة والهداية والطريقة إليه تعالىٰ، ولهم مقام الامامة وكونهم حجة الله علىٰ الخلق، وقد تقدم شرحها.

وحينئذ كونهم مصابيح الدجىٰ كناية عن واجديتهم لهذه المقامات معنىٰ.

بيانه: أن السراج كماله دهن يكون نوره منه، وله نور هو ظاهر بنفسه ومظهر لغيره، فكذلك الأئمة عليهم السلام فبلحاظ كونهم معانيه تعالىٰ فهم واجدون لمادة الاضائية والنورانية.

---

١ ـ التغابن: ٨.

٢ ـ الأعراف: ١٥٧.

فهذا المقامحقيقتهم وما به قوامهم منه وبه تعالىٰ، وكونهم أبواباً مقام هدايتهم، وتعليمهم العلم بالبيان المتقدم، وكونهم إماماً وحجة علىٰ الخلق مقام تربيتهم بإيصال الفيوضات الإلهية منه تعالىٰ إليهم، وسوقهم بها إلىٰ الكمالات والحقائق والدرجات العلىٰ، كما لا يخفىٰ.

فمن اقتدىٰ بهم واستضاء بنورهم فقد نجا، وبلغ من الخيرات الغاية القصوىٰ.

فظهر بحمد الله أنهم عليهم السلام مصابيح الأكوان والأعيان والأزمان والأعمال والأحوال والأقوال والأفكار، وجميع أطوار من دونهم من الخلق؛ لأنهم عليهم السلام قد علمت أن بنورهم ظهرت الموجودات، فهم حينئذ باب الوجود فكلّ شيء يصل إلىٰ الخلق من خلق ورزق وممات وحياة، فنهم يعني أن الله تعالىٰ يتعلق فعله بالموجودات أجمع بواسطتهم، كما تقدمت الأحاديث الدالة علىٰ هذا في شرح معنىٰ الولاية المطلقة الثابتة لهم عليهم السلام.

فصح بقول مطلق أنهم مصابيح الدجىٰ أي تستنير بهم الأكوان، وعنهم تظهر الأعيان عن ظلمة العدم والجهل والشك، ولا تنكشف تلك إلّا بأنوار مصابيحهم.

أقول: وإن شئت التصديق بما قلناه فانظر فيما ورد في تفسير آية النور، فإنه بالتأمل يظهر لك ما قلنا، وفوق ذلك بما هو خارج عن حدّ فهم البشر، ونحن نذكر بعض أحاديثها تيمناً وتبركاً، فنقول وعلىٰ الله التوكل:

في تفسير نور الثقلين[1]، قال علي بن إبراهيم رحمه الله: قول الله عزوجل: **﴿الله نور السموات والأرض﴾** إلىٰ قوله **﴿والله بكلّ شيء عليم﴾** فإنه حدثني أبي، عن عبدالله بن جندب، قال: كتبت إلىٰ أبي الحسن الرضا (صلوات الله عليه) أسأله عن تفسير هذه الآية

فكتب إليّ الجواب: أما بعد: «فإن محمّداً صلى الله عليه وآله كان أمين الله في خلقه، فلما قبض

---

١ ـ نور الثقلين ج٣ ص٦٠٦.

النبي كنا أهل البيت ورثته، فنحن أُمناء الله في أرضه، عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الاسلام، وما من فئة تضل مائة وتهدي مائة إلّا ونحن نعرف سائقها وقائدها وناعقها، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الايمان وحقيقة النفاق، وإن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله عزوجل علينا وعليهم الميثاق. يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس علىٰ ملة الاسلام غيرنا وغيرهم إلىٰ يوم القيمة، نحن الآخذون بحجزة نبينا ونبينا الآخذ بحجزة ربنا، والحجزة النور وشيعتنا آخذون بحجزتنا، من فارقنا هلك ومن تبعنا نجا، والمفارق لنا والجاحد لولايتنا كافر ومتبعنا وتابع أوليائنا مؤمن، لا يحبنا كافر ولا يبغضنا مؤمن، فمن مات وهو يحبنا كان حقاً علىٰ الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا وهدىٰ لمن اهتدىٰ بنا، ومن لم يكن منا فليس من الاسلام في شيء، بنا فتح الله الدين وبنا يختمه، وبنا أطعمكم الله عشب الأرض، وبنا أنزل الله قطر السماء، وبنا آمنكم الله عزوجل من الغرق في بحركم، ومن الخسف في بركم، وبنا نفعكم الله في حياتكم وفي قبوركم وفي محشركم، وعند الصراط وعند الميزان وعند دخولكم الجنان.

مثلنا في كتاب الله عزوجل ﴿كمشكاة﴾ المشكاة في القنديل، فنحن المشكاة ﴿فيها مصباح﴾ المصباح محمد صلى الله عليه وآله ﴿المصباح في زجاجة﴾ من عنصره ﴿الزجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ لا دعيّة ولا منكرة ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ القرآن ﴿نور علىٰ نور﴾ إمام بعد إمام ﴿يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكلّ شيء عليم﴾ فالنور علي صلوات الله عليه، يهدي لولايتنا من أحب، وحقّ علىٰ الله أن يبعث ولينا مشرقاً وجهه منيراً برهانه، ظاهرة عند الله حجّته، الحديث.

وفيه[1] عن أمالي الصادق رحمه الله بإسناده عن الصادق عليه السلام حديث طويل يقول

---

١ ـ تفسير نور الثقلين ج٣ ص٦٠٥.

فيه: «أنا فرع من فرع الزيتونة، وقنديل من قناديل بيت النبوة، وأديب السفرة، وربيب الكرام البررة، ومصباح من مصابيح المشكاة التي فيها نور النور، وصفو الكلمة الباقية في عقب المصطفين إلىٰ يوم الحشر».

وفيه[1] وقد روىٰ عن الصادق عليه السلام إنه سئل عن قول الله عزوجل: **﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكٰوة فيها مصباح﴾** فقال: «هو مثل ضربه الله لنا».

فالنبي والأئمة عليهم السلام من دلالات الله وآياته التي يهتدي بها إلىٰ التوحيد ومصالح الدين وشرايع الاسلام والسنن والفرائض، ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

وفيه عن أُصول الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام في قول الله عزوجل: **﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكوة﴾** فاطمة عليها السلام **﴿فيها مصباح﴾** الحسن عليه السلام **﴿المصباح في زجاجة﴾** الحسين عليه السلام **﴿الزجاجة كأنّها كوكب درّي﴾** فاطمة كوكب درّي **﴿يوقد من شجرة مباركة﴾** إبراهيم عليه السلام **﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾** لا يهودية ولا نصرانية **﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور علىٰ نور﴾** إمام منها بعد إمام **﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾** يهدي الله للأئمة عليهم السلام من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، إلىٰ قوله: قلت: أو كظلمات؟

قال: الأول وصاحبه **﴿يغشاه موج﴾** الثالث **﴿من فوقه موج﴾** ظلمات الثاني **﴿بعضها فوق بعض﴾** معاوية لعنه الله وفتن بني أُمية **﴿إذا أخرج يده﴾** المؤمن في ظلمة فتنتهم **﴿لم يكد يراها﴾** **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً﴾** إماماً من ولد فاطمة عليها السلام **﴿فما له من نور﴾** إمام يوم القيامة.

فعلم من هذه الأحاديث ما ذكرناه وهو: أنه تعالىٰ ضرب لنورهم مثلاً وهو المصباح الذي استضاءة كلّ شيء منه؛ وذلك لأن نورهم وفاضل وجودهم قد لاح

---

١ ـ تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٦٠٣.

شعاعه، ونور ضيائه علىٰ جميع الموجودات والأشباح، بنورهم ظهر ما ظهر، ولهم خلقت الأكوان وعلىٰ سبيلهم وهداهم دار رحىٰ الاسلام والإيمان.

وهذه المنزلة والنورانية إنما هو مثل نوره تعالىٰ كما قال الصادق عليه السلام هو مثل ضربه الله لنا، أي قوله تعالىٰ كمشكاة الخ مصداق لقوله: مثل نوره، فإن الخبر والمبتدأ وإن اختلفا مفهوماً إلّا أنهما متحدان مصداقاً، فهم مثل نوره تعالىٰ.

فيعلم أن الآثار لهذا النور المشكاتي إنما هو مثل نوره في قوله تعالىٰ: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾.

ثم إن الشيعة وتابعيهم إذا انقطعوا إليهم واتصلوا بحبل ولايتهم، كما سيجيء بيانه مفصلاً في طي الشرح إن شاء الله، يفوزون بهذا المنهل الروي، ويشربون من هذا الكأس.

وإليه يشير ما في تفسير نور الثقلين[١]، عن تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن طلحة بن يزيد، عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام في هذه الآية ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ قال: بدأ بنور نفسه ﴿**مثل نوره**﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿**كمشكوة فيها مصباح**﴾ والمشكاة جوف المؤمن والقنديل قلبه، والمصباح النور الذي جعله في قلبه ﴿**يوقد من شجرة مباركة**﴾ قال: الشجرة: المؤمن ﴿**زيتونة لا شرقية ولا غربية**﴾ قال: علىٰ سواء الجبل لا شرقية أي لا شرق لها، ولا غربية أي لا غرب لها إذا طلعت الشمس طلعت عليها، وإذا غربت غربت عليها.

﴿**يكاد زيتها يضيء**﴾ يكاد النور الذي جعله في قلبه يضيء، وإن لم يتكلم ﴿**نور علىٰ نور**﴾ فريضة علىٰ فريضة، وسنة علىٰ سنة ﴿**يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ يهدي لفرائضه وسننه من يشاء ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس**﴾ فهذا مثل ضربه الله للمؤمن.

ثم قال: فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور: مدخله نور ومخرجه نور وعلمه

---

١ ـ نور الثقلين ج٣ ص٦٠٥.

نور، وكلامه نور ومصيره يوم القيمة إلىٰ الجنة نور.

قلت لجعفر عليه السلام: إنهم يقولون مثل نور الربّ، قال: «سبحان الله ليس لله مثل»، قال الله: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾.

أقول: المنفي هنا كون المصباح بما يفهم منه المعنىٰ العرفي مثلاً لنور الرب، فنفاه عليه السلام بقوله سبحان الله ليس لله مَثَلٌ في الخلق ومِثلهم.

وهذا لا ينافي ما قاله الصادق عليه السلام هو مثل ضربه الله لنا.

توضيحه: أنه تعالىٰ جعل المصباح مثلاً لنوره لا لذاته تعالىٰ.

وإذا كان المراد من النور هو نور محمد صلى الله عليه وآله ونور ساير المعصومين بالتفسير الآتي، فلا محالة يكون المثل مثلاً لهم عليهم السلام.

وإطلاق النور عليهم عليهم السلام في الآيات من قوله تعالىٰ: ﴿والنور الذي أنزلنا﴾[1] وفي الأحاديث من قولهم عليهم السلام: إن الله خلقهم من نوره، وسيجيء قوله عليه السلام: ونوره وبرهانه كثير، كما لا يخفىٰ.

فالمصباح الموصوف بكذا وكذا في الآية مثل لنورهم، ونورهم منه تعالىٰ، فحينئذ ليس المصباح مثلاً لنوره تعالىٰ مطلقاً، بل مثل لنوره من حيث إطلاقه عليهم عليهم السلام.

فصح قوله عليه السلام: «هو مثل ضربه الله لنا»، لأن المراد من النور ذواتهم المقدسة كما لا يخفىٰ.

ثم إن هذا لا ينافي كونهم مثلاً له تعالىٰ كما أشار إليه تعالىٰ: ﴿ولله المثل الاعلىٰ﴾[2].

وسيجيء في شرح قوله عليه السلام: «والمثل الأعلىٰ» أنهم عليهم السلام المثل الأعلىٰ له تعالىٰ. فكونهم عليهم السلام مثلاً لنوره كما قلنا إنما هو بلحاظ علمهم ومعارفهم، وبلحاظ

---

١ ـ التغابن: ٨.

٢ ـ النحل: ٦٠.

كونهم مصاديق لأسمائه الحسنىٰ، فهم عليهم السلام [illegible] النورانية مثل نوره تعالىٰ لا غير، بأن يكون المصباح بما هو مصباح صوري مثلاً لنور الربّ تبارك وتعالىٰ.

وإلىٰ أنهم مثل نوره تعالىٰ بلحاظ العلم والمعرفة، وأن المراد منه ذواتهم المقدسة أشار الصادق عليه السلام كما في تفسير نور الثقلين[1]، فإن صاحبه رحمه الله ذكر هذا الحديث الآتي تصديقاً لقول الصادق عليه السلام في الحديث السابق عليه من قوله: «هو مثل ضربه الله لنا»، كما تقدم.

قال رحمه الله: وتصديق ذلك ما حدثنا به إبراهيم بن هٰرون الهبتي بمدينة السلام معنعناً عن الفضل بن يسار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: الله نور السموات والأرض؟ قال: كذلك الله عزوجل، قال: قلت: مثل نوره؟ قال: محمد صلى الله عليه وآله قلت: كمشكوة؟ قال: صدر محمد صلى الله عليه وآله قلت: فيها مصباح؟ قال: فيه نور العلم يعني النبوة، قلت: المصباح في زجاجة؟ قال: علم رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ قلب علي عليه السلام، قلت: كأنها كوكب دري؟ قال: لأيّ شيء تقرأ كأنها؟ قلت: فكيف جعلت فداك؟ قال: كأنّه، قلت: يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، قال: ذاك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لا يهودي ولا نصراني، قلت: يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار؟ قال: يكاد العلم يخرج من العالم من آل محمد من قبل أن ينطق به، قلت: نور علىٰ نور؟ قال: الامام في إثر الامام.

أقول: وفي حديث عن السجاد عليه السلام ما يشابهه وفي ذيله بعد قوله تعالىٰ: ﴿**نور علىٰ نور**﴾ يعني إماماً مؤيداً بنور العلم والحكمة في إثر الامام من الامام من آل محمد، وذلك من لدن آدم إلىٰ أن تقوم الساعة.

فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله عزوجل خلفاء في أرضه وحججه علىٰ خلقه، لا تخلو الأرض في كلّ عصر من واحد منهم عليهم السلام.

وقوله وذلك من لدن آدم أي أنّ سنته تعالىٰ علىٰ أن لا تخلو الأرض من إمام،

---

١ ـ نور الثقلين ج٣ ص٦٠٣.

وكانت سنّته من لدن آدم عليه السلام هكذا إلّا أنه بعد النبي صلى الله عليه وآله إلىٰ يوم القيمة يكون الامام من ولد فاطمة عليها السلام كما صرحت به الأحاديث الكثيرة والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: وأعلام التقىٰ.

في المجمع: قوله **﴿في البحر كالأعلام﴾**: أي الجبال الطوال، واحدها علم، وقال: والعلم، علم الثوب من اطراز وغيره وهو العلامة وجمعه أعلام، إلىٰ أن قال: والعلم: الراية، إلىٰ أن قال: وفي الحديث ذكر الأعلام والمنار، فالأعلام جمع علم وهو الحَبَل الذي يعلم به الطريق.

أقول: لعلّه للأعمىٰ، فكان الأعمىٰ يجعل له حبلاً به يعلم الطريق، كذا قيل إلىٰ أن قال: وأعلام الأزمنة هم الأئمة عليهم السلام لأنهم يهتدىٰ بهم.

أقول: قوله: كالجبال الطوال، تفسير للاعلام يعني أنه جمع لعلم بمعنىٰ الجبل الطويل، الذي يعلم فيه الطريق للبعداء.

والتقىٰ: أصله الوقاء فأبدلت الواو تاءً، ولما أُدخلت عليها اللام الشمسية أُدغمت فيها، وفي الفعل إذا دخلت عليه تاء الافتعال أُدغمت التاء في التاء فقيل: اتقىٰ يتقي.

وفي المجمع، قال الشيخ أبو علي رحمه الله فيه أي في قوله: **﴿واتقوا الله حقّ تقاته﴾** ثلاثة وجوه.

أحدها وهو أحسنها: أن معناه (أي معنىٰ التقوىٰ) أن يطاع ولا يعصىٰ، ويشكر ولا يكفر، ويذكر فلا ينسىٰ وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام.

ففي معاني الأخبار بإسناده عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: **﴿اتقوا الله حقّ تقاته﴾** قال: «يطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر».

وثانيها: أنه اتقاء جميع معاصيه، عن أبي علي الجبائي.

وثالثها: أنه المجاهدة في الله، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، وأن يقام له بالقسط في الخوف والأمن، عن مجاهد.

إلىٰ أن قال: والتقوىٰ في الكتاب العزيز جاءت لمعان الخشية والهيبة.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فإياي فاتّقون﴾ والطاعة والعبادة.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿اتقوا الله حقّ تقاته﴾ وتنزيه القلوب عن الذنوب، وهذه كما قيل في الحقيقة هي التقوىٰ دون الأولين.

إلىٰ أن قال: والتقوىٰ (فعلىٰ) كنجوىٰ، والأصل فيه وقوىٰ من وقيته منعته قلبت الواو تاء.

أقول: هذا هو الأصل في معناه وهو المنع عما فيه الهلاك والضرر، وهو معنىٰ عام لجميع ما استعمل فيه هذه الكلمة، فالمنع في كلّ مورد عن الضرر والهلاك بحسبه، كما لا يخفىٰ.

قال المجلسي ﷺ: التقوىٰ من الوقاية وهي في اللغة: فرط الصيانة.

وفي العرف: صيانة النفس عما يضرها في الآخرة، وقصرها علىٰ ما ينفعها، ولها ثلاث مراتب:

الأُولىٰ: وقاية النفس عن العذاب المخلد بتصحيح العقائد الإيمانية.

والثانية: التجنب عن كلّ ما يؤثم من فعل أو ترك، وهو المعروف عند أهل الشرع.

والثالثة: التوقّي عن كلّ ما يشغل القلب عن الحقّ، وهذه درجة الخواص بل خاص الخاص.

وحكي عن بعض الناسكين أنه قال له رجل: صف لنا التقوىٰ، فقال: إذا دخلت أرضاً فيها شوك كيف تعمل؟ فقال: أتوقىٰ وأتحرّز، قال: فافعل في الدنيا كذلك فهي التقوىٰ.

وأحسن تفسير جامع له ما عن الصادق عليه السلام سئل عليه السلام عن تفسير التقوىٰ.

فقال: «أن لا يفقدك حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك».

وعن كتاب المواعظ العددية الذي هو تلخيص للاثني عشرية، قال الصادق عليه السلام: التقوىٰ علىٰ ثلاثة أوجه:

تقوىٰ بالله في الله وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة، وهو تقوىٰ خاص الخاص.

وتقوىٰ من الله وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهو تقوى الخاص.

وتقوىٰ من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام وهو تقوى العام.

ومثل التقوىٰ كماء يجري في نهر، ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التقوىٰ؛ كأشجار مغروسة علىٰ حافة ذلك النهر من كلّ لون وجنس، كلّ شجر تستمصّ الماء من ذلك علىٰ جوهره وطعمه ولطافته، وكثافته ثم منافع من تلك الأشجار والثمار علىٰ قدرها وقيمتها.

قيل: والتقوىٰ ثلاث:

تقوى العوام وهي فعل الواجبات وترك المحرمات.

وتقوى الخواص وهي فعل الواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات.

وتقوىٰ خواص الخواص وهي فعل الواجبات الظاهرة، التي تتضّمنها الشريعة الحقّة، علىٰ ما قرره أهل العصمة مما فرضه الله وشرعه فتأمل.

وهذه تفاسير للتقوىٰ لغة وعرفاً وشرعاً.

وهنا أحاديث للترغيب علىٰ التقوىٰ نذكرها في الجملة، ثم نعقبها بما يلزمه من الكلام وهي علىٰ قسمين:

القسم الأول: ما ورد في بيان أهل التقوىٰ.

في الكافي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ما شيعتنا إلّا من أطاع الله تعالىٰ.

وفيه، عن أبي جعفر ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ علىٰ الصفا، فقال: «يا بني هاشم، يا بني عبدالمطلب، إنّي رسول الله إليكم، وإنّي شفيق عليكم، وإن لي عملي ولكل رجل منكم عمله، لا تقولوا: إن محمّداً منّا وسندخل مدخله، فلا، والله ما أوليائي منكم ولا من غيركم يا بني عبدالمطلب إلّا المتقون، ألا فلا أُعرفكم يوم القيمة تأتون تحملون الدنيا علىٰ ظهوركم، ويأتيني الناس يحملون الآخرة، إلّا أني قد أعذرت إليكم فيما بيني وبينكم، وفيما بيني وبين الله تعالىٰ فيكم».

وفيه، عن الثمالي، عن علي بن الحسين ﷺ قال: «لا حسب لقرشي ولا لعربي إلّا بالتواضع، ولا كرم إلّا بالتقوىٰ، ولا عمل إلّا بالنية، ولا عبادة إلّا بالثقة، ألا وأن أبغض الناس إليّ من يقتدي بسنة إمام ولا يقتدي بأعماله».

وفيه، عن أبي عبدالله عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «حسب المرء دينه، ومروّته عقله، وشرفه جماله، وكرمه تقواه».

وفيه بإسناده عن الشحام، قال: سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول: «عليكم بتقوىٰ الله والورع والاجتهاد، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وحسن الخلق وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلىٰ أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، وعليكم بطول الركوع والسجود فإن أحدكم إذا أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال: يا ويله أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبيت».

أقول: والأخبار في هذا الموضوع كثيرة جدّاً.

القسم الثاني: أحاديث وردت في أنّ التقوىٰ هو التمسك بالولاية لهم ﷺ، وأن المتقين هم الأئمة ﷺ بل هم ﷺ نفس التقوىٰ، فنقول:

عن كنز الفوائد عن الرضا ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿**وألزمهم كلمة التقوىٰ**﴾، قال: هي ولاية علي ﷺ.

وعن كشف الغمة وغيره عن بعض العامة وغيره عن النبي ﷺ أنه قال في حديث له: «إن الله عهد إليّ في علي ﷺ عهداً، فقلت: بينه لي يارب، فقال: إن علياً

نور من اطاعتي، وراية الهدىٰ والكلمة التي ألزمتها المتقين؛ من أحبّه أحبّني ومن أبغضه أبغضني».

وعن تفسير فرات بن إبراهيم، عن الباقر عليه السلام قال: «إن الأئمة هم الذين آتاهم الله تقويٰهم وأنهم أُولو التقىٰ».

وفي رواية جابر عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وسيجنبها الأتقىٰ﴾ قال: الأتقىٰ علي عليه السلام وشيعته.

وعن الاحتجاج عن علي عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿هدىً للمتقين﴾ قال: يعني شفاء للمتقين من شيعته محمد وعلي (صلوات الله عليهما وآلهما) فإنهم اتقوا أنواع الكفر فتركوها، واتقوا الذنوب الموبقات فرفضوها، واتقوا أسرار الله وأسرار الأئمة فكتموها، واتقوا ستر العلوم عن أهلها ففيهم نشروها.

وعن المناقب عن كتاب ابن حنبل، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: يا علي حبّك تقوىٰ وإيمان.

وروىٰ عن علي عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿واتقوا الله﴾ قال: «يعني اتقوا الله في ظلم آل محمد صلى الله عليه وآله وترك ولايتهم».

وعن كتاب البرقي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وأما من أعطىٰ واتقىٰ﴾ قال: «أعطىٰ الخمس، واتقىٰ ولاية الطواغيت».

وعن تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿لن تنالوا البرّ حتىٰ تنفقوا مما تحبّون﴾ قال عليه السلام: «نحن البر والتقوىٰ وباب التقوىٰ»، الخبر.

ثم إن المستفاد من هذه الأحاديث أن الأهم في المقصود من الأمر بالتقوىٰ هو التمسك بولايتهم، فإن حقيقة التقوىٰ هو الوصول إلىٰ ولايتهم والمعرفة بهم؛ لأنهم أهله ومعدنه بل هم نفس التقوىٰ، وذلك كما قال بعضهم: إن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام لما كانوا كاملين حدّ الكمال في باب التقوىٰ، عبّر عنهم بالتقوىٰ أي وصلت تقواهم إلىٰ حيث صاروا كأنهم نفس التقوىٰ.

والحاصل: أن التقوىٰ لما كانت، هي فرط الصيانة عما يضرها في الآخرة بل وفي الدنيا، وعلمت أن الصراط المستقيم هو طريق الولاية، وأنه لا تقبل الأعمال إلّا بالولاية كما سيجيء، فصح أن نقول: حقيقة التقوىٰ والصيانة المذكورة هي الوصول إلىٰ مقام الولاية، فكلما ازدادت المعرفة بهم ازدادت حقيقة التقوىٰ فيهم وبهم، كما لا يخفىٰ.

ثم إن التقوىٰ بما لها من المعاني المتقدمة لا تكون إلّا بهم عليهم السلام ومنهم وهم أبوابها.

فمعنىٰ كونهم أعلام التقىٰ أُمور:

الأول: أنهم عليهم السلام معروفون عند كلّ واحد بالتقوىٰ كالمنار الذي لا يخفىٰ، فالتقوىٰ لا تعرف إلّا منهم ولا تؤخذ إلّا عنهم؛ لأنهم أتق المتقين، فهم عليهم السلام العلامات التي يهتدي بها الناس.

وعن الباقر عليه السلام كما في تفسير مقدمة البرهان قال عليه السلام: «إن الله عزوجل نصب علياً عليه السلام علماً بينه وبين خلقه، فمن عرفه كان مؤمناً، ومن أنكره كان كافراً، ومن جهله كان ضالّاً».

ورواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «الامام عليه السلام علم بين الله وخلقه فمَن عرفه كان مؤمناً».

وفيه، عن تفسير القمي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾، قال: «العلامات الأوصياء والنجم هو النبي صلى الله عليه وآله».

وعن تفسير العياشي، عن أحدهما عليهما السلام في الآية المذكورة، قال: «النجم علي عليه السلام».

وعن داود الجصاص قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾، قال: «النجم هو رسول الله والعلامات هم الأئمة».

وعن الرضا عليه السلام قال: «نحن العلامات والنجم رسول الله صلى الله عليه وآله».

وعن الصادق عليه السلام: «النبي النجم والعلامات الأئمة عليهم السلام».

ومن المعلوم كما هو المستفاد من هذه الأحاديث وغيرها أن جميع مراتب التقوىٰ يجدها أهلها علماً ومناراً من محمد وآله الطاهرين دالاً علىٰ طرقها، ومنيراً لما بيّنوه من ظلمات أحوالها وطرقها، فبهم رفعت الظلمات عن أحوال المتقين، وعن طرق التقوىٰ، وذلك لأنهم عليهم السلام سهلوا لهم بذلك سلوكها، وأعانوا بلطفهم سالكيها علىٰ سلوكها، وسددوا عليهم السلام لما نقص من الدواعي إليها في أنفس المتقين، وذلك أن كل واحد إنما وصل إلىٰ أيّ مرتبة من مراتب التقوىٰ بهم عليهم السلام أي أنهم تمموا النفوس القابلة نواقصها، وتمموا المقبولات من الحقائق والمعارف الحاصلة من سلوك التقوىٰ، فهم عليهم السلام في كلّ مرتبة من التقىٰ قادة أهلها وأئمتهم في ذلك.

الثاني: من معاني كونهم أعلام التقىٰ، أنه قد علمت أن العلم (بالتحريك) بمعنى الجبل، فكونهم أعلام التقىٰ أي جبال التقىٰ.

والوجه في إطلاق الجبال عليهم أُمور:

منها: كما أن الجبال رواسي، أي سبب لاستقامة الأرض بثقلها وضخامتها، فكذلك الأئمة عليهم السلام سبب لتثبت التقوىٰ في المتيقن، فكلّ من رآهم بتلك العظمة من التقوىٰ أثر في ثبوت التقوىٰ فيه، بل هذا جار في غيرهم من أهل التقوىٰ، فكلّ من رأىٰ أهل التقوىٰ اكتسب منه التقوىٰ بالمجاذبة الروحية، كما لا يخفىٰ.

نعم: هذا فيهم عليهم السلام أكمل لكونهم أعظم المتقين، ولذلك كنّىٰ عن عظمة تقواهم بالجبل.

ومنها: أن الجبل كما هو علامة للبعداء كما علمت، كذلك الأئمة عليهم السلام علامات التقوىٰ كما صرحت به الأحاديث المتقدمة فأنهم عليهم السلام بجميع شؤونهم مظاهر للتقوىٰ، بحيث لا يخفىٰ علىٰ أحد من الناس، فهم عليهم السلام كالجبل في ذلك من حيث إنه لا يخفىٰ علىٰ أحد ولو كان بعيداً غالباً.

ومنها: أنه كما أن كلّ أحد إذا رأىٰ الجبل رآه عظيماً، فيظهر منه عظمته في

نفسه، فكذلك الأئمة عليهم السلام فكلّ من وصل إلىٰ معرفتهم وعلم بحالهم رآهم بحال عظيم لا يقدر أن يصفهم، ورأىٰ نفسه صغيراً في قباهم.

وربما يقال: إن تأويل قوله تعالىٰ: ﴿**إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾ هو ذلك بمعنىٰ أنه يراد من الجبال في الآية الأئمة عليهم السلام وإنهم بمقام من العلو والعظمة بحيث لا يبلغه أحد.

والحاصل: أنهم عليهم السلام بمقام من مراتب التقوىٰ بحيث من رآهم ووصل إليهم وإلىٰ معرفتهم رآهم أربابها وعظماءَها وأدلاّءَها وأساسها وأُصولها وفروعها، فلا محالة يستعظمهم فيراهم في جميع شؤون التقوىٰ كالجبال، التي لا يبلغها أحد طولاً، بل المستفاد من الأحاديث كما مرت الإشارة إليه أن التقوىٰ إنما شرعت وسنت لتعظيمهم ورفع شأنهم.

ضرورة أنَ المتقي العالم يصل إلىٰ مقام تعظيمهم، ويعرف رفعة شأنهم، فهو تعالىٰ أمرنا بالتقوىٰ؛ لنعلم سلطان تقواهم بما عندنا من التقوىٰ، فنرىٰ ضعفنا في التقوىٰ وعظمتهم وسلطانهم فيها.

فحينئذ نعلم أن العامل بالواجبات حقيقة هم وذواتهم المقدسة. والمحرمات إنما تركت حقيقة عنهم، والمندوبات إنما صدرت منهم حقيقة لا من غيرهم، وكذلك المكروهات إنما تركت منهم عليهم السلام حقيقة، فجميع النواميس الإلهية والمقدسات الشرعية والأسرار الربوبية إنما قامت بهم، فهم عليهم السلام عملوها وحفظوها وكتموها عن الأجانب، فلم يعمل بحقيقة التقوىٰ وحقائق الشرع إلاّ ذواتهم المقدسة فهم عليهم السلام في تلك المقامات في مرتبة لا يصل إليها أحد، بل يستعظمها الجميع كما يستعظم الجبال.

وفي بحر المعارف للمولىٰ عبدالصمد حديث يدل علىٰ ما قلناه وهو قول الصادق عليه السلام ما مضمونه: نحن عبدنا الله، وأما سائر الناس فعبدوه بصورة العبادة فراجعه.

فهم عليهم السلام أعلام التقىٰ بكلّ معنىٰ، وعلىٰ كلّ احتمال وأحوال، وبكلّ اعتبار و تصور. ضرورة أنهم عليهم السلام المصداق الأتم للجذبة الأحدية لصفة التوحيد، فالله تعالىٰ جاذبهم وحافظهم في تلك المقامات، فأنّى لغيرهم حتىٰ للأنبياء المرسلين والملائكة المقربين تلك المقامات! ونحن نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا معرفتهم، والكون معهم في الدنيا والآخرة بمحمد وآله الطاهرين.

الثالث: من معاني كونهم أعلام التقىٰ، أن علم التقوىٰ وبيان كيفية السلوك فيها إنما هو منهم عليهم السلام فلا يوجد علم صحيح في ذلك إلّا منهم عليهم السلام كما تقدم قول الصادق عليه السلام لحكم بن عيينة وسلمة بن كهيل: «شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا».

وقد علمت أن العلم محركة بمعنىٰ المنار فهم أعلامها أي منارها، أي أن نور العلم والمعرفة بالتقوىٰ وطرقها منهم عليهم السلام فهم النور لذلك كما أن أعداءهم الظلمة لذلك أي الحجاب عليها، وسيجيء إن شاء الله أن المراد من النور في الآيات هم الأئمة، فهم منار التقوىٰ أي بهم يظهر نورها للسالكين فيها كما أن المراد من الظلمة هم أعداؤهم (لعنهم الله).

وإليه وإلىٰ ما تقدم يشير ما في التوحيد، عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «أنا عروة الله الوثقىٰ وكلمة التقوىٰ».

وما عن الأكمال، عن الرضا عليه السلام في حديث له: «ونحن كلمة التقوىٰ والعروة الوثقىٰ».

ولعمري إن هذا واضح لا سترة عليه حتىٰ للمخالفين، وسيجيء توضيحه في طي الشرح إن شاء الله تعالىٰ، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: وذوي النهىٰ.

قيل: ذوي جمع ذي بمعنى الصاحب، إلّا أنّه أكثر ما يستعمل في مقام الشرف والثناء كقوله تعالىٰ: **﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً﴾** وصاحب يستعمل فيها وفي

ضدهما.

أما الثناء كقوله في الدعاء: «يا صاحب كلّ نجوىٰ»، وأما ضده من اللؤم والعيب كقوله تعالىٰ: ﴿فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وإذا كان المقام يقتضي المدح مطلقاً ذكرا معاً استعمل ذو في الغيب واللطيف والباطن، وصاحب استعمل في الشهادة والغليظ والظاهر كقوله تعالىٰ: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام﴾ وفي الدعاء كما تقدم: «يا صاحب كلّ نجوىٰ»، وكما في المقام ذوي النهىٰ، لأن النهي من الغيب واللطيف والباطن.

وأما النهى، ففي المجمع: قوله تعالىٰ: ﴿لآيات لأُولي النهىٰ﴾ بضم النون أي لأُولي العقول والأحلام، وأحدها نهية بالضم؛ لأنّ صاحبها ينتهي إليها عن القبائح، وقيل: ينتهي إلىٰ اختياراته العقلية، إلىٰ أن قال: والنهية أيضاً العقل الناهي عن القبائح والجمع نهى كمدى.

فحينئذ فالمراد من النهي في المقام هو العقول أي ذوي العقول، فالمعنىٰ أنتم صاحب العقل وهو كما في المجمع: العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها ومن هذا قولهم: إعتقل لسان فلان إذا حبس ومنع من الكلام.

وفي الحديث: العقل غطاء ستير، أي يستر العيوب من الإنسان.

وفي حديث علي عليه السلام: العقل شرع من داخل والشرع من خارج، والعقل نور روحاني تدرك النفس به العلوم الضرورية والنظرية، إلىٰ أن قال عن بعض العارفين: وقد يطلق العقل علىٰ العلم المستفاد من ذلك.

فيكون الأول: هو العقل المطبوع المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك﴾ كما في الحديث.

والثاني: العقل المسموع المراد بحديث: ما كسب الإنسان شيئاً أفضل من عقل يهديه إلىٰ هدىٰ.

إلىٰ أن قال: وقد يراد بالعقل قوة النفس، وقد يراد به المصدر وهو فعل تلك

القوة، وقد يراد به ما يقابل الجهل وهو الحالة المقدمة علىٰ ارتكاب الخير واجتناب الشر أي القوة المدبرة في إعانة الآخرة، وموضع العقل علىٰ ما صرح به الحديث الدماغ.

أقول: وفي البحار عن العلل بإسناده عن أبي جميلة، عمّن ذكره عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الغلظة في الكبد والحياء في الريح والعقل مسكنه الدماغ.

أقول: لا ريب في أن العقل من الروحانيين، كما صرح به في الأحاديث.

ومن المعلوم أن الأمر الروحاني بذاته خارج عن الزمانيات والمكانيات، بل هو محيط بها.

فحينئذ معنىٰ بيان موضع العقل ومسكنه بيان طريق ارتباطه بهذا البدن العنصري، وأنه من أي جهة يتعلق به البدن لتدبير أموره، ولا فائدة في تحقيق هذا البحث كما لا يخفىٰ.

مضافاً إلىٰ أن الباحثين فيه قد تحيّروا في ذلك، ولم يفوا بحقّ المطلب كما لا يخفىٰ، فالأولىٰ الإعراض عنه والأخذ بظاهر بيان الشرع، والله الهادي.

وفيه: وقال بعض اللغويين: القلب والدماغ مجمعا العقل.

وعن بعض العارفين: الممكن المجرد عن الجسمية إن احتاج في كمالاته إلىٰ البدن فهو النفس وإلّا فهو العقل.

وفيه: والقوىٰ العقلية علىٰ ما نقل عن أهل العرفان: أربع.

منها: القوة التي يفارق فيها البهائم وهي القوة الغريزية، التي يستعدّ بها الإنسان لادراك العلوم النظرية، فكما أن الحياة تهيئ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسّية فكذا القوة الغريزية تهيئ الانسان للعلوم النظرية والصناعات الفكرية.

ومنها: قوة بها تعرف عواقب الأمور، فتقمع الشهوة الداعية إلىٰ اللذة العاجلة، وتتحمل المكروه العاجل لسلامة الآجل، فإذا حصلت هذه القوة سمّي صاحبها

عاقلاً من حيث إن أقدامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة والقوة الأُولىٰ بالطبع والأخيرة بالاكتساب.

وإلىٰ ذلك أشار أمير المؤمنين عليه‌السلام بقوله:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع ... إذا لم يكن مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

ومنها: قوتان أُخريان.

إحداهما: ما يحصل بها العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال له التصورات والتصديقات الحاصلة للنفس الفطرية.

والأُخرىٰ: التي تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الأحوال.

فمن اتصف بها يقال: إنه عاقل في العادة، والأولىٰ منها حاصلة بالطبع، والأُخرىٰ بالاكتساب كما حرّر في محلّه، إنتهىٰ ملخصاً.

أقول: قد عرّف العقل في الأحاديث بتعاريف كلّها ترجع إلىٰ بيان آثارها، وإلّا فهو نور شأنه الدرك، كما علمت من قول الصادق عليه‌السلام: «العقل كالسراج وسط البيت».

في معاني الأخبار، رفعه إلىٰ أبي عبدالله عليه‌السلام قال: قلت له: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، قال: قلت: فالذي كان في معاوية قال: تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل».

وسئل الحسن بن علي عليه‌السلام فقيل له: ما العقل؟ فقال: «التجرع للغصة حتىٰ تنال الفرصة».

وقد عرف العقل في الشرع بألسنة مختلفة كلّها ترجع إلىٰ بيان لوازم حقيقة واحدة، بل تعاريف القوم كلها بيان للوازم حقيقة العقل، وأما هو فهو نور أصله

الكلّي في نبينا محمد ﷺ وفي الأئمة ﷺ، ثم له شعب في شيعتهم ومن حذا حذوهم، فالنهىٰ لما كان بمعنىٰ العقل كما علمت وهو حقيقة نبينا محمد ﷺ ثم الأئمة ﷺ فحينئذ لا محالة هم ذوو النهىٰ.

ففي تفسير نور الثقلين عن تفسير علي بن إبراهيم، وقوله عزوجل: ﴿أولم يهد لهم﴾ يقول: «يبين لهم قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لأُولي النهىٰ﴾ قال: نحن أُولو النهىٰ» الحديث.

وفي مقدمة تفسير البرهان وفي معاني الأخبار، عن عمار بن مروان قال: سألت أبا عبدالله ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿إن في ذلك لآيات لأُولي النهىٰ﴾ قال: نحن والله أُولو النهىٰ، قلت: ما معنىٰ أُولو النهىٰ؟ قال «ما أخبر الله نبيه مما يكون بعده من ادعاء فلان إلىٰ الخلافة والقيام بها، والآخر من بعده والثالث من بعدهما وبني أُمية، فأخبر رسول الله ﷺ علياً ﷺ وكان ذلك كما أخبر الله نبيه، كما أخبر نبيه علياً، وكما انتهىٰ إلينا من علي ﷺ فما يكون من بعده من الملك في بني أُمية وغيرهم، فنحن أُولو النهىٰ الذي انتهىٰ إلينا علم هذا كلّه فصبرنا لأمر الله.

فنحن قوّام الله علىٰ خلقه، وخزانه علىٰ دينه نخزنه ونستره ونكتم به من عدونا، كما اكتتم رسول الله ﷺ حتىٰ أذن الله له في الهجرة، وجاهد المشركين، فنحن علىٰ منهاج رسول الله ﷺ حتىٰ يأذن الله لنا في إظهار دينه بالسيف وندعو الناس إليه، ونضربهم عليه عوداً كما ضربهم رسول الله بدءاً».

أقول: ما ذكره ﷺ بيان لأحد مصاديق المهم من موارد درك العقل والنهى من هذه الأُمور.

وقوله: فصبرنا لأمر الله، بيان مصداق لقول الحسن ﷺ من أن العقل تجرع للغصّة، فهم ﷺ مصاديق أهل النهى بنحو الأتم الأكمل، وإليه أيضاً يشير ما في ذيل الحديث.

وربما يقال: إن معنى الحديث الثاني بلحاظ تطبيق أُولي النهىٰ عليه، إنما هو

الانتهاء علىٰ أن المراد من النهىٰ، أي الذي تنتهي إليه العلوم كما هو معنى النهى فإنه بمعنى الانتهاء والنهاية.

ومن المعلوم أن علوم الخلق والعلم المتعلق بالخلق ينتهي إليهم عليهم السلام.

وإليه يشير ما في الزيارة من قوله عليه السلام: «ليس وراء الله ووراءكم منتهىٰ»، أي أن جميع الأُمور والعلوم تنتهي إليكم، وليس ما وراءكم شيء من الأمر أو العلم، فكلّ أمر انتهىٰ إليهم عليهم السلام فلابد من الامساك عما وراءه؛ لأنه ليس شيئاً. فهم ذوو العقول الكاملة، كما لا يخفىٰ. والسرّ في ذلك أن أصل العقل بنحو الكلي الجامع هو حقيقة محمد صلى الله عليه وآله.

ففي البحار، عن غوالي اللئالي، قال النبي صلى الله عليه وآله: «أول ما خلق الله نوري».

وفيه وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه وآله: قال: «أول ما خلق الله العقل».

ويؤيده بل يدل عليه ما فيه عن المحاسن بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خلق الله العقل فقال له: ادبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال: ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك، فأعطىٰ الله محمداً صلى الله عليه وآله تسعة وتسعين جزءاً، ثم قسم بين العباد جزءاً واحداً»، فعلم أن العقل بعمدته فيه صلى الله عليه وآله.

وفيه عن الكافي بإسناده عن جابر بن يزيد، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: إن الله أول ما خلق خلق محمداً وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظل النور أبدان نورانية بلا أرواح، وكان مؤيداً بنور واحد وهي روح القدس، فبه كان يعبد الله وعترته؛ ولذلك خلقهم حلماء علماء بررة أصفياء يعبدون الله بالصلوة والصوم والسجود والتسبيح والتهليل، ويصلون الصلوات ويحجّون ويصومون.

أقول: الأحاديث الدالة علىٰ أن أنوارهم أول خلق الله تعالىٰ كثيرة جدّاً.

وفيه عن بصائر الدرجات بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قال: «إن الله خلق محمداً من طينة من جوهرة تحت العرش، وإنه كان لطينته نضج» (أقول:

النضح رشاش الماء).

فجبل طينة أمير المؤمنين عليه السلام من نضج طينة رسول الله صلى الله عليه وآله وكان لطينة أمير المؤمنين عليه السلام نضج.

فجبل طينة شيعتنا من نضج طينتنا، فقلوبهم تحنّ إلينا، وقلوبنا تعطف الوالد علىٰ الولد ونحن خير لهم، وهم خير لنا، ورسول الله صلى الله عليه وآله لنا خير ونحن له خير.

وفيه عن رياض الجنان وعن جابر أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره، واشتقه من جلال عظمته.

وفي البحار[1]، عن أمالي الشيخ بإسناده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن الحسن بن علي عليه السلام قال: سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «خُلقت من نور الله، وخُلق أهل بيتي من نوري، وخلق محبوهم من نورهم، وسائر الخلق في النار».

أقول: وهذا الحديث أشار به ما عن غوالي اللئالي كما تقدم.

إذا علمت هذا، فاعلم أنه يستفاد من هذه الأحاديث، ومن نظائرها التي بلغت فوق حدّ التواتر بحيث عسر إحصا. ها، كما لا يخفىٰ أن الخلق الأول هو النور المحمدي صلى الله عليه وآله المعبر عنه بالعقل أيضاً، وهو بالنحو الأتم الأكمل مختص به صلى الله عليه وآله فليس في الخلق من يساويه في هذه الرتبة إلّا الأئمة عليهم السلام. وإليه يشير ما في الكافي عن الصادق عليه السلام: قال: «ما تكلم رسول الله بكنه عقله قط» أي مع أحد من الخلق سوىٰ الأئمة عليهم السلام.

وتوضيحه: أن تلك الحقيقة النورانية العقلية تكون أولاً بالذات ظاهرةً منه تعالىٰ فيه صلى الله عليه وآله ثم تظهر في أمير المؤمنين ثم في ساير الأئمة وفي فاطمة الزهراء عليهم السلام علىٰ ترتيب ظهورهم في الدنيا.

وكيفية الظهور في الترتيب الوجودي كمثل السراج فإنه ابتداء مثلاً واحد في

---

١ ـ البحار ج ١٥ ص ٢٠.

النور، فإذا اشتعلت منه سرج متعددة لم يتعدد حقيقة النور إلّا بالاعتبار المتعلق.

فالحقيقة واحدة ظهرت أولاً في النبي صلى الله عليه وآله اشتعلت منه الحقيقة العلوية بعد وجود النبي صلى الله عليه وآله، ثم اشتعلت منها الحقيقة القائمة بالحسن عليه السلام ثم الحسين وهكذا إلى القائم عجل الله تعالىٰ فرجه ومنهم فاطمة عليها السلام علىٰ حسب وجودها عليها السلام.

فتلك الحقيقة الواحدة بما لها من الآثار واحدة ذاتاً ومظهراً، إلّا أن مظهرها يتبدل علىٰ الترتيب الوجودي لهم عليهم السلام. ففي زمان واحد لا تكون تلك الحقيقة إلّا قائمة بأحد المظاهر. ففي زمان النبي صلى الله عليه وآله تكون قائمة به صلى الله عليه وآله فهو صلى الله عليه وآله مظهر للعقل الكلّ والولاية ثم انتقلت هذه إلىٰ علي عليه السلام نعم دون مرتبة النبوة كما لا يخفىٰ، وعلمت فيما سبق وجهه، ثم انتقلت في الحسن عليه السلام وكان الحسين صامتاً، إلىٰ أن انتقلت تلك الحقيقة إليه، وهكذا إلىٰ القائم عليه السلام. وإليه يشير قوله عليه السلام: لا يكون في زمان واحد إمامان إلّا وأحدهما صامت كما لا يخفىٰ. وإلىٰ هذا الاشتعال الحقيقي النوري يشير قول علي عليه السلام: «أنا من محمد صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء».

وأما أفضلية النبي صلى الله عليه وآله على الوصي، ثم هو علىٰ ساير الأوصياء حسب ما في بعض الأخبار، فالوجه الإجمالي أن الأفضلية للمتقدم، فإن التقدم أحد وجوه الأشرفية كما حقق في محلّه. نعم ورد أن القائم أفضل التسعة. ولعل الوجه فيه كونه القائم بالأمر فبحقيقة القيام صار أفضل، والله العالم.

فتحصّل أن الحقيقة المحمدية التي هي العقل والنور الأول قائمة أولاً به صلى الله عليه وآله ثم بهم علىٰ الترتيب الوجودي الخارجي.

فجميع المظاهر يكون في الحقيقة هو مظاهر النور المحمدي صلى الله عليه وآله وإن سمّي بالاسم الخاص من أسماء الأئمة عليهم السلام.

وكل واحد منهم مختص بشأن خاص من شؤون الولاية المطلقة كما يستفاد من الأحاديث والأدعية، كما لا يخفىٰ. فكلّ واحد منهم عليهم السلام وإن كان له خصوصية تخصّه عليه السلام في الظهور إلّا أنه مع ذلك جميع شؤون الولاية ثابتة لكلّ واحد منهم، كما

تقدم.

وإلىٰ هذا يشير ما تقدم قوله عليه السلام: «أولنا محمد صلى الله عليه وآله وآخرنا محمد صلى الله عليه وآله وأوسطنا محمد صلى الله عليه وآله وكلّنا محمد صلى الله عليه وآله» صلىٰ الله عليهم أجمعين.

ثم إنه يستفاد من الأحاديث السابقة ونظائرها أن شيعتهم أيضاً ملحقون بهم عليهم السلام كلّ علىٰ حسبه. فإنهم كما علمت خلقوا من نورهم ومن فاضل نضج طينتهم.

فالشيعة إنما بلغوا إلىٰ الدرجات العالية؛ لأجل تمسكهم بالأصل، الذي خلقوا منه وهو حقيقة الأنوار المحمدية والولوية.

فإنه بعد ما علمت أن العقل الكامل الحقيقي هو نور نبينا صلى الله عليه وآله وروحه، الذي تشعبت منه أنوار المعصومين، بل وأنوار الأنبياء والمرسلين كما تقدم. ثم خلقت من شعاعها أرواح شيعتهم بأجمعهم، فلا محالة يكون للشيعة ارتباط بهم عليهم السلام كما دلّ عليه كثير من الأخبار، فهم إذا اتبعوا أئمتهم عليهم السلام فلا محالة يستفيدون من معارفهم ومما منحهم الله تعالىٰ.

وإليه يشير ما في البحار عن كتاب مشارق الأنوار للبرسي (رضوان الله عليه) ففيه عن الثمالي، قال: دخلت حبابة الوالبية علىٰ أبي جعفر عليه السلام فقالت: أخبرني يابن ر سول الله، أين كنتم في الأظلة؟ فقال عليه السلام: «كنّا نوراً بين يدي الله قبل خلق خلقه، فلما خلق الخلق سبّحنا فسبّحوا وهللنا فهلّلوا وكبّرنا فكبّروا، وذلك قوله عزوجل: ﴿وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾ الطريقة حبّ علي عليه السلام والماء الغدق الماء الفرات وهو ولاية آل محمد عليهم السلام»، إنتهىٰ.

فيعلم منه أن الاستقامة علىٰ محبتهم، التي هي الطريقة سبب لنيل الولاية، وهي عنوان لحقيقة المعارف الإلهية.

فالشيعة كان بدء خلقهم منهم عليهم السلام ويكون ختم أمرهم إليهم عليهم السلام.

في خبر المفضل عن الصادق عليه السلام: «إنّا خلقنا أنواراً وخلقت شيعتنا من شعاع

ذلك النور فلذلك سميت شيعة، فإذا كان يوم القيمة إلتحقت السفلىٰ بالعليا»، الخبر.

ولعمري إن هذا لهي السعادة العظمىٰ والبشارة الحسنة للشيعة، فينبغي التحفّظ علىٰ هذه النعمة العليا والاستفادة منها كما هي حقّه، والحمد لله ربّ العالمين.

ثم: إنه قد يطلق العقل علىٰ الروح، وحينئذ نقول: معنىٰ كونهم ذوي النهىٰ أي ذوي الروح (بمعنىٰ أن المراد من العقل الذي أطلق عليه النهى هو الروح).

وحينئذ فالمراد هو الروح المشار إليه في قوله تعالىٰ: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾**[1].

فعن الكافي، بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالىٰ: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾** قال: «خلق من خلق الله تبارك وتعالىٰ أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله يخبره ويسدّده وهو مع الأئمة من بعده» (صلوات الله عليهم).

وفيه، بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عن قول الله تعالىٰ: **﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي﴾** قال: «خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة عليهم السلام وهو من الملكوت»، وفي ذيل بعض الأحاديث: «وليس كلّ ما طلب وجد»، أي بالنسبة إلىٰ غير الأئمة عليهم السلام.

وفي تفسير نور الثقلين عن تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله: **﴿والسماء والطارق﴾** قال: «السماء في هذا الموضع أمير المؤمنين، والطارق الذي يطرق الأئمة عليهم السلام من عند الله مما يحدث بالليل والنهار، وهو الروح الذي مع الأئمة عليهم السلام يسدّدهم، قلت: **﴿والنجم الثاقب﴾** قال: ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله».

وعن عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده عن الحسن بن الجهم عن الرضا عليه السلام قال: «إن الله عزوجل أيّدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك، لم تكن مع أحد ممن

---

١ ـ الشورى: ٥٢.

مضىٰ إلّا مع رسول الله ﷺ وهي مع الأئمة منا تسدّدهم وتوفقهم، وهي عمود من نور بيننا وبين الله عزوجل».

أقول: والأخبار في هذا الموضع كثيرة جدّاً، وقد تقدم شطر منها فيما تقدم في معنى الولاية، وسيجيء مفصلاً أيضاً.

وكيف كان فهم عليهم السلام ذوو الروح المشار إليها في الآيات القرآنية.

ثم: إن هنا إشكالين، أحدهما: أنه قد تكررت أن الروح كانت مع الأنبياء، فكيف الجمع بينهما وبين ما دلّ علىٰ أنه لم يكن فيمن مضىٰ من الأنبياء إلّا مع رسول الله ﷺ كما هو صريح حديث العيون.

وثانيهما: أنه صرح في حديث العيون بأن هذه الروح ليست بملك مع أن الآيات دلّت علىٰ أنها ملك كما ربما يؤمي إليه قوله تعالىٰ: **﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾** فتأمل.

فنقول: أما الجواب عن الأول: أولاً يمكن أن يقال: إن الروح كانت معهم بواسطتهم عليهم السلام لا بدون الواسطة، فالنفي راجع إلىٰ أنه لم تكن معهم كما كانت مع رسول الله ﷺ بلا واسطة.

وثانياً: أن المستفاد من الأحاديث أن لهذه الروح مراتب، وإنما كانت في الأنبياء السابقين ببعض مراتبها، فدرجاتهم كانت تدور مع تلك الروح قلة وكثرة قال تعالىٰ: **﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم علىٰ بعض﴾** وأما النبي ﷺ فهي بجميع مراتبها كانت معه ﷺ فالنفي راجع إلىٰ الكلية. ويدل عليه أنها (أي الروح الكلية) هي في الواقع العقل الكلي الذي هو نور نبينا ﷺ.

ففي الكافي، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام: قال: «لمّا خلق الله تعالىٰ العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك ولا أكملتك إلّا فيمن أحب».

ومن المعلوم أن النبي ﷺ هو حبيبه علىٰ الإطلاق، لا حبيب له إلّا هو وأهله.

وإن العقل الكامل إنما هو فيه ﷺ فهو تعالىٰ لم يكمله إلّا فيه ﷺ إذ هو حبيبه مطلقاً كما لا يخفىٰ.

فيستفاد منه أن الروح المشار إليها بالعقل الكامل هي فيه ﷺ بتمامها دون سائر الأنبياء.

هذا وأن أكملية النبي علىٰ سائر الأنبياء ثابت بالآيات والأحاديث الكثيرة، وليست إلّا لأجل أكملية الروح والعقل فيه ﷺ كما لا يخفىٰ.

وأما الجواب عن الثاني فنقول: في المجمع: والملكوت كرهبوت: العزّ والسلطان والمملكة. ويقال: الجبروت فوق الملكوت كما أن الملكوت فوق الملك.

فالملكوت وهو ما يقابل الملك فيشمل الجبروت أيضاً، وهذا الروح من عالم الملكوت والجبروت.

فقوله عليه السلام: «ليست بملك»، أي ليست من الملائكة، بل هو من الملكوت أي العالم العلوي المحيط بعالم الملك، فإن الملكوت هو باطن العالم الظاهري، بل باطن العالم العلوي الذي هو باطن العالم الملكي.

وإليه يشير ما تقدم من حديث أبي بصير من قوله عليه السلام: «وهو من الملكوت» أي من عالم الباطن المحيط بالملك الشامل لعالم الجبروت أيضاً كما علمت.

فإطلاق الملك علىٰ هذه الروح كما في بعض الأخبار وكما في الآيات القرآنية إنما هو بلحاظ معنى الملكوت، أي يراد من الملك الملكوت لا الملائكة، كما لا يخفىٰ.

وثانياً: أن الملك من الرسالة.

بيانه: قال في المجمع: والملك من الملائكة واحد وجمع وأصله مألك، فقدّم اللام وأخّر الهمزة، ووزنه مفعل من الأُلوكة وهي الرسالة، ثم تركت الهمزة لكثرة استعمالها فقيل: ملك، فلمّا جمعوه ردّوه إلىٰ أصله فقالوا: ملائك، فزيدت الهاء للمبالغة أو لتأنيث الجمع.

وعن ابن كيسان: هو فعال من الملك، وعن أبي عبيدة: مفعل من لاك إذا

أرسل... الخ.

أقول: وسميت الملائكة ملائكة؛ لأنهم رسل كما قال تعالىٰ: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً**﴾.

وحينئذ نقول: لا ريب في أن لروح الموحىٰ إليه ﷺ له سمة الرسالة منه تعالىٰ إليه ﷺ فبهذه الجهة شابهت الملائكة في الرسالة، وإن كانت الرسالة في الملائكة أقوىٰ منها في الروح، إلّا أنه بهذه المناسبة أطلق لفظ الملك عليه بما له من معنىٰ الرسالة.

فقوله عليه السلام: ليست بملك أي ليست من الملائكة بالمعنىٰ المعروف، فإنها أي الروح ليست من جنس الملائكة، بل هي خلق أعظم منها كما علمت، كيف وقد علمت أن الملائكة خلقت من شعاع أنوار الأنبياء، الذين خلق نورهم من شعاع نوره ﷺ كما تقدم.

ومما يصرح بأن الروح ليست بملك، ما رواه الكافي بإسناده عن سعد الاسكاف قال: أتىٰ رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح، أليس هو جبرئيل عليه السلام؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «جبرئيل عليه السلام من الملائكة والروح غير جبرئيل».. فقال له: لقد قلت عظيماً من القول! ما أحد يزعم أن الروح غير جبرئيل عليه السلام.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنك ضالّ تروي عن أهل الضلال، يقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿**أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالىٰ عما يشركون * ينزل الملائكة بالروح**﴾ والروح غير الملائكة» (صلوات الله عليهم).

وفي بصائر الدرجات[1]، بإسناده عن أبي بصير قال: كنت مع أبي عبدالله عليه السلام فذكر شيئاً من أمر الإمام إذا ولد قال «واستوجب زيادة الروح في ليلة القدر، قلت: جعلت فداك أليس الروح جبرئيل؟ قال: جبرئيل من الملائكة، والروح خلق

---

١ ـ بصائر الدرجات ص ٤٦٤.

أعظم من الملائكة، أليس الله يقول: ﴿تنزل الملائكة والروح﴾».

أقول: لمكان العطف والتفصيل الذي هو قاطع للشركة، يعلم بالتفصيل أن الملائكة غير الروح، وإذا أطلق عليها لفظ الملك في بعض الأحوال فإنما هو بمعناه اللغوي، أما بمعنىٰ الملكوت كما صرح به في الحديث حيث إن الروح من الملكوت، فأطلق عليه لفظ الملك بلحاظ الملكوت، أو بمعنىٰ الرسالة كما علمت.

فهم عليهم السلام ذوو النهىٰ أي أصحاب العقول الكاملة بما لها من المعنى الجامع الشامل للروح أيضاً وإن كان الروح عند الاطلاق لا يراد منه العقل إلّا أنه قد يراد من العقل الروح.

فبهذا اللحاظ فسرنا العقل بالروح أيضاً، فهم عليهم السلام أصحاب الروح المشار إليها في الآيات السابقة، ولا سيما بعد اتحاد الروح حقيقة مع العقل الكلّي، الذي هو نوره صلى الله عليه وآله كما تقدم، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: *وأُولي الحجىٰ*.

في المجمع: وأُولو جمع لا واحد له من لفظه، واحده ذو، أولات للاناث وأحدها ذات، تقول: جاءني أُولو الألباب وأُولات الأحمال، وقال قبله: وأُولي بضم الهمزة.

قال الجوهري: هو جمع لا واحد له من لفظه، واحده ذا للمذكر وذه للمؤنث يمدّ ويقصر فإن قصرته كتبته بالياء وإن مددت بنيته بالكسر، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، وتدخل عليه الهاء للتنبيه فيقال: هؤلاء وتدخل عليه الكاف للخطاب تقول: أُولئك وأُلاك.

قال الكسائي: من قال: أُولئك فواحده ذلك، ومن قال: أُولاك فواحده ذاك، وأُولالك مثل أُولئك.

وربما قالوا: أُولئك في غير العقلاء قال تعالىٰ: **﴿إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أُولئك كان عنه مسئولاً﴾**.

قال: وأما الأُولىٰ بوزن العلىٰ فهو أيضاً جمع لا واحد له من لفظه، واحده الذي، الخ.

أقول: أُولىٰ علىٰ وزن دجىٰ مجهولاً، جرّاً ونصباً، وأُولو رفعاً، ويؤتىٰ بالواو في الحالين، فرقاً بين أُولي وإلىٰ الذي هو حرف جرّ، وتسمىٰ هذه الواو واو الفارقة.

وفي المجمع: وأُولي الحِجىٰ أصحاب العقول، فهذه الجملة تدل علىٰ أنهم أصحاب العقول الكاملة، التي بها تحصل جميع الكمالات، بل وجميع القربات والزلفىٰ لديه تعالىٰ.

ففي الكافي، العدّة، عن البرقي، عن بعض أصحابه، رفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتىٰ يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من عقول جميع المجتهدين، وما أدّىٰ العبد فرائض الله حتىٰ عقل، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل والعقلاء، هم أُولو الألباب الذين قال الله: ﴿**وما يتذكر إلّا أُولو الألباب**﴾» إنتهىٰ.

فعلم من هذا أهمية العقل، وأن به جميع الكمالات والقربات، وهم عليهم السلام أُولو الحجىٰ أي أصحاب العقول الكاملة، فلا محالة لهم الكمالات بأجمعها، والمراد من الحجىٰ هو العقل.

ففي اللغة: والحجىٰ بكسر الحاء المهملة: العقل والفطنة والمقدار، وهو مفرد جمعه أحجاء وهو من حجىٰ به كرضي به أولع به ولزمه أو عداه أي تجاوزه من الأضداد، أو من أحجى بالشيء: حَجِيَ به. ويُقال: ما أحجاه بالشيء؛ ما أجدره، قال علي عليه السلام في الشقشقية: «فرأيت أن الصبر علىٰ هاتا أحجىٰ».

أو من تحجّىٰ بالسرّ أي حفظه، أو من تحجىٰ عند الشيء وقف، أو من تحجاه أي منعه، أو من حجا بالمكان حجوا أقام به، أو من حاجيته محاجاة وحجاة وحجاء فحجوته أي فاطنته فغلبته، أو من الحجا من الستر كما في الحديث «من

بات علىٰ ظهر بيت ليس عليه حجا فقد برئت منه الذمة» أي لعدم الستر عليه يمنعه من السقوط.

قيل: إنما أتىٰ بالجمع في النهي وبالمفرد في الحجىٰ للسجع، ولا يدل الجمع علىٰ أن عقولهم عليهم السلام متعددة، كما لا يخفىٰ.

أقول: ما ذكر من معاني الحجىٰ إنما هو لبيان موارده ومظاهره؛ وذلك لأن أصله بمعنىٰ العقل كما علمت.

وهذه الموارد بيان مظاهر أعمال العقل.

ومنه يعلم أن النهىٰ اسم لأصل العقل، والحجىٰ اسم له بلحاظ أعماله في تلك المظاهر.

ثم: إن تلك المظاهر بعضها يصدق عليهم عليهم السلام وبعضها لا يجري فيهم بل في غيرهم.

أما الأول: فكونه بمعنىٰ أولع به ولزمه، فمعلوم أنهم عليهم السلام ملازمون ومولعون للحقّ.

أو بمعنىٰ عداه فبمعنىٰ أنهم مفارقون للباطل.

أو بمعنىٰ جدير فهم عليهم السلام أجدر بالاشتمال لمتعلق العقل من الحقائق والطهارات المعنوية الحاصلة به.

أو بمعنىٰ تحجىٰ عنه الشيء أي وقف، فهم عليهم السلام يقفون دون الأمور المكروهة فضلاً عن المحرمة فلا يقتحمونه، لا أنهم يقفون عند الجهل بشيء؛ لعدم عروض الجهل لهم بشيء أرادوا علمه، كما سيجيء قريباً إن شاء الله.

أو بمعنىٰ تحجاه أي منعه فإنهم عليهم السلام يمنعهم حجاهم عما لا يليق بقداسة ساحة نفوسهم الزكية من الأباطيل، فلا يحومونه أبداً ،بحجاهم فيمتنع الحجىٰ بهذا المعنىٰ من الباطل بنفسه، ويمنع صاحبه منه أيضاً.

أو بمعنىٰ حفظ، فمعلوم أنهم عليهم السلام حافظون للحقائق ولحدودها، ويكتمون

الحقائق من غير أهلها، ولا يهملونها حيث ما كان.

أو بمعنىٰ حاجيتة أي فاطنته فغلبته، فمعلوم أنهم عليهم السلام غالبون بالعلم والقدرة وكمال العقل علىٰ غيرهم في مقام المحاجّة في جميع الأمور، كما هو أظهر من الشمس، فهم غالبون علىٰ الخصم في مقام المحاجة بحيث ينزعون إلىٰ مدارك المدعىٰ، قبل ما يتوجه إليه الخصم بمشاعره، وإن توجه إليها الخصم قبلهم سبقوه علىٰ الادراك أي علموا إنه متوجه إليها فيواجهونه بما يغلبونه، وذلك لشدّة حجاهم عليهم السلام وإدراكهم في جميع الموارد بحيث لا يسبقهم في ذلك سابق كما يعلم هذا من مظانّ محاجاتهم عليهم السلام.

وبعبارة أُخرىٰ أن نفوسهم لذاتهم، وفطرتهم التي فطرهم الله عليها هم السابقون وهم الغالبون بلا مماراة ولا مغالبة، لأنهم حزب الله **﴿فإنَّ حزب الله هم الغالبون﴾** ولأنهم سبقوا ولا سابق، ولو فرض سابق فهو بالنسبة إليهم لا حق أو تابع أو متعلم منهم، فإن وجد لهم حاسد فهو قاصر منحط عن مقامهم وزاهق عن الحق، قد خرّ من دون سماء رتبتهم من حيث إنه حسد بهم فهو فيمن تخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

أو بمعنى الستر فهم عليهم السلام بحجاهم وعقلهم يسترون عيوب الناس بحسن نظرهم فيمنعهم عليهم السلام تلك الحجا والعقل عن فعل ما تبدوا به عورة الناس، فهم عليهم السلام يسترونه بتلك الغريزة العقلية فلا يكشفونه.

نعم: قد يكون الستر المنبعث من الحجىٰ في غيرهم عليهم السلام سبباً لستر عورته، فهو يستره لمنع حجاه عن كشفه، وهذا فيمن يكون في ذاته عيب، وأما ذواتهم المقدسة فحيث إنها مطهرة بآية التطهير فلا يجري فيهم الحجىٰ بهذا المعنىٰ كما لا يخفىٰ.

فهم عليهم السلام أُولو الحجىٰ بما له من جميع هذه المعاني والمظاهر له.

وأما الثاني: أعني المعاني التي لا تجري فيهم عليهم السلام بل تجري في غيرهم، فهو

الحجىٰ إذا كان بمعنىٰ تحجىٰ عنده أي وقف.

فهذا كما علمت لا يصح إطلاقه عليهم؛ لأنهم عليهم السلام لا يفقدون العلم والمعلوم، ولا يصيرون إلىٰ المظنون ولا إلىٰ الموهوم.

نعم ربما يتراءىٰ منهم المشي علىٰ طبق المظنون أو المجهول مماشاة مع غيرهم، فإنما هو لازم عليهم للتقية أو لبيان جوازه لشيعتهم، أو التخيير أو التعليم في بعض الأحيان، أو التسهيل علىٰ الرعية وإلّا فهو عندهم عليهم السلام معلوم.

وأيضاً لا يصح إطلاق الحجىٰ عليهم بمعنىٰ أقام أي يقيم علىٰ أمر بحجاه حتىٰ يجيء خلافه، بمعنىٰ أنه لا ينتقل من اليقين السابق إلّا إلىٰ يقين يقابله أرجح منه بمرجح ذاتي أو خارجي يوجب الانتقال.

فبعد الانتقال بهذا اليقين الواجد لمزية الترجيح، يكشف عن أن اليقين السابق كان بصورة اليقين، وهذا المعنىٰ أي الاقامة علىٰ اليقين السابق حتىٰ ينقضه بيقين أرجح لا يتصور في المعصوم عليه السلام فإنهم عليهم السلام لا ينتقلون عن يقين إلىٰ يقين أرجح منه؛ لأن هذا مستلزم لخفاء الواقع عليهم. وهذا ينافي عصمتهم من الزلل حتىٰ بهذا النحو كما سيجيء.

نعم إنما ينتقلون من اليقين الأول إذا فرض التكليف فيه موقتاً وانقضىٰ زمانه، وثبت لهم اليقين الآخر المنتقل إليه بلحاظ زمانه المختص به، ووقع تكليفهم به بهذا اليقين المنتقل إليه، فهم عليهم السلام دائماً في المشي علىٰ طبق الراجح الواقعي لا الصوري القابل لظهور خلافه كما لا يخفىٰ.

وفي غير هذه الصورة لا معنىٰ لاقامتهم عند يقين ثم الانتقال منه بيقين أرجح، وأما غيرهم فلمكان الجهل فيهم فيتصور فيهم ذلك، وإنما يلزمهم الحجىٰ التوقف إلىٰ أن يعرض اليقين الأرجح فإنه في غير المعصوم يمكن أن يمضي قبل عروض اليقين الأرجح.

مع أن الواقع يكون الأرجحية في المنتقل إليه، الذي بعد لم يظهر له في

الموضوعات والتكاليف، فيكون هذا العامل علىٰ طبق اليقين الأول غير عارف بالترجيح الثابت واقعاً في اليقين الثاني، وقد يكون غيره أحرز أرجحية اليقين الثاني فمشىٰ عليه وبقي هذا علىٰ خفاه عن ذلك.

وبهذا يحصل الاختلاف في درك الواقعيات والأحكام عند العلماء فتراهم مختلفين في الرأي والفتوىٰ، وليس هذا إلّا لعدم كونهم معصومين، بل ربما وصل إليه اليقين الراجح الثاني.

ومع ذلك يبقىٰ على المرجوح لأُنسه به، أو لقاعدة ثابتة عنده اقتضت الخلود على المرجوح مع ثبوت الراجح كما يترىٰ ذلك من علماء السنة. فإنهم ربما ظهر لهم حقيقة الولاية وحقّانيّة وصاية أمير المؤمنين عليه السلام ومع ذلك لانسهم بعادتهم الثابتة لهم في زمان الجهل قد خلدوا عليها، ولم يمضوا علىٰ حسب الاستبصار الثابت لهم باليقين الثاني. أو إنك تراهم يعلمون بأفضلية أمير المؤمنين في جميع الأمور مطلقاً، ومع ذلك لقاعدة حفظ المسلمين الثابت في نظرهم لا يظهرون الحقّ مخافة تلك الشبهة الواهية، كما لا يخفىٰ.

ثم: تلك القاعدة ربما تكون بنحو لو تأمل فيها لظهر فسادها، ولكن تغفل عن التأمل فيه فيمشي علىٰ مقتضاها، وإن كان علىٰ خلاف ما يقتضيه اليقين الثاني فتبلىٰ بفسادها فرداً أو جامعة كما لا يخفىٰ.

وربما يظهر له اليقين الثاني الأرجح ومع ذلك يمشي علىٰ طبق اليقين الأول المنحلّ، وذلك إما لغرض دنيوي قد أخذ قلبه، فيصرف فكره إلىٰ تلفيق مرجحات البقاء علىٰ طبق يقين الأول وهذا حاله كحال من يعلم ومن لا يعلم. فمن حيث اليقين الأرجح الثابت في حاق قلبه وعقله فهو يعلم بحقية اليقين الثاني، ومن حيث إسارة نفسه بالمرجحات المتلفقة فيمشي علىٰ طبقها فهو لا يعلم أي نظراً إليها لا يعلم بل يرىٰ نفسه في الضلالة.

ولعله إليها يشير قوله تعالىٰ: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً

وعلواً﴾(١) فجحدوا بالحقّ، بسبب تلك المرجحات الملفقة، واستيقنتها أنفسهم بسبب اليقين الحاصل لهم والراجح عند عقلهم بكونه ﷺ حقّاً مثلاً، ولكن مشيهم هذا يكون ظلماً وعلواً، كما لا يخفىٰ.

وإليه يشير قوله تعالىٰ أيضاً: **﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾**(٢) يحسبون لتلك المرجحات الملفقة فيتوجه فيهم حسباناً لحسن الصنع مع أنهم من الأخسرين أعمالاً؛ لثبوت اليقين لهم في قلوبهم وإلّا لما صح عقابهم، كما لا يخفىٰ.

وكيف كان، فالأئمة عليهم السلام خارجون ذاتاً من هذه التطورات النفسانية حسب عروض اليقين بعد سبقه بغيره من خلافه، كما لا يخفىٰ، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: وكهف الورىٰ.

أقول: في المجمع: الكهف الملجأ، قال: ومنه في وصف علي عليه السلام كنت للمؤمنين كهفاً، لأنه يلجأ إليه علىٰ الاستعارة.

قيل: الكهف غار واسع في الجبل فإن كان صغيراً قيل له: غار، والمنقور في الجبل كالبيت كهف، والمراد منه الملجأ والحاوي للشيء والمأوىٰ له، يعني أنهم عليهم السلام ملجأ الورىٰ أي الخلق.

وفيه أيضاً: والورىٰ الخلف ومنه: وأنتم كهف الورىٰ أي يستظلون بكم كالكهف الذي يستظل به.

أقول: المراد من الخلف: الخلق أي الخلق الذي يوجد في العالم تدريجاً فهم عليهم السلام كهف لهم لا لخصوص الموجودين.

ثم إن كونهم عليهم السلام ملجأ لهم، إن الخلق يلجأون إليهم عند عروض الحاجة أو البلاء، أو الاحتياج إلىٰ شيء دنيوياً كان أو أُخروياً، صوريّاً كان أم معنويّاً،

---

١ ـ النمل : ١٤.

٢ ـ الكهف : ١٠٤.

فهم عليهم السلام في جميع ذلك ملجأ لهم.

ثم إنه لا يختص ذلك بالخلق العادي بل يعم الأنبياء والملائكة وجميع الموجودات فإنها بأجمعها يلجأون إليهم عند الاضطرار، فهم عليهم السلام الكهف الحصين لهم.

أما الأنبياء، ففي البحار[1]، عن جامع الأخبار وأمالي الصدوق بإسناده عن معمر بن راشد، قال: سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: «أتىٰ يهودي النبي صلى الله عليه وآله فقام بين يديه يحدّ النظر إليه فقال: يا يهودي ما حاجتك؟ قال: أنت أفضل أم موسىٰ بن عمران النبي، الذي كلّمه الله وأنزل عليه التورية والعصا وفلق له البحر وأظلّه بالغمام؟! فقال له النبي صلى الله عليه وآله: إنه يكره للعبد أن يزكّي نفسه.

ولكني أقول: إن آدم عليه السلام لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللهم إنّي أسألك بحق محمد وآل محمد لمّا غفرت لي فغفرها الله له. وإن نوحاً لما ركب في السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فنجاه الله عنه، وإن إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها فجعلها الله برداً وسلاماً، وإن موسىٰ لما ألقى العصا وأوجس في نفسه خيفة قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما آمنتني منها فقال الله جلّ جلاله: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلىٰ﴾.

يا يهودي إن موسىٰ لو أدركني، ثم لم يؤمن بي وبنبوتي ما نفعه إيمانه شيئاً ولا نفعته النبوة، يا يهودي، ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسىٰ بن مريم عليه السلام لنصرته فقدمه وصلّىٰ خلفه».

وفيه[2] عن تفسير العسكري عليه السلام قال علي بن الحسين عليه السلام: «حدثني أبي، عن أبيه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: قال: قال: يا عباد الله إن آدم لما رأىٰ النور ساطعاً من

---

١ ـ البحار ج٢٦ ص٣١٩.

٢ ـ البحار ج٢٦ ص٣٢٧.

صلبه، إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلىٰ ظهره، رأىٰ النور ولم يتبين الأشباح فقال: يا رب ما هذه الأنوار؟ قال الله عزوجل: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشي إلىٰ ظهرك، ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاءً لتلك الأشباح، فقال: ما هذه الأشباح يا ربّ؟

فقال: يا آدم هذه الأشباح أفضل خلائقي وبريّاتي.

هذا محمد وأنا الحميد المحمود في أفعالي شققت له اسماً من اسمي.

وهذا علي وأنا العلي العظيم شققت له اسماً من اسمي.

وهذه فاطمة وأنا فاطر السموات والأرضين، فاطم أعدائي عن رحمتي يوم فصل قضائي، وفاطم أوليائي عما يعتريهم ويشينهم فشققت لها اسماً من اسمي.

وهذا الحسن والحسين وأنا المحسن المجمل شققت لهما اسماً من اسمي.

هؤلاء خيار خليقتي وكرام بريّتي، بهم آخذ وبهم أعطي، وبهم أُعاقب وبهم أُثيب، فتوسل إليّ بهم يا آدم، وإذا دهتك داهية فاجعلهم إليّ شفعاءَك فإني آليت علىٰ نفسي قسماً حقاً لا أُخيب بهم آملاً، ولا أردّ بهم سائلاً، فلذلك حين زلت منه الخطيئة دعا الله عزوجل بهم فتاب عليه وغفر له».

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الدالة علىٰ أن دعاء الأنبياء إنّما أُستجيب بالتوسل والاستشفاع بهم (صلوات الله عليهم).

فراجع البحار تحت هذا العنوان، وكذا في غيره من الأبواب المتفرقة ما يدل علىٰ ذلك.

وأما الملائكة، ففي البحار[١] عن بصائر الدرجات بإسناده عن الأزهر البطّيخي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله عرض ولاية أمير المؤمنين عليه السلام فقبلها الملائكة، وأباها ملك يقال له: فطرس، فكسر الله جناحه. فلما ولد الحسين بن علي عليهما السلام بعث الله جبرئيل في سبعين ألف ملك إلىٰ محمد صلى الله عليه وآله يهنئهم بولادته، فمر

---

١ ـ البحار ج٢٦ ص٣٤١.

بفطرس فقال له فطرس: يا جبرئيل إلىٰ أين تذهب؟ قال: بعثني الله إلىٰ محمد ﷺ أُهنئهم بمولود ولد في هذه الليلة، فقال له فطرس: إحملني معك وسل محمداً يدعو لي، فقال له جبرئيل: إركب جناحي فركب جناحه فأتىٰ محمداً، فدخل عليه وهناه فقال له: يا رسول الله إن فطرس بيني وبينه أخوة، وسألني أن أسألك أن تدعو الله أن يرد عليه جناحه.

فقال رسول الله ﷺ: لفطرس أتفعل؟ قال: نعم. فعرض عليه رسول الله ﷺ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام فقبلها، فقال رسول الله ﷺ: شأنك بالمهد فتمسح به وتمرغ فيه، قال: فمضىٰ فطرس إلىٰ مهد الحسين بن علي عليه السلام ورسول الله ﷺ يدعو له.

قال: قال رسول الله ﷺ: فنظرت إلىٰ ريشه وإنه ليطلع ويجري منه الدم، ويطول حتىٰ لحق بجناحه الآخر، وعرج مع جبرئيل إلىٰ السماء وصار إلىٰ موضعه».

ومثله غيره من الأحاديث الدالة علىٰ أنهم عليهم السلام الكهف والملجأ للملائكة عند الحاجة.

وفي البحار[1]، عن كتاب المحتضر للحسن بن سليمان، روىٰ أنه وجد بخط مولانا أبي محمد العسكري عليه السلام: «أعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله ربّ الأرباب والنبيّ وساقي الكوثر في مواقف الحساب ولظىٰ والطامة الكبرىٰ ونعيم دار الثواب، فنحن السنام الأعظم وفينا النبوة والولاية والكرم، ونحن منار الهدىٰ والعروة الوثقىٰ، والأنبياء كانوا يقتبسون من أنوارنا ويقتفون آثارنا، وسيظهر حجة الله علىٰ الخلق بالسيف المسلول لإظهار الحقّ.

وهذا خط الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسىٰ بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي أمير المؤمنين عليهم السلام».

وروي أنه وجد أيضاً بخطه عليه السلام ما صورته: «قد صعدنا ذرى الحقائق بأقدام النبوة والولاية، ونورنا سبع طبقات أعلام الفتوىٰ بالهداية، فنحن ليوث الوغىٰ

---

١ ـ البحار ج٢٦ ص٢٦٤.

وغيوث الندىٰ وطعّان العدىٰ، وفـ[illegible] والفـ[illegible]م في العـاجل، ولواء الحـمد والحوض في الآجل، وأسباطنا حلفاء الدين، وخلفاء النبيين، ومـصابيح الأُمـم، ومفاتيح الكرم، فالكليم ألبس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء، وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة.

وشيعتنا الفئة الناجية والفرقة الزاكية صاروا لنا ردءاً وصوناً وعـلىٰ الظـملة ألباً[1] وعوناً وستنفجر لهم ينابيع الحيوان بعد لظـىٰ النـيران لتمـام آل حـم وطـه والطواسين من السنين.

وهذا الكتاب درة من درر الرحمة، وقطرة من بحر الحكمة، وكتب الحسن بن علي العسكري عليه السلام في سنة أربع وخمسين ومائتين.

فقوله عليه السلام: والأنبياء كانوا يقتبسون من أنوارنا، وقوله عليه السلام: «وغيوث الندىٰ» وقوله عليه السلام: فالكليم، الخ، يدل الىٰ أنهم الملجأ لهم في تلك الأمور، كما لا يخفىٰ بل هم ملجأ الجميع في جميع الأُمور.

ثم: إنّ السرّ في ذلك أن الله تعالىٰ خـلقهم قـبل كـلّ شيء، ثم خـلق الأشـياء وأشهدهم خلقها، وأنهىٰ إليهم علمها كما تقدم ما يدل علىٰ هذا، ورتبهم في المـقام المحمود مقام الولاية الكبرىٰ التامة تشريعاً وتكويناً كما تقدم مفصلاً.

وحينئذ لا محالة جعلهم الله عليهم السلام ملاذ كلّ شيء ومرّد كلّ شيء، وإليهم إيـاب كلّ شيء وعليهم حساب كلّ شيء.

في المحكي عن المفيد في الاختصاص، والصفار في البصائر، بإسنادهما إلىٰ أبي حمزة الثمالي ثابت بن دينار، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من أحللنا له شـيئاً أصابه من أعمال الظالمين فهو له حلال؛ لأن الأئمة منّا مفوّض إليهم، فما أحلّوا فهو حلال وما حرّموا فهو حرام».

ومثله ما في المحكي عن الاختصاص بإسناده عن محمد بن سنان قال: كـنت

---

١ ـ الألب، القوم تجمعهم عداوة واحد.

عند أبي جعفر عليه السلام فذكرت اختلاف الشيعة فقال: «إن الله لم يزل فرداً متفرداً في الوحدانية، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة عليهم السلام فمكثوا ألف دهر، ثم خلق الأشياء وأشهدهم خلقها، وأجرىٰ عليها طاعتهم، وجعل فيهم ما شاء، وفوض أمر الأشياء إليهم في الحكم والتصرف والارشاد والأمر والنهي في الخلق؛ لأنهم الولاة فلهم الأمر والولاية والهداية، فهم أبوابه ونوّابه وحجّابه يحللون ما شاء ويحرمون ما شاء ولا يفعلون إلّا ما شاء الله ﴿.. عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾.

فهذه الديانة التي من تقدمها غرق في بحر الإفراط، ومن نقصهم من هذه المراتب التي رتّبهم الله فيها زهق في بحر التفريط، ولم يعرف آل محمد حقّهم فيما يجب علىٰ المؤمن من معرفتهم، ثم قال عليه السلام: خذها يا محمد فإنها من مخزون العلم ومكنونه».

وفي بصائر الدرجات، بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قال: سمعته يقول: «إن الله فوض إلىٰ نبيه أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

وفي الوافي عن الكافي بإسناده عن سماعة قال: كنت قاعداً مع أبي الحسن الأول عليه السلام والناس في الطواف في جوف الليل فقال لي: «يا سماعة إلينا إياب هذا الخلق وعلينا حسابهم، فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله تعالىٰ حتمنا علىٰ الله تعالىٰ في تركه لنا فأجابنا إلىٰ ذلك، وما كان بينهم وبين الناس استوهبناه منهم فأجابوا إلىٰ ذلك وعوضّهم الله تعالىٰ».

فعلم من هذه الأحاديث: أن أمر الخلق حدوثاً وبقاءً ودنياً وآخرة في جميع العوالم موكول إليهم عليهم السلام بإذن منه تعالىٰ.

فحينئذ لا محالة يلجأ الكلّ إليهم عند الحاجة، وعندما قصروا في شيء في الدنيا والآخرة من الإنس والجن والملائكة كما لا يخفىٰ، وأيضاً يعلم أن الخلق

بأجمعهم مطيعون لهم ويجب ذلك عليهم.

وإليه يشير ما في المحكي عن كتاب محمد بن شاذان بن نعيم بخطه، عن حمران بن أعين، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يحدث عن أبيه، عن آبائه أن رجلاً كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام مريضاً شديد الحمّىٰ فعاده الحسين بن علي عليهما السلام فلما دخل من باب الدار طارت الحمىٰ عن الرجل فقال: قد رضيت بما أُوتيتم به حقّاً حقّاً والحمىٰ لتهرب منكم، فقال له: «والله ما خلق الله شيئاً إلّا وقد أمره بالطاعة لنا، يا كبّاسة، قال: فإذا نحن نسمع الصوت ولا نرى الشخص يقول لبيك، قال: أليس أمرك أمير المؤمنين ألا توتي إلّا عدواً أو مذنباً؛ لكي يكون كفارة لذنوبه فما بال هذا» وكان الرجل المريض عبدالله بن شداد الهادي الليثي، وحكي أن ابن شهر آشوب حكىٰ هذا عن زرارة بن أعين أيضاً.

والحاصل: أنهم عليهم السلام ملجأ الكلّ في كلّ الأُمور، كيف لا، وقد علمت أنهم باب الله إلى الخلق وباب الخلق إلى الله، وأن ذواتهم المقدسة سبب لتكميل القوابل من ماهيات الخلق؛ لما علمت أنهم عليهم السلام أعضاد للخلق فلازم تلك الشؤون الثابتة لولايتهم المطلقة الإلهية أنهم ملجأ الخلق، كيف لا، وقد علمت أيضاً أن قلوبهم أوعية لمشية الله كما هو نصّ الحديث وهي مصدر جميع الأُمور؛

فكلّ شيء من عين أو معنىً أو جوهر أو عرض ذات أو صفة حال، أو ظرف أو جسم أو مكان أو زمان إنما هو صادر من المشية التي في قلوبهم عليهم السلام، ويلازم هذا المعنىٰ أن هذه الأُمور تلتجأ إليهم عليهم السلام حيث إنها بنفسها فقر محض، فكلّها تنظر في قضاء حوائجها إلىٰ تلك الذوات المقدسة، وتلتمس منها الفرج التماس الفرع من الأصل والمسبب من السبب من حيث الخلق والرزق والحياة والمهات، والنمو والبقاء والحفظ والرجاء، والاستجارة والوقاية إلىٰ غير ذلك حسب ما تقتضيه ذوات الموجودات.

ولا تظن أن ذلك غلوّ بالنسبة إليهم، أو أنه مستلزم لكونهم شركاء له تعالىٰ

عن ذلك علواً كبيراً؛ وذلك لما علمت مراراً من الوسائط بين الخالق والخلق في هذه الأُمور، فالقدرة والتأثير منه تعالىٰ في الكلّ بواسطة هذه الذوات المقدسة حيث إنهم الأسماء الحسنىٰ التي ملأت أركان كلّ شيء، فهم عليهم السلام **﴿عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾** والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: وورثة الأنبياء.

قال في المجمع: التراث بالضم: ما يخلفه الرجل لورثته، إلىٰ أن قال: والميراث مفعال من الارث، وياؤه مقلوبة من الواو أو من الموروث. وهو على الأول علىٰ ما قيل: استحقاق إنسان بنسب أو سبب شيئاً بالاصالة. وعلى الثاني: ما يستحقه إنسان بموت آخر.

فالأول: استحقاق شيء بالمعنى المصدري.

والثاني: نفس الشيء المستحق وقال: وورثت الشيء من أبي إرثه ـ بالكسر فيهما ـ ورثاً ووراثة وارثاً بألف منقلبة عن واو، وورثه توريثاً: أدخله في ماله علىٰ ورثته.. الخ.

أقول: استحقاق الشيء يعمّ المال وغيره، فما ينتقل إليه من المورّث مما يخلفه فهم عليهم السلام ورثة الأنبياء أي أن جميع خواص الأنبياء وآثارهم ومتروكاتهم المختصة بهم لأحد عناوين النسب من الأُخوة والأُبوة مثلاً، أو المختصة للابلاغ والتعريف وإقامة الدين وغيرها مما أعدوه لطاعة الله نحو عصا موسىٰ وعمامة هارون والتابوت والسكينة وخاتم سليمان وغيرها مما يأتي ذكره في الحديث الآتي، فجميعها لهم بالوراثة.

وكذلك ورثتهم في العلم، أي ورثوا جميع ما عندهم من العلوم مما أدركوه من الوحي بواسطة الملك أو الإلهام أو الفهم، وما فيهم من القوة التي بها كانوا يخاطبون الحيوانات، ويعرفون بها نطق الجمادات والنباتات، وهفيف الرياح وجريان المياه،

ولمعان البروق وأصوات الرعود وتغطمط البحار وزهر الأشجار وغيرها.

والحاصل: أن جميع ما فرقه في جميع أنبيائه وأوليائه وخلقه مما هو مزية إلهية وكمال معنوي قد جمعها الله لهم عليهم السلام.

فما كان منها في غيرهم مما كان قبلهم فهم ورثته، وما زاد عليها فهو منه تعالىٰ لهم زيادة وكرامة، كما روى أنه آتاهم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين.

وكذلك ورثوا ما ثبت للأنبياء من وجوب الطاعة والأعذار والإنذار كما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة كما تقدم ويأتي.

وكذلك ورثوا ما ثبت للأنبياء من الصفات الحميدة، التي بها بعثوا ولأجلها أرسلوا، فجميع ذلك ثابت لهم عليهم السلام.

والسرّ فيه أنه يأتي في شرح قوله عليه السلام: «إن ذكر الخير كنتم أصله وفرعه.. الخ» أن كلّ خير وكمال ومزية إنما هي عنهم صدرت وبنورهم وجدت، ولسلطانهم وبيان عظمتهم قدّرت في الوجود، وللثناء عليهم نشرت؛ ليرتفع بذلك شأنهم في عالم الكون علىٰ الكلّ.

فجميعها صفات أنوارهم ومظاهر آثارهم، فهي بالأصالة والحدوث لهم عليهم السلام ومنهم ترشحت إلىٰ غيرهم. فلا محالة هم الوارثون لها بعد فناهم. وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿ونحن الوارثون﴾[1] وقوله تعالىٰ: ﴿ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[2].

كيف وقد علمت: أن الأنبياء والملائكة خلقوا من رشح عرق أنوارهم، فلا محالة إليهم ترجع الأنبياء إلىٰ أن يفنوا فيما يخصهم من أعباء الرسالة.

فقوله عليه السلام: «وورثة الأنبياء» يعم جميع هذه الأُمور وغيرها مما ذكر في الأخبار. وإلىٰ جميع ما ذكرنا تشير الأحاديث الواردة في المقام: فمنها:

ما في البحار[3]، عن بصائر الدرجات، عن عبدالله بن عامر، عن ابن أبي نجران

---

١ ـ الحجر : ٢٣.

٢ ـ القصص : ٥.

٣ ـ البحار ج٢٦ ص١٤٣.

قال: كتب أبو الحسن الرضا عليه السلام رسالة وأقرأنيها قال: قال علي بن الحسين عليه السلام: «إن محمداً صلى الله عليه وآله كان أمين الله في أرضه، فلما قبض محمد صلى الله عليه وآله كنا أهل البيت ورثته، فنحن أُمناء الله في أرضه، عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق.

وإن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، نحن النجباء وأفراطنا إفراط الأنبياء، ونحن أبناء الأوصياء ونحن المخصوصون في كتاب الله، ونحن أولىٰ الناس بالله، ونحن أولى الناس بكتاب الله، ونحن أولى الناس بدين الله، ونحن الذين شرع لنا دينه، فقال: في كتابه[1]: شرع لكم (يا آل محمد) من الدين ما وصّىٰ به نوحاً (فقد وصّانا بما وصّىٰ به نوحاً) والذي أوحينا إليك (يا محمد) وما وصينا به إبراهيم (وإسمعيل) وموسىٰ وعيسىٰ (وإسحق ويعقوب فقد علّمنا وبلغنا ما علمنا واستودعنا علمهم).

(نحن ورثة الأنبياء ونحن ورثة أُولي العزم من الرسل) أن أقيموا الدين (يا آل محمد) ولا تتفرقوا فيه (وكونوا علىٰ جماعة) كبر علىٰ المشركين (من أشرك بولاية علي عليه السلام) ما تدعوهم إليه (من ولاية علي) الله يجتبي إليه من يشاء (يا محمد) ويهدي إليه من ينيب (من يجيبك إلىٰ ولاية علي عليه السلام)».

أقول: في المصحف الشريف: **﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾**[2].

في الوافي عن الكافي بإسناده عن سعيد السمان قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ دخل عليه رجلان من الزيدية فقالا له: أفيكم إمام مفترض الطاعة؟ قال: فقال: لا، قال: فقالا له: قد أخبرنا عنك الثقات أنك تفتي وتقرّ وتقول به ونسميهم لك فلان وفلان وهم أصحاب ورع وتشمير، وهم ممن لا يكذب، فغضب أبو

---

١ و ٢ ـ الشورى: ١٣.

عبدالله عليه السلام وقال: «ما أمرتهم بهذا، فلما رأيا الغضب في وجهه خرجا، فقال لي: أتعرف هذين؟ قلت: نعم هما من أهل سوقنا وهم من الزيدية، وهما يزعمان أن سيف رسول الله صلى الله عليه وآله عند عبدالله بن الحسن!!.

فقال : كذبا لعنهما الله، والله ما رآه عبدالله بن الحسن بعينيه، ولا بواحدة من عينيه ولا رآه أبوه.

اللهم إلّا أن رآه عند علي بن الحسين عليه السلام بعينه، فإن كانا صادقين، فما علامة في مقبضه وما أثر في موضع مضربه؟!

وإن عندي لسيف رسول الله صلى الله عليه وآله.

وإن عندي لراية رسول الله صلى الله عليه وآله ودرعه ولامته ومغفره، فإن كانا صادقين فما علامة في درع رسول الله صلى الله عليه وآله؟

وإن عندي لراية رسول الله صلى الله عليه وآله المغلّبة.

وإن عندي ألواح موسىٰ وعصاه، وإن عندي لخاتم سليمان بن داود عليه السلام.

وإن عندي الطست الذي كان لموسىٰ يقرب بها القربان.

وإن عندي الاسم الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا وضعه بين المسلمين والمشركين،لم يصل من المشركين إلىٰ المسلمين نشابة.

وإن عندي لمثل الذي جاءت به الملائكة، ومثل السلاح فينا كمثل التابوت في بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل في أي أهل بيت وجد التابوت علىٰ أبوابهم أُوتوا النبوة، ومن سار إليه السلاح منا أُوتي الإمامة، ولقد لبس أبي درع رسول الله صلى الله عليه وآله فخطت علىٰ الأرض خطيطاً، ولبست أنا فكانت وكانت، وقائمنا من إذا لبسها ملاها، إن شاء الله تعالىٰ.

أقول: فصرح في هذا الحديث ما ورثوه من الأنبياء من تلك المواريث المذكورة.

وفيه، عن الكافي، بإسناده عن أبان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لما حضرت

رسول الله ﷺ الوفاة دعا العباس بن عبدالمطلب وأمير المؤمنين عليه السلام فقال للعباس: «يا عم محمد تأخذ تراث محمد وتقضي دينه وتنجز عداته؟ فردّ عليه فقال: يا رسول الله شيخ كثير العيال قليل المال من يطيقك وأنت تباري الريح؟! قال: فأطرق رسول الله ﷺ هنيئة ثم قال: يا عباس أتأخذ تراث محمد وتنجز عداته وتقضي دينه؟ فقال: بأبي أنت وأُمي شيخ كثير العيال قليل المال وأنت تباري الريح!!

قال: أما إني سأعطيها من يأخذها بحقّها ثم قال: يا علي يا أخا محمد أتنجز عداة محمد وتقضي دينه وتقبض تراثه؟ فقال: نعم، بأبي أنت وأُمي، ذاك علي ولي، قال: فنظرت إليه حتىٰ نزع خاتمه من إصبعه فقال: تختم بها في حياتي.

قال: فنظرت إلىٰ الخاتم حين وضعته في إصبعي، فتمنيت من جميع ما ترك الخاتم. ثم صاح يا بلال عليّ بالمغفر والدرع والراية والقميص وذي الفقار والسحاب والبرد والأبرقة والقضيب.

قال: فوالله ما رأيتها قبل ساعتي تلك يعني الأبرقة، فجيء بشقة كادت تخطف الأبصار فإذا هي من أبرق الجنة.

فقال: يا علي إن جبرئيل آتاني بها وقال: يا محمد اجعلها في حلقة الدرع، واستزفر بها مكان المنطقة، ثم دعا بزوجي نعال عربيين جميعاً، إحداهما مخصوف والآخر غير مخصوف، والقميصين القميص الذي أسرىٰ به فيه ليلة المعراج والقميص الذي خرج به يوم أُحد، والقلانس الثلاث قلنسوة السفر وقلنسوة العيدين وقلنسوة كانت يلبسها ويقعد مع أصحابه.

ثم قال: يا بلال عليّ بالبغلتين الشهباء والدلدل، والناقتين الغضباء والقصواء، والفرسين الجناح كانت تتوقف بباب المسجد لحوائج رسول الله ﷺ يبعث الرجل في حاجته فيركبه فيركضه في حاجة رسول الله ﷺ وحيزوم وهو الذي كان يقول: أقدم يا حيزوم، والحمار عفير، فقال: أقبضها في حياتي.

فذكر أمير المؤمنين عليه السلام: أن أول شيء من الدواب توفي عفير ساعة قبض

رسول الله ﷺ فقطع خطامه، ثم مرّ يركض حتىٰ أتىٰ بئر بني حطمة بقبا فرمىٰ بنفسه فيها فكانت قبره».

أقول: قال الفيض ﵀ في الوافي في تقديم ذكر أخذ التراث على قضاء الدين، وإنجاز العدات في مخاطبة العباس، وبالعكس في مخاطبة أمير المؤمنين عليه السلام لطف لا يخفىٰ.

قوله ﵀: تباري الريح أي تسابقه كنىٰ به عن علو همته وتكراره ﷺ القول عليه لإتمام الحجة.

قوله: فنظرت الضمير لعلي عليه السلام بنحو الالتفات في الحكاية، والسحاب اسم عمامته ﷺ، الاستزفار شدّ الوسط بالمنطقة، الشهباء والدلدل اسمان للبغلتين، الغضباء بالعين المهملة والضاد المعجمة الناقة المشقوقة الأُذن، والقصواء بالقاف والصاد المهملة المقطوع طرف أُذنها وليس ناقتاه ﷺ كذلك، ولكنهما لقبا بذلك، وعفير كزبير اسم لحماره ﷺ والخطام بالخاء المعجمة والطاء المهملة الرفام، وحيزوم اسم فرس جبرئيل، فخاطب ﷺ فرسه بما كان خاطب جبرئيل فرسه بذلك يوم بدر.

وفي البحار[١]، عن السرائر بإسناده عن حمران بن أعين، قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام: عندكم التوراة والانجيل والزبور وما في الصحف الأُولىٰ صحف إبراهيم وموسىٰ؟ قال: نعم، قلت: إن هذا لهو العلم الأكبر!! قال: «يا حمران لو لم يكن غير ما كان، ولكن ما يحدث بالليل والنهار علمه عندنا أعظم».

وفيه، عنه[٢] بإسناده عن سليمان بن خالد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن عندنا لصحيفة طولها سبعون ذراعاً إملاء رسول الله ﷺ وخطّ علي بيده، ما من حلال ولا حرام إلّا وهو فيها حتىٰ إرش الخدش».

---

١ ـ البحار ج٢٦ ص٢٠.

٢ ـ البحار ج٢٦ ص٢٢.

وفيه، عنه[١] بإسناده عن حريس الكناني، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام وعنده أبو بصير، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن داود ورث الأنبياء، وإن سليمان ورث داود، وإن محمداً صلى الله عليه وآله ورث سليمان وما هناك، وإنا ورثنا محمداً صلى الله عليه وآله عندنا صحف إبراهيم وألواح موسىٰ».

وفيه، عنه[٢] بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: «يا أبا محمد إن الله لم يعط الأنبياء شيئاً إلّا وقد أعطاه محمداً، وقد أعطىٰ محمداً جميع ما أعطىٰ الأنبياء، وعندنا الصحف التي قال الله: ﴿صحف إبراهيم وموسىٰ﴾ قلت: جعلت فداك وهي الألواح؟ قال: نعم».

وفيه، عنه[٣] بإسناده عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام أنه سأله عن قول الله تعالىٰ: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ ما الذكر وما الزبور؟ قال: «الذكر عند الله والزبور الذي نزل علىٰ داود، وكلّ كتاب نزل فهو عند العالم، وفي نسخة: فهو عند أهل العلم ونحن هم».

وفيه، عنه[٤] عن محمد بن الفيض، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كانت عصا موسىٰ لآدم فصارت إلىٰ شعيب، ثم صارت إلىٰ موسىٰ بن عمران، وإنها لعندنا، وإن عهدي بها آنفاً وهي خضراء كهيئتها حين انتزعت من شجرتها، وإنها لتنطق إذا استنطقت، أُعدت لقائمنا عجل الله فرجه يصنع بها ما كان يصنع موسىٰ عليه السلام وإنها لتروع وتلقف ما يأفكون وتصنع ما تؤمر به إنّها حيث أقبلت، تلقف ما يأفكون، يفتح لها شعبتان إحداهما في الأرض والأُخرىٰ في السقف وبينهما أربعون ذراعاً تلقف ما يأفكون بلسانها».

---

١ ـ البحار ج٢٦ ص١٨٣.
٢ ـ البحار ج٢٦ ص١٨٤.
٣ ـ المصدر نفسه.
٤ ـ البحار ج٢٦ ص٢١٩.

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: «الواح موسى عندنا وعصا موسىٰ عندنا ونحن ورثة النبيين».

وعن أبي سعيد الخراساني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إن القائم عليه السلام إذا قام بمكة، وأراد أن يتوجه إلىٰ الكوفة نادىٰ مناديه: ألا لا يحمل أحد منكم طعاماً ولا شراباً، ويحمل حجر موسىٰ بن عمران وهو وقر بعير، فلا ينزل منزلاً إلّا انبعث عين منه، فمن كان جائعاً شبع ومَن كان ظامياً روىٰ، فهو زادهم حتىٰ ينزل النجف من ظهر الكوفة».

وفي البحار[1]، عن السرائر، بإسناده عن عبدالله بن سليمان قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن السلاح فينا كمثل التابوت في بني إسرائيل، كان حيث ما دار التابوت فثم الملك، وحيث ما دار السلاح فثم العلم».

وفيه[2] عنه بإسناده عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة علىٰ أصحابه بعد عتمة وهم في الرحبة وهو يقول: همهمة في ليلة مظلمة خرج عليكم الامام وعليه قميص آدم وفي يده خاتم سليمان وعصا موسىٰ».

وفي البحار، عن علل الشرائع، بإسناده عن مفضل بن عمر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: «أتدري ما كان قميص يوسف؟ قال: قلت لا، قال: إن إبراهيم لما أُوقدت له النار أتاه جبرئيل عليه السلام بثوب من ثياب الجنة وألبسه إياه، فلم يضرّه معه ريح ولا برد ولا حرّ، فلما حضر إبراهيم الموت جعله في تميمة وعلقه علىٰ إسحق، وعلقه إسحق علىٰ يعقوب، فلما ولد ليعقوب يوسف علقه عليه، فكان في عضده حتىٰ كان من أمره ما كان، فلما أخرج يوسف القميص من التميمة وجد يعقوب ريحه وهو قوله تعالىٰ: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تُفندون﴾ فهو ذلك القميص الذي

---

١ ـ البحار ج٢٦ ص٢٠٦.

٢ ـ البحار ج٢٦ ص٢١٩.

أنزل به من الجنة، قلت: جعلت فداك فإلىٰ من صار هذا القميص؟ قال: إلى أهله وكل نبي ورث علماً أو غيره فقد إنتهىٰ إلىٰ محمد وآله».

وفيه[١] عنه بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «ترك رسول الله صلى الله عليه وآله من المتاع سيفاً ودرعاً وعنزة ورحلاً وبغلته الشهباء، فورث ذلك كله علي بن أبي طالب عليه السلام».

وفيه[٢] عنه بإسناده عن عبدالأعلىٰ بن أعين قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «عندي سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله لا أُنازع فيه.

ثم قال: إن السلاح مدفوع عنه لو وضع عند شرّ خلق الله كان خيرهم.

ثم قال: إن هذا الأمر يصير إلىٰ من يلوى له الحنك، فإذا كانت من الله فيه المشية خرج فيقول الناس: ما هذا الذي كان ويضع الله له يده علىٰ رأس رعيته».

وفيه[٣] عنه بإسناده عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سألته عما يتحدث الناس أنه دفعت إلىٰ أمّ سلمة صحيفة مختومة؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض ورث علي سلاحه وما هنالك، ثم إلى الحسن والحسين عليهما السلام فلما خشيا أن يفتشا إستودعا أمّ سلمة، قال: قلت: ثم قبضا بعد ذلك فصار إلىٰ أبيك علي بن الحسين ثم انتهىٰ إليك أو صار إليك؟ قال: نعم».

وعن أحمد بن أبي عبدالله، عن الرضا عليه السلام[٤] قال: سألته عن ذي الفقار سيف رسول الله صلى الله عليه وآله من أين هو؟ قال: «هبط به جبرئيل من السماء، وكانت حليته من فضة وهو عندي».

أقول: هذه جملة من الأحاديث بالسنة مختلفة دلّت علىٰ أنهم عليهم السلام ورثة الأنبياء وورثة رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع ما تركوه، ومما خصّوا به من المتاع والعلم والقدرة.

---

١ ـ البحار ج٢٦ ص٢١١.
٢ ـ البحار ج٢٦ ص٢١٠.
٣ ـ البحار ج٢٦ ص٢٠٧.
٤ ـ شرح الزيارة للسيد الشبّر رحمه الله.

ولعمري إن الأحاديث في هذا لكثيرة كما لا يخفىٰ على المتتبع وفيما ذكر كفاية، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: والمثل الأعلىٰ.

قال في المجمع: والمثل بالتحريك عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر، ويصوّره ويدني المتوهم من المشاهد.

وإن شئت قلتَ هو عبارة عن المشابهة بغيره في معنىٰ من المعاني، وإنه لإدناءِ المتوهَّم من المشاهد؛ كقوله تعالىٰ: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**﴾.

والعرب قد تسمّي الصفة والقصة الرائقة لاستحسانها أو لاستغرابها مثلاً فتشبه ببعض الأمثال لكونها مستحسنة كقوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له**﴾.

وقد يردّ المثل إلىٰ أصله الذي كان عليه من الصفة، فيقال: هذا مثلك أي صفتك، قال تعالىٰ: ﴿**مثلهم في التورٰة**﴾ أي صفتهم فيها.. إلىٰ أن قال: والمثل بالكسر: الشبه.

يقال: مثله بالسكون، ومثله بالتحريك كما يقال: شبهه وشبهه.. إلىٰ أن قال: وفي حديث كميل عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يا كميل مات خزّان الأموال والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة».

قال بعض الشارحين: الأمثال جمع مثل بالتحريك، وهو في الأصل بمعنىٰ النظير ثم استعمل في القول السائر الممثّل الذي له شأن وغرابة.

وهذا هو المراد بقوله: وأمثالهم في القلوب موجودة، أي حكمهم ومواعظهم محفوظة عند أهلها يعملون بها ويهتدون بمنارها، إنتهىٰ.

أقول: الظاهر أن المراد من قوله عليه السلام: وأمثالهم في القلوب موجودة، أن العلماء مذكورون بصورهم وأمثالهم الخيالية في قلوب من نظر في علومهم وقرأ كتبهم،

وتلك الصور الخيالية هي أمثال العلماء لا أن حكمهم ومواعظهم محفوظة.

فإن الكلام منه عليه‌السلام مسوق لبيان بقائهم بصورهم المثالية دون خزّان الأموال، لابقاء مقالهم فإنها معلوم البقاء من كلّ أحد، ولا يدل علىٰ امتيازهم عن أهل الدنيا بأنفسهم كما لا يخفىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: أن ذكرهم الصوري إنما هو بسبب أقوالهم وإخباراتهم وإيراداتهم للمسائل، فصورتهم المثالي موجودة بذلك لا أن تلك الحكم موجودة.

والوجه فيه أن ما يرجحه العالم في نظره إنما هو في الواقع صورته الباطني، لأن معلوماته الراجحة في الحقيقة صفاته بذاته، والصفات صورة الموصوف، التي بها ظهر وإلىٰ كون الرأي والعلم هو الصفة في أي أمر كان، يشير قوله تعالىٰ: ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾[1].

فالعلوم والمعارف الباقية منهم الظاهرة في قلوب المراجعين لها في الحقيقة صورة للعالم الميت ومثاله، الذي به ظهر لنا فعلاً أو هي سبب لذكره هكذا.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: وأمثالهم في القلوب موجودة هو الكناية عن أنهم بهذه المعارف والعلوم مثابون عند الله تعالىٰ بسبب ما خلّفوا من العلوم النافعة.

ثم: إن قوله: الأمثال، جمع مثل بالتحريك وهو في الأصل بمعنى النظير، قد علمت أن المثل بالكسر هو بمعنىٰ الشبه والنظير، إلّا أنه قد يستعمل المثل بالتحريك في النظير أيضاً كما لا يخفىٰ.

وكيف كان فالمثل بالتحريك هو ما عرفت معناه، وأنه بمعنى الحجة والحديث أيضاً، والجمع المثل بضمتين وبمعنىٰ المشابهة بغيره في معنىٰ من المعاني.

وتوضيح ذلك: أن المثل يؤتىٰ به في مقام التمثيل بين شيئين، أحدهما: مجهول والآخر معلوم ليبين المجهول، فهو عبارة عن تنزيل الشيء المجهول عن مرتبة لا يمكن تناوله، والإحاطة به فيها إلىٰ مرتبة يمكن تعقّله لمن أُريد منه أن يتعقل

---

١ ـ الأنعام: ١٣٩.

للمناسبة الكائنة بهما في المرتبة الثانية دون المرتبة الأُولىٰ مثل أن تريد إثبات أن الضدين لا يجتمعان، فتفرض لمن أردت تعليمه الليل والنهار، وإن الليل إذا تحقق ينتفي النهار وبالعكس فتقرب بذلك في ذهن المتعلم أن كلّ ما كانا كذلك فهما ضدان، فحقيقة المثل عبارة عن مرتبة تفصيل الشيء وتبيينه. وذلك يختلف بالنسبة إلىٰ مراتب الأمثال والممثلات.

إذا عرفت هذا فاعلم: أنه لا يمكن أن يراد من المثل في الزيارة بمعنىٰ المثل بالكسر لأنه بمعنىٰ الشبه والنظير.

ولا معنىٰ لكونهم عليهم‌السلام شبه غيرهم ونظير غيرهم، فإن الغير إن كان هو غير الله، فلازمه أن يكون ذلك الغير هو أشرف منهم حيث شبهوا به.

ومن المعلوم أنهم خير خلق الله فلا يكونون نظيراً لغيرهم، وإن كان هو الله فمعلوم أنه تعالىٰ لا شبه له ولا نظير، قال تعالىٰ: ﴿ليس كمثله شيء﴾[1].

نعم: قد يتكلف ويقال: إنه يمكن أن يراد من المثل بالكسر فحينئذ كونهم عليهم‌السلام مثله الأعلىٰ يراد منه ما توضيحه: إن النفس يمكن تجريدها عن أي اعتبار لها بحيث لا يمكن الإشارة إليها في صقع ذلك التجرّد، فهي في تلك الحال خلق الله تعالىٰ بالخلق الأول العاري عن أي شيء، فهي حينئذ صفة بها يعرف الله تعالىٰ بصفة التجرد أي من تجردها يستدل علىٰ تجرده تعالىٰ.

ولعلّ قوله عليه‌السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»، يشير إلىٰ هذه الكيفية من المعرفة المستلزمة لمعرفة الرب في التجرد أيضاً.

فالله سبحانه خلقها أولاً هكذا ليعرفها كذلك، وأنه تعالىٰ تجلى بها لها هكذا، وهي كذلك ذات العبد المعبر عنها بأنا.

فذات العبد في تلك الحال تعرف نفسها محدثها فقط، وأنه مجرد خلق هذا المجرد، فحينئذ يعرف خالقها كذلك أي بعد تجردها عن الاعتبارات ودركه

---

١ ـ الشورى: ١١.

وجودها لا محالة أول ما يظهر له أن لها محدثاً وخالقاً ومن كونها مجرداً يعلم أن خالقها مجرد.

وبعبارة أُخرىٰ: حيث إنها حينئذ أثر فعله تعالىٰ، فتدل عليه تعالىٰ بأصل إيجاده تعالىٰ إياها، لأن الموجود أثر الايجاد والايجاد أثر الموجد.

فهو تعالىٰ حينئذ قد تعرف نفسه لهذه النفس المجردة بإيجادها كذلك، فهي بهذه الجهة موحّدة لخالقها بأنه موجد وحداني غير متكثر لما يرىٰ في نفسه التجرد الموجود به تعالىٰ.

ولعلّه إليه يشير أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[1] بأن يراد من الفطرة هي النفس المجردة عن أي اعتبار فهي أثر التوحيد، فالنفس حينئذ لتجرده مثل صفة تجرده تعالىٰ.

وحينئذ نقول: إذا ثبت وجود المثل في النفوس المجردة، أي مثل صفته تعالىٰ في التجرد لا مثل ذاته تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً، وهي إن صفة تجرد النفس صفة خلق لا تشبه شيئاً من الخلق، فقد ثبت أن لصفته مثلاً بالكسر.

ثم إن تلك الأمثال النفسانية بالمعنى المذكور تختلف اختلافاً كثيراً متفاوتاً تفاوتاً كثيراً.

ولكن أعلىٰ تلك الأمثال محمد وآله (صلى الله عليهم أجمعين) فهم المثل الأعلىٰ (بكسر الميم بهذا المعنىٰ).

ووجه كونهم أعلى الأمثال أن قربهم إليه تعالىٰ وطهارتهم الذاتية عن كلّ دنيّة، وأنهم أول خلق الله دون غيرهم، فإنهم خلقوا من نور عظمته كما تقدمت الإشارة إليه.

فكلّ هذا يقتضي أنهم أعلى المثل في التجرد لصفة تجرده تعالىٰ، فافهم ولا تزل قدماً بعد ثبوتها، والله الهادي إلى الصواب.

---

١ ـ الروم: ٣٠.

ثم إنه قد يقرأ المثل بضمتين فهو حينئذ جمع المثل بالكسر، وحينئذ لا يصح إلّا بما ذكر كما لا يخفىٰ.

وقد يقال أيضاً في وجه كون المثل بالكسر: أمر آخر.

وحاصله: أنه ثبت إن جميع الموجودات أسماء له تعالىٰ، كما يستفاد من حديث حدوث الأسماء وغيره.

ومعلوم أن الاسم صفة لمسمىٰ كما تقدم، فجميع الموجودات صفاته تعالىٰ المحدثة الموجودة بإيجاده تعالىٰ، فهي بأجمعها تدل علىٰ محدثها تبارك وتعالىٰ وهي سمة للمسمىٰ وعلامة له.

وحينئذ نقول: معنىٰ أنهم عليهم السلام المثل الأعلىٰ (بكسر الميم) أنهم عليهم السلام بحقيقتهم الأسمائية الخفائية مثل تلك الموجودات، التي هي صفات وأسماء محدثة دالة عليه تعالىٰ لا مثل ذاته تعالىٰ فإنه كفر وزندقة كما علمت. فالمماثلة بين ذاتهم المقدسة وبين تلك الموجودات الأسمائية كما لا يخفىٰ.

وأما كونهم المثل الأعلىٰ بصفة الأعلائية؛ فلأنّ دلالتهم عليه تعالىٰ بذواتهم وصفاتهم أدلّ وأعلىٰ من ساير الموجودات كما قال علي عليه السلام: «ما لله نبأ أعظم مني، ولا آية أكبر مني»، والآية هو العلامة كما لا يخفىٰ.

والحاصل: أن ذاته تعالىٰ لا شبه له ولا نظير أبداً.

فإن أطلقت المماثلة في الخلق فإنما هي بين أفرادها بعضها بالنسبة إلىٰ البعض، فإن المخلوق مهما كان لا طريق له إلىٰ حريم الذات، تعالىٰ وتقدس وإنما يدور في أنواعها. ولعلّه إليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنتهىٰ المخلوق إلىٰ مثله وألجأه الطلب إلىٰ شكله»، فافهم وتدبر تعرف.

وكيف كان: فالظاهر أن يراد منه المثل بالتحريك، فحينئذ فهم عليهم السلام مثل له تعالىٰ بما له من المعاني.

أما علىٰ كونه بمعنى الحجة فإنهم آية الله وحججه والأمثال التي ضربها الله

لخلقه.

وأما كونه بمعنىٰ القصة فهم عليهم السلام قصة الحقّ بل وصفته.

فإن من نظر في أحوالهم عليهم السلام وصفاتهم يرىٰ أنها تقص عليه أحوال الأنبياء في أنفسهم ومع أُممهم، فكلّ ما كان في سنة الأولين تجده فيهم فهم عليهم السلام بذواتهم وصفاتهم وأفعالهم حجج الله وآياته، وقصص الله الحق لما مضىٰ، واخبار الله الصدق عما يأتي.

وهم هدى الله وسننهم سنن الله، وطريقهم وسبيلهم طريقه وسبيله، ولهذا فرض الله طاعتهم علىٰ الخلق؛ ولأنهم العالمون بكلّ ما يحتاج إليه الرعية، محفوظون عن الخطإ والغفلة والسهو والذنب الصغير والكبير، ودعواتهم مستجابة ومعجزاتهم ظاهرة وبراهينهم باهرة، فمن اتبعهم وآمن بهم نجا ومن تخلف عنهم هلك.

ولعلّ إلىٰ هذه المعاني يشير ما في الكافي عنه عليه السلام من قوله عليه السلام: «اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأُولي الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» يعني أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة أُولي الأمر، فإذا لم يجده العارف فيهم لم يكونوا أُولي الأمر؛ لأن الشيء الذي ينسب إلىٰ صفة إنما يعرف بتلك الصفة لا بغيرها.

وأما كونهم عليهم السلام المثل الأعلىٰ له تعالىٰ بمعنى المشابهة بالغير في معنىٰ من المعاني علىٰ ما عرفت تحقيقه فنقول: هنا مقامان:

الأول: في بيان المعنى المتحقق به أنهم المثل (بالتحريك) له تعالىٰ.

والثاني: في بيان أنهم المثل الأعلىٰ دون غيرهم، فنقول:

أما الأول: قد دلت الآيات والأحاديث علىٰ أن المثل الأعلىٰ مختص به تعالىٰ قال الله تعالىٰ: ﴿**ولله المثل الأعلىٰ**﴾.

فعن توحيد الصدوق عن الصادق عليه السلام قال: ﴿**ولله المثل الأعلىٰ**﴾ الذي لا يشبهه شيء، ولا يوصف ولا يتوهم فذلك المثل الأعلىٰ.

وقيل: قوله: ﴿ولله المثل الأعلىٰ﴾ يعني التوحيد والخلق والأمر ونفي كـلّ إله سواه وترجم عن هذا بقول لا إله إلّا الله.

وقيل: معناه الوصف العجيب الشأن، الذي ليس لغيره ما يساويه ولا يدانيه.

أقول: قوله ﷺ: التوحيد والخلق والأمر هو الوصـف العـجيب الشأن، فـإن التوحيد أمر عجيب لم يصل إليه أفهام الاوحدي فضلاً عن غيرهم إلّا من علمه الله وأراه ذلك، وكذلك كيفية الخلق والأمر الذي من عالم الأمر. ويجمع هذه المعاني نفي كلّ إله سواه. ويدل علىٰ هذا الجامع بهذه المعاني قول لا إله إلّا الله كما لا يخفىٰ.

فحقيقة هذه المذكورات كلّ واحد منها مثل له تعالىٰ، لا يكـون ممـثله غـيره تعالىٰ بل ينحصر فيه تعالىٰ، ويدل علىٰ هذا الانحصار لام الاخـتصاص في قـوله تعالىٰ: ﴿ولله المثل الأعلىٰ﴾ فالمثل الأعلىٰ بالقول المطلق مختص له تعالىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: المثل المفسّر بالتوحيد، والخلق والأمر المحكي بقول لا إله إلّا الله مختص به تعالىٰ لاختصاصه تعالىٰ بالتوحيد والخلق والأمر.

ثم إن هذا المثل الأعلى المختص به تعالىٰ لابد له من مظهر يكون مثلاً لهذا المثل الأعلىٰ المختص به، وهذا لا يكون إلّا بكون الأئمة عليهم السلام مثلاً له تعالىٰ بالمثل الأعلىٰ، أي انعكس فيهم عليهم السلام حقيقة أمثاله العليا، فهم عليهم السلام حينئذ الأمثال العليا بما ظـهر فيهم تلك الأمثال العليا كانعكاس ضوء في مرآة من مرآة أُخرىٰ.

فبلحاض الانعكاس يصح أن يقال: إنهم المثل الأعلىٰ له تعالىٰ أي هم المظاهر لامثاله الغليا، ومع قطع النظر عن هذا الانعكاس فله تعالى المثل الأعلىٰ لا غـير، وبهذا يجمع ما في التوحيد من قوله ﷺ: ﴿ولله المثل الأعـلىٰ﴾ أي الذي لا يشبهه شيء الخ، وما دلّ من الأحاديث الكثيرة علىٰ أنهم المثل الأعلىٰ.

ففي المحكي عن فرات بن إبراهيم وغيره عن جماعة كالصادق ﷺ وابن عباس وغيرهما، أن علياً ﷺ قال في بعض خطبة، ونقله جابر الانصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «نحن المثل الأعلىٰ وسبيل الهدىٰ وكلمة التقوىٰ والحجة العظمىٰ».

وقال في وجه الجمع في مقدمة تفسير البرهان: ولعلّ المراد كونهم عليهم السلام معناه بحسب التأويل.

أقول: الظاهر أن المراد من التأويل هو ما ذكرنا من كونهم عليهم السلام مظاهر لتلك الأمثال المختصة به تعالىٰ بالنحو المذكور آنفاً.

وقال بعض الأكابر[١]: إن المثل محركة الحجة والحديث والصفة.

فالمراد من قوله عليه السلام: نحن المثل الأعلىٰ ومن قوله هنا: المثل الأعلىٰ، أنهم الحجة العليا أو الصفة العليا كما تقدم.

أو المراد منه أن الله تعالىٰ مثل بهم في القرآن في آية النور وغيرها.

أقول: تقدم قول الصادق عليه السلام في تفسير آية النور في شرح قوله عليه السلام ومصابيح الدجىٰ، فقال: هو مثل ضربه الله لنا، وقوله عليه السلام: مثلنا في كتاب الله عزوجل كمثل مشكوة، وتقدم هناك ما يوضح المراد هنا، فراجع.

ويدل علىٰ أن الله تعالىٰ مثل هم في القرآن ما يحكىٰ عن كتاب الإبانة عن علي عليه السلام أنه قال في حديث له عليه السلام: وبنا ضربت الأمثال، أي كل مثل خير عال جليل ضربه الله في القرآن فإنما هو فيهم وبهم ولهم، أي هم عليهم السلام مظاهره بنحو تقدم، فظهر مما ذكرنا أنهم عليهم السلام أمثال له تعالىٰ بمعنىٰ أنهم مظاهر لأمثاله تعالىٰ.

فهم المثل والممثل هو المثل المختص به المشار إليه بقوله: ﴿**ولله المثل الأعلىٰ**﴾[٢] وقوله: ﴿**وله المثل الأعلىٰ في السموات والأرض**﴾[٣].

وحينئذ كونهم عليهم السلام مظاهر لمثله الأعلىٰ بحيث قد انعكس فيهم حقيقة مثله الأعلىٰ علىٰ وجوه.

الأول: أنه قال الصادق عليه السلام كما تقدم: ولله المثل الأعلىٰ الذي لا يشبهه شيء..

---

١ ـ هو الشيخ صاحب مقدمة تفسير البرهان.

٢ ـ النحل: ٦٠.

٣ ـ الروم: ٢٧.

الخ، ومعناه تنزيهه تعالىٰ عن وصف ومثل في الخلق، أي كلما ذكر وصف شريف أو وضيع، أو ضرب مثل دني أو رفيع، وجب أن يقال: الله تعالىٰ أكبر من أن يوصف بهذا الوصف، أو يمثل بهذا المثل وأجل من أن يكيف بهما ضرورة أنه تعالىٰ أعلىٰ من أن يمثل أو يشبه، وهو أيضاً أعظم من أن يقاس بالباب الخلق، وأرفع من أن يعرف كيف هو في سرّ وعلانية إلّا بما دلّ علىٰ نفسه في كتابه ولسان أنبيائه.

ففي كلّ مقام التمثيل الذي هو تحديد وتوصيف وتكييف لابد من أن يقال: هو أكبر وأعلىٰ من أن يمثل أو يكيف وأعظم من أن يوصف.

فهذا التنزيه المشار إليه بقوله عليه السلام: الذي لا يشبهه شيء، والذي شرحناه إنما هو يظهر فيهم عليهم السلام فإنهم عليهم السلام نزهوه هكذا بذاتهم وصفاتهم وأفعالهم وأقوالهم دون غيرهم.

فالمثل الأعلىٰ بهذا المعنى التنزيهي كان فيهم، أي ظهر فيهم وهم مظاهره، ومنه علم كونهم مثلاً بنحو الأعلىٰ كما لا يخفىٰ.

إذ ليس غيرهم مصداقاً يبين هذا التنزيه بما يليق بجنابه، كما لا يخفىٰ فافهم تعرف بعون الله تعالىٰ.

الثاني: أن حقيقة المثل الأعلى الدال علىٰ تنزيهه تعالىٰ، وعلىٰ نفي تشبيهه، ونفي كونه تعالىٰ معلوماً لأحد بالكنه، ونفي إحاطة أحد به تعالىٰ بحيث يكون محاطاً والعياذ بالله هو خلقه تعالىٰ وملكه، أي أنه تعالىٰ خلق هذه الحقيقة ويملكها، نظير قول السجاد عليه السلام: «لك يا إلهي وحدانية العدد أي هي لك وملكك وخلقك فلا محالة لا تجري عليك».

وبعبارة أُخرىٰ: أن المثل الذي به يعرف الله تعالىٰ من أنه ليس كمثله شيء ولا ضد له ولا ندّ له ولا شريك.

وأمثال هذا من الأُمور الدالة علىٰ التوحيد الخالص بحسب الإمكان هو آية ضربها الله تعالىٰ؛ لكي يعرف بها، وهو مثل أعلىٰ لمعرفته تعالىٰ، التي هي ظهوره

لخلقه بهذه المعرفة.

وهذا المثل في كلّ شخص يكون منه أثر، وهو مظهر له ومصداق لهذا المثل بنحو يخصه إلّا أن أعلىٰ هذا المثل هو محمد وآله الطاهرون عليهم السلام. فهم حينئذ المثل الأعلىٰ يعني بذواتهم وهياكلهم وساير شؤونهم مظاهر التوحيد. فهم هياكل التوحيد، وهم أول هيكل خلقه الله تعالىٰ وهم الأربعة عشر، (محمد والأئمة وفاطمة الزهراء) (سلام الله عليهم أجمعين).

وحاصله: أن المثل الأعلى الذي له تعالىٰ هو ما دلّ علىٰ توحيده، وهو مملوكه وخلقه وجار فيهم، وكلّ خلق له حظ منه إلّا أن محمداً وآله الطاهرين أعلىٰ مظاهر ذلك المثل الأعلىٰ، والله الهادي إلىٰ الصواب.

الثالث: أن معنىٰ كونهم المثل الأعلىٰ أنه تعالىٰ خلقهم علىٰ أحسن صورة يقتضيها الإمكان، وهي ما هم عليهم من الهيئة والكينونة الحسنة المشار إليها بقوله: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾[1].

إذ المراد به كما في الحديث هو الإنسان الكامل وهو محمد وآله الطاهرون.

وقوله: ﴿**ثم رددناه أسفل سافلين**﴾[2] يعني رددناه إلىٰ أقبح صورة يحتملها الإنسان وهو الإنسان الناقص وهم أعداء آل محمد (لعنهم الله)، قال الله تعالىٰ: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلىٰ النار ويوم القيامة لا يُنصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة هم من المقبوحين**﴾[3] في يوم القيامة يظهر أنهم من المقبوحين؛ لأنه تبلى فيه السرائر كما لا يخفىٰ.

فالصورة الإنسانية أعلاها وأحسنها هو صورة محمد وآله عليهم السلام وأقبحها صورة أئمة المنافقين. وأما ما بين الصورتين فما قرب منها من الأحسن أحسن، وما

---

١ ـ التين : ٤.

٢ ـ التين : ٥.

٣ ـ القصص : ٤١ و٤٢.

قرب منها إلىٰ الأقبح أقبح.

فمحمد وآله ﷺ المثل الأعلىٰ أي في عالم الصور الإمكانية الإنسانية هم عليهم السلام أعلاها وأحسنها مثالاً، والله الهادي.

الرابع: أن حقائق أفراد الإنسان حسب ما اقتضته قابلياتها وحدودها صوراً ظاهرة وباطنة علىٰ أقسام أربعة.

فإن منها: ما يكون صورته حسنة ظاهراً وباطناً.

ومنها: ما هو بالعكس وهو ما كانت صورته قبيحة ظاهراً وباطناً.

ومنها: ما صورته حسنة ظاهراً وقبيحة باطناً.

ومنها: بالعكس، فأحسن الأقسام هو الأول ثم الأخير ثم الثالث وأردأ الصور هو الثاني كما لا يخفىٰ.

ثم إن كلّاً منها علىٰ جهة التشكيك لاختلاف المشخصات من مكملات القابليات. فالقسم الأول وهو ما كانت صورته حسنة ظاهراً وباطناً أعلاها وأحسنها صور محمد وآل محمد ﷺ.

والوجه فيه ما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ وما في الأحاديث الدالة علىٰ انه تعالىٰ خلقهم فأحسن صورهم وقد تقدم بعضها، وتلك الصور إنما كانت حسنة ظاهراً وباطناً؛ لأن مادتها ومشخصاتها وقوابلها ومكملاتها كلّها أنوار لا ظلمة فيها.

وقد تقدم أن طينتهم من العليين بعد ما كانت أرواحهم وأنوارهم مخلوقة من نور عظمة الله تعالىٰ، فحقائقهم موجودة طبق ما أراد الله المشار إليها بآية التطهير، ولهذه الطهارة الكاملة صاروا محلاً لمشية الله ومظاهر لأسمائه الحسنىٰ، ولأنها بلغت إلىٰ الكمال كادت أن تكون مطلقة بحيث لا تتوقف إضائتها وإفادتها إلىٰ شرط كما أشار إليه تعالىٰ: ﴿**يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار**﴾[1] وذلك لتخلصها من

---

١ ـ النور : ٣٥.

الموادّ . والتركيبات التكوينية.

فلهذه الجهات كلّها اصطفاها الله تعالىٰ وارتضاها واختصها واختارها واصطفاها لنفسه، فأضافها إلىٰ نفسه بأن جعلها أمثالاً له المشار إليه بقوله: والمثل الأعلىٰ، كما أضاف البيت لشرافته إلىٰ نفسه فقال: بيتي، فهم عليهم السلام بهذه المرتبة التي لا يدانيها مزية الخلق كانوا أمثاله العليا، والله الموفق للصواب.

الخامس: أن الشيء كالانسان مثلاً إنما يعرف بأحواله الطارئة عليه من العلم والقدرة والروح والنفس والعقل، والوجود والماهية والذات والصفات، والأفعال من القيام والقعود وساير الحالات العارضة له من الأقوال والهيئات المختلفة.

وكلّ هذه في الحقيقة أبدال له وأمثال له فهو يظهر علىٰ البدل في هذه الأمثال.

ثم إنه تعالىٰ لما كانت ذاته المقدسة منزهة عن كلّ عارض يعرض الخلق مما ذكر، وهو مع ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ويداه مبسوطتان ينفق ما يشاء وهو تعالىٰ في كلّ يوم في شأن.

وقد ثبت بالأحاديث المسلمة التي سبقت أنهم عليهم السلام أسماؤه الحسنىٰ، ومعناه أنه تعالىٰ يفعل في الخلق بأسمائه، فلا محالة هم عليهم السلام في كلّ اسم له تعالىٰ مظهره، كما أُشير إليه في حديث جابر المتقدم شرحه من قوله عليه السلام:

«يا جابر عليك بالبيان والمعاني، قال: قلت: وما البيان والمعاني؟ قال: فقال عليه السلام: أما البيان: فهو أن تعرف الله سبحانه ليس كمثله شيء، فتعبده ولا تشرك به شيئاً، وأما المعاني: فنحن معانيه ونحن جنبه ويده ولسانه وأمره وحكمه وعلمه وحقه، إذا شئنا شاء الله ويريد ما نريده»، الحديث.

فقوله: ونحن جنبه.. الخ يشير إلىٰ أن ما تصف به الحقّ من الصفات المؤثرة في الخلق، والظاهرة فيه من الجنب واليد واللسان والأمر ونحوها مما هو أمثاله تعالىٰ **حيث بها يظهر في الخلق وهي شؤونه تعالىٰ فإنما هو هم عليهم السلام وهي جارية فيهم وقائمة بهم عليهم السلام أمثاله تعالىٰ، أي انطبقت تلك الأمثال فيهم فهم مصاديقها وهم لا**

محالة مصداق لمثاله تعالىٰ. حيث علمت أن تلك الصفات أمثال له تعالىٰ بها عرف في الخلق.

وهذه الأُمور والصفات ببعض مصاديقها النازلة جارية في ساير الخلق أيضاً.

كما أشار إليه في حديث أمير المؤمنين عليه‌السلام وقد سئل عن العالم العلوي فقال عليه‌السلام: صور عارية عن المواد، عالية عن القوة والاستعداد، تجلىٰ لها فأشرقت، وطالعها فتلألأت، وألقىٰ في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله، وخلق الانسان ذا نفس ناطقة إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت أوائل جواهر عللها، فإذا اعتدل مزاجها، وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد.. الخ، وسيجيء بتمامه وشرحه.

فقوله عليه‌السلام: وألقىٰ في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله، يريد بالمثل الذي ألقاه في هويتها ما أشرنا إليه سابقاً، وهو ما تعرف سبحانه لها من وصف معرفته، الذي هو أي ذلك الوصف ذاتها أي ذات تلك النفوس الإنسانية، إذ ليس لها حقيقة وهوية سوىٰ ذلك الوصف الملقىٰ فيه.

فالإنسان بحقيقته مثال له تعالىٰ، الذي يعرف نفسه فيه، وهو ذو شؤون في الانسان، فبجميع شؤونها مثال له تعالىٰ به المعرفة والتجلي الإلهي إلّا أن هذا له مراتب وأعلاها وأرفعها يكون في محمد وآله صلى‌الله‌عليه‌وآله.

فهم حينئذ المثل الأعلىٰ أي الوصف الإلهي الظاهر في الخلق؛ لتعرفه تعالىٰ بالوجه الأتم الأكمل إنما هو ذواتهم المقدسة فأفهم تعرف إن شاء الله.

ومما ذكرنا من الوجوه الخمسة يعلم وجه كونهم أعلىٰ المثل (محركة) ولا أعلىٰ منهم في المثل له تعالىٰ، ومع ذلك نزيد له توضيحاً.

فنقول: إن الأمثال له تعالىٰ كثيرة في الخلق كما علمت، كما قال تعالىٰ في حقّ عيسىٰ (علىٰ نبينا وآله وعليه السلام): ﴿**ولما ضُرب ابن مريمَ مثلاً إذا قومك منه يصدون * وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلّا جدلاً بل هم قوم خَصِمون ***

إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾[١].

فعن الكافي، عن أبي بصير قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالس إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: «إن فيك شبهاً من عيسىٰ بن مريم، لولا أن تقول فيك طوائف من أُمتي ما قالت النصارىٰ في عيسىٰ بن مريم، لقلت فيك قولاً لا تمرّ بملإ من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة، قال: فغضب الاعرابيان والمغيرة بن شعبة وغيره من قريش معهم.

فقالوا: ما رضي أن يضرب لابن عمه مثلاً إلّا عيسىٰ بن مريم، فأنزل علىٰ نبيه ﷺ: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً..﴾** إلىٰ قوله: **﴿لجعلنا منكم﴾** يعني من بني هاشم **﴿ملائكة في الأرض يخلفون﴾** الخ، فلما سمعوا ذلك قال المنافقون: إنما ذكر ذلك وشبهه بعيسىٰ بن مريم لأنه يريد أن نعبده كما عبد النصارىٰ عيسىٰ عليه السلام».

وبهذا المعنىٰ قال أئمة المنافقين: إنما نصّ ﷺ عليه عليه السلام ليتولىٰ علينا، فنحن أولىٰ منه، فقوله تعالىٰ حكاية عنهم: **﴿ءآلهتنا خير أم هو﴾** أراد سبحانه الحكاية عن أئمة المنافقين يقولون: ءآلهتنا أولىٰ بالاتباع والعبادة خير، أم هو أي أم ولاية علي عليه السلام وطاعته.

وقال الله تعالىٰ حينئذ لنبيّه: ما ضربوه أي هذا المثل إلّا جدلاً يعني حين ضربنا هم المثل الحقّ بأن جعلنا لهم عيسىٰ فيهم مثلاً لولينا في سائر خلقنا، ضربوا في معارضتك يا محمد المثل الباطل جدلاً منهم ليدحضوا به الحقّ فقالوا: ءآلهتنا خير أم هو. أي ما يريد محمد بقوله في علي.

واعلم أن الفرق بين المثل والجدل كما عن بعضهم: أن المثل دليل الحقّ وأن الجدل دليل الباطل، فعبّر تعالىٰ عن دليلهم الباطل بالجدل، كما عبّر عن دليل الحقّ له تعالىٰ بالمثل فتدبر.

وكيف كان فمن هذه الآية والحديث، يعلم أن المثل يطلق في الخلق علىٰ غيرهم

---

١ ـ الزخرف: ٥٧ ـ ٥٩.

كعيسىٰ ونحوه، وهو كثير في القرآن والأخبار، ولكنه سبحانه ما خلق شيئاً إلّا وهو مثل لشيء، وله أيضاً مثل حتىٰ أن الدنيا الدنية ضرب الله لها مثلاً فقال: ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض**﴾[١].

إلّا أن الأمثال تتفاوت في الدرجات كما علمت حتىٰ تنتهي إلىٰ أعلىٰ الدرجات إمكاناً وهي محمد وآله الطاهرون، فهم المثل الأعلىٰ وليس فوقهم مثل.

نعم في الأشياء مثلهم ومثل لهم بالنسبة الىٰ بعض شؤونهم، وأما هم بذواتهم المقدسة المثل الأعلىٰ له تعالىٰ.

وعن المجمع: يا علي إنما مثلك في هذه الأمّة كمثل عيسىٰ بن مريم.

وعن العيون، عنه عليه السلام عن أبيه، عن آبائه، عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي أنت حجة الله، وأنت باب الله، وأنت الطريق إلىٰ الله، وأنت النبأ العظيم، وأنت الصراط المستقيم، وأنت المثل الأعلىٰ. فهم عليهم السلام المثل الأعلىٰ والحجة الكبرىٰ.

ثم إن المقصود من كونهم المثل الأعلىٰ أن لله تعالىٰ معرفة وعرفاناً لا يمكن الوصول إليه إلّا بالمثل، ولا مثل له تعالىٰ إلّا ذواتهم المقدسة؛ وذلك أنّ المعاني قد تكون غامضة في الدقة والخفاء وفي العقل، بحيث يحتاج في بيانه إلى المثال لتقريبه إلى الذهن، كما علمت سابقاً فيبين ذلك بالمثال.

ومن المعلوم أن معرفته تعالىٰ من أغمض الأُمور خفاء، فهو وإن ضرب له تعالى الأمثال في الخلق. كلّ يبين شأناً من شأنه إلّا أن المثل الأعلى الذي يبين معرفته هو منحصر فيهم عليهم السلام.

وقد فسرناه بالوجوه الخمسة المتقدمة فبها يعرف الله تعالىٰ، فهم عليهم السلام مثله الأعلىٰ في جميع الأُمور الباطنة من المعارف، والظاهرة من القدرة والأفعال وساير شؤونه الظاهرة، فهم عليهم السلام في جميع تلك الأُمور أمثاله العليا (صلوات الله عليهم

---

١ ـ يونس: ٢٤.

أجمعين) بحيث بهم يعرف ويعلم ويبين شؤونه تعالىٰ.

وقد علمت أن لهم في القرآن الأمثال العليا في قوله تعالىٰ: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ كما تقدم وهي تدل علىٰ حسن شأنهم وعظم حالهم عنده تعالىٰ وقرب منزلتهم لديه، رزقنا الله تعالىٰ معرفتهم والكون معهم في الدارين بمحمد وآله.

فإن حقيقة أرواحهم لا يكاد يصل إلىٰ معرفتها إلّا من سبقت له من الله الحسنىٰ وكان من شيعتهم المخلصين، والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: والدعوة الحسنىٰ.

أقول: الدعاء جاء في اللغة علىٰ معان:

منها: النداء المتعدي إلىٰ مفعول واحد.

ومنها: التسمية التي تتعدى الىٰ مفعولين.

ومنها: السؤال.

ومنها: العبادة، وبجميع هذه المعاني جاء في التنزيل.

فالأول: قوله تعالىٰ: **﴿أُجيب دعوة الداع إذا دعان﴾**[١].

والثاني: قوله تعالىٰ: **﴿قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن﴾**[٢].

والثالث: قوله تعالىٰ: **﴿وادعوا شهداءكم﴾**[٣].

والرابع: قوله تعالىٰ: **﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾**[٤].

وله مصاديق أُخر مذكورة في محله، هذا إذا كان ثلاثياً، وسيجيء في شرح قوله عليه السلام: «الأئمة الدعاة» حيث إنها جمع داعي بيان معناه.

---

١ ـ البقرة : ١٨٦.

٢ ـ الإسراء : ١١٠.

٣ ـ البقرة : ٢٣.

٤ ـ الفرقان : ٧٧.

وأما إذا عدي بباب الأفعال فيقال: ادعيت الشيء أي طلبته لنفسي، ومنه الدعوة في الطعام اسم من دعوت الناس إذا طلبتهم ليأكلوا عندك، والاسم الدعوىٰ، ودعوىٰ فلان كذا أي قوله كذا.

ومنه قوله عليه السلام: والدعوة الحسنىٰ أي يدعون الناس إلىٰ مقاصد الحق، وهي قولهم عليهم السلام أيضاً والتوصيف بالحسنىٰ أي أنها حسنة بذاتها وبالنسبة إلىٰ ساير الدعاوي.

هذا وأن الدعوى الحسنىٰ يراد بها في المقام وجوه.

الأول: أن المراد بها أي الدعوة الولاية فإنها هي المقصود من بعثة الأنبياء حتىٰ النبيّ الأكرم.

فعن أُصول الكافي بإسناده عن الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أوحى الله إلىٰ نبيه صلى الله عليه وآله: فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنك علىٰ صراط مستقيم، قال: إنك علىٰ ولاية علي وعلي هو الصراط المستقيم».

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن أبي حمزة قال: سألت أبا جعفر عن قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿**ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله**﴾ إلىٰ أن قال: وقال أبو جعفر عليه السلام: إن علياً آية لمحمد وإن محمداً يدعو إلىٰ ولاية علي»، الحديث.

فعن ابن شهر آشوب في مناقبه عن الرضا عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿**كبر علىٰ المشركين ما تدعوهم إليه**﴾ قال: يعني كبر علىٰ المشركين بولاية علي عليه السلام ما تدعوهم إليه من ولايته عليه السلام.

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث الله نبياً قط إلّا بها»، ونحوه كثير وقد تقدم.

فحينئذ معناها أنكم أهل الولاية التي هي الدعوى المقصودة في بعثة كلّ نبي وهي الولاية الحسنة التي لا شيء أحسن منها.

والثاني: أن المراد بالدعوة الحسنىٰ دعوة إبراهيم عليه السلام وهذه أُشير إليها في

الآيات على انحاء، منها: قوله تعالى: ﴿ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾[١].

فعن تفسير علي بن إبراهيم وقال: قال علي بن إبراهيم ﵀ في قوله عزوجل: ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾ قال: هو أمير المؤمنين ؑ.

وفي تفسير البرهان، ابن بابويه بإسناده عن المفضل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمد ؑ قال: سألته عن قول الله عزوجل: ﴿**وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن**﴾ إلىٰ أن قال: ثم الحكم والانتهاء إلى الصالحين في قوله ﴿**ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين**﴾ يعني بالصالحين الذين لا يحكمون إلّا بحكم الله عزوجل، ولا يحكمون بالآراء والمقاييس حتىٰ يشهد له من يكون من بعده من الحجج بالصدق.

بيان ذلك في قوله: ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾ أراد في هذه الأمة الفاضلة، فأجابه الله وجعل له ولغيره من الأنبياء لسان صدق في الآخرين، وهو علي بن أبي طالب ؑ وذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وجعلنا لهم لسان صدق عليا**﴾، الحديث.

فدعوة إبراهيم ؑ هو أن يجعل الله تعالىٰ له لسان صدق في الآخرين أي الأُمم الآتية، وهذه الأُمة الفاضلة فأجاب الله تعالىٰ دعوته في علي بن أبي طالب ؑ فهو دعوة إبراهيم ؑ.

ثم إنه ؑ أشهد علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿**وجعلنا لهم لسان صدق عليا**﴾.

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿**وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون**﴾[٢].

فعن الاحتجاج للطبرسي ﵀ عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه في خطبة الغدير: «معاشر الناس القرآن يعرّفكم أن الأئمة من بعده ولده (أقول أي من بعد علي ؑ) وعرفتكم أنه مني وأنا منه حيث يقول الله عزوجل: ﴿**كلمة باقية في**

---

١ ـ الشعراء: ٨٤.

٢ ـ الزخرف: ٢٨.

عقبه﴾ وقلت: لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما».

وعن كتاب إكمال الدين وإتمام النعمة ومعاني الأخبار وعلل الشرايع والمناقب لابن شهر آشوب ما يقرب معنى مع الآخر واللفظ للمناقب، الأعرج، عن أبي هريرة قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: **﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾** قال: «جعل الإمامة في عقب الحسين يخرج من صلبه تسعة من الأئمة منهم مهدي هذه الأُمة».

فالمعنىٰ وجعلها أي جعلها إبراهيم عليه السلام في دعوته كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون، والكلمة الباقية في عقبه هم الأئمة عليهم السلام كما بينه النبي ﷺ حيث قال: معاشر الناس القرآن يعرّفكم أن الأئمة من بعده ولده.

والحاصل: أن إبراهيم عليه السلام بعد ما تبرّأ مما كانوا يعبدون جعل في دعوته كلمة باقية، لعل المشركين يرجعون إلىٰ قبول دعوة الحقّ، فالأئمة المراد بهم من الكلمة الباقية هم دعوة إبراهيم عليه السلام.

ومنها: قوله تعالىٰ: **﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمَةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويُعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾**[1].

فعن تفسير نور الثقلين، عن تفسير العياشي، عن أبي عمر الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أخبرني عن أمة محمد ﷺ من هم؟ قال: أمة محمد بنو هاشم خاصة، قلت: فما الحجة في أمة محمد إنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله: **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾**.

---

١ ـ البقرة: ١٢٨ و١٢٩.

فلما أجاب الله إبراهيم وإسمعيل، وجعل من ذريتهما امة مسلمة، وبعث فيها رسولاً منها (يعني من تلك الأُمة) يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وردف إبراهيم وإسمعيل دعوته الأُولىٰ بدعوته الأُخرىٰ، فسأل تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصح أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم فقال: **﴿.. واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمَن تبعني فإنَّه مني ومَن عصاني فإنّك غفور رحيم﴾**.

فهذه دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأُمة المسلمة التي بعث فيها محمد ﷺ إلّا من ذرية إبراهيم لقوله: **﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾**.

وفيه، عن تفسير العياشي وأما قوله: **﴿وابعث فيهم رسولاً منهم﴾** فإنه يعني ولد إسمعيل عليه السلام فلذلك قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

فعلم من قوله: فهذه دلالة.. الخ، أن الأئمة عليهم السلام من ذرية إبراهيم، وهم الأُمة المسلمة له تعالىٰ حيث دعا الله، وسأله أن يجعل من ذريته أُمة مسلمة، والمراد بها الأئمة عليهم السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام كما قاله عليه السلام: ومنهم الرسول الموصوف بكذا وكذا، وكما صرح به النبي ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام»، فهم عليهم السلام والنبي ﷺ دعوة إبراهيم كما لا يخفىٰ.

الثالث: أنهم عليهم السلام أهل الدعوه الحسنىٰ لجميع الموجودات إلى الله تعالىٰ علىٰ حذف المضاف، فإن الاعتبار يساعد على أن يراد من الدعوة الحسنىٰ أهلها كما لا يخفىٰ، خصوصاً إذا كانت معطوفاً علىٰ المسلم عليهم في الجمل السابقة، فإن السلام إنما يحسن علىٰ أهل الدعوه لا علىٰ نفس الدعوة إلّا بالحذف والإضمار كما لا يخفىٰ.

ويشير إلىٰ هذا ما في بصائر الدرجات بإسناده عن عبدالله بن أبي يعفور قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: يابن أبي يعفور، إن الله تبارك وتعالىٰ واحد متوحد بالوحدانية متفرد بأمره، فخلق خلقاً ففردهم (فقدرهم نسخة) لذلك الأمر، فنحن هم، فنحن حجج الله في عباده، وشهداؤه في خلقه، وأُمناؤه وخزانه علىٰ علمه، والداعون إلىٰ

سبيله، والقائمون بذلك، فمن أطاعنا فقد أطاع الله.

وفي البحار، عن الاختصاص بإسناده عن ابن سنان عن المفضل بن عمر قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالىٰ توحّد بملكه، فعرّف عباده نفسه، ثم فوض إليهم أمره وأباح لهم جنته. فمن أراد الله أن يطهر قلبه من الجن والانس عرّفه ولايتنا. ومن أراد أن يطمس علىٰ قلبه أمسك عنه معرفتنا.

ثم قال: يا مفضل والله ما استوجب آدم أن يخلقه الله بيده وينفخ فيه من روحه إلّا بولاية علي عليه السلام وما كلم الله موسىٰ تكليماً إلّا بولاية علي عليه السلام ولا أقام الله عيسىٰ ابن مريم آية للعالمين إلّا بالخضوع لعلي عليه السلام.

ثم قال: أجمل الأمر، ما استأهل خلق من الله النظر إليه إلّا بالعبودية لنا».

وفي البحار، عن العلل بإسناده عن محمد بن سنان عن المفضل قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «يا مفضل أما علمت أن الله تبارك وتعالىٰ بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وهو روح إلىٰ الأنبياء عليهم السلام وهم أرواح قبل خلق الخلق بألفي عام؟ قلت: بلىٰ، قال: أما علمت أنه دعاهم إلىٰ توحيد الله وطاعته واتباع أمره، ووعدهم الجنة علىٰ ذلك، وأوعد من خالف ما أجابوا إليه وأنكره النار؟ فقلت: بلىٰ، الخبر.

فعلم من هذه الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أهل الدعوة الحسنىٰ، أي دعوا الخلق وجميع الموجودات إلىٰ طاعة الله وتوحيده، فهم الداعون إلىٰ سبيله، ومَن أجابهم في هذه الدعوة كان في الجنة وإلّا ففي النار، بل يستفاد هذا من الأحاديث الواردة في أن ولايتهم عرضت علىٰ جميع الموجودات.

فإن معناه أنه لابد للخلق من قبول ولايتهم والايتمار بأوامرهم وإجابة دعوتهم، وأنهم سفراء الله ورؤساء الخلائق كما لا يخفىٰ.

ففي بصائر الدرجات بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: جعلت فداك، إن الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية ﴿عمّ يتساءلون * عن النبإ العظيم﴾ قال: فقال: «ذلك إليّ إن شئت أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم، قال:

فقال: لكن أخبرك بتفسيرها، قال: فقلت: عمّ يتساءلون؟ قال: فقال: هي أمير المؤمنين عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما لله آية أكبر مني، ولا لله من نبإ عظيم أعظم مني، ولقد عرضت ولايتي علىٰ الأُمم الماضية فأبت أن تقبلها، قال: قلت له: قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون؟ قال: هو والله أمير المؤمنين».

وفيه بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله عرض ولايتنا علىٰ أهل الأمصار فلم يقبلها إلّا أهل الكوفة».

وفيه بإسناده عن عقبة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله خلق الخلق فخلق من أحب وكان ما أحب أن يخلقه من طينة الجنة، وخلق مما أبغض وكان ما أبغض أن يخلقه من طينة النار، ثم بعثهم في الظلال، قال: قلت: أي شيء الظلال؟ قال: ألم تر الظلّ في الشمس شيئاً وليس بشيء، ثم بعث فيهم النبيين يدعونهم إلى الإقرار بالله وهو قوله: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله..**﴾، ثم دعاهم إلى الاقرار بالنبيين فأقر بعضهم وأنكر بعضهم، ثم دعاهم إلىٰ ولايتنا فأقروا الله بها من أحب وأنكرها من أبغض وهو قوله: ﴿**فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل**﴾. ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «كان التكذيب ثمّة»».

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام دعوا الناس في جميع مراتب الوجود، الخلق إلىٰ توحيده في كل عالم بحسبه، والخلق أيضاً مختلفون في القبول والإجابة كما صرحت في الأخبار.

فالملائكة والناس وساير الموجودات السماوية والأرضية، كل منها علىٰ قسمين في القبول وعدمه، وفي سرعة القبول وبطئه كما لا يخفىٰ. فمعنىٰ هم الدعوة الحسنىٰ هم أهل الدعوة إلى التوحيد والدين والرسالة والولاية.

الرابع: أنهم عليهم السلام دعوة الله التي دعا الناس بها الىٰ طاعته ورضاه ومحبته وبعبارة أُخرىٰ: أنه تعالىٰ استعبد الخلق الىٰ عبادة نفسه تعالىٰ بهم عليهم السلام فهم الدعوة الإلهية التي بها يعبد الله تعالىٰ وذلك بوجهين:

الوجه الأول: أنه تعالىٰ جعلهم سبيله وطريقه الموصل الىٰ رضاه ومحبته، فهم ذلك السبيل والطريق اليه تعالىٰ بجعل الله تعالىٰ ذلك، ومن الضرورة أن هذا يستلزم قطعاً كونهم عليهم السلام أول من سلك إلىٰ رضاه تعالىٰ بما منحهم الله تعالىٰ، فبسلوكهم تحقق السبيل والطريق اليه تعالىٰ، فاستعبد الخلق إلىٰ سلوكهم، ويدل عليه عدة من الروايات.

في البحار[1]، عن معاني الأخبار بإسناده عن المفضل قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الصراط فقال: هو الطريق إلىٰ معرفة الله عزوجل وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة.

فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفروض الطاعة، مَن عرفه في الدنيا واقتدىٰ بهداه مرّ علىٰ الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردىٰ في نار جهنم.

وفيه، عنه بإسناده عن حماد بن عيسىٰ عن ابن عبدالله عليه السلام في قوله الله عزوجل: ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ قال: هو أمير المؤمنين ومعرفته، والدليل علىٰ أنه أمير المؤمنين عليه السلام قوله عزوجل: ﴿وإنه في أُمّ الكتاب لعليّ حكيم﴾ وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أُمّ الكتاب في قوله: ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾.

وفيه، عنه بإسناده عن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: ليس بين الله وبين حجته حجاب، فلا لله دون حجته ستر نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علمه. ونحن تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده ونحن موضع سرّه.

وفيه، عنه بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية في قول الله عزوجل: ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم﴾ قال: فقال عليه السلام أتدري ما سبيل الله؟ قال: قلت: لا والله إلّا أن أسمعه منك، قال: سبيل الله هو علي عليه السلام وذريته، من قتل في ولايته قتل في سبيل الله، ومَن مات في ولايته مات في سبيل الله.

---

١ ـ البحار ج ٢٤ ص ١١ ـ ١٤.

وفيه، عنه بإسناده عن حنان بن سدير، عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قول الله عزوجل في الحمد: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يعني محمداً وذريته صلوات الله عليهم.

وفيه، عن تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

قال: نحن السبيل فمن أبىٰ فهذه السبل ثم قال: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يعني كي تتقوا.

وفيه، عنه أيضاً بإسناده عن علي بن رئاب: قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام نحن والله السبيل الذي أمركم الله باتباعه، ونحن والله الصراط المستقيم، ونحن والله الذين أمر الله العباد بطاعتهم، فمن شاء فليأخذ من هنا ومن شاء فليأخذ من هناك، لا يجدون والله عنا محيصاً.

أقول: هذا الحديث نقلته عن هامش البحار فإنه أصح متناً مما في المتن كما لا يخفىٰ.

وهذه جملة من الأحاديث ومثلها كثير في هذا الباب كما لا يخفىٰ، فدلت هذه علىٰ أنهم هم السبيل الذي أمرنا باتباعه دون غيره.

فهم عليهم السلام حينئذ دعوة الله التي دعا الله العباد بها إلىٰ طاعته واتباعه، ومن لم يتبعهم فقد تفرق عن السبل وضل عن الطريق.

وإليه يشير ما فيه عن تفسير القمي، ﴿وإنك لتدعوهم إلىٰ صراط مستقيم﴾ قال إلىٰ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ قال: عن الامام لحادون.

وإليه الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾[1] وقوله تعالىٰ: ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا

---

١ ـ الفرقان: ١٧ ـ ١٨.

فأضلونا السبيلا﴾(١).

والحاصل: أنه تعالىٰ دعا الخلق بهم عليهم السلام إلىٰ عبادته، ويلزم هذا كونهم أول من أجاب إليه تعالىٰ، فبإجابتهم إليه تعالىٰ جعلوا السبيل والطريق إليه تعالىٰ، فأولاً أنه تعالىٰ دعاهم إلىٰ سبيله فصاروا بذلك سبيله، ثم دعا عباده بهم عليهم السلام إلىٰ سبيله أي إلىٰ ما فيه نجاتهم السرمدية وسعادتهم الأبدية، فبهم عليهم السلام وبتوسطهم تمت الدعوة وائتلفت الفرقة حيث إنهم عليهم السلام ألسن الله التي دعت إليه تعالىٰ، فالله تعالىٰ دعا عباده إليه بألسنتهم، فهم ألسن الله كما تقدمت الاشارة إليه، فالخلق بنورهم أبصروا الطريق.

بل علمت أن شيعتهم حيث إنهم خلقوا من فاضل طينتهم، فلا محالة إنما كانت فيهم القوة علىٰ الاطاعة ونور البصيرة فيهم للإجابة، وتقوية عقولهم ومشاعرهم علىٰ الادراك بسببهم عليهم السلام فهم عليهم السلام أعطوا لهم هذه الأُمور الموجبة لترقياتهم في الكمالات، بل وتحملوا مضافاً إلىٰ ذلك عن محبيهم عوائق الموبقات، بأن دعوا الله لأن يغفر لهم أو تحمّلوا المصاب لكي يدفع الله عنهم الموبقات بما لها من العوائق السيّئة، فبذلك كلّه وصلوا إلىٰ أعلىٰ الدرجات.

فكلّ من وصل إلىٰ درجة إنما هي بهم وبمتابعتهم في العقائد والصفات والأفعال كما لا يخفىٰ، رزقنا الله ذلك بمحمد وآله الطاهرين.

الوجه الثاني: أنهم الكلمات التامات والأسماء الحسنىٰ، التي أمر الله تعالىٰ عباده أن يدعوه بها، أي أنه تعالىٰ دعا الخلق إلىٰ نفسه بهم حيث إنهم أسماؤه الحسنىٰ، فالدعوة بهم عليهم السلام عنده تعالىٰ هي الدعوة الحسنىٰ، أي الدعوة الحاصلة لأحد عند الله تعالىٰ إنما هي تتحقق بهم عليهم السلام لا بغيرهم، وإليه يشير عدة من الروايات.

في البحار عن الإكمال بإسناده عن المفضل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزوجل: **﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربّه بكلمات**

---

١ ـ الأحزاب: ٦٧.

فأتمهن﴾ ما هذه الكلمات؟

قال: «هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه فتاب عليه وهو أنه قال: أسألك بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ، فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم، قلت له: يابن رسول الله فما يعني عزوجل بقوله: فأتمهن؟ قال: يعني بأتمهن الىٰ القائم. إثنا عشر إماماً تسعة من ولد الحسين عليه السلام إلىٰ يوم القيامة.

قال: فقلت له: يابن رسول الله فكيف صارت في ولد الحسين عليه السلام دون ولد الحسن عليه السلام وهما جميعاً ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة؟ فقال عليه السلام: إن موسىٰ وهارون كانا نبيين رسولين أخوين فجعل الله النبوة في صلب هارون دون موسىٰ ولم يكن لأحد أن يقول: لِمَ جعل الله ذلك؟ وكذلك الامامة خلافة الله في أرضه، ولم يكن لأحد أن يقول: لِمَ جعلها الله في صلب الحسين دون الحسن؟ لأن الله عزوجل هو الحكيم في أفعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون».

وفيه، عن مناقب آل أبي طالب بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالىٰ ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ قال: «ولايتنا أهل البيت، وأهوىٰ بيده إلىٰ صدره فمن لم يتولنا لم يرفع الله له عملاً».

وفيه عن التوحيد، عن الرضا عليه السلام في حديث له عليه السلام وفيه: «نحن كلمة التقوىٰ والعروة الوثقىٰ».

وفيه عن كنز الفوائد بإسناده عن أبي برزة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول «إن الله عهد إليّ في علي عهداً، فقلت: اللهم بين لي، فقال: إسمع، فقلت: اللهم قد سمعت، فقال الله عزوجل: أخبر علياً بأنه أمير المؤمنين وسيد المسلمين وأولى الناس بالناس، والكلمة التي ألزمتها المتقين».

فعلم منها: أن الكلمات التامات والتي ألزمها الله تعالىٰ للمتقين هم الخمسة النجباء إلىٰ قائمهم (عج) بدليل الاشتراك كما لا يخفىٰ.

وعن الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله

عزوجل: ﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها﴾ قال: «نحن الأسماء الحسنىٰ التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا»، فدّلت علىٰ أن الدعوة عنده تعالىٰ هي الدعوة التي كانت بهم وبأسمائهم عليهم السلام وهي معرفتهم التي هو شرط لقبول الأعمال كما تقدم مراراً.

الخامس: من معاني كونهم الدعوة الحسنىٰ أنه يستفاد من أحاديث الطينة والسعادة والشقاوة أن الناس علىٰ قسمين في قبول الحق وعدمه.

ففي الكافي بإسناده مرفوعاً عن أبي بصير، قال: كنت بين يدي أبي عبدالله عليه السلام جالساً وقد سأله سائل فقال: جعلت فداك يابن رسول الله، من أين لحق الشقاء أهل المعصية حتىٰ حكم الله لهم في علمه بالعذاب علىٰ عملهم؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: «أيها السائل حكم الله عزوجل لا يقوم له أحد من خلقه بحقه، فلما حكم بذلك وهب لأهل محبته القوة علىٰ معرفته، ووضع عنهم ثقل العمل بحقيقة ما هم عليه، ووهب لأهل المعصية القوّة علىٰ معصيتهم لسبق علمه فيهم، ومنعهم إطاقة القبول منه، فوافقوا ما سبق لهم في علمه، ولم يقدروا أن يأتوا حالاً تنجيهم من عذابه؛ لأن علمه أولىٰ بحقيقة التصديق وهو معنىٰ شاء ما شاء وهو سرّه».

قال المجلسي رحمه الله في شرح هذا الحديث: هو في غاية الصعوبة والاشكال، وتطبيقه علىٰ مذهب العدلية يحتاج إلىٰ تكلفات كثيرة.

أقول: إنما إشكاله وصعوبته هي شبهة الجبر بالنسبة إلىٰ أهل المعصية مع منعهم تعالىٰ إطاقة القبول منه. ولكن الظاهر أنه لا إشكال فضلاً عن الصعوبة فيه.

بيانه: أنه تعالىٰ لما علم من قوم أنهم يطيعونه بحسن اختيارهم سهل عليهم الطاعة، وهو معنىٰ قوله عليه السلام: «ووضع عنهم ثقل العمل بحقيقة ما هم عليه» أي بحقيقة اختيارهم الطاعة، وعلم من قوم أن وكّلوا إلىٰ اختيارهم أن يعصوه بسوء اختيارهم، فمنعهم إطاقة القبول منه جزاءً لسوء اختيارهم.

فقوله في أهل المعصية: لسبق علمه فيهم، أي لسبق علمه بأنهم يختارون

المعصية لسوء اختيارهم.

ومعنىٰ منعهم القبول منه أنه تعالىٰ يخذلهم ويكلهم إلىٰ أنفسهم فهو نظير قوله تعالىٰ: **﴿طبع الله علىٰ قلوبهم﴾**[١] وقوله: **﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾**[٢].

ومن المعلوم أن الخلق إذا وكّلوا إلىٰ أنفسهم لفقرهم الذاتي، فلا يتمكنون أن يعملوا ما فيه نجاتهم، وهو معنىٰ قوله ﷺ: «ولم يقدروا أن يأتوا حالاً تنجيهم من عذابه، وذلك لعجزهم الذاتي في ظرف كونهم مخذولين».

فعلم أن عدم إطاقة قبول أهل المعصية منه تعالىٰ إنما هو لأجل خذلانهم، الذي هو جزاء لسوء اختيارهم المعصية، فعذابهم مستند إلىٰ سوء اختيارهم لا إليه تعالىٰ فقط.

ثم إن الصدوق ﷺ ذكر هذا الحديث في التوحيد بتغيير يوجب رفع الإشكال فراجع التوحيد ومرآة العقول[٣]، وهو منه ﷺ عجيب، والعلم عند الله تعالىٰ.

وكيف كان فالأخبار الكثيرة دلّت علىٰ أن الناس علىٰ قسمين في قبول الحق وعدمه، فنقول: المؤمنون هم الذين جعلهم الله أهل الحق بقبولهم الحق منه تعالىٰ وهي دعوته الحسنىٰ، وأهل المعصية هم الذين جعلهم الله أهل الباطل؛ لعدم قبولهم الحق منه تعالىٰ، وهي دعوتهم السوأى فسبق للمؤمنين خير ما سبق في الكتاب بالمعرفة والقبول وهو قوله تعالىٰ (والله العالم): **﴿إلّا الذين سبقت لهم من الله الحسنىٰ﴾** وسبق للمنافقين شر ما سبق في الكتاب بجحودهم وعدم القبول.

وحينئذ نقول: جعل القبول وحقيقة الطاعة في المؤمنين إنما هو بهم عليهم السلام وهم حملة ذلك بل هم عليهم السلام نفس ذلك الجعل والايمان الموجود فيهم، والطاعة القائمة بالخلق إنما هي شعبة منهم عليهم السلام ظهرت في الخلق كما سيأتي شرحه، وهذا ولكنّ

---

١ ـ النحل: ١٠٨، محمد: ١٦.

٢ ـ النساء: ١٥٥.

٣ ـ مرآة العقول ج ٢ ص ١٦٧.

أعداءهم جعلت لهم الدعوة السوأى وهم علة ذلك، بل هم نفس ذلك الجعل والكفر الموجود في الخلق والمعصية القائمة بأهل المعصية إنما هي من شعبة من أعدائهم؛ وذلك أن حقيقة الأئمة هي النور وحقيقة أعدائهم هي الظلمه، ولكلّ منهما شعب في شيعتهم، فكلّ من الأئمة عليهم السلام والأعداء لهم مظاهر في تابعيهم.

ولعله إليهما يشير قوله تعالىٰ: **﴿وكلمة الله هي العليا﴾** وقوله: **﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلىٰ﴾**.

فتحصل أن الدعوة قسمان: الحسنىٰ العليا والسوأى السفلىٰ، وحينئذ قوله عليه السلام: «والدعوة الحسنىٰ» أي أنتم تلك الدعوة الحسنىٰ المشار إليها كما أن أعداءكم الدعوة السوأى، جعلنا الله من أهل دعوتهم الحسنىٰ بمحمد وآله الطاهرين.

السادس: أنه تعالىٰ دعا الخلق إلىٰ طاعته، والمدعو إليه الذي به يتحقق الطاعة أُمور عديدة كلها حسنة وموصلة إليه، إلّا أن أعلاها وأحسنها ما دعاهم إلىٰ حبهم عليهم السلام وولايتهم والتسليم لهم والرد إليهم والتوكل علىٰ الله وعلىٰ ولايتهم.

وإلىٰ هذا يشير ما في الوافي بإسناده عن سدير، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إني تركت مواليك مختلفين يتبرأ بعضهم من بعض!! قال: فقال «وما أنت وذاك إنما كلف الناس ثلاثة: معرفة الأئمة والتسليم لهم فيما ورد عليهم والرد إليهم فيما اختلفوا فيه»[1].

فعلم: أن المهم في نظر الشرع والتكاليف هو ما أُشير إليه في الحديث، وأن أهل الدعوة أي الشيعة هم الذين غفر الله لهم بقبولهم الولاية.

ففي البحار، عن كنز جامع الفوائد، روىٰ شيخ الطائفة رحمه الله بإسناده عن زيد بن يونس الشحام، قال: قلت لأبي الحسن موسىٰ عليه السلام: الرجل من مواليكم عاص (عاق) يشرب الخمر ويرتكب الموبق من الذنب نتبرأ منه؟ فقال: «تبرءوا من فعله

---

١ ـ الوافي ج ١ ص ٢٦، باب التسليم وفضل المسلّمين.

ولا تتبروا من خيره وابغضوا عمله، فقلت: يسع لنا أن نقول: فاسق فاجر؟ فقال: لا، الفاسق الفاجر الكافر الجاحد لنا ولأوليائنا، أبىٰ الله أن يكون ولينا فاسقاً فاجراً، وإن عمل ما عمل، ولكنكم قولوا: فاسق العمل فاجر العمل، مؤمن النفس، خبيث الفعل طيب الروح والبدن.

لا، والله لا يخرج ولينا من الدنيا إلّا الله ورسوله ونحن عنه راضون يحشره الله علىٰ ما فيه من الذنوب، مبيضاً وجهه مستورة عورته، آمنة روعته، ولا خوف عليه ولا حزن، وذلك أنه لا يخرج من الدنيا حتىٰ يصفىٰ من الذنوب إما بمصيبة في مال أو نفس أو ولد أو مرض، وأدنىٰ ما يصنع بولينا أن يريه الله رؤيا مهولة فيصبح حزيناً لما رآه فيكون ذلك كفارة له، أو خوفاً يرد عليه من أهل دولة الباطل، أو يشدد عليه عند الموت فيلقىٰ الله عزوجل طاهراً من الذنوب آمنة روعته بمحمد وأمير المؤمنين (صلىٰ الله عليهما وآلهما).

ثم يكون أمامه أحد الأمرين، رحمة الله الواسعة التي هي أوسع من أهل الأرض جميعاً، أو شفاعة محمد وأمير المؤمنين عليهما السلام فعندها تصيبه رحمة الله الواسعة، التي كان أحق بها وأهلها وله إحسانها وفضلها».

وفيه، عنه مرفوعاً عن أبي عبدالله عليه السلام إلىٰ أن قال عليه السلام: «يا أبا حمزة مَن آمن بنا وصدق حديثنا وانتظرنا كان كمن قتل تحت راية القائم (عج) بل والله تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله».

وفيه، عنه، عن أبي بصير، قال: قال لي الصادق عليه السلام: «يا أبا محمد إن الميت علىٰ هذا الأمر شهيد، قال: قلت: جعلت فداك وإن مات علىٰ فراشه؟ قال: وإن مات علىٰ فراشه فإنه حيّ يرزق».

وفيما نقله ابن طاووس رحمه الله عن الحجة عليه السلام في الدعاء للشيعة حيث قال: «اللهم اغفر لهم من الذنوب فإنهم ما فعلوه إلّا اتكالاً علىٰ حبنا» الدعاء.

وفي كتاب الجواهر السنية في الأحاديث القدسية[١]، للشيخ الحر العاملي (رضوان الله عليه) بإسناده عن طلحة بن زيد، عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أتاني جبرئيل من قبل ربي، فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول: بشّر أخاك علياً بأني لا أُعذب من تولاه ولا أرحم من عاداه».

وفيه[٢] بإسناده عن أبن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله: لو اجتمع الناس كلّهم علىٰ ولاية علي ما خلقت النار».

وفيه[٣] وبهذا الإسناد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله تعالىٰ: «من آمن بي وبنبيي، وتولىٰ علياً أدخلته الجنة علىٰ ما كان من عمل».

ومثله غيره وهو كثير، وعلم من هذه الأحاديث أن حبهم وولايتهم هو أحسن ما دعا الله العباد إليه عنده تعالىٰ، فهم عليهم السلام حينئذ الدعوة الحسنىٰ أي أحسن الدعوات الإلهية بين ما دعا عباده إليه.

السابع: أن من المعلوم بالضرورة أنه تعالىٰ إنما كلّف العباد بتكاليف عديدة؛ لأن يصلوا إلىٰ مقام التوحيد، فليس تكليف إلّا وهو مجعول بهذا الداعي، فالوصول إلىٰ التوحيد مستلزم لجميع الطاعات الشرعية وغاية لها قال الله تعالىٰ **﴿وما خلقت الجن والانس إلّا ليعبدون﴾**[٤]، ومن المعلوم أيضاً أنهم عليهم السلام أعلىٰ وأحسن مصداق للتوحيد من حيث العلم ومن حيث الوصول إليه، حيث إن أفعالهم كلّها مستهلكة في خدمة محبوبهم، وهذا الذي طلبه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «وحالي في خدمتك سرمداً»، فليس لهم التفات إلىٰ شيء سواه تعالىٰ.

فهم عليهم السلام الحائزون لجميع أنواع العبادات والطاعات، بحيث لا يشذ منهم شاذ،

---

١ ـ كتاب الجواهر السنية .. ص٢٢٢.

٢ ـ الجواهر السنية ص٢٣٦.

٣ ـ الجواهر السنية ص٢٦٦.

٤ ـ الذاريات : ٥٦.

وحينئذ نقول: فلما كانوا عليهم السلام كذلك فدعا الله تعالىٰ عباده إلىٰ طاعتهم إذ إن طاعتهم طاعته لمكان فنائهم في توحيده تعالىٰ، وإليه يشير قوله عليه السلام: «من أطاعكم فقد أطاع الله»، وقوله تعالىٰ: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[1] وسيجيء هناك شرحه إن شاء الله.

فكانت دعوته تعالىٰ إلىٰ طاعتهم الدعوة الحسنىٰ؛ لأنها مستلزمة قطعاً لطاعته تعالىٰ، فهي أي الدعوة إلىٰ طاعتهم حسنة لهذه الجهة، وكيف لا يكون كذلك وهم سرّ المعبود وباب الايجاد والوجود، والفيض الساري علىٰ جميع من في الوجود؟! رزقنا الله طاعتهم بمحمد وآله الطاهرين.

قوله عليه السلام: وحجج الله علىٰ أهل الدنيا والآخرة والأُولىٰ.

في المجمع: الحجة ـ بضم الحاء ـ الاسم من الاحتجاج، إلىٰ أن قال: وجمع الحجة حُجج كغرفة وغرف. وقيل: الحجة الكلام المستقيم على الإطلاق، ويراد بها الدليل والبرهان، ثم البرهان قد يكون باللفظ، وقد يكون بالعمل وهو إحداث مثل المستدل عليه في الجهة المدعىٰ ثبوتها، أو إحداث مثاله كذلك، والبرهان العملي أبلغ في إثبات الدعوىٰ لأنه لا يحتمل الخطأ، فإن بالعمل يوجد صفة الدعوىٰ ولا توجد الصفة إلّا بعد ثبوت الموصوف، فمرجع البرهان والحجة العملي إلىٰ إحالة الخصم إلىٰ وجدان المدعىٰ والموصوف بالدعوىٰ بإيجاد مثل المدعىٰ.

ومن المعلوم أن أدل الدلائل في مقام الحجة هو الوجدان وهذا بخلاف البرهان اللفظي فإنه لا يتجاوز إلّا دعاء علىٰ المدعىٰ، ومن المعلوم أيضاً أن الأذواق والأفهام مختلفة لجودة الدرك وعدمها في الأشخاص، فحينئذ لازمه طرّو الاشتباه في الدلالة اللفظية، ولذا يحتاج في قطعية الدلالة اللفظية إلىٰ احتفافه بالقرائن

---

١ ـ النساء: ٨٠.

اللفظية الأُخرىٰ والحالية ونحوها وهذا بخلاف البرهان العملي.

وأما الدنيا فهي مقابل الآخرة سميت بذلك لقربها، فهي مأخوذة من الدنو فإنها أدنىٰ إلينا من الآخرة، ثم إن الدنيا بلحاظ الزمان ليس مطرحاً للكلام، بل المراد منها أهله، ولذا قال عليه السلام: «وحجج الله علىٰ أهل الدنيا»، ثم إن المراد من أهل الدنيا إما الموجودون فيها، وحينئذ يكون المراد من أهل الآخرة بلحاظ العطف العاملون في الدنيا إن خيراً فيجزون خيراً وإن شراً فشر، فهم عليهم السلام حجج الله علىٰ أهل الدنيا والآخرة بأيّ معنىٰ فسّر فهم حجة الله عليهم أما في الدنيا فلبيان الأوامر والنواهي الإلهية وهو ظاهر بالآيات والأحاديث، وأما كونهم حجج الله عليهم في الآخرة فلشهادتهم عليهم السلام علىٰ الناس فيما عملوا وتركوا، وستأتي الإشارة إليه من الأحاديث.

ثم إنه قد يقال: إن المراد من الأُولىٰ في قوله: والآخرة والأولىٰ، التأكيد للدنيا، أو جيء به للسجع، أو هي صفة للحجج فإنهم عليهم السلام أولىٰ حجج الله، أو يقرأ بأفعل التفضيل فإنهم عليهم السلام أكمل حجج الله، كذا نقل عن المجلسي الأول رحمه الله.

وقد يقال: إن المراد من الدنيا الموجودون في الدنيا ومن الأولىٰ الموجودون في عالم الأرواح والذر، فإنهم عليهم السلام كما تقدم وسيأتي أيضاً حجج الله علىٰ الخلق في تلك العوالم السابقة، وعلىٰ أيّ حال هم عليهم السلام الحجج علىٰ الخلق في عالم الوجود مطلقاً ويستفاد هذا من الأحاديث الدالة علىٰ أن أول الخلق الحجة وآخره الحجة، ولعلّه ستجيء الإشارة إليه.

وأما الآخرة فهي ظاهرة في عالم المعاد إلّا أنه يشمل زمان الموت وما بعده؛ لأن القبر أول منزل من منازل الآخرة، ولذا ورد أنه إذا مات ابن آدم قامت قيامته، فيكون المعنىٰ أنهم الحجج علىٰ أهل البرزخ وأهل الآخرة في الحشر والنشر ومواقف القيامة وفي الجنة والنار.

وقد يراد منها زمان الرجعة للأئمة عليهم السلام كما في المحكي عن تفسير العياشي عن

الباقر عليه السلام أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾[1] يعني «لا يؤمنون بالرجعة أنها حقّ».

وفي المحكي عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ومَن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ﴾[2] «يعني لا يؤمنون في الرجعة».

وفي المحكي عن تفسير القمي، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وللآخرة خير لك من الأُولىٰ﴾[3] قال: «يعني الكرّة في الآخرة للنبي صلى الله عليه وآله».

وعن الكافي، عن الصادق عليه السلام قال في قوله تعالىٰ: ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾[4] «ليس له في دولة الحقّ مع القائم (عج) نصيب».

فالآخرة قد استعملت في هذه الأُمور في عرف الشرع، فهم عليهم السلام الحجج على الخلق في زمان الرجعة وقيام القائم (عج) وهذا لا ينافي إطلاق أهل الدنيا علىٰ من في زمان الرجعة؛ لأن الآخرة المستعملة في زمان الرجعة يراد منها معناها اللغوي وهو الزمان المتأخر، فهي بهذا اللحاظ يصح إطلاقها علىٰ زمان الرجعة خصوصاً بلحاظ الحكمة الداعية علىٰ هذا الاستعمال، كما يستفاد من الآيات المذكورة، كما لا يخفىٰ.

ثم إن هنا روايات دلّت علىٰ ما ذكرنا فلابد من ذكرها دليلاً قاطعاً علىٰ ما قال بعض الأعلام.

ففي الكافي بأسانيد عديدة عن الكاظم والرضا عليهما السلام قالا: «إن الحجّة لا تقوم لله علىٰ خلقه إلّا بإمام حتىٰ يعرف».

وعن الصادق عليه السلام قال: «إن الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق».

وأيضاً عن الصادق عليه السلام قال: «ما زالت الأرض إلّا ولله فيها الحجّة يعرف

---

١ ـ الأنعام: ١١٣.
٢ ـ الأسراء: ٧٢.
٣ ـ الضحىٰ: ٤.
٤ ـ الشورىٰ: ٢٠.

الحلال والحرام ويدعو الناس إلىٰ سبيل الله».

وعن أبي بصير، عن أحدهما، قال: «إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل».

وعن الباقر عليه السلام قال: «والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض الله آدم عليه السلام إلّا وفيها إمام يهتدىٰ به إلىٰ الله، وهو حجته علىٰ عباده، ولا تبق الأرض بغير حجّة لله علىٰ عباده»، إنتهىٰ.

وفي الوافي[1] عن الكافي بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الله طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء علىٰ خلقه وحجته في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا لا نفارقه ولا يفارقنا».

وفيه بإسناده عن عبدالله بن القاسم عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «الأوصياء هم أبواب الله تعالىٰ التي يؤتىٰ منها ولولاهم ما عرف الله تعالىٰ، وبهم احتج الله علىٰ خلقه».

وفيه بإسناده عن هشام بن الحكم عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال: «إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجوهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلىٰ خلقه وعباده، ويدلّونهم علىٰ مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم.

فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جلّ وعز، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه وهم حكماء ومؤديون في الحكمة ومبعوثون بها غير مشاركين للناس علىٰ مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم

---

١ ـ الوافي كتاب أبواب خصائص الحجج.

وأفعالهم، ومؤيدون عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين؛ لكي لا تخلو أرض الله من حجّة يكون معه علم يدل علىٰ صدق مقالته وجواز عدالته».

وفي بصائر الدرجات في باب نادر بإسناده عن سعد بن الأصبغ الأزرق قال دخلت مع حصين ورجل آخر علىٰ أبي عبدالله عليه السلام قال: فاستخلىٰ أبو عبدالله برجل فناجاه، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول للرجل: «أفترى الله يمنّ في بلاده ويحتج علىٰ عباده ثم يُخفي عنه شيئاً من أمره؟!».

أقول: المراد ممن لا يُخفي عليه شيئاً هو الحجة كما لا يخفىٰ.

وفيه بإسناده عن المفضل بن عمر الجعفي قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول «فضل أمير المؤمنين ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله أخذ به وما نهىٰ عنه إنتهىٰ عنه، جرىٰ له من الفضل ما جرىٰ لمحمد صلى الله عليه وآله ولمحمد الفضل علىٰ جميع من خلق الله، المتعقب عليه في شيء من أحكامه كالمتعقب علىٰ الله وعلىٰ رسوله، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة علىٰ حد الشرك بالله.

كان أمير المؤمنين باب الله الذي لا يؤتىٰ إلّا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وكذلك جرىٰ علىٰ أئمة الهدىٰ واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، والحجة البالغة علىٰ من فوق الأرض ومن تحت الثرىٰ» الحديث، وقد تقدم بتمامه.

وفي البحار[1]، عن الخصال بإسناده عن العبادي بن عبدالخالق، عمّن حدثه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن لله عزوجل اثني عشر ألف عالم، كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين ما يرىٰ عالم منهم إنّ لله عزوجل عالماً غيرهم وإني الحجة عليهم».

وفيه عن بصائر الدرجات، ابن يزيد عن ابن أبي عمير عن رجاله عن أبي

---

١ ـ البحار ج٢٧ ص٤١.

عبدالله عليه السلام يرفع الحديث إلى الحسن بن علي عليه السلام أن قال: «إن لله مدينتين إحداهما بالمشرق والأُخرىٰ بالمغرب عليهما سوران من حديد، وعلىٰ كلّ مدينة ألف ألف مصراع من ذهب، وفيها سبعون ألف ألف لغة يتكلم كل لغة بخلاف لغة صاحبه، وأنا أعرف جميع اللغات، وما فيهما وما بينهما حجة غيري والحسين أخي».

وفيه عن مختصر الدرجات بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن من وراء شمسكم هذه أربعين عين شمس، ما بين شمس إلىٰ شمس أربعون عاماً، فيها خلق كثير ما يعلمون أن الله خلق آدم أو لم يخلقه، وأن من وراء قمركم هذا أربعين قمراً، ما بين قمر إلىٰ قمر مسيرة أربعين يوماً، فيها خلق كثير ما يعلمون أن الله خلق آدم أو لم يخلقه، قد أُلهموا كما أُلهمت النحل لعنة الأول والثاني في كل وقت من الأوقات، وقد وكل بهم ملائكة متىٰ لم يلعنوهما عذّبوا».

وفيه عن السرائر من جامع البزنطي عن سليمان بن خالد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ما من شيء ولا من آدمي ولا إنسي ولا جنّي ولا ملك في السموات إلّا ونحن الحجج عليهم، وما خلق الله خلقاً إلّا وقد عرض ولايتنا عليه واحتج بنا عليه، فمؤمن بنا وكافر وجاحد حتى السموات والأرض والجبال» الآية.

وفيه عن كتاب المحتضر (تأليف الحسن بن سليمان) مما رواه من الأربعين لسعد الأربلي بإسناده عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن لله عزوجل بالمشرق مدينة اسمها جابلقا لها اثنا عشر ألف باب من ذهب بين كل باب إلىٰ صاحبه فرسخ، علىٰ كل باب برج فيه اثنا عشر ألف مقاتل يهلبون (يهيئون) الخيل، ويشهرون السيف والسلاح ينتظرون قيام قائمنا وإني الحجة عليهم».

وفي الخصال في آخر حديث فيه بإسناده عن جابر بن يزيد، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزوجل: **﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾** فقال: «يا جابر تأويل ذلك: أن الله عزوجل إذا أفنىٰ هذا الخلق وهذا العالم، وأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار جدّد الله عزوجل عالماً غير هذا العالم،

وجدّد عالماً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلهم، لعلّك ترىٰ أن الله عزوجل لم يخلق بشراً غيركم، بل والله لقد خلق الله تبارك وتعالىٰ ألف ألف عالم، وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأُولئك الآدميين».

أقول: هذه جملة من الأحاديث ولها نظائر كثيرة دلت علىٰ كثرة العوالم، وأنهم عليهم السلام الحجة عليهم. والوجه فيه أنه يستفاد من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله طهّرنا وعصمنا»، وقوله عليه السلام: «فجعل القرآن معنا»، وقول الصادق عليه السلام بعد نفي مشاركتهم مع الخلق: «مؤيدون عند الحكيم العليم بالحكمة»، وقوله عليه السلام عن جامع البزنطي: «واحتج بنا عليه»، ومن نظائره في مطاوي أحاديثهم الشريفة في هذه الموضوعات وهي كثيرة جدّاً، أن الله تعالىٰ جهزهم بجهاز الحجية في الخلق، وجعلهم بحيث لا يخفىٰ عليهم شيء من أُمور السماء والأرض، بل مما دون العرش إلىٰ ما تحت الثرىٰ كما نطقت به الأحاديث الكثيرة مضافاً إلى الآيات القرآنية.

فهم عليهم السلام حينئذ أعظم حجج الله في الوجود، حيث إنه تعالىٰ خلقهم وأودع في حقائقهم كلّ كمال ممكن من علم وكرم وحكم وحلم وجزم وحزم، وفهم وعقل وعزم وفضل وفصل، وذكر وفكر وبصر وصبر وزهد، وورع وتقوىٰ ويقين وتسليم ورضا، وشجاعه وسماحة ونباهة ونجابة، واستقامة واقتصاد وغيرها من كمالات الدين والدنيا.

فهم عليهم السلام في جميع مراتب الظهور في عالم الأرواح والأبدان والدنيا والآخرة، وفي ساير عوالم الوجود متصفون بكلّ صفات الكمال الممكن في ذلك العالم وما خلق ما سواهم ومن سواهم من أصناف الخلق من الملائكة والجن والانس وساير الموجودات السماوية والأرضية إلّا وقد أمرهم بطاعتهم.

في المحكي عن كتاب محمد بن شاذان بن نعيم بخطه عن حمران بن أعين، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يحدث عن أبيه وعن آبائه عليهم السلام: «إن رجلاً من شيعة أمير

المؤمنين عليه السلام كان مريضاً شديد الحمىٰ، فعاده الحسين بن علي عليه السلام فلما دخل من باب الدار طارت الحمىٰ عن الرجل، فقال: قد رضيت بما أُوتيتم به حقّاً حقّاً، والحمىٰ لتهرب منكم، فقال له: والله ما خلق الله شيئاً إلّا وقد أمره بالطاعة لنا، يا كبّاسة قال: فإذا نحن نسمع الصوت ولا نرىٰ الشخص يقول: لبيك، قال: أليس أمرك أمير المؤمنين ألّا تقربي إلّا عدواً أو مذنباً؛ لكي يكون كفارة لذنوبه فما بال هذا؟ وكان الرجل المريض عبدالله بن شداد الهادي الليثي»، ورواه ابن شهر آشوب أيضاً.

فعلم منه ومن غيره أن كلّ شيء مأمور بإطاعتهم، وهم الوسيلة في الخلق في كلّ أمر مطلوب وخبر مرغوب، هذا ولا يمكن لأحد من الخلق بأصنافهم ردّ وساطتهم، إذا رجع إلىٰ عقله وفهمه، وإلىٰ ما تعرفه العامة والخاصة من ميزان التشخيص المتداول بينهم، ولا بميزان شرع من الشرايع أو بمقتضىٰ طبع من الطبائع، فكلّ هذه تذعن وتصدق وساطتهم لما ترىٰ الكمال، وميزان تشخيص الحقّ من الباطل فيهم، وهو المراد من قوله عليه السلام: «وأُوتينا فصل الخطاب».

بل نقول: كلّ من قبل الحقّ منهم علم بدركه أنهم عليهم السلام أهل لذلك لا غيرهم وإن كان مخالفاً لهم كما صرحت ألسن التاريخ من إقرار مخالفيهم بفضلهم، كما سيأتي بيانه في شرح قوله عليه السلام: «فبلغ الله بكم أشرف محل المكرمين»، إلىٰ قوله: «إلّا عرفهم جلالة أمركم»، بل وكلّ من لم يقبل منهم، وردّ عليهم عملاً أو بتوهم علم يعلم أنه مقصّر في حقهم، تارك للاستقامة علىٰ ولايتهم، مخالف في ذلك ربّه الجليل، وإن ما لفقه من العلم علىٰ ردّهم إنما هو موهون أوهن من نسج العنكبوت، وأنه متجنب عن الطريق المستقيم.

وليس هذا كلّه إلّا لما قلنا من أنه تعالىٰ عرّف كلّ شيء خلقه من بني آدم، ومن الجان والشياطين والملائكة، وسائر الحيوانات والنباتات والجمادات، والجواهر والاعراض، والذوات والصفات، والأعيان والمعاني، وكلّ شيء ظهر من مشية الله تعالىٰ شرافة مقال آل الرسول وعظم شأنهم وقرب منزلتهم، وأنه ليس بين الخلق

والخالق باب ولا سبيل ولا واسطة إلّا منهم ﷺ.

ويدل علىٰ هذا كلّه مضافاً إلىٰ ما مر من الأحاديث ما في محكي مختصر بصائر سعد بن عبدالله الأشعري للحسن بن سليمان الحلي من الحديث، الذي رواه من كتاب منهج التحقيق بإسناده إلىٰ جابر عن أبي جعفر ﷺ قال: قال: «إن الله تعالىٰ خلق أربعة عشر نوراً من نور عظمته، قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا، فقيل له: يابن رسول الله عدّدهم بإسمائهم مَن هؤلاء الأربعة عشر نوراً؟ فقال: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وتسعة من ذرية الحسين وتاسعهم قائمهم (عليه وعليهم السلام) ثم عدّهم بأسمائهم.

ثم قال: نحن والله الأوصياء الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ، ونحن المثاني التي أعطاها الله نبينا، ونحن شجرة النبوة، ومنبت الرحمة، ومعدن الحكمة، ومصابيح العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سرّ الله، ووديعة الله تعالىٰ في عباده، وحرم الله الأكبر، وعهده المسؤول عنه، فمن وفى بعهدنا وفى بعهد الله ومن خفره فقد خفر ذمة الله وعهده، عرفنا مَن عرفنا وجهلنا مَن جهلنا، نحن الأسماء الحسنىٰ، التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا.

ونحن والله الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه فتاب الله عليه، إن الله تعالىٰ خلقنا فأحسن خلقنا، وصورنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه علىٰ عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة عليهم بالرأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتىٰ منه، وبابه الذي يدلّ عليه، وخزان علمه، وتراجمة وحيه، وأعلام دينه، والعروة الوثقىٰ، والدليل الواضح لمن اهتدىٰ؛ وبنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار، وجرت الأنهار ونزل الغيث من السماء ونبت عشب الأرض. وبعبادتنا عبد الله، ولولانا ما عرف الله، وأيم الله لولا وصية سبقت وعهد أُخذ علينا؛ لقلت قولاً يعجب منه، أو يذهل منه الأولون والآخرون».

فظهر مما ذكر أنهم حجج الله تعالىٰ علىٰ جميع العوالم، أي أنهم الحجج علىٰ جميع

من في الوجود مما دون العرش إلىٰ ما تحت الثرىٰ، ثم إنهم حجج الله تعالىٰ على الكل بجميع أقسام الحجية من القول المتضمن للبرهان العقلي، والعمل الدال علىٰ صدق المدعىٰ، فهم عليهم السلام حجج الله تعالىٰ قولاً وفعلاً وصفة، وأثبتوا كونهم حجة الله تعالىٰ بالأمور القطعية الدالة عليها، وأهمها كون قولهم مطابقاً للعقل والبرهان، والمعجزات الصادرة عنهم الدالة علىٰ صدق دعواهم.

وقد صارت الكتب مشحونة بمعجزاتهم بنحو تبهر منه العقول، وأذعنت بصدق دعواهم جميع أهل الملل والنحل والعقول السليمة، كما لا يخفىٰ علىٰ المتتبع للآثار، والله الموفق إلىٰ طاعته والعمل بالحقّ.

قوله عليه السلام: ورحمة الله وبركاته.

أقول: الكلام في الجملة كالكلام في سابقه، وقد تقدم مفصلاً فراجعه، وحاصل المعنىٰ هنا: أن الرحمة بما لها من المعنىٰ والمصاديق بأجمعها عليكم أهل البيت، فهي:

إما جملة خبرية عن فعل الله تعالىٰ بهم، حيث إنه تعالىٰ جعل رحمته وبركاته عليهم، فإنهم أحسن مصاديق لقوله تعالىٰ: ﴿**ولو أن أهل القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا..**﴾[1] الآية.

فهم عليهم السلام أعلى المؤمنين إيماناً فلازمه نزول البركات الإلهية عليهم، وهي:

إما بركات دنيوية، فمعلوم أن لهم عليهم السلام منه تعالىٰ البركات في أموالهم وأولادهم عليهم السلام خصوصاً في زمان الرجعة.

فعن الخرائج والجرائح عن الحسن بن علي عليه السلام حديث طويل في الرجعة وفيه «ولتنزلن البركة من السماء والأرض حتىٰ ان الشجرة لتقصف بما يريد الله فيها من الثمر وليوكل ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ولو

---

١ ـ الأعراف: ٩٦.

أن أهل القرىٰ﴾».

وأما البركة في أولادهم عليهم السلام فهي المشاهد لنا وجداناً، فلا ترىٰ مجلساً إلّا وفيه من ذراريهم كما لا يخفىٰ، والله تعالىٰ يجعل البركة فيهم من حيث الكثرة في زمان الرجعة خصوصاً.

فعن تفسير العياشي عن الفضل بن محمد الجعفي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالىٰ: ﴿حبة أنبتت سبع سنابل﴾ قال: «الحبة فاطمة عليها السلام والسبع سنابل سبعة من ولدها سابعهم قائمهم قلت: الحسن؟ قال إن الحسن إمام من الله مفترض الطاعة، ولكن ليس من السنابل السبعة، أولهم الحسين وآخرهم القائم (عج)، فقلت: في كل سنبلة مائة حبة؟ قال: يولد للرجل منهم في الكوفة مائة من صلبه، وليس ذاك إلّا هؤلاء السبعة».

قال المحدث الحر العاملي رحمه الله في كتاب إثبات الهداة بعد ذكر الحديث: أقول: هؤلاء السبعة من جملة الاثني عشر، وليس فيه اشعار بالحصر كما هو واضح، ولعلّ المراد السابع من الصادق عليه السلام لأنه هو المتكلم بهذا الكلام.[1]

وإما بركات معنوية من العلم والمعارف الإلهية، فمعلوم أن العلوم والمعارف تنحدر من فاضل بحار علومهم الذخّارة كما تقدمت الإشارة إليه مراراً في شرح قوله تعالىٰ: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾[2].

وفي بصائر الدرجات بإسناده إلىٰ نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ قال: «يا نصر ليس تذهب الناس إنما هو العالم وما يخرج منه» الخ، أي ليس المراد من الفاكهة ما يتبادر منه من التفاح ونحوه فقط، بل تأويله العلم الخارج من العالم بدون انقطاع ومنع منه، ومن المعلوم أنهم عليهم السلام أحسن

---

١ ـ تفسير نور الثقلين ج١ ص٢٨٢.

٢ ـ النور: ٣٥.

مصاديق العالم، وعلمت أن البركة هو النفع المدام، لغة.

ثم إن هذه الرحمة والبركة تسري منهم عليهم السلام إلىٰ شيعتهم، خصوصاً في زمان رجعتهم وكرّتهم كما تقدم من رواية داود بن كثير الرقي من قوله عليه السلام: «وخلق شيعتهم أخذ عليهم الميثاق، وأن يصبروا ويصابروا وأن يتقوا الله، ووعدهم أن يسلّم لهم الأرض المباركة والحرم الآمن».

أقول: فالله تعالىٰ بهم يفتح البركات من السماء والأرض، وهم عليهم السلام يسلمونها إلىٰ شيعتهم ومحبيهم في أنفسهم وذرياتهم وأعمالهم، فتكون جميعاً مباركة مع البركة والنفع الكثير الدائم.

وإما جملة إنشائية أي طلب ودعاء منه تعالىٰ أن ينزل عليهم الرحمة والبركة، فهو حينئذ إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ حكاية عن قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام: **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾**[1].

ففي المحكي عن معاني الأخبار، أن الصادق عليه السلام سلم علىٰ رجل، فقال الرجل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ورضوانه، فقال: «لا تتجاوزوا بنا قول الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام: **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾**.

وفي المحكي عن أُصول الكافي بإسناده إلىٰ أبي عبيدة الحذّاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بقوم فسلّم عليهم فقالوا: عليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تجاوزوا بنا مثل ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام إنما قالوا: **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾**.

أقول: لعلّ وجه النهي أنهم عليهم السلام حيث هم المحل الأرفع الأعلىٰ عند الله تعالىٰ فلابد من حفظ مقامهم عليهم السلام كما حفظت الملائكة مقام إبراهيم عليه السلام بتلك التحية، ولا يجوز تنزيلهم عن مقامهم وجعلهم في رتبة ساير الناس في مقام التحية.

ومن المعلوم أن عطفه ورضوانه أو ومغفرته ورضوانه إنما يناسب في مقام

---

١ ـ هود: ٧٣.

الدعاء مقام ساير الناس من غير المعصومين الذين هم في معرض المعصية، فالدعاء إما لأن يطلب العفو عنهم أو يطلب حفظهم عن المعصية الممكنة في حقهم.

ومن المعلوم أنه تعالىٰ قد طهّرهم من الرجس تطهيراً، وعصمهم من الزلل كما سيأتي شرحه، فلابد في مقام التحية لهم من مراعاة مقامهم المنيع الذي رتبهم الله فيه وهو بردّ التحية بنحو ما قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام كما لا يخفىٰ.

إذن فالجملة إنشائية في مقام طلب الرحمة المطلقة وبركاته المطلقة عليهم عليهم السلام منه تعالىٰ، هذا وقد استجاب الله تعالىٰ هذا الدعاء من شيعتهم، فهم عليهم السلام دائماً في معرض رحمة الله تعالىٰ الواسعة والخاصة والبركات الدائمة من حيث العلم والعمل والنسل وساير ما يتعلق بهم، كيف وهم الوسائط لهذه الفيوضات منه تعالىٰ إلىٰ ساير الخلق كما تقدم.

فمرجع الدعاء إلىٰ أن رحمتك وبركاتك عليهم عليهم السلام؛ ليفيضوا ذلك إلينا بإفاضتك ذلك عليهم عليهم السلام في الحقيقة يرجع الدعاء حينئذ إلينا بواسطتهم عليهم السلام والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: *السلام علىٰ محالّ معرفة الله.*

أقول: محالّ جمع محل، وهو مكان الشيء الذي ينزل إليه أو يكون فيه، وفي بعض النسخ بصيغة المفرد فيراد منه إمّا الجنس، أو جيء به للإشارة إلىٰ أنهم عليهم السلام كنفس واحدة في المعرفة.

وأما المعرفة ففي المجمع: عرفت الله هو من عرفت الشيء من باب ضرب إذا أدركته، والمعرفة قد يراد بها العلم بالجزئيات المدركة بالحواس الخمسة كما يقال: عرفت الشيء أعرفه (بالكسر) عرفاناً إذا علمته بإحدى الحواس الخمس. كما يقال: عرفت الله، ولا يقال: علمت الله وذلك لأنه تعالىٰ لا يكون مدركاً بالحواس الخمس ومع ذلك تقع عليه المعرفة.

أقول: ووجه إطلاق المعرفة عليه تعالىٰ مع أنه تعالىٰ بسيط محيط غير محاط دون العلم، إن المعرفة هو الادراك للشيء، وإدراك الشيء عبارة عن تمييزه عما سواه بحيث لا يشترك معه غيره، فلو أدركت الذات الربوبي بأوصافها دون ذاتها فقط بحيث يمتاز عن غيره فقد عرفته، وإن لم تكن قد عرفته بالكنه، فامتياز ذاته المقدسة عن غيرها صفة معرفة لها، كما أُشير إليها في قوله ﷺ: «وتوحيده تمييزه عن خلقه»، وسيجيء ذكره، فالمراد من الإدراك في تعريف المعرفة ثم إطلاقها عليه تعالىٰ هو هذا المعنىٰ أي الامتياز عن غيره.

وأما وجه عدم إطلاق العلم عليه أن العلم يستلزم تصور المعلوم في ذهن العالم، وهو تعالىٰ غير متصور في الأذهان كما حقّق في محلّه، ولهذا لا يقال: علمت الله، ويقال: عرفته بالمعنىٰ المذكور، وقد تطلق المعرفة على الإدراك المسبوق بالعدم أو على الإدراك الأخير من الإدراكين إذا تخلل بينهما عدم، كما لو عرفت الشيء ثم ذهلت عنه، ثم أدركته ثانياً، ثم إن المراد بمعرفة الله تعالىٰ علىٰ ما قيل: الاطلاع علىٰ نعوته وصفاته الجلالية والجمالية بقدر الطاقة البشرية، وأما الاطلاع على الذات المقدسة فمما لا مطمع فيه لأحد.

وفي المجمع أيضاً قال سلطان المحققين: إن مراتب المعرفة مثل مراتب النار مثلاً، وإن أدناها من سمع أن في الوجود شيئاً يعدم كلّ شيء يلاقيه، ويظهر أثره في كل شيء يحاذيه، ويسمىٰ ذلك الموجود ناراً، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالىٰ معرفة المقلدين الذين صدّقوا بالدين من دون وقوف على الحجة، وأعلىٰ منها مرتبة من وصل إليه دخان النار وعلم أنه لابد له من مؤثر، فحكم بذات لها أثر هو الدخان، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله معرفة أهل النظر والاستدلال، الذين حكموا بالبراهين القاطعة علىٰ وجود الصانع، وأعلىٰ منها مرتبة من أحسّ بحرارة النار بحسب مجاورتها وشاهد الموجودات بنورها وانتفع بذلك الأثر. ونظير هذه المرتبة في معرفة الله معرفة المؤمنين المخلصين، الذين اطمأنت قلوبهم بالله وتيقّنوا

أن الله نور السماوات والأرض كما وصف به نفسه، وأعلىٰ منها مرتبة من احترق بالنار بكليته وتلاشىٰ فيها بجملته ونظير هذه المرتبة في معرفة الله معرفة أهل الشهود والفناء في الله وهي الدرجة العليا والمرتبة القصوىٰ، رزقنا الله الوصول إليها والوقوف عليها بمنّه وكرمه، انتهىٰ كلامه، رفع مقامه.

وقيل: إن المراد من قوله عليه السلام: «من عرف الله»، كما في كثير من الأخبار هو المرتبة الثالثة أو الرابعة، والله العالم.

أقول: هذا معنىٰ المعرفة لغة وإصطلاحاً.

ثم إنه لابد من ذكر أحاديث الباب ثم بيان ما يحتاج إلىٰ التوضيح.

ففي الكافي وتوحيد الصدوق بإسنادهما عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن أدنىٰ المعرفة؟ فقال: «الاقرار بأنه لا إله غيره ولا شبه له ولا نظير، وأنه قديم مثبت موجود غير فقيد، وأنه ليس كمثله شيء».

وفي الكافي بإسناده عن ابن رئاب وعن غير واحد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنىٰ فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنىٰ فقد أشرك، ومن عبد المعنىٰ بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه، فعقد عليه قلبه، ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته فأولئك أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حقّاً».

وفي توحيد الصدوق في ضمن رواية عن أبي عبدالله عليه السلام إلىٰ أن قال: «ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو مثال فهو مشرك؛ لأن الحجاب والمثال والصورة غيره وإنما هو واحد موحد، فكيف يوحد من زعم أنه عرفه بغيره، إنما عرف الله من عرفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه وإنما يعرف غيره، ليس بين الخالق والمخلوق شيء، والله خالق الأشياء لا من شيء يسمىٰ بأسمائه فهو غير أسمائه، والأسماء غيره والموصوف غير الوصف.

فمن زعم أنه يؤمن بما لا يعرف فهو ضال عن المعرفة، لا يدرك مخلوق شيئاً إلّا

بالله، ولا يدرك معرفة الله إلّا بالله والله خلو من خلقه وخلقه خلو منه، وإذا أراد شيئاً كان كما أراد بأمره من غير نطق، لا ملجأ لعباده مما قضىٰ، ولا حجة لهم فيما ارتضىٰ، لم يقدروا علىٰ عمل ولا معالجة مما أحدث في أبدانهم المخلوقة إلّا بربهم، فمن زعم أنه يقوىٰ علىٰ عمل لم يرد الله فقد زعم أن إرادته تغلب إرادة الله تبارك الله ربّ العالمين».

وفي البحار عن الاحتجاج، قال علي عليه السلام في خطبة أُخرىٰ: «دليله آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه عن خلقه، وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة. إنه ربّ خالق غير مربوب وغير مخلوق، ما تصور فهو بخلافه، ثم قال بعد ذلك: ليس بإله من عرّف بنفسه، هو الدال بالدليل عليه والمؤدّي بالمعرفة إليه».

وفي التوحيد عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال عليه السلام: «في الربوبية العظمىٰ والإلهية الكبرىٰ لا يكوّن الشيء لا من شيء إلّا الله، ولا ينقل الشيء من جوهريته إلىٰ جوهر آخر إلّا الله، ولا ينقل الشيء من الوجود إلى العدم إلّا الله».

وفي التوحيد بإسناده عن أبي المعتمد مسلم بن أويس قال: حضرت مجلس علي عليه السلام في جامع الكوفة فذكر الخطبة إلىٰ أن قال عليه السلام: «وكيف يوصف بالأشباح، وينعت بالألسن الفصاح من لم يحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كائن ولم ينأ عنها فيقال: هو عنها بائن ولم يخل منها فيقال: أين ولم يقرب منها بالالتزاق، ولم يبعد عنها بالافتراق، بل هو في الأشياء بلا كيفية، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وأبعد من الشبه من كلّ بعيد».

وفي التوحيد بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالىٰ كان ولا شيء غيره نوراً لا ظلام فيه، وصادقاً لا كذب فيه، وعالماً لا جهل فيه، وحيّاً لا موت فيه، وكذلك هو اليوم وكذلك لا يزال أبداً».

وفيه بإسناده عن هارون بن عبدالملك قال: سئل أبو عبدالله عليه السلام عن التوحيد فقال عليه السلام: «هو عزوجل مثبت موجود لا مبطل ولا معدود، ولا في شيء من صفة المخلوقين، وله عزوجل نعوت وصفات، فالصفات له وأسماؤها جارية على المخلوقين مثل السميع والبصير والرؤوف والرحيم وأشباه ذلك، والنعوت نعوت الذات لا يليق إلّا بالله تبارك وتعالىٰ، والله نور لا ظلام فيه، وحيّ لا موت فيه، وعالم لا جهل فيه، وصمد لا مدخل فيه، ربنا نوري الذات حيّ الذات عالم الذات صمدي الذات».

وفي البحار، عن الاحتجاج، سئل أبو الحسن علي بن محمد عليهما السلام عن التوحيد، فقيل له: لم يزل الله وحده لا شيء معه، ثم خلق الأشياء بديعاً، واختار لنفسه أحسن الأسماء، أو لم تزل الأسماء والحروف معه قديمة، فكتب: «لم يزل الله موجوداً ثم كوّن ما أراد، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، تاهت أوهام المتوهمين، وقصر طرف الطارفين، وتلاشت أوصاف الواصفين، واضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك لعجيب شأنه، والوقوع بالبلوغ علىٰ علوّ مكانه، فهو بالموضع الذي لا يتناهىٰ، وبالمكان الذي لم يقع عليه الناعتون بإشارة ولا عبارة هيهات هيهات».

وفي التوحيد بإسناده عن الحسن بن سعيد الخزاز عن رجاله، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الله غاية من غيّاه فالمغيّى غير الغاية، توحد بالربوبية، ووصف نفسه بغير محدودية، فالذاكر الله غير الله والله غير أسماء، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق، ألا ترىٰ قوله: العزة لله العظمة لله وقال: **﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها﴾** وقال: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنىٰ﴾** فالأسماء مضافة إليه وهو التوحيد الخالص»[١].

أقول: هذه جملة من الأحاديث التي وردت في بيان معرفة الله مما يمكن للبشر الوصول إليها، ولها شرح يطول بيانه قد ذكر في محلّه، والغرض من ذكرها أن ما

---

١ ـ توحيد الصدوق ص٥٨.

أدت إليه هذه الأحاديث من المعارف الإلهية إنما هو موجود عندهم وقائمة بهم عليهم السلام لا بغيرهم، ويدل علىٰ تحقق المعرفة والمعارف الالهية فيهم عدّة من روايات، فمنها:

ما في البحار عن بصائر الدرجات بإسناده عن نصير العطار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي ثلاث أقسم إنهنّ حقّ، إنك والأوصياء عرفاء لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتكم، وعرفاء لا يدخل الجنة إلّا من عرفكم وعرفتموه، وعرفاء لا يدخل النار إلّا من أنكركم وأنكرتموه».

وفيه[1] عن البصائر وعن مختصر بصائر الدرجات بإسناده عن مقرن قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: جاء ابن الكوّاء إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، ﴿وعلىٰ الأعراف رجال يعرفون كلّاً بسيماهم﴾ فقال: «نحن الأعراف نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله عزوجل إلّا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يعرفنا الله عزوجل يوم القيامة علىٰ الصراط، فلا يدخل الجنة إلّا من عرفنا، ونحن عرفناه ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه، إن الله لو شاء لعرف العباد نفسه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتىٰ منه.

فمن عدل عن ولايتنا، أو فضل علينا غيرنا، فإنهم عن الصراط لناكبون، ولا سواء من اعتصم الناس به، ولا سواء من ذهب حيث ذهب الناس، ذهب الناس إلىٰ عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلىٰ عين صافية تجري بأُمور (بأمر ربّها) لا نفاد لها ولا انقطاع».

وفيه[2] عن علل الشرايع عن سلمة بن عطا عن أبي عبدالله عليه السلام قال: خرج الحسين بن علي عليه السلام علىٰ أصحابه فقال: «أيها الناس إن الله عزوجل ذكره ما خلق العباد إلّا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما

---

١ ـ البحار ج٢٤ ص٢٥٣.

٢ ـ البحار ج٢٣ ص٨٣.

سواه، فقال له رجل: يابن رسول الله بأبي أنت وأمّي، فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي تجب عليهم طاعته».

وفيه[١] عن إكمال الدين بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الامام علم بين الله عزوجل وبين خلقه، فمن عرفه كان مؤمناً، ومن أنكره كان كافراً».

فدلت هذه الأحاديث ونحوها علىٰ أن معرفة الله إنما هو بسبيل معرفتهم ومن طريقهم وهم محالّه وسيجيء بيانه، ثم إن هنا أمرين:

أحدهما: أنه لا سبيل إلىٰ معرفة كنه ذاته تعالىٰ، ولم يكلف أحد بها بل منعوا عن ذلك.

ففي التوحيد بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «تكلموا في خلق الله ولا تكلموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزيد إلّا تحيّراً».

وفيه بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «اذكروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذكروا ذاته، فإنكم لا تذكرون منه شيئاً إلّا وهو أعظم منه».

وفيه بإسناده عن بريد العجلي قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ أصحابه فقال: ما جمعكم؟ قالوا: اجتمعنا نذكّر ربّنا ونتفكر في عظمته، فقال: لن تدركوا التفكر في عظمته».

أقول: والوجه فيه أنه تعالىٰ محيط بكلّ شيء، فلا يكون محاطاً بشيء كما حقّق في محلّه.

وثانيهما: أن المعرفة في أيّ شخص كانت إنما هي من صنع الله لا من صنع بشر.

ففي توحيد الصدوق بإسناده عن محمد بن حكيم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام المعرفة صنع من هي؟ قال: «من صنع الله عزوجل ليس للعباد فيها صنع».

وفيه بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ليس لله علىٰ خلقه أن يعرفوا قبل أن يعرّفهم، وللخلق علىٰ الله أن يعرفهم، ولله على الخلق

---

١ ـ البحار ج ٢٣ ص ٨٨.

إذا عرفهم أن يقبلوه، فدلت علىٰ أن المعرفة إنما هي علىٰ الله تعالىٰ، وليس علىٰ الخلق تحصيل المعرفة من قبل أنفسهم»، وقد تقدم قوله ﷺ: «هو الدال بالدليل عليه» وهذا نظير قوله ﷺ في الدعاء: «يا من دلّ علىٰ ذاته بذاته».

ثم إن المهم بيان المراد من المعرفة ثم بيان أنها فيهم ﷺ وقائمة بهم، وأنهم محالها لا غيرهم فنقول: قد علمت أن المعرفة بشيء هو دركه بحيث يمتاز بجميع شؤونه عما سواه، فهذه بالنسبة إليه تعالىٰ لا يمكن بلحاظ ذاته المقدسة بنحو يدرك الإنسان ذاته تعالىٰ، لما علمت من الأحاديث والآيات الدالة علىٰ امتناعه، وهذا ظاهر لا خفاء فيه.

نعم: يمكن تعلق المعرفة بالذات أي امتياز الذات الربوبي عن غيره، بحيث يرجع إلىٰ نفي الشريك عنه تعالىٰ في ذاته.

ولعلّ قوله ﷺ فيما تقدم: «توحيده تمييزه عن خلقه»، يشير إلىٰ هذا، فلا محالة حينئذ لا معنىٰ لمعرفته تعالىٰ إلّا بلحاظ معرفة أسمائه، التي وصف بها نفسه تعالىٰ بحيث يمتاز عمّا سواه من غيره، ولا يشاركه فيه أحد، فمن عرف الله بصفاته، التي عرف نفسه بها وميّزه عن غيره فقد عرف الله.

ثم: إن معرفة الصفات علىٰ **قسمين**:

الأول: معرفة تلك الأسماء بلحاظ مفاهيمها، وما به امتياز كلّ صفة عن غيره بنحو يمكن اتصاف ذاته المقدسة بها، مع حفظ مقام التوحيد له تعالىٰ، وهذا مبين في الكتب الكلامية والكتب العرفانية.

والثاني: معرفة مصاديق تلك الصفات، وأنها أين حلّت وكيف وجدت في عالم الوجود؟

فحينئذ نقول: قوله ﷺ: «محال معرفة الله» إشارة إلىٰ أن ذواتهم المقدسة هي محال معرفة الله تعالىٰ، وإضافة المحال إليها من قبيل إضافة محل الشيء إلىٰ نفسه، وهو في الأُمور المعنوية يفيد معنىٰ الإضافة البيانية، فمرجع الكلام حينئذ إلىٰ أنهم

نفس معرفة الله تعالىٰ لا أن ذاتهم محل والمعارف شيء آخر قد حلت فيهم، بل هي نفس المعارف الإلهية، ولذا قال الحسين عليه السلام في بيان معرفة الله: «معرفة أهل كلّ زمان إمامهم»، فحاصل كلامه عليه السلام: أن معرفة الله هو معرفة الإمام عليه السلام، وكذا قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا، فسبيل معرفتهم هو معرفة الله تعالىٰ»، وهذا يبيّن علىٰ وجوه منها:

ما عن الكراجكي (قدس الله روحه) فإنه رحمه الله قال علىٰ ما حكي عنه في البحار[1]: إعلم أنه لما كانت معرفة الله وطاعته لا ينفعان من لم يعرف الإمام (أقول: كما دلّت عليه أحاديث كثيرة وقد تقدم بعضها) ومعرفة الإمام وطاعته لا تقعان إلّا بعد معرفة الله، صحّ أن يقال: إن معرفة الله هي معرفة الإمام وطاعته، ولما كانت أيضاً المعارف الدينية العقلية والسمعية تحصل من جهة الإمام، وكان الإمام آمراً بذلك وداعياً إليه، صحّ القول: إنّ معرفة الإمام وطاعته هي معرفة الله سبحانه، كما نقول في المعرفة بالرسول وطاعته أنها معرفة بالله سبحانه، قال الله عزوجل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[2] وما تضمنه قول الحسين عليه السلام من تقدم المعرفة علىٰ العبادة غاية في البيان والتنبيه، إلىٰ آخر كلامه (زيد في علو مقامه).

أقول: حاصل كلامه أنه بعد اشتراط قيود الأعمال والعقائد بالولاية، وبعد انحصار تحصيل تلك المعارف منهم وفيهم وبهم وببيانهم، صحّ القول: إنّ معرفة الامام عليه السلام هي معرفة الله تعالىٰ.

ومنها: أن معرفة الله لا يمكن حصولها إلّا بتعرّفه تعالىٰ، وتعريفه تعالىٰ لمن يريد أن يعرفه نفسه، ثم إن تعرّفه وتعريفه تعالىٰ هو وصفه لعبده، أي إظهار وصفه في عبده بأن تكون حقيقة عبده وصفه تعالىٰ، ومعلوم أن الشيء إنما يعرف بوصفه، وذلك الوصف الذي يعرف به هو حقيقة ذات العبد، وليس له حقيقة غيرها، وهو

---

١ ـ البحار ج٢٣ ص٩٣.

٢ ـ النساء: ٨٠.

المعبر عنه بقوله تعالىٰ: ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾[1] فالروح المضاف إليه هو وصفه تعالىٰ.

وهذا التعرّف والتعريف الذي هو ذات العبد أحدثه الله تعالىٰ بفعله، يعني أنه صفة الفعل الخاص به، وفرد من الفعل المطلق له تعالىٰ، وهيئة من هيئات أفعاله تعالىٰ، فمثل العبد وذاته كمثل الكتابة التي هي هيئة حركة يد الكاتب، فهيئة الكتابة تدل علىٰ هيئة حركة اليد، فهيئة ذات العبد التي هي تعرف إليه، وتعريفه تعالىٰ هيئة مشيته تعالىٰ الخاصة بهذا العبد فذاته أثر مشيته تعالىٰ ومعلولها، فالأثر يدل علىٰ المؤثر الذي هو الفعل أي المشية الخاصة مثلاً، والفعل يدل علىٰ الفاعل؛ لأن الفعل هو ظهور الفاعل وأثر منه.

فتحصل أن ذات العبد التي هي أعلا مراتب وجوده، وحقيقته الأولية هي معرفة الله أي تعرّف وتعريفه تعالىٰ؛ لأنها ذات العبد وصفته تعالىٰ، والصفة ما بها معرفة الموصوف، وإلىٰ هذا لعلّه يشير قوله عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» حيث جعل معرفة النفس عين معرفة الرب، وذلك لأن النفس هي صفته تعالىٰ وتعرفه وتعريفه بنحو ما ذكر، فتحصل أن ذات كلّ أحد هي معرفة الله.

ثم إنه عرّف نفسه لخلقه بخلقه وتجلىٰ لهم بهم كما في النهج: لم تحط به الأوهام، بل تجلىٰ بها لها، وامتنع بها منها، ولكن هذا التعرف والتجلي المذكور له مراتب، فكلّ يعرف الله تعالىٰ علىٰ قدر ما في ذاته من صفته تعالىٰ، ولما كانت أرواح الأئمة عليهم السلام بل الأربعة عشر وذواتهم من أتم مظاهره تعالىٰ كما علمت من قول علي عليه السلام: «ما لله آية أكبر مني»، فلا محالة أن ذواتهم المقدسة هي معرفة الله بالقول المطلق؛ لأنه تعالىٰ تعرف بهم لهم ولخلقه بالنحو الأتم الأكمل وبالتجلي الأعظم فيهم عليهم السلام.

فتحصل أنهم معرفة الله تعالىٰ، وحينئذ فإضافة المحل إليهم بلحاظ أن الشيء محل نفسه، فالإضافة بيانية، فكونهم عليهم السلام محال معرفة الله أي أنهم معرفة الله.

---

١ ـ الحجر: ٢٩، سورة صٓ: ٧٢.

ولعلّه يشير قول الحسين بن علي عليهما السلام بعد السؤال عن معرفة الله تعالىٰ: «معرفة أهل كلّ زمان إمامهم»، الخ.

فرجع قوله عليه السلام إلىٰ أن معرفة الإمام هو معرفة الله بعد إسقاط الإضافات البيانية في العبارة كما لا يخفىٰ.

ثم إذا كنت أنت عرفت نفسك فقد عرفت ربّك، فما ظنك بهم عليهم السلام؟ فمعرفة أنفسهم المقدسة هي معرفة الله تعالىٰ.

وإليه يشير أيضاً قول أمير المؤمنين عليه السلام فيما تقدم: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا»، أي أن معرفتنا بها يعرف الله يعني هي معرفة الله تعالىٰ.

وإليه يشير أيضاً قوله لسلمان وأبي ذر رضي الله عنهما: «معرفتي بالنورانية معرفة الله»، فافهم تعرف إن شاء الله.

ومنها: ان الله تعالىٰ جعل ذواتهم المقدسة خزائن معارفه، وخزائن معرفة الخلق سواهم، فما من أحد من الخلق سواهم عرف الله إلّا وقد تنزلت المعرفة من خزائن ذاتهم إليه، فهم بما عندهم معارف الله، وإن نزول المعارف منهم إلىٰ الخلق مصداق لقوله تعالىٰ: **﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾**[1].

ولعله إليه يشير ما عن محمد بن يعقوب بإسناده عن عمار الساباطي، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: **﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير * هم درجات عند الله﴾**[2] فقال: «الذين اتبعوا رضوان الله هم الأئمة عليهم السلام وهم والله يا عمار درجات للمؤمنين وبولايتهم ومعرفتهم إيانا يضاعف الله لهم أعمالهم، ويرفع لهم الدرجات العلىٰ».

فقوله عليه السلام: «وبولايتهم ومعرفتهم إيانا» الخ، ظاهر في أن معرفتهم الكائنة فيهم

---

١ ـ الحجر: ٢١.

٢ ـ آل عمران: ١٦٢ ـ ١٦٣.

ما بها درجاتهم، فبقدر ما ينزل من معارفهم عليهم السلام إلىٰ قلوبهم تكون درجاتهم وتضاعف أعمالهم. رزقنا الله ذلك بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

ومنها: إنا نرىٰ أن كلَّ واحد من الخلق قد أخذ معارفه من أحد من الناس، فهم مختلفون فيها كما لا يخفىٰ، ولكن نرىٰ أن من أخذ معارفه منهم عليهم السلام فهي صحيحة لا اختلاف فيها، وإذا نظرنا فيها بعين البصيرة والعقل والفهم والدقة علمنا أنها هي المعارف الحقة لا المأخوذة من غيرهم، فيعلم من هذا الاستقراء والتفحص أنهم عليهم السلام محال معرفة الله لا غيرهم، إذ المأخوذة من غيرهم غير صحيحة دون ما أُخذت منهم، فالمعرفة الصحيحة عندهم لا عند غيرهم فهم محال معرفة الله.

وإليه يشير ما تقدم من قول الصادق عليه السلام لحكم بن عيينة وسلمة بن كهيل: «شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئا خرج من عندنا».

فمن صحة معارفهم وفساد معارف غيرهم وتناقضها يعلم أنهم عليهم السلام محالها، وتوجد عندهم لا عند غيرهم، فإذا أردت توضيح ما قلناه فراجع كتاب إحقاق الحقّ؛ لتعلم العقائد المتخالفة والمتهافتة للعامة ولمن لم يقتبس معارفه منهم عليهم السلام.

ومنها: أن المعارف الالهية لما كانت دقيقة لطيفة؛ لأنها من الأسرار المعبر عنها بقولهم: «إنّ أمرنا سرّ مستور»، فإن المراد من أمرهم هو المعارف الإلهية والولاية المطلقة الإلهية كما تقدم، فالمعارف الإلهية حيث إنها حقّ محض ومحض الحقّ، وهي كما نطقت به الأحاديث أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف، فلا محالة يكون دركها وأخذها وحفظها في النفس مشكلاً جداً، ولعل أكثر الناس بل جميعهم ربما يشتبهون في تميز حقها من باطلها، فلا محالة لابد من عرضها من كلّ أحد إلىٰ الإمام عليه السلام؛ ليصدقها، فيعلم من تصديقه إياها أنها صحيحة فإذا عرضت عليهم، وطابقت المعتقد مع ما عندهم من المعارف الحقة صحيحة وإلّا فلا.

وحينئذ لابد من أن يكونوا محالاً لمعرفة الله تعالىٰ الصحيحة، التي لا ريب فيها أبداً؛ لكي يجعل ميزاناً للتمييز، فحينئذ معنىٰ كونهم محال معرفة الله أنه لابد من ردّ

كلّ معرفة إليهم، فمن طريقهم ومعارفهم يتجاوز المعارف إلىٰ الله تعالىٰ، فإنهم أبواب الله لا غيرهم، فلو لم يصدقوها لم يتجاوز المعارف المردودة إليه تعالىٰ.

ولعلّه إليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ المفسّر بالولاية أي الولاية الصحيحة الكائنة في العبد الحاصلة منهم والمصححة بهم يصعد إليه تعالىٰ.

والحاصل: أن معارف العباد لابد من مطابقتها مع أصل المعارف الكائنة فيهم عليهم السلام ومقترنة بها، حتىٰ يتجاوزوا إلىٰ الله تعالىٰ، وإلّا لما كانت معرفة الله تعالىٰ بل لغيره وإلىٰ غيره كما لا يخفىٰ.

ولعلّه إلىٰ ما ذكر يشير ما عرضه عبدالعظيم الحسني عليه السلام حيث عرض دينه علىٰ إمامه فصدقه، ودعا له بأن يثبته الله تعالىٰ عليه، فتأمل تعرف.

ومنها: أنه قد دلّت أحاديث كثيرة على أنّ أرواح شيعتهم خلقت من فاضل طينتهم كما تقدم، ودلت أيضاً أحاديث أُخر علىٰ أن أمير المؤمنين عليه السلام إنما سمي أمير المؤمنين؛ لأنه كان يمير العلم للمؤمنين، وقد تقدم حديثه.

وتقدم قول الصادق عليه السلام «يا أبا خالد والله إن الأئمة عليهم السلام هم الذين ينورون قلوب المؤمنين».

فيعلم من ذلك كلّه أن كلّ معرفة إذا لم تؤخذ ولم تضف ولم تنسب إليهم عليهم السلام كانت باطلة وعدماً محضاً، وإن كانت ملفّقة بصورة علم.

والحاصل: أنهم عليهم السلام كالعلة المادية لوجود المعارف في قلوب المؤمنين، فإذا لم تؤخذ منهم لم تكن معرفة بل صورة لا حقيقة لها، ومن هذا يعلم أنه كما أن مادة المعارف تكون منهم، فكذلك صورة المعارف وحدودها منهم أيضاً. فكما أنهم عليهم السلام كالعلة المادية كذلك فهم كالعلة الصورية، فحدود المعارف وتمييزها أيضاً منهم.

ومنها: أنه قد علمت أن المعارف لابد من عرضها علىٰ معارفهم، فإن طابقت معها كانت صحيحة وإلّا كانت باطلة، فحينئذ نقول: إذا عرضت المعارف عليهم فلهم أن يقبلوها ويصدقوها، ولهم أن يردّوها، فهم عليهم السلام ميزان الرد والقبول، ثم إنّ

عدم التبول قد يكون بنحو الرد، وقد يكون بحيث لم يلتفتوا إليها، ولم يسقوها من حوض معارفهم، فلا محالة تموت المعارف وتتفرق فيصير مصداقاً لقوله: **﴿وقدمنا إلىٰ ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾**[1].

فإن الآية تدل علىٰ أن العمل كان صحيحاً قابلاً للقبول، إلّا أنه بالإقدام علىٰ إفنائه صار هباءً منثوراً، كما دلّت الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية المباركة من أنه كانت أعمالهم أشد بياضاً من القباطي، ولكنه إنما أفناها الله تعالىٰ لأجل أن عاملها لم يكن له ورع، بل كان مع هذا يعمل السيئات فأحبطت السيئات أعمالهم.

والحاصل: أن المعارف قد تكون صحيحة، ولكن لخلل في العارف من ساير الجهات، فقد تكون هذه المعارف غير معتن بها فتصير فناء وهباء، فهم عليهم السلام محال المعارف يعني إذا لم يعتنوا بمعارفهم ولم يسقوها بماء حقائقهم ومعارفهم التي هم محالها، فلا محالة تفنىٰ وتموت بقاءً، وإن كانت صحيحة حدوثاً، وهذا بخلاف الرد فإنه يدل علىٰ فسادها حدوثاً كما لا يخفىٰ.

فتحصل أنهم محال المعارف أي بهم يعرف الله وتعرفه بهم، وهم المقدرون للمعارف والمعطون إياها لشيعتهم وبهم إمضائها وردها أو الاعراض عنها وبهم تمييز حقّها من باطلها، كلّ ذلك لأنهم محال المعارف الصحيحة الواقعية الإلهية، فهي عندهم وبهم ومنهم بل هي هم لا غيرهم كما لا يخفىٰ.

ومنها: أنه قد تقدم مراراً أنهم الأسماء الحسنىٰ له تعالىٰ، والأسماء لها اعتباران:

اعتبار حقيقتها من حيث المفهوم الممتاز عما سواه، وقد حقق هذا في الكتب الكلامية والعرفانية.

وقد تقدم عن الرضا عليه السلام: أن الاسم عبارة عن صفة لمسمى فهو معرّف له، فالموصوف والمسمىٰ يعرف باسمه وصفته، ومعنىٰ كونهم عليهم السلام الأسماء الحسنىٰ كما

---

١ ـ الواقعة : ٦.

تقدم عن أمير المؤمنين والصادق عليهما السلام أنهم حقائق تلك الأسماء، لا مفاهيمها كما لا يخفىٰ.

فهم حينئذ بما أنهم تلك الحقائق فلا محالة صفات له تعالىٰ، ومعرف له تعالىٰ بحقائقهم، وهي حقيقة ولايتهم المطلقة، التي هي ولاية الله التي تجلىٰ الله تعالىٰ بها فيهم كما أُشير إليه بقوله عليه السلام في الدعاء: «اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم»، فهم بحقائقهم وعقائدهم وصفاتهم وأعمالهم معرفون له تعالىٰ، فإن ذواتهم المقدسة حيث كانت فانية عن غيره تعالىٰ وواهة فيه تعالىٰ، فلا محالة لا أثر فيهم ظاهراً إلّا وهو له تعالىٰ.

وإليه يشير قوله عليه السلام فيما تقدم: «لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك».

وقوله صلى الله عليه وآله: «من رآني فقد رأى الحق».

وقوله عليه السلام في إذن الدخول لعموم المشاهد المشرفة: «والحمد لله الذي منّ علينا بحكام يقومون مقامه لو كان حاضراً في المكان».

وقوله تعالىٰ في الأحاديث المتعددة ما حاصله: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت يده ورجله وسمعه»، الخ.

وقوله عليه السلام فيما تقدم: «ولايتنا ولاية الله التي ما بعث نبيّاً قطّ إلّا بها».

وغيرها من الألفاظ الواردة الحاكية عن كونهم عليهم السلام مظاهر له تعالىٰ، فهم عليهم السلام بما هم مظاهره فلا محالة معارفه ومعرفوه تبارك وتعالىٰ، وكيف وهم صنايع الله التي ظهرت فيها قدرته فعرف نفسه بها، ثم لا يخفىٰ أنهم عليهم السلام إنما كانوا محال معرفة الله تعالىٰ بذواتهم وأرواحهم المقدسة، التي خلقت من نور عظمته، كما تقدم ـ فهم عليهم السلام بتلك الروحية النورانية الجامعة لكلّ شيء محال معرفة الله تعالىٰ كما لا يخفىٰ.

وربما سيجيء الكلام في توضيحه في طيّ الشرح بما يبين ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

قوله عليه السلام: ومساكن بركة الله.

أقول: المساكن جمع مسكن وهو محل الاستقرار والسكون بدون تحوّل وانتقال، أي بركة الله ساكنه ومستقرة عندهم، ويمكن أن يراد من إضافة المسكن إليها الاضافة البيانية، فإنهم عليهم السلام نفس البركة وتلك المساكن هي نفس البركة التي تجري للخلق.

وأما البركة فقد تقدم أنها بمعنى النماء والزيادة والسعادة والنفع، وعن المجلسي **الأول:** أي بهم عليهم السلام يبارك على الخلائق بالأرزاق الصورية والمعنوية، كما تدل عليه الأخبار المتواترة، ونبّه عليه المحقق الدواني في شرح الهياكل.

أقول: قد تقدمت أحاديث كثيرة عن التوحيد وغيره تدل علىٰ أن الأرزاق بقسميها إنما تصل إلى الخلق بواسطتهم وهذا لا ريب فيه، ولكن هذا ليس معنىٰ البركة ، بل هو مقتضىٰ كونهم وسائط الفيض المستفاد من كثير من الأخبار.

وأما البركة فقد علمت أن معناها النماء والزيادة والسعادة والنفع، وهذه لأمور كما ترىٰ هي صفات وآثار للأرزاق المعطاة للخلق لا نفس الأرزاق، فحينئذ معنىٰ العبارة أن الأرزاق بجميع معانيها علىٰ **قسمين:**

أحدهما: ما لا بركة فيه، فإنا نرىٰ كثيراً من أرزاق العباد بقسميها لا يكون ذا بركة فلا نمو لها ولا زيادة، ولا يسعد بها صاحبها ولا ينتفع بها، سواء أكانت مادية أو معنوية، فترىٰ من له مال كثير لا بركة له، فلا نمو له ولا زيادة، فلا ينتفع صاحبه منه ولا يسعد به، وكذا الأرزاق المعنوية فنرىٰ من له العلم والعقل والفهم ومع ذلك لا يستفيد منها. فهو إما مصداق لقوله تعالىٰ: **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾**[1] حيث لم يستفد من علمه، أو مصداق لقوله تعالىٰ: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها**

---
١ ـ الجمعة : ٥.

ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أُولئك كالأنعام بل هم أضل..﴾[١]، فهؤلاء قد أُعطوا الأرزاق المعنوية إلّا أنه لا بركة لهم فيها.

وثانيهما: ما فيه البركات فكما أن ذواتهم المقدسة عليهم السلام سبب لأصل الفيوضات والأرزاق مطلقاً، فكذلك هم السبب لبركتها حيث إنهم مساكنها، فالنمو والزيادة والسعادة والنفع منها إنما هي منهم عليهم السلام.

فبولايتهم والارتباط بهم يبارك الله تعالىٰ في الأرزاق، وهذا بخلاف مخالفيهم فإنهم لا بركة لهم بما لها من المعاني في أرزاقهم، كما نرىٰ ذلك منهم والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: ومعادن حكمة الله.

أقول: معادن جمع معدن وهو بمعنىٰ الأصل ومحل الإقامة للشيء أو منبت أصل الشيء، وقد تقدم في قوله عليه السلام: «ومعدن الرحمة».

وأما الحكمة فنقول: هي من الحكم وهو (بالضم) لغة القضاء، والحاكم منفذ الحكم، وكذلك الحكم (محركة) أي منفذ الحكم، وجمعه حكام، والحكيم صاحب الحكمة عملياً أو علمياً، والمحكمات جمع المحكم.

قال في المجمع: وهو في اللغة المضبوط المتقن. وفي الاصطلاح ـ علىٰ ما ذكره بعض المحققين ـ يطلق علىٰ ما اتضح معناه، وظهر لكل عارف باللغة (أقول: أي في أي لغة، علىٰ الظاهر) وعلىٰ ما كان محفوظاً من النسخ والتخصيص أو منهما معاً، وعلىٰ ما كان نظمه مستقيماً خالياً عن الخلل، وعلىٰ ما لا يحتمل التأويل إلّا وجهاً واحداً.

---

١ ـ الأعراف: ١٧٩.

قال: ويقابله بكلّ من هذه المتشابه، إلىٰ أن قال: قوله تعالىٰ: **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾** أي يعطي الله الحكمة (أي العلم) ويوفق للعمل، وقيل: الحكمة القرآن والفقه..

إلىٰ أن قال: والحكمة العلم الذي يرفع الانسان عن فعل القبيح، مستعار من حكمة اللجام، وهي ما أحاط بحنك الدابة يمنعها الخروج، والحكمة: فهم المعاني. وسميت حكمة لأنها مانعة من الجهل.

وفي الحديث قوله تعالىٰ: **﴿ومن يؤت الحكمة﴾** قال: هي طاعة الله ومعرفة الإمام، وقوله: **﴿ويعلّمه الكتاب والحكمة﴾** قيل: أي الفقه والمعرفة، وقيل (في قوله تعالىٰ: **﴿احكمت آياته ثم فصلت﴾**: أي أحكمت بالأمر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد، أو أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه..

إلىٰ أن قال: والحكم: العلم والفقه والقضاء بالعدل، وهو مصدر حكم يحكم قال: ومن أسمائه تعالىٰ الحكيم وهو القاضي، فالحكيم فعيل بمعنىٰ فاعل أو هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها فهو فعيل بمعنىٰ مُفعِل، أو ذو الحكمة وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم..

إلىٰ أن قال: والحكمة العملية ما لها تعلق بالعمل كالعلم بأحوال أُصول الموجودات الثمانية: الواجب والعقل والنفس والهيولي والصورة والجسم والعرض والمادة.

وفي الحديث: «ما من عبد إلّا وفي رأسه حكمة وملك يُمسكها فإذا تكبّر قال له: اتضع، وإذا تواضع قال: انتعش، فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس».

وفي الحديث: «الكلمة الحكيمة ضالة الحكيم»، إلىٰ آخر كلامه ﷺ.

هذه موارد استعمال لفظ الحكمة، والمستفاد منها أن كل أمر كان مضبوطاً ومتقناً وثابتاً (أي كان بنحو تقتضيه البراهين المتقنة والعقول الكاملة السليمة) فهو

في نفسه حكمة، وباعتبار ثبوته لأحد يسمىٰ محكماً (بالفتح) والعالم بـه وصـاحبه هكذا يسمىٰ حكيماً والمنفذ له والقاضي به يسمىٰ حاكماً فالحكم (بالضم) بمعناه الاسم المصدري هو الثابت في نفس الأمر.

ومن هنا يعلم وجه تسمية الآيات المحكمات بالمحكمات؛ لأنها ثابتة عند كـلّ أحد وواضحة، ولعلّه المراد من قول من قال: أي أحكمت عباراتها، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه، وعلم أيضاً وجه تفسيرها بالفهم والفقه، فإن الحقّ إذا ثبت في القلب بنحو لا يقبل الزوال، فهو مما تعلق به الفهم والفقه.

وقال بعض الأعاظم في قوله تعالىٰ ﴿حكمة بالغة﴾[1]: الحكمة كـلمة الحـقّ، والبلوغ وصول شيء إلىٰ ما تنتهي إليه المسافة، ويكنّىٰ به عن تمام الشيء وكماله الخ.

ولما كان القرآن محكماً فسر الحكمة به أيضاً، وتفسير بعضهم لها بما كان محفوظاً من النسخ والتخصيص هو تفسير بلازمها، فإن الحفظ منهما مـن لوازم ثـبوته في القلب والواقع بنحو لا يزول، ففي الحكمة أخذ معنىٰ الثبوت والامتناع عن الزوال كما يستفاد من قولهم: الحكمة مستعار من قولهم: حكمة اللجام وهي ما أحاط بحنك الدابة يمنعها الخروج، فكلّ أمر ثبت في القلب بحيث لا يقبل الزوال والخروج منه فهو حكمة، فالحكمة صفة عارضة للأمور في القلب.

ولذا فسّرت الحكمة (كما في المحكي عن المفردات) بإصابة الحقّ بالعلم والعقل.

وقوله عليه السلام: «الكلمة الحكيمة»، أي التي هي في نفسها محكمة تـقتضيها الأدلة والبراهين القطعية وهي ضالة الحكيم.

وقوله عليه السلام: «ما من عبد إلّا وفي رأسه حكمة»، أي ما به تحقق الحـكمة، وهـو العقل الذي منه الحكمة، ولذا قد تفسر الحكمة في الأحاديث بالعقل أيضاً.

فكلّ أمر كان في صقع وجوده ثابتاً فهو من مصاديق الحكمة، وهي أفضل من

---

١ ـ القمر : ٥.

العلم؛ لأنه قد لا يعمل صاحبه بمقتضىٰ علمه، وهذا بخلاف الحكمة فإنها لما كانت ثابتة في القلب فلا محالة يستفيد صاحبها منها ولذا قال تعالىٰ: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾.

إذا علمت هذا فلابد من بيان المراد من قوله عليه السلام: «ومعادن حكمة الله»، ومنه يعلم أيضاً تفسير الحكمة بالإمام عليه السلام وبطاعته فنقول وعليه التوكل:

فعن الكافي قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنا أهل البيت شجرة النبوة وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم».

وفيه عن خثيمة قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «يا خثيمة نحن شجرة النبوة وبيت الرحمة ومفاتيح الحكمة ومعدن العلم»، الحديث وقد تقدم بتمامه.

وفي غاية المرام[1]، عن ابن بابويه بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «يا علي أنا مدينة الحكمة وأنت بابها، ولن تؤتىٰ المدينة إلّا من قبل الباب».

وفيه عن بصائر الدرجات بإسناده عن مرازم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «علّم رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام ألف باب يفتح كلّ باب ألف باب».

وفيه عن المفيد رحمه الله بإسناده عن أم سلمة (رضي الله عنها) زوجة النبي صلى الله عليه وآله قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله... الخ.

وفيه ابن يعقوب بإسناده عن بشير الدّهان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفي فيه: «أُدعو لي خليلي، فأُرسل إلىٰ علي عليه السلام فلما نظر إليه أكب عليه يحدّثه، فلما خرج لقياه فقالا له: ما حدّثك خليلك؟ فقال: حدثني ألف باب (يفتح ظ) كلّ باب ألف باب».

وفيه عن الصفار قال: ورواه المفيد أيضاً، بإسنادهما عن أبي إسحق السبيعي قال: سمعت بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ممن يثق به يقول: سمعت علياً عليه السلام

---

١ ـ غاية المرام ص ٩٢٣.

يقول: «إن في صدري هذا لعلماً جماً علمنيه رسول الله ﷺ لو أجد له حفظة يرعونه حقّ رعايته، ويروونه عني كما يسمعونه مني إذا أودعتهم بعضه ليعلم به كثيراً من العلم مفتاح كلّ باب وكلّ باب يفتح ألف باب».

وفيه ابن يعقوب بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان في ذوابة سيف رسول الله ﷺ صحيفة صغيرة، قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أيّ شيء كان في تلك الصحيفة؟ قال: الأحرف التي يفتح كلّ حرف ألف حرف، قال أبو بصير قال أبو عبدالله عليه السلام: فما خرج حرفان حتىٰ الساعة».

وقد تقدم حديث كامل التمار في معنى الولاية.

وفيه، المفيد بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ علمني ألف باب من الحلال والحرام يفتح كلّ باب ألف باب حتىٰ علمت البلايا والوصايا وفصل الخطاب، حتىٰ علمت المذكرات من النساء والمؤمنين من الرجال».

وفيه محمد بن الحسن الصفار بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام فأتاه رجل فسلّم عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين إني أُحبك في الله وأُحبك في السرّ كما أُحبك في العلانية، وأُدين الله بولايتك في السرّ كما أدينه في العلانية، قال: وبيد أمير المؤمنين عود فتطاطأ به رأسه ثم نكت بعوده في الأرض ساعة ثم رفع رأسه إليه ثم قال: «إن رسول الله ﷺ حدثني بألف حديث كلّ حديث ألف باب، وإن أرواح المؤمنين لتلتقي فيشام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وبحقّ الله لقد كذبت، فما أعرف وجهك في الوجوه، ولا اسمك في الأسماء.

ثم دخل عليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين إنّي لأحبك في الله، وأُحبك في السرّ كما أُحبك في العلانية، وأُدين الله بولايتك في السّر كما أُدين بها في العلانية، قال: فنكت بعوده الثانية فرفع رأسه إليه فقال: صدقت إن طينتنا طينة مخزونة أخذ الله

ميثاقها من صلب آدم فلم يشذ منها شاذ، ولا يدخل فيها داخل من غيرها، فاذهب فأعد للفقر جلباباً فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: والله الفقر إلىٰ شيعتنا أسرع من السيل إلىٰ بطن الوادي».

وفي أُصول الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أُم الكتاب﴾**.

قال: «أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام وأُخر متشابهات، قال: فلان وفلان، فأما الذين في قلوبهم زيغ، أصحابهم وأهل ولايتهم، فيتبعون ما تشابه منه إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام».

وفي أُصول الكافي في حديث هشام الطويل عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام: «يا هشام إن الله قال: **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾**، قال: الفهم والعقل».

وفي تفسير نور الثقلين عن تفسير علي بن إبراهيم، عن علي بن النظر، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت: جعلت فداك ما تقول في قوله تعالىٰ: **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾**؟ قال: «أُوتي معرفة إمام زمانه».

وفيه[1] علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزوجل: **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾** فقال: «طاعة الله ومعرفة الامام عليه السلام».

وفيه يونس عن ابن مسكان، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾** قال: «معرفة الإمام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار».

وفيه، في تفسير علي بن إبراهيم، **﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾** قال: «الخير الكثير معرفة أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام».

---

١ ـ تفسير نور الثقلين ج١ ص٢٢٨.

وفيه، في تفسير العياشي عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾ فقال: «إن الحكمة المعرفة والتفقه في الدين، فمن تفقه منكم فهو حكيم، وما أحد يموت من المؤمنين أحبّ إلىٰ إبليس من فقيه».

وفيه، في محاسن البرقي بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾ فقال: «هي طاعة الله ومعرفة الإسلام».

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: «الحكمة ضياء المعرفة، وميزان التقوىٰ وثمرة الصدق، ولو قلت: ما أنعم الله علىٰ عباده بنعمة أنعم وأعظم وأرفع وأجزل وأبهىٰ من الحكمة! لقلت: قال الله عزوجل: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلّا أُولوا الألباب﴾ أي لا يعلم ما أودعت وهيأت في الحكمة إلّا من استخلصته لنفسي وخصصته بها، والحكمة هي النجاة، وصفة الحكمة الثبات عند أوائل الأُمور، والوقوف عند عواقبها، وهو هادي خلق الله إلىٰ الله».

أقول: قوله عليه السلام: «الحكمة هي النجاة» الخ بيان لآثارها الثابتة للحكيم الذي يكون مشيه علىٰ طبقها.

وقوله عليه السلام: «وصفة الحكمة الثبات» الخ يشير إلىٰ هذا المشي الهادي إلىٰ الحقّ تعالىٰ.

وفي تفسير فرات بن إبراهيم، عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾: «الكتاب القرآن والحكمة ولاية علي عليه السلام».

وفيه عن الكاظم عليه السلام قال: «نحن حكماء الله في أرضه».

وعن الكافي عن سيف التمار قال: كنا مع أبي عبدالله عليه السلام جماعة من الشيعة في الحجر فقال: «علينا عين فالتفتنا يمنة ويسرة فلم نر أحداً فقلنا: ليس علينا عين،

فقال: ورب الكعبة وربّ البنية ثلاث مرات، لو كنت بين موسىٰ والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبئتهما بما ليس في أيديهما؛ لأن موسىٰ والخضر أعطيا علم ما كان، ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتىٰ تقوم الساعة، وقد ورثنا من رسول الله وراثة».

وعن المجمع عنه ﷺ: «إن الله تعالىٰ آتاني القرآن، وآتاني من الحكمة مثل القرآن».

أقول: هذه بعض الأخبار المستفاد منها معنىٰ الحكمة مفهوماً ومصداقاً ولازماً فما فسّرت الحكمة بأنها المضبوط والمحكم، وحكمة اللجام فهي راجعة إلىٰ بيان مفهومها وما فسّرت الحكمة بأنها معرفة الامام وولاية علي عليه السلام فهي راجعة إلىٰ أحسن مصاديقها، ومنها تفسيرها بالقرآن فإنه من حيث إن مفاهيمه مضبوطة راجع إلى الأول، ومن حيث إن حقائقه ثابتة غير قابلة للزوال وهي حقيقة القرآن، فهو راجع إلى المصداق، وما فسّرت بأنها طاعة الله، فهي تفسير لها بلوازمها فهي أي الحكمة شيء مثبت منبع للخيرات، وموجب للانتفاع من أيّ شيء ذي فائدة ونفع؛ ولذا عبّر عنها بالخير الكثير في القرآن المجيد.

قال بعضهم ما حاصله: إن الحكمة هي معرفة الإمام، وهي معرفتهم بالنورانية، وهي مقام الفرقان والنور الذي هو حقيقة الولاية، وهي بنفسها حيث إنها مظهر لاسمه تعالىٰ فهي ثابت محقق في نفسه، والمظهر لها الذي هو الامام هو المتصف بها حقيقة. والعارف بهذه الحقيقة هو الحكيم العارف بالإمام وبمقامه النوراني، وإنما تحصل هذه المعرفة بالإمام (للامام) بالتقوىٰ الموجب للوصول إلىٰ عالم الإمام بقدر الوصول كماً أو كيفاً يكون عارفاً به عليه السلام وبقدره يكون حكيماً.

وحاصل الكلام في كونهم عليهم السلام معادن الحكمة أن من أسمائه تعالىٰ الحكيم، وهو أن الحكمة الأزلية الذاتية له تعالىٰ التي أثرها إن فعله تعالىٰ وخلقه إنما هو مشتمل لأتم المصالح، وواقع علىٰ أحسن النظم في الخلق وما سوىٰ الله تعالىٰ مطلقاً، وهذا

الاشتمال علىٰ المصالح التامة، والكون علىٰ أتم النظم يحكىٰ عن كون ذاته المقدسة تبارك وتعالىٰ متصفة بالحكمة الأزلية الذاتية بذاته تعالىٰ، ويكفي في هذين الأمرين (أعني خلق الأشياء مشتملة علىٰ المصالح التامة والنظم الأتم) ولا يكفي منه شيء من الخلق من هذه الحيثية.

ثم إن أول ما يظهر من فعله وخلقه الأول (أعني أنوار محمد وآله الطاهرين) الحكمة الحقيقية، وهذه الحكمة الحقيقية آية لتلك الحكمة الذاتية، وهذه الحكمة هي الولاية المطلقة الثابتة لهم عليهم السلام حيث إن ولايتهم علىٰ جميع الأشياء هي التي تكون مقترنة بالحكمة، بل هي عين الحكمة، فبها صاروا متصرفين في الأشياء عن حكمة كما لا يخفىٰ، ولهذا إنه سبحانه أعطىٰ كلّ شيء ما له وبه نفعه وقوامه وذاته لذاته لتلك الحكمة الكائنة فيهم عليهم السلام.

هذا وإن الكائنة فيهم نسبتها إلى الحكمة الذاتية الإلهية نسبة الشعاع إلىٰ المنير، وإن ذاتهم المقدسة آية الله العليا لتلك الحكمة الإلهية الأزلية.

ثم إن الحكمة الثابتة لهم عليهم السلام التي هي ولايتهم بالله تعالىٰ علىٰ جميع الخلق هي السبب لصدور الأكوان واختراع الأعيان، وإبداع الهياكل الكونية عن عالم القدر والإلهي، ووصولها إلىٰ مقام القضاء والإمضاء الكوني علىٰ النظم الأتم، والاشتمال علىٰ المصالح التامة في كلياتها وجزئياتها العلوي والسفلي والدنيوي والأُخروي، كلّ ذلك بأقداره وإذنه تعالىٰ لهم عليهم السلام في تلك السببية في عالم الخلق، فكلّ حكمة موجودة في الخلق فهي أشعة حكمتهم الكلية، التي هي أشعة الحكمة الإلهية، فهم عليهم السلام بالنسبة إلىٰ الحكمة الإلهية مظهرها، وبالنسبة إلىٰ الحكمة الولوية حقيقتها، وبالنسبة إلىٰ الحكمة الكائنة في جزئيات الخلق مصادرها، فهم عليهم السلام معادن الحكمة في القسمين الآخرين ومظهر للقسم الأول كما لا يخفىٰ.

ثم إنه قد علمت أن الحكمة هو العلم وهو في الحقيقة الولاية الثابتة لهم، إذ حقيقتها هو العلم الحقيقي كما حقق في محلّه.

فحينئذ نقول: المراد من العلم الذي فسّرت الحكمة به العلم الاحاطي الذوقي، مقروناً بما يرتبط به من العمل، وهذا في كلّ شيء بحسبه، بيانه: أن العلم منشأ لجميع الكمالات.

منها: الحكمة والحصة المحصلة منه للحكمة، هو العلم الذي حقيقته إحاطة النفس بجهات العمل، من حيث اشتماله علىٰ النظم الكامل والمصالح المترتبة منه الموجبة لكماله، ولذا يكون هذا العلم مرتبطاً بالعمل؛ لظهور أثره في العمل كما لا يخفىٰ.

ولذا يعبر عن هذا العلم بالعلم الذوقي، إذ الذوق يحصل أثره فيما استعمل فيه، فهم عليهم السلام معادن الحكمة المفسرة بالعلم بهذا المعنىٰ وهم عليهم السلام مفاتيح هذه الحكمة، كما تقدم عن حديث خثيمة، وفي المحكي عن المجلسي الأول في شرح هذه الجملة ما لفظه كما ورد متواتراً عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وعلومهم علومه، والحكمة هي العلوم الحقيقية الإلهية، ولا ريب في أن علومهم عليهم السلام من الله تعالىٰ بل عين علم الله، إنتهىٰ.

والمراد منه إما أن معلوماتهم عين معلومات الله تعالىٰ بلا تفاوت بينهما، أو المراد أن علومهم جعلها الله تعالىٰ عين علمه تعالىٰ بهم عليهم السلام وبمن دونهم من ساير الخلق.

ثم إنه لا يراد أن علمه تعالىٰ وعلمهم عين الآخر بالتساوي، بحيث يكون كلّ ما علمه تعالىٰ عين ما علموه وبالعكس فإن هذا غير صحيح، لاستلزامه انحصار علمه تعالىٰ بما علموه، وهذا يستلزم انتهاء علمه مع أنه لا نهاية لعلمه تعالىٰ.

ففي توحيد الصدوق قال رجل بمحضر الصادق عليه السلام: الحمد لله منتهىٰ علمه قال عليه السلام: «لا تقل هذا فإنه ليس لعلمه منتهىً بل قل: منتهىٰ رضاه».

نقلته بالمعنىٰ، بل المراد أن كلّ ما علموه عين علمه تعالىٰ فيما علموه، لا أن كلّ ما علمه تعالىٰ عين ما علموه مصداقاً بنحو الكلية، فبين علمه تعالىٰ وعلمهم

العموم والخصوص المطلق فكلّ ما علموه عين علمه تعالىٰ لا بالعكس.

ثم إنه لما كانوا عليهم السلام باب الله إلىٰ خلقه وباب خلقه إليه تعالىٰ، فلا محالة أن علمه تعالىٰ بخلقه بواسطة علمهم، وعلم الخلق به تعالىٰ إنما هو بهم وبإفاضة علومهم لشيعتهم كما تقدم مراراً من أن أمير المؤمنين عليه السلام يطعم العلم للمؤمنين.

وقوله عليه السلام: «يا أبا خالد إن الأئمة هم الذين ينورون قلوب المؤمنين»، فعلوم المؤمنين من شعاع أنوار علومهم، وأما كون علمه تعالىٰ بخلقه بهم، فيدل عليه كثير من الروايات الدالة علىٰ أنهم محب الرب، وأنه تعالىٰ ينظر إلىٰ الخلق بهم، كما يظهر من خطاباته تعالىٰ للنبي صلى الله عليه وآله وقوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «لا أرىٰ غيرهم ولا يرون غيري».

فإنه يستفاد من أمثال هذه الروايات أنه تعالىٰ عالم بخلقه بهم، وهم مظهر علمه تعالىٰ بغيره، وقد تقدم ما يدل علىٰ هذا في شرح قوله عليه السلام: «وخزّان علمه» وستأتي الإشارة إليه أيضاً.

إذن فالمستفاد من الأحاديث الكثيرة أنه تعالىٰ لم يجعل لافاضته وعلمه وخلقه ورزقه، وإحيائه وإماتته باباً غير محمد وآله الطاهرين، جعلنا الله تعالىٰ معهم ومن أهل ولايتهم ومحبتهم في الدنيا والآخرة بفضله وكرمه ورحمته.

قوله عليه السلام: وحفظة سرّ الله.

أقول: الكلام هنا يقع في أُمور:

الأول: في بيان الأحاديث الواردة في هذا المعنىٰ.

والثاني: في بيان معنىٰ المراد منها.

والثالث: في بيان المحتملين لها وبيان شرائطها.

أما الأمر الأول فنقول:

في بصائر الدرجات بإسناده عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته

يقول: «إن حديث آل محمد صعب مستصعب، ثقيل مقنع أجرد ذكوان لا يحتمله إلّا ملك مقرب أو نبيّ مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان أو مدينة حصينة، فإذا قام قائمنا نطق وصدّقه القرآن».

وفيه بإسناده عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن حديثنا صعب مستصعب خشن مخشوش فانبذوا إلىٰ الناس نبذاً، فمن عرف فزيدوه، ومن أنكر فأمسكوا، لا يحتمله إلّا ثلاثة ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان».

وفيه بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن حديثنا صعب مستصعب، لا يؤمن به إلّا نبي مرسل أو ملك مقرّب أو عبد امتحن قلبه للإيمان، فما عرفت قلوبكم فخذوه، وما أنكرت قلوبكم فردّوه إلينا».

وفيه بإسناده عن إسماعيل بن عبدالعزيز قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول «حديثنا صعب مستصعب، قال: قلت: فسّر لي جعلت فداك، قال: ذكوان ذكي أبداً، قال: أجرد، قال: طري أبداً، قلت: مقنع؟ قال: مستور».

وفيه بإسناده عن عمرو بن شمر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن حديثنا صعب مستصعب أجرد ذكوان وعر شريف كريم، فإذا سمعتم منه شيئاً ولانت له قلوبكم فاحتملوه وأحمدوا الله عليه، وإن لم تحتملوه ولم تطيقوه فردّوه إلىٰ الامام العالم من آل محمد عليهم السلام فإنما الشقي الهالك الذي يقول: والله ما كان هذا، ثم قال: يا جابر إن الإنكار هو الكفر بالله العظيم».

أقول: الخطاب لجابر في ذيل الحديث، مع أنه لم يذكر في السند لعلّه كان في محضره عليه السلام ولذا خاطبه عليه السلام والله أعلم.

وفيه بإسناده عن أبي الصامت، قال أبو عبدالله عليه السلام: «إن حديثنا صعب مستصعب شريف ذكوان زكي وعر، لا يحتمله ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن ممتحن قلت: فمن يحتمله جعلت فداك؟ قال: من شئنا يا أبا الصامت، فظننت

أن لله عباداً هم أفضل من هؤلاء الثلاثة».

وفيه بإسناده عن أبي الصامت قال: سمعتِ أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن من حديثنا ما لا يحتمله ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا عبد مؤمن، قلت: فمن يحتمله؟ قال: نحن نحتمله».

وفيه عن يحيىٰ بن سالم الفراء قال: «كان رجل من أهل الشام يخدم أبا عبدالله عليه السلام فرجع إلىٰ أهله فقالوا: كيف كنت تخدم أهل هذا البيت، فهل أصبت منهم علماً؟

قال: فندم الرجل فكتب إلىٰ أبي عبدالله يسأله عن علم ينتفع به، فكتب إليه أبو عبدالله عليه السلام: أما بعد، فإن حديثنا حديث هيوب دغور، فإن كنت ترىٰ أنك تحتمله فاكتب إلينا والسلام».

وفيه عن سلمة بن صالح رفعه إلىٰ أبي جعفر عليه السلام قال: «إن حديثنا هذا تشمأزّ منه قلوب الرجال، فمن أقرّ به فزيدوه، ومن أنكره فذروه، إنه لابدّ من أن تكون فتنة يسقط فيها كلّ بطانة ووليجة، حتىٰ يسقط فيها من كان يشق الشعر شعرتين، حتىٰ لا يبقىٰ إلّا نحن وشيعتنا».

الأمر الثاني: في بيان المعنى المراد من هذه الأحاديث من مفرداتها وجملها فنقول:

قوله عليه السلام: «صعب مستصعب»، الصعب (بالفتح) العسر إلّا بيّ، والمستعصب (بكسر العين) أو (بفتحها) مبالغة في الصعب، أو الصعب ما يكون صعباً في نفسه، والمستصعب ما يعده الناس صعباً.

قال الفيروز آبادي: الصعب العسر، الأبيّ واستصعب الأمر صار صعباً، والشيء وجده صعباً لازم متعد (كذا عن المجلسي رحمه الله).

قوله عليه السلام: «ثقيل» أي صعب يعسر تحمله.

قوله عليه السلام: «مقنع»، أي مستور.

قوله: «أجرد»، أي طري أبداً يعني لا يعتريه البلىٰ أبداً، بل هو دائماً جديد، فلا تملّ منه قلوب العارفين به لما لا يعرضه المخلوقة.

وقوله عليه السلام: «ذكوان» أي زكيّ، يعني أنه في نفسه لا يقبل الخدشة والإشكال والاضمحلال بحيث يرد ويبطل، بل هو دائماً زكي مزكىٰ فلا يلوّث بتلك الأُمور،كيف وهو من شؤون الوحي الالهي.

وفي حديث مفضل الآتي قال: «وأما الذكوان» ذكاء المؤمنين، أي أنه تعالىٰ جعل فيهم ذكاء أي فهماً به يحتملون ما يسمعونه منهم عليهم السلام كما سيجي التصريح به في حديث أبي بصير الآتي.

وفيه أيضاً: وأما الأجرد» فهو الذي لا يتعلق به شيء من بين يديه ولا من خلفه، وهذاكما قلنا من أنه طريّ، أي لا يعتريه شيء يفسده من جميع الجهات، وفي جميع الأزمان.

قوله عليه السلام: «خشن مخشوش».

أقول: لعلّه تفسير لقوله عليه السلام: «صعب مستصعب».

ففي المجمع: الخشونة ضد النعومة والملاسة، إلىٰ أن قال: ورجل خشن قوي شديد، والأرض خشنة خلاف سهلة.

أقول: أي عسر المشي عليها، وحينئذ قوله: خشن مخشوش أي قوي شديد يعسر تحمله وهو معنىٰ صعب.

قوله عليه السلام: «لا يحتمله»، أي لا يؤمن به كما في حديث أبي جعفر عليه السلام.

قوله: «وعر»، ففي المجمع: ومطلب وعر.

قال الأصمعي: ولا تقل: وعر (بكسر العين) وقد وعر الشيء (بالضم) وعورة وذلك توعر أي صار وعراً لا سهلاً.

أقول: فهو حينئذ بمعنى الخشن والصعب.

قوله عليه السلام: «شريف كريم» أي ذو شرافة بالنسبة إلىٰ سائر المطالب، وكريم

إشارة إلىٰ أنه مصداق لقوله تعالىٰ: ﴿إنّه لقرآن كريم﴾.

قوله: «تشمأز منه قلوب الرجال»، أي تنقبض وتقشعر، يقال: اشمأزّ، أي انقبض واقشعر.

أقول: لأجل عدم تحمله وتعقله تعرضه هذه الحالة، وهي حالة إعراض القلب وانزعاجه عنه.

ثم إن هناك أحاديث تفسّر بعض ما سبق فلابد من ذكرها فنقول:

في بصائر الدرجات، قال عمير الكوفي في معنىٰ حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله ملك مقرب ولا نبيّ مرسل، فهو ما رويتم: إن الله تبارك وتعالىٰ لا يوصف، والمؤمن لا يوصف، فمن احتمل حديثهم فقد حدّهم، ومن حدّهم فقد وصفهم، ومن وصفهم بكمالهم فقد أحاط بهم وهو أعلم منهم، وقال: يقطع الحديث عمّن دونه فتكفي به.

وفي مرآة العقول: وقال: يقطع عمّن دونه فيكتفي بهم، لأنه قال: صعب فقد صعب علىٰ كل أحد حيث قال: صعب.

وفي المرآة: لأنه قال: صعب علىٰ كل أحد حيث قال: صعب، فالصعب لا يركب ولا يحمل عليه؛ لأنه إذا ركب وحمل عليه فليس بصعب.

أقول: ولعلّه يشرحه ما روي عن المفضل ففيه: قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إن حديثنا صعب مستصعب، ذكوان أجرد لا يحتمله ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا عبد امتحن قلبه للإيمان، أما الصعب فهو الذي لم يركب بعد، وأما المستصعب فهو الذي يهرب منه إذا رأى (رُئي) وأما الذكوان فهو ذكاء المؤمنين، وأما الأجرد فهو الذي لا يتعلق به شيء من بين يديه ولا من خلفه، وهو قول الله ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾[1] فأحسن الحديث حديثنا لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله حتىٰ

---

١ ـ الزمر: ٢٣.

يحدّه؛ لأن من حدّ شيئاً فهو أكبر منه والحمد لله علىٰ التوفيق. والإنكار هو الكفر».

أقول: قوله ﷺ: أما الصعب فهو الذي لم يركب، قد علمت أن الصعب هو ما كان في نفسه صعباً علىٰ كلّ أحد؛ لثقله وغموضه، وأما المستصعب فهو ما كان ثقيلاً علىٰ أحد؛ لضعفه عن دركه، ولذا قال ﷺ: «وأما الصعب فهو الذي لم يركب بعد»، يعني إلىٰ الآن، فيمكن أن يحتمل في زمان قيام القائم (عج) أو من كان قوياً.

وإليه يشير ما في البصائر بإسناده عن زياد بن سوقة قال: كنا عند محمد بن عمرو بن الحسن فذكر ما أتى إليهم فبكىٰ حتىٰ ابتلت لحيته من دموعه، ثم قال: إن أمر آل محمد أمر جسيم مقنع لا يستطاع ذكره، ولو قد قام قائمنا لتكلم به وصدّقه القرآن، وتقدم مثل ذيل هذا الكلام عن أبي جعفر ﷺ من قوله ﷺ: «فإذا قام قائمنا نطق وصدقه القرآن».

فيعلم أن أذهان الناس وعقولهم بعد ضعيفة، فإذا قام القائم ونطق به، وكملت عقول الناس، قبِله الناس كما لا يخفىٰ.

وأما تفسيره ﷺ المستصعب بـ: فهو الذي يهرب منه إذا رأى (رُئي) فهو الذي لا يمكن تحمله لأحد غيرهم.

ولعلّه إليه يشير ما عن أبي الصامت من قوله: قلت: فمن يحتمله؟ قال ﷺ: نحن.

وما ورد من: أن الحسن بن علي ﷺ ذكر من فضائل أهل البيت لرجل من الشام، فلم يلبث أن صار ذعراً ودهش مما سمع، فراجع.

وفي الكافي بإسناده عن بعض أصحابنا قال: كتبت إلىٰ أبي الحسن صاحب العسكر ﷺ: جعلت فداك، ما معنىٰ قول الصادق ﷺ: «حديثنا لا يحتمله ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان؟

فجاء الجواب: إنما معنىٰ قول الصادق ﷺ أي لا يحتمله ملك ولا نبيّ ولا مؤمن، إن الملك لا يحتمله حتىٰ يخرجه إلىٰ ملك غيره، والنبي لا يحتمله حتىٰ يخرجه إلىٰ نبيّ غيره، والمؤمن لا يحتمله حتىٰ يخرجه إلىٰ مؤمن غيره، فهذا معنىٰ قول

جدّي ﷺ».

قال المجلسي ﵀: أي لا يصبر ولا يطيق كتمانه لشدة حبّه لهم، وحرصه علىٰ ذكر فضائلهم حتىٰ ينقله إلىٰ آخر فيحدثه به الخ، ولكن عدم هذا التحمل بهذا المعنىٰ لا ينافي عدم تحمل أحاديث مطلقاً كما دلّ عليه كثير من الأحاديث المتقدم، أو عدم تحمل بعضهم دون بعض.

فعن معاني الأخبار بإسناده عن سدير قال: سألت أبا عبدالله ﷺ عن قول أمير المؤمنين ﷺ: «إن أمرنا صعب مستصعب لا يقرّ به إلّا ملك مقرب أو نبيّ مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للايمان، فقال: إن في الملائكة مقربين وغير مقربين، ومن الأنبياء مرسلين وغير مرسلين، ومن المؤمنين ممتحنين وغير ممتحنين، فعرض أمركم هذا علىٰ الملائكة فلم يقرّ به إلّا المقربون، وعرض علىٰ الأنبياء فلم يقرّ به إلّا المرسلون، وعرض علىٰ المؤمنين فلم يقرّ به إلّا الممتحنون».

فهذا الحديث يدل علىٰ أن من غرائب شؤون ولايتهم ما لا يحتمله إلّا هؤلاء الثلاثة (أي المقربون والمرسلون والممتحنون) فتحصل أن أمرهم علىٰ وجوه:

منه ما لا يحتمله غيرهم.

ومنه ما لا يحتمله إلّا من شاءوا.

ومنه ما لا يحتمله إلّا هؤلاء الثلاثة.

ومنه ما لا يحتمل بقاءه إلّا ينتقل إلىٰ غيره، وذلك لاختلاف مراتب علومهم وولايتهم.

قال المجلسي ﵀ في بيان صعوبة أمرهم: وقد قيل: وذلك لأن مكنون العلم عزيز المنال دقيق المدرك صعب الوصول، يقصر عن وصوله الفحول من العلماء فضلاً عن الضعفاء، ولهذا إنما يخاطب الجمهور بظواهر الشرع ومجملاته دون أسراره وأغواره؛ لقصور أفهامهم عن إدراكها، وضيق حواصلهم عن احتمالها، إذ لا يسعهم الجمع بين الظاهر والباطن فيظنون تخالفهما وتنافيهما فينكرون فيقتلون.

وأقول: بل الظاهر أن كلّاً من الخلق ولا سيما المقربين يحتمل علماً لا يحتمله الآخر، كما روىٰ الكشي بإسناده عن أبي بصير قال: أبوا عبدالله عليه السلام قال: رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا سلمان لو عرض علمك علىٰ مقداد لكفر، يا مقداد لو عرض علمك علىٰ سلمان لكفر».

أقول: وفي توحيد الصدوق بإسناده عن أبي معمّر العداني: أن رجلاً أتىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وذكر فيه موارد شكه في القرآن ثم أجاب عنه إلىٰ أن قال عليه السلام: «وليس كلّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكلّ الناس؛ لأن منهم القوي والضعيف؛ ولأن منه ما يطاق حمله، ومنه ما لا يطاق حمله إلّا من يسهل الله له حمله وأعانه عليه من خاصة أوليائه»، الحديث.

ومما يدل علىٰ أن بعض أُمورهم سرّ غامض ما في بصائر الدرجات بإسناده عن جابر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن أمرنا سرّ في سرّ، وسرّ مستسرّ، وسرّ لا يفيد إلّا سرّ وسرّ علىٰ سرّ وسرّ مقنع بسرّ».

أقول: هذا الحديث مفاده كمفاد أحاديث التقية، أي أنه تعالىٰ أخذ الميثاق من المؤمنين أن لا يذيعوا أمر الولاية لغير أهلها من المخالفين.

وفيه بإسناده عن مرازم قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إن أمرنا هو الحقّ وحقّ الحقّ، وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن، هو السرّ وسرّ السرّ وسرّ المستسرّ وسرّ مقنع بالسرّ».

فدلّت هذه الأحاديث علىٰ أن أمرهم من الأسرار السريرة يعسر الوصول إليه، والوجه فيه أنهم عليهم السلام بلغوا من عوالم الإمكان أقاصيها، حتىٰ أن فوق عوالمهم ليس عالم إلّا وهو سرّ لا يمكن تعديه من الله تعالىٰ إلىٰ غيره، فهم عليهم السلام حجابه والحافظون لسرّه تعالىٰ والذابون عن حريمه.

ففي الدعاء: وصلى الله علىٰ محمد المنتجب وعلىٰ أوصيائه الحجب.

وإلىٰ هذه الحجب أشار أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه من قوله عليه السلام: «وحال

دون غيبه المكنون حجب من الغيوب».

ومنه يظهر أنهم عليهم السلام أول الخلق وأشرفهم وأفضلهم وأقربهم من الله تعالىٰ، وهذه المرتبة هي المرتبة المشار إليها فيما روي في الكافي بإسناده إلىٰ محمد بن عبدالخالق وأبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا أبا محمد إن عندنا والله سرّاً من سرّ الله، وعلماً من علم الله، والله ما يحتمله ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلّف الله أحداً غيرنا، ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا، وإن عندنا سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله. أمرنا الله بتبليغه فبلغنا عن الله عزوجل ما أُمرنا بتبليغه، فلم نجد له موضعاً ولا أهلاً ولا حمالة يحتملونه، حتىٰ خلق الله لذلك أقواماً خلقوا من طينة خلق منها محمد وآله وذريته عليهم السلام ومن نور خلق الله محمداً وذريته، صنعهم بفضل صنع رحمته التي صنع منها محمداً وذريته، فبلّغنا عن الله ما أُمرنا بتبليغه فقبلوه واحتملوه ذلك (فبلغهم ذلك عنا فقبلوه وإحتملوه) وبلغهم ذكرنا، فمالت قلوبهم إلىٰ معرفتنا وحديثنا، فلولا أنهم خلقوا من هذا لما كانوا كذلك لا والله ما احتملوه.

ثم قال: إن الله خلق أقواماً لجهنم والنار، فأمرنا أن نبلّغهم كما بلّغناهم واشمأزوا من ذلك ونفرت قلوبهم وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذبوا به، وقالوا ساحر كذاب، فطبع الله علىٰ قلوبهم وأنساهم ذلك، ثم أطلق الله لسانهم ببعض الحق فهم ينطقون به وقلوبهم منكرة ليكون ذلك دفعاً عن أوليائه وأهل طاعته».

أقول: لا ريب في أن في أهل الخلاف من يقرّ بفضائل أهل البيت وعلوّ مقامهم، بحيث يغترّ من لا علم له بحقيقة الأمر، ويذهب إلىٰ صحة عقائدهم، وأنهم من أهل النجاة، ومع ذلك هذا المخالف يعتقد بولاية فلان وفلان لعنهم الله، فاقرارهم ببعض فضائل أهل البيت لا ينجيهم من العذاب لعقيدتهم بولاية الثلاثة، وإنما جعلهم الله مقرّين ببعض الفضائل؛ ليكون ذلك دفعاً عن أوليائه وأهل طاعته.

فالعاقل اللبيب من الشيعة لابد له من أن لا يغتر بهؤلاء، فيزعم أنهم علىٰ

الحقّ، وهؤلاء كثيرون نحو عمر بن عبدالعزيز وابن ابي الحديد، وصاحب كتاب ينابيع المودة وأمثالهم، نعم لو آل أمرهم إلىٰ التشيع فهم حينئذ من أهل النجاة، كما نقل في حقّ بعضهم، والله العالم.

ولولا ذلك ما عبد الله في أرضه، فأمرنا بالكف عنهم والستر والكتمان، فاكتموا عمّن أمر الله بالكف عنه، وأستروا عمّن أمر الله بالستر عنه والكتمان عنه.

قال: ثم رفع يده وبكىٰ وقال: اللهم إن هؤلاء لشرذمة قليلون، فاجعل محيانا محياهم، ومماتنا مماتهم، ولا تسلط عليهم عدواً لك فتفجعنا بهم فإنك إن أفجعتنا بهم، لم تعبد أبداً في أرضك، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وسلم تسليماً.

أقول: قد تقدم في بيان أهمية أمر الولاية من حيث غموض معناها، وأنها من الأسرار ما يشرح لك هذه الأحاديث، ويبين معانيها وشرحها ما يستفاد منها، وما يشترط علينا من الإيمان بها، وبيان كيفية الوصول إليها، وبيان تميز حقّها من باطلها المدعىٰ كونه حقاً من المتصوفة (لعنهم الله تعالىٰ) فراجع.

وكيف كان فأسرارهم كثيرة أهمها: أمر الولاية بما لها من المعنىٰ المتقدم من الولاية التشريعية والتكوينية والمعارف الإلهية، التي هي فوق الكمالات والعلوم المعلومة.

والحاصل: أنهم عليهم السلام كما كانوا محل الأسرار من أول الإيجاد، فكذلك هم محلّها بقاء بلا انتهاء.

ففي الكافي، عن أبي بصير قال: دخلت علىٰ أبي عبدالله عليه السلام فقلت جعلت فداك إني أسألك عن مسألة هاهنا أحد يسمع كلامي، قال: فرفع أبو عبدالله عليه السلام ستراً بينه وبين بيت آخر فاطلع فيه ثم قال: يا أبا محمد سل عما بدا لك.

قال: قلت: جعلت فداك إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله علّم علياً عليه السلام باباً يفتح له منه ألف باب، قال: فقال: «يا أبا محمد إن رسول الله صلى الله عليه وآله علّم علياً عليه السلام ألف باب يفتح من كلّ باب ألف باب، قال: قلت: هذا العلم؟ قال: فنكت ساعة في

الأرض ثم قال: إنه لعلم وما هو بذلك.

قال: ثم قال: يا أبا محمد وإن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة!

قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة؟

قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ﷺ وإملائه من فلق فيه، وخط علي بيمينه فيها كلّ حلال وحرام، وكلّ شيء يحتاج إليه الناس حتىٰ الارش في الخدش، وضرب بيده إليّ، فقال: تأذن لي يا أبا محمد؟

قال: قلت: جعلت فداك إنما أنا لك فاصنع ما شئت، قال: فغمزني بيده وقال: حتىٰ ارش هذا، كأنه مغضب، قال: قلت: هذا والله العلم، قال: إنه لعلم وليس بذاك.

ثم سكت ساعة ثم قال: وإن عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر!

قلت: وما الجفر؟

قال: وعاء من آدم فيه علم النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل، قال: قلت: إن هذا هو العلم، قال: إنه لعلم وليس بذلك.

ثم قال: وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام!

قال: قلت: وما مصحف فاطمة عليها السلام؟

قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرّات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد، قال: قلت: هذا والله العلم، قال: إنه لعلم وما هو بذلك.

ثم سكت ساعة، ثم قال: إن عندنا علم ما كان، وعلم ما هو كائن إلىٰ أن تقوم الساعة! قال: قلت: جعلت فداك هذا والله العلم، قال: إنه لعلم وليس بذاك.

قال: قلت: جعلت فداك فأيّ شيء العلم؟!

قال: ما يحدث بالليل والنهار الأمر بعد الأمر، والشيء بعد الشيء إلىٰ يوم القيامة».

وفيه بإسناده عن أبي يحيىٰ الصنعاني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي «يا أبا يحيىٰ إنّ لنا في ليالي الجمعة لشأناً من الشأن.

قال: قلت: جعلت فداك وما ذاك الشأن؟

قال: يؤذن لأرواح الأنبياء الموتىٰ عليهم السلام وأرواح الأوصياء الموتىٰ، وروح الوصي الذي بين ظهرانيكم يعرج بها إلىٰ السماء حتىٰ توافىٰ عرش ربّها، فتطوف به أسبوعاً وتصلي عند كلّ قائمة من قوائم العرش ركعتين، ثم تردّ إلى الأبدان التي كانت فيها فتصبح الأنبياء والأوصياء قد ملئوا سروراً، ويصبح الوصي الذي بين ظهرانيكم وقد زيد في علمه مثل جمّ الغفير».

ومثله أحاديث أُخر بهذا المضمون مع تفاوت يسير في اللفظ.

وفيه بإسناده عن صفوان قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: كان جعفر بن محمد عليه السلام يقول: «لولا إنا نزاد لأنفدنا».

فيعلم من هذه الأحاديث أنحاء علومهم وأطوار أسرارهم، وتقدم بيان المراد من قوله: ما يحدث بالليل والنهار كقوله عليه السلام فيما تقدم: «إنما العلم ما يحدث ساعة بعد ساعة»، إن هذا إشارة إلىٰ أنهم في حدّ الواجب والممكن، فيتلقون منه تعالىٰ دائماً ما ليس كان قبله.

وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿**وقل ربّ زدني علماً**﴾ والحمد لله ربّ العالمين.

الأمر الثالث: في بيان المحتملين لها فنقول:

المستفاد من حديث محمد بن عبدالخالق وأبي بصير: أن المحتملين لها هو الشيعة الذين خلقهم الله من طينة خلق منها محمد وآله الطاهرون.

وإليه يشير قوله عليه السلام: «وأما الذكوان فهو ذكاء المؤمنين»، أي أن المؤمنين بذكائهم يعلمونها ويحتملونها، وهؤلاء كأصحاب السرّ لأمير المؤمنين عليه السلام ومن كانوا كذلك لكلّ إمام عليه السلام.

ثم إن من المحتملين الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون كما تقدم، وتقدم في عرض ولا يتهم علىٰ الملائكة والأنبياء، وكلّ شيء ما يدل علىٰ أن المحتمل من هؤلاء من هم، ويعلم من قول أبي الصامت: فظننت أن لله عباداً هم أفضل من

هؤلاء الثلاثة، أن أُولئك العباد هم الأئمة عليهم السلام حيث لهم من العلم ما ليس لغيرهم، وما لم يكلف به أحد غيرهم، ولكن غيرهم كلّ يحتمل من أسرارهم بقدر ظرفيته وصفاء قلبه، كما تقدمت الإشارة إليه سابقاً.

ثم إنه يعلم من الأحاديث أن لغير المستعدين والقادرين لتحمل أسرارهم وظائف لابدّ من مراعاتها.

منها: أنه إذا لم يحتمله أو اشمأز منه القلب فلابد من ردّ علمه إلى الله وإلىٰ الرسول وإليهم عليهم السلام، ولا يجوز إنكاره كما في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله: «وإنما الهالك أن يحدث أحدكم بشيء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا، والله ما كان هذا. والانكار هو الكفر».

وفي البصائر بإسناده عن سفيان بن السمط قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك إن الرجل ليأتينا من قبلك، فيخبرنا عنك بالعظيم من الأمر، فتضيق به صدورنا حتىٰ نكذبه، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «أليس عني يحدثكم؟ قال: قلت: بلىٰ، قال: فيقول لليل: إنه نهار؟ وللنهار: إنه ليل؟ قال: فقلت: لا، قال: ردّه إلينا فإنك إن كذبت فإنما تكذبنا».

وفي المحكي عن الصدوق في العلل بإسناده الصحيح عن أبي بصير، عن أحدهما عليهما السلام قال: «لا تكذبوا بحديث أتاكم به مرجئ ولا قدري ولا خارجي يسند إلينا، فإنكم لا تدرون لعلّه شيء من الحقّ، فتكذبوا الله عزوجل من فوق عرشه».

وقد يقال: بأن المراد من الكفر ما يقابل كمال الإيمان (أعني التسليم التام) وهو إذا لم يعلم قطعاً صدوره منه عليه السلام.

قيل: ويؤيده ما رواه الصدوق رحمه الله في معاني الأخبار بإسناده عن عبدالغفار الحجازي، قال: حدثني من سأله (يعني الصادق عليه السلام): هل يكون كفر لا يبلغ الشرك؟ قال: «إن الكفر هو الشرك، ثم قام فدخل المسجد فالتفت إليّ وقال: نعم

الرجل يحمل الحديث إلىٰ صاحبه فلا يعرفه فيردّه عليه فهي نعمة كفرها ولم يبلغ الشرك».

وقد يقال: إنه يحتمل أن يكون المراد بالخبر العظيم الذي يردّ التكذيب، الذي يكون بمحض الرأي من غير أن يعرضه علىٰ الآيات والأخبار المتواترة، كما هو دأب كثير من المنتحلين إلىٰ العلم، العارين عن المعرفة والاطلاع علىٰ المعارف، ومن المعلوم أنه فرق بين عدم الردّ وبين تكذيبه، وبين قبوله وبين العمل به.

وربما يؤيد هذا أو يدلّ عليه ما رواه الصدوق ﷺ في معاني الأخبار بإسناده عن إبراهيم قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل عسىٰ رجل يكذبني وهو على حشاياه متكي؟ قالوا: يا رسول الله ومن الذي يكذبك؟ قال: الذي يبلغه الحديث فيقول: ما قال هذا رسول الله ﷺ قط، فما جاءكم عنّي من حديث موافق للحقّ فأنا قلته، وما أتاكم عني من حديث لا يوافق الحقّ فلم أقله ولن أقول إلّا الحق».

ومثله ما رواه الصفار في البصائر بإسناده عن أبي عبيدة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «من سمع من رجل أمراً لم يحط به علماً فكذب به، ومن أمره الرضا بنا والتسليم لنا فإن ذلك لا يكفّره».

أقول: أي أنه إذا كان تكذيبه لما علم أنه مخالف لما علم صدوره منهم عليهم السلام وكان في مقام الرضا والتسليم أي يقرّ بأنه بأيّ معنىٰ صدر من المعصوم فهو الحقّ، فلا ينكر الحديث بواقعه، وبما هو المراد منه عنده عليه السلام فذاك لا يصير سبباً لكفره؛ لأن هذا في الحقيقة ردّ علمه إليهم لا إنكاره مطلقاً كما تومئ إليه الأحاديث السابقة الدالة علىٰ أن الإنكار هو الكفر، فإن الإنكار فيها محمول علىٰ الإنكار مطلقاً، فتحصل أنه لا يجوز الإنكار مطلقاً، نعم لا يعمل به ويرد علمه إلىٰ أهله.

ومنها الكتمان لما سمعه من أحاديثهم في الأسرار سواء عرفها أم لم يعرفها، فقد تقدم قوله عليه السلام في حديث أبي جعفر عليه السلام: «إن أمرنا هذا مستور مقنع بالميثاق مَن هتكه أذلّه الله».

وفي الكافي بإسناده عن ابن سنان أو غيره رفعه إلىٰ أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن حديثنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلّا صدور منيرة، أو قلوب سليمة، أو أخلاق حسنة. إن الله أخذ من شيعتنا الميثاق كما أخذ علىٰ ابن آدم: ﴿أَلَست بربكم﴾، فمن وفىٰ لنا وفىٰ الله له بالجنة، ومن أبغضنا ولم يرد إلينا حقنا في النار خالداً مخلداً».

فالوفاء لهم إنما هو بكتمان سرهم أيضاً بإضافة أداء حقهم عليهم السلام ومن هذا يعلم أن الحفظ لأسراره تعالىٰ إنما هو بالكتمان، كما أنهم عليهم السلام حفظوا تلك بمثل الكتمان أيضاً.

ففي الوافي عن الكافي، بإسناده عن سليمان بن خالد قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا سليمان إنكم علىٰ دين من كتمه أعزّه الله تعالىٰ ومَن أذاعه أذلّه الله».

وفيه عنه بإسناده عن الشحّام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «أمر الناس بخصلتين فضيّعوهما، فصاروا منهما علىٰ غير شيء الصبر والكتمان».

وفيه عنه بإسناده عن الحذاء قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام: «والله إن أحب أصحابي إليّ أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروىٰ عنا فلم يقبله اشمأزّ منه وجحده، وكفّر من دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج وإلينا أُسند، فيكون بذلك خارجاً من ولايتنا».

وفيه، عنه بإسناده عن حريز، عن معلىٰ بن خنيس قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا معلىٰ أُكتم أمرنا ولا تذعه، فإن مَن كتم أمرنا ولم يذعه أعزه الله في الدنيا، وجعله نوراً بين عينيه في الآخرة يقوده إلىٰ الجنة، يا معلىٰ مَن أذاع أمرنا ولم يكتمه أذلّه الله به في الدنيا، ونزع النور من بين عينيه في الآخرة، وجعله ظلمة تقوده إلىٰ النار، يا معلىٰ إن التقية من ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، يا معلىٰ إن الله يحب أن يعبد في السرّ، كما يحب أن يعبد في العلانية، يا معلىٰ إن المذيع لأمرنا كالجاحد لنا».

وفيه، عنه، محمد بن أحمد عن البزنطي قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن

مسألة، فأبىٰ وأمسك ثم قال: «لو أعطيناكم كلّ ما تريدون كان شرّاً لكم، وأُخذ برقبة صاحب هذا الأمر، قال أبو جعفر عليه السلام: ولاية الله أسرّها إلىٰ جبرئيل، وأسرّها جبرئيل إلىٰ محمد صلى الله عليه وآله وأسرّها محمد صلى الله عليه وآله إلىٰ علي عليه السلام وأسرّها علي إلىٰ من شاء الله. ثم أنتم تذيعون ذلك من الذي أمسك حرفاً سمعه، قال أبو جعفر في حكمة آل داود: ينبغي للمسلم أن يكون مالكاً لنفسه مقبلاً علىٰ شأنه عارفاً بأهل زمانه.

فاتقوا الله ولا تذيعوا حديثنا، فلولا أن الله يدافع عن أوليائه وينتقم لأوليائه من أعدائه، أما رأيت ما صنع الله بآل برمك وما انتقم لأبي الحسن عليه السلام، وقد كان بنو الأشعث علىٰ خطر عظيم يدفع الله عنهم بولايتهم لأبي الحسن عليه السلام وأنتم بالعراق ترون أعمال هؤلاء الفراعنة، وما أمهل الله لهم، فعليكم بتقوىٰ الله ولا تغرنكم الدنيا، ولا تغتروا بمن أمهل له، وكان الأمر قد وصل إليكم».

وفيه، بإسناده عن عيسىٰ بن أبي منصور قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول «نفس المهموم لنا المغتم لظلمنا تسبيح، وهمه لأمرنا عبادة، وكتمانه سرنا جهاد في سبيل الله، قال لي محمد بن سعيد: أُكتب هذا بالذهب فما كتبت شيئاً أحسن منه».

أقول: هذه جملة من الأحاديث الآمرة بكتمان أمر الولاية عن غير أهله، وبكتمان أسرارهم عن غير أهلها، ولا يكون الحفظ لها إلّا بالكتمان وهم عليهم السلام حفظة سرّ الله بهذا الكتمان، بل الظاهر المستفاد ابتداءً من قوله عليه السلام: وحفظة سرّ الله، هو بيان مقام حفظهم لها وعدم إذاعتها كما علمته من إمساك أبي الحسن الرضا عليه السلام.

ويدل علىٰ لزوم هذا الحفظ كما حفظوا هم عليهم السلام ما في الوافي عن الكافي بإسناده عن إسمعيل بن مهران عمّن حدّثه عن جابر ين يزيد قال: حدثني محمد بن علي عليه السلام سبعين حديثاً لم أُحدث بها أحداً قطّ، ولا أُحدث بها أحداً أبداً، فلما مضىٰ محمد بن علي عليه السلام ثقلت علىٰ عنقي وضاق بها صدري فأتيت أبا عبدالله عليه السلام فقلت: جعلت فداك إن أباك حدثني سبعين حديثاً لم يخرج منّي شيء منها إلىٰ أحد وأمرني بسترها، وقد ثقلت علىٰ عنقي وضاق بها صدري، فما تأمرني؟

فقال: «يا جابر إذا ضاق بك من ذلك شيء، فاخرج إلىٰ الجبّانة واحتفر حفيرة، ثم دلّ رأسك فيها، وقل: حدثني محمد بن علي بكذا وكذا ثم طمّه فإن الأرض تستر عليك، قال جابر: ففعلت ذلك فخفّف عني ما كنت أجده».

أقول: إن الكلام وإن كان يوجب خفة على النفس إلّا أنه عليه السلام لعلّه أشار بقوله: إن الأرض تستر عليك، إلى أنّه لا تجد من يستر عليك تلك الأحاديث ولا يذيعها إلّا الأرض، ويدل هذا علىٰ قلة أهل الكتمان.

قال المحدث الكاشاني رحمه الله مما يناسب إيراده في هذا المقام ما رواه أبو عبدالله محمد بن جعفر الحائري بإيصال الإسناد إلىٰ أبي الحسن علي بن ميثم قال: حدثني والدي ميثم (رضوان الله عليه) قال: أصحرني مولاي أمير المؤمنين عليه السلام ليلة من الليالي حتىٰ خرج عن الكوفه، وانتهىٰ إلىٰ مسجد الجعفي، وتوجّه إلىٰ القبلة، فصلىٰ أربع ركعات، فلما سلّم وسبح بسط كفيه وقال: «الهي كيف أدعوك وقد عصيتك، وكيف لا أدعوك وقد عرفتك، إلىٰ آخر الدعاء، ثم سجد وعفر خدّه وقال: العفو العفو (مائة مرة). ثم قام وخرج، فاتبعته حتىٰ برز إلىٰ الصحراء، وخطّ له خطة وقال لي: إياك أن تتجاوز هذه الخطة، ومضىٰ عني وكانت ليلة مدلهمّة فقلت: يا نفس أسلمت مولاك وله أعداء كثيرة، وأيّ عذر يكون لك عند الله وعند رسوله، والله لاقفو أثره ولاعلّمن خبره، وإن كنت قد خالفت أمره، وجعلت أتبع أثره فوجدته عليه السلام مطلقاً في البئر إلىٰ نصفه يخاطب البئر والبئر تخاطبه.

فحسّ عليه السلام بي فالتفت وقال: من؟ قلت: ميثم، فقال: يا ميثم ألم آمرك أن لا تتجاوز الخطة؟ قلت: يا مولاي خشيت عليك من الأعداء، فلم يصبر علىٰ ذلك قلبي، فقال: سمعت مما قلت شيئاً؟ قلت: لا، يا مولاي، فقال: يا ميثم:

وفي الصدر لبانات ... إذا ضاق لها صدري
نكتُ الأرضَ بالكف ... وأبديتُ لها سري
فمهما تنبتُ الأرضُ ... فذاك النبتُ من بذري

نقله عن كتاب عمل مساجد الكوفة.

فانظر إلىٰ أنه عليه‌السلام كيف كان كتوماً لأسرار الباري تعالىٰ، وأنه كان يطلع في البئر فيخاطبه، فهم عليهم‌السلام هكذا حفظة لأسراره تعالىٰ.

وحاصل الكلام في حفظهم عليهم‌السلام لأسراره تعالىٰ أنهم عليهم‌السلام لا يظهرونها، أو لا يظهرون منها إلّا ما يحتمل علىٰ من يحتمل، كما يظهر من قول أمير المؤمنين عليه‌السلام المتقدم عن التوحيد، أو أنهم عليهم‌السلام لا يظهرونها إلّا لبعضهم أو لبعض خواصهم، كما يظهر من قوله عليه‌السلام في خبر أبي الصامت: أو من شئنا، نظير سلمان رضي‌الله‌عنه ومن شابهه أو أنهم لا يغيرونها ولا يبدلونها، فما كان منها ذاتياً لهم فهم عليهم‌السلام يحفظونها عن التغيير عنهم بدوام التعهد لها فيما يرجع منها لهم عليهم‌السلام أو لغيرهم، وبالتحفظ لها بالعلم والعمل بها.

أما ما كان التحفظ لها بما هي لهم فلأنهم عليهم‌السلام محال مشية الله، فلا محالة لا يصدر منهم صفة أو فعل إلاّ ما هو مطابق لمشيته تعالى، وهي متحدة متعلقة مع تلك الأسرار فلا محالة تحفظ فيهم بتلك المشيّة الإلهية ومن هذا القبيل الأسرار التي منحهم الله تعالىٰ، وذلك مثل ولايتهم وأمرهم فإنها له تعالىٰ، ولكنها منهم كما دلّت عليها أخبار كثيرة من قولهم: «ولايتنا ولاية الله» فهم عليهم‌السلام يحفظونها أي قائمون بمقتضاها، أو بتبليغ دواعيها، أو أنهم عليهم‌السلام مؤسسون لأساس بنيانها، أو بنيان متعلقاتها أو تعلقاتها في قلوب شيعتهم؛ لكي تستقر فيها آثارها وتظهر فيها أنوارها، هذا كلّه فيما يرجع منها لهم عليهم‌السلام.

وأما التحفظ لها بما هي لغيرهم فتحفظهم لها بأنهم داعون الناس لها، خصوصاً أنهم يدعون شيعتهم لها وحافظون لها عن مغالطة المشبّهين والمحرّفين والملبسين للدين حتىٰ لا يشتبه علمهم، بل يأخذونها منهم عليهم‌السلام بيضاء نقية طاهرة ظاهرة غير خفية بحيث تمتاز تلك الأسرار عن دعوىٰ القائلين بالباطل من الذين ﴿وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً بل عباد مكرمون ❁ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[1]

---

١ ـ الأنبياء: ٢٦، ٢٧.

وتمتاز أيضاً عما انتحله المبطلون الذين يلحدون في أسمائه ومعارفه تعالىٰ.

وقد يكون التحفظ عنها مطلقاً بالتعبير عنها بالإشارة والسرّ، كما في كثير من عبائرهم عليهم السلام فيعلمها من كان من أهل إشارتهم وبشارتهم وأهل سرّهم من خواصهم، كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وآله: «فربّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه»، هذا كلّه في كيفية حفظهم عليهم السلام للأسرار، فهي باعتبار حقيقتها وباعتبار محتمليها تنقسم إلىٰ هذه الأقسام ولكلّ منها حفظ يخصّه، ويظهر من خبر موسىٰ والخضر كما عن الباقر عليه السلام حيث قال: ما معناه: لو كنت عندهما لأخبرتهما بما لا يكون عندهما، إنهم عليهم السلام حافظون للأسرار التي لم يعلمها الأنبياء عليهم السلام.

ومحصل الكلام: أن الولاية لما كانت بما لها من المعنىٰ المراد له تعالىٰ ولهم هي سرّ الله المستسرّ بالسرّ، فهي لا محالة لها في عالم ما سواه تعالىٰ مظاهر مختلفة.

بيانه: أن الولاية السرّية لها مراتب، مرتبة الحقيقة العقلية بلا عروض صورة أو مادة لها، ويعبر عن هذه المرتبة بالاسم الأعظم بنحو الجنس الشامل لاثنين وسبعين، اسماً، ومرتبة الصورة المتميزة بعضها عن بعض ذاتاً، وهي مرتبة الأسماء الحسنىٰ التي هي أنواع بالنسبة إلىٰ الاسم الأعظم، وهاتان المرتبتان تلاحظان بلحاظ التحقق والوجود الواقعي النفس الامري كلّ منهما في صقع عالمه، ومرتبة العلم (أي الصوره العلمية القائمة بأنفس العلماء) لا تحقق لها إلّا بالذهن، وليست إلّا صوراً علمية.

وهناك مرتبة رابعة وهي مرتبة تشخيص بعض مصاديقها الجزئية في أذهان عامة المكلفين المتلقى من العلماء إليهم والمتميز بأذهانهم وعقولهم الناقصة، فهذه مراتب أربع.

أما المرتبة الأولىٰ: فقد يعبر عنها بالذكر الأول والتجلي الأعظم، وحقيقة الولاية الإلهية ومرتبة غيب الغيوب في نفسها، والعقل الأول فهذه المرتبة الثابتة لهم منه تعالىٰ هي حقيقة الولاية التي لا يحتملها غيرهم المعبّر عنها بقوله: نحن، بعد

السؤال عمّن يحتملها في حديث أبي الصامت المتقدم والمشار إليها بقوله ﷺ: «لا يحتملها ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وهي حقيقة ذاتهم وصفاتهم وأفعالهم وأمرهم ونهيهم وهي سرّ الله الذي لا يطلع عليه غيرهم».

وإليه يشير قولهم عليهم السلام: «لا يقاس بنا الناس»، وقوله عليه السلام: فيما يأتي: «آتاكم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين»، وعلمت أن هذه المرتبة هي مرتبة الاسم الأعظم بتمامه وكماله المختص بهم عليهم السلام دون ساير الأنبياء عليهم السلام.

وأما المرتبة الثانية: وهي مرتبة الأسماء الحسنىٰ وحقائق الصفات الربوبية، التي تكون عامله في عالم الوجود وبها قوام الموجودات بأسرها، كما أُشير إلىٰ هذا ما في دعاء كميل ودعاء السمات وسائر الأدعية الواردة في هذا المورد، كما لا يخفىٰ علىٰ المتتبع لآثارهم. وهذه المرتبة لا يحتملها إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وهذه الطبقات الثلاث لكلّ واحد منها مراتب مختلفة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين كما أُشير إليه في الأحاديث من أن ولايتهم عرضت على الكلّ.

فكلّ من هذه الطبقات الثلاث له الفضل بقدر ما تحقق فيه من تلك الولايات والمعرفة بها كما تقدمت الإشارة إليه فيما سبق مراراً، وقد يعبّر عن هذه المرتبة بالذكر الثاني، ويندرج في هذه المرتبة جميع مراتب معارف الأولياء من أعاليهم إلىٰ أدنىٰ المؤمنين. وبعبارة أُخرىٰ: من سلمان رضي الله عنه إلىٰ أدنى المؤمنين كما لا يخفىٰ.

وأما المرتبة الثالثة: وهي مرتبة العلم الصوري القائم بالنفس وهي مرتبة درك هذه الأُمور بالعقل، وإن لم يكن واجداً لها بالحقيقة كالعلوم الحاصلة لأغلب العلماء المتوغلين في الماديات، فإنهم بعقلهم أدركوا تلك المعارف، ولكن لأجل اتّصافهم بحب الدنيا والصفات الرذيلة حرموا عن الاتصاف بها حقيقة كما تقدم سابقاً شرحه مفصّلاً، وهؤلاء أيضاً علىٰ طبقات مختلفة تقدمت الإشارة إليها أيضاً فيما تقدم فراجع.

وأما المرتبة الرابعة: وهي مرتبة تشخيص بعض مراتبها العلمية الصورية كما أن هذا يوجد في أغلب عوام الناس المحشورين مع العلماء كما لا يخفىٰ.

وهنا أمر دقيق من الأسرار فافتح مسامع قلبك؛ لكي تعيها ثم افهمها ثم اسأل الله تعالىٰ التوفيق لمعرفتها والعمل بها.

وحاصله: أن ذواتهم المقدسة لما كانت عين تجلياته تبارك وتعالىٰ، وهم المحتملون لحقائق علومه ومعارفه كما تقدم من قوله عليه السلام: «وحمّلهم علمه»، أي في عالم الأرواح قبل الأبدان، فهم عليهم السلام حينئذاك علمه تعالىٰ ومعارفه، وهم حينئذ علم ما في الواقع ونفس الغيب عن غيرهم حتىٰ الملائكة، وهذا هو المراد من قوله عليه السلام فيما يأتي: «واصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه واختاركم لسرّه».

فلو قيل حينئذ: لا يعلمون الغيب فله معنيان:

أحدهما: أنهم لا يعلمون ما في ذاته المقدسة تبارك وتعالىٰ قال تعالىٰ: **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلّا الله﴾**[1] فنفي الغيب عن كلّ ذي عقل بإطلاقه في السموات والأُض بلحاظ نسبتها إلىٰ ساير الآيات المثبتة للغيب لمن ارتضاه كقوله: **﴿إلّا من ارتضىٰ من رسول﴾**[2] الآية، يقضي بأن الغيب المنفي في هذه الآية المباركة هو الغيب المطلق، أي ما في ذاته المقدسة غير المتناهية التي هي غيب الغيوب.

وثانيهما: أنهم عليهم السلام حيث يكونون نفس علم الغيب، فلا غيب لهم في عالم ما سوىٰ سواهم، فلا محالة لا يعلمون الغيب لنفي موضوعه، فالنفي من باب السالبة بإنتفاء الموضوع وهذا أصل ثابت لهم عليهم السلام فمهما نفي عنهم الغيب فهو بلحاظ نفي ما في ذاته المقدسة الغائب عنهم عليهم السلام ومهما ثبت لهم علم الغيب فهو بلحاظ حقيقتهم الأولية النورية، التي حمّلها الله تعالىٰ علمه فهم نفس الغيب بهذا المعنىٰ.

---

١ ـ النمل: ٦٥.

٢ ـ الجن: ٢٧.

هذا وأن الناس في إدراكهم لذواتهم المقدسة علىٰ طبقات ثلاث:

الأُولىٰ: من كان نور عقله ضعيفاً جداً كأغلب المحجوبين علىٰ معرفتهم بالنورانية، فهذه الطبقة ينظرون إليهم بالعقل المنحط الضعيف فيميزونهم بلحاظ هياكل البشرية، غاية الأمر الكاملة، ولا معرفة لهم بأنهم عليهم السلام في عالم القرب الذي ليس فوقه قرب فهم حينئذ يقولون: إن الأئمة عليهم السلام يعلمون الغيب بلحاظ ثبوته لهم بالآيات والأخبار فيميزون الأئمة عليهم السلام بذاتهم عن تلك الحقائق الغيبية.

الثانية: من كان نور عقله بنحو الاستواء أي بلغ من الكمال بحيث فاق أقرانه، وعرف منازلهم ومعارفهم ومقاماتهم فهؤلاء يجدون أنهم عليهم السلام نفس العلم الغيبي المتقدم آنفاً بيانه، وعرف أنهم عليهم السلام نفس خزائن الغيب، وهم عليهم السلام مفاتيحه التي لا يعلمها إلّا الله، ومن هذه الآية بلحاظ هذا المعنىٰ أنه لا يعلم أحد حقيقتهم النورانية الغيبية بكمالها إلا الله كما تقدّم من معنى قوله صلى الله عليه وآله: **يا علي أن لله حقّاً لا يعرفه إلاّ أنا وأنت، وإن لي حقاً لا يعرفه إلاّ الله وأنت، وإن لك حقّاً لا يعرفه إلاّ الله وأنا».**

الثالثة: من كان نور عقله بنحو يلاحظ تلك الذوات المقدسة مع مالها من المقام المنيع منسوبة إليه تعالىٰ، فحينئذ يلاحظ علمهم وحقيقتهم بالنسبة إليه تعالىٰ فلا محالة ينفي عنهم ما هو ثابت لذاته المقدسة تبارك وتعالىٰ، فحينئذ يقول: إنهم عليهم السلام لا يعلمون الغيب (أي بلحاظ ذاته المقدسة تبارك وتعالىٰ) كما تقدم، وإليه يشير قوله تعالىٰ: **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلّا الله﴾**.

ثم إن المؤمن الممتحن من نظر إليهم عليهم السلام بهذه العقول الثلاثة، أي تارة ينظر إليهم بما هم بشر فوق كلّ بشر فيقول: هم يعلمون الغيب نظراً إلىٰ الآيات والأخبار المثبتة لهم ذلك، وتارة ينظر إليهم بلحاظ مقامهم المنيع النوراني فيقول: هم نفس الغيب، وتارة ينظر إليهم بلحاظ نسبتهم إليه تعالىٰ فيقول: إنهم لا يعلمون الغيب وهم عليهم السلام بهذه المنزلة أي في حدّ الواجب والإمكان يستفيدون العلم منه تعالىٰ، وإليه يشير ما تقدم من قولهم: «إنما العلم ما يحدث ساعة بعد ساعة»، وقوله عليه السلام:

«إن لنا في ليالي الجمعة سروراً» كما تقدم.

فالأئمة عليهم السلام حافظون لأسراره تعالىٰ إلّا الأصناف الثلاثة أعني الملك المقرب والنبي المرسل والمؤمن الممتحن، فهؤلاء الثلاثة يعلمون أنّ ما علموه عليهم السلام وأخبروا به مما مضىٰ ومما يأتي وساير العلوم أنه وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله وتفهم من كتاب الله، وهذا المعنىٰ هو السرّ الذي يحفظونه إلّا عن هؤلاء الثلاثة؛ لعدم كونهم من الأغيار فلا يذيعونها إلىٰ غيرهم كما أنهم لا يذيعونها إلىٰ غيرهم.

وأحسن مصاديق للمؤمن الممتحن مثل سلمان وكميل، ومن حذا حذوهم في كلّ زمان كما نطقت به الأحاديث أن لكلّ زمان مثلهما وفضائلهما وفضائل نظيرهما مذكور في كتب الأخبار بما مزيد عليه.

ثم إن فضائل سلمان أظهر من الشمس وأبين، وأما كميل فيكفي في فضله ما ورد في حقّه من الأحاديث خصوصاً حديث الحقيقة المشهورة المنسوبة إليه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وحيث إن في ذلك الحديث إشارة إلىٰ السرّ مضافاً إلىٰ دلالته علىٰ فضيلته، فلا بأس بذكره والإشارة إلىٰ معانيه فنقول:

روي عنه أنه سأل أمير المؤمنين عليه السلام فقال: ما الحقيقة؟

فقال عليه السلام: «مالك والحقيقة؟

فقال كميل: أولستُ صاحب سرّك؟

فقال عليه السلام: بلىٰ، ولكن يرشح عليك ما يطفح مني.

فقال كميل: أومثلك يخيّب سائلاً؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.

فقال: زدني بياناً.

فقال عليه السلام: محو الموهوم مع صحو المعلوم.

فقال: زدني بياناً.

فقال عليه السلام: هتك الستر لغلبة السرّ.

فقال: زدني بياناً.

فقال عليه السلام: نور يشرق من صبح الأزل فيلوح علىٰ هياكل التوحيد آثاره.

قال: زدني بياناً.

قال عليه السلام: اطف السراج فقد طلع الصبح».

أقول: الكلام في شرحه يقع في أمور:

الأول: الرشح ما يخرج شيئاً فشيئاً كما يرشح الإناء المتخلخل الأجزاء، وطفح يقال: طفح الإناء كمنع طفحاً وطفوحاً امتلأ وارتفع وفاض، وسبحات الجلال أي نوره المنبئ عن عظمته تعالىٰ، والمحو: الإزالة يقال: محوته محواً ومحيته محياً إذا أزلته والموهوم ما ذهب إليه الوهم، فإن الوهم ما يقع في الخاطر يقال: وهمت الشيء أهمه وهماً من باب ضرب إذا وقع في خاطرك، ووهمت في الشيء (بالفتح) أهم وهماً إذا ذهب وهمك إليه، وأنت تريد غيره، وتوهمت أي ظننت فإن التوهم الظن أيضاً، والمراد منه هنا ما يقع في الخاطر مما ليس بحقّ الحقّ.

والصحو: ذهاب الغيم يقال: أصحت السماء بالألف إذا انقشع عنها الغيم فهي مصحية، وصحا من سكره صحواً إذا زال سكره فهو صاح الأمر.

الثاني: قوله عليه السلام: ما الحقيقة؟ إن الحقيقة المسؤول عنها لا يراد منها ذاته المقدسة؛ لأنه لا معنىٰ للسؤال عن حقيقة ذاته التي لا يمكن التعرف عليها مطلقاً لكلّ أحد، خصوصاً من مثل كميل الذي هو من أصحاب السر لأمير المؤمنين عليه السلام العارف بهذا الأمر، بل المراد منها التوحيد الحقيقي وظهوره الحقيقي في عالم الكون وفي قلوب الأولياء بنحو الأتم الأكمل، الذي هو السّر وسرّ الولاية المطلقة المشار إليها سابقاً، فأجابه عليه السلام ببيان ما يمكن بيانه لمثل كميل، وسنوضحه بما منحنا الله تعالىٰ من فهمه إن شاء الله تعالىٰ.

أقول: ويمكن أن يقال: إن المراد من الحقيقة هو ذاته تعالىٰ، لكن ليس السؤال بنحو يكون عن كنهه تعالىٰ، بل عن معرفته إجمالاً كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام من

قوله: ذاته حقيقة، فعلم كميل حيث إنه من أصحاب السّر، إن ذاته حقيقة إلّا أنه أراد هنا أن يعلم الحقيقة بنحو يمتاز عن غيره لعارفه، لا بنحو الكنه، فإنه يمكن أن يعرف أحد الحقيقة بنحو يميزها عن المجاز والباطل والموهوم الخلق، وإن كانت بعد غير معلومة بالكنه كما لا يخفىٰ فتأمل تعرف.

وقد يقال: إن الحقيقة فعلية من حقّ يحقّ حقّاً وحقيقاً إذا ثبت، والتاء فيها للخروج من الوصفية إلى الاسمية، واللام للعهد الذهني أي ما في ذهن المخاطب من حقيقة الحقائق، وهو وجود الحقّ سبحانه وتعالىٰ فانه ثابت باق، وكلّ ما سواه زائل، فإن سرّ هذه الحقيقة مما يضنّ بكشفها علىٰ غير أهلها، ويضيق عن دركها نطاق أفهام العموم إلّا من أطلعه الله تعالىٰ علىٰ ذلك من أوليائه الأُمناء، وكيف كان فالسؤال عن كشف الحقيقة التي هي كلّ الكل، والأصل الذي ما سواه الجزء والفرع، وكيف يبحث عنها أحد وهي محيط وما سواه محاط، فأنىٰ يكون للمحاط العلم بمحيطه؟

فكلّ ما قيل إنه حقيقة أي ذاته تعالىٰ فالحقيقة بخلافه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كل ما خطر ببالك وتصور في خيالك فالله تعالىٰ بخلاف ذلك» فلا يمكن الجواب عن كشف الحقيقة إلّا من آثارها علىٰ الرمز والإشارة كما قال عليه السلام: «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة»، وسيجيء شرحها.

وربما يقال[1]: المراد من الحقيقة المسؤول عنها هي النفس الناطقة الكلية الإلهية، أو حقيقة النفس بما لها من المعنىٰ الكلي أو العقل الكلي، وهو بعيد جدّاً كما لا يخفىٰ عن أجوبته عليهم السلام تدريجاً.

الثالث: قال عليه السلام: «مالك والحقيقة».

أقول: لما سأل عن الحقيقة ردعه عليه السلام بأنك لبعيد عن درك معناها؛ لغموضها ولاختصاصها بالأولياء المقربين الكملين من الأنبياء والأئمة عليهم السلام فأثّر هذا الردع في

---

١ ـ القائل علىٰ ما قيل: هو الشيخ عبدالرزاق الكاشاني في شرح مصابيح القلوب.

قلب كميل فازداد عطشه في فهمها، مع علمه بأنه عليه السلام قادر بأن يمنحه فهمها ويرقيه إلىٰ درجة درك هذا المعنىٰ، وذلك بما أعطاه الله تعالى من الولاية المطلقة، التي من آثارها التصرف في كميل، بحيث يرتقي إلىٰ مقام إمكان درك هذا المعنىٰ، بل وإلىٰ وجدانه ولذا قال؛ مستلطفاً ومسترحماً:

أولستُ صاحب سرك؟ أي أني طال ما رويت من عذب ماء معارفك، ووقفت علىٰ بعض أسرارك، وعلمت من علومك التي أسعفتني بها، فكيف تمنعني حينئذ عن كشف هذا المعنىٰ وبيان هذا السرّ؟ فقال عليه السلام في جوابه: «بلىٰ، ولكن يرشح عليك ما يطفح مني».

الرابع: في بيان هذه الجملة فنقول: اِعلم أن أسرار آل محمد صلى الله عليه وآله ـ التي هي حقيقة ولايتهم المطلقة المشار إليها سابقاً ـ أمر غامض قد علمت أنها لا يتحمله ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن ممتحن، فلا يتحمّله إلّا هم عليهم السلام أو من شاءوا كما تقدم.

ومن المعلوم أن كميل بن زياد لم يكن بمثابة النبي المرسل أو الملك المقرب بقول مطلق؛ فلذلك كلّه قال عليه السلام: بلىٰ، أي أصدقك علىٰ أنك صاحب سري، ولكن الذي سألت من بيان الحقيقة هو فوق دركك، فلابد من أن تترقب إلىٰ أن يرشح إليك من تلك الأسرار والعلوم والمعارف، فتأخذها بحسب قدرتك وطاقتك.

والوجه فيه ما ذكره عليه السلام لكميل أيضاً كما في النهج وغيره: «يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها»، إلىٰ أن قال عليه السلام: «إن هاهنا لعلماً جمّاً لو أصبت حملة»، فيستفاد منه أن القلوب تأخذ العلوم بقدر ظرفيتها، فكما لا يأخذ إلّا بقدر ظرفيتها لا يصلح لها السؤال والاقتحام لما فوق ظرفيتها ودركها كما لا يخفىٰ.

وبالجملة لما ردعه عليه السلام عن مسؤوله أثّر في قلبه شدة الطلب فقال: أو مثلك يخيب سائلاً؟ فطلب منه عليه السلام من طريق الاسترحام والاستعطاف، فلما رأىٰ الإمام عليه السلام أنه صادق في طلبه علىٰ نحو الجدّ فأسعفه بمنحه لسؤاله، فرشح عليه من

وابل نواله فقال: الحقيقة.. الخ، وهذا العمل من كميل مصداق لقوله عليه السلام: «من طلب شيئاً وجدّ وجد، ومن قرع باباً ولجّ ولج».

قال عليه السلام: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة».

الخامس: في شرح هذه الجملة، قوله: سبحات الجلال (بضم السين) جمع سبحة (بضم السين وسكون الباء) بمعنىٰ النور، وأيضاً يراد منه الجلال والعظمة، ومعلوم أن ذاته المقدسة محتجب بهذه الأشعة الجلالية والجمالية.

جمالك في كلّ الحقائق سائر   وليس له إلّا جلالك ساتر

وقال عليه السلام: «يا من احتجب بشعاع نوره عن نواظر خلقه»، ومعلوم أن شدة النور وزيادته تكون مانعاً عن شهود من له النور، وهذا أمر ظاهر من الآيات والأحاديث والأدعية وحينئذ نقول: التوحيد الحقيقي الكشفي الذي هو المسؤول عنه، والمراد به من الحقيقة إنما يكون لأحد إذا انكشف عن قلبه أنوار الجلال الحاجبة له، وهذا لا يكون إلّا في قلب الموحد حيث إنه لا ظهور للتوحيد الحقيقي إلّا فيه.

قال الله تعالىٰ كما في الحديث القدسي المشهور: «لا تسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن».

ثم إن هذا الكشف بما له من المعنىٰ المصدري إنما هو من فعله تعالىٰ، كما دلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحقّ﴾** حيث أسند الإراءة إلىٰ نفسه تعالىٰ فهو تعالىٰ يُري أولياءه آياته في مظاهر الآفاق والأنفس إلىٰ أن ينكشف لدى العبد أنه الحقّ الخالص غير المشوب بغيره، وقال عليه السلام: «يا من دلّ علىٰ ذاته بذاته»، فانكشاف تلك الأنوار بيده تعالىٰ وفي ظرفه تظهر الحقيقة.

هذا بحسب الواقع، وأما إن كانت إضافة الكشف إلىٰ مفعوله فظاهر أن الكشف

حينئذ فاعله هو الله تعالىٰ، وإن كانت إضافته إلىٰ فاعله أي زوال تلك الصفات عن التوحيد الواقعي، فإسناده إلىٰ الفاعل بحسب الظاهر مجازي، وإلّا فالفاعل في الحقيقة هو الله تعالىٰ كما هو المستفاد من قوله: «يا من دلّ علىٰ ذاته بذاته».

فالحقيقة الظاهرة المكشوفة لا يشار إليها من جهة؛ لأنها خارجة عن الجهات، ومحيطة بها كما حقق في محلّه ولذا قال عليه السلام: «من غير إشارة».

وعن العلّامة الحلي (طاب ثراه) ما لفظه: ولا يمكن الجواب عن كشف الحقيقة إلّا من آثارها علىٰ طريق الرمز والإشارة كما قال عليه السلام: «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة»، وذلك لأن الله تعالىٰ محجوب بصفاته وصفاته الجلالية تتعلق بذاته، وصفاته الجمالية تتعلق بأفعاله، والسالك الطالب للحقّ إذا سلك المفاوز الجسمانية وعبر عن البحار الروحانية وصل إلىٰ صفات الجمال، ثم إلىٰ صفات الجلال، فإذا جاوزهما تجلت له الحقيقة، وقوله عليه السلام: «من غير إشارة»، أي أن الله تعالىٰ منزّه عن أن يكون مشاراً إليه أو يكون له حدّ ونهاية؛ لأن هذه الصفات من صفات المحدثات، وإليه يشير قوله عليه السلام: «كلّ ما خطر ببالك وتصور في خيالك فالله تعالىٰ بخلاف ذلك».

ثم إن السبحات المراد بها أنوار الجلال أو نفس الجلال والعظمة، قد يراد منها صفاته تعالىٰ، والمراد بكشفها حينئذ نفيها عنه تعالىٰ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وكمال الإخلاص نفي الصفات عنه.. الخ» وقال علي بن موسى الرضا عليه السلام: «ونظام توحيده نفي الصفات عنه.. الخ» والوجه فيه أن الصفة لما كانت مخلوقة له تعالىٰ كما دلت عليه الأحاديث الكثيرة في خلق الصفات، فهي حادثة مضافاً إلىٰ أن كلّ واحد منها له حدّ وفصل يمتاز عن غيرها مفهوماً، فلابد من نفيها عنه تعالىٰ، وإلّا يلزم الحدوث والتكثر في ذاته المقدسة تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً قال عليه السلام: «كان الله ولم يكن معه شيء والآن كما كان» أي ليس مع ذاته المقدسة ما يقترن معها أزلاً وأبداً.

فالحقيقة هو الكشف عن سبحات أنوار الصفات، وظهور الحقّ منفياً عنه تلك الصفات، وقد يراد منها كشف الحدود الخلقية عن ذاته المقدسة، بيانه أنه تعالىٰ قال: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «بل هو في الأشياء بلا كيفية» كما في توحيد الصدوق وقال: «يا من كلّ شيء موجود به، يا من كلّ شيء قائم به.» وقال تعالىٰ: ﴿ألّا أنه بكلّ شيء محيط﴾ قال عليه السلام: «لا يخلو منه مكان ولا يحويه مكان»، وقال عليه السلام: «إنه بكلّ مكان ومع كلّ إنس وجان وفي كلّ حين وأوان».

فالمستفاد من هذه الآيات والأحاديث أن ذاته المقدسة محيطة بكلّ شيء وموجودة بحقيقة الوجود، وأن كلّ شيء موجود به، والحدود الخلقي الملتفت إليها إنما هو مانع عن مشاهدة جماله المقدس.

فالحقيقة عبارة عن كشف هذه الحدود عن جماله الأقدس، بصرف الالتفات عن تلك الحدود حتىٰ حدّ نفسه، والاعراض عنها بصرف التوجّه إليه تعالىٰ والوله إليه تعالىٰ، وهذا المعنىٰ هو المقصود من قوله الحسين عليه السلام في دعاء عرفة برواية السيد في الإقبال: «إلهي علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تعرّفت إليّ في كل شيء حتىٰ لا أجهلك في شيء»، وقوله عليه السلام: فيه: «تعرفت لكلّ شيء فما جهلك شيء، وأنت الذي تعرف إليّ في كلّ شيء، فرأيتك ظاهراً في كلّ شيء، وأنت الظاهر لكلّ شيء».

ومعلوم أن تعرفه تعالىٰ لكلّ شيء إلىٰ أوليائه، وظهوره في كلّ شيء لهم إنما هو في ظرف الإعراض عن الحدود الخلقية وعن نفسه، فالنظر إلىٰ الأشياء بما لها من الحدّ والحدود يكون في ظرف خفائه وغيبه تعالىٰ، وأما النظر إليه تعالىٰ في ظرف الإعراض عن الحدود فهو ظرف ظهور الحقيقة، نعم هذا كما علمت من فعله تعالىٰ لعبده وليس معلولاً لشيء وإنما هو لطف من ألطافه كما علمت من قوله تعالىٰ: ﴿سنريهم ...﴾.

والحاصل: أن قوله عليه السلام: «كشف سبحات الجلال»، معناه أن الحقيقة هي أن يكشف الحقّ حجاب الخلق عن أنوار عظمته، وذلك إيماء إلىٰ أن الحقيقة لا تنكشف لأحد إلّا بالكشف الإلهي لا التعلم البياني، والسبحة كما علمت نور وإضافة الكشف إلى السبحات، إضافة المصدر إلى المفعول الثاني المتعدي إليه كما يقال: كشف النقاب عن وجهه، ففي المقام المفعول الأول محذوف إذ تقديره كشف الحقّ عن سبحات وجهه، فالفاعل هو الله تعالىٰ وحجاب الخلق الذي هو المفعول الأول محذوف، والسبحات هو المفعول الثاني المضاف إليه في العبارة.

هذا وقد ورد: أن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشف واحد منها لاحترقت سبحات وجهه من انتهىٰ إليه بصره من خلقه، والمراد بهذه الحجب تعيّنات الوجود الساترة لنور الوجود المطلق.

ثم إن قوله عليه السلام: «من غير إشارة»، قد علمت معناه من أن المشار إليه لمّا لم يكن إلّا الوجود المعين، فالحقّ المطلق الذي لا تعين له فلا محالة فهو متعال عن الإشارة كما لا يخفىٰ.

ولا يخفىٰ أن هذا لا يرجع إلىٰ القول بوحدة الوجود كما توهمه بعض، فإن القائلين به يقولون بكون الأشياء كلّها عينه تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً، ولا يحتاج هذا القول إلىٰ كشف السبحات، بل لا يرىٰ إلّا الحقّ ولو كان المرئي هو الحد والحدود، وهذا باطل لضرورة الدين والمذهب قال عليه السلام: «إن الله خلو من خلقه وخلقه خلو منه».

والحاصل: أن المراد من كشف سبحات الجلال هو تميزه عن خلقه بحيث يشاهد التمييز، فيرىٰ الحقّ حقاً والخلق خلقاً قال عليه السلام: «وتوحيده تمييزه عن خلقه» وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة أي التوحيد هو في ظرف إزالة الصفات الخلقية عنه وبينونته تعالىٰ عنها لا إزالته تعالىٰ عنها واعتزاله عنها، فهو كما قال علي عليه السلام «في الأشياء بلا كيفية» أي بلا نحو من أنحاء الظرفية الكائنة في الخلق،

كيف وقد قال تعالىٰ: ﴿الحيّ القيّوم﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾.

فالتوحيد هو ظهوره تعالىٰ لقلب العبد في ظرف غفلته، وإعراضه عن الحدود الخلقية وعن نفسه بكمال توجهه ووله إليه تعالىٰ.

قال الشاعر:

حين تغيبت بدا   حين بدا غيّبني

ولا يكون هذا إلّا في حال الجذبة كما بينه عليه السلام بعداً.

ثم إن المراد من الإعراض عن الحدود الخلقية يعمّ الإعراض عن جميع أنحاء الحدود الخلقية من الصفات والأفعال في الآفاق والأنفس، وإلىٰ هذه النكتة أشار قوله تعالىٰ: ﴿كلّ مَن عليها فان ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ فما سوىٰ وجهه الكريم يكون فانياً بالذات.

فالحقيقة إنما هو ظهور بقاء وجهه الكريم وفناء من سواه، فالعبد في هذه الحالة يقول كما قال أمير المؤمنين (عليه أفضل صلوات المصلين) علىٰ ما نقل: «ما رأيت شيئاً إلّا وقد رأيت الله قبله».

وإليه يشير ما في بعض الأدعية: «ولا يسمع فيه صوت إلّا صوتك، ولا يرىٰ فيه نور إلّا نورك».

وإليه يشير ما في الأحاديث القدسية المروية عن الأئمة عليهم السلام من قوله: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت يده وبصره» الخ.

فإن هذه الأمور والصفات في حال ظهور الحقيقة والتوحيد الصفاتي والأفعالي كما لا يخفىٰ، وهذا من أخص ألطافه تعالىٰ لأخص أوليائه قال عليه السلام: «بك عرفتك وأنت دللتني عليك، ولولا أنت لم أدر ما أنت».

والحاصل: أن الله غيور بل أغير كما قاله صلى الله عليه وآله وقال عليه السلام: «ولا أحد أغير من الله تعالىٰ»، فتقضي غيرته أن لا يرىٰ جماله لأحد إلّا في ظرف الاعراض والغفلة عن

غيره تعالىٰ وعن نفسه، في تلك الحالة يُري جماله لأوليائه وهذا هو المطلوب للأئمة عليهم السلام من قولهم في دعاء الشعبانية: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتىٰ تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلىٰ معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك».

وقال عليه السلام: «واجعلني ممن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سرّاً ،وعمل, لك جهراً»، الدعاء.

فلا ينال هذا إلّا منه تعالىٰ في ظرف الجذبة كما يشير إليه قوله عليه السلام «ولاحظته فصعق لجلالك» كما لا يخفىٰ، رزقنا الله تعالىٰ ذلك بمحمد وآله الطاهرين، آمين ربّ العالمين.

السادس: لما بين عليه السلام الحقيقة بقوله السابق، وعلم منه كميل ما علم بعلم اليقين أراد أن يعلم بحقّ اليقين فقال ملتمساً منه عليه السلام المزيد للبيان: زدني بياناً، لما علم أنه عليه السلام فاتح كلّ علم ومبين كلّ سرّ كما قال عليه السلام لكميل في حديث آخر مفصّل رواه في تحف العقول: يا كميل ما من علم إلّا وأنا أفتحه، وما من سرّ إلّا والقائم يختمه، يا كميل لا تأخذ إلّا عنا تكن منا».

فقال عليه السلام: «محو الموهوم مع صحو المعلوم»، قد علمت فيما سبق معنى المحو والوهم والصحو وحينئذ نقول: المحتمل لهذه الجملة أُمور:

الأول: أنه قد علمت فيما سبق أنه تعالىٰ شيء بحقيقة الشيئية، أي أن ما سواه شيء بالمجاز بالنسبة إليه تعالىٰ قال صلى الله عليه وآله: أحسن كلمة قالتها العرب كلمة لبيد:

ألّا كلّ شيء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم لا محالة زائل

وفي الدعاء: يا حياً ليس كمثله حيّ، وفي التنزيل: ليس كمثله شيء.

فتعطي هذه الأُمور أن الوجود الحقيقي له تعالىٰ وأن ما سواه موجود به ليس له وجود حقيقي بل هو موجود صوري وهمي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً،

فالموجودات قائمة به تعالى وهو قيومها لا حقيقة لها أبداً، والآثار كلّها منه تعالىٰ وظهرت منه تعالىٰ في تلك المظاهر وبهذا المعنىٰ قيل: لا موجود سوىٰ الله، وهذا هو المراد من القول بوحدة الوجود الحقيقي له تعالىٰ، ولا يلزم منه كون جميع الأشياء هي الحقّ تعالىٰ كما لا يخفىٰ فلا يلزم منه كفر ولا خلاف الواقع.

فالحقيقة هو ظهور الحق المعلوم وصحوه في ظرف محو الموهوم أي إزالة الموجودات الوهمية، فعلم أن المراد من المعلوم هو الحقّ تعالىٰ وتوحيده المعلوم في هذه الحالة، وقد علمت أن هذا يكون منه تعالىٰ لعبده، ولهذا عبّر عليه السلام في جميع الجمل بصيغة المصدر المنبئ عن تحقق الفعل من دون نظر إلىٰ فاعله؛ لوضوح أنه هو الله تعالىٰ، ووجه كون هذه الجملة أبين لبيان الحقيقة من سابقتها هو أن الجملة السابقة تشير إلىٰ تحقق وجود للصفات والانوار والسبحات المنكشفة عن التوحيد الحقيقي، وهذا بخلاف هذه الجملة فإنها ظاهرة في أن الموجودات بأسرها صورية وهمية لا وجود لها في قبال وجوده تعالىٰ إلّا بالوهم والخيال.

أقول: بالنسبة إلىٰ وجوده تعالى الذي هو وجود حقيقي يكون وهماً لا في نفسه، وإلّا فإنها محلّ أحكام وآثار يناسب وجودها الوهمي كما لا يخفىٰ.

الثاني: قد تقدم قول الصادق عليه السلام: «ما تصور فهو بخلافه»، وقال عليه السلام: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تحيط به الأوهام بل تجلىٰ لها بها وبها امتنع منها».

وقال عليه السلام: «من أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه».

قوله: «من أشار إليه» يعمّ الإشارة الخارجية والوهمية التصورية في الذهن كما لا يخفىٰ.

وقال عليه السلام: «لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً، ولم تقع على الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً».

وقال عليه السلام كما تقدم: «ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو مثال فهو

مشرك».

وقال ﷺ: «فهو بالموضع الذي لا يتناهىٰ، وبالمكان الذي لم يقع عليه الناعتون بإشارة ولا عبارة هيهات هيهات» الخ.

فتعطي هذه الجُمل إن ما نتوهمه في الحقّ فإنما هو موهوم مردود مخلوق لنـا، فهو تعالىٰ بخلافه، فإنه تعالىٰ محيط بكل شيء، فلا يحاط لا في الخارج ولا في الذهن بالتصور والإشارة فحينئذ قوله: محو الموهوم، أي إزالة المـوهومات المـتصورة في الذهن لتشخيص الحقّ بل الحقّ، لابد من أن يعتقد كونه فوق المتصور لكلّ أحـد بحيث لا يشار إليه مطلقاً، وقوله: «مع صحو المعلوم»، أي مع ظهور الحقّ بـذاتـه للعبد لا بتصوره وتوهمه قال ﷺ: «يا من دلّ علىٰ ذاته بذاته»، وقال ﷺ كما تقدم: «هو الدال بالدليل عليه والمؤدي بالمعرفة إليه».

فالحقيقة والتوحيد هو تمييزه تعالىٰ عن المـوهومات والتـصورات الذهـنية، وتنزيه ساحته المقدسة عن مشاركة غـيره مـن المـوهومات مـع ذاتـه المـقدسة المتعالية، وإبقاؤها علىٰ ما هي عليه، «كان الله ولا شيء معه والآن كما كان» فظهور الحقّ والتوحيد بنفسه لعبده مع إزالة المتصورات الوهمية عن القلب هو الحقيقة.

الثالث: روي في التوحيد بإسناده عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن شيء من التوحيد، فقال: «إن الله تباركت أسماؤه التي يدعى بها وتعالىٰ في علوّ كنهه، واحد توحد بالتوحيد في علو توحيده ثم أجراه علىٰ خلقه، فهو واحد صمد قدوس يعبده كلّ شيء ويصمد إليه كلّ شيء ووسع كلّ شيء علماً».

وفيه عن علي بن عقبة رفعه قال: سئل أمير المؤمنين ﷺ: بم عرفت ربّك؟

فقال: «بما عرّفني نفسه.

قيل: وكيف عرّفك نفسه؟

فقال: لا تشبهه صورة، ولا يحسّ بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده، بعيد في قربه، فوق كل شيء ولا يقال: شيء فوقه، إمام كل شيء ولا يقال له: إمام، داخل

في الأشياء لا كشيء في شيء وخارج من الأشياء لا كشيء من شيء، خارج سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره ولكلّ شيء مبدأ (مبتدأ خ ل)».

فالمستفاد من هذين الحديثين وأشباههما أنه تعالىٰ واحد أحد، ثم أجرىٰ توحيده علىٰ خلقه، أي أن لخلقه مطلقاً جهتين جهة خلقية وهي ما به حدوده، وما هو من هذه الجهة معرضاً للآثار العارضة له من عوارض الخلقة، وهذه الجهة وما لها من العوارض خلو عنه تعالىٰ، وهو خلو منها كما تقدم الحديث المصرح به وجهة حقيّة أي ما بها ظهور الحق بوحدانيته، فهذه الجهة مظهر للتوحيد الجاري علىٰ الخلق، ففي كلّ موجود مطلقاً جهة التوحيد، وتعدية الجريان بعلى للإشارة بأن هذه الجهة لها الغلبة والقاهرية علىٰ الجهة الخلقية.

والحاصل: أن في كل موجود مطلقاً جهة مظهرية الحقّ، والتوحيد فهو تعالىٰ من هذه الجهة داخل في الأشياء، لكن لا كدخول شيء في شيء من أنحاء الظرفية المتصورة في المخلوق، فهو داخل بالإحاطة والعلم والغلبة، وخارج لا كخروج شيء من شيء بل من جميع ما يعرض المخلوقات فهو تعالىٰ خارج منها، وقد أعيت عقول العقلاء من الكلّ عن درك هذه الإحاطة بكيفيتها الواقعية، كما أعيت عن درك كيفية تعلق الروح الإنساني بالبدن الجسماني، فمن عدم معرفة هذا التعلق يعرف عدم معرفة إحاطته تعالىٰ بالخلق كما لا يخفىٰ، فتدبّر.

فتحصل أنه تعالىٰ مع كلّ موجود وأن في كلّ شيء جهة مظهرية التوحيد، فالقلب إن كان متوجهاً إلى الجهة الخلقية كان محجوباً عنه تعالىٰ، وإن أعرض عنها بحيث فني عن نفسه وعن حدوده وعن عوارضه ظهر له التوحيد فحينئذ نقول: معنىٰ قوله عليه السلام: «محو الموهوم مع صحو المعلوم»، هو محو الحدود الخلقية والاعراض عنها، وظهور التوحيد من جهة الحقّ والتوحيد الذي أجراه تعالىٰ علىٰ خلقه.

نعم تقدم أن هذا لا يكون إلّا في حال الجذبة المشار إليها بقوله عليه السلام: «واجعلني

ممن لاحظته فصعق لجلالك فناجيته سرّاً» الدعاء.

فالقلب حينئذ إذا أعرض عن الكثرات والحدود ظهر فيه التوحيد، فلا يرىٰ فيه إلّا الحقّ وآثاره، ثم إنه قلّ من تدوم له تلك الحالة إلّا للأوحدي وإلّا للنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام فإنهم عليهم السلام حينما كانوا في تلك الحالة والمشاهدة يخبرون عنه تعالىٰ، وتظهر منهم عليهم السلام آثار التوحيد وهو مقام العندية له تعالىٰ المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾[1].

الرابع: اعلم أن الحقّ تعالىٰ هو حقيقة الشيئية كما تقدم قوله عليه السلام: «بل هو شيء بحقيقة الشيئية وما سواه» فإنما هو بالنسبة إليه تعالىٰ باطل عاطل أوهام محض فشيئية شيء إنما هو بظهور آثار الحقّ، الذي هو حقّ الشيء عليه، فالأشياء حينئذ في تقبل الحقّ مختلفة، ثم إن القلب الانساني لما جيء به في عالم الملك وعالم الجهل والمادة والنفس والطبيعة، صار محجوباً عن مشاهدة أنوار الجمال والجلال بنحو الأتم والأكمل، مع أنه تعالىٰ جعل فيه حقيقة الإنسانية التي هي مظهر للروح الذي نفخ فيه منه تعالىٰ، فهو بتلك الروحية قابل لمشاهدة أنوار الجلال والجمال، ولكن لما صار في قوس النزول وعالم الطبيعة صار محجوباً.

ثم إنه تعالىٰ بفضله وكرمه رزقه عقلاً درّاكاً به يدرك الحقّ من الباطل، وهو فرقان وحجّة باطني إلهي، ثم أردفه بالشرع الذي هو العقل المنفصل في الإراءة والنورانية والحجّية كما أن العقل هو الشرع المتصل كما لا يخفىٰ.

هذا ولكن العقل له جهتان جهة الإدراك والإراءة، وجهة التحفظ والداعوية إلىٰ الحق، فعمل العقل إنما هو الدرك وأن يحفظ صاحبه عن الركون إلىٰ الأرض والنفس والطبيعة والجهل والظلمة، ضرورة أن العقل من العقال التي تشدّ به الدابة لحفظها عن الضياع، فالجهة المطلوبة بنحو الأهم في العقل هي هذه الجهة الحافظية

---

١ ـ الأنبياء: ١٩.

الباطنية النورانية عن الانحراف والفساد، فإذا ظهر نور العقل في القلب انكشف لديه المشهود بهذا النور من أنوار الجلال والجمال ومظاهر الصفات والكمال الربوبي فتنبعث في القلب محبة لتلك الأنوار الجمالية والجلالية.

ثم إنه تشتدّ تلك المحبة إلىٰ أن تصل إلىٰ درجة الشوق ثم منها إلىٰ درجة العشق، فحينئذ يحرق جميع ما سوىٰ المحبوب والمعشوق بحيث لا يبقىٰ فيه شيء سوىٰ الله وآثاره، فيفنىٰ حينئذ موضوع العقل فإنه عقال ونور عن الانحراف في ظرف وجود مظاهر الظلمة والنفس والطبيعة، ومن المعلوم أنه بعد ظهور المعشوق والمحبوب لا يبقىٰ مظهر للنفس وظلمات الجهل والطبيعة كي تحتاج إلىٰ العقل وإلىٰ نوره، وسيجيء مزيد توضيح لهذا.

وهذه نعمة يا لها من نعمة! قال الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله علىٰ عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره!»، فالعقل جعل في الانسان لإراءة الحق وجماله وجلاله فإذا ظهرتا في القلب فيملك القلب تلك الأنوار، فلا محالة يمحى العقل وموارده عن القلب، فحينئذ يظهر من العاشق ما لا يظهر من العاقل؛ لزوال العقل وتملك العشق للقلب قال عليه السلام: «هجم بهم العلم علىٰ حقيقة البصيرة فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون»، وقال الباقر عليه السلام: «المؤمن لا يأنس إلّا بالله أو بمؤمن مثله».

والحاصل أنك ترىٰ صدور أفعال من العاشق كالإقدام على القتل والشهادة مع الشوق والعشق، قال أمير المؤمنين عليه السلام في أوصاف الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه: «ومصارع عشاق شهداء لم يسبقهم من قبلهم ولم يلحقهم من بعدهم»[1].

وإليه يشير ما قيل من أن العشق جنون إلهي (وقد قيل: إن هذا قول الصادق عليه السلام) والمحبة نار في القلوب تحرق ما سوىٰ المحبوب، وإن المحبة شغل القلب بالحبيب عن كل بعيد وقريب، وقال الصادق عليه السلام في تعريف السابق: «السابق يحوم

---

١ ـ نفس المهموم.

حوم ربّه».

وفي مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: «حب الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ مشاغل وكلّ ذكر سوىٰ الله»، إلىٰ أن قال عليه السلام: «وقال أمير المؤمنين عليه السلام: حب الله نار لا يمر علىٰ شيء إلّا احترق»، الحديث[١].

وليس هذا العشق هو العشق المجازي المادي كما توهمه بعض من لا تحصيل له في المعارف، فإنها قلوب خلت عن ذكر الله فأذاقها الله حبّ غيره، فأين هذا من العشق الحقيقي الذي هو شغل القلب بالحبيب عن كل بعيد وقريب؟!

إذا علمت هذا فنقول: المراد من قوله عليه السلام: «محو الموهوم مع صحو المعلوم» أنه إذا ظهر العشق والمحبة التامة في قلب العاشق الإلهي فيحرق هذا المعلوم الصاحي جميع ما سوىٰ الله، حتىٰ عقل هذا العاشق فلا يرىٰ غير الحقّ، فهو بالعشق الهائج يشاهد الحقيقة في ظرف محو العقل والطبيعة، رزقنا الله ذلك بمحمد وآله.

الخامس: إعلم أنه ما من موجود إلّا وهو مظهر لله تعالىٰ من حيث العلم والقدرة والحياة وآثارها بالكلّ، إلّا أن كلّ موجود يخص بتلك الآثار الإلهية بقدر سعة وجوده وبقدر ما منحه الله تعالىٰ، فحينئذ ربما يظن الجاهل بالحقيقة أنه تبارك وتعالىٰ يكون كذلك أي مثل نفسه في الكمالات، فلا محالة يجعل الربّ تبارك وتعالىٰ محدوداً بحدود الخلق قال الله تعالىٰ: ﴿**وما قدروا الله حقّ قدره والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه تعالىٰ عما يشركون**﴾[٢].

في تفسير البرهان بإسناده عن الفضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن الله لا يوصف، وكيف يوصف وقد قال الله في كتابه: ﴿**وما قدروا الله حقّ قدره**﴾، فلا يوصف بقدر إلّا كان أعظم منه».

---

١ ـ مصباح الشريعة باب ٩٦.

٢ ـ الزّمر: ٦٧.

وفيه بإسناده عن محمد بن عيسىٰ بن عبيد قال: سألت أبا الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾ فقال: «ذلك تعيير الله تبارك وتعالىٰ لمن شبهه بخلقه ألا ترىٰ أنه قال: ﴿**وما قدروا الله حقّ قدره**﴾ إذ قالوا: ﴿**إن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾ كما قال عزوجل: ﴿**وما قدروا الله حقَ قدره**﴾ إذ قالوا: ﴿**ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء**﴾ ثم نزّه عزوجل نفسه عن القبضة واليمين فقال: ﴿**سبحانه وتعالىٰ عما يشركون**﴾»؟.

فدلّ هذان الحديثان علىٰ أن تشبيهه تعالىٰ بما هو موجود في المخلوقين من القدرة مثلاً، ولو بنحو فوق أنحاء ما للبشر من مثل قبضة الأرض، وتطوية السموات باليمين هو تنقيص له تعالىٰ، وهو تعالىٰ عيّرهم في ذلك التشبيه، وهذا نظير ما ورد عن الباقر عليه السلام قال: «وهل يسمىٰ عالماً وقادراً إلّا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين؟! وكلّما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، والباري تعالىٰ واهب الحياة ومقدر الموت، ولعل النمل الصغار تتوهم أن الله زبانيتين»، الحديث.

فإن المستفاد من هذا الحديث الشريف (روحي فداء لقائله) أُمور:

الأول: أنه لا يمكن توصيفه تعالىٰ في العلم والقدرة بحيث نصل إلىٰ كنه علمه وقدرته، وإنما علمنا أنه تعالىٰ عالم وقادر لما وهب العلم والقدرة للعلماء والقادرين، فيعلم أنه قادر عالم لأن معطي الشيء لا يكون فاقداً للشيء، فمن إعطائه العلم والقدرة نعلم أنه عالم قادر، وأما الإحاطة بكنه علمه وقدرته بل وسائر صفاته فلا.

الثاني: أنه عليه السلام بيّن أن البشر كلما ميّز صفة للحق فإنما تمييزه بآلة في نفسه تشير إليها في عالم تمييزه وعالم أدق تصوره للمعاني، ومع ذلك كلّه إن هذا التمييز وما تميز به فهو مخلوق مصنوع لهذا الخلق، وهو مردود إليه فالله تعالىٰ أعظم منه كما تقدم من قوله عليه السلام: «فلا توصف بقدر إلّا كان أعظم منه»، فلا يمكن الاشارة بهذه التمييزات

إليه تعالىٰ، ومعرفته تعالىٰ بها فإنه لا سبيل إليه من هذه الأُمور، بل لا يعلم من هذه الأوصاف الكائنة في الخلق إلّا أنّ معطيها واجدها حقيقة، وأما العلم بكنه تلك الصفات الثابتة له تعالىٰ فلا كما تقدم.

ثم إنه عليه السلام أعطىٰ بيان الجامع لجميع الصفات والآثار الموجودة في الخلق بقوله عليه السلام: «والباري تعالىٰ واهب الحياة ومقدر الموت».

بيانه: أن حياة الانسان بل وكلّ موجود إنما هو بالآثار القائمة به والمترتبة عليه، ويجمع الكلّ الحياة فالله تعالىٰ هو واهبها (أي معطيها) أي معطي جميع تلك الصفات والآثار الكائنة في الخلق بما لها من الحدّ، الذي يفني تلك الصفات والآثار عند انقضاء الحدّ والقدر، وهو المراد من قوله عليه السلام: «ومقدر الموت» أي محدد لحدوده وإفنائه بذاته وبآثاره كما لا يخفىٰ.

الثالث: أنّه عليه السلام بيّن أن جميع البشر وإن بلغوا من العلم إلىٰ شق الشعر بشعرتين، وبلغوا في الكمال إلىٰ أقاصيها، ومع ذلك إنما مثلهم بالنسبة إليه تعالىٰ كمثل النملة إذا أراد توهّم الله تعالىٰ فلا محالة يتوهم أن له تعالىٰ زبانتين يبين أنكم (أي الخلق) في تشخيص الحق بصفاته وذاته، وإن بلغ إلىٰ ما بلغ من العلم والدقة والعقل، فإنما هو كالنملة يثبت له تعالىٰ ما هو منزه عنه تعالىٰ، وذلك لقصوره الذاتي عن درك الحق، فالصفات الموجودة فينا فإنما هي للإشارة إلىٰ أن معطيها واجد لتلك الصفات فقط، وأما التحديد له تعالىٰ والتوصيف له تعالىٰ بهذه الصفات الكائنة فينا أو الموصوفة بعقولنا فلا.

فتلخص من الجميع أنه تعالىٰ منزه عن تلك الصفات الكائنة فينا المحدودة والموصوفة بتوصيفنا لها، وحينئذ نقول: قوله عليه السلام: «الحقيقة محو الموهوم وصحو المعلوم»، يراد منه محو تلك الصفات الكائنة فينا، التي نظن أنها الكمالات لأحد لا غيرها كما تظن النملة هكذا في الزبانتين: عنه[1] تعالىٰ، وعدم تمييزه تعالىٰ بهذا المميز،

---

١ ـ متعلق بمحو.

بل الحقيقة هو محو هذه مع صحو صفاته تعالىٰ علىٰ ما هي له من غير تحدد بحدود أو تميز بامتيازنا، وهذا لا يكون إلّا بلطف منه تعالىٰ لعبده، فتكشف له الحقيقة هكذا في حال الجذبة والوله فيه تعالىٰ كما تقدم، وللأكابر في ظهور هذه الحالة حكايات كثيرة عجيبة ذكرت في محلّه.

وقد يقال: إن قوله عليه السلام: «كشف سبحات الجلال من غير إشارة»، يشير إلىٰ مرتبة اليقين المجرد الذي هو علم اليقين وغيره فالتمس منه عليه السلام علم اليقين، فأجاب عليه السلام بقوله: «محو الموهوم مع صحو المعلوم»، لأن الحقيقة إذا كشف عنها صفات الجلال التي تتعلق بالذات، أي شاهد بعلم اليقين الذات في مرآة صفات الجلال وأدرك أثر الحقيقة بعلم اليقين، فلا محالة ينمحي عنه وهمه، ويزول عنه شكه وظنّه، وشاهد آثار الحقيقة بنور علم اليقين، فمحو الموهوم هو كشف صفات الجلال عن الذات، وصحو المعلوم هو ظهور آثار الحقيقة كما لا يخفىٰ، هذا ملخص ما نقلناه عن العلّامة الحلي (رضوان الله تعالىٰ عليه) فتأمل.

وقد يقال أيضاً: إن المراد من محو الموهوم مع صحو المعلوم هو إزالة وجود الخلق عند تجلي وجود الحق، فإنه لما كان وجود الخلق زائلاً عبّر عنه بالموهوم، ولما كان وجود الحقّ ثابتاً عبّر عنه بالمعلوم، فإن العلم عقد ثابت يطابق الواقع، والوهم ما لا يطابقه، والحقّ لذاته موجود لا بالاعتقاد الوهمي فاعتقاد الوجود له وهم، والصحو كما علمت في الأصل ذهاب الغيم وانكشافه عن السماء فاستعاره عليه السلام بمعنىٰ انكشاف كلمة وجود الخلق عن وجود الحق فتأمل.

وزيادة البيان في هذا الجواب بلحاظ أنه أُشير فيه إلىٰ أن وجود الخلق موهوم لا حقيقة له، وهذا بخلاف الجواب السابق لا إشعار فيه لهذه الجهة.

الأمر السابع: فقال: زدني بياناً، فقال عليه السلام: «هتك الستر بغلبة السرّ».

أقول: وفي بعض النسخ: وغلبة السر، وفي بعضها: هتك السر لغلبة السر، فالسر الثاني اسم وضع موضع الضمير كما لا يخفىٰ.

والستر (بكسر السين وسكون التاء) بمعنى الحجاب والغطاء وجمعه أستار وبالفتح بمعنى المصدر، والمراد منه هنا الأول.

والهتك عبارة عن التمزيق والخرق ورفع الحجاب سواء كان بالاختيار أم لا.

وأما السِّرّ (بتشديد الراء وكسر السين) بمعنى الأمر المخفي كالسريرة.

فيمكن تفسير هذه الجملة الشريفة بوجوه فنقول: قد يقال: إن المراد من الستر الوجود الموهومي الثابت للخلق والكثرات، ومن السرّ وجوده تعالىٰ الذي هو الوجود الحقيقي قال ﷺ: «يا حيّاً ليس كمثله حيّ» وقال ﷺ: «يا من كل شيء موجود به»، وحينئذ معنىٰ هتك الستر أنه وإن كان الحق خلواً من الخلق والكثرات وبالعكس كما تقدم، إلّا أنه قد يغلب ظهوره تعالىٰ في قلب عبد بحيث يصرفه عما سواه فيذهل عن غيره تعالىٰ، وهو معنى الهتك أي يرفع مانعية وجود الكثرات عن ظهور الحق والحقيقة، وإلىٰ هذا الحال أشار الحسين ﷺ في قوله: «ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتىٰ يكون هو المظهر لك».

ثم إن وجود الكثرات يعمّ الوجودات المادية أو العقلية، فالعقل كما علمت أيضاً: هو حجاب على الحقيقة فإذا غلب السرّ عليه هتكه فيضمحل العقل حينئذ.

والحاصل أن نور العقل ووجوده العقلي المحدود قد ينطمس وينمحي انطماس نور القمر في نور الشمس، وذلك عند تجلي السر أعني وجود الحق والحقيقة، وإليه يرجع ما قيل من أن ستر الحدوث قد ينهتك لغلبة سرّ القدم، وأما ما قيل من أن المراد من السر الحقيقة ومن الستر الشريعة، فإذا وصل العبد إلى الحقيقة استغنىٰ عن الشريعة كما قيل: لو ظهرت الحقيقة بطلت الشريعة، فمردود لوجوه:

منها: أن لازمه وصول الحادث إلى القديم وهو محال كما لا يخفىٰ.

ومنها: أن محمداً وآله الطاهرين هم أكمل الموحدين والعارفين والواصلين ومع أنهم في مقام ظهور الحقيقة لديهم وهم عند الحق (كما تقدم) فإنهم لم يرفعوا اليد عن الشريعة ما داموا موجودين كما لا يخفىٰ علىٰ أحد.

ومنها: أنه يستلزم الإباحة للواصل وهذا يرده الشرع وأهله كما لا يخفىٰ، علىٰ أنه روى عنه ﷺ أنه قال: «الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي»، فهذا ظاهر في أنه ﷺ دائماً يكون في هذه الأُمور الثلاثة حسب الظاهر والباطن ما دام موجوداً ﷺ.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿واعبد ربّك حتىٰ يأتيك اليقين﴾ فالمراد منه الموت كما فسّر به في الرواية لا العلم اليقيني، ولا مقام الوصل المتعارف بينهم، علىٰ أنه يمكن أن يكون المراد من اليقين هو نتيجة العبادة أي اعبد حتىٰ تصل إلىٰ مقام اليقين؛ لأن اليقين غاية للعبادة، ولكن يدفعه أن التفسير بالموت يعطي أن المراد منه هو الغاية كما لا يخفىٰ.

وقد يقال: إن المراد من الموت المفسر به هو مقام الفناء الحاصل للواصل، لكن فيه أنه إن كان الفناء دائمياً بحيث يكون العبد فيه صعقاً لجلاله كما تقدم فهو كالموت ولا إشكال فيه، وإن لم يكن كذلك بأن كان والهاً فيه تعالىٰ أو زالت عنه حالة الفناء فلا نسلّم حينئذ بصحته بل لابدّ من تأويله بالموت الحقيقي كما لا يخفىٰ.

وقد يقال أيضاً: إن المراد من الستر هو الصفات ومن السرّ هو التوحيد، فالحقيقة هو هتك الصفات ونفيها عنه تعالىٰ وجداناً لغلبة السرّ وهو التوحيد كما أشار إليه عليه السلام بقوله: «حتىٰ تخرق أبصار القلوب حجب النور»، أي أنوار الصفات فتصل إلىٰ معدن العظمة (أي التوحيد) إلّا أنه فرق بين هذه الجملة وبين قوله: هتك الستر لغلبة السرّ، فإن هذه هتك من السرّ فيزول الحجاب، وهذه الجملة الأخيرة في الدعاء إنما هو خرق الحجب النورية من الظاهر؛ لكي يصل إلىٰ الباطن المشار إليه بقوله: فتصل إلىٰ معدن العظمة كما لا يخفىٰ، وكيف كان فقد تقدم بيانه في الجملة السابقة.

وقد يقال: إن المراد من الستر هو ستر العلائق، ومن السر هو قلب المؤمن الذي هو مظهر الحق قال تعالىٰ: «لا تسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي

المؤمن» فالقلب إذا صفا ظهر فيه الحق المشار إليه بقوله: بل يسعني الخ وإذا تكدر بظلم المعاصي صار محجوباً قال تعالىٰ: ﴿ختم الله علىٰ قلوبهم..﴾[١] وقال تعالىٰ: ﴿..بل ران علىٰ قلوبهم﴾[٢].

وكيف كان فالقلب دائماً في الانقلاب كما قال ﷺ: «مثل القلب مثل العصفور ينقلب في كلّ ساعة»، وقال ﷺ: «سمّي القلب قلباً لسرعة تقلبه»، فإذا صار القلب مزكّىً بالصفات الحميدة، وتخلىٰ عن الصفات الرذيلة صار مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿إلّا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾[٣] فلا محالة ينكشف فيه الحق، ففي هتك أستار الصفات الرذيلة لغلبة السر، أعني ظهور الحق فيه يكون العبد عارفاً بالحقيقة، فتأمل تعرف.

وقد يقال: إن المراد من السرّ هو الحب المفرط المعبر عنه في لسان العرفاء الحقة بالعشق، ومن الستر هو كتمانه، فالمحبة هي الرابطة بين قلب العبد وبين خالقه، بها يكمل العبد في مقام العبودية، وبها يسير العبد إلىٰ درجات القرب ويعرض عن غيره تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿والذين آمنوا أشدّ حباً لله﴾[٤] ثم إن العبد قد يكون قوياً في النفس فيكتم العشق في قلبه إلىٰ أن يموت، ففي الخبر: «من عشق وعفّ وكتم فمات مات شهيداً» فإنه وإن كان هذا ظاهراً في العشق المادي بقرينة قوله: وعفّ، إلّا أنه يمكن حمله على العشق الإلهي أو الأعم، فتأمل.

وكيف كان لما كانت المحبة موجبة للاعراض عن غيره تعالىٰ قلباً وسبباً لمشاهدة جمال الحق سرّاً، إلّا أنه غالباً يكون مكتوماً، فأشار ؑ إلىٰ أنه قد يزيد المحبة إلىٰ أن يوجب هتك الستر (أي الكتمان) فترى العاشق حينئذ يصدر عنه آثار

---

١ ـ البقرة: ٧.

٢ ـ المطففين: ١٤.

٣ ـ الشعراء: ٨٩.

٤ ـ البقرة: ١٦٥.

المحبة والعشق علناً، فهذه الأحوال لا تكون إلّا في حال كشف الحقيقة وظهورها.

أقول: هذا الهتك للعاشق الحقيقي إنما يكون للضعفاء منهم، وأما الأقوياء فيخفون محبتهم فيما بينهم وبين خالقهم، كما ذكر هذا في حال النبي ﷺ وبعض الأنبياء السابقين كإبراهيم عليه السلام وشعيب عليه السلام ونحوهما عليهما السلام وكذا حال الأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ويلحق بهم في الجملة بعض العارفين الإلهيين، وهنا كلام طويل ذكر في محلّه.

وقد يقال: إن معنىٰ هتك الستر لغلبة السرّ، إن سرّ الوجود الظاهري الذي هو وجود الحق في صقع الربوبية إذا غلب علىٰ الباطن انهتك ستره، الذي هو وجود الخلق، وزيادة هذا البيان علىٰ سابقه لإفادته علة هتك الستر وهو غلبة السرّ وهو اسم لما سرّ شيئاً، وبالفتح مصدر وتقدم بيانه، وقال بعضهم: إن السائل لم يقنع منه عليه السلام بعلم اليقين والتمس منه عليه السلام مرتبة عين اليقين.

فأجاب عليه السلام: «بأنها هتك الستر لغلبة السرّ» أي أن السالك إذا محى مظنونات وهمه عند انكشاف سبحات الجلال عن الحقيقة، فيصحو له المعلوم ويعلم بعلم اليقين علامات الحقيقة، فيغلب حينئذ السرّ عليه وهو نور الحقيقة، وحينئذ يسكر السالك من شراب الوجد ويقف عقله، ويهتك الستر عليه وهو ناموس الشرع والعقل، فعند ذلك يأخذ في الشطحيات والكلمات التي لا يجوز التكلم بها في الشرع، كما روي عن بعضهم من مثل: سبحاني ما أعظم شأني، ومثل: أنا الحق، أو: ليس في جبتي إلّا الله، ونحوها.

فإن كانوا حينئذ محفوظين بالعناية الأزلية فلا محالة يواظبون في عين هذا السكر علىٰ الفرائض والسنن، وإلّا فتجري عليهم أحوال وأُمور خارجة عن الشرع والعقل، ويقول أهل الظاهر حينئذ بكفرهم وزندقتهم، فإذا أفاقوا من سكرهم اعتذروا بما جرىٰ عليهم في حال السكر من الشطحيات، ونهوا غيرهم عنها وقالوا: أين التراب وربّ الأرباب وقالوا: تب علينا يا رب إنك أنت التواب،

أين العبودية من الربوبية أين المخلوقية من الخالقية؟! إنتهىٰ ملخصاً عما ذكره العلامة الحلي (رضوان الله تعالىٰ عليه).

الأمر الثامن: فلما شرب كميل من كأس إفاضاته ﷺ القدح المعلّىٰ والمشرب المهُنّىٰ، وعلم أن الأمر أدق وأخفىٰ مما ظنه، فقال مستفيداً وملتمساً الزيادة منه ﷺ: زدني بياناً، فقال ﷺ: «جذب الأحدية لصفة التوحيد».

قد يقال: إن معناه أن من خصائص الحقيقة أن يجذب بأحديتها وصف التوحيد عن الموحد، رفعاً لتوهم إثنينية بين الموحد والموحّد، وزيادة هذا البيان لإفادته معنىٰ التوحيد.

وكيف كان فهذه الجملة تفسر بأُمور:

الأمر الأول: أن الجذب لغة بمعنىٰ الجر والمدّ يقال: جذبت ثوبه، أي أجذبته إليّ بشدة، واللام في قوله ﷺ: «لصفة التوحيد»، إما بمعنىٰ إلىٰ كما في قوله تعالىٰ: ﴿سقناه لبلد ميت﴾[1] وإما بمعنىٰ التعليل فالمعنىٰ حينئذ إن الحقيقة وحقيقة التوحيد جذبه تعالىٰ عبده إلىٰ صفة التوحيد وحقيقته، أو جذبه إليه تعالىٰ لعلّة صفة التوحيد، أي حقيقة الوحدانية إذا ظهرت في قلب عبد تجذبه إليه تعالىٰ.

وفي هذه الجملة إشارة إلىٰ ما تقدم من: أن ظهور الحقيقة إنما هو في حال الجذبة لا غير، فظهور حقيقة التوحيد لا محالة يكون بالجذبة، وهي كانت مراده في الجمل السابقة باطناً إلّا أنه لما طلب الزيادة للبيان صرّح بها ﷺ للبيان.

وكيف كان فالجذبة هو الأصل في ظهور هذه الحقائق والأُمور للسالك، وهي عند أهل المعرفة عبارة عن إدناء الله تعالىٰ عبده إليه بالعنايات الإلهية، وهي إما قبل السلوك فتصير سبباً لسلوك العبد، فيقال حينئذ للسالك: المجذوب السالك، وإما بعده أو في أثنائه فيقال له: السالك المجذوب.

وكيف كان: فلابد من الجذبة ولا يعدلها شيء من الأعمال المقربة في السلوك،

---

١ ـ الأعراف : ٥٧.

وإليه يشير ما في الرواية علىٰ ما قيل من أن: جذبة من جذبات الرحمن أفضل من عبادة الثقلين، ولنعم ما قيل في الفارسية:

تا كه از جانب معشوقه نباشد كششى

كوشش عاشق بيچاره بجائى نرسد

ثم إنّ الأحدية مصدر جعلي، أي أن توحيده تعالىٰ إذا ظهر لعبد يجذبه إلىٰ صفته أي إلىٰ حقيقته، ومعنىٰ جذبه إلىٰ حقيقة التوحيد ليس هو صيرورة العبد الممكن واجباً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل المراد وقائله (صلوات الله عليه) إعلم: «أن العبد لما قرب إليه تعالىٰ بالجذبة يزول عنه آثاره وإراداته المحدودة، بل يتصف بصفات الحق تعالىٰ كالحديدة المحماة، التي تظهر منها آثار النار فقط، مع أنها ليست بحقيقة النار، بل لكمال قربها إليها ونفي آثارها المختصة بها من حيث هي حديد ظهرت فيها آثار النار فكذلك العبد يظهر منه حينئذ آثار التوحيد».

وإليه يشير ما ورد كثيراً من الأحاديث من قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه فإذا أحببته كنت يده ولسانه وبصره» إلىٰ آخر ما في الحديث وقد تقدم.

فقوله تعالىٰ: «كنت يده» الخ، يشار به إلىٰ ظهور صفاته تعالىٰ فيه كما لا يخفىٰ.

وإليه يشير أيضاً قول الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة[1] «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»، فإن المراد بالربوبية (التي هي مصدر جعلي) هو ظهور صفاته تعالىٰ فيه لأجل العبودية، فالعبد حينئذ يتصف بالربوبية أي يعمل عمل الرب، أي يظهر فيه أعماله تعالىٰ، وحينئذ ربما ينسب العبد تلك الأفعال الربوبية إلىٰ نفسه كما نقل عن خطب أمير المؤمنين عليه السلام من قوله: «أنا خالق السماوات والأرضين ورازق أهلها».

والوجه فيه أنه نفسه الشريفة (صلوات الله عليه) ليست بعاملة بنفسها مستقلة، بل هي حينئذ فانية في صفاته تعالىٰ، فلا يظهر منها إلّا آثار صفاته تعالىٰ، فالنسبة إلىٰ نفسه عليه السلام في الحقيقة نسبة إليه تعالىٰ، فإنه عليه السلام بعد ما كان منجذباً لصفة التوحيد أي مظهراً لظهور صفة التوحيد فيه بآثارها، فلا محالة ليس هناك إلّا آثار الحق.

وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ﴾[1] وقوله صلى الله عليه وآله: «من رآني فقد رأى الحق» فإنه تعالىٰ جعل رميه صلى الله عليه وآله رمي نفسه تعالىٰ بعد نفي كون الرمية منه صلى الله عليه وآله بقوله: وما رميت، أي أنت فانٍ عن نفسك فأفعالك ليست بأفعالك، بل هي أفعالي وأنت مظهر لها.

ثم إن هذا أمر حقيقي واقعي نفس الامري إلّا أنه خفي علىٰ كثيرين إلّا من أبصره الله تعالىٰ بالجذبة الأحدية فيرىٰ أفعاله منه تعالىٰ، كما هو ثابت للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وبعض أولياء الله تعالىٰ.

وإلىٰ هذا الأمر الواقعي يشير قوله تعالىٰ: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾[2] وقوله تعالىٰ: ﴿لا قوة إلّا بالله﴾[3] وقوله: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾[4] وقوله تعالىٰ: ﴿إنّ ربَّك فعال لما يريد﴾[5].

والحاصل: أن السالك إذا خلص من علائق الدنيا ومن علائق البشرية وصفاتها بالسلوك والجذبة الإلهية، فيصير كالمرآة المصفاة تنتقش فيها صفات الحقّ وآثارها، كما علمت من الحديدة المحماة أيضاً، فحينئذ يكون آثاره آثاره تعالىٰ لا آثار نفسه، وهذا المقام إنما هو ثابت بالنسبة إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وللأوحدي

---

١ ـ الأنفال: ١٧.
٢ ـ الفتح: ١٠.
٣ ـ الكهف: ٣٩.
٤ ـ القصص: ٦٨.
٥ ـ هود: ١٠٧.

من أولياء الله تعالىٰ، فلا تظن بأحد ذلك إلّا بالثبت القاطع لكلّ محتملات الخلاف.

ولنعم ما قيل بالفارسية مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام:

ز تو ظاهر صفات لم يـزليست   ليس في جـبتي مـقام وليست

كه أنا الحق بحق حضرت حق   در تـعيّن عـلى و آل عـليست

وأما بالنسبة إلىٰ غيره فمشكل ثبوتاً، وأشكل منه إثباتاً كما لا يخفىٰ. رزقنا الله ذلك بفضله وكرمه وبمحمد وآله (عليه وعليهم السلام).

الأمر الثاني: أن يراد من الحقيقة وحقيقة التوحيد أنه تعالىٰ يجذب إلىٰ عبده (أو لعبده) صفة التوحيد يعني يمنحه حالة السكر والدهشة والحيرة والوله، اللهم إن قلوب المخبتين إليك والهة، وإنما تحصل له هذه الحالة لما يشاهده بسره جمال الحق، فالمحب العاشق إذا شاهد بسره جمال المحبوب المعشوق يعرض له تلك الحالة، فيزيل حينئذ عنه شعاع العقل وآثاره وآمريته، ويذهل عن حواسه ومحسوساته الظاهرية لانغماسه في مشاهدة جمال الحق تعالىٰ، فيعرضه منها فرح وانبساط ونشاط بما لا نهاية لها ولا يحكيه بيان.

فمن شدّة الفرح والانبساط والنشاط بانضمام مشاهدة جمال المحبوب، يعرض له حالة السكر والدهشة والحيرة والوله كما ذكرنا، فيغفل حينئذ عن نفسه وعن غيرها، فلا يشاهد إلّا الحق في مرايا الوجود ومظاهر الموجود، ولهذا العبد في هذه الحالات لذائذ روحيّة ذكرت في محلّها نثراً أو شعراً كما نرىٰ كتب العرفاء الحقة الواصلين إلىٰ تلك الدرجة، الذائقين من هذا الكأس المعلىٰ مشحونة بذلك، ثم ربما يدوم ذلك الفرح والانبساط والنشاط إلىٰ أن تزول عنه حالة الدهشة والوله والسكر، فتحصل له حالة الصحو عن السكر مع بقاء الانس والنشاط ومشاهدة جمال الحق، فهذا العبد حينئذ يكون في حال المشاهدة مع الاطمينان والهدوء، وهذا أقوىٰ من سابقه الذي كان له حالة الدهشة.

ومن هنا يعلم أن أهل السير الذين يفشون الأسرار، فإنما هو لنقصهم وعدم بلوغهم إلىٰ الكمال، وإلىٰ حالة الصحو المذكور. وأما الكاملون فهم دائماً في حال المشاهدة، ومع ذلك يكتمون الأسرار، فلا يظهر منهم فعل يوجب كشف أسرارهم، وهذا يعلم من حال نسوة أهل مصر وحال زليخا حيث إن النسوة قطعن أيديهن لمشاهدة جمال يوسف، لما عرضت لهن حالة الدهشة والوله، وهذا بخلاف زليخا فإنها مع أنها كانت أشدّ حبّاً له منهن ما قطعت يديها مع أنها كانت في مقام مشاهدة الجمال اليوسفي، وذلك لأنها كانت في مقام الصحو بعد السكر كما لا يخفىٰ.

هذا وقد يقال: إن المراد من صفة التوحيد هو أن يرىٰ العبد الضرر والنفع، والعزة والذلة، والفقر والغناء، والمرض والصحة، والبلاء والرخاء كلّها منه تعالىٰ فتساوى عنده جميع تلك الصفات المتضادة؛ لأنه يرىٰ كلّها من قبل محبوبه وهذا مقام التسليم والرضا.

قال الشاعر:

ومن الدلائل أن تراه مسلماً ... كلّ الأُمور إلى المليك العادل

ويدل عليه وعلىٰ مدحه ولزومه أحاديث كثيرة كما لا يخفىٰ.

الأمر الثالث: لا ريب في أن صفة التوحيد تحكي عن الواحد الأحد المتفرد بالذات، الذي لا رسم له ولا اسم، ولا يشار إليه لعدم غيره هناك بل ليس هناك إلّا وجود محض بلا صورة ورسم فصفة التوحيد بما لها من مقام الوحدة الواحدية جارية في الخلق، وأما موصوفها وهو الوحدة الأحدية ليس إلّا وجود محض بحت فحينئذ نقول: قد يصل العبد إلىٰ مقام صفة التوحيد بنحو تقدم بيانه.

وقد يجذبه الربّ إلىٰ مقام الأحدية أي يرفع عنه صفة التوحيد، ولا يبقي له إلّا حقيقة التوحيد ومقام الأحدية، فالعبد حينئذ لا يرىٰ نفسه أبداً، بل الجذبة

الأحدية تأخذ منه المنية والانية فلا يبقىٰ إلّا الذات الأحدية، فلا يقال حينئذ موحد (بالكسر) ولا طالب ولا عاشق ولا أثر لغيره تعالىٰ بل كلّها يفنىٰ في الحق، أي لا يرىٰ إلّا الحق وآثار الحق لا آثار الخلق ولو بعنوان المظهرية، فالعارف إذا استغرق في لجة التوحيد فلا يرىٰ لنفسه أثراً أبداً.

ولعلّه إليه يشير ما في دعاء السيفي الصغير من قوله عليه السلام: «اللهم أدخلني في لجة بحر أحديتك وطمطام يم وحدانيتك»، الدعاء.

وإليه يشير ما قيل في العربية:

وصرت فـــناء في بـــقاء مـــؤبّد	لذات بـــــديمومية سرمـــــدية
وأنـــــظر في مـــرآة ذاتي مشـــاهداً	لذاتي بـــذاتي وهـــو غـــاية غـــايتي
هو العاشق المعشوق في كل صـــورة	هـــو النـــاظر المـــنظور في كـــل لمحـــة

وحينئذ فاللام في قوله عليه السلام: «لصفة التوحيد» لتقوية التعدية وتكون الجملة في محل النصب مفعولاً لقوله عليه السلام: «جذب الاحدية»، ويكون الجـذب حـينئذ بمـعنىٰ الدفع والرفع كما لا يخفىٰ.

وقد يقال: إن كميل بن زياد لما لم يقنع بمرتبة عين اليقين، والتمس منه عليه السلام مرتبة حقّ اليقين، فأجاب عليه السلام بقوله عليه السلام: «جـذب الأحـدية لصـفة التـوحيد» (لصـفو التوحيد نسخة العلامة) أي أن من هتك ستره من غلبة السر، وسكر مـن شراب الوجد الحقيقي، ثم أفاق من سكره وجلس علىٰ سرير الصحو، وعـلم أن ليس في الوجود إلّا الله ونفى الاثنينية بالكلية، فهذا تمكن من التوحيد الحقيقي، وهـو أن لا يرىٰ في الوجود إلّا الله الواحد المحض مع وجود كثرة المكوّنات، ويعلم حينئذ أن الآثار مظاهر أفعاله والأفعال مظاهر صفاته وصفاته ثابتات لذاته، وهذه مـرتبة علَيّة في معرفة علم التوحيد، وما لم يصل السالك إلىٰ هذا المقام لا يـدرك حـقيقة التوحيد كالصبي الذي لا يدرك فوق البلوغ وإن كثرت له الأخبار عنه. وهذا المعنىٰ

قليل الوجود ربما لا يكون في غير الأئمة عليهم السلام إلّا للأوحدي النادر الملحق بالعدم، رزقنا الله ذلك بمحمد وآله الطاهرين.

الأمر الرابع: لا ريب في أن العبد المتصف بصفة التوحيد يكون من أكمل أفراد البشر فضلاً عن غيرهم، وذلك لأن صفة الوحدة جامعة لجميع أقسام الشرافة المتصورة في الموجودات؛ لما ثبت في محلّه من أن الكمالات إنما هي منه تعالىٰ، وهو أحد فرد صمد، فمن اتصف بالوحدانية وتشبه بالمبدإ من هذه الجهة صار مجمعاً لتلك الكمالات، ولا ريب في أن هذه الوحدة سائرة في الخلق كما تقدم من قوله عليه السلام: «ثم أجراه» (أي التوحيد) علىٰ خلقه.

فكلّ موجود له هذه الشأنيّة أي القابلية إلىٰ تلك الكمالات لمكان تحقق جهة التوحيد فيه ولذا قيل:

وفي كلّ شيء له آية ... تدل علىٰ أنه واحد

ومن أشرفه الإنسان، ولعلّه إليه يشير ما عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله:

وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المضمر

فالإنسان بظاهره جامع لمراتب الملك وكمالاته، وبباطنه جامع لمراتب الملكوت ودرجاته، وهذا أي كونه واجداً لمقام التوحيد بالفطرة والحقيقة المستلزم لجميع الكمالات الظاهرية والباطنية أحد معاني قوله عليه السلام: «إن الله خلق آدم علىٰ صورته، أي علىٰ جامعية الكمالات الذاتية»، وقوله: «الصورة الإنسانية أكبر حجج الله علىٰ خلقه»، كما ذكره المحقق الكاشاني في كتبه، وما قيل أيضاً من أن حقائق العلم كلّها مظاهر للحقيقة الإنسانية التي هي مظهر لاسم الله تعالىٰ.

وأحسن مصاديق لهذه الذوات المقدسة محمد وآله الطاهرون (صلوات الله عليهم أجمعين) ولذا قالوا: «والله نحن الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا والآيات الكبرىٰ» كما سيجيء في طي الشرح وتقدم بعضها، وسيجيء أنهم حقيقة كلمات

الله التي لا تحصىٰ ولا تستقصىٰ.

إذن فهذا الإنسان الجامع لصفة التوحيد يجذبه الله تعالىٰ إليه أي يجذب الموحد إلىٰ مقام الأحدية أي بساط أُنسه وحزبه.

وإليه يشير قوله تعالىٰ في النفس المطمئنة: ﴿ارجعي إلىٰ ربّك راضية مرضية﴾[1]، رزقنا الله ذلك بمحمد وآله.

الأمر الخامس: فلما عرف كميل من بياناته من غوامض الحقيقة فأراد أن يستكثر من معارفه وألطافه الخاصة فقال: «زدني بياناً»، فقال عليه السلام: «نور يشرق من صبح الأزل فيلوح علىٰ هياكل التوحيد آثاره».

فنقول: أما الهيكل فقد يطلق على البناء المرتفع وعلىٰ محال الأصنام (وعلىٰ معابد النصارىٰ والمكان المخصوص لهم) وعلى البدن الانساني، فإنه كما علمت بناء عظيم من حيث إنه مجمع لجميع آثار قدرته تعالىٰ حيث إنه تعالىٰ، خمّر طينة آدم بيد قدرته أربعين صباحاً كما نطقت به الأحاديث، وعلىٰ مجموع العالم الكبير، ويقال له الانسان الكبير كما أنه يقال للانسان العالم الكبير، وعلىٰ صور الكواكب وأشكالها التي كانت النصارىٰ والصابئون منهم يضعونها فيعبدونها، فالهيكل يراد به ما هو مهم في نفسه، وما أهمته الأُمور والنفوس في عالم التقدير والتقويم، فكلّ طائفة يطلقه علىٰ ما هو أهم عنده فاضافة الهيكل إلى التوحيد في كلامه عليه السلام إشارة إلىٰ عظمة من لاح فيه آثار التوحيد فأطلق عليه السلام الهيكل بهذا الاعتبار.

وأما صبح الأزل فيراد منه الصادر والموجود الأول، الذي ظهر به وأبان به ما كان خفياً في ذاته المقدسة، حيث إن الصبح يشار به إلىٰ ما به ظهور الأشياء، وهذا الصادر الأول قد يطلق عليه الدرة البيضاء وآدم الأول والعقل الأول ونور ولوح والقلم والحقيقة المحمدية وغير ذلك، وأما إطلاقها على الذات المقدسة بأن تكون الإضافة بيانية فصبح الأزل أي نفس الأزل المشار به إلى الذات المقدسة فمحتمل

---

١ ـ الفجر : ٢٨.

أيضاً فتأمل.

ثم إن قوله: نور، أي ظهور نور كما لا يخفىٰ قيل: لأن الحقيقة اسم المعنىٰ فلابد من تقدير المضاف لئلا يلزم تفسير اسم المعنىٰ باسم الذات (أعني النور) فتأمل فإن الحقيقة يشار بها إلى الحقائق الموجودة في صقعها وفي نفس الأمر، لا إلىٰ المعاني المتصورة في الذهن فقط كما لا يخفىٰ.

وليعلم أولاً أنه عليه السلام كأنه اطلع علىٰ ضمير السائل وما اختلج فيه من أن التوحيد الحادث كيف يكون صفة القديم، فأزاله عليه السلام بأن حقيقة التوحيد نور أزلي من أنوار صفات الحقّ سبحانه، تلوح آثاره علىٰ صور توحيد الخلق فيوحدونه بتوحيده تعالىٰ لا بصفة من صفات أنفسهم، وكيف كان لم يقنع كميل بالبيان السابق الذي هو بيان مرتبة حق اليقين، فالتمس مرتبة حقيقة حق اليقين فأجاب عليه السلام بقوله: «نور يشرق من صبح الأزل، فيلوح علىٰ هياكل التوحيد آثاره» يعني أن من نفىٰ الاثنينية وتمكن من التوحيد الحقيقي ولم يرَ في الوجود سوىٰ المعبود فهذا يتمكن الحق عليه بصفاته الذاتية.

فعند ذلك يكون عبداً ربانياً فهو حينئذ وإن كان من الخلق، إلّا أنه يكون مع الحقّ والحق معه، فبالحق يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه ينطق وبه يمشي كما ورد به الحديث الرباني: لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً.. الخ.

فقوله عليه السلام: «نور يشرق من صبح الأزل».. الخ إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: فالنور الذي يشرق من صبح الأزل كناية عن الحقيقة، وهياكل التوحيد كناية عن السلاك الواصلين إلىٰ الحق المشرّفين بتجلي الصفات الذاتية، ولفظ آثاره إشارة إلىٰ أن لا يكون تجلي نور الحقيقة مع الدوام، بل تكون آثاره متجلية بالدوام، والله العالم بحقائق الأُمور.

وكيف كان فهذه الجملة أيضاً تفسر بوجوه:

الوجه الأول: أن حقيقة التوحيد لا ريب في أنها أمر واقعي نفس الأمري أصلاً وفرعاً، وإنما الكامل من ظهرت له تلك الحقيقة بأصلها وفروعها وآثارها، ومن المعلوم أن النور بما له من المعنى العام الشامل للوجود هو الظاهر بنفسه والمظهر لغيره، فلا محالة لابد من النور في ظهور تلك الحقيقة وآثارها، وهذا النور بأي معنىٰ كان بل بمعناه الجامع لا يكون بحيث يظهر التوحيد وحقيقته به للعبد إلّا ما كان إشراقه وظهوره من صبح الأزل أي من ذاته المقدسة فيشرق منه في قلب العبد فيترتب عليه أنه يلوح.. الخ.

فالفاء للتفريع أي أن الحقيقة هو أمر إذا أشرق من صبح الأزل نور الذات، فيلوح أي فيظهر علىٰ هياكل التوحيد أي علىٰ قلب ولي الله المهم الذي هو محل التوحيد لقوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «بل يسعني قلب عبدي المؤمن» آثاره، أي آثار التوحيد، وإنما لم يقل عليه السلام: فيلوح التوحيد، بل قال: آثاره، لأن حقيقة التوحيد بما هو وبواقعه لا يحاط به أبداً إلّا أنه بكلّ شيء محيط، فلا يحاط به وإلّا كان المحيط به أكبر منه وصفاً وعظمة تعالىٰ الله عن ذلك، أي عن أن يكون أكبر منه وصفاً وعظمة علواً كبيراً.

نعم يظهر في قلب المؤمن الكامل آثاره فيشاهد بآثاره كما لا يخفىٰ، وإلىٰ هذه الدقة أشار تبارك وتعالىٰ في قوله في الحديث القدسي: «إن المشتاقين إليّ الذين صفيتهم من كلّ كدر.. إلىٰ أن قال: وخرقت من قلوبهم إليّ خرقاً ينظرون إليّ»، فقوله تعالىٰ: وخرقت من قلوبهم إليّ هو ظهور هذا النور فيه بحيث يترتب عليه ظهور آثار التوحيد، والعبد إذا وصل إلىٰ محبة الخالق علىٰ الحقيقة بحيث خلا عن كلّ شاغل غيره نال هذه المرتبة العظمىٰ.

قال الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة: «حبّ الله إذا أضاء علىٰ سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل وكلّ ذكر سوى الله عنده ظلمة»، رزقنا الله ذلك بمحمد وآله صلى الله عليه وآله.

ثم لا يخفىٰ أن أظهر مصداق لهذه الجملة هو الذوات المقدسة أعني محمداً وآل

محمد (صلوات الله عليهم أجمعين).

بيانه: أنه قد تقدم أنهم عليهم السلام حقيقة الأسماء الحسنىٰ، فهم مرايا صفات الله العليا، فلا محالة منهم وبهم تظهر آثار الربوبية والقدرة كما تقدمت الإشارة في بيان ولايتهم التكوينية، حيث علمت أن هذا هو المستفاد من قوله عليه السلام: «لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك وخلقك»، فهم الواجدون لحقيقة التوحيد كما قالوا: نحن الموحدون، وبهم يظهر التوحيد كما قالوا: «فبهم ملأت سماءَك وأرضك حتىٰ ظهر أن لا إله إلّا أنت»، وتقدم أنه لولاهم ما عبد الله ولولاهم ما عرف الله كما صرحت به الأحاديث الكثيرة.

كيف لا يكونون كذلك وقد ورد قولهم (روحي لهم الفداء): «نحن أسرار الله المودعة في الهياكل البشرية، يا سلمان نزّلونا عن الربوبية، وارفعوا عنا الحظوظ البشرية، فإنّا عنها مبعدون، وعما يجوز عليكم منزّهون، ثم قولوا فينا ما أستطعتم، فإن البحر لا ينزف، وسر الغيب لا يعرف، وكلمة الله لا توصف، ومن قال: هناك لم وبم وممّ وفيم، فقد كفر، ويدل علىٰ طهارتهم وأنهم منزهون عما يجوز علينا من الآثام والنواقص الظاهرية والباطنية قوله تعالىٰ: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**، وسيجيء إن شاء الله بيانه فيما يأتي.

وحينئذ نقول: فالمراد من النور المشرق من الصبح الأزل هو الحقيقة المحمدية وآله الطاهرون الأربعة عشر (صلوات الله عليهم أجمعين) فهم عليهم السلام بذواتهم آيات التوحيد وأدلة الواحدانية له تعالىٰ، ثم إنه قد تقدم أن حقيقة ذواتهم المقدسة كذاته تعالىٰ مخفية عنا ولا تعرف إلّا بالآثار، ومن المعلوم أن الآثار العجيبة والأفعال الغريبة كلّها منه تعالىٰ إذ الآثار لا تكون إلّا من الموجود بالوجود الحقيقي، وهو مختص به تعالىٰ، ومع ذلك نرىٰ بالوجدان من معجزاتهم، وخوارق العادات لهم، إنهم مظاهر لتلك الآثار والمعجزات، وليسوا بما هم بشر سبباً لتلك الآثار، وإلّا لحصلت في غيرهم أيضاً لفرض وحدة الملاك، فيعلم من هذا أنه تعالىٰ قد رتبهم في

تلك المراتب العليا، ومنحهم تلك القدرة والكمالات حتى يكونوا عليهم السلام ـ بما يظهر منهم تلك الآثار العجيبة ـ دليلاً علىٰ وجوده ووحدانيته وعلىٰ قدرته وعلمه تعالى، حيث يعلم من هذه الآثار ـ أن موجدها واجدها لعدم إمكان إعطائها من فاقدها كما لا يخفىٰ.

فظهر بحمد الله أن المراد من النور المشرق هو الحقيقة المحمدية وهو حادث ، حيث إنه أثر يشرق من صبح الأزل (والمضارع يدل علىٰ الحدوث كما حقق في محله) فهو مسبوق بمؤثره وهو ذاته تعالىٰ وتقدس، وما في دعاء سهم الليل من قوله عليه السلام: «اللهم إني أسألك بالحقائق الأزلية»، وما في بعض خطبه عليه السلام من قوله: «كنّا في تكوينه بكينونيّته قبل خلق التكوين أولين أزليين موجودين منه بدءُنا وإليه نعود»، الظاهر في كونهم أزليين فإنما يراد منه الأزلية بالنسبة إلىٰ ساير الموجودات المتأخرة عنهم عليهم السلام، لا الأزلية التي هي صفة له تعالىٰ كما حقق في محلّه.

الوجه الثاني: قد تقدم أن المستفاد من كثير من الأخبار أن أول ما خلق هو نور نبينا محمد صلى الله عليه وآله وساير الموجودات صادرة منه صلى الله عليه وآله، فمنها ما عنه صلى الله عليه وآله من قوله: «وأنا من الله والكلّ مني» وقول علي عليه السلام: «نحن صنايع الله والناس بعد صنايعنا».

ولعلّه بهذا المضمون قوله: «خلق الأشياء بالمشية»، وقوله تعالىٰ: ﴿**خلقكم من نفس واحدة**﴾[1] وقوله عليه السلام في دعاء المبعث: «اللهم إني أسألك بالتجلّي الأعظم» فتأمل.

فيستفاد من هذه وأمثالها أن الصادر الأول هو الحقيقة المحمدية، وأن ساير الموجودات بأجمعها صادرة من هذا الصادر الأول، الذي هو أثر للخالق جلّ وعلا، وقد يعبر عن هذه الحقيقة المحمدية بالوجود المنبسط، فحينئذ يراد من الصبح الأزل الحقيقة المحمدية، وإضافته إلىٰ الأزل إشارة إلىٰ أنه مخلوق للأزل المكنّىٰ به عن الذات الأحدية جلّ وعلا، والمراد من هياكل التوحيد هو ساير

---

١ ـ الزمر: ٦.

الموجودات الظاهرة فيها آثار التوحيد، السائرة فيها من الصادر الأول، والحقيقة المحمدية التي هي الواسطة بين الحق الواجب والخلق الممكن ضرورة أنه لا سنخية بين الخلق والحق إلّا بهذه الواسطة المحمدية، كما لا يخفىٰ على المتتبع الماهر.

الوجه الثالث: أن المراد من النور المشرق من صبح الأزل هو تجلي النور الأعظم من الذات المقدسة بنحو ظهر منه جميع الموجودات قال تعالىٰ: **﴿الله نور السموات والأرض﴾**[1]، وقال عليه السلام: «وبنورك اهتدينا»، فالموجودات الظاهرة فيها آثار التوحيد إنما هي كذلك بإشراق هذا النور والتجلي الأعظم كما في النبوي المشهور: «إن الله خلق الأشياء في الظلمة، ثم رش عليها من نور وجوده».

الوجه الرابع: قيل: إن المراد من النور المشرق هو نور التوحيد، يقع في قلب من أراد الله تعالىٰ أن يهديه إلىٰ مشاهدة التوحيد والوحدة في جميع الأشياء، فيرى هياكل التوحيد أعني قلوب الموحدين التوحيد بذلك النور المشرق من صبح الأزل، أي من أنوار صفاته تعالىٰ، فتحصل لها مشاهدة التوحيد القلبي المنبئ عن التوحيد الحقيقي القائم بذاته تعالىٰ الذي شهد بذلك بنفسه تعالىٰ قال تعالىٰ: **﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو﴾** فقوله بعد ذلك: **﴿والملائكة وأُولوا العلم﴾** إشارة إلىٰ شهادتهم التوحيد المنبئ عن التوحيد الأول الذي شهد به لنفسه تعالىٰ، ولذا عطف شهادتهم علىٰ شهادته تعالىٰ إشعاراً بأن التوحيد الحقيقي هو مختص به تعالىٰ فقط.

وأما التوحيد في غيره هو وإن كان بإشراقه تعالىٰ إلّا أنه مع ذلك توحيد منبئ عن التوحيد الحقيقي كما لا يخفىٰ، وقد حقق في محله مشروحاً وهذا محتمل تصدّقه الآيات والأحاديث.

ثم إنه لما بيّن عليه السلام بهذه البيان الوافي واستفاد منه كميل والتذّ منه وبعد لم يشبع حتىٰ قال عليه السلام: «منهومان لا يشبعان طالب علم..» الخ، حيث علم أن البحر بحر

---

١ ـ النور: ٣٥.

علمه عليه السلام لا ينفد، وكلمة الله لا توصف فاستزداد منه عليه السلام فقال: زدني بياناً، فقال عليه السلام: «اطفِ السراج فقد طلع الصبح»، هذا كما قيل: «لقد أغنىٰ الصباح من المصباح»، وقيل: إذا طلع الصباح إستغني عن المصباح، أي أنّ كشف صبح الحقيقة بالبيانات السابقة مستغن عن إضاءة صبح البيان زايداً علىٰ ما مرّ فأطف السراج أي اعمال عقلك الذي هو السراج، فقد طلع الصبح أي صبح الحقيقة بالبيانات السابقة، وتبيّن الرشد من الغيّ.

ثم إن كميلاً لعله جاوز حد المعرفة، وكاد أن يسرع إلىٰ مقام لو طار طائر لاحترق جناحه، وذلك لما سأل الإمام عليه السلام الزيادة بالمرتبة، التي هي نهاية مرتبة الوصول فأجاب عليه السلام عنه بقوله عليه السلام: «إطف السراج فإن الصبح قد طلع» ومنعه عن هذا المقام، لأن هذه المرتبة أي المرتبة المنبه بقوله: نور.. الخ آخر مراتب السلوك والكمال وليس ما وراء عبّادان قرية، إذ هي مرتبة الوصول ولها المراتب الابتدائية والوسطية والنهائية، تؤخذ تلك المرتبة من النبي صلى الله عليه وآله وهو صلى الله عليه وآله من الحق.

وهذه المرتبة العلية موجودة لأمة محمد صلى الله عليه وآله ويتمنىٰ جميع الأنبياء أن يكونوا من هذه الأُمة، لما شملتهم هذه المكرمة العظيمة من نبيهم صلى الله عليه وآله كما قال صلى الله عليه وآله: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، أو أفضل من أنبياء بني إسرائيل» وهم العاملون بأحكام الشريعة ودقائقها وبأسرار الطريقة باطناً، فهم حينئذ العالمون الراسخون في العلم الكاملون المكملون من أولياء الله العظام، وهم أهل كمال اليقين إذ له مراتب:

أولها: اليقين المجرد بواسطة النقل المحض والتصديق بقول النبي صلى الله عليه وآله بحيث لا يدخله الشك والريب والظن.

وثانيها: اليقين الحاصل بواسطة العلم من جهة البرهان العقلي، ويسمىٰ بعلم اليقين.

وثالثها: اليقين الحاصل من مرتبة المشاهدة، ويسمىٰ بعين اليقين.

ورابعها: اليقين الحاصل بواسطة القرب.

وخامسها: اليقين الحاصل بواسطة الوصول، وهذه الثلاث الأخيرة (عين اليقين وقرب اليقين ووصل اليقين) مختصة بالسالك الإلهي الحقيقي وليس لغيره قدم فيها، رزقنا الله تعالىٰ ذلك بمحمد وآله الطاهرين.

وكيف كان فهذه الجملة لابد أن تفسر فنقول: إنه لما أراد استكشاف الحقيقة منه عليه السلام فكشفه عليه السلام له بقوله: «اِطف السراج فقد طلع الصبح».

وحاصله: أنه عليه السلام تصرف في كميل فأراه الحقيقة بحيث لا يحتاج إلىٰ البيان القولي.

وبعبارة أُخرىٰ: إن البيان القولي غايته إيصال المخاطب إلىٰ علم اليقين، ولكن بعد يكون المسؤول مثلاً غير مشاهد وجداناً، ولكن إذا حصل عين اليقين وحق اليقين فلا يبقىٰ حينئذ مجال للبيان القولي ولو كان بنحو علم اليقين، والإمام عليه السلام أوصله بتصرفه إلىٰ عين اليقين وحقه.

ومرجع هذا كله إلىٰ أنه عليه السلام أراه نفسه المقدسة، التي هي هيكل التوحيد ومظهره، ومظهر الحقيقة ومأواها حيث شاهد كميل حقيقة وجوده الشريف من حيث هو مظهر للحقيقة والتوحيد، فإن حقيقة نفسه المقدسة هي النورانية الإلهية التي أُشير إليها في قوله عليه السلام لسلمان: «معرفتي بالنورانية معرفة الله» وقوله عليه السلام علىٰ ما نقل: «ونحن في الحقيقة نور الله الذي لا يزول ولا يتغير» فلما تجلىٰ عليه السلام لكميل بالنورانية فعرف الحقيقة منه عليه السلام فقال له: «إطف السراج فقد طلع الصبح» أي صبح وجوده النوراني، وحينئذ لما وصل كميل إلىٰ هذه المعرفة بالنسبة إليه عليه السلام فلا محالة استغنىٰ عن البيان وعن ازدياده، وعن ساير ما قيل أو يقال في بيان الحقيقة.

إذ بعد الوجدان لا حاجة إلى البيان كما لا يخفىٰ علىٰ أُولي الألباب، وإنما تصرف عليه السلام فيه بهذه الإراءة النفسانية لأجل أن ما بينه عليه السلام لبيان الحقيقة، وهو كان غاية البيان في إفادة علم اليقين، ولكنه حيث لم يكن البيان كافياً عن مشاهدة الحقيقة طلب الزيادة فأراه عليه السلام ما أراه، والوجه فيه أن التوحيد لما كان في صقع

وجوده بحيث لا اسم له ولا رسم ولا تناله الأوهام ولا يبين بلفظ أو كلام أو بيان، وإن بينوه بأحسن البيان فكلّ يدركه علىٰ قدر فهمه، هب أنه بينه خالق البيان كالربّ المتعال أو الإمام عليه السلام الذي كلامه فوق كلام الخلق ودون كلام الربّ إلّا أن المخاطب لا يكاد يصل إلىٰ مشاهدة الواقع بالبيان؛ لأنه إنما يفهم من البيان بقدر ما دلّ عليه الكلام وفهمه منه بقدر دركه.

وأين هذا في الواقع الذي لا حد له ولا نعت له؟ قال عليه السلام: «إنما الأدوات تحد أنفسها والآلات تشير إلىٰ نظائرها» وقال: «انتهى المخلوق إلىٰ مثله وألجأه الطلب إلىٰ شكله، فلا محالة لابد من ذوق الواقع ووجدانه إلىٰ إيصال المخاطب إلىٰ مقام الوجدان للحقيقة؛ لكي يشاهده علىٰ ما هو عليه ولو في الجملة» وهذا لا يكون إلّا بالتصرف الالهي وقد منحه عليه السلام لكميل فأوصله إلىٰ هذا المقام رزقنا الله ذلك بمحمد وآله (عليه وعليهم السلام) والواقعيات لا تنكشف إلّا بالوجدان خصوصاً مثل التوحيد حيث إنه من أغمض الأُمور وأدقها، فهو بما له من الواقع مختص به تعالىٰ فقط حيث قال تعالىٰ: ﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو﴾[1] وليس لأحد الشهادة بمثل هذه الشهادة.

ذكر المحقق العارف الإلهي السبزواري رحمه الله في أول الشرح للأسماء الحسنىٰ: وفي الحديث: «التوحيد الحق هو الله والقائم به رسول الله والحافظ له نحن والتابع فيه شيعتنا»، فصدر الحديث يعطي أن التوحيد الحق الحقيقي مختص به تعالىٰ كما دلّت عليه أيضاً آية شهد الله كما لا يخفىٰ.

ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «ما عرفناك حق معرفتك»، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من سأل عن التوحيد فهو جاهل ومن أجاب عنه فهو مشرك، ومن عرّف التوحيد فهو ملحد، ومن لم يعرفه فهو كافر»، قوله صلى الله عليه وآله: «من سأل عن التوحيد فهو جاهل»، إما لأجل أن التوحيد بواقعه لما كان غير مبين بالبيان بنحو يوصل إلىٰ

---

١ ـ آل عمران: ١٨.

كنهه، فالسؤال عنه لا يكون إلّا عن جاهل بهذا المعنىٰ أي عدم إمكان بيانه، وإما لأجل أن التوحيد لابد وأن يدرك بتعليم الله كما تقدمت الاشارة إليه فإنه صنع الله لا صنع غيره، فالسؤال عنه عن الخلق جهل بالتوحيد وإن أُجيب.

وإما لأجل أن التوحيد أي وحدانيته تعالىٰ أمر وجداني لكلّ أحد، فلا يسأل إلّا الجاهل قال تعالىٰ: ﴿أفي الله شك﴾[١]، قوله عليه السلام: «ومن أجاب عنه فهو مشرك»، أي أجاب عن رأيه وبمقتضىٰ دركه؛ لأنه لا يجيب إلّا ما يتوهمه أنه الله، هذا مع أنه تعالىٰ غيره وفوقه ومحيط به فكيف يكون محاطاً وإنما كان مشركاً؛ لأنه وصفه ويصفه بصفة مخلوقه، فحينئذ قد جعل له شريكاً قال عليه السلام: «من وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه».

قوله: «ومن عرّف التوحيد» (بالتشديد) فهو ملحد، أي من عرّفه بالكنه فقد ألحد أي انحرف عن الصراط المستقيم إلى الصراط الباطل، ولذا قال عليه السلام: «ما عرفناك حقّ معرفتك».

قوله: «ومن لم يعرفه فهو كافر»، لما عرفت من أن وجوده ووحدانيته بديهي لكل أحد، فمعرفة التوحيد لا محالة ولو بأدنىٰ المعرفة تكون وجدانياً لا تصوّرياً علمياً قائماً بالنفس كما هو شأن العلم، وقد عرفت فيما تقدم أنه لا يقال: علمت الله، وإنما يقال: عرفت الله لما ذكرناه، فالتوحيد هو حاصل بتعريف الله قال تعالىٰ: ﴿يهدي لنوره من يشاء﴾[٢].

قيل: سئل أمير المؤمنين عليه السلام: عرفت الله بمحمد صلى الله عليه وآله أم عرفت محمداً بالله؟ قال: «لو عرفت الله بمحمد لكان محمداً أوثق من الله، ولو عرفت محمداً بالله ما احتجت إلىٰ رسول الله، ولكني عرفني الله نفسه بلا كيف، وأرسل محمداً لبيان الحق وتوضيح

الدين»، فعلم أن المعرفة له تعالىٰ إنما هو بتعريف إلهي.

نعم أنه تعالىٰ يعرف نفسه بأن يعرف لعبده وليه فيعرف به ربّه، حيث إن وليه مظهر لمعرفته كما تقدمت الإشارة إليه ولذا عرف الإمام الحقيقة لكميل بأن أراه نفسه المقدسة، التي هي مظهر التوحيد والله ولي التوفيق.

قال بعض العارفين علىٰ ما نقل عنه: شهادة الحق للحق بالحق حق، وشهادة الخلق للحق بالحق خلق قديم، أي تختص الشهادة الحقة بالحق، وأما ما عن غيره فهو خلق إذ لا تصدر من الخلق إلّا الخلق والحق خلو منه كما تقدم، فلا محالة يختص ظهور الحق والشهادة الحقيقية به تعالىٰ، وبتعريفه لمن يشاء يهدي لنوره من يشاء، رزقنا الله ذلك بمحمد وآله الطاهرين.

ثم إنه لا بأس بذكر رسالة من العلامة الشيخ عبدالرزاق في شرح حديث الحقيقة فنقول: لابد قبل ذلك من بيان مقدمة لتوضيح بعض مشكلات الرسالة فنقول: قد تقدم أن الخلافة الالهية العظمىٰ قد تحققت في النشأة الجامعة الإنسانية، واستحقت لها بحسب جوهر ذاتها لأجل تطوّرها بالأطوار الكونية الوجودية، ونشأتها بالشؤون العلمية وقابليتها لمظهرية الصفات المتقابلة الإلهية، وقد تقدم شرح ذلك وإجماله.

إن للانسان أولاً مرتبة الهيولي الأُولىٰ وهي قوة صرفة وإبهام محض، لا تحصّل لها ولا فعلية في ذاتها، ثم تحوّل إلى الجمادية ثم إلى النباتية ثم إلى الحيوانية بمبادي طلوع نفسه الناطقة، ووقوع أشعة شمسه علىٰ زوايا بدنه وأكناف قواه، وأول عضو يكون هو القلب الصنوبري؛ لأنه أول ما يتحرك من البدن وآخر ما يسكن منه، وإن نفسه الناطقة لها مراتب: أولها: الصدر المعنوي الذي هو موضع ازدحامات القوىّ المتوجه إليه القوى الإلهية والشيطانية. ثم إن أدركته السعادة الإلهية يتدرج في الاستكمال من حال، إلىٰ حال حتىٰ يطوي مراتب العقول الساذجة والاستعدادية وهلم إلىٰ درجة العقل المستفاد، فيصعد به إلىٰ درجة الكمال بعد أن

هبط منها فيدرك الكليات الروحانية والجسمانية إلىٰ أن يدرك المغيبات من الأُمور الماضية والآتية، وإلىٰ أن يطرح الكونين بخلع النعلين ونفي الخواطر المتعلقة بغير الله تعالىٰ، ويفنى عن غيره راجعاً إلىٰ الحق بالكلية فتضمحل الكثرة في شهوده متحققاً بمقام الجمع منسلكاً في سلك صف الأعالي المهيّمين.

ثم لا يقف حتىٰ يرجع بسبب مشاهدته الوحدة الصرفة إلىٰ الصحو بعد المحو، فيجعل كل مقام أراده محطّ رحله فهو فرحان بالحق، وينظر إلىٰ الجمال الأول في جميع المظاهر، فهو سائر بنور ربّه في حقائق الأُمور والأشياء، وبصفاء ذاته يحاذي بها شطر الحق، ولا يشغله شيء عن شيء لكمال قابليته، فيتطور بكلّ طور، ويتلوّن بكلّ لون وهذا الحال يسمىٰ بالتلوين فأجعله علىٰ ذكرك؛ لتعلم به ما في الرسالة والشرح وحال العبد حينئذ علىٰ مفاد قوله تعالىٰ وعلىٰ مظهرية قوله تعالىٰ علىٰ حسب ما يقتضيه حاله وهو قوله تعالىٰ: **﴿كلّ يوم هو في شأن﴾**[1].

ثم اعلم أيضاً: أن مراتب السير تكون في أسفار أربعة علىٰ ما نقل عن صاحب الرسالة:

الأول: هو السير إلى الله من منازل النفس إلى الوصول إلىٰ الأُفق المبين، وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات الأسمائية، واعلم: أن القلب والروح والنفس الناطقة واحدة عند الحكماء، وفي إصطلاح العرفاء الروح هي اللطيفة الإنسانية المجردة، وعند الأطباء هي البخار اللطيف المتولد في القلب الصنوبري القابل لقوة الحياة والحس والحركة، ويسمّىٰ هذا البخار في اصطلاح العرفاء بالنفس، والمتوسط بينهما المدرك للكليات والجزئيات بالقلب.

فالقلب عند العرفاء جوهر نوراني مجرد يتوسط بين الروح بالمعنىٰ الأول والنفس والروح باطنه، والنفس مركبه وظاهره المتوسط بينه وبين الجسد.

وبعبارة أُخرىٰ: النفس عند العرفاء هي الروح البخاري، بل القوىٰ والطبايع

---

١ ـ الرحمٰن : ٢٩.

سيما القوىٰ والطبايع التي هي مجبولة علىٰ طاعة القلب، وهي أي القوىٰ من صقعه ومقامه النازل، والقلب هو اللطيفة المدركة للجزئيات والكليات، والروح هو اللطيفة المدركة للكليات.

هذا ولكن الحكماء لمّا كانت عنايتهم كثيرة بالعلوم الحقيقية، فالقلب عندهم المرتبة العاقلة للمعقولات التفصيلية، والروح هو العقل البسيط الخلّاق بإذن ربّها للعقل التفصيلي، ولهذا البحث كلام طويل مذكور في محلّه.

الثاني: هو السير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه إلىٰ الأُفق الأعلىٰ ونهاية الحضرة الواحدية.

والثالث: هو الترقي إلىٰ عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الاثنينيّة، فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنىٰ وهو نهاية الولاية أي القرب الحقيقي.

والرابع: هو السير بالله عن الله للتكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع.

أقول: وشرح هذه الأُمور يذكر في محالها، وإنما ذكرناها إجمالاً؛ لتكون علىٰ بصيرة من اصطلاحات القوم؛ لتعرف ما في الرسالة في شرح الحديث فنقول: قال ﷺ بعد ذكر الحديث: الحقيقة هيهنا هو الشيء الثابت الواجب، الذي لا يمكن تغييره باعتبار ما، ولما كان كميل ﵁ من أصحاب القلوب (أقول: قد علمت حالهم) طالباً لمقام الولاية الذي هو مقام الفناء في الذات الأحدية (أقول: وعلمت معناه) اقتضىٰ حاله السؤال عن الحقيقة، فأجاب أمير المؤمنين ﵇ بما يدل عليه علىٰ أنه مقام عال بعيد عن مقام صاحب القلب، لا يرتقي إليه إلّا صاحب الاستعداد الكامل منهم.

بتأييد نور التوفيق والهداية وسابق سابقة الحب والعناية بطريق يختص بهم، وسرّ يليق بحالهم، ورياضة خاصة قلبيّة لا نفسية وهو قوله ﵇: «مالك والحقيقة»،

يعني أين أنت من ذلك المقام حال كونك في مقام القلب واقفاً مع وجودك؟ فقال: أولست صاحب سرّك، أي ألم أكن مستعداً لذلك المقام مع اطلاعي علىٰ سرّك، والسرّ هو المعنىٰ الذي لا يمكن ظهوره علىٰ المشاعر النفسانية حتىٰ القوة الفكرية، ولا تطلّع عليه إلّا من ترقىٰ عن مقام النفس.

وقد يقال على القلب الواصل إلىٰ مقام الروح عند ترقّي الروح إلىٰ مقام التوحيد؛ لشدة لطافته ونوريته وغاية تجرده وبعده عن مقام النفس والقوىٰ حينئذ، ولا تطلع علىٰ ذلك المعنىٰ إلّا من تلك الجهة، ولا ينتقش السرّ إلّا في وجهه المنور، الذي يلي الروح لا في وجهه الذي يلي النفس؛ ولهذا يطلق مجازاً، والمراد هنا هو المعنىٰ الأول، فأخبر عليه السلام عن استعداده لذلك بترقيه عن مقام النفس بدليل اطلاعيّته علىٰ سرّه، وقوله عليه السلام في جوابه: بلىٰ ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي تصديق له عليه السلام بأنه مستعد لذلك المقام لكنّه غير واصل إليه؛ لأن رشح النور من صاحب الكمال لا يكون إلّا علىٰ المستعد القابل.

وهذا الكلام يدلّ علىٰ أنه عليه السلام في مقام التكميل والاستقامة والتمكن، وإن كميلاً في مقام القلب قابلاً مترقياً لم يصل بعد إلىٰ مقام الفناء، إذ لو لم يكن عليه السلام في مقام الاستقامة والتمكين في الولاية، وهو مقام البقاء بعد الفناء في عين الجمع، بل كان مستغرقاً في الذات الأحدية، لم يكن له وجود حتىٰ يطفح منه شيء، وكذا لو كان كميل في مقام الولاية مستغرقاً في عين الجمع لم يرشح عليه شيء، وكان عليه السلام في مقام فناء الفناء موجوداً بالوجود الموهوب الحقاني ممتلياً بالنور الأحدي كما وصفه النبي صلى الله عليه وآله: بأنه ممسوس في ذات الله.

يطفح منه ذلك النور عند قيامه بحقّ العبودية، ويرشح علىٰ المستعد السالك (فانظر) كما بيّن سرّه الذي هو النور الأحدي الذاتي، وهو نور الوجه الباقي، وبيّن سرّ كميل الذي هو نور التجليات الصفات في مقام القلب أو السر[1] وهو نور

---

١ ـ عطف علىٰ قوله: والمراد هو المعنى الأول.

المكاشفة والمطالعة لا المشاهدة، فسرّ كميل هو من أوائل أسراره عليه السلام وطوالعها لا من حقائقها وجلائلها، وقول كميل: أو مثلك يخيب سائلاً؟! معناه: أن للسائل حقاً إذ لو لم يشعر بالمسؤول عنه بوجه لم يسأل عنه ولم يطلبه، ولو لم يستفد لذلك المطلوب لم يشعر به، ولهذا قيل: الطلب والوجدان توأمان.

وقال بعض العرفاء: ما لم يكن الله ليعطيه، لم يكن ليعطي داعيه ويصدقه قوله: ﴿أُدعوني أستجب لكم﴾[١]، وقوله: ﴿وآتاكم من كلّ ما سألتموه﴾[٢]، والكامل المكمّل المطلع علىٰ مقتضيات الاستعدادات يجب عليه التكميل علىٰ حسب اقتضاء الاستعدادات، فلا يخيب سائلاً قطعاً؛ ولهذا أجابه أولاً بقوله: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة وهو جواب علىٰ حسب رتبة السائل، إذ كان صاحب القلب وهو مقام تجليات الصفات والجلال هو احتجاب الوجه الباقي بحجب الصفات، كما أن الجمال هو نور الوجه من دون الحجاب، والوجه هو الذات الموجود مع جميع لوازمه.

والسبحات هي الأنوار، وأنوار تجليات الصفات هي حجب الوجه وسميت سبحات الجلال كما أن أنوار تجلي الذات سميت سبحات الجمال، وقوله عليه السلام: من غير إشارة، أي بلا إشارة ما ولو عقلية أو روحية باينيّته عبارة عن مقام الفناء المحض، أي الحقيقة هي طلوع الوجه الباقي بكشف حجب الصفات عنه لتفني سبحات وجهه ما سواه كما قال تعالىٰ: ﴿كلّ من عليها فان * ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والاكرام﴾[٣] وقال: ﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه﴾[٤]، ومصداق ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله: «إن لله تعالىٰ سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشفها لاحترقت سبحات

---

١ ـ غافر: ٦٠.

٢ ـ إبراهيم: ٣٤.

٣ ـ الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

٤ ـ القصص: ٨٨.

وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه» فهداه ﷺ إلىٰ مقام الفناء والبروز من وراء حجب الصفات إلىٰ عرصة كشف الذات، فلم يكتف بذلك لوفور قوة استعداده وعلمه بأن ذلك الكشف قد يكون مع كون صاحبه في مقام التلوين.

ولا يدل علىٰ مقام الوحدة إلّا بالالتزام وإن الذات الأحدية لا تخلو عن الصفات التي تلزمها دائماً واستزاد البيان، فقال ﷺ: «محو الموهوم مع صحو المعلوم» فأشار ﷺ بالأول إلىٰ أنّ التلوين إنما يكون بحسبان صاحبه وجود غيره بالتوهم، وليس في الحقيقة وجود غيره، وليس في الحقيقة وجود الغير إلّا نقشاً موهوماً استقر ورسخ باستيلاء قوة الوهم وسلطان الشيطان علىٰ القلب، فمن أخلصه الله تعالىٰ من غباره محا عنه ذلك الوجود الموهوم، الذي ليس إلّا نقشاً خالياً لا وجوداً حقيقياً يحتاج إلى الفناء.

ولهذا قال بعض العرفاء: الباقي باق في الأزل والفاني فانٍ لم يزل، وبالثاني إلىٰ أن الابهام اللازم للدلالة الالتزامية هيهنا إنما يكون لسلطنة القوة العقلية واعتبار العقل تكثر الصفات، وامتناع عروجه عن الحضرة الواحدية إلى الحضرة الأحدية، فمن عرف الحق بالطريق العلمي لم يخلص عن حجب الصفات إلىٰ عين الذات، ولم يرتق عن الحضرة الواحدية إلىٰ عرصة الأحدية، فلا تنكشف الحقيقة إلّا لمن عزل عقله بنور الحق وجنّ بالجنون الإلهي. كما قال الإمام جعفر الصادقﷺ: «العشق جنون إلهي»، فصحا معلومه عن مقام كثرة الصفات وصفا عن كدورة الاعتبارات، وارتفعت الكثرات العقلية عنه بنور العشق الحقيقي والحب الذاتي، حتىٰ بلغ صاحبه مقام الاخلاص الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «وكمال الإخلاص نفي الصفات عنه» إلىٰ آخره، فصار علمه عيناً، وتوحيده حقاً وشهوداً وعياناً لا علماً وبياناً، ولمّا نفي سلطان الوهم والعقل وطروهما عن طريق الحق عرف السائل أن ذلك لا يكون إلّا بظهور سلطان العشق، وذلك لا يكون اختياراً ولا منوطاً بسعي السالك وإرادته. فأشكل ذلك عليه فطلب زيادة الوضوح،

فقال عليه السلام: «هتك الستر لغلبة السر» أي أنك زعمت أن لك سرّاً ولا شك في وجوده، فما دام ذلك السّر ضعيفاً كامناً يقدر العقل أن يستره والقلب أن يخفيه، فلست صاحب حقيقة بل عالماً عارفاً غير محب، وإذا قوىٰ وغلب فظهر سلطانه علىٰ العقل، وانطمس نور العقل بنوره، كما ينمحي نور القمر بنور الشمس، وصرت مغلوباً محكوماً أسيراً في قبضته، وكان حالك في الجذبة المغلوبية كحال المجانين، وانهتك ستر العقل والشرح بقوة الحب صرت ذا حقيقة، فحدس السائل أن ذلك مقام السكر.

فقد يسكر بعض السالكين بما لا يسكر به غيره، وقد يشرب أحدهم من شراب الحب أضعاف ما شربه غيره، ولم يسكر لقوة استعداده وكمال حاله وسكر غيره بأقل منه كثيراً كما كان حال موسىٰ عليه السلام عند قوله: أرني أنظر إليك بالنسبة إلىٰ محمد صلى الله عليه وآله عند قوله تعالىٰ: ﴿ما زاغ البصر وما طغىٰ﴾[1] فلا يلزم من غلبة السر حصول الحقيقة كما قال أحدهم:

شربت الحبَّ كأساً بعد كأس فما نفد الشراب ولا رويت

فعلم عليه السلام قوة استعداده فقال عليه السلام: «جذب الاحدية لصفة التوحيد»، أي النهاية في غلبة السر قوة جذب نور الذات في الحضرة الأحدية، التي لا اعتبار للكثرة فيها أصلاً لصفة التوحيد المشعر بالكثرة الاعتبارية في الحضرة الواحدية التي منشأ الأسماء والصفات.

وذلك النور هو العين الكافورية التي هي مشرب المقربين خاصة، فلا يبقىٰ مع هذا الجذب والشرب الحقاني للغير عين ولا أثر، ولما كان كميل عارفاً بأن مقام الوحدة والفناء في الذات وإن كان مقام الولاية ليس كمالاً تامّاً؛ لأن صاحبه لا يصلح الهداية والتكميل ما لم يرجع من الجمع إلى التفصيل، ومن الوحدة إلى الكثرة

---

١ ـ النجم: ١٧.

ولم يصل إلىٰ مقام الصحو بعد السكر، ولم يحصل له مقام الاستقامة المأمور بها النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿فاستقم كما أُمرت﴾[١] استوضح واستزاد البيان، فقال عليه السلام: «نور يشرق من صبح الأزل فيلوح علىٰ هياكل التوحيد آثاره» أي ظهور النور الذاتي الأحدي الذي سميناه نور الوجه المشرق من أزل الأزل اللائح علىٰ مظاهر صفات الحق وذاته، التي هي أعيان الموجودات سمّىٰ هنا عليه السلام «هياكل التوحيد»، أي صور أسماء الله تعالىٰ في مقام التوحيد نفياً لتوهم الغير آثاره أي صفاته وأفعاله، أي ظهور الذات في مظاهر الصفات وشهود الوحدة في صورة الكثرة، وحضور الجمع في عين التفصيل، ووجود التفاصيل في عين الجمع.

وعند ذلك غلب حال كميل فسكر، وجذب الشوق عنان تماسكه واستزاد البيان، فقال عليه السلام: «اطف السراج فقد طلع الصبح»، أي دع البيان والعلم وأترك الحد العقلي، واطف نور العقل الذي هو بالنسبة إلىٰ نور الحق كالسراج بالنسبة إلى الشمس، فقد ظهرت عليك تباشير نور الحق وأوائله، التي هي بالنسبة إليه كنسبة نور الصبح إلىٰ نور الشمس وقت الاستواء وعند الابتلاج لا يحتاج إلى السراج، والله أعلم بحقائق أسراره.

قوله عليه السلام: وحملة كتاب الله.

أقول ـ في المقام الأول ـ إن الحمل في اللغة جيء لمعان:

منها: الرفع ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وحملت الأرض والجبال﴾[٢] أي رفعت عن أماكنها، ويقال: حملت الشيء علىٰ ظهري أحمله حملاً (بالكسر) قال ابن السكيت: الحمل (بالفتح) ما كان في بطن أو علىٰ رأس شجر، والحمل (بالكسر) ما كان علىٰ ظهر أو رأس، والحمل جمع حامل ومنه حملة القرآن وحملة العرش، ويأتي بمعنى

---

١ ـ هود: ١١٢.

٢ ـ الحاقة: ١٤.

الأهل ومنه قوله عليه السلام: «إن هيهنا لعلماً جمّاً لو أصبت حملة» أي أهلاً، وحملته الرسالة كلّفته حملها، وتحامل عليه أي مال، وتحاملت علىٰ نفسي أي تكلّفت للشيء علىٰ مشقة وتحمل واحتمل بمعنىٰ.

ومنه قول علي عليه السلام كما تقدم: «ولقد حملت علىٰ مثل حمولة الرب»، ومنه وحملة كتاب الله، وسيجيء بيان معنىٰ حملهم عليهم السلام لكتاب الله تعالىٰ، والكتاب مصدر كالقتال والضراب، والمصدر قد يراد به المفعول (أي المكتوب) وقد يراد به معاني أُخر نذكر بعضها، وكتب كتاباً من باب قتل، وكتبه كتاباً والاسم الكتابة (بالكسر)؛ لأنها صناعة كالتجارة والعطارة وهي من نعم الله علىٰ الإنسان بها بقاء العلوم، وفوائد أُخر ذكرها في الحديث.

والكتب (بسكون التاء) له معان:

منها: الفرض كقوله تعالىٰ: ﴿**كتب عليكم الصيام**﴾[1].

ومنها: الجمع كقوله تعالىٰ: ﴿**كتب في قلوبهم الايمان**﴾[2] أي جمع.

ومنها: القضاء كقوله تعالىٰ: ﴿**كتب الله لأغلبن أنا ورسلي**﴾[3] أي قضىٰ الله.

وللكتاب معان:

منها: اللوح المحفوظ أو القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿**إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله**﴾[4] وكقوله: ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾[5] وقوله: ﴿**والكتاب المبين**﴾[6].

---

١ ـ البقرة: ١٨٣.

٢ ـ المجادلة: ٢٢.

٣ ـ المجادلة: ٢١.

٤ ـ التوبة: ٣٦.

٥ ـ البقرة: ١٥١.

٦ ـ الزخرف: ٢.

ومنها: الايجاب كقوله تعالىٰ: ﴿كتب علىٰ نفسه الرحمة﴾[١] أي أوجب هذا بحسب اللغة.

ثم إن الكلام في شرح هذه الجملة يقع في مقامين:

الأول: في بيان كونهم حملة الكتاب وما دلّ عليه من الأحاديث.

والثاني: في بيان معنىٰ الكتاب، فنقول:

أما الأول: فعن المناقب: عن الصادق عليه السلام: «نحن حملة الكتاب».

وعن بعض خطب أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الأئمة عليهم السلام: «إنهم حملة بطون القرآن».

أقول: وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾[٢] فإنه ورد النص بإن المراد منه أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام كما سيجيء بيانه.

ويشير إليه أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم﴾[٣].

ففي الكافي بإسناده عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في هذه الآية: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم﴾ «فأومأ بيده إلىٰ صدره».

وفيه في حديث بعده قال: «هم الأئمة عليهم السلام».

وفي الكافي أيضاً بإسناده عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ما ادّعىٰ أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أُنزل إلّا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزّله الله تعالىٰ إلّا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده عليهم السلام».

وفيه بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كلّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء».

---

١ ـ الأنعام: ١٢.

٢ ـ الرعد: ٤٣.

٣ ـ العنكبوت: ٤٩.

وفيه بإسناده عن سلمة بن محرز قال: سمعت ابا جعفر عليه السلام يقول: «إن من علم ما أُوتينا تفسير القرآن وأحكامه، وعلم تغيير الزمان وحدثانه، إذا أراد بقوم خيراً أسمعهم ولو أسمع من لم يسمع لولىٰ معرضاً كأن لم يسمع، ثم أمسك هنيئة ثم قال: ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا» والله المستعان.

وفيه بإسناده عن أبي عبدالله المؤمن عن عبدالأعلىٰ مولىٰ آل سام قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلىٰ آخره كأنه في كفي، فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن قال الله عزوجل: ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾».

أقول: هذه الجملة مقتبسة معنىً من القرآن من قوله تعالىٰ: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾[1].

وفيه بإسناده عن عبدالرحمن بن كثير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ قال: «ففرج أبو عبدالله عليه السلام بين أصابعه فوضعها في صدره ثم قال: وعندنا والله علم الكتاب كلّه».

وفيه بإسناده عن بريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ﴿قل كفىٰ بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾، قال: «إيانا عنىٰ وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله».

وفي البصائر[2]، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قال: لما قدم علي عليه السلام الكوفة صلىٰ أربعين صباحاً فقرأ بهم ﴿سبح اسم ربّك الأعلىٰ﴾ فقال المنافقون: والله ما يحسن أن يقرأ ابن أبي طالب القرآن، ولو أحسن أن يقرأ لقرأ بنا غير هذه السورة!! قال: فبلغه ذلك فقال عليه السلام: «ويلهم لأني لأعرف ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وفصله من وصله، وحروفه من معانيه، والله ما حرف نزل علىٰ

---

١ ـ النحل: ٨٩.

٢ ـ البصائر ص ١٣٥.

محمد ﷺ إلّا وأنا أعرف فيمن أُنزل، وفي أيّ يوم نزل، وفي أي موضع نزل.

ويلهم أما يقرأون **﴿إن هذا لفي الصحف الأولىٰ صحف إبراهيم وموسىٰ﴾**؟!

وَالله وإنه عندي ورثتها من رسول الله ﷺ وورثها رسول الله ﷺ من إبراهيم وموسىٰ، ويلهم والله إني أنا الذي أنزل الله فيّ: **﴿وتعيها أُذن واعية﴾** فإنا كنا عند رسول الله فخبّرنا بالوحي فأعيه ويفوتهم، فإذا خرجنا قالوا ماذا قال آنفاً».

وفي المحكي عن تفسير العياشي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنا أهل بيت لم يزل الله يبعث فينا من يعلم كتابه من أوله إلىٰ آخره، وإن عندنا من حلال الله وحرامه ما يسعنا كتمانه ما نستطيع أن نحدّث به أحداً».

وفيه عنه عليه السلام أيضاً: «إن الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن وبها نوّهت الكتب ويستبين الإيمان، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يقتدىٰ بالقرآن وآل محمد ﷺ وذلك حيث قال في آخر خطبة خطبها: إني تارك فيكم الثقلين الثقل الأكبر والثقل الأصغر فأما الأكبر فكتاب ربّي، وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما» الخبر، وتقدم بعض الكلام فيه فراجع.

وفيه عن الحرث بن المغيرة، عدة من أصحابنا عبدالأعلىٰ وأبو عبيدة، وعبدالله بن بشر الخثعمي سمعوا أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إني لأعلم ما في السموات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون قال: ثم مكث هنيئة فرأىٰ أن ذلك كبر علىٰ من سمعه منه فقال: علمت ذلك من كتاب الله تعالىٰ، إن الله تعالىٰ يقول: **﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾**».

أقول: قد علمت أن هذه الجملة مقتبسة معنىً من القرآن، وتقدم أن المراد من الامام المبين في قوله تعالىٰ: **﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾** هو أمير المؤمنين عليه السلام بنصّ رسول الله ﷺ.

ثم إن كونهم عليهم السلام حملة للكتاب علىٰ أقسام:

منها: أنهم حملته أي أنهم حافظون لأحكامه الخمسة من الوجوب والحرام والمكروه والمستحب والمباح، وقد يعبر عنها بالوجوب والراجح والحرام والمرجوح والجائز، وأنهم حافظون معاني الكتاب بجميع ما يحتمل من الظاهر بأقسامه والباطن وباطن الباطن إلىٰ سبعة ابطن، ومن التأويل بأقسامه كلّ ذلك إما بما هو يرجع إلىٰ السورة أو إلىٰ الآية أو الىٰ الكلمة أو إلىٰ الحروف، فإن لكلّ سورة سياقاً يعطي معنىً خاصاً للسورة وكذا الآية كما حقق في محله.

ثم إن ما يرجع إلى الحروف بأقسامها من الفكري والعددي واللفظي والرقمي، وأيضاً هم عليهم السلام حافظون لأحوال الآيات، وأوضاعها من الوصل والفصل والإدغام والإظهار والإخفاء، وتبديل حرف مكان حرف، ومن أحوال كلمة ركبت من حروف كلمتين نحو حصب فإن الحاء منه مأخوذ من الحطب والحصىٰ والحجارة والصاد منه من الحصىٰ والباء منه من الحطب، وأمثال ذلك مما انطوىٰ علىٰ أسرار الموجودات.

وأيضاً هم حافظون للمعاني المرادة من مقطعات السور من نحو ألم وحم وأمثالها، فهم عليهم السلام حافظون لجميع هذه الأقسام، وغيرها من أنحاء علوم القرآن، التي هي عندهم عليهم السلام وهم يعلمون كيفية استخراجها منه.

ويدل علىٰ ما قلنا ما ورد منهم عليهم السلام فمنها ما في توحيد الصدوق، قال وهب بن وهب القرشي: سمعت الصادق عليه السلام يقول: قدم وفد من أهل فلسطين علىٰ الباقر عليه السلام فسألوه عن مسائل فأجابهم ثم سألوه عن الصمد.

فقال: «تفسيره فيه، الصمد خمسة أحرف فالألف دليل علىٰ إنيّته وهو قوله عزوجل: ﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو﴾[1] وذلك تنبيه وإشارة إلىٰ الغائب عن درك الحواس، واللام دليل علىٰ إلٰهيّته بأنه هو الله.

---

١ ـ آل عمران: ١٨.

والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان، ولا يقعان في السمع، ويظهران في الكتابة دليلان علىٰ أن إلٰهيّته بلطفه خافية، لا تدرك بالحواس، ولا تقع في لسان واصف ولا أُذن سامع؛ لأن تفسير الاله هو الذي أَلِهَ الخلق عن درك ماهيته وكيفيته بحس أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواس، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة دليل علىٰ أن الله سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبد إلىٰ نفسه لم ير روحه كما أن لام الصمد لا تتبيّن ولا تدخل في حاسّة من الحواس الخمس، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف.

فمتىٰ تفكّر العبد في ماهية الباري وكيفيته أَلِهَ فيه وتحير، ولم تحط فكرته بشيء يتصور له؛ لأنه عزوجل خالق الصور، فإذا نظر إلىٰ خلقه ثبت له أنه عزوجل خالقهم ومركب أرواحهم في أجسادهم، وأما الصاد فدليل علىٰ أنه عزوجل صادق وقوله صدق وكلامه صدق، ودعا عباده إلىٰ اتباع الصدق بالصدق، ووعد بالصدق دار الصدق، وأما الميم فدليل علىٰ ملكه وأنه الملك الحق لم يزل ولا يزال ولا يزول ملكه، وأما الدال فدليل علىٰ دوام ملكه وإنه عزوجل دائم تعالىٰ عن الكون[1] والزوال بل هو عزوجل يكوّن الكائنات الذي كان بتكوينه كلّ كائن.

ثم قال عليه السلام: لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عزوجل حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد، وكيف لي بذلك ولم يجد جدّي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمه حتىٰ كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني، فإن بين الجوانح مني علماً جمّاً هاه هاه، ألا لا أجد من يحمله، ألّا وإني عليكم من الله الحجة البالغة، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾.

ثم قال الباقر عليه السلام: الحمد لله الذي منّ علينا ووفّقنا لعبادته الأحد الصمد، الذي

---

١ ـ المراد من الكون الحدوث والتغيّر كما لا يخفىٰ.

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وجنّبنا عبادة الأوثان حمداً سرمداً وشكراً واصباً، وقوله عزوجل: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ يقول: لم يلد عزوجل فيكون له ولد يرثه، ولم يولد فيكون له والد يشركه في ربوبيته وملكه، ولم يكن له كفواً أحد فيعاونه في سلطانه»، إنتهىٰ.

أقول: قوله ﷺ: «لو وجدت لعلمي..» الخ، ظاهر فيما قلنا من العلم بتفسير القرآن من حيث الحروف، وهذا لا يكون إلّا منهم ﷺ لأنه لا يرجع إلىٰ اللغة ولا إلىٰ العرف في المتعارف حتىٰ يرجع إليهما، بل يختص علمه بهم وبما منحهم الله تعالىٰ من ذلك.

وبعبارة أُخرىٰ: أنهم ﷺ عارفون وحافظون لكتاب الله تعالىٰ من جميع الجهات، التي ترجع إليه من أقسام الدلالات من حيث المفردات والجمل، ومن حيث السياق في الآية أو في السورة، ومن حيث أحوال الحروف من الإدغام والوصل والفصل وما يراد منها، ومن كلّ واحد منها بأنفسها.

ومن حيث أحوال النزول والتأويل، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والظاهر والمجمل والمبين، والعام والخاص والمطلق والمقيد، والأمر والنهي وغير ذلك مما يجري منها في أحوال الأكوان والأعيان من الدهر والزمان مما هو مصدر كلّ موجود.

وإليه يشير قوله ﷺ: «لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرايع من الصمد»، وقوله ﷺ: «فإن بين الجوانح مني علماً جماً».

وكيف كان فهم حملة كتاب الله تعالىٰ بكلّ معنىٰ في كلّ عالم لكلّ غاية، ليس فوقهم من يفوقهم، بل هم المهيّمون علىٰ الكلّ بما منحهم الله تعالىٰ من الكتاب، الذي هو مهيمن علىٰ الكتب قال الله تعالىٰ: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه﴾[1].

---

١ ـ المائدة: ٤٨.

في تفسير نور الثقلين عن الكافي بإسناده عن سعد الاسكاف قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت السور الطوال مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الانجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل «ثمان وستون سورة» وهو مهيمن علىٰ سائر الكتب، فالتوراة لموسىٰ والإنجيل لعيسىٰ والزبور لداود عليهم السلام».

وفيه عن كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله وعن معمّر بن راشد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ وقد ذكر الأنبياء (صلوات الله عليهم): «وإن الله عزوجل جعل كتابي المهيمن علىٰ كتبهم الناسخ لها»، الحديث.

وفيه عن روضة الكافي بإسناده عن علي بن عيسىٰ رفعه قال: «إن موسىٰ ناجاه ربه تبارك وتعالىٰ فقال في مناجاته: أُوصيك يا موسىٰ وصية الشفيق المشفق بابن البتول عيسىٰ بن مريم، ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيب الطاهر المطهر، فمثله في كتابك إنه مؤمن مهيمن علىٰ الكتب كلّها»، الحديث.

أقول: ومعنىٰ كونه مهيمناً علىٰ الكتب أنه ناسخ لشريعتها، فهي لا داعوية لها في قبال القرآن بل ساكتة، والنطق والامر والنهي للقرآن، وأيضاً معناه أنه لا ناسخ له حيث إن محمداً ﷺ خاتم النبيين وكتابه آخر الكتب السماوية وبموته ﷺ انقطعت أنباء السماء ولازم هذا أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه بما ينسخه من السماء، ولا من خلفه بما يبطله من أقوال المبطلين المنتحلين إلى العلم كبعض الفلاسفة بل هو (أي القرآن) مهيمن علىٰ الكتب فضلاً علىٰ العلوم البشرية فهو قائم بالعلوّ والرفعة، وإليه يشير قوله: «الاسلام يعلو ولا يعلىٰ عليه».

ثم إنهم عليهم السلام حاملون (بهذا المعنىٰ) لساير الكتب السماوية أيضاً كما يشير إليه كثير من الأخبار.

ففي بصائر الدرجات بإسناده عن هشام بن الحكم في حديث بريهة حين سأله موسىٰ بن جعفر عليه السلام فقال: «يا بريهة كيف علمك بكتاب الله؟

قال: أنا به عالم.

قال: فكيف ثقتك بتأويله؟

قال: ما أوثقني بعلمي فيه!

قال: فابتدأ موسىٰ عليه السلام في قراءة الانجيل.

فقال بريهة: والمسيح لقد كان يقرأها هكذا، وما قرأ هذه القراءة إلّا المسيح.

ثم قال: إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة.

قال هشام: فدخل بريهة والمرأة علىٰ أبي عبدالله عليه السلام وحكىٰ هشام الكلام الذي جرىٰ بين موسىٰ وبين بريهة، فقال بريهة: جعلت فداك أين لكم التوراة والانجيل وكتب الأنبياء؟

فقال: هي عندنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرأوها، ونقولها كما قالوها، والله لا يجعل حجّة (حجته خ ل) في أرضه يسأل عن شيء، فيقول: لا أدري. فلزم بريهة أبا عبدالله عليه السلام حتىٰ مات».

وفيه بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: «يا أبا محمد إن الله لم يعط الأنبياء شيئاً إلّا وقد أعطىٰ محمداً صلى الله عليه وآله جميع ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصحف التي قال الله: ﴿صحف إبراهيم وموسىٰ﴾.

قلت: جعلت فداك وهي الألواح؟

قال: نعم».

وفيه بإسناده عن المفضل قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «ورث سليمان داود وإن محمداً صلى الله عليه وآله ورث سليمان وإنا ورثنا محمداً صلى الله عليه وآله، وإن عندنا علم التوراة والانجيل والزبور وتبيان ما في الألواح.

قال: قلت: إن هذا لهو العلم.

قال: ليس هذا العلم، إنما العلم ما يحدث يوماً بيوم وساعة بساعة (بعد ساعة خ ل)». ومثله كثير وسيجيء في طيّ الشرح إن شاء الله تعالىٰ.

وأما المقام الثاني أعني بيان معنى الكتاب أقول وعليه التوكل:

قد علمت أن الكتب (بسكون التاء) بمعنى الوجوب الذي هو بمعنى اللزوم فالكتاب: لغة هو معنىٰ عام له مصاديق مختلفة فكلّ أمر جامع لأُمور فهو كتاب، ثم إنه إما يكون جامعاً لأُمور معنوية أو لفظية أو خارجية، والمعنوية إما حقيقية أو اعتبارية عقلائية أو غير عقلائية، أما الكتاب الجامع لأُمور معنوية الأنبياء والأئمة عليهم السلام حيث إنها جامعة لها أو لأُمور لفظية فكنقوش القرآن الكريم، وكذا نقوش سائر الكتب السماوية، بل وكذا نقوش سائر الكتب، أو لأُمور خارجية فكاطلاق الكتاب علىٰ جميع الموجودات الخارجية من عالم الوجود كما حقق في محله وسيجيء ذكره.

وأما الكتاب بمعنى الجامع لأُمور عقلائية فكاطلاق الكتاب على العلوم المدونة من أنحاء العلوم، التي اقتضتها العقول السليمة من العلماء أو غير العقلائية فكإطلاق الكتاب علىٰ مخترعات أهل الانحراف والمعاصي من متخيلاتهم الفاسدة، كالقصص المفتعلة والمطالب الباطلة بنظر الدين والعقل، كما لا يخفىٰ،ويلحق بهما الأُمور الاعتبارية بقسميها، وكيف كان فهذه موارد إطلاق الكتاب إجمالاً.

ثم إنه نذكر بعضها علىٰ حسب ما اقتضته الأدلة فنقول: فمنها ما ورد في الأحاديث من تأويل الكتاب بعلي عليه السلام وكذا بالأئمة عليهم السلام.

فعن تفسير القمي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ قال: «الكتاب علي عليه السلام ولا شك فيه ﴿هدىً للمتقين﴾، قال: تبيان لشيعتنا».

وفي رواية النصراني الذي سئل الكاظم عليه السلام عن تفسير حم والكتاب المبين في الباطن، فقال: «أما حم فهو محمد صلى الله عليه وآله وأما الكتاب المبين فهو علي عليه السلام».

وقد تقدم عن تفسير العياشي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ عن الكاظم عليه السلام إلىٰ أن قال: ﴿والكتاب المبين﴾ الامام المبين».

وعن القمى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أنا والله الامام المبين».

أقول: والكتاب والامام هما بمعنىٰ أي أمير المؤمنين عليه السلام ومما يدل أيضاً علىٰ إطلاق الكتاب على العلم كما تقدم في مقدمة التفسير ما في رواية الصدوق عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾**[1] قال عليه السلام: «كتابه في السماء علمه بها وكتابه في الأرض أعلامنا ليلة القدر».

ومنها: إطلاق الكتاب على القرآن كما دلّت عليه آيات كثيرة.

ومنها: إطلاقه على اللوح المحفوظ.

ومنها: إطلاقه علىٰ التوراة كقوله تعالىٰ: **﴿ولقد آتينا موسىٰ الكتاب﴾**[2] (أي التوراة).

ومنها: إطلاقه علىٰ صحيفة الأعمال كقوله تعالىٰ: **﴿فأما من أُوتي كتابه بيمينه﴾**[3] (أي صحيفة أعماله).

ومنها: إطلاقه على الروح الذي هو أعظم من جبرئيل وميكائيل الذي قد يعبر عنه بروح القدس وبروح من أمر الله وعند الفلاسفة بالعقل الأول كما أُشير في قوله تعالىٰ: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾**[4].

فيستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿ما الكتاب﴾** أنه أطلق على الروح الذي أُوحي إليه صلى الله عليه وآله وتقدم بعض الكلام فيه وسيجيء إن شاء الله أيضاً.

وحيث علمت أن الكتاب قد أُطلق على العالم كلّه، فحينئذ يمكن تأويل كونهم عليهم السلام حملة الكتاب بأنهم حملة العالم.

---

١ ـ الحديد: ٢٢.
٢ ـ البقرة: ٨٧.
٣ ـ الحاقة: ١٩.
٤ ـ الشورى: ٥٢.

بيانه: أن كلّ شيء من العالم علم بنفسه، والعالم بأجمعه هو كتاب الله تعالىٰ، وحينئذ معنىٰ أنهم عليهم السلام حملة كتابه تعالىٰ أنهم عليهم السلام حملته بالعلم والإبلاغ والتبليغ والقبض والبسط بالولاية التكوينية والشرعية كما تقدم الكلام فيه مفصلاً في جميع الشرعيات الحكمية والموضوعات الشرعية، بل بمقتضىٰ أن العلم هو المعلوم كما حقق في محلّه، وسيجيء أن جميع العوالم الوجودية من رشحات وجودهم وجميعها مستفاض من فيوضاتهم وأنها مخلوقة بهم ومنهم بفعل الله تعالىٰ كما تقدمت الإشارة إليه فيما مضىٰ.

والحاصل: أن الكتاب بأي معنىٰ فسّر ظاهراً وباطناً وتأويلاً فهم عليهم السلام حملته بالنحو الأجمع الأتم الأكمل بحيث لا يدانيهم أحد، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، هذا بلحاظ تفسير القوم للكتاب.

وهناك كلام عرشي وسرّ عرفاني لمعاني الكتاب والكلام الإلهي لا بأس بذكره زيادة للبصيرة علىٰ حقائق الأمر في قوله عليه السلام: «وحملة كتاب الله»، فنقول:

إعلم: أولاً أنه فرق بين كلامه تعالىٰ وكتابه كالفرق بين البسيط والمركب، فالكلام بسيط كما سيتضح والكتاب مركب حيث ما تحقق، وكذلك أن الكلام من عالم الأمر والكتاب من عالم الخلق، وأن الكلام إذا تشخص وخرج عن بساطته صار كتاباً، كما أن الأمر إذا تشخّص صار فعلاً، فالفعل زماني متجدد كما ستعلم والأمر بريء عن التغير والتجدد.

فعليه فالكلام الإلهي غير قابل للنسخ والتبديل بخلاف الكتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت (أي في الكتاب) وعنده أُم الكتاب، أي عنده الكلام الإلهي الذي هو أُم الكتاب، فبقرينة المقابلة يدل علىٰ عدم تغيير أُمّ الكتاب كما لا يخفىٰ.

واعلم: أن كلام الله هو نور من أنوار الله المعنوية النازل من عنده علىٰ قلب من يشاء من عباده المحبوبين، قال تعالىٰ: ﴿وإنك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[1].

---

١ ـ النمل: ٦.

وقال تعالىٰ: ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾.

واعلم أيضاً: أن المنزل علىٰ أغلب الأنبياء عليهم السلام إنما هو كتابه تعالىٰ كما يومئ إليه قوله تعالىٰ: ﴿أخذ الألواح﴾[١] في النازل علىٰ موسىٰ عليه السلام وقوله: ﴿صحف إبراهيم وموسىٰ﴾[٢] والصحف هي الكتب، وهذا بخلاف ما نزّل علىٰ محمد صلى الله عليه وآله فإنه كلامه قال تعالىٰ: ﴿نزل به الروح الأمين * علىٰ قلبك..﴾[٣].

فالنازل على القلب هو الكلام الإلهي علىٰ ما ستعرف معناه، ولا معنىٰ لنزول الكتاب على القلب؛ لأنه اسم للصور المدونة، وهو بهذا اللحاظ من النقوش بحسب مواردها فهي بحقيقتها لا تصلح للنزول علىٰ القلب، وهذا بخلاف الكلام الذي هو نور وبسيط محض كما سيجيء معناه فإنه ينزل علىٰ القلب، وعلىٰ الحقيقة المحمدية وعينه الثابت كما حقق في محله.

وكيف كان فصحيفة العالم الفعلي الخلقي هي كتاب الله وآياته أعيان الموجودات قال تعالىٰ: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار لآيات لقوم يتقون﴾[٤].

وأما كلام الله وكلماته التامات فهي الهويات العقلية النورية، التي وجودها عين الشعور والإشعار والعلم والاعلام، وكلامه أيضاً ككتابه مشتمل علىٰ الآيات، وإلىٰ الأول يشير قوله تعالىٰ: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ وإلىٰ الثاني قوله تعالىٰ: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ والله العالم.

وكلام الله وكلماته بما هو كلامه قائم به مشرق بأنواره علىٰ قلوب المحبين من النبي الأكرم وعترته الطاهرة، والذي يتلقاه النبي صلى الله عليه وآله بحقيقته هو حقائق كلام الله المتبدلة في حقيقته بنقوش المعارف الإلهية، فيصير كتاباً فهو بحقيقته كتابه تعالىٰ،

---

١ ـ الأعراف: ١٥٤.

٢ ـ الأعلىٰ: ١٩.

٣ ـ الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٤ ـ يونس: ٦.

الذي كتبه الله تعالىٰ في قلبه عَلَيْهِ‌السَلام بالإشراق وهو عَلَيْهِ‌السَلام يتلو علىٰ الأُمة هذه الآيات والعلامات الإلهية قال تعالىٰ: ﴿يتلو عليهم آياته﴾.

توضيح نوري: إعلم: أن بين الباري تعالىٰ وبين العالم وسائط نورية وأسباباً فعّالة هي كأنها فوق الخلق ودون الخالق؛ لأنها حجب إلهية وسرادق نورية وأضواء قيومية كأضواء هذه الشمس المحسوسة، كأنها برزخ بين الذات النيرة الربوبي وبين الأشياء المستنيرة بها، ولا يطلق عليها أنها خالق؛ لأنها أنوار الخالق اللازم له، ولا أنه مخلوق لأنها لا تنفك عن الذات.

ولعله إليه يشير ما في توحيد الصدوق[1]، بإسناده عن الحسين بن خالد قال: قلت للرضا علي بن موسىٰ عليه‌السلام: يابن رسول الله أخبرني عن القرآن أخالق أو مخلوق؟

فقال: «ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله عزوجل».

فترىٰ أنه عليه‌السلام فسّر كلام الله (أي القرآن) بما هو ليس بخالق ولا مخلوق فهو نور قيومي وحجب إلهي.

وكيف كان قد يعبر عن تلك الوسائط بكلمات الله وبالكلمات التامات، وتقدم أنه تعالىٰ تام وفوق التمام وهي كلمات تامات، وفي الدعاء: «أعوذ بكلماته التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شرّ كل شيطان مريد».

وإليها يشير قوله تعالىٰ: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مَدداً﴾[2].

أقول: وفي الحديث: «نحن تلك الكلمات»، وسيجيء توضيحه.

فالكلمات إشارة إلىٰ ذوات نورية بها يصل فيض الوجود إلى الأجسام والجسمانيات، وشأن تلك الكلمات الإفاضة بعد الافاضة، ولا شك في أن الوسائط

---

١ ـ توحيد الصدوق ص٢٢٣.

٢ ـ الكهف: ١٠٩.

هويّات وجودية بسيطة وذوات مجردة عن المواد الجسمية، مرتفعة عن عالم الأزمنة والأمكنة محيطة بهما وبغيرهما.

ومن المعلوم أن كلّ مجرد أمر روحاني ووجود وعين العلم والإدراك، كيف لا وهي مظاهر الأولية له تعالىٰ في إراءة إدراكه وعلمه فهذه الأنوار تشعر بهما إشعاراً.

وأما حقيقة علمه وإدراكه تعالىٰ المشار إليه بقوله: ﴿وهو يدرك الأبصار * وهو اللطيف الخبير﴾[1] فما لا يوصل إلىٰ حقيقته فهي لا محالة عقول قدسية وأرواح عالية، وهي متصلة بالحق الأول اتصال الشعاع بالشمس، وإنما وصفت بأنها تامّات؛ لأن جميع ما لها من الكمال هو بالفعل ليس فيها شوب قوة استعدادية ولا كمال ينتظر ولا أحوال مترقبة الحصول، وقد يعبر عنها بعالم الأمر كما يعبر عن الأجسام وما معها بعالم الخلق، وإليها يشير قوله تعالىٰ: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[2].

فجميع ما في عالم الأجسام إنما يصدر عن المبدإ الأعلىٰ بواسطته، والتعابير عنها وإن كانت مختلفة إلّا أنها يشار بها إلىٰ أمر واحد، فمن حيث إنه يقع بها إعلام الحقائق من الله تعالىٰ يقال لها: الكلمات، ومن حيث إنه يجب بها وجود الكائنات كلّ في وقته يقال لها: الروح، قال: ﴿قل الروح من أمر ربّي﴾[3] وهي في ذاتها واحدة، ﴿وما أمرنا إلّا واحدة﴾ وإنما يتعدد بتعدد الآثار أو باعتبار جهات فيضانها علىٰ الأشياء، أو باعتبار تعلقاتها بها فيتكثّر بتكثّرها، ولعلّه إلىٰ هذا التكثّرات يشير قوله تعالىٰ: ﴿وأوحىٰ في كلّ سماء أمرها﴾[4] كما لا يخفىٰ.

فهي كالوجود حقيقة بل نفسه تتكثّر بتكثّر الماهيات، لا بأن يكون للماهيّات تأثير في الوجود بل باعتبار اتحاد المهيّة بالوجود كما حقق في محله.

---

١ ـ الأنعام: ١٠٣.
٢ ـ الأعراف: ٥٤.
٣ ـ الإسراء: ٨٥.
٤ ـ فصّلت: ١٢.

وبالجملة كلمات الله تعالىٰ أمر موجود روحاني مؤيد للأنبياء عليهم السلام بالوحي قال تعالىٰ: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[١] وسيجيء ان هذا الروح خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل إشارة إلىٰ أنها هي تلك الكلمات التامّات النورية فهي ملهم للأولياء بالكرامة ومحيي لقلوب السالكين من المؤمنين بالإيمان والاطمينان والسكينة، وهي الروح لنفوس المكرمين وهي الروح العلوي الذي انه لم يقع تحت ذل (كن) لأنه نفس كلمة كن وهو بعينه نفس الأمر.

وهو قد علمت أنه غير مخلوق فإنه حقيقة كلام الله تعالىٰ، ولأنه أمر الله الذي به توجد الأشياء، ولا شبهة في أن قول الحق وكلامه فوق الأكوان وأعلىٰ منها إذ بها يقع الفعل والتأثير والتكوين، فكيف يقع تحت الكون وقد قال تعالىٰ: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾[٢] وهذه الكلمات كما علمت وستجيء أحاديثها هي بعينها حقيقة محمد وآله الطاهرين الأئمة وفاطمة الزهراء عليهم السلام وإلىٰ جميع ما ذكر تدل الأخبار الآتية في خلقة أنوارهم في الشرح.

وأحسن حديث يدل علىٰ هذا وأكمله حديثان كما في غاية المرام[٣] للسيد البحراني (رضوان الله تعالىٰ عليه) شرف الدين النجفي فيما نزل في أهل البيت من القرآن، عن الشيخ أبي محمد الفضل بن شاذان بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الإمام العالم موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالىٰ خلق نور محمد من نور اخترعه من نور عظمته وجلاله وهو نور لاهوتية الذي تبدأ آلاه أي (الاهي الظاهر) من الْهيته من انيّته الذي تبدأ منه وتجلىٰ لموسىٰ لرؤيته، ولا ثبت له حتىٰ خرّ صاعقاً مغشياً عليه، وكان ذلك النور نور محمد صلى الله عليه وآله.

فلما أراد أن يخلق محمداً قسّم ذلك النور شطرين فخلق من الشطر الأول

---

١ ـ الشورىٰ : ٥٢.

٢ ـ التوبة : ٤٠.

٣ ـ غاية المرام ص٩

محمداً ﷺ ومن الشطر الآخر علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يخلق من ذلك النور غيرهما، خلقهما الله بيده ونفخ فيهما بنفسه لنفسه وصوّرهما علىٰ صورتهما، وجعلهما أُمناء له وشهداء علىٰ خلقه، وخلفاء علىٰ خليفته، وعيناً عليهم ولساناً له إليهم، قد استودع فيهما علمه، وعلّمهما البيان، واستطلعهما علىٰ غيبه، وجعله نفسه والآخر روحه، ولا يقوم أحدهما بغير صاحبه، ظاهرهما بشرية وباطنهما لاهوتية، ظهروا للخلق علىٰ هياكل الناسوتية حتىٰ يطيقوا رؤيتهما وهو قوله تعالىٰ: **﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾**[1] فهما مقاما ربّ العالمين وحجابا خالق الخلائق أجمعين بهما فتح بدء الخلق وبهما يختم الملك والمقادير.

ثم اقتبس من نور محمد ﷺ فاطمة ابنته كما اقتبس نوره من نوره واقتبس من نور فاطمة وعلي والحسن والحسين كاقتباس المصابيح، هم خلقوا من الأنوار، وانتقلوا من ظهر إلىٰ ظهر ومن صلب إلىٰ صلب ومن رحم إلىٰ رحم في الطبقة العلياء من غير نجاسة بل نقلوا نقلاً بعد نقل لا أنّه ماء مهين ولا نطفة جسرة كسائر خلقه بل أنوار انتقلوا من أصلاب الطاهرين إلىٰ أرحام المطهرات؛ لأنهم صفوة الصفوة اصطفاهم لنفسه وجعلهم خزّان علمه وبلغا عنه إلىٰ خلقه، أقامهم مقام نفسه لا يرىٰ ولا يدرك ولا يعرف كيفية إنيته، فهؤلاء الناطقون المبلغون عنه المتصرفون في أمره ونهيه.

فبهم تظهر قوّته ومنهم ترىٰ آياته ومعجزاته، وبهم ومنهم عرّف عباده نفسه، وبهم يطاع أمره، ولولاهم ما عرف الله ولا ندري كيف نعبد الرحمن فالله يجري أمره كيف يشاء فيما يشاء **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾**.

وفيه: محمد بن خالد الطيالسي ومحمد بن عيسىٰ بن عبيد بإسنادهما عن جابر ابن يزيد الجعفي قال: قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: «كان الله ولا شيء غيره، ولا معلوم ولا مجهول فأول ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمداً وخلقنا

---

١ ـ الأنعام: ٩.

أهل البيت معه من نور عظمته، فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر، ففصل نورنا من نور ربّنا كشعاع الشمس من الشمس، نسبّح الله ونقدسه ونحمده ونعبده حقّ عبادته، ثم بدا لله تعالىٰ أن يخلق المكان فخلقه وكتب علىٰ المكان: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين به أيدته وبه نصرته.

ثم كيّف الله العرش فكتب علىٰ سرادقات العرش مثل ذلك، ثم السماوات فكتب علىٰ أطرافها مثل ذلك، ثم خلق الجنة والنار فكتب عليهما مثل ذلك، ثم خلق الله الملائكة وأسكنهم السماء ثم تراءى لهم تعالىٰ، وأخذ منهم الميثاق له بربوبيّته ولمحمد ﷺ بالنبوة ولعلي عليه السلام بالولاية فاضطربت فرائص الملائكة بسخط الله تعالىٰ على الملائكة، واحتجب عنهم فلاذوا بالعرش سبع سنين يستجيرون الله من سخطه، ويقرون بما أخذ عليهم ويسألونه الرضا فرضىٰ عنهم بعد ما أقروا بذلة فأسكنهم بذلك الإقرار السماء، واختصّهم لنفسه واختارهم لعبادته.

ثم أمر الله تعالىٰ أنوارنا أن تسبح فسبّحنا فسبّحت الملائكة بتسبيحنا، ولو لا تسبح أنوارنا ما دروا كيف يسبحون ولا كيف يقدسون.

ثم إن الله خلق الهواء فكتب عليه: لا إله إلّا الله محمداً رسول الله عليّاً أمير المؤمنين وصيّه به أيدته وبه نصرته.

ثم خلق الله الجنّ فأسكنهم الهواء، وأخذ الميثاق منهم له بالربوبية ولمحمد ﷺ بالنبوة ولعلي عليه السلام بالولاية فأقرّ منهم من أقرّ وجحد من جحد، فأوّل من جحد إبليس لعنه الله تعالىٰ، فختم له بالشقاوة وما صار إليه (ثم أمر الله تعالىٰ أنوارنا أن تسبح فسبحت فسبحوا بتسبيحنا، ولولا ذلك ما دروا كيف يسبحون الله).

ثم خلق الأرض فكتب علىٰ أطرافها: لا إله إلّا الله محمداً رسول الله علياً أمير المؤمنين وصيّه به أيدته ونصرته.

فبذلك يا جابر قامت السماوات بلا عمد وثبتت الأرض، ثم خلق الله آدم من

أديم الأرض، ونفخ فيه من روحه، ثم أخرج ذريّته من صلبه، فأخذ عليهم الميثاق بالربوبية ولمحمد ﷺ بالنبوة ولعلي عليه السلام بالولاية، أقرّ منهم من أقرّ وجحد منهم من جحد فكنّا أول من أقرّ بذلك، ثم قال لمحمد ﷺ: وعزتي وجلالي وعلو شأني لولاك ولولا علي وعترتكما الهادون المهتدون الراشدون ما خلقت الجنة ولا النار ولا المكان ولا الأرض ولا السماء ولا الملائكة ولا خلقاً يعبدني، يا محمد أنت حبيبي وخليلي وصفيّي وخيرتي من خلقي أحبّ الخلق إليّ من ابتدأت من خلقي.

ثم من بعدك الصديق علي بن أبي طالب عليه السلام وصيّك به أيدتك ونصرتك، وجعلته العروة الوثقىٰ ونور أوليائي ومنار الهدىٰ، ثم هؤلاء الهداة المهتدون من أجلكم ابتدأت خلق ما خلقت فأنتم خيار خلقي وأحبّائي وكلماتي وأسمائي الحسنىٰ، وأسبابي وآياتي الكبرىٰ وحجتي فيما بيني وبين خلقي، فخلقتكم من نور عظمتي واحتجب بكم عمّن سواكم من خلقي، وجعلتكم استقبل بكم وأسأل بكم، وكلّ شيء هالك إلّا وجهي وأنتم وجهي لا تبيدون ولا تهلكون، ولا يبيد ولا يهلك من تولّاكم ومن استقبلني بغيركم فقد ضلّ وهوىٰ، وأنتم خيار خلقي وحملة سرّي وخزّان علمي، وسادة أهل السموات وأهل الأرض.

ثم إن الله تعالىٰ هبط إلى الأرض في ظلل من الغمام والملائكة، وأهبط أنوارنا أهل البيت معه، فأوقفنا صفوفاً بين يديه نسبحه في أرضه كما نسبّحه في سمائه، ونقدّسه في أرضه كما قدّسناه في سمائه، ونعبده في أرضه كما نعبده في سمائه، فلما أراد الله إخراج ذرية آدم لأخذ الميثاق وسلك النور فيه، ثم أخرج ذرّيته من صلبه يلبّون فسبحنا فسبحوا بتسبيحنا، ولولا ذلك لما درواكيف يسبحون الله عزوجل، ثم تراءىٰ لهم لأخذ الميثاق منهم بالربوبية فكنّا أول من قال: بلىٰ، عند قوله: ﴿ألست بربكم﴾ ثم أخذ الميثاق منهم بالنبوة لمحمد ﷺ ولعلي عليه السلام بالولاية فأقرّ من أقرّ وجحد من جحد.

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: فنحن أول خلق ابتدأه الله، وأول خلق عبد الله وسبحه،

ونحن سبب خلق الخلق، وسبب تسبيحهم وعبادتهم من الملائكة والآدميين، فبنا عرف الله وبنا وحد الله وبنا عبد الله، وبنا أكرم الله من أكرم من جميع خلقه، وبنا أناب الله من أناب وعاقب من عاقب، ثم تلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون**﴾[١] ﴿**قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**﴾[٢] فرسول الله أول من عبد، وأول من أنكر أن يكون له ولد وشريك، ثم نحن بعد رسول الله، ثم أودعنا بعد ذلك صلب آدم، فما زال ذلك النور ينتقل من الأصلاب والأرحام من صلب إلىٰ صلب، ولا استقرّ في صلب إلّا تبيّن عن الذي انتقل منه انتقاله وشرف الذي استقر فيه.

حتىٰ صار في عبدالمطلب فوقع بأُمّ عبدالله فاطمة، فافترق النور جزأين:جزء في عبدالله وجزء في أبي طالب فذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وتقلبك في الساجدين**﴾[٣] يعني في أصلاب النبيين وأرحام نسائهم، فعلىٰ هذا أجرانا الله تعالىٰ في الأصلاب والأرحام حتىٰ آخرنا في أوان عصرنا وزماننا، فمن زعم أنا لسنا ممن جرىٰ في الأصلاب والأرحام وولدنا الآباء والأُمهات فقد كذب».

أقول: لا بأس بالإشارة إلىٰ شرح بعض جُمل الحديثين.

قوله عليه السلام: «وهو نور لاهوتية» الخ، الضمير راجع إلىٰ نور عظمته، وهذا النور هو نور اللاهوتية الذي اخترعه الله تعالىٰ من نور عظمته وهو مبدأ خلق نور محمد صلى الله عليه وآله والذي اشتق منه نوره، وهذا النور الذي هو من نور العظمة هو النور الذي أشرنا إليه من أنّه الوسائط النورية، وأسباب فعّالة هي فوق الخلق ودون الخالق، وهي الحجب الالهية وأضواء قيوميّة إلىٰ آخر ما مر بيانه.

قوله عليه السلام: «فهما مقاما ربّ العالمين»، إلىٰ قوله: «بهما فتح بدء الخلق وبهما يختم

١ـ الصافات: ١٦٥، ١٦٦.

٢ـ الزخرف: ٨١.

٣ـ الشعراء: ٢١٩.

الملك والمقادير»، فضمير التثنية راجع إلى النور الذي خُلق منه ﷺ وعليّ عليه السلام وإلىٰ ما نفخ فيه المشار إليه بقوله: ونفخ فيهما بنفسه لنفسه، وهذا المنفوخ لم يعلم حقيقته، نعم عبر عنه بالروح في قوله عليه السلام: «بعد ذلك وجعله نفسه والآخر روحه»، فقوله: «وجعله نفسه» يشار به إلىٰ ذلك النور الذي خُلق منه محمدٌ وعليٌّ.

وقوله: «والآخر روحه» يشار به إلىٰ ما نفخ فيه، ولعلّه إلىٰ هذا المنفوخ يشار بقوله عليه السلام: «وباطنهما لاهوتية».

توضيحه: أنه عليه السلام لما بين أنه تعالىٰ نفخ فيه بنفسه تعالىٰ لنفسه، وصورهما علىٰ صورته أي علىٰ ما يقتضيه النور، وما نفخ فيه بنفسه لنفسه، فصار لهما صورة ومعنىٰ، فالصورة هي الهيكل البشري ليرتبط به مع الخلق بالمناسبة الصورية، والمعنىٰ هي الحقيقة اللاهوتية المراد منه في قوله: ونفخ.

وبعبارة أُخرىٰ: المعنى المنفوخ بنفسه لنفسه المعبّر عنه بقوله: وباطنهما لاهوتية، وإنما عبر عنه باللاهوتية لارتباطه معنىٰ بالالهية.

وكيف كان فهذا الظاهر الناسوتي والباطن اللاهوتي الثابتان لمحمد وعلي (صلوات الله عليهما وآلهما) هما مقاما ربّ العالمين، وحجابا لخالق الخلائق أجمعين (أي الله تعالىٰ) وهما الوسائط النورية التي بها يصل فيض الوجود إلىٰ الموجودات، وهي هويات نورية عقلية، وهي عين الشعور والاشعار والعلم والاعلام من العلّام الحكيم، وهي الكلمات التامات المشار إليها في الدعاء وفي قوله: ﴿**لكلمات ربّي**﴾ وقد تقدم بيانه في الجملة.

وقوله عليه السلام: «وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمته»، يشار به إلىٰ ما ذكرناه، كما أن قوله عليه السلام: «ففصل نورنا من نور ربّنا كشعاع الشمس من الشمس»، يشار به إلىٰ ما تقدم من أنه له تعالىٰ وسائط نورية هي حجب إلهية وأضواء قيومية، وهي برزخ بين الذات الربوبي وبين الخلق وأنها لا خالق ولا مخلوق بالبيان المتقدم.

فقد بيّن هذان الحديثان: أن هذه الأنوار هي حقائق محمد وعلي وفاطمة والأئمة عليهم السلام.

وإلىٰ آثار هذه الحقائق النورية وكيفيتها أيضاً أُشير في قوله عليه السلام في حديث جابر في قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «فخلقتكم من نور عظمتي، واُحتجب بكم عمّن سواكم من خلقي، وجعلتكم استقبل بكم واسأل بكم، وكلّ شيء هالك إلّا وجهي وأنتم وجهي لا تبيدون ولا تهلكون» الخ.

فقوله: «أنتم وجهي لا تبيدون»، تشير إلىٰ أنهم عليهم السلام تلك الأنوار القيومية والسرادقات الفردية، التي هي باقية ببقائه لا بإبقائه وهذا معنىٰ أنهم عليهم السلام لا يبيدون ومعنىٰ أنه لا يبيد ولا يهلك من تولاهم.

أقول: ولعمري أن هذا نعمة ليست فوقها نعمة، وهي مما أنعم بها علىٰ شيعة أمير المؤمنين عليه السلام فينبغي للعاقل اللبيب البصير اليقظان أن يجتهد في أن يتولاهم عليهم السلام ويتصل بهم روحاً؛ ليصل إلىٰ هذه المرتبة العظيمة الرفيعة الجليلة، التي لا تبيد ولا تهلك، فلا شيء يعدل هذا الوصل بهم، ولا قيمة لما يرفع الله عنه، أو يصرف عنه من الدنيا في الوصول إلىٰ هذه الدرجة المنيعة، رزقنا الله تعالىٰ ذلك بمحمد وآله الطاهرين.

قوله عليه السلام: وأوصياء نبيّ الله.

أقول: الأوصياء جمع الوصي، فعن القاموس: أوصاه ووصّاه توصية عهد إليه، والاسم الوصاية والوصية وهو الموصي به أيضاً، والوصي الموصىٰ، والجمع الأوصياء.

وفي المجمع: والوصية فعيلة من وصي يصي، إذا وصل الشيء بغيره؛ لأن الموصىٰ يوصل تصرفه بعد الموت بما قبله.. إلىٰ أن قال: وأوصيت له بشيء، وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك والاسم الوصاية (بالكسر والفتح).

أقول: فمعنى الوصية لغة هو وصل الوصي إلىٰ نفس الموصىٰ (بالكسر) في التصرفات كلّ بحسبه، وحينئذ كون الأئمة عليهم السلام أوصياء نبي الله أنه صلى الله عليه وآله أوصلهم عليهم السلام إلىٰ نفسه صلى الله عليه وآله في ماله التصرف الثابت من الله تعالىٰ من الولاية الشرعية والتكوينية، وهذا هو المراد من قوله في القاموس: عهد إليه، في معنىٰ الوصية أي عهد إلىٰ وصيه بذلك الاتصال والاستنابة.

ومعلوم أنّ النبي صلى الله عليه وآله كساير الأنبياء إنما كان معظم وصيّته صلى الله عليه وآله إلىٰ من بعده، من الأئمة عليهم السلام هو أمر الولاية المعهودة والتمسك بها، والقيام بأعباء الإمامة وترويج ما يتعلق بالدين والولاية، وأما وصيّته صلى الله عليه وآله أُمته فترجع إلىٰ التمسك بولاية الأئمة عليهم السلام ومتابعتهم كما لا يخفىٰ.

ثم إن المستفاد من أحاديث خلقتهم في إبتداء الأمر خلقة نورانية، وأنهم نور واحد وأن هذه الولاية أمر ثابت تكويناً في نفس الأمر من أول الخلقة لهم عليهم السلام فالوصية كالنبوة منصب إلهي متعين له بتعيين الله تعالىٰ لهم، وهما تحكيان عن مقام الولاية الإلهية إلّا أن النبوة لها جهة خاصة وهي الإنباء عن الله تعالىٰ، وهي مختصة به صلى الله عليه وآله كما تقدم بيانه مفصلاً، ودلّت عليه الأحاديث الكثيرة كحديث الرمانتين ونحوه، والولاية مشتركة بينهم فباسم النبوة أخرج النبي عن إطلاق اسم الوصاية عليه لمكان اختصاص الأنباء به صلى الله عليه وآله.

وكيف كان فالنبوة والولاية باطنهما أمر واحد وهو الولاية الإلهية نعم يفترقان فيما قلناه، إلّا أنه لابد من إظهار الوصاية للأوصياء من النبي صلى الله عليه وآله المنبي عنه تعالىٰ كما دلّ عليه آية التبليغ، كما تقدم إذا لا طريق إلى العلم بكونها من الله تعالىٰ إلّا بإخبار النبي صلى الله عليه وآله لاختصاص الانباء به صلى الله عليه وآله ولذا اعتنى النبي صلى الله عليه وآله ببيان هذه الوصية أشد الاعتناء ببيان الآيات القرآنية وكلماته الشريفة في هذا الموضوع المهم، وذلك لأن تتميم الدين إنما هو بالولاية كما نطقت به الآيات والأحاديث كما لا يخفىٰ.

ثم إن ثبوت الوصاية لهم عليهم السلام أمر ثابت بالتواتر من طرق العامة والخاصة، بل

هو ثابت بالآيات القرآنية الدالة علىٰ ثبوت الولاية لأمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام كآية التبليغ وآية إنما وليكم الله، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم ونحوها، فإنها تعطي مقام الخلافة والوصاية لهم عليهم السلام كما لا يخفىٰ، وقد تقدم في الجملة بيانه، وسنذكر إن شاء الله بعض الأحاديث في الباب تيمناً وتبركاً بها، إلّا أن هنا أمراً لابدّ من ذكره وإن علم مما سبق وهو أنه يستفاد من آية المباهلة ومن آية التطهير ومن أحاديث خلقتهم بالنورانية وأنهم نور واحد.

ومن قول علي عليه السلام: «أولنا محمد صلى الله عليه وآله وأوسطنا محمد وكلنا محمد صلى الله عليه وآله».

وأيضاً قول علي عليه السلام: أنا من محمد صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء».

ومن أحاديث كثيرة في أبواب متفرقة من أبواب عناوين ولايتهم عليهم السلام أنهم نور وحقيقة واحدة يجري لأولهم ما يجري لآخرهم، وأنهم كنفس رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع الأُمور إلّا النبوة كما علمت.

ولعمري إن هذا مسلم واضح كالشمس في رابعة النهار، وحينئذ فلا معنىٰ لجعل البحث في أمر الوصية مردداً بين أن تكون الوصية بعنوان النيابة والوكالة، بحيث لا يكون للوصي إلّا اجراء العمل، وإلّا فأصل العمل بحقيقته وآثاره للموصىٰ، وليس الوصي إلّا عامل إجراء، أو بعنوان البدل، أي يكون الوصي بدلاً عن الموصىٰ، فالعمل مستند إليه حقيقة إلّا أنه بدل عن الوصي فلا يلزم أن يكون الوصي واجداً لصفات الموصىٰ، بل لو كان خالياً من أي صفة يمكن جعله وصياً بدلاً عن الموصىٰ، أو بعنوان المثلية أي يكون الوصي مثل الموصىٰ ذاتاً وصفة وعملاً.

وإنما يكون معنى الوصية أنّ هذا المقام أي مقام التصرف الثابت أولاً للموصىٰ انتقل بجميع شؤونه إلى الوصي، وكيف كان فلا معنىٰ لهذا الترديد، بل الأمر منحصر وثابت في القسم الثالث كما لا يخفىٰ، فحينئذ لا نحتاج إلىٰ بيان ما يمكن أن يستظهر منه الأمر الأول أو الأمر الثاني، وأنه ما المستفاد من ظاهر كلام القوم من القائلين

بالوصية لهم عليهم السلام؟ نعم ما ذكروه وجهاً لكلّ من القولين الأوليين من الأحاديث، له ظهور فيما استظهروه لمدعاهم إلّا أنه انصراف بدوي لم يذكر بهذا الداعي، بل ذكروه عليهم السلام لأُمور خفية دقيقة ترجع بعضها إلىٰ أسرار مقام الولاية في مرحلة الظاهر، وبنظر العموم بنحو يفهمه عامة الناس ولا ترجع إلىٰ أن واقع الوصاية هو بهذا اللحاظ الظاهر كما لا يخفىٰ.

فإن غاية ما يمكن أن يستدل لهم هو ما عن تفسير العياشي عن جابر الجعفي قال: قرأت عند أبي جعفر عليه السلام قول الله عزوجل: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ قال: «بلىٰ والله إن له من الأمر شيئاً وشيئاً وشيئاً وليس حيث ذهبت ولكني أُخبرك أن الله تبارك وتعالىٰ لما أمر نبيه صلى الله عليه وآله أن يظهر ولاية علي عليه السلام فكّر في عداوة قومه له ومعرفته بهم، وذلك للذي فضّله الله عليهم في جميع خصاله، كان أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وبمن أرسل، وكان أنصر الناس لله ورسوله وأقتلهم لعدوهما بغضاً لمن خالفهما، وفضل علمه الذي لم يساوه به أحد ومناقبه التي لا تحصىٰ شرفاً.

فلما فكر النبي صلى الله عليه وآله في عداوة قومه له في هذه الخصال، وحسدهم له عليها ضاق عن ذلك، فأخبر الله أنه ليس له من هذا الأمر شيء، إنما الأمر فيه إلى الله أن يصيرّ علياً وصيَّه ووليّ الأمر بعده، فهذا عنى الله، وكيف لا يكون له من الأمر شيء وقد فوّض الله إليه أن جعل ما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام قوله: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾؟ الحديث.

وما فيه أيضاً عن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قوله لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ فسره لي، قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «لشيء قاله الله ولشيء أراده الله، يا جابر إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان حريصاً علىٰ أن يكون علي عليه السلام من بعده علىٰ الناس، وكان عند الله خلاف ما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله قال: قلت: فما معنىٰ ذلك؟

قال: نعم عنىٰ بذلك قول الله تعالىٰ لرسوله ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ يا محمد في علي عليه السلام وفي غيره، ألم أتل عليك يا محمد فيما أنزلت من كتابي إليك: ﴿**ألم * أحسب**

الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ إلىٰ قوله: وليعلمن؟ قال: ففوض رسول الله الأمر إليه» الخ.

وجه الاستدلال أنه لما فكر ﷺ في وصاية أمير المؤمنين ؑ قال الله تعالىٰ له ﷺ: **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾**[1].

فإنه بعد نفي كون الأمر له ﷺ يدل علىٰ أن أمر الوصاية ليس بيدك، لأنه لا يكون مناسبة ذاتية بينك وبين الوصي، حتىٰ تقتضي لزوم وصاية علي ؑ خاصة مثلاً، بل لما كانت حقيقة الوصاية كالوكالة، فهي صالحة لكلّ أحد قام بها، فإن الوكيل يمكن أن يكون أجنبياً، ولا يلزم كونه من خواص الموصىٰ، هذا تقريب الاستدلال للقول الأول.

أو يقال: إنه يستفاد من نفي كون الأمر بيده ﷺ في الوصاية: أن الوصاية عبارة عن بدلية شخص مقام شخص آخر في القيام ببعض الأُمور أو كلها مثلاً.

نعم ليس كالوكيل قائماً مقامه في الفعل بل هو بدل عنه بنفسه، وأما أفعاله فمستندة إليه نفسه، فلو كانت مناسبة ذاتية بين الوصي وبين الموصىٰ لما صح النفي المذكور كما لا يخفىٰ فتأمل، ولكن فيه ما لا يخفىٰ، فإنه مضافاً إلىٰ ما علمت من إستفادة المناسبة الذاتية بين الوصي والموصىٰ من الآيات والأحاديث المتقدمة، أن هذا الاحتمال توهم محض.

بيانه: أن الحديثين في شرح الآية المباركة أعني قوله تعالىٰ: **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾** حاصلهما يرجع إلىٰ أن الواجب عليه ﷺ هو إبلاغ وصاية علي ؑ؛ ليكون حجة علىٰ الخلق وسبباً لامتحانهم، وأما أنه لا يكون بعده ﷺ وصي إلّا أمير المؤمنين ؑ في الظاهر وفي مقام التصرف فلا، إذ لابد من امتحان الخلق، فإن الحكمة الإلهية اقتضت تخلية السبيل لأهل الباطل؛ لكي يعلم من يتبع الحق ممن ينقلب علىٰ عقبيه، وهذا لا ينافي كونه ؑ وصيّاً له ﷺ واقعاً كما هو الحق المحقق.

---

١ ـ آل عمران: ١٢٨.

فمفاد الآية المباركة أنه ليس لك الاختيار في نفي قيام الغير مقام أمير المؤمنين عليه السلام بل فوض الأمر إلينا وفوض صلى الله عليه وآله الأمر إليه تعالىٰ، وإنما أراد صلى الله عليه وآله نفي ذلك وانحصار الخلافة الظاهرية في علي عليه السلام حرصاً له صلى الله عليه وآله علىٰ أن يكون علي عليه السلام هو الخليفة في الظاهر أيضاً بعده، وذلك حبّاً له ولهداية الخلق.

ولعمري إن هذا من شأنه صلى الله عليه وآله حيث إنه صلى الله عليه وآله بعث رحمة للعالمين، وحيث إنه صلى الله عليه وآله مظهر للرحمة اقتضت ذاته المقدسة صلى الله عليه وآله إظهار ذلك، وحيث إن الحكمة الالهية اقتضت امتحان الخلق بتخلية السبيل لأهل الباطل فقال تعالىٰ: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ وليس هذا منه صلى الله عليه وآله اعتراض علىٰ حكمته البالغة، بل ظهور للرحمة وتسليم للحكمة الإلهية، بل لو لم يظهره صلى الله عليه وآله لكان شيء ما، وهو أنه كيف سكت صلى الله عليه وآله عن هداية الخلق بانحصار الخلافة فيه عليه السلام ظاهراً أيضاً بأن يجعلها فيه عليه السلام ظاهراً فقط دون غيره؟

وكيف كان فأين هذا من الإشارة إلىٰ حقيقة الوصاية وأنها كالوكالة أو البدلية أم لا؟ فتأمل تعرف إن شاء الله.

ثم إن المستفاد من الآيات والأحاديث أن أمر الوصية أمر ثابت من لدن آدم عليه السلام إلىٰ نبينا محمد صلى الله عليه وآله فجميع الأنبياء كانت لهم الوصية، ولهم أوصياء من بعدهم، فسنة الله جارية فيهم أن يجعل لهم أوصياء من لدن آدم إلى الخاتم (صلوات الله عليهم أجمعين).

ففي إكمال الدين للصدوق رحمه الله(١) اتصال الوصية من لدن آدم عليه السلام وأن الأرض لا تخلو من حجة لله عزوجل علىٰ خلقه إلىٰ يوم القيمة، بإسناده عن الحسن بن محبوب السراد، عن مقاتل بن سليمان بن ـ دوال دوز ـ عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا سيد النبيين ووصي سيد الوصيين وأوصياؤه سادة الأوصياء، إن آدم عليه السلام سأل الله عزوجل أن يجعل له وصياً صالحاً فأوحى الله عزوجل إليه: إني

(١) كمال الدين للصدوق باب اتصال الوصية رقم ٢٢.

أكرمت الأنبياء بالنبوة، ثم اخترت خلقي، فجعلت خيارهم الأوصياء، فقال آدم عليه السلام: يارب فاجعل وصيي خير الأوصياء، فأوحى الله عزوجل إليه: يا آدم أوص إلىٰ شيث وهو هبة الله بن آدم، فأوصىٰ آدم إلىٰ شيث وأوصىٰ شيث، إلىٰ ابنه شبان وهو ابن نزلة الحوراء، التي أنزلها الله عزوجل علىٰ آدم من الجنة فزوجها شيثاً.

وأوصىٰ شبان إلىٰ ابنه مجلث، وأوصىٰ مجلث إلىٰ محوق، وأوصىٰ محوق، إلىٰ غثميشا، وأوصىٰ غثميشا إلىٰ أخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام: وأوصىٰ إدريس إلىٰ ناخور، ودفعها ناخور إلىٰ نوح عليه السلام، وأوصىٰ نوح إلىٰ سام، وأوصىٰ سام إلىٰ عثامر، وأوصىٰ عثامر إلىٰ برعيثاشا، وأوصىٰ برعيثاشا إلىٰ يافث، وأوصىٰ يافث إلىٰ برّة، وأوصىٰ برّة إلىٰ جفيسة، وأوصىٰ جفيسة إلىٰ عمران، ودفعها عمران إلىٰ إبراهيم الخليل عليه السلام وأوصىٰ إبراهيم إلىٰ ابنه إسمعيل، وأوصىٰ إسمعيل إلىٰ إسحق، وأوصىٰ إسحق إلىٰ يعقوب، وأوصىٰ يعقوب إلىٰ يوسف، وأوصىٰ يوسف إلىٰ بثرياء، وأوصىٰ بثريا إلىٰ شعيب، وأوصىٰ شعيب إلىٰ موسىٰ بن عمران، وأوصىٰ موسىٰ إلىٰ يوشع بن نون، وأوصىٰ يوشع إلىٰ داود، وأوصىٰ داود إلى سليمان، وأوصىٰ سليمان إلىٰ آصف بن برخيا، وأوصىٰ آصف بن برخيا إلىٰ زكريّا، ودفعها زكريا إلىٰ عيسىٰ بن مريم عليه السلام وأوصىٰ عيسىٰ إلىٰ شمعون بن حمون الصفا، وأوصىٰ شمعون إلىٰ يحيىٰ بن زكريا، وأوصىٰ يحيىٰ بن زكريا إلىٰ منذر، وأوصىٰ منذر إلىٰ سليمة، وأوصىٰ سليمة إلىٰ بردة، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ودفعها إليّ بردة، وأنا أدفعها إليك يا علي، وأنت تدفعها إلىٰ وصيك، ويدفعها وصيك إلىٰ أوصيائك من ولدك، واحداً بعد واحد حتىٰ تدفع إلىٰ خير أهل الأرض بعدك، ولتكفرنّ بك الأُمة، ولتختلفنّ عليك اختلافاً شديداً، الثابت عليك كالمقيم معي، والشاذّ عنك في النار، والنار مثوى للكافرين»، إنتهىٰ.

أقول: هذا قد أشكل فيه بمقاتل بن سليمان فوثّقه بعضهم وضعّفه الآخرون بل

طعنوا عليه بكلّ الطعن.

ثم إن الوصية تطلق علىٰ **معنيين**:

أحدهما: علىٰ الوصي الذي ينوب عن المنوب عنه فيما هو شأنه وعمله ومنصبه وهذا هو محل الكلام.

وثانيهما: على الوصية بالنسبة إلىٰ مواريث الأنبياء من الكتب، وساير ما به ثبوت نبوتهم، فيوصون بنقل هذه إلىٰ من بعدهم وإن كان الموصىٰ إليه نبياً أو وصياً.

والظاهر أن هذا الحديث علىٰ تقدير صحته ـ كما هو الظاهر فإن الأكابر تلقوه بالقبول ـ إنما هو وارد مورد الثاني، أعني الوصية بالنسبة إلىٰ المواريث النبوية لا الوصية التي نحن بصددها.

نعم يحتمل كلا المعنيين كما أنه يستفاد منه أن أمر الوصية في الجملة كانت مسلمة من لدن آدم إلىٰ الخاتم كما لا يخفىٰ.

هذا مضافاً إلىٰ اضطراب الموجود في متنه، فإن قوله: وأوصىٰ يوشع إلىٰ داود، لا يستقيم فإن بين يوشع بن نون وداود عليه السلام علىٰ ما قيل: أزيد من ثلاثمائة سنة، فإن خروج بني إسرائيل من مصر في عام ١٥٠٠ قبل الميلاد وكان داود عليه السلام في ١٠٠٠ قبل الميلاد، فكيف يوصي يوشع إلىٰ داود؟ وأيضاً قوله: وأوصىٰ شمعون إلىٰ يحيىٰ بن زكريا خلاف الواقع فإن يحيىٰ قيل: كان في أيام عيسىٰ عليه السلام فكيف يوصي شمعون الذي هو بعد عيسىٰ عليه السلام بسنين إلىٰ يحيىٰ؟

ولعل هذا الاختلاف من مقاتل بن سليمان العامي البتري.

وكيف كان فنحن في غنىٰ عن هذا الحديث لاثبات المدعىٰ، فهناك أحاديث كثيرة دلّت على المطلوب وهي علىٰ قسمين:

قسم دلّ علىٰ أن الأرض لا تخلو من الحجة طرفة عين، ولازمه وجود إمام يكون حجة الله على الخلق حتىٰ في زماننا، وحيث علمنا قطعاً أن النبوة منقطعة

وختمت بنبينا ﷺ فلا محالة ثبتت الإمامة لإمام الزمان عليه السلام.

وقسم دلّ علىٰ وصاية أمير المؤمنين إلى القائم عليه السلام وهي كثيرة أيضاً، ونحن نذكر من كلّ منهما شطراً تيمناً وتبركاً.

أما القسم الأول: في إكمال الدين للصدوق رحمه الله بإسناده عن أبي الحسن الأول (يعني موسىٰ بن جعفر عليه السلام) قال: «ما ترك الله عزوجل الأرض بغير إمام قط منذ آدم عليه السلام يهتدىٰ به إلى الله عزوجل، وهو الحجة على العباد، من تركه ضل ومن لزمه نجا حقاً علىٰ الله عزوجل».

وفيه بإسناده عن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق».

وفيه بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبيه قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام وهو يقول: «لن تخلو الأرض إلّا وفيها رجل منّا يعرف الحق، فإذا زاد الناس فيه قال: قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال: قد نقصوا، وإذا جاؤوا به صدقهم، ولو لم يكن ذلك كذلك لم يعرف الحق من الباطل».

قال عبدالحميد بن عوّاض الطائي: بالله الذي لا إله إلّا هو لسمعت هذا الحديث من أبي جعفر عليه السلام بالله الذي لا إله إلّا هو لسمعته منه.

وفيه بإسناده عن حمزة بن حمران قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «لو لم يبق في الأرض إلّا اثنان لكان أحدهما الحجة أو كان الثاني الحجة».

وأما القسم الثاني: في البحار نقلاً عن إكمال الدين وعيون أخبار الرضا، بإسنادهما عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أبي لجابر بن عبدالله الأنصاري: إن لي إليك حاجة فمتىٰ يخف عليك أن أخلو بك فأسألك عنها؟ فقال له جابر: في أيّ الأوقات شئت، فخلىٰ به أبو جعفر عليه السلام قال له: «يا جابر أخبرني عن اللوح الذي رأيته في يدي أُمّي فاطمة بنت رسول الله ﷺ وما أخبرتك به أنه في ذلك اللوح مكتوباً؟

فقال جابر: أشهد بالله أني دخلت علىٰ أُمّك فاطمة في حياة رسول الله ﷺ لأُهنّئها بولادة الحسين عليه السلام فرأيت في يدها لوحاً أخضر ظننت أنه زمرد، ورأيت فيه كتاباً أبيض شبيه بنور الشمس، فقلت لها: بأبي أنت وأُمّي يا بنت رسول الله، ما هذا اللوح؟

فقالت: هذا اللوح أهداه الله عزوجل إلىٰ رسوله ﷺ فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني وأسماء الأوصياء من ولدي، فأعطانيه أبي ليسرّني بذلك (ليبشّرني بذلك خ ل).

قال جابر: فأعطتنيه أُمك فاطمة عليها السلام فقرأته وانتسخته فقال له أبي عليه السلام: فهل لك يا جابر أن تعرضه عليّ؟

فقال: نعم، فمشىٰ معه أبي عليه السلام حتىٰ انتهىٰ إلىٰ منزل جابر، فأخرج إلىٰ أبي صحيفة من رقّ، قال جابر: فأشهد بالله أني هكذا رأيته في اللوح مكتوباً:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمد نوره وسفيره وحجابه ودليله، نزل به الروح الأمين من عند ربّ العالمين، عظّم يا محمد أسمائي، واشكر نعمائي، ولا تجحد آلائي، إني أنا الله لا إله إلّا أنا قاصم الجبارين ومذلّ الظالمين وديان الدين (وديان يوم الدين)، إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا فمن رجا غير فضلي، أو خاف غير عدلي عذّبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فإيّاي فأعبد وعليّ فتوكل، إني لم أبعث نبيّاً فأكملت أيّامه وانقضت مدته إلّا جعلت له وصياً وإني فضلتك علىٰ الأنبياء، وفضّلت وصيّك على الأوصياء وأكرمتك بشبليك بعده وبسبطيك الحسن والحسين، فجعلت حسناً معدن علمي بعد انقضاء مدة أبيه، وجعلت حسيناً خازن وحيي، وأكرمه بالشهادة وختمت له بالسعادة، فهو أفضل من استشهد وأرفع الشهداء درجة عندي، وجعلت كلمتي التامة معه، والحجة البالغة عنده، بعترته أُثيب وأُعاقب، أولهم علي سيد العابدين، وزين أولياء الماضين، وابنه شبيه جدّه المحمود، محمد الباقر لعلمي والمعدن لحكمي، سيهلك

المرتابون في جعفر الراد عليه كالرّاد عليّ، حق القول مني لأكرمن جعفراً، ولاسرّنه في أشياعه وأنصاره وأوليائه-واتيحت بعده موسىٰ وانـتحبت بـعده فـتنة عـمياء حندس، لأن خيط فرضي لا ينقطع وحجتي لا تخفىٰ، وإن أوليائي لا يشـقون، ألا ومن جحد واحداً منهم فقد جحد نعمتي، ومن غيّر آية من كتابي فقد افترىٰ عليّ.

وويل للمفترين الجاحدين عند انقضاء مدّة عبدي موسىٰ وحبيبي وخيرتي، إن المكذب بالثامن مكذب بكلّ أوليائي، وعلي ولي وناصري، ومن أضـع عـليه أعباء النبوة وأمنحه بالاضطلاع بها، يقتله عفريت مستكبر، يدفن بـالمدينة التي بناها العبد الصالح ذو القرنين إلىٰ جنب شرّ خلقي، حق القول منّي لأقرّن عينه بمحمد ابنه وخليفته من بعده، فهو وارث علمي ومعدن حكمي، وموضع سري وحجتي علىٰ خلقي، جعلت الجنة مثواه (لا يؤمن عبد به إلاّ جعلت الجنة مثواه خ ل) وشفعته في سبعين ألفاً من أهل بيته كلّهم قد استوجبوا النار، وأختم بالسعادة لابنه علي ولي وناصري، والشاهد في خلقي، وأميني علىٰ وحيي، أخرج منه الداعي إلىٰ سبيلي والخازن لعلمي الحسن.

ثم أكمل ذلك بابنه (محمد خ ل) رحمة للعالمين، عليه كمال موسىٰ وبهاء عيسىٰ وصبر أيوب، سيذلّ أوليائي في زمانه ويتهادون رؤسهم كما تتهادىٰ رؤوس الترك والديلم، فيقتلون ويحرقون، ويكونون خائفين مرعوبين وجـلين، تـصبغ الأرض بدمائهم، ويفشو الويل والرّنين في نسائهم، أُولئك أوليائي حقاً، بهم أدفع كلّ فتنه عمياء حندس، وبهم أكشف الزّلازل، وأرفع الآصـار والأغـلال، أُولئك عـليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأُولئك هم المهتدون».

قال عبدالرحمن بن سالم: قال أبو بصير: لو لم تسمع في دهرك إلّا هذا الحديث لكفاك فصنه إلّا عن أهله.

وفي البحار نقلاً عن إكمال الدين وعيون أخبار الرضا عليه السلام وأمـالي الصـدوق بإسناده عن الثمالي، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده عليه السلام قال: قال رسـول

الله ﷺ: «الأئمة من بعدي اثنا عشر، أولهم أنت يا علي وآخرهم القائم، الذي يفتح الله (تعالىٰ ذكره) علىٰ يديه مشارق الأرض ومغاربها».

أقول: ومثل هذا الحديث كثير جداً ذكره المجلسي في البحار[1] فراجع.

فظهر من هذه الأحاديث: أن وصايتهم من الله تعالىٰ وبيّنها الرسول ﷺ في مواطن كثيرة لا تعدّ ولا تحصىٰ، كما ثبتت وصايتهم بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة والنصوص المتواترة حتىٰ من العامة، وقد روى العامة في صحاحهم في هذا المعنىٰ ما يزيد علىٰ ستّين حديثاً، وفي بعضها التنصيص علىٰ أسمائهم إلى القائم عليه السلام.

فرووا في الجمع بين الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ: «أنه يكون من بعدي اثنا عشر خليفة» ثم تكلم بكلمة خفيفة ثم قال: «كلهم من قريش». ومثله كثير.

هذا مضافاً أيضاً إلىٰ ما روي عنه ﷺ بالطريقين أنه قال ﷺ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

فتدل هذه الطائفة من الأحاديث علىٰ بقاء الأئمة إلىٰ انقضاء التكليف، كما علمت من قوله عليه السلام: «الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق».

فثبوت وصايتهم للنبي ﷺ أظهر من الأمس وأبين من الشمس بالآيات والمعجزات والنصوص الكثيرة من الطرفين.

ثم إن كتب العلماء من العامة والخاصة مشحونة ببيان آية التبليغ الدالة علىٰ وصاية أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته، وكذا ساير الآيات كما تقدمت الاشارة إليه، وأيضاً حديث الثقلين معروف من الطرفين بأسانيد عديدة، واحتجاجات الأمير والأئمة عليهم السلام علىٰ وصايتهم كثيرة مذكورة في الكتب الطوال، هذا كله مع أن العقل يقتضي أن كبيراً إذا جاء بأمر كبير خصوصاً بمثل قرآن له بطن بل وبطون لهداية الخلق، وجاء بقوانين وشريعة وعلوم غزيرة، كيف يمكن أن يترك أُمته بعده بدون

---

١ ـ البحار ج ٣٦.

نصب من يكون بمنزلته في التبليغ والبيان ويرضى لأمته الانحراف من بعده؟!

هذا لا يحكم به العقل، بل يحكم بخلافه كيف لا؟! مع أنا نرىٰ أنه لو أسس رجل تأسيساً مهمّاً أو اخترع اختراعاً ذا أهمية وآثار كيف يمكن إهمال تلك المؤسسة أو هذا الاختراع إذا سافر مثلاً بأن لا ينصب لها من يكون عارفاً بأُمورها هذا في سفر الدنيا فكيف إذا أراد سفر الآخرة، فهل يحكم العقل بجواز إهمالها بدون نصب عارف مدبر بأُمورها؟ كلا. ولعمري إن هذا بديهي بحكم العقل كما لا يخفىٰ.

فحينئذ فما ظنك بالرسالة الإلهية العظمىٰ كيف يجوز أن يهمل الأُمة بدون نصب وصي أو خليفة؟ وفي كلماته عليه السلام إشارات إلىٰ هذا الحكم العقلي. وفي إذن الدخول للزيارة إشارة إلىٰ أن رياستهم عليهم السلام فطرية لكلّ مكلف وهي إشارة إلىٰ ما قلنا من حكم العقل بذلك، والحمد لله أولاً وآخراً.

قوله عليه السلام: وذرّية رسول الله ورحمة الله وبركاته.

في المجمع: والذرية مثلثة، اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأُنثىٰ كالأولاد وأولاد الأولاد وهلم جرّاً، قيل: وأصلها الهمز؛ لأنها فعولة من «يَذْرَأ اللهُ الخلق» فأبدلت الهمزة ياءً كنبيّ، فلم يستعملوها إلّا غير مهموزة، وقيل: أصلها ذُرُّوْرَة علىٰ وزن فعولة من الذّرّ بمعنىٰ التفريق؛ لأن الله ذرَّهم في الأرض، فلما كثر التضعيف بدلوا الراء الأخيرة ياءً فصارت ذُرُّوْيَة فأُدغمت الواو في الياء فصارت ذُرِّيَّة، وتجمع علىٰ ذُرِّيّات وذَرَارِيّ (بالتشديد).

وفي إكمال الدين للصدوق: وأما الذرية فقد قال أبو عبيدة: تأويل الذريات عندنا إذا كانت بالألف (أقول: بالألف والتاء) الأعقاب والنسل، وأما الذي في القرآن: ﴿**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين**﴾[1] قرأها علي عليه السلام وحده (أقول: أي بصيغة المفرد) بهذا المعنىٰ، والآية التي في يس: ﴿**وآية لهم**

---

١ ـ الفرقان : ٧٤.

أنا حملنا ذريتهم﴾[١] وقوله عزوجل: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾[٢].

فيه لغتان، ذرِّيّة وذُرّيّة مثل عِليّة وعُليّة، وكانت قراءته بالضم وقرأها أبو عمرو وهي قراءة أهل المدينة إلّا ما ورد عن زيد بن ثابت أنه قرأ: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ (بالكسر) وقال مجاهد في قوله: ﴿إلّا ذرية من قومه﴾: إنهم أولاد الذين أُرسل إليهم موسىٰ ومات آباؤهم.

فقال الفرّاء: إنما سموا ذرية لأن آباءهم من القبط وأُمهاتهم من بني إسرائيل قال: وذلك كما قيل لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن: الأبناء، لأن أُمهاتهم من غير جنس آبائهم.

قال أبو عبيدة: (يريد الفراء) أنهم يسمون ذرية وهم رجال مذكورون لهذا المعنىٰ، وذرية الرجل كأنهم النشء الذين خرجوا منه وهو من ذروت أو ذريت وليس بمهجور.

وقال أبو عبيدة: وأصله مهموز ولكن العرب تركت الهمزة فيه، وهو في مذهبه من ذرأه الله الخلق كما قال الله جلّ تناؤه: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والانس﴾[٣] وذرأهم أي أنشأهم وخلقهم، وقوله عزوجل: ﴿يذرؤكم﴾[٤] أي يخلقكم، فكان ذرّيّة الرجل هم خلق الله عزوجل منه ومن نسله ومن أنشأ الله عزوجل من صلبه، إنتهىٰ ما عن الاكمال.

أقول: ويدل علىٰ أن أولاد البنت من ذرية الرجل قوله تعالىٰ في عيسىٰ بن مريم إنه من ذرّيّة نوح مع أنه ابن البنت، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيىٰ

---

١ ـ يس: ٤١.
٢ ـ الأنعام: ١٣٣.
٣ ـ الأعراف: ١٧٩.
٤ ـ الشورى: ١١.

وعيسىٰ﴾[١]، يجعل عيسىٰ بن مريم من ذريّة نوح من طرف الأُم، مضافاً إلىٰ أنه قال ﷺ في حقّ الحسن والحسين: إنّهما ابناي، فأطلق ﷺ الابن عليهما وهو ظاهر في الحقيقة بدون المجاز.

ولنعم ما قيل من أن اختصاص اصالة الولد بابن الابن دون ابن البنت منشأه استقباح انتساب البنت، فإن العرب كانت تأنف عن انتساب البنت إليهم كما حكىٰ الله تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأُنثىٰ ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارىٰ من القوم من سوء ما بشّر به﴾ الآية، وقول شاعرهم:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا   بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ناشئ عن تلك الحالة الجاهلية والإحن النفسانية الردية.

وأما بحسب اللغة: فالابن عام يطلق علىٰ ولد الابن وعلىٰ ولد البنت، وكفاك به قوله ﷺ في إطلاقه على الحسن والحسين عليهما السلام.

هذا بحسب الإطلاق اللغوي، وإما بحسب المعنىٰ والواقع فلا ريب في أن علياً نفس الرسول ﷺ بنص آية المباهلة، وإن الحسن والحسين ابناه بتصريحه ﷺ حيث قال ﷺ: «ذرية كلّ نبي من صلبه وذريتي من صلب علي»، أي أن صلبه صلبي، فإنه ﷺ إنما قال ذلك لاتحادهما عليهما السلام كما لا يخفىٰ.

وأما الأحاديث الواردة في هذا المعنى الدالّة علىٰ أن الأئمة عليهم السلام أولاد رسول الله ﷺ فكثيرة نذكر بعضها تيمناً وتبركاً فمنها:

ما رواه في الكافي: بإسناده إلىٰ أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود ما يقولون في الحسن والحسين؟

قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله ﷺ.

قال: فبأيّ شيء احتججتم عليهم؟

---

١ ـ النحل: ٥٨، ٥٩.

قلت: بقول الله عزوجل في عيسىٰ بن مريم: ﴿ومن ذريته داود وسليمان...﴾ إلىٰ قوله: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ فجعل عيسىٰ من ذرية إبراهيم.

قال: فأيّ شيء قالوا لكم؟

قلت: قالوا: قد يكون ولد البنت من الولد ولا يكون من الصلب.

قال: فبأيّ شيء احتججتم عليهم؟

قال: قلت: احتججنا عليهم بقول الله تعالىٰ: ﴿قل تعالوا ندع أبناءَنا وأبناءَكم﴾

قال: فأيّ شيء قالوا لكم؟

قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل واحد فيقول: أبناهما وإنما هما ابنا واحد.

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: والله يا أبا الجارود لاعطينكها من كتاب الله مسمّىٰ بصلب رسول الله ولا يردها إلّا كافر.

قال: قلت: وأين جعلت فداك؟

قال: حيث قال الله تعالىٰ: ﴿حرمت عليكم أُمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ فسلهم يا أبا الجارود هل لرسول الله نكاح حليلتيهما؟ فإن قالوا: نعم، فكذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما والله ابناه لصلبه صلى الله عليه وآله».

وفي الصحيح عن محمد بن مسلم عن أحدهما قال: «لو لم يحرم على الناس أزواج النبي صلى الله عليه وآله لقول الله عزوجل: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ حرم على الحسن والحسين لقوله تبارك وتعالىٰ ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ ولا يصلح للرجل أن ينكح امرأة جده».

وفي المحكي عن الاحتجاج في حديث عن الكاظم عليه السلام وفيه: أن الرشيد قال له: لو جوّزتم للعامة والخاصة أن ينسبوكم إلىٰ رسول الله وأنتم من علي وإنما ينسب إلىٰ أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء والنبي جدّكم من قبل أُمّكم؟ فقال له: «لو أن النبي صلى الله عليه وآله

نشأ فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيب؟ فقال: سبحان الله ولا أُجيبه، بل أفتخر على العرب وقريش بذلك، فقال: لكنه لا يخطب إليّ ولا أُزوّجه، فقال: أحسنت يا موسىٰ»، الحديث.

وعن عابد الأحمسي قال: دخلت علىٰ أبي عبدالله عليه السلام وأنا أُريد أن أسأله عن صلوة الليل فقلت: السلام عليك يا بن رسول الله، فقال: «وعليك السلام أي والله إنا لولده، وما نحن بدون قرابة»، الحديث.

وفي المحكي عن تفسير العياشي عن بشير الدهان عن أبي عبدالله عليه السلام: «لقد نسب الله عيسىٰ بن مريم في القرآن إلىٰ إبراهيم عليه السلام من قبل النساء ثم تلا هذه الآية: ﴿**ومن ذريته داود وسليمان**﴾ إلىٰ قوله: ﴿**وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ**﴾».

وعن عيون الأخبار في باب جمل من أخبار موسىٰ بن جعفر عليه السلام مع هارون الرشيد (لعنه الله) ومع موسىٰ بن المهدي حديث طويل بينه وبين هارون وفيه: ثم قال: كيف قلتم: إنا ذرية النبي والنبي لم يعقب وإنما العقب للذكر لا للأنثىٰ، وأنتم ولد لابنته ولا يكون لها عقب؟

فقلت: «أسأك بحق القرابة والقربة وبما فيه إلّا ما أعفيتني عن هذه المسألة.

فقال: لا، أو تخبرني بحجتكم يا ولد علي وأنت يا موسىٰ يعسوبهم وإمام زمانهم كذا أنهي إليّ، ولست أعفيك في كلّ ما أسألك عنه حتىٰ تأتيني فيه بحجة من كتاب الله تعالىٰ، وأنتم تدعون معشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف ولا واو إلّا تأويله عندكم واحتججتم بقوله عزوجل: ﴿**ما فرطنا في الكتاب**﴾ واستغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم.

فقلت: تأذن في الجواب؟

قال: هات.

وقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المحسنين ***

وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس﴾[1] مَن أبو عيسىٰ يا أمير المؤمنين؟

قال: ليس لعيسىٰ أب.

فقلت: إنما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام، وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل أُمنا فاطمة عليها السلام».

أقول: هذا مع أنه كان بين موسىٰ وبين داود خمسمائة سنة، وبين داود وعيسىٰ ألف سنة وقد جعل الله عيسىٰ من ذرية إبراهيم عليه السلام الذي قبلهم بسنين عديدة، كذا عن تفسير علي بن إبراهيم.

ـ هذا مع انه كان الحسنان عليهما السلام ولدا في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله من بنته فاطمة عليها السلام.

وأما قوله صلى الله عليه وآله سيأتي شرحه في قوله عليه السلام وصلى الله علىٰ محمد وآله الطاهرين، فانتظر.

ثم إنه تقدم معنىٰ ورحمه الله وبركاته فلا نعيده، وأما جهة تكراره بعد عدة من الجمل فلعله لأجل الدعاء، والطلب منه تعالىٰ الرحمة والبركة لهم لما يرجع فوائده إليهم عليهم السلام وإلينا كما تقدم، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

قوله عليه السلام: السلام على الدعاة إلى الله.

الدعاة جمع داع كقضاة جمع قاض، ويدل علىٰ أنهم عليهم السلام الدعاة إلى الله تعالىٰ كالنبي صلى الله عليه وآله قوله تعالىٰ: **﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلىٰ الله علىٰ بصيرة أنا ومن اتبعني﴾**[2].

فعن الكافي بإسناده عن سلام بن مستنير، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: **﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلىٰ الله علىٰ بصيرة أنا ومن اتبعني﴾** قال: «ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما».

---

١ ـ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥.

٢ ـ يوسف: ١٠٨.

وفيه بإسناده عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل إلىٰ أن قال عليه السلام في الآية قال: «يعني علي عليه السلام أول من اتبعه علىٰ الإيمان والتصديق له وبما جاء به من عند الله عزوجل من الأُمة، التي بعث فيها ومنها وإليها قبل الخلق ممن لم يشرك بالله قط، ولم يلبس إيمانه بظلم وهو الشرك».

وفي حديث طويل عن الرضا عليه السلام في أوصاف الإمام إلىٰ أن قال عليه السلام: «الامام أمين الله في خلقه، وحجته علىٰ عباده، وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله».

أقول: لا ريب في أن مقام الدعوة إنما هو لهم عليهم السلام ومختصة بهم اصالة ولغيرهم بالاذن منهم تحت عنوان خاص في موارد خاصة بينت في كلماتهم، فليس لغيرهم الدعوة إليه تعالىٰ مطلقاً إلّا إذا اندرج تحت العناوين المشروطة التي بينوها، فهم عليهم السلام الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ بقول مطلقاً، وهذا مسلم لا ريب فيه، فإنهم الدعاة إليه تعالىٰ أي إلىٰ معرفته وعبادته وطاعته وكيفيتها.

هذا والذي ينبغي أن يقال في المقام هو: إن الدعوة باعتبار تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام قال الله تعالىٰ: ﴿**أُدع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾.

ففي تفسير نور الثقلين عن الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: «فأخبر انه تبارك وتعالىٰ أول من دعا إلىٰ نفسه، ودعا إلىٰ طاعته واتباع أمره فبدأ بنفسه وقال: ﴿**والله يدعوا إلىٰ دار السلام ويهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم**﴾ ثم ثنىٰ برسوله فقال: ﴿**أُدع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ يعني بالقرآن».

وفيه عن تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال: «والله نحن السبيل الذي أمركم الله باتباعه قوله: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ قال: بالقرآن».

وفيه: وروي عن النبي ﷺ انه قال: «نحن المجادلون في دين الله علىٰ لسان سبعين نبياً».

فنقول: المستفاد من هذه الأحاديث أُمور:

الأول: ان الدعوة علىٰ ثلاثة أقسام:

● بالحكمة قد فسّرت بإصابة الحق بالعلم والعقل وبالحجة، التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا إبهام فيه، وفسّرت في الأحاديث بالعقل والفهم ومعرفة الإمام في قوله تعالىٰ: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾.

● بالموعظة وفسّرت بالبيان الذي تلين به النفس، ويرق له القلب، لما فيه من صلاح حال السامع من الغير والعبر وجميل الثناء ومحمود الأثر.

وبعبارة أُخرىٰ: بالتذكير بالخير فيما يرّق له القلب، إلّا أن الموعظة منقسمة إلىٰ حسنة وغير حسنة والمأذون فيها هو الحسنة.

● بالمجادلة بالتي هي أحسن دون التي هي غير أحسن، فالمأذون فيها هو الأحسن دون غيرها بل ودون الحسن كما لا يخفىٰ، وهي فسّرت بالمفاوضة علىٰ سبيل المنازعة والمغالبة، وهذا التفسير يعمّ غير الأحسن أيضاً، والأحسن تفسيرها بأنه الحجة التي تستعمل لفتل الخصم أي صرفه عما يصرّ عليه، وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذة عليه من طريق ما يتسلّمه هو والناس، أو يتسلمه هو وحده في قوله أو حجته.

الثاني: أن الأئمة عليهم السلام يدعون الناس إليه بهذه الدعوات الثلاث، فإن الناس أيضاً علىٰ **ثلاث طبقات**:

▣ الخواص وهم أصحاب النفوس المشرقة قوية الاستعداد لادراك الحقائق العقلية، وشديدة الانجذاب إلى المبادي العالية، وكثيرة الألفة بالعلم واليقين، **فهؤلاء يدعون إليه تعالىٰ بالحكمة وهي أيضاً لها مراتب:**

● البرهان المنتج لدرك الحقائق علماً.

● الاشارات الإلهية التي لا تنسبك تحت العبارة، بل يشار إليها بالإلهامات الربوبية والإشراقات الرحمانية كما كانت لأوليائه خصوصاً لمثل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام كما تقدم من أنه قال: «فتح النبي صلى الله عليه وآله لي ألف باب يفتح كلّ باب ألف باب من الحكمة» وقد تقدم ذكرها.

● الأذواق العرفانية التي تحصل لأهل العشق والمحبة في حال هيجان المحبة بينهم وبين محبوبهم، كما دلّ عليه كثير من الأدعية والأحاديث الواردة في هذا الموضوع.

▣ العوام وهم أصحاب النفوس الكدرة، والاستعدادات الضعيفة من شدة ألفتهم بالمحسوسات، وقوة تعلقهم بالرسوم والعادات، قاصرة عن تلقي البراهين من غير أن يكونوا معاندين للحق، وأن يكونوا واجدين لبعض مراتب العلوم في فنون شتّىٰ، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة وهي أيضاً علىٰ أقسام ذكرت في الكتب المفصلة المعدة لها.

▣ أصحاب العناد واللجاج الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ويكابرون ليطفؤا نور الله بأفواههم، قد رسخت في نفوسهم الآراء الباطلة، وغلب عليهم تقليد أسلافهم في مذاهبهم الخرافية، لا تنفعهم المواعظ والعبر، ولا يهديهم سائق البراهين إلىٰ العلم واليقين بالحق المبين، وهؤلاء لا يهديهم سائق البراهين إلىٰ العلم واليقين بالحق المبين، وهؤلاء هم الذين أمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن، ثم إنه قد يكون شخص واحد له هذه الحالات الثلاث أو بعضها فتدعىٰ في كلّ حال بما تخصّه كما لا يخفىٰ.

الثالث: لا ريب في أن الأئمة عليهم السلام الذين هم الدعاة إليه تعالىٰ قد أهّلهم لذلك، حيث منحهم الولاية التكوينية والتشريعية كما علمت فيما تقدم من أنه تعالىٰ منحهم علمه في عالم الأرواح والأنوار وحكمته، وأنهم مصاديق أسمائه الحسنىٰ وإنه فوض إليهم دين الله بنحو سيجيء بيانه، وأنهم قدرة الله تعالىٰ وأعطىٰ إليهم ما أعطىٰ

جميع الأنبياء من العلم والقدرة والزيادة تدل عليه الأحاديث الواردة في الاسم الأعظم الإلهي من أنها اثنان وسبعون اسماً قد أعطى الأنبياء كلّ واحد منهم بعضها، وأما النبي والأئمة (عليه وعليهم السلام) قد أعطوا جميعها.

وعلمت أنه تعالىٰ أشهدهم خلق السموات والأرض وما فيهما، وأنهم أعضاد وأشهاد ومناة إلىٰ آخر ما مرّ، وعلمت أيضاً أن الموجودات خلقت من شعاع أنوارهم خصوصاً الشيعة، حيث إنها خلقت من فاضل طينتهم، فلا محالة تكون حقائق الموجودات بماهيّاتها وأجناسها وأنواعها وأفرادها معلومة لديهم، قد علموا جميع ذلك بتعليم الله تعالىٰ إياهم، فحينئذ نقول:

معنىٰ كونهم دعاة إليه أنهم عليهم السلام يدعون جميع الموجودات كلّ فرد إليه تعالىٰ بلسانه المختص به، فإن لكلّ موجود نطقاً يختص به كما يعلم من قوله: ﴿وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده﴾[1] الآية، فالتوحيد الساري في الموجودات إنما هو منهم وهم دعوهم إليه سواء كان نبياً أو ملكاً أو فلكاً أو غير ذلك.

وإليه يشير ما في الأخبار من أن ولايتهم عرضت علىٰ جميع الموجودات، وما تقدم من أن جميع الموجودات مأمورون بإطاعتهم، وليس هذا إلّا لأنهم يدعونها إليه تعالىٰ بعرض الولاية عليهم، التي هي مظهر التوحيد كما علمت، وعليهم القبول مع أن العقل يحكم بأن تسبيح كلّ موجود له تعالىٰ إنما هو بعد تعلمهم ذلك ولا يعلمونه إلّا بعد تعليم، ولا تعليم لها إلّا بعد تعليمهم عليهم السلام إياهم كيفية التسبيح والعبادة، فإنها كما تكون في البشر توقيفية فكذلك تكون في سائر الموجودات توقيفية أيضاً، فالعقل يحكم بأن العدل الإلهي يقتضي أولاً تعليمها كيفية العبادة والتسبيح بما يليق بجلاله وجماله تعالىٰ ذكره، فهم عليهم السلام دعاة جميع الخلق إليه تعالىٰ.

وعلم من هذا أنهم عليهم السلام دعاة إلىٰ الله تعالىٰ أي إلىٰ معرفته، فهم عليهم السلام أولاً المظهر الأتم لمعرفته ومعارفه، ثم يدعون الناس إلىٰ هذه المعرفة، نعم كلّ موجود بحسب

---

١ ـ الاسراء: ٤٤.

استعداده وقابليّته، وإلىٰ هذه الجهة يشير قوله تعالىٰ: ﴿وأنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾[١] فقد فسّر الماء بالعلم والمعرفة كما لا يخفىٰ.

ثم إنهم عليهم السلام قد علمهم الله تعالىٰ كيفية تعليم الموجودات معرفة الله، وذلك إما بتنزلهم عليهم السلام بلسان المعرفة إلىٰ درجة فهم المدعو، فيلقون إليه تلك المعرفة المتبادلة علىٰ قدر فهمهم، وإما بترفيعهم المدعو إلىٰ مقام الفهم للدرجة العالية من المعرفة فيعرفها، وبما يرفعون الجاهل إلىٰ مقام الفهم العالي فيعرف العارف بحقها، وربما يرفعون الموجود بنوع خاص إلى الموجود بنوع آخر أعلىٰ منه، كما علمت من مخاطبة الحسين عليه السلام للحمّىٰ بقوله: يا كباسة.. الخ، فارفعه أولاً إلىٰ مقام الإنسانية ثم خاطبه بقوله: يا كباسة، فافهم تغتنم.

ثم إن الموجودات لما كانت لها مراتب من الظرف والوجود فهم عليهم السلام حيث إنهم بمقامهم الولوي محيطون بكلّ شيء بإحاطة الله، فيدعون كلّ موجود في عالم كونه وهو علىٰ أقسام:

الأول: عالم الماهيات قبل انوجاد الوجود حال كونهم فقراء بالذات عند بابه الكريم، فسألوه بحقيقة ذاتهم الفقر المحض الوجود وغناء الوجود، فدعوهم عليهم السلام إليه تعالىٰ فأوجدهم الله تعالىٰ وأغناهم بأصل الوجود أولاً، وبما يحتاجون إليه ثانياً ولعلّه إليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿وآتيناكم من كلّ ما سألتموه﴾.

والثاني: عالم الشرع وهو علىٰ قسمين:

● الدعوة إليه تعالىٰ في عالم الذر حيث قيل لهم: ﴿ألست بربكم قالوا بلىٰ﴾[٢] فهم عليهم السلام دعو الناس في ذلك العالم إلىٰ التوحيد، فقد جعل الله تعالىٰ فيهم ما يصلح لأن يخاطبوا بالدعوة إليه تعالىٰ، فأجاب بعضهم بالقبول، وأنكر بعضهم كما ذكر مفصلاً في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾[٣].

---

١ ـ الرعد: ١٧.
٢ ـ الأعراف: ١٧٢.
٣ ـ الأعراف: ١٧٢.

● الدعوة إليه تعالىٰ في عالم الدنيا ودار التكليف بالأمر والنهي التشريعي، فهم عليهم السلام في جميع تلك العوالم دعاة إليه تعالىٰ، وهذا كما علمت يعطي أن الله تعالىٰ قد جهّزهم بتمام لوازم الدعوة من جعلهم عليهم السلام مظهراً لعلمه وقدرته ومعارفه.

فعن الكافي، عن علي، عن عمّه قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة وحي الله».

وفيه: عن سورة الكلبي قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «والله إنا لخزان الله في سمائه وأرضه لا علىٰ ذهب ولا فضّة إلّا علىٰ علمه».

وفيه: عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟

قال: «نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، نحن الحجة البالغة علىٰ من دون السماء وفوق الأرض».

وفيه: عن علي بن جعفر، عن أبي الحسن موسىٰ عليه السلام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله خلقنا فأحسن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورتنا، وجعلنا خزّانه في السماء والأرض، ولنا نطقت الشجرة، وبعبادتنا عبد الله، ولولانا ما عبد الله» فمعرفة الله وعبادته والتخلق بأخلاقه إنما هي منهم وعنهم، وهم الدعاة إليه من كلّ علم وعمل واعتقاد.

فالعلوم بأجمعها والمعارف بأكملها هي منهم وعنهم، بل دعوة الداعين إنما هي منهم ومنتهية إليهم، فكلّ دعوة لا تكون كذلك فهي باطلة مردودة بالضرورة. والحمد لله ربّ العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

قوله عليه السلام: والأدلاء علىٰ مرضاة الله.

الأدلّاء جمع دليل كالأغرّاء جمع غرير، ولا ريب في أنهم عليهم السلام يدلّون الخلائق بالشريعة الحقة إلىٰ ما يوجب رضاه تعالىٰ من مراتب القرب لله وإلىٰ الله وفي الله ومع الله.

والفرق بينه وبين الدعاة، أن الدعوة إليه تعالىٰ ربما يدعيها كل أحد ممن آمن بالله تعالىٰ؛ لأن وحدانيته فضلاً عن وجوده، بل وكثير من صفاته تعالىٰ كالخالقية والرازقية ونحوهما مما هو ظاهر وبديهي لكل أحد إلّا علىٰ أكمه لا يبصر القمر. وهذه (أي الدعوة) قد تخلو عن الحجة والبرهان في حال الدعوة اتكالاً علىٰ التصديق الإجمالي به تعالىٰ الحاصل لكل أحد، وهذا بخلاف الدليل إلىٰ مرضاته تعالىٰ، فإنّ مرضاته تعالى لا ريب في خفائها علىٰ كثيرين بل وعلىٰ أهل الحق غير المعصومين.

ولذا ورد في الدعاء من قولهم عليهم السلام: «واهدني لما اختلف فيه من الحق» فإن أهل الحق ربما يختلفون في بعض الأُمور، وكل يدعي الإصابة مع العلم الإجمالي بخلاف أحدهم مثلاً، فالوصول إلىٰ مرضاته لابد له من برهان وحجة، ويعبر عنه بالدليل فإنه لا يكون إلّا عن حجة.

وكيف كان فمرضاته تعالىٰ مخفية علىٰ كثيرين إلّا عليهم عليهم السلام فهم الأدلّاء علىٰ مرضاته، فيعطي هذا البيان أن الوصول إلىٰ مرضاته تعالىٰ منحصر بدلالتهم عليهم السلام؛ لأنهم الواقفون إليها والعالمون بها بما منحهم الله تعالىٰ ذلك كما علمت مما تقدم.

وكيف كان فالداعي والدليل قد يستعمل كلّ منهما في مقام الآخر منفرداً إلّا إذا اجتمعا كما في المقام فيفرق بينهما بما قلناه، وإلىٰ ما ذكر يشير ما قيل من: إن الله تعالىٰ لمّا لا يشتبه بغيره فيمكن الدعوة إليه تعالىٰ بلا برهان، وهذا بخلاف مرضاته فإن مرضاته مخفية في مقامين:

الأول: في نفس الأمر الذي هو مرضي له تعالىٰ كبيان كيفية الصلوة والصوم، وأنحاء العبادات المجعولة في الشرع، ولا يمكن لغيرهم عليهم السلام بيانها، فهم عليهم السلام الأدلاء عليها.

والثاني: في الأفعال الصادرة من العامل فإنها مشتبه، فإن ما ترضيه منها تشتبه بما يسخطه، لا يفرق بينهما إلّا بالدليل والتعيين، وهم عليهم السلام يبينون الدليل

والمعيّن لما هو مرضي له تعالىٰ منها.

وربما يقال: إن معرفة الله لما كانت عقلية أي أن المكلفين يدركونه بالعقول، ولذا قيل: إنه لا يجوز التقليد في الأُصول؛ لأنه تعالىٰ جعل في كل واحد من العقل ما به يدرك معرفة الله تعالىٰ، فالدعوة إليه تعالىٰ ممكنة لكل واحد لمكان العقل، وهذا بخلاف الأعمال من حيث الاستناد إلىٰ المكلفين، أو من حيث الكيفية المجعولة فيها شرعاً، فإنها لا يمكن للعقول مجردة عن الاستناد إلىٰ النص والأدلة الصادرة منهم عليهم السلام معرفة ما يرضي الله منها مما يسخطه غالباً، فلابد فيها من النص والتعيين بدلالتهم عليهم السلام علىٰ المرضي منها، ولهذه الجهة جاز فيها التقليد والاجتهاد؛ لتحصيل المرضيات منها من الأدلة الشرعية الواردة عنهم عليهم السلام كما لا يخفىٰ، وهذا راجع إلىٰ ما قلناه آنفاً كما لا يخفىٰ.

ثم إنه أيضاً قد يفرق بينهما بأن الدليل كما أنه يطلق علىٰ الإنسان الذي هو الدليل، كذلك يطلق علىٰ ما يستدل به من البرهان والحجة والمصاديق الخارجية مما انطبق عليه البرهان والحجة، وهذا بخلاف الداعي فإنّه لا يطلق علىٰ المدعو به، فان النبي صلى الله عليه وآله مثلاً هو الداعي بلحاظ أنه صلى الله عليه وآله يدعو الناس إليه تعالىٰ، وأما إطلاق الداعي عليه بلحاظ كونه صلى الله عليه وآله مدعواً به؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ دعا عباده إليه صلى الله عليه وآله وإن كان صحيحاً في نفس الأمر، إلّا أنه خلاف الظاهر مما تعرفه الناس والمتشرعة كما لا يخفىٰ.

وكيف كان فهم عليهم السلام الأدلاء والمرشدون والبراهين القاطعة إلىٰ ما فيه رضا الله تعالىٰ، وهذا مما لا ريب فيه إلّا أن الكلام في بيان كيفية كونهم عليهم السلام الأدلاء إلىٰ مرضاته وأنحائه فنقول: إنها علىٰ **أقسام**:

الأول: أنهم أدلاء عليها بالبيان العلمي المطابق مع العقل والبرهان القطعي، بحيث تصدقه العقول ولا ترده البراهين القاطعة في أقسام العلوم والمعارف الإلهية، وهذا أيضاً أمر مسلم لا شبهة فيه، فإن الكتب مشحونة بذكر بياناتهم الظاهرة

المقرونة بالبراهين القاطعة في أيّ موضوع علمي بيّنوه عليهم السلام لكل أحد، سواءاً كان من موافقيهم أم من مخالفيهم.

بل ادعو عليهم السلام العلوم كلّها وأنهم لا يسألون في أمر إلّا أجابوا عنه بأحسن وجه، ويدل علىٰ هذا الأحاديث الكثيرة في عناوين مختلفة مما ورد عنهم عليهم السلام كما تقدم في بيان أمر الولاية، وأنهم حجة الله، وأنه تعالىٰ لم يجعل حجة في خلقه يُسأل عن أمر فيقول: لا أعلم، كما لا يخفىٰ.

الثاني: أنهم أدلاء عليها بالعمل فإن أعمالهم عليهم السلام كأقوالهم حجة يرجع إليها في تشخيص الوظائف كما حقق في الأُصول.

وكيف كان إنهم عليهم السلام لا يصدر منهم فعل يكون علىٰ خلاف مرضاته تعالىٰ، بل جميع أفعالهم تدل علىٰ أنها مرضية له تعالىٰ، وإليه يشير قوله في حقهم: **﴿بل عباد مكرمون ۞ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**.

الثالث: أنهم عليهم السلام أدلّاء عليها بالصفات الحميدة، فإنهم عليهم السلام متصفون بأكمل الصفات المحمودة، بل سيجيء إن شاء الله أن كل صفة حميدة في أيّ رجل فهي منشعبة منهم عليهم السلام كما دلّ عليه قوله عليه السلام: «إن ذكر الخير كنتم أصله وفرعه» الخ، وسيجيء بيانه، وهذا أيضاً ظاهر لا شك فيه حتىٰ عند المخالفين وعند المعاندين لهم عليهم السلام، فهم بصفاتهم يدلون علىٰ مرضاته تعالىٰ، أي أن أيّ صفة كانوا متصفين بها فهي مرضية لله تعالىٰ، فمن اتصافهم بها يعلم أنها مرضية له تعالىٰ، فهم الأدلآء عليها صفةً علىٰ كونها صفة أيضاً.

الرابع: أنهم بحقيقتهم النورانية، وبما هم مظهر للأسماء الحسنىٰ، وبما هم قائمون بالأسماء العظمىٰ لله تعالىٰ، وبما هم المظهر الأتم له تعالىٰ في جميع صفاته الجلالية والجمالية، وبما هم محال معرفة الله تعالىٰ كما تقدم يدلون علىٰ مرضاته في هذه الأُمور من المعارف الغامضة الإلهية، فلابد لكل أحد من العارفين والسالكين إليه تعالىٰ، والواصلين إلىٰ معرفته تعالىٰ أن يعرضوا حالاتهم عليهم عليهم السلام بلحاظ تلك الحالات

الكائنة فيهم عليهم السلام فيستدلون بها علىٰ مرضاته تعالىٰ فيها بأن يروا ويعلموا أن ما وافق من تلك الحالات الكائنة فيهم مع الحالات الكائنة فيهم عليهم السلام فهي مرضية له تعالىٰ وإلّا فلا.

وبعبارة أُخرىٰ: أنه قد علمت سابقاً مفصلاً أنهم معانيه تعالىٰ وأبوابه وحجته، وعلمت معنىٰ أنهم معاني الله أي أنهم حقيقة الأسماء الحسنىٰ، وبهم ومنهم يتوصل إليها، والمعرفة بهم بما هم كذلك دليل علىٰ معرفته تعالىٰ، فهم بحقيقتهم أدلاء علىٰ معرفته تعالىٰ المرضية له، التي خلق الخلق لها كما تقدم من قول الحسين عليه السلام: «إن الله ما خلق الخلق إلّا ليعرفوه»، وتقدم أنه لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتهم، فمعرفتهم سبيل معرفة الله ودليلها، بل معرفتهم معرفة الله كما علمت من قوله عليه السلام: «إن معرفة الله معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي تجب عليهم طاعته».

والحاصل: أن الله تعالىٰ يعرف بأسمائه التي هي صفاته تعالىٰ، وهي ليست إلّا ذواتهم المقدسة لقوله عليه السلام: «والله نحن الأسماء الحسنىٰ» كما تقدم، فهم عليهم السلام حينئذ بما هم مصاديق لها أدلاء لله تعالىٰ فإنّ شيعتهم يقتبسون معارفهم وحقائقهم منهم، فهم بما هم من المراتب التي يختص كل منهم ببعضها أيضاً أدلاء علىٰ الله، وبحقيقتهم التي هي بعض مراتب الأسماء الالهية أدلاء علىٰ الله، وبسبيل معرفتهم يعرف الله حيث إنها مقتبسة منهم عليهم السلام بل في الحقيقة أن ما فيهم من تلك الحقائق والمعارف لما كانت منهم عليهم السلام فصح أن يقال: إن المعارف الكائنة فيهم المستدل بها علىٰ الله تعالىٰ إنما هي منهم وبهم عليهم السلام فهم عليهم السلام في ظهورهم في شيعتهم أدلاء علىٰ الله تعالىٰ، فتدبر تعرف.

ويدل علىٰ أن شيعتهم ملحقون بهم في الاقتباس، وفي هذه الدلالة أخبار كثيرة منها ما روي عن الثمالي عن الباقر عليه السلام وكذا في تفسير نور الثقلين عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة، وعن معاني الأخبار، وعن تفسير علي بن إبراهيم. واللفظ لكمال الدين بإسناده عن عمر بن صالح السابري، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن هذه الآية: ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ قال: «أصلها رسول الله صلى الله عليه وآله وفرعها

أمير المؤمنين والحسن والحسين ثمرها، وتسعة من ولد الحسين عليه السلام أغصانها والشيعة ورقها، والله إن الرجل ليموت فتسقط ورقة من تلك الشجرة. قلت: قوله: ﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ قال: ما يخرج من علم الامام إليكم في كل سنة من كل فج عميق».

ومثله كثير باختلاف يسير في العبارة.

وفي تفسير نور الثقلين أيضاً عن الخرائج والجرائح: روىٰ المجلسي عن الصادق عليه السلام عن أبيه، وذكر حديثاً طويلاً وفي آخره يقول الباقر عليه السلام: «وأخبركم عما أردتم أن تسألوا عنه في قوله تعالىٰ: ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ نحن نعطي شيعتنا ما نشاء من العلم».

وفيه عن تفسير العياشي بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام في قول الله: ﴿ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ قال: «يعني النبي صلى الله عليه وآله الأصل الثابت والفرع الولاية لمن دخل فيها».

ومنها: أخبار الطينة التي تقدم بعضها فتدل هذه علىٰ أن الشيعة ملحقون بهم عليهم السلام أصلاً من حيث الروح والعلم والمعارف فإنها كلها مقتبسة منهم عليهم السلام فالشيعة من حيث المبدإ خلقوا منهم أي من فاضل طينتهم وعلمهم من علمهم عليهم السلام ومن حيث المنتهىٰ والمعاد يكون إيابهم وحسابهم إليهم وعليهم عليهم السلام كما سيجيء في شرح قوله عليه السلام: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم».

ويدل عليه أيضاً وعلىٰ ما تقدم ما روي عن أبي الحسن عليه السلام في حديث طويل قال: «وإن شيعتنا لمكتوبون معرّفون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله الميثاق علينا وعليهم، يردون مواردنا، ويدخلون مداخلنا، ليس علىٰ ملة إبراهيم خليل الرحمن غيرنا وغيرهم، إنّا يوم القيمة آخذون بحجزة نبينا صلى الله عليه وآله ونبينا آخذ بحجزة ربّه، وإن الحجزة النور، وشيعتنا آخذون بحجزتنا، من فارقنا هلك، ومَن تبعنا نجا، والمتبع لولايتنا لاحق، والجاحد لولايتنا كافر، ومتبعنا ومتبع أوليائنا مؤمن، لا يتبعنا كافر

ولا يبغضنا مؤمن، من مات وهو محبنا كان حقاً علىٰ الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا وهدىً لمن اقتدىٰ بنا».

وهذا يدل علىٰ علو رتبة الشيعة حيث إنهم ملحقون بهم عليهم السلام ابتداءً وانتهاءً؛ ولذا أمر الضعفاء من الشيعة أن يتبعوا ويقصدوا الأكابر منهم، كما يشير إليه قوله عليه السلام: «ومتبع أوليائنا مؤمن».

وفي البحار[1]، عن الصادق عليه السلام «شيعتنا جزء منّا خلقوا من فضل طينتنا يسوؤهم ما يسوؤنا، ويسرهم ما يسرنا، فإذا أرادنا أحد فليقصدهم فإنهم الذي يوصل منه إلينا»، الحديث.

فقوله: فليقصدهم، ظاهر فيما قلنا كما لا يخفىٰ.

ويدل علىٰ فضلهم أيضاً ما عن الصادق عليه السلام قال «لمن قرأ عنده: **﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان﴾** فمن يسأل إذاً لم يسأل عن ذنبه إنس ولا جان؟ قال: قلت: لا أدري، قال عليه السلام: إنما أنزل الله فيكم، وذا والله المؤمن من شيعتنا لا يسأل منكم الانس والجن، وإن الله تعالىٰ ليولينا حسابه، ويأمرنا ما كان من حسنة نظهرها، وما كان من سيئة نسترها، وإن الله تعالىٰ لا يطلع علىٰ ذنب مؤمن أحداً من خلقه إجلالاً لعبده المؤمن».

وعن تفسير علي بن إبراهيم: وقوله: **﴿فيومئذ لا يُسئل عن ذنبه﴾**، قال: «منكم (يعني من الشيعة) إنس ولا جان، قال: معناه أن من تولىٰ أمير المؤمنين عليه السلام وتبرأ من أعدائه، وآمن بالله، وأحل حلاله وحرّم حرامه، ثم دخل في الذنوب، ولم يتب في الدنيا عذب في البرزخ، ويخرج يوم القيمة وليس له ذنب يُسأل عنه يوم القيمة»، الخ.

وللآية معان أُخرىٰ راجع تفسير مجمع البيان، وورد في معناها أحاديث أُخر

---

١ ـ البحار ج٦٨ ص ٢٤ رقم ٤٣.

تقرب من هذا المعنىٰ المذكور عن الصادق عليه السلام وإنما ذكرنا هذه الأحاديث بياناً لما شرّف الله تعالىٰ الشيعة بالكرامة التي ليس فوقها كرامة، والحمد لله ربّ العالمين.

فتحصل من جميع ما ذكر: أن جميع الأحكام والحقوق الشرعية التي فيها رضا الله فإنما هي بدلالتهم عليهم السلام بل كلما لم يدلّوا عليه لم يكن لله فيه رضا لما عرفت من أنهم عليهم السلام بعدما كانت لهم الولاية التكوينية من الله تعالىٰ، فلا محالة هم العارفون بجريان أمر الخلق بعناوينها في مجريها الموجب للكمال والوصول إلى السعادة، فلا محالة لابد من تحصيل رضاه تعالىٰ في جميع جريان الأُمور الشرعية والتكوينية من دلالتهم عليهم السلام فكلّ موجود بشراً كان أم مَلكاً أم غيرهما إن انقادت في قبال ولايتهم عليهم السلام سلكت في طريق السعادة وإلّا فلا محالة كانت مستنكفة وكافرة بأنعم الله، وصارت إلى الشقاوة الأبدية.

ثم إنه قد علمت أن الدليل قد يطلق علىٰ الانسان المستدل به، فحينئذ إنهم عليهم السلام أيضاً الأدلاء علىٰ رضاه تعالىٰ؛ وذلك لأنهم بأنفسهم الحجة التي تستدل بها العقول علىٰ كل حق، فيستدل بهم علىٰ الله تعالىٰ، بل وعلىٰ أنفسهم كما يشير إليه قوله عليه السلام: «اِعرفوا أُولي الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فيستدل بهم علىٰ كونهم أتم مصداق لمراضي الله تعالىٰ وعلىٰ محبيهم، فإن علامات محبيهم وشيعتهم إنما عرفناها بهم عليهم السلام إما ببيانهم وإما بتطابق أحوال شيعتهم بأحوالهم عليهم السلام ويستدل بهم علىٰ جميع الفروع الخيريّة والأوصاف الحميدة، والأفعال الحسنة والاعتقادات الصحيحة.

فما كانت منها فيهم فيعلم أنها فيها رضا الله وما كانت منها في غيرهم فإن طابقت مع ما كانت فيهم فيعلم أنها مما فيه رضا الله تعالىٰ.

والحاصل: أن أُولي الألباب يستدلون بهم وبشؤونهم علىٰ كل خير مرغوب فيه وشرّ مرغوب عنه، فهل تجد في نفسك احتمال أن يكون ما أخبروا به واتصفوا به أو علموه مما ليس فيه رضا الله تعالىٰ كما نحتمل ذلك عقلاً لا مدفع عنه في هذه

الأُمور إذا كانت عن غيرهم؟ كلا، بل علمت مما تقدم أن ما كان في غيرهم من الصواب فإنما هو إذا كان صادراً منهم ومنتهياً إليهم، والسّرّ في هذا (أي في أن جميع اعتقاداتهم وأفعالهم وصفاتهم مرضية لله تعالىٰ) هو أنه بعد ما كانوا عليهم السلام فانين في الله تعالىٰ ليس لهم شيء من عند أنفسهم ﴿بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾، وأنه لا فرق بينهم وبين خالقهم إلّا أنهم عباده كما تقدمت الإشارة إليه، فلا محالة أن جميع ما يصدر منهم من تلك الأُمور فإنما يصدر من الله تعالىٰ.

وإليه يشير ما تقدم من قولهم عليهم السلام «ولايتنا ولاية الله».

وإليه يشير أيضاً قوله تعالىٰ في حق نبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ﴾ فإنه كما أن حركة يد الرجل العاقل لا تصدر عن مقتضىٰ جوارحه، وإنما تصدر عن مقتضى عقله، وإن كانت جوارحه مظهراً لها، فإن المحرك الحقيقي هو العقل لكن بواسطة اليد كما لا يخفىٰ، فجميع شؤونهم منه تعالىٰ وصادرة منه تعالىٰ، بل من نظر بعين البصيرة عرف أن حقيقة التوحيد المستفادة من لا إله إلّا الله، وحقيقة النبوة وحقيقة الولاية المستفادة من محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي والأئمة عليهم السلام حجج الله، وحقيقة الدين الذي هو عند الله الإسلام إنما يعرف ويستبان بهم عليهم السلام لا بغيرهم بنحو الأتم الأكمل.

إذا عرفت فاعلم: أنه تعالىٰ لم يخلق شيئاً جعله دليلاً إلىٰ رضاه أوضح من أئمتك عليهم السلام ولا أصرح من ولايتهم، ولا أصح من مقالتهم، ولا أصدق من حالهم عليهم السلام فهم عليهم السلام الأدلاء إلىٰ ما فيه رضاه في جميع هذه الأُمور بنحو لا شك فيه، وبنحو تطمئن به النفس، وتستغني بهم عن جميع من سواهم.

وإلىٰ جميع ما ذكرنا يشير بعض الآيات والأحاديث فنذكرها تيمناً وتبركاً، ثم أنت استنبط المطالب منها فنقول: أما الآيات، فقوله تعالىٰ: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبيّن لهم أنه الحق﴾.

ففي تفسير البرهان: أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه بإسناده عن أبي

عبدالله عليه السلام في حديث قال: يقول الله: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾ «فأي آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق؟».

وفيه محمد بن العباس بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله عزوجل: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبيّن لهم أنه الحق**﴾ أي أنه القائم (عج)».

وقوله تعالىٰ: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾[1].

في تفسير نور الثقلين عن أصول الكافي بإسناده قال: حدثنا داود الجصاص قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾ قال: «النجم رسول الله صلى الله عليه وآله والعلامات الأئمة عليهم السلام».

وفيه، عنه، عن إسباط بن سالم قال: سأل الهيثم أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾ فقال: «رسول الله صلى الله عليه وآله النجم والعلامات الأئمة عليهم السلام».

ومثله فيه، عنه، عن الرضا عليه السلام بعد ذكر الآية قال: «نحن العلامات والنجم رسول الله صلى الله عليه وآله».

ونظيره كثير من الأحاديث فيه.

وفيه أيضاً عن كتاب المناقب لابن شهر آشوب أبو المضا عن الرضا عليه السلام قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنت نجم بني هاشم».

وفيه وعنه قال عليه السلام: «وأنت أحد العلامات».

أقول: العلامة هو الدليل.

وفي حديث الرضا عليه السلام الطويل المتقدم بعضه في وصف الامام عليه السلام: «الامام الماء العذب على الظماء، والدال على الهدىٰ، والمنجي من الردىٰ».

ومما يدل علىٰ أن مصدر كل خير وعبادة هم الأئمة عليهم السلام روايات كثيرة ذكرها في البحار في الباب الذي عقده لذلك فمنها:

---

١ ـ النحل: ١٦.

ما عن الشيخ أبي جعفر الطوسي ﷺ بإسناده إلىٰ الفضل بن شاذان، عن داود بن كثير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أنتم الصلوة في كتاب الله عزوجل وأنتم الزكوة وأنتم الحج، فقال: «يا داود نحن الصلوة في كتاب الله عزوجل، ونحن الزكوة ونحن الصيام، ونحن الحج ونحن الشهرا الحرام ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله ونحن قبلة الله ونحن وجه الله، قال الله تعالىٰ: **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** ونحن الآيات ونحن البينات.

وعدونا في كتاب الله عزوجل الفحشاء والمنكر والبغي، والخمر والميسر، والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان، والجبت والطاغوت، والميتة والدم ولحم الخنزير.

يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا، وجعلنا أُمناءَه وحفظته وخزّانه علىٰ ما في السموات وما في الأرض، وجعل لنا أنداداً وأضداداً وأعداء فسمانا في كتابه وكنّىٰ عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبّها إليها، وسمّىٰ أضدادنا وأعداءَنا في كتابه، وكنىٰ عن أسمائهم، وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه وإلىٰ عباده المتقين»، ومثله غيره.

وعن الكافي بإسناده إلىٰ علي بن جعفر عن أبي الحسن موسىٰ عليه السلام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله خلقنا فأحسن خلقنا، وصورنا فأحسن صورنا، وجعلنا خزّانه في سمائه وأرضه، ولنا نطقت الشجرة، وبعبادتنا عبد الله تعالىٰ، ولولانا ما عبد الله».

أقول: ما في ذيل هذا الحديث ذكر في كثير من الأحاديث كما لا يخفىٰ، وهذه إشارة إلىٰ حقيقة كونهم أدلاء علىٰ مرضاته تعالىٰ كما لا يخفىٰ، وفيما ذكر كفاية لاثبات ما ذكرنا كما لا يخفىٰ، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله علىٰ محمد وآله الطاهرين.

قوله عليه السلام: والمستقرين في أمر الله.

أقول: قال المجلسي: في الأصل «المستوفرين».

أقول: المستوفر بمعنى المستعمل أي المسارع إلى القيام بأوامره تعالىٰ من الواجبات والمندوبات، فالمستوفرون هم المسارعون في ذلك وعلى النسخة المشهورة «المستقرين» أي هم الثابتون علىٰ أمر الله تعالىٰ في خدمة القيام بأمره وعبوديته، والامتثال بما أُمروا عليهم السلام من العمل العبادي فيما بينهم وبين خالقهم، أو من العمل من تدبير الصنع وأمر الخلق، وإيصال الفيوضات إلىٰ مستحقيها ومواردها كما تقدم من أن هذا هو شأن ولايتهم التكوينية المستفاد من قوله عليه السلام: «إرادة الرب في مقادير أُموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم»، وصدورها من بيوتهم إلى الخلق، إنما هو من وظائفهم الثابتة لهم بالولايه التكوينية، أو من العمل التشريعي من أمر الخلق ودعائهم إلىٰ الله كما تقدم، وإلىٰ ما أُمروا به من طاعتهم ونهيهم عن معاصي الله ببيان ما هو الطاعة ليعملوه، وما هو المعصية ليتركوه.

والحاصل: أنهم مستقرون في أمر الله فيما أُمروا به، أي لا ينتقلون عن أمره إلىٰ أمر غيره، بحيث يكون الداعي لِعَمَلِهم أمره تعالىٰ مع غيره مشتركاً، أو أمر غيره مستقلاً، بل لا داعي لهم سوىٰ أمره تعالىٰ فلا ينفكون عن العمل بما أُمروا آناً كما يومي إليه: **﴿وله من في السموات والأرض ومَن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾**[1].

فقوله: **﴿يسبحون الليل والنهار﴾** حال لمن الموصولة أو خبر بعد خبر، وقد تقدم عن الصادق عليه السلام: أن المراد من قوله تعالىٰ: **﴿ومن عنده﴾** هم الأئمة عليهم السلام الذين لهم مقام العندية، فدلت هذه الآية علىٰ أنهم عليهم السلام لا يفترون عن عبادته وتسبيحه في الليل والنهار، وهو معنى الاستقرار في أمر الله تعالىٰ كما لا يخفىٰ.

---

١ ـ الأنبياء: ١٩ و ٢٠.

وأيضاً يشير إلىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾[1].

في تفسير نور الثقلين عن الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: «وألزمهم الحجة بأن خاطبهم خطاباً يدل علىٰ انفراده وتوحيده، وبأن لهم أولياء تجري أفعالهم وأحكامهم مجرىٰ فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، قال السائل: من هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول الله صلى الله عليه وآله ومن حلّ محلّه أصفياء الله الذين قال: **﴿فأينما تولّوا فثم وجه الله﴾** الذين قرنهم الله بنفسه وبرسوله، وفرض علىٰ العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم منها لنفسه».

أقول: الظاهر (والله العالم) أن قوله عليه السلام: الذين قال: **﴿فأينما تولّوا فثم وجه الله﴾** لبيان أن أفعالهم وأحكامهم إنما تجري مجرىٰ فعله تعالىٰ؛ لأنهم وجه الله في الوجود الذي أينما تولوا فثم وجه الله، فلهم تلك السعة والإحاطة في عالم الوجود، عاملون بأمره في الكون فيما أُمروا به مما تقدم ذكره.

وفيه: وروى الأصبغ بن نباتة قال: كنا نمشي خلف علي عليه السلام ومعنا رجل من قريش فقال: يا أمير المؤمنين قد قتلت الرجال، وأيتمت الأطفال، وفعلت ما فعلت، فالتفت إليه عليه السلام وقال: «إخسأ، فإذا هو كلب أسود فجعل يلوذ به ويبصبص، فرآه عليه السلام فرحمه فحرّك شفتيه، فإذا هو رجل كما كان، فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين أنت تقدر علىٰ مثل هذا ويناويك معاوية!! فقال عليه السلام: نحن عباد مكرمون لا نسبقه بالقول ونحن بأمره عاملون».

---

١ ـ الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩.

وفيه: في مصباح شيخ الطائفة ﷺ في خطبة مروية عن أمير المؤمنين ﷺ قال: «وإن الله اختص لنفسه بعد نبيه ﷺ من بريته خاصة علّاهم بتعليته، وسَما بهم إلىٰ رتبته، وجعلهم الدعاة بالحق إليه، والأدلاء بالإرشاد عليه لقرن قرن وزمن زمن، أنشأهم في القدم ـ قبل كلّ مذرٍءومبرّءٍ وأنوار أنطقها بتمجيده بتحميده، وألهمها شكره وتمجيده، وجعلها الحجج علىٰ كل معترف له بملكة الربوبية وسلطان العبودية، واستنطق بها الخرسات بأنواع اللغات، بخوعاً له بأنه فاطر الأرضين والسماوات، وأشهدهم خلقه، وولّاهم ما شاء من أمره، جعلهم تراجمة مشيته، وألسن إرادته عبيداً لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون».

وفي تفسير البرهان[1]، محمد بن العباس بإسناده عن أبي السفاح قال: سمعت أبا جعفر ﷺ يقول: ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون**﴾ وأومىٰ بيده إلىٰ صدره وقال: ﴿**لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون**﴾ الآية.

أقول: المستفاد من هذه الآيات بعد قوله تعالىٰ: ﴿**عباد مكرمون**﴾ أنه تعالىٰ بعد ما أكرمهم بخصائص واصطفاهم لنفسه، بأن جعل أفعالهم وأحكامهم مجرىٰ فعله تعالىٰ كما تقدم، فأخبر تعالىٰ عن حقيقتهم وأعمالهم وأفعالهم القلبية والظاهرية في الدنيا والآخرة فيعلم منها أمور:

الأول: أنهم لا يسبقونه بالقول بل قوله تعالىٰ مسبوق قولهم بل قولهم قوله تعالىٰ قال الحسين ﷺ: «أم كيف أُترجم بمقالي وهو برز منك إليك».

الثاني: أنهم عاملون بأمره فلا مؤثر ولا داعي فيهم ﷺ سوىٰ أمره سواءً فسّر الأمر بالأمر التشريعي أو التكويني، فهم عاملون بأمره تعالىٰ التشريعي،

---

١ ـ البرهان ج٣ ص٥٧.

وبأمره تعالىٰ التكويني من إرادته ومشيته، ولذا قالوا عليهم السلام: «قلوبنا أوعية لمشية الله» وقال الله تعالىٰ في حقهم: ﴿وما تشاءُون إلّا أن يشاء الله﴾.

الثالث: أنهم عليهم السلام في جميع شؤونهم وأعمالهم القلبية والظاهرية في مرءىٰ منه تعالىٰ ومنظره تعالىٰ، وهم دائماً تحت مراقبته تعالىٰ وتربيته، وأنه تعالىٰ هو المتولي لهم فقال تعالىٰ: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾.

الرابع: أنهم عليهم السلام لا يشفعون في الدنيا ولا في الآخرة إلّا لمن ارتضى الله دينه، ففي التفسير المذكور عن التوحيد عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام في حديث طويل إلىٰ أن قال: وأما قوله عزوجل: ﴿ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ﴾ فإنهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ الله دينه، والدين الاقرار بالجزاء علىٰ الحسنات والسيئات»، الحديث، فشفاعتهم أيضاً مصداق لعملهم بأمر الله تعالىٰ كما لا يخفىٰ.

الخامس: أنهم عليهم السلام مع أنهم عاملون بأمره سرّاً وعلناً مشفقون من خشيته تعالىٰ؛ وذلك لمعرفتهم الوجدانية بجلاله وجماله الواقعيين، فهم عليهم السلام دائماً مشاهدون لهما فلا محالة مشفقون من خشيته كما أثبتت ذلك حالاتهم العارضة لهم عند عبادتهم له تعالىٰ، حيث إنهم علموا أنه لا قوام لهم إلّا به تعالىٰ، ففي الدعاء: «يا من كل شيء موجود به»، فهم مشاهدون لهذا المعنىٰ أي يشاهدون أنه لا قوام بولايتهم وسلطانهم علىٰ الخلق تشريعاً وتكويناً إلّا بأمره وإذنه تعالىٰ، وهم في قبضته تعالىٰ لم يخرجوا من يده أبداً وكذلك كل شيء، فلا محالة هم مشفقون منه تعالىٰ لمشاهدة هذه السلطة الالهية والقيومية الإلهية للأشياء وهم عليهم السلام كما لا يخفىٰ.

السادس: أنهم عليهم السلام في قولهم وادعائهم مقام الإمامة والولاية علىٰ يقين وبصيرة من ربّهم كما دلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلىٰ الله علىٰ بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ وليسوا في ادعائهم تلك المقامات علىٰ ظن واحتمال، بل علىٰ يقين وشهود، فهم عليهم السلام يقولون: «نحن الحجة والإمام علىٰ الخلق عن بصيرة ويقين».

ففيه: عن تفسير علي بن إبراهيم قوله: ومن يقل منهم: إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم، قال: من زعم أنه إمام وليس بإمام، وأما أئمتنا فهم يقولون: نحن أئمة، وهم أئمة علىٰ يقين منهم ونصّ من الله ورسوله، ويستفاد من هذه الآية أن من ادعىٰ الإمامة، وليس هو بإمام فهو من الظالمين، قد ارتكب أعظم الظلم حيث ادعىٰ ما ليس له، فلا محالة يجزيه الله تعالىٰ جهنم.

ويقال: هذه الآية تعريضاً وخطاباً لجميع الخلق بالنسبة إليهم عليهم السلام علىٰ أنهم عليهم السلام مقرونون بالعبودية ومستقرون في أمر الله بنحو تقدم، ويرون أن هذا المقام منه تعالىٰ وله لا لهم كما دلّ عليه قوله عليه السلام: «ولايتنا ولاية الله»، ولا يدعون لأنفسهم فوق مقامهم من مقام الربوبية، وإن كان قد تصدر منهم الأفعال الربوبية وخوارق الأُمور والمعجزات العجيبة، فإنهم مع ذلك لا يدعون فوق مقامهم من مقام الربوبية، بل لو ادعوا ذلك فجزاؤهم قوله: ﴿فذلك نجزيه جهنم﴾.

وهذا التعبير تأكيد منه تعالىٰ علىٰ رسوخهم عليهم السلام في العبودية له تعالىٰ؛ ليطمئن الخلق بأنهم عليهم السلام راسخون في مقام العبودية، والسر في ذلك ما تقدم من أنهم فانون عن النفس وباقون ببقاء الله، فليس فيهم غير آثار الربوبية كما دلّ عليه قوله عليه السلام: «لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك» وقد تقدم بيانه، فإذا كانوا كذلك فلا داعي موجود فيهم سوىٰ داعي الله تعالىٰ، فهم حينئذ مستقرون في أمر الله ولا يدعون غير مقامهم المحمود الذي أعطاهم الله تعالىٰ.

ثم إنه قد فسّر الآية كما في تفسير علي بن إبراهيم حيث قال عليه السلام: «من زعم أنه إمام وليس بإمام»، فالكلام متوجه إلىٰ غيرهم تعريضاً لهم عليهم السلام وهذا لا ينافي مع إرجاع الضمير إلىٰ قوله: ﴿عباد مكرمون﴾ بدعوىٰ أنه كيف يمكن في حقهم عليهم السلام هذا القول مع أنهم عباد مكرمون؟ والوجه فيه أنه تكون هذه الآية نظير قوله

تعالىٰ: ﴿لأن أشركت ليحبطن عملك﴾[1] مع أنه لا يحتمل الإشراك في حقّه عَلَيْهِ السَّلَامُ وليس هذا إلّا أنه تعريض عنهم بنحو تقدم كما لا يخفىٰ، فتأمل تعرف إن شاء الله.

قوله عليه السلام: والتامّين في محبة الله.

والكلام في شرحه يقع في أمور:

الأمر الأول: **أقول:** في المجمع: الحب بضم الحاء المحبة، وبكسرها الحبيب وفيه: وأما محبة العبد لله تعالىٰ فحالة يجدها في قلبه، يحصل منها التعظيم وإيثار رضاه والاستيناس بذكره.

أقول: وأما محبة الله للعبد، ففيه وعن بعض المحققين: محبة الله للعبد كشف الحجاب عن قلبه، وتمكينه من أن يطأ في بساط قربه، فإن ما يوصف به سبحانه إنما يؤخذ باعتبار الغايات لا المبادئ وعلامة حبّه للعبد توفيقه للتجافي عن دار الغرور، والترقي إلىٰ عالم النور، والأنس بالله والوحشة ممن سواه، وصيرورة جميع الهموم هماً واحداً، وفيه وفي الحديث: «إذا أحببتُ عبدي كنت سمعه الذي يسمع به» إلىٰ آخر ما يأتي ذكره.

ففيه أيضاً: ذكر بعض الشارحين: أن هذا مبالغة في القرب، وبيان لاستيلاء سلطان المحبة علىٰ ظاهر العبد وباطنه وسرّه وعلانيته، فالمراد: أني إذا أحببت عبدي جذبته إلىٰ محل الانس، وصرفته إلىٰ عالم القدس، فصيرت فكره مستغرقاً في أسرار الملكوت، وحواسّه مقصورة علىٰ اجتذاب أنوار الجبروت، فثبت حينئذ في مقام قدمه، وتميز بالمحبة لحمه ودمه إلىٰ أن تغيب عن نفسه ويذهل عن حسّه، حتىٰ أكون بمنزلة سمعه وبصره... الخ.

وفيه: وأتممت الشيء أكملته.

أقول: فالتام هو الذي لا نقص فيه من جميع الجهات من حيث أصله ولوازمه

---

١ ـ الزمر: ٦٥.

وآثاره.

وقيل: التام بمعنىٰ الكامل لغة، والتام الذي ليس بزايد ولا ناقص، والكامل الذي ليس بناقص، وقد يستعمل التام فيما ليس بناقص، والكامل في الزايد علىٰ التمام.

الأمر الثاني: في معنىٰ كونهم تامّين في محبته تعالىٰ.

وحاصله: أن النبي ﷺ هو الذي حاز تمامية الكمال، كما هو المستفاد من قوله تعالىٰ في حقّه ﷺ: ﴿... **رسول الله وخاتم النبيين**﴾[1] إذ الخاتمية تقتضي ذلك كما حقق في محله، مضافاً إلىٰ قوله تعالىٰ في حقّه ﷺ: ﴿**إنّك لعلىٰ خلق عظيم**﴾[2] والأئمة عليهم السلام حيث إنهم فروع له ﷺ في جميع شؤونه ﷺ فلا محالة هم التامون في الكمال المنتقل إليهم عليهم السلام منه ﷺ فإن صفاتهم عليهم السلام متحدة كلّاً ومتفرعة من أصلهم النبي ﷺ لقول علي عليه السلام: «أولنا محمد ﷺ وأوسطنا محمد ﷺ وآخرنا محمد ﷺ وكلّنا محمد ﷺ».

فهم عليهم السلام تامون في ذواتهم وفي صفاتهم، وفي أعمالهم وفي أفعالهم، وفي آثار أفعالهم، فهم عليهم السلام كما ينبغي فيما ينبغي، وهذا الكمال التام الحاصل لهم عليهم السلام لأجمعهم فإنما هو لأجل كونهم متصفين بكمال المحبة لله تعالىٰ، فهم مظاهر محبته تعالىٰ وتامّون فيها، أي لا يكون منهم ما ليس في المحبة ولا من المحبة ما ليس فيهم، بل هم المحبة كيف لا والمؤمن هو محل لمحبته تعالىٰ؟!

فعن أُصول الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث.. إلىٰ أن قال عليه السلام: وذلك قول الله عزوجل: ﴿**إن الله فالق الحبّ والنوىٰ**﴾ فالحبّ طينة المؤمنين التي ألقىٰ الله عليها محبته، والنوىٰ طينة الكافرين الذين نأوا عن كل خير، وإنما سمي النوىٰ من أجل أنه نأىٰ عن كل خير وتباعد منه».

---

١ ـ الأحزاب: ٤٠.

٢ ـ القلم: ٤.

وفي تفسير نور الثقلين عن تفسير علي بن إبراهيم: وقوله: ﴿إن الله فالق الحب والنوىٰ﴾، قال: «الحبّ ما أحبّه والنوىٰ ما نوىٰ عن الحق، وقال أيضاً: في قوله: ﴿إن الله فالق الحبّ والنوىٰ﴾ قال: الحب أن يفلق العلم من الأئمة والنوىٰ ما بعد عنه»، الحديث.

وفيه، عن تفسير العياشي، عن المفضل، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله: ﴿فالق الحب والنوىٰ﴾ قال: «الحب المؤمن وذلك قوله: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ والنوىٰ الكافر الذي نأىٰ عن الحق فلم يقبله».

وورد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة علىٰ المؤمنين أعزة علىٰ الكافرين﴾[1].

ففي تفسير البرهان: قال الطبرسي: وروي ذلك عن عمار وحذيفة وابن عباس، ثم قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قال: وروي عن علي عليه السلام أنه قال يوم البصرة: «والله ما قوتل أهل هذه الآية حتىٰ اليوم، وتلا هذه الآية».

أقول: قوله: وروي ذلك، إشارة إلىٰ ما قيل من: أن المراد من الآية هو أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه.

وفيه ومن طريق المخالفين قال الثعلبي في تفسير الآية ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ الآية، قال: «نزلت في علي عليه السلام».

أقول: فعلم أن علياً وكذلك الأئمة عليهم السلام بدليل الاشتراك هم الذين يحبونه تعالىٰ وكذلك المؤمن هو الحب لقوله تعالىٰ: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾.

فالاستشهاد منه عليه السلام بهذه الآية لبيان المصداق من أن المؤمن من ألقيت عليه المحبة منه تعالىٰ فهم عليهم السلام محل لمحبته تعالىٰ، وهم تامون في تلك المحبة أي لا يكون منهم ما ليس في المحبة، بل أفعالهم وذواتهم وصفاتهم متصفة بالمحبة ومن آثارها،

---

١ ـ المائدة: ٥٤.

وليس للمحبة شيء من الواقع إلّا وهو فيهم عليهم السلام كما لا يخفىٰ، وسيوضح ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

ومحبتهم عليهم السلام متعلقة بذاته تعالىٰ وبصفاته وبأفعاله فجميعها محبوبة لهم؛ لأنهم كما سيأتي قد شاهدوا وأدركوا جمالها وبهاءَها فلا محالة أحبوها، وحيث إنهم عليهم السلام مظاهر للمحبة بتمامها وشؤونها فهم المحبون في الله ولله وهم المحبوبون في الله ولله، وحقيقة هذا الحب ذاتي لهم ليست إلّا نور الله الأعظم، الذي ظهر في قلوبهم وأفئدتهم عليهم السلام خالصاً مخلصاً بحيث لا يوجد فيه (أي في قلوبهم) غير هذا النور من المحبة له تعالىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: أنهم عليهم السلام بحقيقتهم النورانية جبّلوا علىٰ محبته تعالىٰ بما لها من الحقيقة النفس الامرية، فلا محالة جبل الخلق بأجمعهم من المحبين والمبغضين علىٰ محبتهم عليهم السلام فالكل يحبونهم.

بيانه: أن الخلق بأنواعه وأقسامه بحيث لا يشذ منها شاذ مجبول وجار علىٰ ما أحبّه الله تعالىٰ من حيث المصلحة والملاك كما دلّ عليه قوله عليه السلام في الدعاء: «لا يخالف شيء منها محبتك»، وهذا لا ينافي قوله تعالىٰ: ﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر﴾[1] المستفاد منه عدم رضاه تعالىٰ بالكفر والكافر بل والمعاصي كما لا يخفىٰ، وذلك أنه تدلّ الآية علىٰ عدم رضاه تعالىٰ بالكفر وشؤونه من حيث هو هو، فلا يكون هو بنفسه محبوباً له تعالىٰ في عرض محبوبية الإيمان مثلاً.

وهذا لا ينافي كونه محبوباً بلحاظ الجزاء، وبلحاظ كونه عقوبة للعبد المختار (بالكسر) الكفر والمعصية علىٰ الإيمان والطاعة، فإن الانسان لا يحب ضرب ابنه من حيث هو هو كما يحب إكرامه، ولكن يحب ضربه تأديباً جزاءً لمخالفته كما لا يخفىٰ، فكذلك في الآية المباركة فهو تعالىٰ لا يحب الكفر وشؤونه لعباده من حيث هو

---

١ ـ الزمر: ٧.

هو، ولو في حال معصية العبد، وإن كان يحبه حينئذ بعنوان الجزاء كما لا يخفىٰ، وكيف كان فالكلّ جار في الوجود علىٰ حسب محبته تعالىٰ ذاتاً أو جزاءً.

ومن المعلوم أيضاً أن كلّ موجود مستفيض منه تعالىٰ بواسطتهم حيث علمت أن لهم الولاية التكوينية المتقدم شرحها.

ومن المعلوم أن كلّ أحد يحب المفيض عليه بالأصالة أو بالواسطة، نعم كثيراً ما يخطئون في التطبيق، فيرون غيره تعالىٰ أو غيرهم عليهم السلام المفيض أو الواسطة في الفيض، فهم بأجمعهم ولو أحبّوا الغير ظاهراً إلّا أنه بالدقة قد أحبّوا الله تعالىٰ والأئمة عليهم السلام فثبت أن الخلق يحبونهم سواء المحب والمبغض.

وببيان آخر: أنهم عليهم السلام لما كانوا قد جبلوا علىٰ حبّه تعالىٰ فلا محالة يحبّهم الخلق لحبهم الله، فإن الخلق لا محالة يحبون الله ويحبون من جبل علىٰ حبه، هذا مضافاً إلىٰ أن المحب يحبهم لكونه خلق من فاضل طينتهم كما تقدم، وأما المبغض فإنه يحبهم ذاتاً لا يجد فيهم عليهم السلام صفة يكرهها، ولا عيباً تنفّر منه الطباع، ولا ذنباً ينكره بعقله، بل المبغض لا يرىٰ شيئا من أحوالهم وكمالاتهم وصفاتهم الحميدة إلّا ويميل إليه قلبه كما ترىٰ ذلك من أحوال مخالفيهم.

ومجمل القول: إن كلّ صفة جميلة تحبها النفوس أو العقول فهي بجميع مراتبها كاملة تامة لا توجد إلّا فيهم عليهم السلام فلا يراهم أحد كذلك إلّا ويحبهم لما فيهم جميع ملاك المحبوبيّة، فلا يعارضهم أحد إلّا بحسده وإن أبغضهم فبحسده أيضاً، بل إن أعداءَهم إنما أبغضوهم لما رأوا فيهم كل محبوب ومرغوب فيه ومطلوب إليه، لا يمكنهم الاتصاف بها، وأحبوها بحاق قلوبهم وبحكم عقلهم وأبغضوهم، لما لا يمكنهم الاشتمال عليها، ولما لا يمكنهم أن يحبوهم في الظاهر أيضاً مع ما يرون فيهم ما يحبون، وإلىٰ هذا أشار الصادق عليه السلام في قوله عليه السلام ما معناه: «والله إنهم لا يقدرون علىٰ أن يحبّونا ولو قدروا لأحبّونا»، وكيف لا يكونون محبوبين للكل مع أنهم علماء حكماء فقهاء أتقياء كرماء أبرار مقربون زهّاد عبّاد شجعان رحماء أعزاء لله علىٰ

الكافرين أذلة على المؤمنين.

فتحصل: أنهم عليهم السلام لما جبلوا على محبته تعالىٰ، فلا محالة هم تامّون في محبته تعالىٰ، أي لا يعملون إلّا بمحبة الله، فهم عليهم السلام متقلبون بذواتهم وأكوانهم، وأعمالهم وأقوالهم، وأحوالهم وضمائرهم وظواهرهم، وفي أوامرهم ونواهيهم ودعائهم الخلق في محبة الله، لا يخرجون عنها أبداً، وهذا كمال الإخلاص في العبودية والعبادة، وهم بهذه الجهات حقيقة قوله تعالىٰ، وواقع قوله تعالىٰ، والموصوف بقوله تعالىٰ: **﴿وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾**[1] وهو دينهم عليهم السلام وولايتهم، وهو حقيقة محبتهم له تعالىٰ، وهو الإيمان، وهو الإسلام الخاص الذي هو الإسلام عند الله وهم عليهم السلام بهذه الأُمور كانوا تامّين في محبته تعالىٰ.

ومما ذكر علم: أنهم عليهم السلام علة الإيجاد علة فاعلية ومادية وصورية وغائية.

بيانه: أنه تعالىٰ إنما خلق الخلق؛ لكي يعرف كما دلّ عليه الحديث القدسي المشهور من قوله تعالىٰ: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف»، فالمعرفة هي العلة للخلق وكما دلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿وما خلقت الجن والانس إلّا ليعبدون﴾**[2] وعن الحسين عليه السلام كما تقدم: «أيها الناس إنّ الله ما خلق الخلق إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة غيره، قيل: يابن رسول الله ما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي تجب عليهم طاعته»، الحديث.

فعلم منه: أن الغاية للخلق هو المعرفة التي تترتب عليها العبادة، التي ينبغي أن يعبد الله تعالىٰ بها، فالغاية هو المعرفة والعبادة عن معرفة، وهذه المعرفة بصريح قوله عليه السلام ليست إلّا معرفة الإمام عليه السلام وذلك كما تقدم ليس إلّا لأجل أنهم عليهم السلام محال

---

١ ـ البينة : ٥.

٢ ـ الذاريات : ٥٦.

المعارف الإلهية، بل هم نفسها كما علمت، فيعلم من المجموع أنهم عليهم السلام متعلق الحب الالهي ومظاهره؛ لما هم عين معارفه حيث إنهم عليهم السلام عين أسمائه الحسنىٰ التي عرف الله تعالىٰ بها، فهم عليهم السلام المحبوبون له تعالىٰ ومظاهر الحب له تعالىٰ، ومعنىٰ أنهم مظاهر حبّه أن المحبة التي هي العلة الذاتية للخلق، فإن المعرفة وإن كانت هي العلة إلّا أنها بما هي محبوبة له تعالىٰ تكون علة وإلّا فلا كما لا يخفىٰ.

وكيف كان إن المحبة بحقيقتها هي العلة للخلق ولا ريب في أن وجود أي موجود يقوم بالعلة الفاعلية والمادية والصورية والغائية كما حقق في محلّه، فمعنىٰ كون المحبة علة للخلق بأقسامها أن العلة الفاعلية ليست إلّا مظهراً للمحبة وهكذا البقية.

وحينئذ نقول: فهم عليهم السلام بما هم حقيقة المحبة له تعالىٰ، ومظهرها العلة الفاعلية للخلق، بمعنىٰ أن كل موجود وجدت بالمشية والمشية ظرفها قلوبهم عليهم السلام وهي شأن من شؤون المحبة، فالمحبة الالهية اقتضت المشية القائمة بنفوسهم عليهم السلام.

فالمشية وإن كانت علة فاعلية بمظاهرها إلّا أنها بالدقة تكون شأناً للمحبة، فالمحبة هي العلة الفاعلية في الحقيقة، وهي ليست إلّا قلوبهم المطهّرة فهم عليهم السلام العلة الفاعلية للخلق، غاية الأمر بإذن الله تعالىٰ حيث إنهم عليهم السلام بجميع شؤونهم لا يفعلون إلّا ما يشاء الله، وما أمرهم الله تعالىٰ في الافعال الجزئي والكلي كما لا يخفىٰ، وأيضاً هم عليهم السلام العلة المادية، أما بالنسبة إلىٰ أرواح الشيعة فقد علمت أنها خلقت من فاضل طينتهم النورانية المتقدم شرحها، وأما بالنسبة إلىٰ أبدانهم وكذلك بالنسبة إلىٰ ساير المخلوقين بل وساير الموجودين في الكون، فلأجل أن جميع الموجودات خلقت من أنوار وجودهم حيث إنهم الأسماء الحسنىٰ له تعالىٰ.

ومن المعلوم أن كل موجود موجود بالاسم الإلهي وبحصّة منه كل بحسب ما يخصّه حدّاً وشروطاً كما يومي إليه قوله عليه السلام: «وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء» وإليه تشير الأحاديث الواردة في خلقتهم النورانية، وأن كل موجود مخلوق

منهم كما تقدم بعضها، فمادة الأشياء والخلق موجودة منهم عليهم السلام بهذا المعنىٰ.

وأيضاً هم عليهم السلام العلة الصورية؛ لأن كلّ موجود محدود ومصور بحدود وصور، كما اقتضته الحكمة الإلهية وتعلّقت به الارادة الربانية.

ومن المعلوم أنهم عليهم السلام محل الحكم الإلهي، وقلوبهم مهبط الإرادة الربانية، كما يشير إليه في الصحيح من الزيارة الواردة عن الصادق عليه السلام للحسين عليه السلام من قوله عليه السلام: «إرادة الرب في مقادير أُموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم»، وتقدم أيضاً بيانه.

فهم عليهم السلام العلة المادية والصورية للخلق بنحو اقتضته المحبة الإلهية التي هم مظاهرها.

وأيضاً هم عليهم السلام العلة الغائية للخلق، وهذا أمر ظاهر لا ينكره أحد، كما دلت عليه الأحاديث القدسية من قوله تعالىٰ: «لولاك لما خلقت الأفلاك»، إلّا أن الكلام في معنىٰ ذلك فنقول: إنّ له معنيين:

الأول: أن جميع الموجودات من الفلك والملك والانس والجن وساير الموجودات إنما خلقت لأجلهم أي لأجل تنعّمهم عليهم السلام وتلذذهم وتعبّدهم وتكاملهم، فالكلّ خلقوا لأجلهم أي مقدمة لنيلهم عليهم السلام مقاصدهم العالية بالنحو الأتم وبالوجه الأيسر، فالكلّ يعطي فائدته إليهم ويستفيدون منه في بلوغ مطالبهم ونيل مقاصدهم، ولهذا شواهد كثيرة في الأخبار كما لا يخفىٰ، مضافاً إلىٰ ما تقتضيه قاعدة إمكان الإشراف كما حقق في محله.

الثاني: أنه تعالىٰ ما خلق الخلق إلّا لمعرفته ولاظهار قدرته وعظمته، ومن المعلوم أن كل موجود محل لمعرفته تعالىٰ ومظهر لقدرته وعظمته، إلّا أنه ليس في الوجود موجود يكون مظهراً لمعرفته تعالىٰ ولقدرته ولعظمته مثل ما يكون لمحمد وآله الطاهرين؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لله آية أعظم مني».

فعلم: أن الغاية القصوىٰ للخلق التي هي المعرفة الكاملة التامة، ليست إلّا ظاهرة في ذواتهم المقدسة بالنحو الأتم الأكمل فهم عليهم السلام العلة الغائية للخلق أي أن المقصود الغائي له تعالىٰ في الخلق لا يكون إلّا فيهم عليهم السلام كما لا يخفىٰ.

ولعمري إن هذا ظاهر لمن تتبع الآثار الواردة عنهم بنحو أبين من الشمس، وحيث إنهم كذلك فهم عليهم السلام «التامين» في محبته تعالىٰ.

ثم إنه لابد من أن يعلم أن محبوبهم عليهم السلام هو الذات المقدسة لذاته، المستجمعة لملاكات المحبوبية وأسمائه تعالىٰ، لحسنها وأفعاله تعالىٰ لكمالها؛ وذلك لما تقدم من أن ملاك المحبوبية بأجمعها مستجمعة فيه تعالىٰ ذاتاً وصفة وفعلاً، وأنه تعالىٰ أجمل من كل جميل ذاتاً وصفة وفعلاً، والوجه فيه: أن النقص في حقه تعالىٰ غير متصوّر لا من حيث الجمال، ولا من حيث الجلال، ولا من حيث أي أمر مرغوب فيه، فهو تعالىٰ بذاته وصفاته وأفعاله مستغرق في كمال العزّ والجمال والجلال بنحو لا نهاية له ولا انقطاع، والآيات والأحاديث والأدعية وبيانات الأكابر من أهل المعرفة مشحونة في بيان ما قلنا، فلابد من المراجعة إليه، وبيانه مفصّلاً موكول إلىٰ محله.

ثم إنهم عليهم السلام لما كانوا في مقام المشاهدة لهذا الجمال والجلال الإلهي، ولتلك الصفات الحسنة والأفعال الكاملة بنحو لا يكون أحد في مستواهم، ولا أحد أقرب إليه تعالىٰ منهم، فلا محالة هم عليهم السلام مبتهجون به تعالىٰ لتلك المشاهدة، وتامّون في محبته بنحو لا يتصور فوقه محبة، وسيجيء قريباً في الأمر الآتي مزيد بيان وتوضيح لهذه الأُمور إن شاء الله تعالىٰ.

الأمر الثالث: اِعلم أن الحب عبارة عن الميل إلى الشيء الملذّ، وكلما كان الملذّ أقوىٰ في اللذاذة كان الميل أقوىٰ إلىٰ أن يصل حدّ الافراط فيسمّىٰ عشقاً؛ لذا قيل: إن الإفراط في كلّ شيء مذموم إلّا في الحبّ، وهذا الميل إنما يحصل بعد المعرفة بذلك الشيء الملذ الجميل، وهذه المعرفة إما بالحواس الظاهرة أو بالعقل، وكلما كان الدرك والمعرفة أقوىٰ كان الحب أقوىٰ والبصيرة الباطنة أقوىٰ من البصر

الظاهري؛ لأن القلب أشدّ إدراكاً من العين كما لا يخفىٰ، ولذا كانت المعاني الجميلة المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة، فلا محالة تكون لذة القلوب بما تدركه من الأُمور الشريفة الجميلة الإلهية التي تجلّ عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ.

ولذا نرىٰ أن الطباع السليمة والعقول الصحيحة أكثر ميلاً إلىٰ مدركات العقل من مدركات العين، وعليه فحب الجمال والحسن؛ المعنويين والظاهريين مطلوب لكل عاقل بصير مدرك لذلك الجمال والحسن لما يدرك منهما اللذة الروحية، واللذة بنفسها محبوبة لنفسها لا لغيرها، بل كل شيء إنما يكون محبوباً لما يرىٰ فيه من الجمال فهو مطلوب بالغير، بخلاف الجمال فإنه محبوب بنفسه وإن لم يستفد منه قضاء وطر كالخضرة والماء الجاري فهما محبوبان لا للشرب أو الأكل بل لأنفسهما، فلا وجه لما قيل من أنَّ الجمال محبوب لأجل قضاء الشهوة فإن هذا (أي قضاء الشهوة) مطلوب آخر.

وبعبارة أُخرىٰ: إن قضاء الوطر مطلوب لنيل لذة الجمال، لا أن محبوبية الجمال لأجل نيل قضاء الوطر؛ ولذا كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجاري وذلك لاستلذاذ النظر إليهما، بحيث ربما تنفرج عن الناظر الغموم والهموم فيحبهما الانسان لا لطلب وراء حظ النظر ولذا قيل:

ثلاثة يذهبن عن قلبي الحزن   الماء والخضراء والوجه الحسن

وروي: «عليكم بالوجوه الحسان» فإن هذه الأُمور مطلوبة بنفسها لا لشيء آخر مثل قضاء الوطر مثلاً.

إذا علمت هذا فاعلم أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالىٰ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم، فمن شاهد جمال وجهه وجلال عظمته وأدركهما بعقله وشاهدهما ببصيرته القلبية لا تكاد تؤثر عليه لذة أُخرىٰ إلّا من حرمُ هذه اللذة. فإذاً لا ينكر

حبّ الله إلّا من قعد به القصور في درجة البهائم، فلم يجاوز إدراكه الحواس، ودعوىٰ أن المحبة لا تكون إلّا مع الجنس والمثل، وحيث ان الخلق لا يجانس الخالق ولا يماثله فلا محالة لا يحبه وإنما حبّه له عبارة عن المواظبة علىٰ طاعة الله عزوجل فدعوىٰ باطلة، ولعل قائلها توهم أن محبة الله كمحبة أهل الشهوة لمماثلهم في قضاء الوطر جهلاً عن أن هذا في الجمال المدرك بالحواس كما تقدم.

وأما الجمال المدرك بالعقل خصوصاً مع المعرفة القويّة فهو جمال ملذّ لا يقاس به غيره إلّا من قعد به القصور في درجة الحيوانات واللذات النفسانية، فإذاً لا لذة أشد من معرفته تعالىٰ، وإدراك جماله وجلاله بل نقول: إن المحبة له تعالىٰ هي الغاية القصوىٰ من المقامات المندوبة إليها، والذروة العلياء من الدرجات فما بعدها مقام إلّا وهو ثمرة من ثمراتها كالشوق والانس، ولا قبلها مقام إلّا وهو مقدمة من مقدماتها كالصبر والزهد وساير المقامات.

نعم: قلّ من العقول ما وصل إليها إلّا أنه مع ذلك لا تخلو القلوب عن الإيمان بإمكانها، بل وعن الوجدان بأصلها وحقيقتها المبهمة في القلب كيف وكل قلب جبل علىٰ حبّ منعمه كما حقق في محلّه.

ولعمري إن من أنكر حبّ الله فلا محالة ينكر الانس به تعالىٰ والشوق إليه تعالىٰ، ولذة المناجاة معه تعالىٰ وهذا الجاهل بعيد عن حقيقة العبادة والعبودية، محروم عن الألطاف الربوبية في الدنيا والآخرة، ومحروم عن لذة العبادة له تعالىٰ كما لا يخفىٰ، مع أن الأحاديث متكاثرة علىٰ أن أولياء الله يأنسون به تعالىٰ، ويلتذون بعبادته، ويشتاقون إليه تعالىٰ.

وكيف يمكن إنكار ذلك مع أن الأحاديث والآيات أثبتت إمكان محبته تعالىٰ بل وقوعه بما لها من الآثار.

أما الآيات: قوله عزوجل: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿الذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم﴾ إلىٰ قوله:

﴿أحبّ إليكم من الله ورسوله﴾[1]، وهكذا غيرها.

وأما الأحاديث: فكثيرة جداً نذكر بعضها فمنها: ما عنه ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما». وقال ﷺ في دعائه: «اللهم أرزقني حبّك وحبّ من يحبّك، وحبّ ما يقربني إلىٰ حبّك، واجعل حبّك أحبّ إليّ من الماء البارد».

وفي الخبر المشهور: أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاء لقبض روحه: «هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحىٰ الله إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض».

وفي مناجاة موسىٰ: «يابن عمران كذب من زعم أنه يحبني، فإذا جنّه الليل نام عني، أليس كلّ محبّ يحب خلوة حبيبه؟ أنا ذا يابن عمران مطّلع علىٰ أحبائي، إذا جنّهم الليل حولت أبصارهم إليّ من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبونني عن المشاهدة، ويكلمونني عن الحضور، يابن عمران هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل فإنك تجدني قريباً».

وروي: أن عيسىٰ عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم، وتغيّرت ألوانهم، فقال لهم: «ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟

فقالوا: الخوف من النار.

فقال: حقّ علىٰ الله أن يؤمن الخائف، ثم جاوزهم إلىٰ ثلاثة أُخرىٰ، فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟

قالوا: الشوق إلىٰ الجنة.

قال: حقّ علىٰ الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم جاوزهم إلىٰ ثلاثة أُخرىٰ فإذا هم

---

١ ـ التوبة : ٢٤.

أشدّ نحولاً وتغيراً، كأن علىٰ وجوههم المرايا من النور فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟

قالوا: حبّ الله عزوجل.

فقال: أنتم المقربون أنتم المقربون».

وعن علل الشرايع، عن نبينا ﷺ: «إن شعيباً عليه السلام بكىٰ من حبّ الله عزوجل حتىٰ عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم بكىٰ حتىٰ عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم بكىٰ حتىٰ عمي، فردّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحىٰ الله إليه: يا شعيب إلىٰ متىٰ يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلىٰ جنتك، ولكن عقد حبّك علىٰ قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسىٰ بن عمران عليه السلام».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت علىٰ عذابك، فكيف أصبر علىٰ فراقك».

وعن الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتىٰ لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلىٰ غيرك، وقال: يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين».

وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى السجاد عليه السلام: «وعزّتك لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها وآنست ببشارتها، ومحال في عدل أقضيتك أن يسدّ أسباب رحمتك عن معتقدي محبتك».

وفي المناجاة الثانية عشرة للسجاد عليه السلام: «الهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم»، الدعاء.

وفي كثير من تلك المناجاة ما يقرب من هذه المضامين فراجعها. والأحاديث والأدعية أكثر من أن تحصىٰ وقد دلّت علىٰ أن أولياء الله متصفين بمحبة الله، وقد بينوا آثارها في أدعيتهم ومناجاتهم، فثبت أن محبة الله تعالىٰ أمر ثابت مسلم، وكم فرق بين من أنكر تعلق المحبة بالله تعالىٰ بدعوىٰ واهية كما تقدم وبين من قال: إنها أي المحبة مختصة لله تعالىٰ، ولا ترجع إلىٰ النفس؛ لأن النفس بل جميع الصفات لا تلحظ في هذه المحبة، وإنما تلحظ الذات البحت المقدسة له تعالىٰ؛ وذلك لأن حبّ الله الذي هو نار لا تمر بشيء إلّا أحرقته.

كما عن مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام يجعل المحب له تعالىٰ مجرداً عن جميع السبحات، وساير أنواع الجمال حتىٰ عن التجريد، فحينئذ لا يجد المحب نفسه لترجع المحبة إليها (أي إلىٰ نفسه) بل هو فان عنها بالمحبة له تعالىٰ كما حقق في محلّه.

ثم إن كون المحبة لله هل هي تتعلق بالذات أو بالصفات؟ ربما يقال بالثاني بدعوىٰ أن الذات البحت لا يمكن الوصول إليها بجهة من الجهات إلّا من نحو ما وصف به نفسه، وأمر به من تكليفه، ففي الحقيقة محبة الذات راجعة إلىٰ محبة الصفات، ولا ينافي هذا ما قيل من: أن المحبة إنما ترجع إلىٰ النفس فلابد من رجوعها إلىٰ الذات؛ لأن هذه الكلية بالنسبة إلىٰ غيره تعالىٰ، وأما بالنسبة إليه تعالىٰ فلمكان عدم إمكان الوصول إلىٰ الذات، فلا محالة ترجع المحبة إلىٰ ما ظهر منه تعالىٰ من الصفات.

ولكن فيه أنه وإن لم يمكن الوصول إلىٰ الذات، وإلىٰ معرفتها بالكنه، إلّا أنه بعدما عرّف الله تعالىٰ نفسه بالصفات، فالروح الإنساني بمعونة عقله يحب الذات بما تقع عليه هذه الصفات، وهذا لا يستلزم معرفة الكنه حتىٰ يقال باستحالته لاستحالتها، هذا مع أن الظاهر من الآيات والأحاديث والأدعية هو محبة الذات، حيث إن المخاطب المحبوب فيها هو من نحو قوله: لقد أحببتك، وقوله: عقد حبّك علىٰ قلبي، وقوله: من زعم أنه يحبني، وهذا ظاهر في كون المحبوب هو ذاته المقدسة

علىٰ ما هي عليها، وإن كانت معروفة من طريق الصفات التي عرّف نفسه بها كما لا يخفىٰ.

ويدل علىٰ هذا ما يجده المتعبد المحب، فإنه إذا توجّه الداعي العارف إلى الذات تراه وقد تغيّب عن نفسه ووجدانه صار فانياً فيه تعالىٰ، كأنه لا يدرك إلّا محبوبه، فلا توجه له بالصفات وإن كان توجهه إليه تعالىٰ من طريق الصفات، فإن الذي ينظر في المرآة يرىٰ صورة ولا نظر له إلىٰ المرآة كما لا يخفىٰ، فالصفات كالمرآة للتوجه إليه تعالىٰ ولو بوجه ما كما لا يخفىٰ.

وإليه يشير قوله:

حين تغيّبت بدا حين بدا غيّبني

فيعلم من هذا: أن المحبه متعلقة بالذات من طريق الصفات التي عرّف بها نفسه، وهنا كلام لا بأس بالاشارة إليه وهو: أنه وقع الكلام بين الأعلام في أنه هل يصح اتصاف المحب في شدة حبّه بالعشق، فيكون عاشقاً له تعالىٰ أم لا؛ بل العشق مختص بالمعاشقة النفسانية الحيوانية؟ فنقول:

قال في المجمع: في الحديث ذكر العشق وهو تجاوز الحدّ في المحبة. يقال: عشِقَ عَشقاً من باب تعب، والاسم العشق (بالكسر).

إلىٰ أن قال: وعن الغزالي: معنىٰ كون الشيء محبوباً، هو ميل النفس إليه فإن قوي سمّي عشقاً، وعن جالينوس الحكيم: العشق من فعل النفس، وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاث مساكن: التخيل في مقدمه، والفكر في وسطه، والذكر في آخره، فلا يكون أحد عاشقاً حتىٰ إذا فارق معشوقه، لم يخل من تخيّله وفكره وذكره، فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال قلبه وكبده، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والذكر والفكر للمعشوق، فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به، ومتىٰ لم يكن كذلك لم يكن عاشقاً. فإن أُلهيَ العاشقُ خلت هذه

المساكن ورجع إلى الاعتدال، إنتهىٰ.

أقول: قوله في الحديث إشارة إلىٰ ما رواه في الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده وتفرغ لها، فهو لا يبالي علىٰ ما أصبح من الدنيا علىٰ عسر أم علىٰ يسر».

قال المجلسي رحمه الله في مرآة العقول: وعشق من باب تعب، والاسم العشق وهو الإفراط في المحبة، أي أحبّها حبّاً مفرطاً من حيث كونه وسيلة إلىٰ القرب، الذي هو المطلوب الحقيقي، وربما يتوهم أن العشق مخصوص بمحبة الأُمور الباطلة، فلا يستعمل في حبّه سبحانه وما يتعلق به، وهذا يدل علىٰ خلافه وإن كان الأحوط عدم إطلاق الأسماء المشتقة منه علىٰ الله تعالىٰ، بل الفعل المشتق منه أيضاً بناءً على التوقيف.

قيل: ذكرت الحكماء في كتبهم االطبيّة : أن العشق ضرب من الماليخوليا والجنون والأمراض السوداوية، وقرروا في كتبهم الإلهية أنه من أعظم الكمالات والسعادات، وربما يظن أن بين الكلامين تخالفاً، وهو من واهي الظنون، فإن المذموم هو العشق الجسماني الحيواني الشهواني، والممدوح هو الروحاني الإنساني النفساني، والأول يزول ويفنىٰ بمجرد الوصال والاتصال، والثاني يبقىٰ ويستمر أبد الآباد وعلىٰ كلّ حال.

ولنعم ما قاله المجلسي من: أن المذموم من العشق هو الجسماني دون الروحاني منه فإنه ممدوح.

أقول: إن من كانت سريرته طاهرة من الصفات الرذيلة، وكانت متصفة بالصفات الحميدة، ومن كمل عقله وصفا ذهنه، ولطف حسّه وصح تمييزه يرىٰ بنور الباطن فرقاً بين العشق المجازي أي المتعلق بالماديات وخصوصاً بالصور الحسان الجميلة، وبين العشق الحقيقي المتعلق بالمعنويات خصوصاً بالله تعالىٰ،

وذلك لأن العشق المجازي من آثار النفس أي الحقيقة الانسانية المتعلقة بعالم الماديات والمنصرفه عن المعنويات وعنه تعالىٰ فلذته لذة نفسانية.

والعشق النفساني إذا لم يصل صاحبه إلىٰ المعشوق يكون أثره في النفس، بحيث يوجد فيها حرارة توجب تشويشاً واضطراباً في النفس فهو مرض لها، ويسمىٰ هذا المرض بالماليخوليا كما علمت، وأثره بقاء النفس وتقويتها وهيجانها إلىٰ أن تصل إلىٰ المعشوق، وليس فيه (أي هذا الهيجان) تحصيل رضا غيره، بل لا يرىٰ ولا يريد إلّا الوصول إلىٰ المعشوق؛ لتسكين النفس وإرضاء نفسه، وهذا بخلاف العشق الحقيقي المتعلق به تعالىٰ فإن أثره ليس إلّا إفناء نفسه، وليس في قلب صاحبه اضطراباً وحرارة لأجل الوصول إلىٰ ما يحبه لنفسه كما كان في العشق المجازي.

بل لو وجد فيه حرارة وهيجان فإنما هي للوصول إلىٰ محبوبه بإفناء نفسه، فكم فرق بين الميل والعشق إلىٰ شيء للوصول إلىٰ تحصيل رضا نفسه وبقائها، وبين الميل والعشق إلىٰ شيء للوصول إلىٰ المحبوب بإفناء نفسه.

وبعبارة أُخرىٰ: أن في العشق المجازي حبّ النفس، وما يرجع إليها في ظرف بقاء النفس، وفي الحقيقي حبّ المعشوق وما يرجع إليه في ظرف إفناء النفس، فتأمل تعرف حقيقة الأمر إن شاء الله.

والذي ينبغي أن يقال: إن تفسير الألفاظ لابد من أن يكون بدون النظر إلى المصاديق، فإن بيان المعاني أمر والتطبيق علىٰ المصاديق أمر آخر ربما يخطأ العوام في التطبيق بل والخواص فنقول: الجامع بين الحب والعشق هو الميل فالحبّ هو الميل بدون الافراط كما علمت، فإذا وصل حدّ الإفراط صار عشقاً.

ثم إن المحبة والعشق من حيث هما مفهومان لا يوصفان بمدح ولا ذمّ، وليستا كصفتي العدل والظلم حيث إنهما بنفسهما متصفان بالمدح والذم، بل إنما يوصفان بهما باعتبار المتعلق، فإن كان ممدوحاً كان الحبّ والعشق ممدوحاً، وإن كان مذموماً كانا مذمومين.

فحينئذ نقول: إن كان المراد من العشق هو الميل المفرط، فما الذي يشينه إذا تعلق به تعالىٰ؟ وحينئذ فهل المراد منه إلّا ما هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿والذين آمنوا أشد حبّاً لله﴾، ومن قوله ﷺ: «واجعل قلبي بحبك متيماً»، أي مذلّلاً، ومن قوله ﷺ: «فعانقها وأحبها بقلبه»، فإن المعانقة القلبية هو الإفراط في المحبة؟.

وما ذكره جالينوس في معنى العشق لا إشكال فيه، وإن انطبق على المحبة المفرطة المتعلقة به تعالىٰ، فإن العشق الذي هو من فعل النفس بما له من الآثار من الامتناع عن الطعام والشراب والنوم، ومن مداومة تخيل المحبوب وذكره وفكره إذا تعلق به تعالىٰ لا نرىٰ فيه مانعاً، بل نرىٰ كثيراً من الأخبار قد حثّت عليه بقوله ﷺ في الحديث السابق: «فعانقها وأحبها بقلبه» أي كان دائماً متوجهاً إليها قلباً وباشرها بجسده (أي عمل بها) وصرف أوقاته فيها وتفرغ لها فهو لا يبالي.. الخ، أي أعرض عن غيرها، بل صرف همّه وجميع شؤونه فيها ولم يبالِ بغيرها، وهذه الأوصاف من لوازم تخيّل المحبوب وصرف الذكر والفكر.

فيه وفي مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: «المشتاق لا يشتهي طعاماً، ولا يلتذ شراباً، ولا يستطيب رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوي داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ليناً، ولا يقرّ قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً بأن يصل إلىٰ ما يشتاق إليه، ويناجيه بلسان شوقه معبراً عما في سريرته كما أخبر الله تعالىٰ عن موسىٰ بن عمران في ميعاد ربّه بقوله: وعجلت إليك ربّ لترضىٰ، وفسّر النبي ﷺ عن حاله: أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهىٰ شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلىٰ ربّه»، الحديث.

فانظر إلىٰ هذه الجُمل وتدبّر في معانيها وتبصّر، تجد أن المشتاق الذي هو عنوان ملازم للعاشق كيف يكون حاله مع محبوبه الحقيقي جلّ وعلا.

وأما ما ذكره المجلسي رحمه الله عن الحكماء في كتبهم الطبية من: أن العشق ضرب من الماليخوليا والجنون والأمراض السوداوية، فلا يراد منه مطلق العشق، بل

المراد بمناسبة الموضوعات الطبية هو العشق المتعلق بالشهوات النفسانية والمعشوقات المادية، وإنما كان بين الماليخوليا والجنون والأمراض السوداوية باعتبار انطباقه على المعشوقات المادية، واختياره في مقام المحبة والعشق دون الحق والمحبوب الحقيقي، فإن هذا الاختيار السوء والتطبيق النفساني إنما هو من الماليخوليا والجنون ونحوهما.

فإن الروح إذا مرضت بالأمراض السوداوية المحركة للشهوات الحيوانية النفسانية، واتصف بالجنون أي بذهاب العقل المدرك للمحبوب الحقيقي يصير أسيراً لخيالات فاسدة تسمىٰ بالماليخوليا أي التصورات، التي لا واقع لها ولا يرغب فيها العاقل العارف، فهذه الحالات الردية التي صارت سبباً لتعليق العشق والمحبة بالمحبوبات النفسانية هو المراد من قول الحكماء، لا أنّ المراد مذمة العشق من حيث هو هو كما لا يخفىٰ، كيف وترىٰ أن أولياء الله بأجمعهم وبمراتبهم من النبيين والأئمة عليهم السلام وساير السابقين في طريقتهم لا يخلون من تلك الحالات التي ذكرت للعشق.

فإذا أردت فتفكر في جمل المناجاة الخمس عشرة وفيما تقدم عن مصباح الشريعة، وفي حالات أولياء الله العارفين العابدين، فإن الأحاديث والأدعية مشحونة بذكر تلك الحالات، وأظن أن عدم ذكر العشق في الأحاديث وإن ذكر قليلاً كما سمعته في حديث النبي صلى الله عليه وآله إنما هو لعدم فهم معناه خصوصاً من العوام الذين تنصرف أذهانهم من ذكره إلى العشق المجازي المذموم، وأما أهل المعرفة فلا، بل يرون أن كمالهم في تحصيل العشق كما علمت من المجلسي رحمه الله حيث قال: وقرروا في كتبهم الإلهية أنه من أعظم الكمالات والسعادات.

وذلك أنه لم يبلغ أحد إلى الدرجات العالية والكمالات التامة إلّا بالمحبة والعشق، كما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**والذين آمنوا أشد حبّاً لله**﴾ أي بقوة الحبّ له تعالىٰ متصفون، فبهذه القوة يسيرون حيث إن المحبة والعشق هو العامل الوحيد

القوي للسير إلى المحبوب والمعشوق، ولنعم ما قيل:

جامى ره خدا بخدا غير عشق نيست

گـفتيم والسـلام عـلىٰ تـابع الهـدىٰ

وقول بعضهم: إن تصديق العشق كلام صوفي، كلام موهوم ناشئ عن عدم فهم معناه الحقيقي.

نعم: المتصوفة (لعنهم الله) كـالعوام الأسراء للـشهوه يسـتعملون العشـق في المحبوب المجازي المادي المتعارف بينهم، ولهم آثار تختص بهـم بحـيث يـنبئ عـن بطلانهم كأعمال العشق من العوالم في المحبوبات المادية، وأين هذا من العشق الكائن لأولياء الله الذي فسر هو وآثاره في الأحاديث كما تقدم؟!.

نعم: لا بأس بالاحتياط بعدم إطلاق العشق ومشتقاته اسماً وفعلاً عليه تعالىٰ؛ لعدم الورود مع كون الأسماء توفيقية، وما يتراءىٰ من بعض العرفاء مـن إطـلاق العشق عليه تعالىٰ أو ساير مشتقاته، فإنما هو كإطلاق بعض المعاني عليه من الناس في مقام التخاطب والدعاء وإلقاء المعاني الجزئية حسب ما يقتضيه الحال في مقام ندائه كما لا يخفىٰ، وإن أرادوا غير ما ذكرنا فمردود جداً لما تقدم.

إذا علمت هذا وتفطنته بحقيقته فاعلم: أن المقصود من قوله عليه السلام: «والتامين في محبة الله»، أنهم لم يتركوا لحقيقة المحبة إلّا وقد اشتملوا بها واتصفوا بها، فـبلغوا في المحبة إلىٰ حدّ الإفراط، وقد علمت أن الإفراط في كـلّ شيء مـذموم إلّا في المحـبة خصوصاً بالنسبة إليه تعالىٰ، وهذا المعنىٰ (أي المحبة التامة) هي حقيقة العشق وإن لم يعبّر عنه بالعشق إلّا أنه هو هو حقيقة، فإذا كانوا عليهم السلام كـذلك فـلازمه أنهـم عليهم السلام فانون فيه تعالىٰ.

بيانه: أن العشق والمحبة ليست إلّا ظهور جمال المحـبوب والمـعشوق في قـلب المسمىٰ بالعاشق، فالمحبة والعشق ينشآن عن المحبوب والمعشوق فتقعان في قـلب

العاشق، ويتمكّنان فيه بحيث لا يبقىٰ للعاشق أثر يستند إلىٰ نفسه، بل ليس هو حينئذ إلّا فانياً في المعشوق، بل ليس في العاشق إلّا ظهور العشق أي ظهور آثار جمال المحبوب في طرف قلب العاشق. في الحقيقة إطلاق معنىٰ العشق علىٰ العاشق عرضي لا ذاتي، فإن الخلق حقيقتهم فقر محض، فما ظهر فيهم فمنه تعالىٰ، فالعاشق لا يصدر منه حينئذ إلّا ما هو آثار العشق الطاري عليه من المعشوق.

وبعبارة أُخرىٰ: إلّا آثار جمال المحبوب فتماس حقيقة العاشق بآثار جمال المعشوق يلتذّ التذاذاً، ولا يجد معرفة له تعالىٰ، حينئذ لا يمكن أن يتصور أو يدرك بالحواس ولا بالعقل، وحينئذ لا يبالي العاشق أصبح بيسر أو بعسر كما أُشير إليه في المروي عنه عليه السلام كما تقدم؛ وذلك لفنائه عن نفسه بل لا يشتهي غير الالتذاذ من جمال محبوبه كما تقدم من قوله عليه السلام: «إنه (أي موسىٰ عليه السلام) ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهىٰ شيئاً من ذلك»، فإن عدم اشتهائه شيئاً من ذلك يدل علىٰ فنائه عن نفسه، وعن مقتضيات الطبايع الموجودة في النفوس البشرية.

فحينئذ معنىٰ كونهم عليهم السلام تامّين في محبة الله أنهم جاوزوا حدود الآثار والأفعال والصفات بالفناء عنها، وجاوزوا عن أنفسهم إلىٰ أن وصلوا بكلّهم إليه تعالىٰ، حتىٰ إنهم لا يرون شيئاً إلّا ويرون الله قبله ومعه وبعده، وإنما بقوا في هذا الحال بقوة المحبة والعشق له تعالىٰ، التي ترجع إلىٰ ظهور آثار الجمال منه تعالىٰ، الذي يرجع إلىٰ جذب الأحدية بجمالها لقلوبهم المطهرة إلىٰ النظر إلىٰ وجهه الكريم، فيالها من مقام ما ألذّه وما أمتعه وما أحسنه! فهم عليهم السلام دائماً مشاهدون لحضرة جماله، وهم عنده تعالىٰ بهذه العناية الإلهية كما تقدم الكلام فيه من قول الصادق عليه السلام في بيان قوله تعالىٰ: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته﴾[1].

ولذا نرىٰ أنهم عليهم السلام لم يبالوا بأيّ مصيبة وردت عليهم، بل يبتهجون بها، ولا يفرق عندهم بين المصائب والرغائب، ولا بين الشدة والرخاء وهكذا. وليس

---

١ ـ الأنبياء: ١٩.

صبرهم عليها إلّا لما هم فيه من مقام المشاهدة المذكورة، وأيضاً أنهم مشتغلون بعبادته تعالىٰ بأكملها وأشدّها وأحمزها مع كثرة اشتغالهم وابتلائهم بأهل زمانهم من أهل الظلم والجور، فكيف يمكن لأحد الثبات علىٰ تلك العبادات إلّا بتلك الألطاف الموجبة لنشاطهم وأُنسهم به تعالىٰ، ولا نرىٰ ولا يرىٰ في أحد حتىٰ في الأنبياء والملائكة المقربين ما يكون فيهم من هذه المشاهدة الإلهية كما سيجيء إن شاء الله بيانه عند قوله عليه السلام: «آتاكم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين».

ومن هنا يتضح معنىٰ قولهم عليهم السلام في زيارتهم: «من أحبّكم فقد أحبّ الله» فإن الظاهر فيهم ليس إلا ما هو آثار الله تعالىٰ، فمحبتهم ليس إلّا محبة تلك الآثار الإلهية، فلا محالة من أحبّهم فقد أحبّ الله كما لا يخفىٰ، وهذه المحبة بما هي راجعة إلىٰ مقام شهودهم عليهم السلام له تعالىٰ هو الأصل لمقام ولايتهم المطلقة التكوينية والتشريعية، حيث إنهم بهذه الصفة فانون عن النفس وباقون بالله وبجميع أسمائه، فهم مظاهر تلك الأسماء التي ملأت أركان كلّ شيء، فهم متصرفون بتلك الأسماء في الكلّ تشريعاً وتكويناً، وقد تقدم بيانه مفصلاً فراجع، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

قوله عليه السلام: والمخلصين في توحيد الله.

ففي المحكي عن المجلسي الأول رحمه الله قال: فإن أقصىٰ مراتب المحبة ينجرّ إلىٰ أن لا يرىٰ العارف إلّا الله، فإنه لا يرىٰ شيئاً إلّا ويرىٰ الله بعده في الابتداء، ثم معه ثم قبله ثم لا يرىٰ إلّا الله، ويرىٰ صفاته عين ذاته، بل يرىٰ جميع الذوات والصفات والأفعال متلاشية وفانية في ذاته وصفاته وأفعاله، بل لا يرىٰ فناءَه أيضاً كما قال:

ما وحّد الواحد من واحد   بل كلّ من وحّده جاحد

وكتبُ العارفين مشحونة في بيان هذه المراتب، والحقّ أنه لا يمكن بيانه، ومن لم يذق لم يدر، إنتهىٰ.

أقول: الكلام في شرح هذه الفقرة يقع في **مقامين**:

الأول: في معنى الخلوص.

والثاني: في معنى التوحيد، فنقول:

في المجمع: والخالص في اللغة كلّما صفىٰ وتخلّص، ولم يمتزج بغيره سواء كان ذلك الغير أدون منه أم لا، إلىٰ أن قال: وخالصه في المودة أي صافاه فيها، وخلاصة الشيء جيّده، وما صفي منه مأخوذ من خلاصة السمن، وهو ما يلقىٰ فيه تمر أو سويق؛ ليخلص من بقايا اللبن، وخلص الشيء من التلف من باب قعد خلوصاً وخلاصاً سلم ونجا وخلص الماء من الكدر صفي.. الخ.

فالمخلصين (إن قرِئ بالكسر) فمعناه الذين أخلصوا في توحيد الله، أي لم يمتزجوا فيه ما ليس من التوحيد في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم، وإن قرِئ بالفتح فمعناه الذين أخلصهم الله تعالىٰ واختارهم لتوحيده، فهم مظاهره حقيقة كما سيجيء بيانه.

وبعبارة أُخرىٰ: الخلوص بمعنى الصافي إذا عدّي بباب الأفعال، فالمخلص منه علىٰ صيغة اسم الفاعل معناه من يخلص الدين والطاعة لله تعالىٰ، وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[1] وعلىٰ صيغة إسم المفعول، يراد منه من ثبت له الخلوص واتصف به فهو مخلص (بالفتح) أي أخلصه الله تعالىٰ، ثم إنّ كلّاً منهما يتعدد بتعدد متعلقه من العبادة والصفات الحميدة والأفعال الحسنة، ويجمع الكل الخلوص في التوحيد فإن من أخلصه الله في التوحيد فقد أخلصه في جميع الأُمور؛ لاستلزام الخلوص في التوحيد الخلوص فيها.

وإلى الثاني أُشير في قوله تعالىٰ: ﴿إلّا عباد الله المخلصين﴾ في موارد عديدة في القرآن الكريم، فهنا **مقامان**:

الأول: مقام الإخلاص للدين والتوحيد.

---

١ ـ البينة : ٥.

والثاني: مقام الخلوص في التوحيد.

فنقول: الإخلاص هو تجريد النية عن الشوب، وأعلاها إرادة وجهه تعالىٰ.

قيل: (كما عن المحقق الكاشاني) وورد في حقيقته أن تقول: ربي الله ثم تستقم كما أُمرت، تعمل لله لا تحب أن تحمد عليه، قال الله تعالىٰ: **﴿ألَا لله الدين الخالص﴾**.

فعن الكافي، عن ابن مسكان، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله تعالىٰ: **﴿حنيفاً مسلماً﴾** قال: «خالصاً مخلصاً ليس فيه شيء من عبادة الأوثان».

وفيه، بإسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «طوبىٰ لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشتغل قلبه بما ترىٰ عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أُذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره».

وفيه، بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزوجل: **﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾** قال: «ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة، ثم قال: الإبقاء علىٰ العمل حتىٰ يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزوجل، والنية أفضل من العمل ألا وإن النية هو العمل ثم تلا قوله عزوجل: **﴿قل كلّ يعمل علىٰ شاكلته﴾**، يعني علىٰ نيّته».

وفيه بهذا الإسناد قال: سألته عن قوله الله عزوجل: **﴿إلّا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾** قال: «القلب السليم الذي يلقىٰ ربّه وليس فيه أحد سواه، قال: وكلّ قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط، وإنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة».

وفيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوماً إلّا زهّده الله في الدنيا وبصّره داءَها ودواءَها، وأثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه ثم تلا: **﴿إن الذين اتّخذوا العجل سينالهم غضب من ربّهم وذلة في الحيوٰة الدنيا وكذلك نجزي المفترين﴾** فلا ترىٰ صاحب بدعة ومفترياً على الله وعلىٰ رسوله وعلىٰ أهل بيته (صلوات الله عليهم) **إلّا ذليلاً**»،

الحديث.

ثم إن صفة الإخلاص تعرف بالتفكر في صفاته وأفعاله والمناجاة، إنه كيف يوجدها ويتصف بها، فالطريق إلىٰ الإخلاص هو كسر خطوط النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك علىٰ القلب، وكم أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالىٰ ويكون فيها مغروراً؛ لأنه لا يدري وجه الآفة.

فيه وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: «الإخلاص يجمع فواضل الأعمال، وهو معنىٰ مفتاحه القبول وتوقيعه الرضا، فمن تقبل الله منه ورضي عنه فهو المخلص وإن قلّ عمله، ومن لا يتقبل الله منه فليس بمخلص وإن كثر عمله اعتباراً بآدم عليه السلام وإبليس، وعلامة القبول وجود الاستقامة ببذل كل المحاب مع إصابة علم كل حركة وسكون، والمخلص ذائب روحه وباذل مهجته في تقويم ما به العلم والأعمال والعامل والمعمول بالعمل؛ لأنه إذا أدرك ذلك فقد أدرك الكل، وإذا فاته ذلك فاته الكل، وهو تصفية معاني التنزيه في التوحيد».

كما قال الامام (الأول خ): «هلك العاملون إلّا العابدون، وهلك العابدون إلّا العالمون، وهلك العالمون إلّا الصادقون، وهلك الصادقون إلّا المخلصون، وهلك المخلصون إلّا المتقون، وهلك المتقون إلّا الموقنون، وإن الموقنين لعلىٰ خطر عظيم، قال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿واعبد ربّك حتىٰ يأتيك اليقين﴾ وأدنىٰ حدّ الاخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله قدراً فيوجب به علىٰ ربّه مكافاة بعمله؛ لعلمه أنه لو طالبه بوفاء حقّ العبودية لعجز، وأدنىٰ مقام المخلص في الدنيا السلامة من جميع الآثام، وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة».

هذا ما ورد في معنى الاخلاص والترغيب فيه، وقال بعض العارفين في معنىٰ الإخلاص ما ملخصه: أن الإخلاص تصفية العمل من كل شوب، وذلك أن لا يعتد بعمله، ولا يرىٰ أن عمله من كسبه يستحق به ثواباً منه تعالىٰ، بل يراه موهبة منه

تعالىٰ، فلا يرىٰ حينئذ لعمله عوضاً وأجراً، وذلك لإخراج نفسه من دخلها في العمل، بل يرىٰ أنه لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، ولازمه حينئذ أن لا يرضىٰ بعمله بأن يراه مرضياً له تعالىٰ، بل يبرأمنه بأن يكون بحوله وقوته، كلّ ذلك لما علم وعرف من أن المقصود من الأمر بالعمل هو الفناء فيه تعالىٰ.

فمن علم أن عمله ليس من كسبه، بل من حوله تعالىٰ وقوته وإن أمر به، فلا محالة يكون المطلوب فناءه في الله تعالىٰ في ظرف قيام العمل به، لما رأىٰ نفسه ناقصاً ونقصاً ليس أهلاً لوقوع العمل وقيامه به كما هو حقه ويستحقه الباري تعالىٰ، فيخجل من عمله مع قيامه بحق العبودية، فإنه عبد مأمور لابد له من الامتثال، بل تذهل عن أن عمله في مرءىٰ منه تعالىٰ تنقيصاً لعمله وتحقيراً لنفسه، فلا يرىٰ إلّا أنه موفق بنور التوفيق الإلهي؛ لقيامه به لما أقدره الله تعالىٰ عليه وأطاقه له.

فهذه الحالات تنتج أن العمل كأنه ليس منسوباً إليه، لما لا يرىٰ لنفسه من وجود وحول وقوة، فلا يرىٰ من نفسه وعمله إلّا حكمته تعالىٰ الأزلية وآثار قدرته تعالىٰ مع محو رسم الغير، فإذا اتصف بتلك الحالات وشاهد حكم الله عليه صار عبداً مخلصاً، بل خالصاً له تعالىٰ، وخلص من رقّ الكون بأسره، ومما له من الرعونات والآفات، إنتهىٰ ملخصاً.

فحينئذ نقول: لا ريب في أنهم عليهم السلام مخلصون في توحيد الله (بالكسر) وبالفتح في الواقع ونفس الأمر، فإن ذواتهم المقدسة كما هم متصفون بصفة الإخلاص، وأنهم مخلصون في التوحيد، كذلك أنهم عليهم السلام مخلصون (بالفتح) أي ثابت لهم صفة الخلوص منه تعالىٰ، والعبارة محتملة لكلا الأمرين، بل قرئت بكل منهما، فلابد من تفسيرها على القسمين فنقول:

أما كونهم مخلصين (بالكسر) في توحيده معناه أن غاية التفريد والتجريد له تعالىٰ، الذي ليس وراءَه مقام في الامكان هو ما جرّدوا وأفردوا، وهذا هو حقيقة الإخلاص كما قال علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام بمحضر المأمون (عليه لعائن الله): «ولا

معرفة إلّا بالإخلاص، ولا إخلاص مع التشبيه» أي أن الإخلاص هو تفريده تعالىٰ وتجريده عما فيه شائبة التشبيه بخلقه كما لا يخفىٰ فهو تعالىٰ مبرّأ ومنزّه عما سواه مطلقاً، ولازم هذا أنهم عليهم السلام إنما وصفوا الله بما يليق بعزّ جلاله وقداسة ذاته ونزاهتها. ويستلزم هذا أن وصف غيرهم مما ليس من وصفهم عليهم السلام له تعالىٰ، فهو باطل لا يليق بجنابه المقدس، قال الله تعالىٰ: **﴿سبحان الله عما يصفون * إلّا عباد الله المخلصين﴾**[1] أي أن وصف المخلصين (بالفتح) لكونهم مخلصين (بالفتح) إنما يليق بجنابه تعالىٰ فقط، فالمخلصون (بالفتح) ينبغي لهم أن يكونوا مخلصين (بالكسر) في بيان صفاته تعالىٰ لا غيرهم.

وإليه يشير قول علي عليه السلام فيما تقدم: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا»، أي بما وصفنا من التعريف لا من غيرنا، بل كل أحد سواهم كان من المضلّين الذين قال تعالىٰ في حقهم: **﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾**[2] والسرّ في ذلك (أي في انحصار سبيل المعرفة فيهم وانحصار توصيفه تعالىٰ فيهم): أن كل مخلوق هو أثر خالقه، ومظهر لصفة خالقه بقدر وجوده كماً وكيفاً من حيث الكمال والنقص. ومن المعلوم بصريح من الأحاديث، بل وبدلالة من الآيات أن الذوات المقدسة لمحمد وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) بما خلقهم الله في أكمل ما يمكن أن يوجد موجود، فلا محالة هم أعدل مزاجاً من الباطن ومقام النورانية، ومن حيث الظاهر ومقام البشرية، فهم عليهم السلام بوجودهم الكامل يحكون كمال صفته تعالىٰ حيث علمت أن وجودهم كوجود كلّ موجود أثر من آثار الخالق جلّ وعلا، والأثر يشابه صفة مؤثره التي صدر فيها وجوده، وحيث إنّ غيرهم لا يخلون عن الاعوجاج في الظاهر والباطن كلياً أو جزئياً، فلا محالة لا يتمكن منهم توصيفه تعالىٰ.

---

١ ـ الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠.

٢ ـ الكهف: ٥١.

وهذا بخلافهم فهم لكمالهم واعتدال قابلياتهم مخلصون في توحيد الله، أي يتمكنون لهذه الذاتية الكاملة لهم أن يصفوا الباري تعالىٰ في توحيده، وسيجيء قريباً مزيد توضيح لهذا الأمر إن شاء الله.

ثم إن كونهم مخلصين (بالكسر) في توحيد معناه أنهم أخلصوا التوحيد له تعالىٰ، وهذا يعمّ جميع أقسام التوحيد من التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي والعبادي، فهنا **أقسام أربعة:**

الأول: أنهم مخلصون في توحيد الذات.

فاعلم أن التوحيد لغة عبارة عن جعل الشيئين شيئاً واحداً فضلاً عن الأشياء، فهو في الذات عبارة عما أُشير في قوله: **﴿قل هو الله أحد﴾** وقوله تعالىٰ: **﴿لا تتخذوا إلٰهين اثنين إنما هو إله واحد﴾** فحينئذ توحيدهم عليهم السلام للذات المقدسة، هو نهاية التجريد والتفريد بنفي جميع الصفات والأفعال والآثار عنه تعالىٰ.

وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة، وشهادة كلّ صفة أنها غير الموصوف، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمّنه، ومن قال علام فقد أخلا منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمزايلة»، الخ.

فقوله عليه السلام: «لشهادة كل موصوف أنه غير الصفة»، تعليلاً لقوله: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه»، إشارة إلىٰ توحيد الذات من حيث هي هي، وهذا لا ينافي ما وصف الله نفسه بصفات، وكذا النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام حيث وصفوه بصفات؛ لأن المقصود من كلامه عليه السلام: «وكمال الإخلاص نفي الصفات عنه»، هو بيان

التوحيد الذاتي.

وحاصله أن يعرف له ذاتاً بسيطة لا كثرة فيها لا في اعتبار ولا في الامكان، والفرض بمعنىٰ أنه تعالىٰ في صقع الأحدية ذات ليس له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا حيوة غير ذاته، أي هو ذات بسيط بحت بكل اعتبار وفرض بمعنىٰ أن لا تكون تلك الصفات جزاءً له.

بل تعرف ذاتاً كاملة الذات صدرت عنها هذه الآثار، فالذات بسيط بحت لكنها كاملة، إذ لو كانت ناقصة لما صدرت عنها آثار وكمالات، فصدور هذه الآثار المتعددة المتغايرة يدل علىٰ أنّ ذاته تعالىٰ ليست بناقصة لا أنها متكثّرة وإن شئت فاعتبر هذا من نحو قولك: زيد كاتب خياط نجار فإنك إنما تعني بها ذاتاً بسيطة، وتلك الذات هي التي حدثت عنها تلك الآثار من الكتابة والخياطة مثلاً.

فظهر أن معنىٰ نفي الصفات عنه تعالىٰ والمعرفة بالتوحيد الذاتي، هو ما ذكرنا من إثباتَ معنىٰ لا تعدد فيه، فتصفه بالعلم بمعنىٰ أنه ليس يجهل، وأنه لا يعزب عنه شيء، وأنه أحاط بكلّ شيء علماً، وبالقدرة بمعنىٰ أنه يصنع ما يريد ولا يعجزه شيء، وهكذا ساير الصفات فمعناه أن الذات المقدسة لا تتصف بخلاف هذه الصفة، ولا يلزم هذا تعدداً وتكثراً في الذات المقدسة، بل معناه أن ذاته يكفي من كلّ شيء ولا يكفي منه شيء كما تقدم.

الثاني: أنهم مخلصون للتوحيد الصفاتي، وهو جعل الصفتين فما زاد صفة واحدة قائمة به تعالىٰ وهو قيّومها وحاصله يرجع إلىٰ **معنيين**:

المعنى الأول: أن صفاته تعالىٰ ظاهرة بحيث تكون صفات الخلق وأحوالهم غائبة، ومتلاشية في صفته، فليس فيما دون عزته وجلاله صفة لغيره، وفي الدعاء المروي في المصباح للشيخ لليلة الخميس من قوله عليه السلام: «والخلق مطيع لك خاشع من خوفك، لا يرىٰ فيه نور إلّا نورك، ولا يسمع فيه صوت إلّا صوتك، حقيق بما لا يحق إلّا لك، والنور إشارة إلىٰ الصفات»، فقوله: «لا يرىٰ فيه نور إلّا نورك»، إشارة

إلىٰ توحيد الصفات بلسان الحصر.

المعنى الثاني: أن كل ما في الكون من الذوات والصفات والجواهر والأعراض صفاته تعالىٰ؛ لأنها آثاره.

وبعبارة أُخرىٰ: أن ما يرىٰ من الصفات في المخلوقين هو صفاته تعالىٰ، بلحاظ أنها آثاره تعالىٰ والآثار صفات المؤثر، غاية الأمر لا بحدودها وقيودها، بل بحقيقتها الملغاة عنها الحدود والقيود كما حقق في محله، وإليه يشير قوله تعالىٰ: **﴿لاقوة إلّا بالله﴾**.

الثالث: أنهم مخلصون للتوحيد الأفعالي، أي جعل الأفعال فعلاً واحداً له تعالىٰ كما يومي إليه قوله تعالىٰ: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ﴾** وقوله تعالىٰ: **﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾**، وقوله في الدعاء المتقدم: «لا يسمع صوت إلّا صوتك»، وقوله تعالىٰ **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾**.[1]

والحاصل: أن كثيراً من الآيات والأدعية والأحاديث دلّت علىٰ التوحيد الأفعالي له تعالىٰ، بمعنىٰ أنه لا فعل في الوجود إلّا وهو منه تعالىٰ، فالموحد له تعالىٰ بالتوحيد الأفعالي يرىٰ ببصيرته القلبية أن أي فعل فهو منه تعالىٰ، وهذا هو المراد من قوله تعالىٰ: **﴿وربّك يخلق ما يشاء ويختار﴾** وإليه يشير أيضاً القول بأنه: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين» أي أن العبد ليس مفوضاً في الفعل بحيث يوجب تعطيله تعالىٰ عنه، بل الفعل مستند إليه تعالىٰ وليس مجبوراً بحيث لا دخالة للعبد فيه، بل الفعل مستند إليه أيضاً إلّا أن استناده إلىٰ العبد معناه اختياره الفعل الحسن أو القبيح، وإلّا فالفعل في الكل مستند إليه تعالىٰ في حال استناده إلىٰ العبد أيضاً.

وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «هو القادر علىٰ ما أقدرهم، والمالك لما ملكهم»

---

١ ـ القصص: ٦٨.

فاستناد الفعل إلى العبد من حيث قيام الفعل به وإنه مظهر للفعل الإلهي لا ينافي توحيد الأفعال له تعالىٰ.

فإن قلت: بعدما أُسند الفعل إلى العبد وإلىٰ اختياره، فكيف يصح القول بالتوحيد الأفعالي له تعالىٰ؟

قلت: لا ريب في أن الفعل أولاً وبالذات مستند إليه تعالىٰ. وثانياً وبالعرض مستند إلى العبد من حيث كونه مظهراً لفعله تعالىٰ، فالعبد بحسن اختياره أو بسوء اختياره للفعل الحسن أو القبيح يسند الفعل إليه بهذه الحيثية؛ ليكون مورداً للثواب أو العقاب وإلّا فهو (أي العبد) في حال استناد الفعل إليه يكون هو وفعله واختياره الحسن والقبيح من فعله تعالىٰ.

فليس فعله (أي العبد) في عرض فعله تعالىٰ، بل فعله تعالىٰ حقيقي، وفعل العبد اعتباري أُسند إليه لتصحيح العقاب والثواب.

فإن قلت: قال الله تعالىٰ: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾ فدلت علىٰ أن الفعل السيّئ منسوب إلى العبد لا إليه تعالىٰ.

قلت: إن ما أصيبت من الحسنة فبذاتها وحقيقتها تكون منه تعالىٰ؛ لأن العبد فقر محض ليس فيه ملاك الحسن، وهذا بخلاف السيئة فإنه من آثار الفقر والنقص الثابت للخلق، فهذه الآية تعطي أن الفعل من حيث اتصافه بالحسن والسوء ينقسم إلىٰ قسمين لا من حيث ذات الفعل بل ذات الفعل منه تعالىٰ. وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿**قل كل من عند الله**﴾ فالفعل منه تعالىٰ وإن كان عقاباً؛ لأنه حينئذ كما تقدم يكون بعنوان الجزاء للعبد العاصي. وإليه الاشارة في قوله أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يجد عبد طعم الايمان حتىٰ يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الضار النافع هو الله تعالىٰ» كما لا يخفىٰ.

وكيف كان فهم عليهم السلام مخلصون له تعالىٰ في التوحيد الأفعالي، أي يرون الأفعال فعله تعالىٰ بنحو يليق بقداسة ذاته المقدسة.

الرابع: أنهم مخلصون للتوحيد العبادي أي يجعلون عبادتهم خالصة له، كما أُشير إليه في قوله تعالىٰ: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً**﴾ والأخبار والأدعية وبيان حالاتهم عليهم السلام دالة بالقطع علىٰ أنهم مخلصون وموحدون في العبادة كما لا يخفىٰ.

ثم إن الكلام في أقسام العبادة حسب اختلاف العابدين من حيث النية والغاية مفصّل جدّاً موكول إلىٰ محله، ولعله سيجيء في طي الشرح ما يوضحه.

ثم إن التوحيد في هذه المراتب الأربع له مراتب كثيرة جداً، وأعلى المراتب في كل من هذه الأقسام الأربعة هو ما كان كل واحد منها في غاية التجريد والتفريد عن كل ما سوىٰ الحق، وهذه المرتبة الكاملة في هذه الأقسام الأربعة مختصة بهم عليهم السلام، فهم المخلصون في توحيد الله بالنحو الأتم الأكمل، هذا كله علىٰ قراءة المخلصين (بالكسر) في توحيده تعالىٰ، وأما لو قُرئت والمخلصون في توحيد الله (بالفتح) أي أخلصهم الله تعالىٰ في توحيده فضلاً عن غير مراتب الدين فلابد من بيانه فنقول وعلىٰ الله التوكيل:

اِعلم أن حقيقة التوحيد أعظم وأجلّ من أن يحيط بها عقل من حيث العبارة، أو يصل إليها فهم من حيث الاشارة، لأن العبارة حجاب، والإشارة وإن كانت أشدّ إيصالاً من العبارة إلّا أنها أيضاً نقاب، وهو غير انكشاف جمال المحبوب بلا سترة ولا حجاب.

تجول عقول الخلق حول حمائها ... ولم يدركوا من برقها غير لمعة

وهو (أي التوحيد) هو المقصد الأعلىٰ للكل، وكل المقامات والأحوال دونه من الأسباب الموصلة إليه، وكل علم أو ذوق منه بقدر علمه ودركه الذوقي؛ ولذا تكلم فيه بعض بلسان العبارة، وبعض بلسان الإشارة، وبعض بلسان الذوق ولكن ﴿**ما قدروا الله حقّ قدره**﴾ إلّا أهله وهم المعصومون الأربعة عشر، وذلك فضل الله

يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وكيف كان إن مرتبة التوحيد أرفع درجة، وأمنع مقاماً من أن يصل إليه أي سالك ولنعم ما قيل:

يجلّ الهوىٰ عن أن يكون شريعة　　إلى الناس إلّا واحداً بعد واحد

أقول: إلّا من سبقت لهم من الله الحسنىٰ باتباع أهل البيت، والاستقامة علىٰ محبتهم؛ ليفيضوا عليه مما منحهم الله تعالىٰ من التوحيد.

وكيف كان فكلّ عرف التوحيد بحسب علمه وإداركه:

●: التوحيد إثبات القدم وإسقاط الحدث.

●: التوحيد إفراد القدم عن الحدث.

●: التوحيد إسقاط الإضافات.

●: التوحيد إثبات أول بلا أول ولا آخر.

●: التوحيد إثبات الواحد من دون مشارك له في وصف ولا نعت.

●: التوحيد نفي ما سوى التوحيد.

●: بقاء الحق وفناء ما دونه.

ونظيرها في كلام المتأخرين:

●: التوحيد إثبات الوجود ونفي الموجود.

●: التوحيد رؤية العابد عين المعبود.

●: التوحيد رؤية الكثرة في عين الوحدة.

●: التوحيد مشاهدة الجمع في عين التفصيل، ومشاهدة التفصيل في عين الجمع.

●: التوحيد إثبات العين وإفناء الغير، ورؤية الشّر محض الخير.

●: التوحيد تميز الحق عن الخلق، وإفناء الخلق في الحق.

إذن فجميع هذه العبارات يرجع بعضها إلىٰ بعض بضرب من البيان والتأويل، والكل يرجع إلىٰ نفي وجود الغير، وإثبات وجود الحق مطلقاً، وهذا المعنىٰ الجامع له شؤون يعبر بكلّ منها والكلّ تعبير عن معنىٰ واحد كما قيل:

عباراتنا شتىٰ وحسنك واحد   وكـل إلىٰ ذات الجمال يشير

ثم إن التوحيد الذي علمت أنه جعل الشيئين شيئاً واحداً يكون علىٰ **قسمين:**

الأول: التوحيد الظاهري الشرعي الإلوهي.

والثاني: التوحيد الوجودي، فالشيئان اللذان لابد من توحيدهما عند الشرع والظاهر هو الآلهة المقيدة والإله المطلق، في ظاهر الشرع وضع اسم التوحيد علىٰ نفي الآلهة المقيدة وإثبات الإله المطلق وقالوا: لا إله إلّا الله، والدعوة الأولية من الشارع لعموم الناس إنما هي إلىٰ هذا التوحيد، فعنه ﷺ «أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلّا الله»، وقال تعالىٰ: **﴿قل ياأهل ٱلكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبدَ إلّا اللهَ ولا نشركَ به شيئاً..﴾**[1].

ومعلوم أن تعالوا خطاب إلىٰ العامة، فهذا التوحيد الالوهي يختص بالأنبياء والرسل في مقام التشريع والتبليغ، وأما أهل الباطن والحقيقة قالوا: الشيئان اللذان لابد من توحيدهما هو الموجودات المقيدة والموجود المطلق، فالتوحيد عندهم اسم لنفي الموجودات المقيدة وإثبات الوجود المطلق أي ليس في الوجود إلّا الله، وليعلم أن صاحب الشرع (أي الأنبياء والرسل والأئمة ﻹ) لهم اعتباران فباعتبار التبليغ والإرشاد لعموم الناس فهم يدعون الناس إلىٰ التوحيد الإلوهي الشرعي كما تقدم، وباعتبار أنهم مظاهر للحق بالنحو الأتم الأكمل ـ كما تقدم في تحقيق معنىٰ الولاية التكوينية والتشريعية ـ فهم أحسن مصداق لأهل الباطن والحقيقة.

فبالاعتبار الأول هم أهل التوحيد الالوهي، وبالاعتبار الثاني هم أهل التوحيد الوجودي، وإلىٰ هذه الجهة أُشير في كلام الشارع من قوله تعالىٰ: ﴿كل

---

١ ـ آل عمران: ٦٤.

شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[١] وقوله تعالىٰ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[٢] فالشرك في التوحيد الأول هو جعل الآلهة في قبال الإله المطلق. والشرك في التوحيد الثاني هو إثبات الوجود لغيره تعالىٰ وهذا مبتلىٰ به أكثر الناس وقد عبّر عنه في الشرع بالشرك الخفي.

ولكل من هذين التوحيدين بيان في تعريفهما وكيفية تحصيلهما موكول إلىٰ محله. إلّا إنا نذكر نبذاً منهما تبصرة لمن أراد أن يتبصّر فنقول وعليه التوكل:

قوله تعالىٰ: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم﴾[٣] وقوله تعالىٰ: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾[٤] يشير إلى التوحيد الالوهي، الذي عرفت أنه الوظيفة الأولية وبحسب الظاهر للأنبياء، فظهور الأنبياء من لدن آدم إلىٰ نبينا محمد ﷺ لم يكن إلّا لدعوة الخلق الى التوحيد الالوهي، والخلاص من الشرك الجلي الذي هو بإزاء هذا التوحيد الالوهي.

هذا وقوله تعالىٰ: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[٥] وقوله ﷺ: «لو أدليتم بحبل يهبط علىٰ الله»، يشير إلى التوحيد الوجودي الباطني الحقيقي، وهو دعوة العباد إلىٰ مشاهدة وجود المطلق من بين وجودات مقيدة، وظهور جميع الأولياء من لدن شيث إلىٰ المهدي (عج) لم يكن إلّا لدعوة الخلق إلىٰ التوحيد الوجودي، والخلاص من الشرك الخفي الذي هو بإزاء التوحيد الوجودي، وإلىٰ هذا الشرك الخفي يشير قوله تعالىٰ: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾[٦] وقوله ﷺ: «دبيب الشرك في أُمتي أخفىٰ من دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة

---

١ ـ القصص : ٨٨.
٢ ـ الحديد : ٣.
٣ ـ آل عمران : ٦٤.
٤ ـ سورة ص : ٥.
٥ ـ يوسف : ٣٩.
٦ ـ يوسف : ١٠٦.

الصماء في الليلة الظلماء».

فكلّ من اعتقد وتوجه إلى الإله المطلق المشار إليه بعد إلّا في قولنا: لا إله إلّا الله، وعدل عن الإلهية المقيّدة، ونطق بكلمة التوحيد الإلوهي الظاهري، وقام بعبادته علىٰ ما ينبغي، خلص من الشرك الجلي، وصار مؤمناً مسلماً باتفاق المسلمين، وطهر من نجاسة الشرك ظاهراً وباطناً، وإن لم يكن كذلك بقي مشركاً كافراً نجساً في الظاهر والباطن لقوله: ﴿إنما المشركون نجس﴾.

هذا وكل من اعتقد وتوجه إلى الوجود المطلق، وعدل عن الوجود المقيد، ورجع عن مشاهدة المخلوق إلىٰ مشاهدة الخالق، ونطق بكلمة التوحيد الوجودي الباطني بأن شاهد التوحيد بالرؤية القلبية، وقام بعبوديته علىٰ ما ينبغي، خلص من الشرك الخفي، وصار عارفاً موحّداً محققاً باتفاق الموحدين، وطهر من نجاسة الشرك الخفي ظاهراً وباطناً، وإن لم يكن كذلك وأقر بالتوحيد الأول كان طاهراً ظاهراً نجساً باطناً، فلا تدخل في قلبه الملائكة ولا يظهر فيه التوحيد بحيث يراه قلباً.

ثم إن الأنبياء عليهم السلام كما أنهم داعون إلىٰ التوحيد الإلوهي، كذلك داعون إلىٰ التوحيد الوجودي؛ لأنهم أيضاً واجدون مقام الولاية؛ بل هي لهم أولاً وبالذات، ثم يكون لأوصيائهم كما تقدم، وأيضاً الأولياء والأوصياء داعون إلىٰ التوحيد الالوهي أيضاً بحسب الظاهر، مضافاً إلىٰ دعوتهم للناس إلىٰ التوحيد الوجودي، فالتوحيد لكلتا الطائفتين باعتبارين كما لا يخفىٰ، وهنا أبحاث متعلقة بهذين القسمين من التوحيد موكولة إلىٰ محلها.

إذا علمت ما ذكرنا فاعلم أنهم عليهم السلام مخلصون في التوحيد (بالفتح) أي أخلصهم الله تعالىٰ في توحيده، بمعنىٰ أنهم مظاهر للتوحيد الوجودي، فلا يرون في الوجود إلّا الله تعالىٰ، فهم عليهم السلام يشاهدون قيوميته تعالىٰ للأشياء في كل الأشياء المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿الله لا إله إلّا هو الحيّ القيوم﴾ ويشاهدون معيته لها في

كلها المشار إليه بقوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾ فلا الكثرات تمنعهم عن تلك المشاهدات، ولا المشاهدات تذهلهم عن العبودية والقيام بالواجبات.

فلهم مقام الجمع بين مشاهدة الحق منزهاً عن الخلق رؤية قلبية، مع مشاهدة الخلق بما هم قائمون به تعالىٰ، مع مشاهدة التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي في الخلق، وهذا التوحيد الوجودي بالمعنىٰ المتقدم قد دلّت عليه الآيات والأحاديث والآثار والأدعية، وكلمات القوم من نثرهم وأشعارهم، فلعمري كل من تأمل في الآيات المتعلقة به، وسلك مسالك التوحيد، وصل إليه وأدرك ما أدركوا، وتيقن بما تيقنوا وصدق ما قالوا من قولهم تارة:

توهمت قدماً أن ليلىٰ تبرقعت ... وأن حجاباً دونها يمنع اللثما
فلاحت فلا والله ما كان حجبها ... ولكن طرفي كان من حسنها أعمىٰ

ولنعم ما قيل:

يار بى پرده از در و ديوار ... در تجلى است يا اولى الابصار
شمع جوئى و آفتاب بدست ... روز بس روشن و تو در شب تار
گرز ظلمات خود رهى بينى ... همه عالم مشارق الانوار
كوروش قائد و عصا طلبى ... بهر اين راه روشن و هموار

وقيل:

آفتاب اندرون خانه ما ... در بدر ميرويم ذره مثال
گنج در آستين و ميگرديم ... گرد هر گنج بهر يک مثقال

وحاصل كلامنا: أن التوحيد الذي هو عبارة عن معرفة ذاته المقدسة بالكنه فهو غير ميسّر لأحد، ففي الحديث: «ما وحّد الله غير الله» وإليه يشير قوله ﷺ: «لا

أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

ولنعم ما قيل بالعربية:

ما وحّد الواحد من واحد   إذ كلّ من وحده جاحد
توحيده إياه توحيده   ونعت من ينعته لاحد

فقوله: إذ كل من وحده، أي توحيداً حقيقياً يبين كنه ذاته.

وبالفارسية:

ما نتوانيم حق حمد تو گفتن   با همه كرو بيان عالم بالا

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو﴾ فإن هذه الشهادة شهادته المقدسة على وحدانية ذاته المقدسة كما هو، ثم عطف جلّ جلاله قوله: ﴿والملائكة وأُولوا العلم﴾، على نفسه، إلّا أن النبيّ والأئمة والصديقة (سلام الله عليه وعليهم وعليها) لما كانوا الحجاب الأقرب، وطهرهم الله تعالى من الرجس الذي هو الشك كما تقدم، فلا محالة لا حجاب بينهم وبينه تعالى، فهو تعالى ظاهر لهم بنحو لا يكون لغيرهم، وذلك لفنائهم عن نفسهم وعن جميع الحدود أي لا حجاب لهم.

وبعبارة أُخرى: ارتفعت حجابية الحجب عنهم، فهم يشاهدون التوحيد في كلّ آن وشيء.

قال عليه السلام: «ما رأيت.. إلّا ورأيت الله قبله ومعه وبعده».

وقال عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

وقال عليه السلام: «لم أعبد ربّاً لم أره»، فما هو غطاء لنا ليس غطاء لهم، فوجوده عندهم كعدمه؛ ولذا لو كشف ما ازدادوا يقيناً، بل هم قبل كشف الحجب وبعده على ما هم عليه من اليقين، فهم عليهم السلام مظاهر حقيقية لوحدانيته تعالى، فهم يشاهدون هذا التوحيد المختص به تعالى، وإن كانوا غير واصلين كنهه تعالى، فتأمل تعرف إن شاء الله، وقد تقدم من الأحاديث في باب بيان الولاية التكوينية ما يوضح لك هذا

فراجع.

فمعنىٰ كونهم مخلصين في توحيد الله (علىٰ قراءة الفتح) هو أنه تعالىٰ قد أخلصهم عن كلّ ما هو خلاف وحجاب علىٰ التوحيد، فهم المقربون بالقول المطلق علىٰ الكل بلا استثناء، ثم إنه تقدم ـ وسيجيء إن شاء الله في محله ـ ما هو سبب لنيل هذا المقام حسب ما يمكن لغيرهم عليهم السلام فانتظر.

وإليه يشير ما في بعض الخطب: كنّا في تكوينه بكينونيته قبل خلق التكوين أوليين أزليين موجودين منه بدؤنا وإليه نعود.

فقوله: في تكوينه بكينونيته قبل خلق التكوين، يثبت لهم مقام القرب الذي عبّر عنه تارة بقوله تعالىٰ: ﴿وأدنىٰ﴾.

وأُخرىٰ بقوله عليه السلام: «لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك» كما تقدم شرحه فتكون معنىٰ الجملة (أي قوله عليه السلام: والمخلصين في توحيد الله، علىٰ قراءة الفتح) فهم توحيد الله وأهل توحيده، أي أن التوحيد المختص به تعالىٰ ظهر فيهم، فهم بعد فنائهم عن أنفسهم نفس التوحيد وأهله.

وإليه يشير ما تقدم من قول علي عليه السلام: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا» أي لا يعرف الله إلّا بنا، حيث إنهم بذاتهم النورانية القريبة بحق القرب معرفة الله وتوحيده.

فكلّ موحد قال بالتوحيد لدليل عقلي أو نقلي أو برهان عرفاني وجداني ذوقي فإنما هو وصل إلى التوحيد الظاهر فيهم عليهم السلام، فهم آيات التوحيد الظاهرة لأهله، وسيجيء توضحيه أزيد من هذا في شرح قوله: «ومن قصده توجّه بكم».

هذا وقد علمت سابقاً أن الشيء إنما يعرف بآياته وصفاته، وقد قال عليه السلام: «ما لله آية أكبر مني» وقال عليه السلام: «والله نحن الأسماء الحسنىٰ»، كما تقدم، فهم في مقام القرب وخلّوا الحدّ بحيث لا يشار إليه بشيء؛ ولذا قال علي عليه السلام: «أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة»، فقوله عليه السلام هذا يشير إلىٰ ذلك القرب المعبر عنه بـ﴿أو أدنى﴾،

وهذا كمال التجريد والتفريد، وهذا مقام المثل الأعلىٰ كما تقدم: «إنهم المثل الأعلىٰ والآية الكبرىٰ» فهم عليهم السلام توحيد الله في المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكـان، الذي يعرف الله بهم من عرفه كما تقدم.

فإن قلت: إن مقام ﴿أو أدنىٰ﴾ مختص بالنبي بصريح الآية، فكيف يكون حينئذ للوصي؟

قلنا: تقدم أن نفس الوصي نفس النبي كما دلّت عليه آية المباهلة، مضافاً إلىٰ ما تقدم من أن الولاية هي باطن النبوة، فراجـع، والحـمد لله أولاً وآخـراً وظـاهراً وباطناً.

قوله عليه السلام: والمظهرين لأمر الله ونهيه.

أقول: هنا مقامان:

الأول: بيان معنىٰ كونهم مظهرين لهما وكيفيته.

والثاني: بيان معنى الأمر والنهي.

المقام الأول: فنقول: لا ريب في أن مرادات الله تعالىٰ ـ من خطاباته وإلهاماته وكلماته التامة، التي تعمّ جميع الموجودات المخلوقة بأنواعها وأصنافها وأفرادهـا ـ أمر خفيّ لا يكاد يصل إلىٰ دركه إلّا من رتّبه الله تعالىٰ، وجـعله في مـقام القـرب والولاية، وطهّره من جميع الحجب والشكوك وأراه الأشياء كما هـي، فـالنبي صلى الله عليه وآله والأوصياء عليهم السلام حيث إنه يتمثل الوحي أولاً له صلى الله عليه وآله بأقسامه التي أُشير إليها قبلاً، فهو صلى الله عليه وآله يتلقىٰ حقائق الوحي الإلهي كما هي، فـيبيّنها للـخلق كـما أراد الله تـعالىٰ، وكذلك الأوصياء حيث إنهم عليهم السلام قائمون مقامه صلى الله عليه وآله في جميع هذه الأُمور.

بل تقدم ويأتي أنّ ما يـتلقاه النـبي صلى الله عليه وآله مـن الوحـي الإلهـي يـعلمه الوصي والأوصياء بعينه، كما علمت من حديث مشاركة أمير المؤمنين عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله في العلم في حديث الرمانتين ونحوه، فهم عليهم السلام عالمون وعارفون وشـاهدون لحـقيقة الوحي بما له من المعنى المتقدم فيظهرونه، وتقسيمه بالأمر والنهي لأجل أن الوصي

المأمور بتبليغه يندرج في هذين القسمين من الأمر والنهي بما لهما من المعنىٰ الجامع، فالأمر هو الجامع بجميع ما أمر ﷺ بإتيانه الخلق له، والنهي هو الجامع لجميع ما أمر ﷺ بترك الخلق له، وسيجيء المراد منهما إن شاء الله.

ثم إنه لا ريب في أن النبي ﷺ إنما يعلم ويعرف الوحي وحقيقته بالايحاء الإلهي بأقسامه، وسيجيء بيانه في شرح قوله عليه السلام: «وعلىٰ جدكم بعث الروح الأمين»، وهذا لا ريب فيه.

وأما كيفية تلقي المرادات الإلهية من الوحي للأوصياء عليهم السلام فحاصله: أن معلوماتهم عليهم السلام باعتبار علىٰ **قسمين**:

الأول: ما كان تقديره منه تعالىٰ سواء كان المقدر سابقاً أو حالاً أو مستقبلاً، وكان الإمام عليه السلام عالماً بذلك التقدير في زمان التكلم، فيعم هذا ما كان وما يكون وما هو كائن إلىٰ يوم القيمة مما قدر في علمه تعالىٰ وأخبر به نبيه وأوصياءه.

والثاني: ما يحدث لهم ساعة بعد ساعة منه تعالىٰ، كما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، وقد تقدم بعضها من قولهم عليهم السلام: «إنما العلم ما يحدث ساعة بعد ساعة».

أما الأول: فتحصل لهم تلك العلوم وحقائق الأمر والنهي الالهي بواسطة النبي ﷺ وتعليمه إياهم، الذي يرجع إلىٰ تعليمه ﷺ القرآن وحقائقه إياهم كما دلّت عليه أخبار كثيرة.

ففي بصائر الدرجات[1]، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن لله علماً خاصاً وعلماً عاماً، فأما علمه الخاص، فالذي لم يَطّلع عليه ملائكته المقربون وأنبياؤه المرسلون، فقد علمنا من رسول الله ﷺ».

وفيه[2] بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله تعالىٰ علم رسول الله ﷺ القرآن وعلّمه شيئاً سوىٰ ذلك فما علّم الله رسولَه فقد علّم رسولُه علياً عليه السلام».

---

١ ـ بصائر الدرجات ص ١١١.

٢ ـ بصائر الدرجات ص ٢٩٠.

وفيه[١] بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: سئل علي عليه السلام عن علم النبي صلى الله عليه وآله فقال: «علم النبي علم جميع النبيين، وعلم ما كان وما هو كائن إلىٰ قيام الساعة، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأعلم علم النبي صلى الله عليه وآله وعلم ما كان وما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة».

وفيه بإسناده عن عبدالأعلىٰ قال: قال أبو عبدالله عليه السلام «اِبتداء منه: والله إني لأعلم ما في السموات وما في الأرض، وما في الجنة وما في النار، وماكان وما يكون إلىٰ أن تقوم الساعة، ثم قال: أعلمه من كتاب أنظر إليه هكذا (ثم بسط كفيه) ثم قال: إن الله يقول: إنا أنزلنا إليك الكتاب فيه تبيان كل شيء.

أقول: هذا اقتباس من القرآن أو تغيير من الراوي وإلّا فالآية في النحل هكذا: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾**[٢].

ثم إن هذا التعليم ليس كتعليم بعضنا لبعض من الاملاء والقراءة، بل المراد هو أنه كما أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ النبي بتمثل الوحي في قلبه المبارك، بالنسبة إلىٰ جميع الأُمور والحقائق والمعارف والحكمة، فكذلك انتقل جميع ذلك إلىٰ قلب الوصي كما كان في قلب النبي، كما تقدم من قول علي عليه السلام «من أن النبي علمني ألف باب من الحكمة ينفتح من كل باب ألف باب» وذلك كله في زمان يسير عند ارتحال النبي صلى الله عليه وآله كما تقدم.

ففي بصائر الدرجات[٣]، بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أوصىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام بألف باب فتح كل باب ألف باب».

ومن المعلوم أنه لم يعلمه صلى الله عليه وآله له عليه السلام كساير التعاليم، فإنه يقتضي مدة مديدة، فليس إلّا ما ذكرنا عن انتقاش قلب الوصي بما انتقش به قلب النبي صلى الله عليه وآله وحاصله

---

١ ـ بصائر الدرجات ص١٢٧.

٢ ـ النحل: ٨٩.

٣ ـ بصائر الدرجات ص٣٠٤.

يرجع إلىٰ انتقال روح القدس منه ﷺ إليه عليه السلام كما تقدمت الإشارة إليه، ودلّت عليه أحاديث كثيرة، وهذا مقام له عليه السلام يتلو مقام النبوة في الأخبار عن حقيقة أمر الله ونهيه كما لا يخفىٰ.

وأما الثاني: أعني ما يحدث لهم عليهم السلام ساعة بعد ساعة وفي الحال، فبيانه موكول إلىٰ ذكر الأحاديث الواردة في الباب ثم شرحها فنقول:

في بصائر الدرجات[1]، بإسناده عن سليمان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام فقلت: جعلت فداك سمعتك وأنت تقول غير مرة: «لولا إنا نزداد لانفدنا» قال: «أما الحلال والحرام فقد والله أنزله الله علىٰ نبيه بكماله، ولا يزاد الإمام في حلال ولا حرام، قال: قلت: تزدادون شيئاً يخفىٰ علىٰ رسول الله ﷺ؟ قال: لا إنما يخرج الأمر من عند الله فيأتي به الملك رسول الله فيقول: يا محمد ربّك يأمرك بكذا وكذا، فيقول: اِنطلق به إلىٰ علي، فيأتي عليّاً عليه السلام فيقول: اِنطلق به إلىٰ الحسن، فيقول: اِنطلق به إلىٰ الحسين.

فلم يزل هكذا ينطلق إلىٰ واحد بعد واحد حتىٰ يخرج إلينا، قلت: فتزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله ﷺ؟ فقال: ويحك كيف يجوز أن يعلم الامام شيئاً لم يعلمه رسول الله ﷺ والامام من قبله؟».

وفيه[2] بإسناده عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام قال: قلت: جعلت فداك كل ما كان عند رسول الله ﷺ فقد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام بعده، ثم الحسن بعد أمير المؤمنين عليه السلام ثم الحسين عليه السلام، ثم كل إمام إلىٰ أن تقوم الساعة؟ قال: «نعم مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر، إي والله وفي كل ساعة.

وفيه[3] بإسناده عن علي بن يقطين، عن أبيه قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن شيء من أمر العالم، فقال: «نكت في القلب ونقر في الأسماع، وقد يكونان معاً».

---

١ ـ بصائر الدرجات ص٣٩٣.

٢ ـ بصائر الدرجات ص٣٩٥.

٣ ـ بصائر الدرجات ص٣١٦.

وفيه، عنه قال: قلت: لأبي الحسن عليه السلام: «علم عالمكم استماع أو إلهام؟ قال يكون سماعاً ويكون إلهاماً، ويكونان معاً».

وفيه بإسناده عن علي الثاني قال: سألت الصادق عليه السلام عن مبلغ علمهم، فقال: «مبلغ علمنا ثلاثة وجوه ماض وغابر وحادث، فأما الماضي فمفسّر، وأما الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الأسماع، وهو أفضل علمنا ولا نبي بعد نبينا».

أقول: إنما قاله لئلا يتوهم أنهم عليهم السلام أنبياء، وسيجيء شرحه تفصيلاً وتقدم أيضاً، وإجماله ما رواه فيه أيضاً: حدثنا عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: علم علي في آية من القرآن وكتمنا الآية، قال: اقرأ يا حمران، فقرأت: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي**﴾ قال: فقال أبو جعفر: وما أرسلنا من رسول ولا نبي ولا محدث، قلت: وكان علي محدثاً؟ قال: نعم فجئت إلىٰ أصحابنا فقلت: قد أصبت الذي كان الحكم يكتمنا، قال: قلت: قال أبو جعفر عليه السلام كان يقول: علي عليه السلام «محدث، فقالوا لي: ما صنعت شيئاً، ألّا سألته من يحدثه؟». قال: فبعد ذلك إني أتيت أبا جعفر عليه السلام فقلت: أليس حدثتني أن علياً عليه السلام كان محدثاً؟ قال: «بلىٰ، قلت: من يحدثه؟ قال: ملك يحدثه، قال: قلت: أقول: إنه نبي أو رسول؟ قال: لا، قال: بل مثله مثل صاحب سليمان، ومثل صاحب موسىٰ ومثله مثل ذوي (ذي نسخة البحار) القرنين».

وفيه بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: كنت أنا والمغيرة بن سعيد جالسين في المسجد، فأتانا الحكم بن عيينة، فقال: لقد سمعت من أبي جعفر عليه السلام حديثاً ما سمعه أحد قط، فسألناه فأبىٰ أن يخبرنا به، فدخلنا عليه، فقلنا: إن الحكم أخبرنا أنه سمع منك ما لم يسمع منك أحد قط، فأبىٰ أن يخبرنا به، فقال: «نعم وجدنا علم علي عليه السلام في آية من كتاب الله: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ (ولا محدث) إلّا إذا تمنّىٰ ألقىٰ الشيطان في أُمنيته**﴾[1] فقلت: وأي شيء المحدث؟ فقال: ينكت في أُذنه

---

١ ـ الحج: ٥٢.

فيسمع طنيناً كطنين الطست، أو يقرع علىٰ قلبه فيسمع وقعاً كوقع السلسلة على الطست، فقلت: إنه نبي؟ ثم قال: لا، مثل الخضر ومثل ذي القرنين».

وفيه بإسناده عن منصور بن حازم قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن عندنا صحيفة فيه إرش الخدش، قال: قلت: هذا هو العلم، قال: إن هذا ليس بالعلم، إنما هو أثره، إنما العلم الذي يحدث في كلّ يوم وليلة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن علي بن أبي طالب عليه السلام».

فيعلم من هذه الأحاديث كيفية أخذ علومهم عليهم السلام فإنها منه تعالىٰ بواسطة الملك بعدما يعلمه النبي صلى الله عليه وآله أيضاً ثم هم عليهم السلام، بل إنهم عليهم السلام يعلمون أصوات الجماد والنبات والحيوان وهفيف الرياح، وأزير المياه والأمواج، بل يعلمون مراده تعالىٰ من كل موجود وشيء، فيقرأون ما فيه من آثار القدرة والعظمة، وما به قوامه من أسمائه الحسنىٰ، بل بمجرد أن رأوا الملائكة يعلمون ما به قوامه وحاله ونطقه وتسبيحه من الأسماء التي هم قائمون بها.

فإن قلت: لا ريب في كونهم أوصياء لا أنبياء، كما صرحت به الأحاديث والآية وضرورة المذهب ولكن كيف يفرق بينهم ـ حينما تتنزل عليهم الملائكة ـ وبين النبي صلى الله عليه وآله حينما يتنزل عليه الملك؟

قلت: الفرق هو أن إخبار الملك بأقسامه في جميع هذه الصورة يكون أولاً إليه صلى الله عليه وآله ثم إليهم عليهم السلام كما علمته من حديث سليمان عن الصادق عليه السلام فنبوة النبي في جميع الحالات إلىٰ الآن محفوظة، وعلمهم عليهم السلام نور علمه صلى الله عليه وآله، وأما قراءتهم من الموجودات، وما يعلمون من مراداته تعالىٰ منها فهو من القسم الأول كما لا يخفىٰ.

فهم عليهم السلام مظهرون لأوامره ونواهيه تعالىٰ الحاصلة لهم من هذه الأُمور المذكورة، ومن القرآن الذي حقيقته قائمة في صدورهم عليهم السلام كما تقدم مع حفظ مقام النبوة له صلى الله عليه وآله كما علمت.

المقام الثاني: في بيان معنى الأمر والنهي فنقول:

قد يراد من الأمر والنهي معناهما الكنائي، وهو آثار السلطنة والولاية والربوبية، يقال: فلان ولي الأمر والنهي يعني أنه المتصرف والمتسلط وله الحكم، وعليه فمعنىٰ أنهم مظهرون لأمر الله ونهيه أنهم يظهرون حكمه وتسلّطه، وأنه تعالىٰ آخذ بنواصي العباد، ومعلوم أن هذه الأُمور لا تظهر لأحد إلّا بتعليمهم عليهم السلام له، فالربوبية وآثارها من السلطنة والولاية، وأن له تعالىٰ الحكم في جميع مراتبها إنما هي ظاهرة بهم عليهم السلام، بل هم عليهم السلام مظاهرها في الخلق والوجود، تعرف هذه المراتب الملائكة والأنبياء والأولياء المخلصون.

وليس المراد من كونهم مظاهرها فقط في عالم الدنيا الفعلي، بل هم مظاهرها في عوالم العقل والمثال والدنيا والآخرة والبرزخ وفي عالم الملكوت، بل هم بحقيقتهم حملة تلك العظمة والربوبية.

قال الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة: العبودية جوهرة كنهها الربوبية، وهم أحسن مصداق لهذه الحقيقة المشار إليها في هذه العبارة، ولازم هذا أنهم عليهم السلام مفاتيح تلك العظمة والربوبية.

ثم إنه لا ينال منها أحد إلّا بإعطائهم عليهم السلام وإلّا بإعانتهم لمن يريدها منهم، فبإعانتهم عليهم السلام يقبل السائلون منهم تلك العطايا والخيرات والعظمة والمقامات العالية.

قال الصادق عليه السلام كما تقدم: «أجمل الأمر ما استاهل أحد النظر من الله إليه إلّا بالعبودية لنا» (أي بالخضوع لنا) وأحسن وجه لكونهم مظاهر لتلك العظمة والربوبية الإلهية أنهم عليهم السلام العظمة الظاهرة بأمر الله تعالىٰ في نفوس الخلائق تكويناً، فكل من نظر إليهم رأىٰ فيهم تلك العظمة وإن كان من أعدائهم، كما سيجيء في شرح قوله عليه السلام: «فبلغ الله بكم أشرف محل المكرمين» الخ.

كيف لا وهم عليهم السلام الآيات التي أراها الله تعالىٰ للخلق في الانفس والآفاق حتىٰ يتبين لهم أنه الحق، قال الله تعالىٰ: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ**

يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

في تفسير البرهان[2]، بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال: يقول الله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾، «فأي آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق؟».

فهم عليهم السلام المظهرون بالله تعالىٰ لعظمة الله التي لا تتناهىٰ، ولسلطنته القاهرة الغالبة علىٰ كل شيء، كلّ ذلك بظهور ذواتهم المقدسة، قد علمت أنها خلقت من نور عظمته، فظهروا لذلك بإظهار الله تعالىٰ لهم في عالم الإمكان إظهاراً معنوناً تحت عنوان آيات الله وعلاماته الحقة الحقيقية الخارجية، المضيئة أنوارها في القلوب، فالله تعالىٰ هو الذي أراها بقوله: «سنريهم».

ثم إنهم عليهم السلام لما كانوا حقيقة تلك العظمة والسلطنة المكنىٰ بها بالأمر والنهي، فلا محالة هم العاملون علىٰ ما تقتضيه ذواتهم المقدسة من الأعمال بينهم وبين خالقهم؛ ولذا ترىٰ أنهم يعلمون بما يخصهم زايداً علىٰ الواجبات العامة كما لا يخفىٰ.

هذا كلّه بلحاظ المعنىٰ الكنائي للأمر والنهي، وأما المعنىٰ الظاهر منهما: فهم عليهم السلام آمرون وناهون بأمره ونهيه تعالىٰ في العلم والحكم والتبليغ والإنذار والإعذار، وحقيقتهما بهذه المعاني في مقام العمل خارجاً لا يظهران إلّا منهم وعنهم وفيهم وبهم ولهم:

أما أنهما منهم: فلأنهم عليهم السلام خزان العلم كما تقدم ومحل الأمر والنهي، بل هم عليهم السلام سرهما فهم عليهم السلام مفتاحهما ومظهروهما.

وأما أنهما عنهم: فما ذكر يظهر أنهما أي الأمر والنهي عنهم يظهران كما تقدم في بيان معاني أنهم محال معرفة الله، إذ أي علم صحيح ومعرفة صحيحة لم يكونا قد صدرا إلّا عنهم عليهم السلام؟! وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ كما لا يخفىٰ.

---

١ ـ فصّلت: ٥٣.

٢ ـ تفسير البرهان ج ٤ ص ١١٤.

وأما أنهما فيهم: فقد علمت مراراً أن الآيات القرآنية حقيقتها في صدورهم، وهي قائمة بنفوسهم المقدسة، قال الله تعالىٰ: **﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم﴾** وقد تقدم.

وأما أنهما بهم: فلأن حقيقة الأمر والنهي وسرّهما ونتائجهما قائمة بهم؛ لما تقدم من أن لهم الولاية التكوينية في الوجود، التي كان من آثارها أن لا عمل لأهل الطاعة إلّا بوجودهم وبأمرهم التكويني وبهدايتهم الإلهية.

وأما أنهما لهم: أي يرجع نفعهما لهم وحاصله: أن عبادة الخلق إنما هي لله تعالىٰ، فهو تعالىٰ المعبود المطلق لا شريك له في العبادة، كما لا يخفىٰ بضرورة من الدين، إلّا أنه تعالىٰ جعل من عبادة العباد والملائكة حظاً لهم عليهم السلام.

بيانه: روى في أُصول الكافي بإسناده عن عبيدالله بن عبدالله الدهقان، قال: دخلت علىٰ أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال: «ما معنىٰ قوله: **﴿وذكر اسم ربّه فصلىٰ﴾**؟ فقلت: كلما ذكر اسم ربّه قام فصلىٰ، فقال لي: لقد كان الله عزوجل كلّف هذا شططاً، فقلت: جعلت فداك فكيف هو؟ فقال: كلما ذكر اسم ربّه صلىٰ علىٰ محمد وآله»[١].

وفي سفينة البحار[٢]، عن جمال الاسبوع، عن أبي عبدالله البرقي، يرفعه إلىٰ أبي عبدالله عليه السلام قال: قال له رجل: جعلت فداك أخبرني عن قول الله تبارك وتعالىٰ وما وصف من الملائكة: **﴿يسبّحون الليل والنهار لا يفترون﴾**.

ثم قال: **﴿إن الله وملائكته يصلون علىٰ النبي﴾** الآية، كيف لا يفترون وهم يصلون على النبي صلى الله عليه وآله؟

فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالىٰ لما خلق محمداً صلى الله عليه وآله أمر الملائكة فقال: انقصوا من (عن) ذكري بمقدار الصلوة علىٰ محمد صلى الله عليه وآله، فقول الرجل صلىٰ الله علىٰ محمد في الصلوٰة مثل قوله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر».

---

١ ـ تفسير نور الثقلين ج٥ ص٥٥٦.

٢ ـ سفينة البحار ج٢ ص٤٦.

قوله عليه السلام: «لما خلق محمداً»، المراد منه خلق أبدانهم، لا أرواحهم فإنها قبل خلق الملائكة كما تقدم، علىٰ أن الاعتبار يقتضي أنه يلزم الصلوة عليهم في حال كونهم مخلوقين خلق تكوين وأبدان لدفع مضار الخلقة عنهم عليهم السلام ببركة الصلوة عليهم، وأما حال كونهم أرواحاً، وفي مقام القرب الإلهي فلا معرضية لهم لآفات الخلق لقربهم وحفظهم به تعالىٰ. فافهم وتدبر.

هذا وتقدم أيضاً عن الكافي، عن رجاله، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول في قول الله عزوجل: **﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها﴾**: نحن والله أسماء الله الذي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا.

فتحصل من هذه الأحاديث: أن الصلوة عليهم عند ذكر اسم الربّ إنما هو عبادة له تعالىٰ، فلهم حظ من عبادة العباد لله تعالىٰ بالصلوٰة عليهم، هذا كما يشير إليه قوله عليه السلام: «فقول الرجل: صلىٰ الله علىٰ محمد في الصلوٰة مثل قول: سبحان الله..»، فإنه عليه السلام بيّن أن الصلوة عليهم بمثابة عبادته تعالىٰ بقول: سبحان الله..، ولذا تقوم الصلوٰة عليهم في الصلوٰة مقام عبادته تعالىٰ بمثل سبحان الله.. الخ. فعبادة الخلق له يرجع منها حظّ لهم عليهم السلام، وهذا مما منحهم الله تعالىٰ بأن أوجب علىٰ الملائكة والخلق في الصلوٰة والعبادة بالصلوٰة عليهم في حال عبادتهم له تعالىٰ، فلا محالة يكون لهم حظّ منها، وهذا معنىٰ قولنا: يرجع نفعهما لهم، أي نفع الأمر والنهي مطلقاً حتىٰ العبادي منهما.

كيف لا وقد علمت أن جميع الأعمال الصادرة من الخلائق عن الأوامر والنواهي حتىٰ من المخالفين لهم، فإنما هي من آثار سلطانهم إثباتاً في الموافقين لهم وشيعتهم حيث إنهم (رض) من شؤونهم عليهم السلام ونفياً في المخالفين لهم حيث إنهم مطرودون عن بابهم طرداً به يظهر سلطنتهم وغلبتهم عليهم السلام عليهم (أي علىٰ المخالفين) فكلّ يمدحهم بلسانه ويظهر شأنهم، أما الموافق فيظهر آثار جمالهم الربوبي، وأما المخالف فيُظهر آثار جلالهم الربوبي كما لا يخفىٰ، فالموافق يمدحهم وهو

ظاهر، والمخالف يمدحهم أي يقرّ بعظمتهم وجلالهم وعلومهم وقهرهم عليهم (أي علىٰ المخالفين) بل قد جبل في فطرة الخلق الثناء عليهم ﷺ.

فالموافق بذاته يصلي عليهم ويتبرأ من أعدائهم، والمخالف يقرّ بفضلهم وجلالتهم ويلعن أعداءَهم وإن كان هو منهم، كما يلعن أهل النار بعضهم بعضاً، فيظهر يوم القيمة في النار ما كان متمكناً في ذاتهم من لعن أعدائهم ﷺ، وإن كانوا لا يشعرون بذلك في الدنيا فتدبّر جدّاً، وهذا تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وإن من شيء إلّا يسبح بحمده﴾ الآية، فإنه عام يشمل الأعداء أيضاً، وهم ﷺ كما علمت الأسماء الحسنىٰ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿سبح اسم ربّك الأعلىٰ﴾ فتدبّر هادياً مهدياً.

واعلم أنه كيف يعلم من هذه الأحاديث أنه لهم المقام الأعلىٰ عند العلي الأعلىٰ المعبر عنه بمقام ﴿أو أدنىٰ﴾ كما تقدم، وهذا لا يفزع منه بعدما قالوا (صلوات الله عليهم أجمعين): «اِجعلوا لنا ربّاً نؤبّ إليه، وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا».

فقوله ﷺ: «ولن تبلغوا»، يعطي أن لهم مقاماً لا تصل إليه أفهامنا، فما ذكرناه مما ربما يفزع منه مما قد بلغه دركنا، ونحن نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا معرفتهم ﷺ بفضله وكرمه، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطاهرين، وسيجيء في معنىٰ الصلوة عليهم ما يوضح لك هذا فانتظر.

قوله ﷺ: وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

أقول: يقع الكلام في أمرين:

الأول: قوله: وعباده المكرمون، المراد من العباد ذواتهم المقدسة، ولا ريب في أنهم ﷺ عباد له تعالىٰ عبدوه حقّ عبادته، وفيه ردّ علىٰ من زعم أنهم أرباب من الذين غلوا فيهم، ورفعوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها. ثم إنه قيل: من الغلو فيهم القول بأنهم يعلمون الغيب، وردّ بأنه إنما هو من الغلو إذا قيل باستقلالهم فيه من دون تعليمه تعالىٰ إياهم، فلابدّ من ذكر أدلة الطرفين ثم بيان الحق منها، فنقول:

قال المجلسي ﷺ في مرآة العقول: والغيب ما غاب عن الشخص، إما باعتبار زمان وقوعه كالأشياء الماضية والآتية، أو باعتبار مكان وقوعه كالأشياء الغائبة عن حواسنا في وقتنا، وأما باعتبار خفائه في نفسه كالقواعد، التي ليست ضروريات ولا مستنبطة منها بالفكر وضد الغيب الشهادة، إنتهىٰ.

أقول: الغيب ما غاب عن الحسّ، فإذا قيل: غيب الله أي ما غاب عن حواس الخلق بعضهم أو كلهم، ولا يراد منه الغيب عن ذاته المقدسة؛ لأن الله سبحانه لم تغب عنه غائبة قال تعالىٰ: **﴿وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾**[1].

وعن التوحيد بعد هذه الآية عن علي عليه السلام: «كذلك ربنا لا يعزب عنه شيء، وكيف يكون من خلق الأشياء لا يعلم ما خلق وهو الخلاق العليم؟».

نعم في الخلق يكون غيب وشهادة مطلقاً، وفي حال أو مكان خاص دون غيرهما، فالقول بأنهم عليهم السلام عالمون بالغيب يراد منه الغيب عند الناس وعند غيرهم؛ لقوله تعالىٰ: **﴿إلّا من ارتضىٰ من رسول﴾**[2] وسيأتي بيانه.

فما كان عند غيرهم غيب فهو عندهم شهادة بعلم إحاطة وعيان، كما تقدم في شرح ولايتهم التكوينية، وإن كان علم الأخبار أيضاً يصدق عليه الشهادة عند العالم به، وإن كان غيباً عند من لا يعلمه.

فالمستفاد من تتبع كلمات الأصحاب (رضوان الله عليهم): أن الأئمة عليهم السلام إنما يعلمون الغيب بتعليمه تعالىٰ.

ففي الكافي بإسناده عن عمار الساباطي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: «لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء، أعلمه الله ذلك».

وقال المجلسي ﷺ في المرآة في شرح هذا الحديث: موثق، وقال: وحاصله: أنه

---

١ ـ يونس: ٦١.
٢ ـ الجن: ٢٧.

لا يعلم الغيب إلّا بتعليم الله سبحانه، وبه يجمع بين الآيات والأخبار الواردة في ذلك، إنتهىٰ.

أي بتعلبمه تعالىٰ إياهم يجمع بين الآيات الواردة في اختصاص الغيب به تعالىٰ وبين الأخبار التي دلّت علىٰ علمهم عليهم السلام به، فإنها يحمل بهذا الحديث علىٰ أنهم إنما يعلمون الغيب بتعليمه، ومعنىٰ هذا الحديث أنهم عليهم السلام بمنزلة منه تعالىٰ بحيث كلما أرادوا علم شيء أعلمهم الله تعالىٰ ذلك الشيء، وهذا بخلاف غيرهم فإنه ليس لهم هذه المنزلة كما لا يخفىٰ.

فلا نعلم من أطلق القول فيهم بأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب مطلقاً ولو بدون تعليمه تعالىٰ، إلّا ما ذكره الطبرسي عن بعضهم ذلك وهو غلط بل ظلم للشيعة كما صرح رحمه الله بذلك.

ففي مرآة العقول في شرح قوله تعالىٰ: ﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾ قال: وقال في الرابعة (أي الطبرسي) في هذه الآية معناه ولله علم ما غاب في السموات والأرض، لا يخفىٰ عليه شيء منه.

ثم قال: وجدت بعض المشايخ ممن يتسم بالعدل والتشيع قد ظلم الشيعة الإمامية في هذا الموضع من تفسيره فقال: هذا يدل علىٰ أن الله تعالىٰ يختص بعلم الغيب، خلافاً لما تقوله الرافضة: إنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون الغيب، ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، وإنما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذا صفة القديم سبحانه العالم لذاته لا يشركه فيه أحد من المخلوقين، ومن اعتقد: أن غير الله سبحانه يشركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملة الإسلام.

أقول: ذكر أن أخبار الأمير والأئمة (عليه وعليهم السلام) بالمغيبات والملاحم فإنما هو مما تلقوه من النبي صلى الله عليه وآله، وذكر أن نسبة القول بعلمهم للغيب مطلقاً من دون تلقيهم منه صلى الله عليه وآله سبّ قبيح وتضليل لهم بل تكفير. العياذ بالله منه.

والحاصل: أن نسبة القول بأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب مطلقاً غير معلوم، وما ذكره هذا البعض غلط واتهام لهم كما لا يخفىٰ، وسيجيء ما يدل علىٰ قول المشهور من أنهم إنما يعلمون الغيب بتعليمه تعالىٰ إياهم مفصلاً، وأما أنهم يعلمونه مطلقاً فلا، ثم إنه ربما يقال: إن المستفاد من التوقيع الخارج عن مولانا صاحب الزمان (صلوات الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين وروحي له الفداء) هو القول بعدم علمهم عليهم السلام بالغيب مطلقاً.

ففي المحكي عن الاحتجاج قال عليه السلام: «يا محمد بن علي تعالىٰ الله عزوجل عما يصفون سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاءه في علمه ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره، كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالىٰ: ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلّا الله**﴾ وأنا وجميع آبائي الأولين آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وغيرهم من النبيين ومن الآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب والحسن والحسين وغيرهم عليهم السلام ممن مضىٰ من الأئمة إلىٰ مبلغ أيامي ومنتهىٰ عصري عبيد الله، يقول الله عزوجل: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيٰمة أعمىٰ * قال رب لِمَ حشرتني أعمىٰ وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ**﴾.

يا محمد بن علي قد آذانا جهلاء الشيعة وحمقاؤهم، ومَن دينه جناح بعوضة أرجح منه، وأشهد الله الذي لا إله إلّا هو ـ وكفىٰ بالله شهيداً ـ ومحمداً رسوله وملائكته وأنبياءه وأولياءه، وأُشهدك وأُشهد كلّ من سمع كتابي هذا أنني بريء إلى الله وإلىٰ رسوله ممن يقول: إنا نعلم الغيب أو نشارك الله في ملكه، أو يحلنا محلّاً سوى المحل الذي نصبه الله لنا وخلقنا له، ويتعدىٰ بنا عما فسرته لك، وبينته في صدر كتابي، وأُشهدكم أن كلّ من نتبرأ منه فإن الله يبرأ منه وملائكته ورسله وأولياؤه، وجعلت هذا التوقيع الذي في هذا الكتاب أمانة في عنقك، وعنق من سمعه أن لا يكتمه من مواليّ وشيعتي حتىٰ يظهر علىٰ هذا التوقيع الكلّ من الموالي؛ لعلّ

الله عزوجل يتلافاهم به فيرجعوا إلىٰ دين الله الحق، وينتهوا عما لا يعلمون منتهىٰ أمره ولا يبلغ منتهاه، فكلّ من فهم ولم يرجع إلىٰ ما قد أمرته ونهيته، فقد حلت عليه اللعنة من الله، وممن ذكرت من عباده الصالحين»، إنتهىٰ.

فقوله عليه السلام: «بل لا يعلم الغيب إلّا الله»، وقوله عليه السلام: «ممن يقول إنا نعلم الغيب»، يدل بإطلاقه علىٰ نفي علم الغيب عنهم مطلقاً، ولكن فيه مضافاً إلىٰ أنه محمول علىٰ التقية كما قيل، وإن كان تأباه التأكيدات المذكورة في كلامه عليه السلام من التبري واللعن علىٰ من قال بأنهم يعلمون الغيب، إلّا أنه لا بأس بالحمل عليها، مع ما اشتهر من العامة من الطعن علىٰ من يقول بأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب مطلقاً حتىٰ من تعليمه تعالىٰ إياهم، فإنه بهذا الحمل يجمع بينه وبين مادلّ علىٰ أنهم يعلمون الغيب من تعليمه تعالىٰ كما ستجيء الاشارة إليه، هذا مع ما ترىٰ كثيراً من أخبارهم بالمغيبات كما لا يخفىٰ.

إنّ ظاهر قوله عليه السلام: ليس نحن شركاءه في علمه ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره، إن المنفي هو كونهم عليهم السلام عديلاً له تعالىٰ في علم الغيب لا بعلم مستفاد بل لذاتهم كما أنه تعالىٰ كذلك.

وبعبارة أُخرىٰ: المنفي كونهم شركاءه تعالىٰ بالاستقلال، وفي قباله تعالىٰ في مطلق العلم وفي علم الغيب، بحيث لا يحتاجون إلىٰ تعليمه تعالىٰ، فإن هذا هو مقام الربوبية التي نفوها عنهم بالآيات القرآنية وبكلماتهم عليهم السلام.

فقوله عليه السلام: «بل لا يعلم الغيب غيره»، عطف علىٰ المجرور في قوله عليه السلام: في علمه ولا في قدرته، أي فكما أنه تعالىٰ يختص بنفسه المقدسة بالعلم والقدرة، كذلك يختص بعلم الغيب لذاته.

وبعبارة أُخرىٰ: كما أن اختصاصه بالعلم والقدرة لذاته، فكذلك علمه تعالىٰ بالغيب لذاته لا يشركه في ذلك أحد، وفي هذا ردّ علىٰ الغلاة الذين يدعون أنهم عليهم السلام أرباب، ويعلمون الغيب لذاتهم من دون تعليمه تعالىٰ، فإن هذا يرجع إلىٰ

كونهم عليهم السلام شركاء الباري تبارك وتعالىٰ، ويدل عليه أنه عليه السلام قال: «إنني بريء إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ممن يقول: إنا نعلم الغيب، أو نشارك الله في ملكه، أو يحلنا محلاً سوىٰ المحل الذي نصبه الله لنا وخلقنا له».

فإنه عليه السلام جعل علم الغيب في سياق المشاركة معه تعالىٰ في ملكه، فيظهر منه أن النفي هو علم الغيب لذاته المختص به تعالىٰ، فإنه يوجب المشاركة له تعالىٰ في ملكه، وأما العلم به لتعليمه تعالىٰ كما صرح به كثير من الآيات فلا، وليس هذا القول فيهم من القول إنّه قد أحلهم محلاً سوىٰ المحل الذي نصبه الله لهم، بل القول بأنهم يعلمون الغيب مطلقاً بدون التعليم الالهي كذلك كما لا يخفىٰ، ولعلّه كان هناك من الشيعة من يقول بأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب مطلقاً فبلغه عليه السلام ذلك فأنكر عليهم بهذا النكير.

والحاصل: أن هذا الحديث إما محمول علىٰ التقية أو علىٰ نفي علم الغيب بدون تعليم الهي كما لا يخفىٰ، وربما يقال: بحمل ما دلّ علىٰ نفي الغيب عنهم مطلقاً جمعاً بين وبين ما دلّ علىٰ أنهم يعلمونه علىٰ أن المنفي هو الغيب الأزلي الذي هو الذات المقدسة، وأشكل عليه بأن مرجع هذا الحمل إلىٰ أنهم يعلمون جميع ما سوىٰ الذات دون الذات، ولكن فيه أنه علىٰ خلاف الظاهر منهم عليهم السلام فإنهم عليهم السلام كما قال سيده ونبينا صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿ربِّ زدني علماً﴾ كانوا يسألونه تعالىٰ علماً، فإذا كان المنفي الذات فلا محالة لا يجوز لهم السؤال عنها، وإن كان سؤالهم عما سواها فهو غ صحيح.

إذ المفروض أنهم يعلمون جميع ما سوى الذات، فحينئذ فما معنىٰ سؤالهم تعالىٰ؛ لأنه إما سؤال عن المحال (أي الذات) أو عما هو حاصل لهم وهو تحص للحاصل وهو باطل، مضافاً إلىٰ أنه لو سلّمنا علمهم بما سوى الذات فإنما نس ذلك بالنسبة إلى الماضي والحال من علومهم، وأما المستقبل فلا، فإن المستقبل يقال فيه بالبداء أو لا والثاني باطل بضرورة من المذهب والأحاديث المتضا الدالة على البداء لله تعالىٰ بأي معنىٰ صحيح فسّر، وأما الأول فحينئذ كيف يـ

لهم عليهم السلام العلم به والإخبار به جزماً مع وقوع البداء فيه؟

قيل: وإليه يشير قول علي عليه السلام لميثم التمار: «لولا آية في كتاب الله تعالىٰ لأخبرتكم بما كان وما يكون إلىٰ يوم القيامة» وهو قوله تعالىٰ: **﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾** بل بهذا يخصّص ما دلّ علىٰ عموم علمهم للغيب، فلابد من استثناء المستقبل منه لمكان البداء، هذا ولكن فيه أن مرجع هذا الحمل إلىٰ كونهم عالمين بما سوىٰ الذات ممنوع.

بيانه: أنه قد دلّت الآيات والأحاديث والأدعية علىٰ أنه ليس لأحد العلم بذاته المقدسة بنحو الاكتناه كقوله تعالىٰ: **﴿الّا إنه بكلّ شيء محيط﴾** فلا محالة لا يكون محاطاً كما لا يخفىٰ، وأما الأحاديث والأدعية الدالة علىٰ هذا فلا يخفىٰ علىٰ المتتبع لكلماتهم عليهم السلام فيحنئذ إن الأصل المسلم هو عدم العلم بالذات بنحو الاكتناه لأحد وهذا مما لا ريب فيه، ثم إنه من المسلم أنهم عليهم السلام يسألونه تعالىٰ زيادة العلم لقوله تعالىٰ: **﴿ربّ زدني علماً﴾** والأحاديث الكثيرة الواردة في أبواب علومهم الدالة علىٰ أنهم يستزيدون منه تعالىٰ العلم وإلّا لنفد ما عندهم وذلك بالألسنة المختلفة.

منها: أنهم يزدادون في ليالي الجمعة كما تقدم بعضها.

ومنها: ما يحدث لهم ساعة بعد ساعة، وقد تقدم بعضها مع بيانه.

فيعلم من هذا: أن ما سوىٰ الذات منه ما هو معلوم لهم بتعليمه تعالىٰ لهم، ومنه ما هو غير معلوم لهم إلّا إذا أعلمهم الله تعالىٰ، فلا يلزم من نفي علمهم بالذات علمهم بما سوىٰ الذات مطلقاً حتىٰ يقال: بأن سؤالهم عنه تعالىٰ إما محال وإما تحصيل للحاصل، بل نقول: كلما ازدادوا إلىٰ الأبد من علومه تعالىٰ بتعليمه تعالىٰ لهم دائماً فمع ذلك أنه يصدق عليهم عدم علمهم بالذات، وعدم علمهم ببعض ما سوىٰ الذات كما سبق في علمه تعالىٰ إظهاره لأوليائه في مدىٰ الخلق.

ومرجع هذا إلىٰ أن ذاته المقدسة غير متناه أبداً، وأنهم عليهم السلام مهما علموا ما

علموا منه تعالىٰ فلا يصلون إلى العلم بالذات بنحو الاكتناه، فحينئذ يحمل ما دلّ علىٰ نفي علم الغيب عنهم علىٰ هذا العلم (أي العلم بالذات) كما لا يخفىٰ، وأنه تعالىٰ فياض علىٰ الإطلاق ودائماً بحيث لا ينفد ما عنده من العلم والفيوضات، فلا محالة يصح السؤال منه مطلقاً خصوصاً منهم ولذا خوطبوا بقوله تعالىٰ: ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾.

وأما ثانياً فإنه علىٰ تقدير استلزام نفي العلم بالذات العلم بما سواها أنه لا ضير في علمهم بما سواها حتىٰ بالنسبة إلى المستقبل، والقول بأنه كيف يمكن ذلك مع القول الحتمي بالبداء، فلابد بلحاظ البداء نفي العلم فيما سوى الذات بالنسبة إلى المستقبل مردود بما تقدم أولاً من الأحاديث الدالة علىٰ علمهم عليهم السلام بما يكون إلىٰ يوم القيمة وبما هو في النار وفي الجنة، وسيأتي في تحقيق البداء أن القول به لا ينافي علمهم بالمستقبل بالنسبة إلىٰ خصوص النبي والأئمة عليهم السلام وذلك لأنهم عليهم السلام هم لوح المحو والإثبات.

قال عليه السلام في الزيارة: «وبكم يمحو الله ما يشاء وبكم يثبت»، وأما قول علي عليه السلام في حديث ميثم: «لولا آية في كتاب الله تعالىٰ لأخبرتكم»، فإنما هو عليه السلام نفي الإخبار به لمكان الآية لا العلم كما لا يخفىٰ، ولهذا المقام توضيح آخر سيجيء في تحقيق معنىٰ البداء إن شاء الله تعالىٰ.

وربما يقال: بأن المراد من علم الغيب هو أن يعلم أحد شيئاً من عند نفسه، لا بآلة أو بتعليم غيره، فالمنفي عنهم عليهم السلام هو العلم بالغيب بهذا المعنىٰ، فيصح حينئذ أن يقال: إنهم لا يعلمون الغيب بهذا المعنىٰ (أي من عند أنفسهم) وإن صح أنهم عليهم السلام يعلمونه بتعليمه تعالىٰ لهم، وفيه أن هذا المعنىٰ خارج عن موضوع كلام القوم من أنهم يعلمون الغيب بهذا المعنىٰ أم لا بل موضوع الكلام من الكل (أي من النافين والمثبتين) بعد التسليم منهم علىٰ أنهم لا يعلمون من قبل أنفسهم، وأنه إذا علموا الغيب فهو من عند الله تعالىٰ هو أنه هل أعلمهم الله تعالى الغيب أم لا؟

نعم: ذهب شرذمة قليلون بأنهم أرباب من دون الله تعالىٰ، فهؤلاء يقولون: بأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب من عند أنفسهم، ولكن ذرهم وما يفترون.

وبعبارة أُخرىٰ: أن علمهم بالغيب عند القائلين به إنما هو بتعليمه تعالىٰ لا بأنفسهم، وإلّا لزم كونهم أرباباً وهو باطل، فكذلك من يدعي أنهم يعلمون الغيب فلا يدعيه أنهم يعلمونه بدون تعليمه وبأنفسهم بل يقولون: إنهم عليهم السلام مخلوقون مربوبون ومع ذلك يعلمون الغيب بتعليمه تعالىٰ.

والحاصل: أن نفي علم الغيب عنهم بأنفسهم ليس لإثبات أنهم مخلوقون، ولم يكونوا أرباباً بدعوىٰ أن علم الغيب من عند أنفسهم يستلزم كونهم أرباباً فلابد من نفيه عنهم عليهم السلام كذلك أي من عند أنفسهم؛ لكي يعلم أنهم ليسوا أرباباً بل هم مخلوقون، بل القائلون بأنهم يعلمون الغيب مطلقاً، والقائلون بأنهم لا يعلمونه مطلقاً أو علىٰ بعض الصور الآتية فإنهم متفقون علىٰ أنهم عليهم السلام مخلوقون عباد له مكرمون.

وبعد الفراغ عن هذا وأنه ليس شيء لهم إلّا وهو منه تعالىٰ، وقع النزاع في أنه هل يعلمون الغيب أم لا؟

وبعبارة أُخرىٰ: أنه هل أعلمهم الله الغيب أم لا؟ فالقول إنهم يعلمون الغيب بتعليمه تعالىٰ هو أول الكلام فيهم، فرجع الكلام حينئذ إلىٰ أنه لابد في إثبات علم الغيب لهم من إثبات الدليل وهو أنه هل أعملهم الله ذلك أم لا؟ وإلّا أنه كونهم عالمين بالغيب لابد وأن يكون من تعليمه تعالىٰ لا ريب فيه، بل هو مقتضىٰ كونهم عليهم السلام عبيداً له تعالىٰ، فتأمل تعرف.

أقول: ستجيء إن شاء الله النصوص القرآنية علىٰ أنه تعالىٰ أعلمهم مع البيان الشافي في شرحه فانتظر، وتقدم ما يدل عليه أيضاً.

وربما يقال: بأن المنفي عنهم هو العلم بالغيب من دون وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأما ما ورثوه منه صلى الله عليه وآله فإنهم عالمون به، فحينئذ ما دلّ علىٰ أنهم لا يعلمون

الغيب يحمل علىٰ ما لم يرثوه منه ﷺ وما دلّ علىٰ أنهم يعلمون الغيب يحمل علىٰ ما ورثوه منه ﷺ ولكن فيه أن هذا إن رجع إلىٰ القول بأنهم يعلمون الغيب بتعليمه تعالىٰ فهو هو، وإلّا فالاشتراط بأن علم الغيب هو ما ورثوه منه ﷺ لم يدل عليه دليل كما لا يخفىٰ.

ثم إن المنكرين لعلمهم عليهم السلام الغيب حملوا ما دلّ علىٰ أنهم يعلمون الغيب علىٰ أمور:

منها: أنهم عليهم السلام يعلمون كل ما سوى الأُمور الخمسة التي دلّت النصوص علىٰ أن الله تعالىٰ تفرد بها وهي ما في الآية: ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾.

وفي الحقيقة يرجع هذا القول إلى التفصيل في المسألة فيقال: بأنهم يعلمون الغيب فيما سوىٰ الخمسة ولا يعلمونها، ولكن فيه:

أولاً: أنهم عليهم السلام أخبروا بأنهم لا يعلمون أشياء كثيرة ليست من هذه الخمسة.

وثانياً: أن هذه الخمسة تجمع أغلب الغيوب بل كلها يرجع إلىٰ هذه، أو إلىٰ أحدها بضرب من التأويل القريب، فلا يبقىٰ إذاً مصداق لغيرها من الغيب يعلمونه كما لا يخفىٰ، مضافاً إلىٰ أنه إن أريد من كلّ واحد من هؤلاء الخمسة مجرد ظاهرها مع قطع النظر عن تأويلها، فلا ريب في أنها أقل القليل في قبال كثير مما يعلمونه من الغيب فإنه لا حدّ له ولا إحصاء.

وإن أُريد منها معناها العام وما تؤول إليه هذه الخمسة يشمل كثيراً من الغيوب، ففيه أنه حينئذ لا يبقىٰ مصداق للغيب الذي يعلمونه كما علمت، مضافاً إلى أنه حينئذ لا يكون هذا العلم القليل بالغيب شأناً معتنىً به لهم عليهم السلام إما لقلته وإما لأنه نرىٰ حينئذ أن كثيراً من الخلق مثلهم كأصحاب النجوم والرمّالين والجفريين والجوكيّة والكهنة وأهل القافة (القيافة) وزاجري الطير، وغيرهم من أصحاب

التسخير، الذين يعلمون أشياء ممن هو مسخر لهم من الجن بل والملك، أو من تسخير الأرواح أو من إحضارها كما لا يخفىٰ.

فإن هؤلاء يعلمون أكثر مما يعلمونه عليهم السلام بل قد نرىٰ أن بعضهم يعلم هذه الخمسة أو بعضها كما لا يخفىٰ، هذا كله مضافاً إلىٰ أنهم عليهم السلام قد أخبروا ببعض هذه الخمسة كما لا يخفىٰ على المتتبع، فلابد من معنى الآية والمراد منها بنحو يستقيم بظاهره، وسيجيء قريباً إن شاء الله.

ومنها: أن ما دلّ علىٰ أنهم يعلمون الغيب فالمراد منه البعض لا الكلّ.

بيانه: أنه لا ريب في أنهم لا يعلمون كلّ شيء بنحو العام المجموعي، فإن العلم بكلّ شيء بهذا النحو مختص به تعالىٰ كما لا يخفىٰ، فيحمل ما دلّ علىٰ أنهم لا يعلمون الغيب علىٰ هذا، وهذا لا ينافي علمهم ببعض الغيوب، فيحمل عليه ما دلّ علىٰ أنهم يعلمون الغيب، وفيه أن الاشتراط بالكلّ في قولهم: لا نعلم الغيب، مما لا ملزم له لا لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ولا عقلاً ولا نقلاً كما لا يخفىٰ، ولا يتوقف صدق كونهم لا يعلمون الغيب علىٰ هذا الاشتراط كما لا يخفىٰ.

ثم إنه بقي الكلام في بيان المراد من الآية الشريفة وهي قوله تعالىٰ: ﴿إن الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت..﴾[1].

فنقول: قال المجلسي رحمه الله في مرآة العقول في شرح هذه الآية ما ملخصه: أنّها تحتمل وجوهاً:

الأول: أن المراد هو أن تلك الأُمور لا يعلمها باليقين والدقة إلّا الله، فما يرىٰ من أنهم عليهم السلام أخبروا ببعضها، وكذا ما أخبر بها الملائكة لهم عليهم السلام فإنما هو إخبار بالتقريب من اليوم والليل والشهر لا بالدقة فإنه مخصوص به تعالىٰ.

وفيه أن اختصاص علم الغيب بهذه الخمسة به تعالىٰ وبهذا المعنىٰ لا مزية فيه

---

١ ـ لقمان : ٣٤.

يختص بها تعالىٰ، فإنّ أي مزية في معرفة الآن الدقي لموت أحد بعد العلم به في اليوم مثلاً فليس هذا إلّا تخصيص بلا فائدة.

الثاني: أن العلم الحتمي فيها مختص به تعالىٰ، وكلما أخبر الله تعالىٰ من تلك الخمسة أو أخبروا به عليهم السلام كان محتملاً للبداء.

وفيه أنه يلزم من هذا تخصيص البداء منه تعالىٰ بهذه الخمسة مع أنه منقوض طرداً وعكساً، فإنا نرىٰ وجود البداء في غير هذه الخمسة أيضاً، كيف وقد وردت أحاديث كثيرة بأنه ما بعث الله نبياً إلّا واشترط عليه البداء فإطلاقها يأبىٰ عن التخصيص بخصوص هذه الخمسة كما لا يخفىٰ على المتتبع فيها، وأيضاً نرىٰ أنهم أخبروا بهذه الخمسة بنحو الحتم الذي ليس فيه البداء لما أعلمهم الله به أنه كذلك، فليس كلّ ما أخبر تعالىٰ أو أخبروا بهذه الخمسة مما فيه البداء، وسيجيء في بيان المختار في المسألة تحقيق إجمالي في البداء إن شاء الله ويقرب إلىٰ هذا في الضعف ما قاله.

الثالث: أن تكون لهذه الخمسة مزيّة بين الأمور وهي أن الأمور غير هذه الخمسة إذا اطلع عليها أحد فإنما تطلّعه عليها بنحو فيها البداء، وأما هذه الخمسة فلا يخبر بها أحد مع البداء، بل إذا أخبر بها فإنما هو بنحو الحتم، فهذه الخمسة تختص من بين الأُمور بأنها لا يخبر بها الله إلّا بالحتم دون غيرها كالإخبار بها في ليالي القدر لحجة الله تعالىٰ، أو أقرب من ليالي القدر من أيام وقوعها مثلاً.

ثم قال رحمه الله: وهذا وجه قريب تدل عليه الأخبار الكثيرة إذ لابد من علم ملك الموت بخصوص الوقت، كما ورد في الأخبار، وكذا ملائكه السحاب بوقت نزول المطر، وكذا المدبرات من الملائكة بأوقات وقوع الحوادث.

أقول فيه: إنه ممنوع كلياً فإنه ربما أخبر تعالىٰ لموت أحد من أنبيائه، ومع ذلك لم يمت لمكان البداء كما لا يخفىٰ على المتتبع.

الرابع: أن يكون المراد عدم علم غيره تعالىٰ بها إلّا من قبله، فيكون كسائر

الغيوب، ويكون التخصيص بها لظهور الأمر فيها أو لغيره من الوجوه.

أقول: لم أعرف معنىً محصّلاً لهذا المحمل، فإن جميع الأُمور لا يكون علمها إلّا من قبله عند من يقول: بأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب، ولم يعلم وجه أظهرية الأمر فيها علىٰ أن الأظهرية لا توجب اختصاص علم الغيب بها به تعالىٰ، كما هو المستفاد والمدعىٰ من ظاهر الآية.

نعم قد يتوهم أن الاطلاع على الغيوب في الأُمور لكلّ أحد، ربما يخفىٰ وجهه، فيتوهم أنه من بعض الأسباب من دون دخالته تعالىٰ ومن دون تعليمه، وهذا بخلاف هذه الخمسة، فإنها لا يحتمل في العلم بها أنه من غير الله، بل الأمر فيه ظاهر أنها من تعليمه تعالىٰ، ولعلّ هذا هو المراد من المحمل.

ولكن فيه أيضاً أن هذا مجرد استحسان ينافي الظاهر المستفاد والمدعىٰ من الآية الشريفة؛ من أن علم هذه الأُمور يختص به تعالىٰ، فإنه حينئذ يرجع إلىٰ اختصاص الأظهرية لها به تعالىٰ، وهو كما ترىٰ أمر استحساني.

إذا علمت هذا فنقول: إن الظاهر من الآية (والله العالم) أنه تعالىٰ قد جعل الأئمة عليهم السلام دليلاً لتبيان كلّ شيء في القرآن المجيد، فهم لمكان إحاطتهم بعلم القرآن كلما أرادوا أن يعلموا شيئاً علموه به، إلّا هذه الخمسة فإنه تعالىٰ اختص علمها بنفسه، فلو أرادوا أن يعلموها لا يكون إلّا بتعليمه تعالىٰ إياهم عليهم السلام لا بمراجعتهم علمَ القرآن، فهذا وجه الاختصاص به تعالىٰ، ولا يرد عليه أن هذا صحيح إذا أخذ بظاهر الآية من خصوص الخمسة.

وأما إذا كان المراد المعنى العام لهذه الخمسة، الذي علمت أن كلّ علم الغيب أو أكثره يرجع إليها بضرب من التأويل، فحينئذ لا يبقىٰ لرجوعهم إلى القرآن في العلم بالأُمور كثير مصداق، فإنه يقال: لا ريب في أن القرآن قد بين لهم عليهم السلام كثيراً من العلوم والمعارف، وحقائق الأسماء الحسنىٰ والأسماء العظمىٰ، وكثيراً من الوعد والوعيد، وأخبار السماء والأرض، والدنيا والآخرة والجنة والنار، فإن

الموضوعات التي أخبر بها القرآن ويكون علمها عندهم عليهم السلام أكثر من أن تحصىٰ، علىٰ أن هذه الخمسة إنما هي أُمور يتعلق أغلبها بالحوادث من وقوع الساعة ونزول الغيث، وما في الأرحام، وما تكسبه نفس ووقت موتها فإن هذه راجعة إلىٰ الحوادث الدنيوية، فأين هذه من علوم القرآن التي لا يحيط بها العقلاء، بل ولا الملائكة ولا الأنبياء غيرهم عليهم السلام؟

نعم اختصاص هذه الأُمور الخمسة في الآية الشريفة إنما هي للإشارة إلىٰ أن أمر الخلق بأُصولها الأولية، التي تجمعها هذه الخمسة إنما هي أمرها بيده وعلمها عنده تعالىٰ، فلا يتصرف فيها أحد من نفسه؛ لعدم علمه بها بل موقوف أمرها وتعليمها عليه تعالىٰ، ففي الحقيقة هذه الآية الشريفة تبين سلطنة الحق تعالىٰ، ونفوذه وقدرته الكاملة في الأُمور بحيث لا يشترك فيه أحد، وسيجيء توضيح لهذه الآية إن شاء الله تعالىٰ.

ثم إنه ربما يقال في الجمع بين ما دلّ علىٰ أنهم لا يعلمون الغيب، وبين ما دلّ علىٰ أنهم يعلمونه بما حاصله: أنهم عليهم السلام يعلمون ما اشتمل عليه الكتاب وهو علم كثير قال الله تعالىٰ: **﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾**[1] وقال تعالىٰ: **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾**[2] وغير ذلك من الآيات، ثم ما اشتمل عليه القرآن علىٰ أقسام لابد من جعل كل واحد منها، فيما جعله الله فيه من ظرفه، وهي علىٰ ما يلي:

منها: ما كان.

ومنها: ما يكون.

ومنها: المحتوم.

ومنها: المشروط.

ومنها: الموقوف.

---

١ ـ يس: ١٢.
٢ ـ الأنعام: ٣٨.

أما الأول (أي ما كان في علمه تعالىٰ بأنه قدّره): فقد اطلعهم عليهم السلام بواسطة محمد صلى الله عليه وآله فهذا في كونه سابقاً في الجملة مما لا شك فيه، وأما أنه يبقىٰ أو يتغير فعلىٰ أقسام، منه ما أخبرهم عليهم السلام بأنه لا يتغير أبداً، وعلّمهم أنّه ليس في عالم الغيب والشهادة له مقتضىٰ التغيير.

نعم أخبرهم الله تعالىٰ في هذا القسم بأنه إذا شاء أن يغيّره سبّب وخلق له المقتضيات كما يشاء، فحينئذ يغيّره كيف يشاء؛ لأن إخباره بأن هذا لا يبقىٰ، وليس في عالم الغيب والشهادة ما يغيّره، لا يوجب سلب القدرة عنه تعالىٰ علىٰ أن يغيّره بتسبيب الأسباب لتغييره ولا يقال: كيف، ولا سبب له في عالم الغيب والشهادة؛ وذلك لأنه تعالىٰ بذاته سبب من لا سبب له، وسبب كلّ ذي سبب، ومسبب الأسباب من غير سبب كما وردت بهذا النصوص.

والحاصل: يعلمون في هذا القسم أنه له تعالىٰ أن يغيره بقاءً إن شاء، فلم تكن يده مغلولة إلّا أنهم لا يعلمون هل يشاء بذاته تغييراً أم لا؟ فعدم هذا العلم من هذا القسم ملحق بعلم الغيب المختص به، إذ لم يقل أحد ممن قال بأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب: إنه ليس هناك ما لا يعلمونه، بل هناك أشياء كثيرة في علمه الذاتي تعالىٰ لا يعلمونه فهم عليهم السلام مع ما يعلمونه مما كان يقوله تعالىٰ لنبيه إلّا أنهم مع ذلك لأجل علمهم بأنه تعالىٰ له أن يغيره فهم من خشيته مشفقون، وإنما علمهم فعلاً بأنه لا يتغير؛ لأجل ركونهم إلىٰ قوله وتصديقهم بوعده، فهم مشفقون في حال علمهم به بإعلامه تعالىٰ لهم، وفي حال أنه له تعالىٰ أن يغيره كما لا يخفىٰ.

أقول: يشكل جمع هذا مع قوله تعالىٰ: **﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾** إلّا أن يقال: إن السرّ في قوله تعالىٰ: **﴿عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون﴾** يبين أنهم في عين اعتمادهم علىٰ وعد ربّهم، وأنه تعالىٰ لا يخلف الوعد، مشفقون منه تعالىٰ لمكان عدم سلب القدرة منه عن التغيير.

والحاصل: أنه من تصديقهم بوعده تعالىٰ، وثبات ركونهم إلىٰ قوله تـعالىٰ في حقهم: ﴿عباد مكرمون﴾ يعلمون بعدم التغيير فيما أخبرهم تعالىٰ به، ومن علمهم أن كلّ هذه الأشياء حتىٰ إخباره تعالىٰ بعدم التغيير أشياء ممكنة، لا تخرج بالوعد عن الإمكان الذاتي، فإنه تعالىٰ لو شاء أن يغيرها غيّرها في هذا القسم أيضاً كيف شاء، فهم من هذا الامكان مشفقون.

وبعبارة أُخرىٰ: القول بالبداء فيما أخبر تعالىٰ يجري في هذا القسم أيضاً، ولهذا الاحتمال روي عن الصادق عليه السلام ما معناه: «إن إلياس النبي سجد وبكىٰ وتـضرع، فأوحى الله إليه: اِرفع رأسك فإني لا أُعذبك، قال: يا رب إن قلت: لا أُعـذبك، ثم عذبتني ألست عبدك».

وإلىٰ هذا أيضاً يشير قول السجاد عليه السلام في دعائه: «إلهي وعزتك وجـلالك لو أنني منذ بدعت فطرتي من أول الدهر عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكلّ شعرة في كل طرفة عين»، إلىٰ أن قال: «لما استحققت محو سيئة من سيأتي»، راجع الدعاء، فإن مفاده مفاد ما روي عن إليـاس النـبي عليه السلام كـما لا يخـفىٰ، فـهذا الاحـتمال قـد أوقعهم عليهم السلام في الخشية منه مع وعده تعالىٰ.

وورد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بـالذي أوحـينا إليك﴾ عـن الرضا عليه السلام: «فهو يعلم كيف يذهب ولا يذهب به أبداً».

وكيف كان إمكان تغيير ما أخبر به تعالىٰ أوقعهم في الخشية منه تـعالىٰ، وإن علموا بالضرورة أنهم عليهم السلام ممن وعدهم النجاة، وأنهم إلىٰ رضوانه صائرون البتة، وإلّا لما كان وجه لخوفهم منه تعالىٰ، وهم يعلمون أنهـم مـقربون مـرضيون، بـل علمت فيما سبق: أن الجنة خلقت لهم ولأتباعهم.

أقول: الإمكان الذاتي للتغيير يكون مسلوب الأثر بقوله تعالىٰ: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ كيف يمكن تأثير الاحتمال في هذا النحو من الخوف الكثير، مع وعده تعالىٰ بالنجاة مثلاً، بل الخوف المتراءىٰ منهم بنحو لا يكون في غـيرهم،

فإنما هو من الخشية من عظمة ربّهم تارة والشوق إليه أُخرىٰ، وترقب ازدياد المعرفة به مما خفي عنهم ثالثة، فإنهم عليهم السلام وإن بلغوا إلىٰ ما بلغوا، ولكن له تعالىٰ تجليات ذاتية خفية غير متناهية الظهور كما لا يخفىٰ.

ومنه: ما أخبرهم أنه يتغيّر، وله تعالىٰ أن لا يغيره بعين هذا البيان فهم عليهم السلام يحكمون بقول الله أنه يتغير، ومع ذلك يعلمون عن تعليم الله لهم أن بيده ملكوت كل شيء، فإذا شاء في هذا القسم عدم تغيير فعل كيف لا ولا راد لإرادته ولا معقب لحكمه؟ ويجري في هذا القسم ما تقدم من الكلام في سابقه حرفاً بحرف كما لا يخفىٰ.

ومنه: ما أخبر تعالىٰ بأنه لا يتغير هذا مع أنه تعالىٰ لم يحتم لهم عليهم السلام بأن يطلعهم علىٰ انتفاء مقتضى التغيير في الشهادة، فهم في مقام الشهادة غير مطلعين علىٰ انتفاء مقتضى التغيير بل يحتملونه.

نعم يستلزم ظاهر إخباره تعالىٰ لهم ولملائكته إنتفاء مقتضىٰ التغيير في الغيب؛ لما علموا أنه تعالىٰ إذا أخبر أنبياءَه ورسله، فإنه لا يكذب نفسه، ولا يكذب المخبرين عنه بالصدق بحسب الإخبار الظاهري، فحينئذ هم عليهم السلام يخبرون عنه تعالىٰ بأن هذا الشيء ثابت، إلّا أنه لله فيه البداء فيما يشاء ويخبر به، فإنه يمحو ما يشاء ويثبت، فتأمل.

فإن عدم اطلاعهم علىٰ انتفاء مقتضى التغيير في الشهادة، مع استلزام إخباره تعالىٰ انتفاء مقتضى التغيير في الغيب، مما لا يمكن جمعها، فإن عالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما لا يخفىٰ، هذا كله بالنسبة فيما كان.

وأما الثاني أعني ما يكون: فهو علىٰ أقسام:

منه: ما أخبرهم الله تعالىٰ بوقوعه حتماً علىٰ صفة كذا، فلا محالة يكشف هذا عن أنه لا مانع لوقوعه لا في الغيب من موجبات القدر، أو مما يتوقف عليه قابليّته للوجود، بل الموانع مفقودة، وعلة الايجاد موجودة، ولا في الشهادة من أسباب القضاء مّما يتوقف عليه وجوده، بل كلّها موجودة كالدعاء والصدقة والبر

بالوالدين مثلاً وعدمها.

وبعبارة أُخرىٰ: الأسباب السابقة على القضاء، والإمضاء بالوجود كلّها موجودة، بل الأسباب اللاحقة أيضاً فإنه ربما يكون الشرط بلحاظ الزمان متأخراً عن المشروط، والسرّ فيه أن الشرائط اللاحقة زماناً ربما تكون سابقة دهراً كما حقق في محلّه، بل ربما تكون اللاحقة بالفعل والسابقة بالقوة، ومن المعلوم أن ما بالفعل سابق دهراً علىٰ ما بالقوة وإن تأخر زماناً.

وفيما كان كذلك فإنه سيكون، ويعلمون عليهم السلام أن ذلك خلق الله، وفي قبضته وتحت إمضائه وقضائه.

ومنه: ما أخبرهم عليهم السلام بأنه سيكون ولم يحتم لهم بكشف الحال في الغيب والشهادة، فهذا حكمه حكم ما كان في عدم تغيّره مع عدم الحتم، واحتمال البداء فيه كما تقدم مشروحاً.

ومنه: المحتوم فهو كما مرّ.

ومنه: المشروط وحينئذ يعلمون عليهم السلام أنه يجوز أن يقع شرطه وأن لا يقع، **والأول:** أن ما وقع شرطه، يجوز أيضاً أن لا يقع لايجاد مانع أقوىٰ يدفع الشرط عن التأثير، أو لمنع ذاته جلّ وعلا فإنه سبحانه ربما يمنع الأسباب عن التأثير كما منع تأثير السكين لذبح إسمعيل عليه السلام.

نعم حينئذ لو لم يمنعه تعالىٰ، وأذن تكويناً في وقوعه، فلازمه الوقوع، فعلم أنه مع عدم المنع ووجود الأسباب لابد من الاذن أيضاً وإلّا لم يقع.

فالأسباب السبعة من المشية والإرادة والقدر والقضاء، والاذن والأجل والكتاب، إذا لم يكن لم يقع أيّ شيءٍ كما صرح به في الأخبار عنهم عليهم السلام فبمجرد حصول الأسباب الخارجية بدون تلك الأمور السبعة الراجعة إلىٰ إيجاد الفاعل، لا يكفي في الوقوع، ألا ترىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم﴾ فإنه مع وجود الأسباب الخارجية للاحتراق لم يتحقق الاحتراق؛ وذلك لعدم تلك

الأسباب السبعة المذكورة الراجعة إلىٰ إيجاد الفاعل فإن قوله تعالىٰ: ﴿**كوني برداً**﴾ يدل علىٰ عدم تلك الأسباب السبعة المذكورة كما لا يخفىٰ.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿**ألم تر إلىٰ ربّك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً**﴾[1] فقوله: ﴿**ولو شاء لجعله ساكناً**﴾ يدل علىٰ أن الأصل في تحقق مدّ الظل هو تلك الأسباب السبعة وإلّا لجعله ساكناً، ويجوز فيما وقع شرطه أن يقع المشروط؛ وذلك لما يشاء الله تعالىٰ من الأسباب والمتممات من المشخصات.

والحاصل: أنه إذا حصلت الأسباب المذكورة آنفاً مع تحقق القابلية ومتمماتها السبعة أيضاً من الكم والكيف والجهة والوقت والرتبة والمكان والوضع، فإذا اجتمعت هذه الأسباب السفلية المعدة لقابلية المحل مع تلك الأسباب العلوية السابقة، أوجد تعالىٰ بفضله ذلك الشيء لتماميّة علله منه تعالىٰ كله أيضاً مع تعلق المشية به، فأُمّ الكتاب الذي لا محو فيه ولا تغيير هو كون الشيء حين كونه في ظرف وجود تلك الشرائط، أي بتحقيقه يعلم أنه مما هو في أُمّ الكتاب بدون محو ولا إثبات.

نعم الشيء الممكن وجوده قبله، أي قبل هذا الموجود في ظرف تحقق شرائطه، أو بعده أي ما يمكن أن يكون كذلك، فهو مما فيه المحو والإثبات لا غيره.

وكيف كان ما يجوز فيه المحو والإثبات هو غير ما هو متحقق بتحقيق الشرائط كما تقدم، والشيء ما لم يجد فيحتمل فيه المحو والإثبات، وكل هذه الأقسام بهذه الشرائط مما يعلمونه عليهم‌السلام بهذا النحو المذكور، ومن الأشياء ما هو موقوف علىٰ مشيته تعالىٰ فإن شاء ايجاده وجد وإلّا فلا، بل هو باق فيما شاء الله إمكانه.

ومن المعلوم أنه لا شيء غيره تعالىٰ إلّا وهو مما شاء الله إمكانه، فليس هناك ما شاء الله عدم إمكانه كما لا يخفىٰ إلّا الممتنعات، وهي ليست إلّا الفروض الوهمية لا ممكنة الوجود، ولا يتعلق مشيته مما لا يشاء إمكانه فلا يشاء تعالىٰ إيجاد ما لم يشأ

---

١ ـ الفرقان : ٤٥.

إمكانه، إذ ليس شيئاً غيره تعالىٰ، أي ليس هناك شيء غيره تعالىٰ، وغير ما شاء إمكانه، مما لم يشأ إمكانه ولا يكون شيئاً حتىٰ يشاءه تعالىٰ كما لا يخفىٰ.

ثم إن من المعلوم: أن العالم بشيء ومعلومه غير الله تعالىٰ لا قوام له إلّا به تعالىٰ في جميع أنحاء العلم؛ وذلك لأن غيره تعالىٰ فقر محض ذاتاً وبقاءً فأي أمر كان له لم يكن إلّا بالله وبأقداره.

ومنه: العلم، فلا محالة لا علم لهم عليهم السلام مطلقاً إلّا به تعالىٰ بنحو علّمهم في ظرفه وشرائطه المتقدم ذكرها، فليس يعلمون علماً بشيء إلّا في ظرفه، فهم بذاتهم لا يعلمون الغيب، وإنما يعلمون بتعليم الله لهم من طريق القرآن والنبي علىٰ أقسامه السابق ذكرها، هذا كله ما ذكره القوم في المقام.

ولكن التحقيق أن يقال وعليه التوكل:

إعلم أن علم الغيب لا يراد منه في لسان الشرع إلّا ما استأثره تعالىٰ لنفسه، واتصافه بالغيب إنما هو بالنسبة إلىٰ غيره تعالىٰ، وإلّا فهو تعالىٰ ذات علّامة وعلم كلّه، فعلمه بالنسبة إليه تعالىٰ حضوري بالنسبة إلىٰ جميع المعلومات الخلقية من الأزلية والأبدية والسابقة منها علىٰ اللاحقة وبالعكس، وما هو موجود في صقع الخارج وما هو بعد باق في العدم أي في عالم التقدير أو العلم الذاتي، فجميع هذه المعلومات حضوري بالنسبة إليه تعالىٰ ولا يكاد يتصف بالغيب أبداً كيف وقد قال تعالىٰ: **﴿لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء﴾**.

والحاصل: أن ما استأثره الله تعالىٰ لنفسه هو الموصوف بعلم الغيب بالنسبة إلىٰ غيره تعالىٰ، وأما ساير العلوم الذي أعلمه الله تعالىٰ أنبياءه وحججه، فليس بعلم الغيب في عرفهم عليهم السلام وإن كان غيباً عند غيرهم ممن لا يعلمه، فإن الغيب لغة كما تقدم عن المجلسي رحمه الله: هو ما غاب عن الشخص، وهذا أمر إضافي كما لا يخفىٰ.

فكل علم لهم مما أعلمهم الله تعالىٰ فهو ليس بعلم الغيب، وإن كان بالنسبة إلىٰ غيرهم من علم الغيب، بل علم الغيب هو ما استأثره تعالىٰ لنفسه، وهذا هو مورد

النزاع عن المحققين من أهل العلم والمعرفة، وهذا مما ينبغي أن يبحث عنه فيقال: هل الإمام عليه السلام مثلاً عالم به أم لا؟ وأما غيره فلا، كما لا يخفىٰ.

ويدل علىٰ ما ذكر ما رواه في الكافي بإسناده عن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن لله تبارك وتعالىٰ **علمين**:

الأول أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله، فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه.

الثاني استأثر به تعالى فإذا بدا الله في شيء منه أعلمنا ذلك، وعرض علىٰ الأئمة الذين كانوا من قبلنا»، الحديث.

فعُلِمَ منه أن الغيب هو ما استأثره لنفسه بحيث إذا بدا له تعالىٰ أعلمه ذلك لهم عليهم السلام، ويدل عليه أيضاً قول أمير المؤمنين عليه السلام في النهج فيما يومئ به إلىٰ وصف الأتراك قال عليه السلام: «كأني أراهم قوماً «كأن وجوههم المجان المطرقة» يلبسون السرق والديباج، ويعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استمرارُ قتلٍ حتىٰ يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت أقلَّ من المأسور.

فقال له بعض أصحابه: لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك عليه السلام وقال للرجل (وكان كلبياً): «يا أخا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلّم من ذي علم وإنما علم الغيب علم الساعة، وما عدّده الله سبحانه بقوله: ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**﴾.

فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثىٰ، وقبيح أو جميل، وسخي أو بخيل، وشقي أو سعيد، ومن يكون للنار حطباً، أو في الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلّا الله، وما سوىٰ ذلك فعلم علّمه الله نبيه صلى الله عليه وآله فعلّمنيه، ودعا لي أن يعيه صدري، وتضطمَّ عليه جوانحي».

فقوله عليه السلام: «فهذا علم الغيب» المشار إلىٰ المعدود في الآية الشريفة، يدل علىٰ أن

هذا هو علم الغيب، وأما سواه فلا كما صرح به ﷺ بل هو كما قاله ﷺ: «تعلّم من ذي علم».

ويعلم من هذا الحديث وسابقه أيضاً أن علم الغيب المشار إليه، هو الذي إذا أراد الله أن يعلمه لغيره .علّمه له . ، فهذه الخمسة المشار إليها في الآية الشريفة بجميع خصوصيات كلّ واحد منها بحيث لا يعزب عنه جهة ولا شأن منه، كما أُشير إليه في كلامه ﷺ: «علمه مختص به تعالىٰ لا يعلمه إلّا هو، إلّا إذا بدا لله تعالىٰ بتعليمه حججه» كما لا يخفىٰ، والسرّ في اختصاص بعض العلم بذاته المقدسة هو أنه ذاته علّامة وهو علم كله كما في الحديث.

ومن المعلوم أنه لا نهايه له تعالىٰ بخلاف غيره، فإنه مخلوق ذو حدود ذو نهاية، فلا محالة دائماً يختص ذاته المقدسة بعلم يخصّه، ولا يشركه فيه أحد، هذا بحسب الذات المقدسة، وأما السّرّ في أنه تعالىٰ استأثر بعض العلم لنفسه إلّا إذا بدا لله تعالىٰ فيعلمه لغيره هو، إن العلم المستأثر لنفسه وإن كان في نفسه قابلاً للتعليم لغيره تعالىٰ كما يستفاد ذلك من قوله ﷺ: «استأثره لنفسه»، ضرورة ان العلم الذي لا يمكن تعليمه لغيره لا يصح إطلاق الاستيثار لنفسه، بل هو حينئذ عين ذاته كالعلم بكنه ذاته فإنه هو تعالىٰ لا غيره ليستأثره لنفسه كما لا يخفىٰ.

وكيف كان فالعلم المستأثر لنفسه في قبال العلم الذي أظهره الله تعالىٰ لرسله، وإنما قسم العلم بهذين القسمين فعبّر عن أحدهما بعلم الغيب وهو المستأثر لنفسه تعالىٰ. وعن الآخر بالتعلم عن ذي علم كما علمت لمصلحة في بيان العلم تدريجاً حسب ما تقتضيه الحكمة الالهية والمصلحة الأزلية، فإن نظام عالم الوجود **بأُمور**:

منها: أن يفيض عليهم العلم تدريجاً لا دفعة واحدة، كما لا يخفىٰ علىٰ أحد لا لأجل أن يكون هناك علم لا يعلمه إلّا الله تعالىٰ، فإن هذا مضافاً إلىٰ أنه ضروري لما علمت من أن ذاته المقدسة لا يعلمها أحد، لا فائدة حينئذ في هذا التقسيم (أي تقسيم الغلم) إلىٰ علم الغيب وإلىٰ غيره، بحيث يراد من علم الغيب ما لا يمكن

تعليمه لأحد.

والحاصل: أن العلم الذاتي له تعالىٰ خارج عن المقسم وعلم الغيب الذي هو قسم للعلم الآخر الذي أعلمه الله تعالىٰ رسله هما قسمان للعلم الممكن والقابل تعليمه وبيانه فما اختص له واستأثره لنفسه، إلّا إذا بدا لله تعالىٰ تعليمه يسمىٰ بعلم الغيب، وما أظهر الله عليه ملائكته ورسله يسمىٰ بتعلّم عن ذي علم، فعلم مما ذكر: أن علم الغيب دون علم الذات المقدسة هو مما يمكن تعليمه لغيره، نعم مخصوص بما بما إذا بدا لله تعالىٰ تعليمه كما تقدم.

وحاصل العلم الذي استأثره لنفسه المعبّر عنه بعلم الغيب عن غيره تعالىٰ، أنه تعالىٰ لما أراد الخلق بأقسامه وأنواعه في أزمنة وأمكنة مختلفة متعاقبة، فتعلقت المشية الإلهية بها علىٰ ما ينبغي بنحو الأكمل الأرجح في الامكان فقدّرها كذلك، وكلها كذلك مخلوق له تعالىٰ قد تعلّق به العلم المستأثر لنفسه بلحاظ الجمع.

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم**﴾ والله العالم، وما قدّره الله تعالىٰ في ذلك الجمع يكون عن علمه الذي لا نفاد له، فتلك المقدرات بلحاظ التقدير تكون محدودة، وبلحاظ العلم والقدرة له تعالىٰ لا تناهي لها أبداً، إلّا أنه تعالىٰ حكيم لا ينزلها إلّا بقدر معلوم، وأما أصلها فهو الخزائن التي لا تفنىٰ ولا يتصور فيها النقص بكثرة الإنفاق، فهو تعالىٰ ينفق منها كيف ما يشاء ويداه مبسوطتان، وإنفاقه عبارة عن إيجادها وإنزالها عن عالم التقدير إلىٰ عالم التكوين فهو تعالىٰ حين الايجاد ينزلها من الغيب (أي من ذلك العالم التقدير الجمعي الأولي المستأثر علمه الجمعي لنفسه تعالىٰ) إلىٰ البيوت التي ارتضاهم لغيبه المشار إليه بقوله: ﴿**إلّا من ارتضىٰ من رسول**﴾.

وإليه يشير في قوله عليه السلام في الزيارة: «إرادة الرب في مقادير أُموره تهبط إليكم، وتصدر عن بيوتكم».

ثم إن هذا المنزل علىٰ هذه البيوت (أي بيوت حقائقهم الروحية) علىٰ أقسام

نذكرها إجمالاً (وتقدم تفصيلاً) فنقول: فمنه (أي من ذلك المخزون المكنون في علم الغيب النازل عليهم عليهم السلام) محتوم، أي ما لا يمكن تغييره ومنه محتوم يمكن تغييره وهو قسمان:

قسم منه لا يغيره لما وعد به وهو لا يخلف الميعاد.

وقسم يغيره وهو الموقوف (أي المشروط) فيكون كذا إن حصل كذا هذا في الشرط، وإن لم يحصل كذا كان كذا هذا في فقد المانع الذي هو كالشرط.

ثم إن المانع عنده تعالىٰ معلوم الحال، وأما عند غيره فقد يكون في الغيب والشهادة، وقد يكون في الغيب لا في الشهادة ولا عكس إذ ما كان في الشهادة فهو في الغيب أيضاً، ثم إن الموقوف إن وجد شرطه ووجد المانع، فهو علىٰ حال كونه موقوفاً إلّا إذا رجح أحدهما فالحكم له، وأما إذا وجد الشرط وفقد المانع في الغيب والشهادة حتم وجوده، ودلّ علىٰ تمامية قوابله، ووصل علمه حينئذ إليهم عليهم السلام وأنه حينئذ مصداق ما شاء الله كان، وإن كان الشرط مما ينتظر وجوده فيجوز حينئذ الإخبار به كذلك، أي منتظر الوجود لانتظار الشرط، ويجوز الإخبار به على الحتم إذا علموا منه تعالىٰ أنه موجود الشرط، وهو لا يخلف وعده، فيكون كالمحتوم إلّا قبل وجوده.

وأما إذا وجد الشرط وفقد المانع في الغيب، ولم يعلم فقدانه في الشهادة، فحينئذ يجوز الإخبار من غير حتم لامكان البداء فيه، وسيجيء فائدة البداء، وإنه مما لا بد من الاعتقاد به، وإنه ما عبد الله بشيء أفضل منه، ففي هذا الفرض قد يكون ما أخبروا به واقعاً، وقد لا يكون واقعاً لظهور البداء، وإلىٰ هذا القسم من إخباراتهم يشير ما ورد عنهم ما معناه: إذا أخبرناكم بأمر فكان كما قلنا فقولوا: صدق الله ورسوله، وإن كان بخلاف ذلك فقولوا: صدق الله ورسوله، توجروا مرتين، وسيجيء في الشرح عند قوله عليه السلام: «القوامون بأمره»، بيان حال البداء وتوضيحه مفصلاً إن شاء الله تعالىٰ، ونشير هنا إليه في الجملة فنقول:

إن الحكمة الإلهية في استيثاره تعالىٰ بعض العلم لنفسه إلّا إذا بدا لله تعالىٰ، هو أنه تعالىٰ استعبد الخـلق بذلك بأن أعلمهم علوماً بلسان أنبيائه وحججه، وأخفىٰ عنهم علوماً ليتعبدوا بذلك له تعالىٰ ويخافوا من غامض علمه المكنون، فيما أعلمهم هو علماً يمكن فيه البداء كما دلت عليه أحاديث البداء، فالخلق وإن كانوا عالمين به إلّا أنهم لمكان البداء مشفقون منه تعالىٰ، وهذا بخلاف ذلك العلم المستأثر لنـفسه تعالىٰ، فإنه إذا بدا لله تعالىٰ وخرج لأحد من حججه نفد ولا بداء فيه.

ففي الكافي بإسناده عن حريس قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن لله علمين: علم مبذول وعلم مكفوف. فأمّا **المبذول** فـإنه ليس مـن شيء يـعلمه المـلائكة والرسل إلّا نحن نعلمه. وأما **المكفوف** فهو الذي عند الله عزوجل في أُم الكتاب إذا خرج نفذ».

فيعلم منه: أن العلم الموصوف بأنه في أُم الكتاب، هو العلم الذي ليس فيه بداء، وهو إذا خرج نفذ أي لا رادع له من غيره تعالىٰ بل هو من الحتم.

وأحسن حديث يشرح هذا المعنىٰ ما فيه أيضاً بإسناده عن سدير الصـيرفي قال: سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام عـن قـول الله عـزوجل: **﴿بـديع السموات والأرض﴾** قال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله عزوجل إبتدع الأشياء كلّها بعلمه علىٰ غير مثال كان قبله، فابتدع السمٰوات والأرضين ولم يكن قبلهن سمٰوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله تعالىٰ: **﴿وكان عرشه علىٰ الماء﴾**؟ فقال له حمران: أرأيت قوله جل ذكره: **﴿عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً﴾**؟ فقال أبو جعفر عليه السلام إلّا من ارتضىٰ من رسول، وكان والله محمد ممن ارتضاه.

وأما قوله: **﴿عالم الغيب﴾** فإن الله عزوجل عالم بما غاب عن خلقه، فيما يقدر من شيء، ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه، وقبل أن يفضيه إلى الملائكة، فذلك يـا حمران علم موقوف عنده إليه فيه المشية، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأمّا العلم الذي يقدره الله عزوجل فيقضيه ويمضيه، فـهو العـلم الذي انـتهىٰ إلىٰ

رسول الله ﷺ ثم إلينا»، الحديث.

قوله عليه السلام: «فإن الله عزوجل عالم بما غاب»، إلىٰ قوله: «فذلك يا حمران علم موقوف عنده» الخ بعد قوله عليه السلام، وأما قوله: «عالم الغيب»، يدل علىٰ أن مصداق علم الغيب هو هذا العلم الذي فيه البداء له تعالىٰ كما تقدم، فيقضيه إذا أراد أي إذا أخرج نفذ، فلا بداء فيه حينئذ، وقد يبدو له فيه فلا يمضيه كما لا يخفىٰ.

ثم إن العلم المستأثر لنفسه تعالىٰ الذي هو مصداق لعلم الغيب قد يبدو له تعالىٰ أن يعلمه حججه عليهم السلام فيعلمهم كما لا يخفىٰ، ولكنه تعالىٰ مع ذلك أقدرهم علىٰ أنهم إذا شاءوا أن يعلموا ذلك العلم المستأثر لنفسه علموه.

ولعمري هذا مقام لم يعطه الله لأحد إلّا إياهم عليهم السلام فهم في مقام القرب منه تعالىٰ، بحيث إذا شاءوا أن يعلموا من ذلك العلم المستأثر لنفسه علموه، وإليه يشير كثير من الأخبار الدالة عليه منها:

ما في الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الإمام إذا شاء أن يعلم علم»، وقال عليه السلام أيضاً: «إن الامام إذا شاء أن يعلم أُعلِمَ»، وقال عليه السلام أيضاً: «إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك».

فدلّت هذه علىٰ أنهم عليهم السلام إذا أرادوا أن يعلموا من ذلك العلم المستأثر لنفسه تعالىٰ علموه، وليس معناها أن الامام لا يعلم شيئاً كساير الناس، وإنما إذا أراد أن يعلم علم، فإن هذا مخالف لضرورة الدين والكتاب والسنة فإنهم (كما تقدم ويأتي) عالمون بما كان، وما يكون، وما هو كائن إلىٰ يوم القيٰمة، وإنما المراد من العلم في هذه الأحاديث هو العلم المستأثر لنفسه، فهم عليهم السلام إذا أرادوا أن يعلموا هذا العلم أعلمهم الله تعالىٰ.

ويدل علىٰ هذا بأحسن وجه ما في تفسير نور الثقلين عن كتاب الاحتجاج للطبرسي (رحمه الله تعالىٰ) عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: «وألزمهم الحجة بأن خاطبهم خطاباً يدل علىٰ انفراده وتوحيده، وبأن لهم أولياء تجري

أفعالهم وأحكامهم مجرىٰ فعله، وعرف الخلق اقتدارهم علىٰ علم الغيب بقوله: **﴿عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً إلّا من ارتضىٰ من رسول﴾**، قال السائل: مَن هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول الله ﷺ ومن حلّ محلّه من أصفياء الله الذين قال: **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** الذين قرنهم الله بنفسه وبرسوله، وفرض علىٰ العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم منها لنفسه».

فقوله عليه السلام: «وعرف الخلق إقتدارهم» الخ، يدل علىٰ أنهم مقتدرون علىٰ تعلّم علم الغيب منه تعالىٰ.

ومما يدل علىٰ أنه لا يحجب عن الامام أي علم أراد ما فيه أيضاً عن أبي حمزة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «لا والله لا يكون عالم جاهلاً أبداً عالماً بشيء جاهلاً بشيء، ثم قال: الله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يفرض طاعة عبد يحجب عنه علم سمائه وأرضه، ثم قال: لا يحجب ذلك عنه».

وقد تقدم في معنىٰ الولاية عن أُصول الكافي بإسناده عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك أخبرني عن النبي ورث النبيين كلهم؟ قال: نعم، قلت: من لدن آدم حتىٰ إنتهىٰ إلىٰ نفسه؟ قال: «ما بعث الله نبياً إلّا ومحمد ﷺ أعلم منه، قال: قلت عيسىٰ بن مريم، إلىٰ أن قال عليه السلام: وإن في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر، إلّا أن يأذن الله به مع ما قد يأذن الله، مما كتبه الماضون وجعله الله لنا في أُمّ الكتاب، إن الله يقول: **﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلّا في كتاب مبين﴾** ثم قال: **﴿ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾** فنحن الذين اصطفانا الله عزوجل، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كلّ شيء»، الحديث.

وقد تقدم بتمامه.

فانظر كيف استدل واستشهد عليه السلام علىٰ علمهم بالغيب أولاً بقوله تعالىٰ: **﴿ما من غائبة في السماء والأرض إلّا في كتاب مبين﴾** أي كلّ علمها فيه، وهذا الكتاب بنصّ منه تعالىٰ وهو قوله: **﴿ثم أورثنا الكتاب﴾** عندهم عليهم السلام فهم يعلمون أي غائبة

في الكتاب بتعليم الله تعالىٰ لهم كتابه، الذي فيه تبيان كلّ شيء كما لا يخفىٰ، بل نقول: إن الأئمة عليهم السلام مطلعون علىٰ الغيب من الله تعالىٰ، والاطلاع أخص من العلم، فإنه مساوق للرؤية والمشاهدة، والعلم أعم منه ومن التصور كما لا يخفىٰ إلّا إذا أُريد من العلم العلم الحضوري فإنه حينئذ يساوق الاطلاع.

وكيف كان فهم عليهم السلام مطلعون علىٰ الغيب يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وما كان الله ليطلعكم علىٰ الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾[1]، فدلت علىٰ أن المجتبىٰ من الرسل هو المطلع علىٰ الغيب باطلاع الله تعالىٰ له، وكذلك مثله الأوصياء كما لا يخفىٰ.

ثم إنه قد علمت أن حقيقة علم الغيب هو الذي استأثره الله تعالىٰ لنفسه، فهو معنىٰ جامع إلّا أنه تعالىٰ بيّن مصاديقه في الآية الشريفة وهي الخمسة المذكورة فيها، وحيث علمت أن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً﴾ هو علم الغيب المشار إليه في الآية المذكورة، التي فيها تلك الخمسة، فحينئذ قوله: ﴿فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً * إلّا من ارتضىٰ من رسول﴾[2] يدلّ علىٰ أنه تعالىٰ يظهر رسوله على الغيب أي علىٰ تلك الأُمور الخمسة المذكورة كما لا يخفىٰ، وحينئذ فمعنىٰ كون هذه الأُمور الخمسة من علم الغيب بحيث لا يعلمه أحد هو أنه تعالىٰ جعل لتحصيل العلم بساير الغيوب غير هذه الخمسة أسباباً لتعلمها ومنحها لهم عليهم السلام.

فهم عليهم السلام بالاختيار في أي زمان شاءُوا أن يعلموها علموها بل ربما يقال: بأنه تعالىٰ جعل تلك الأسباب لغيرهم عليهم السلام أيضاً إلّا أنه لا بتلك التوسعة بل كلّ بحسبه، وأما هذه الخمسة فهي مختصة له تعالىٰ بمعنىٰ أنه لم يجعل سبباً لغيره يعلمونها من شاءُوا بل أمرها بيده تعالىٰ فكلما أراد تعالىٰ أن يعلمه أحداً أعلمه وإلّا فلا، وعليه

---

١ ـ آل عمران : ١٧٩.

٢ ـ الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

فما تقدم من أنهم كلما شاءوا أن يعلموا من الغيب علموا مختص بغير هذه الخمسة، وأما هذه فقد اختصّ بها تعالىٰ كلما شاء أن يعلم أحداً أو يعلمهم بخصوصيتها أعلمهم لا كلما أرادوا، فتأمل، وعليه فعلم الغيب قسمان: خاص وهي هذه الموارد الخمسة، وعام وهو ما سواها كما لا يخفىٰ.

وأما ما ورد في البحار عن الخصال، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال لي أبي ألا أخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه؟

قلت: بلىٰ.

قال: **﴿إن الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾**، الظاهر في أنه لم يطلع الله أحداً علىٰ هذه الخمسة، وهذا ينافي ما تقدم من أنه تعالىٰ يظهر رسوله علىٰ تلك الخمسة محمول علىٰ علم الغيب الخاص.

وبعبارة أُخرىٰ: معناه أنه تعالىٰ لم يجعل لأحد من خلقه سبباً للاطلاع عليها متىٰ شاء بل أمرها بيده فإن بدا له تعالىٰ أن يعلم أحداً منها أعلمه.

وسيأتي قول الصادق عليه السلام لفضل، **﴿وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾**، وهو في علمهم وقد علموا ذلك. وسيجيء بتمامه إن شاء الله.

هذا وقد تقدمت وجوه أخرىٰ قد حملوا هذه الآية المباركة عليها فراجع.

وفي تفسير نور الثقلين عن الخصال من الأربعة مائة فيما علم أمير المؤمنين أصحابه منها قوله عليه السلام: «وبنا ينزل الغيث».

وفيه عن كمال الدين وتمام النعمة عن الرضا عليه السلام كلام طويل منه: «وبنا ينزل الغيث وينشر الرحمة».

بقي هنا أمران: الأول: معنىٰ قوله تعالىٰ: **﴿وعنده مفاتح الغيب﴾** الآية الثاني: بيان كيفية تعلمهم عليهم السلام الغيب إذا أرادوا أن يعلموا فنقول:

الأمر الأول: لا ريب في أن مفاتح الغيب غير علم الغيب، ومن المعلوم أن الغيب هو ما غاب عن حواسك الظاهرة والباطنة، وكون شيء غائباً عنها ليس إلّا بحجاب، فبرفع الحجب يصير الغيب عياناً، فحينئذ معناه أن رفع الحجب عن قلوب الخلائق إنما هو عنده تعالىٰ وبيده، فقوله تعالىٰ: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو**﴾ بعد إرجاع ضمير لا يعلمها إلىٰ مفاتح أنه تعالىٰ هو الذي يفتح باب العلم برفع الحجب القلبية لمن يريد من خلقه نبياً كان أو وصياً أو غيره أو بتيسير السبيل إليه (أي إلىٰ الغيب) بنصب الأدلة له الموصلة إلىٰ الغيب، قوله: ﴿**لا يعلمها إلّا هو**﴾ أي لما كان أمرها بيده، فيفتح بابها لمن أراد ويغلق بابها عمّن يشاء بعدم نصب الأدلة له.

والحاصل: أنه لا يقدر أن يفتح باب العلم به (أي بالغيب) للعباد إلّا الله تعالىٰ، فهذه الآية ناظرة إلىٰ هذه الجهة وهي أن الأمر في تعليم الغيب لأحد برفع حجبه بيده تعالىٰ؛ لأنه عنده مفاتح الغيب.

إذا علمت هذا فنقول: إن المستفاد من الأحاديث الواردة في ذيل هذه الآية المباركة إن الأئمة عليهم السلام هم مفاتح الغيب فبهم يرفع الله الحجب عمن يشاء من عباده.

ففي تفسير نور الثقلين[1]، عن معاني الأخبار بإسناده إلىٰ أبي بصير قال: سألته عن قول الله عزوجل: ﴿**وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين**﴾ قال: فقال: «الورقة السقط والحبة الولد، وظلمات الأرض والرطب ما يحيي واليابس ما يقبض، وكلّ ذلك في كتاب مبين».

وفي حديث آخر عن الكافي ما يقرب منه إلّا أنه في آخره «وكل ذلك في إمام مبين».

---

١ ـ نور الثقلين ج ١ ص٥٩٨.

وفي آخر عن العياشي في آخره قال: قلت: في كتاب مبين، قال: «في إمام مبين».

وفي آخر عن الاحتجاج في آخره: «في كتاب مبين وعلم هذا الكتاب عنده» (أي عند أمير المؤمنين عليه السلام).

ومن المعلوم أن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿إلّا في كتاب مبين﴾، وقوله عليه السلام وعلم هذا الكتاب عنده، وقوله عليه السلام: «وكل ذلك في إمام مبين»، يشير إلىٰ جميع ما اشتملت عليه الآية من مفاتح الغيب، إلىٰ آخر الآية.

فيستفاد منه: أن الامام المبين الذي صرح به في المروي عن الاحتجاج هو أمير المؤمنين عليه السلام فيحنئذ يعلم أنه تعالىٰ جعل الأئمة مفاتح الغيب التي بها يرفع الله الحجب عن قلوب العباد كما لا يخفىٰ.

ويدلّ عليه أيضاً ما في بصائر الدرجات[1]، بإسناده عن خثيمة الجعفي قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «يا خثيمة نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سرّ الله، ونحن وديعة الله في عباده، ونحن حرم الله الأكبر، ونحن ذمة الله، ونحن عهد الله، فمن وفىٰ بذمتنا، فقد وفىٰ بذمة الله، ومن وفىٰ بعهدنا، فقد وفىٰ بعهد الله، ومن خفرها، فقد خفر ذمة الله وعهده».

فقوله عليه السلام: «ومفاتح الحكمة» بعدما ذكر عليه السلام في سابقه ولاحقه من مقامات العلوم والمعارف والرفعة يدل علىٰ أن مفاتح العلم بيدهم، علىٰ أن الحكمة أخص من العلم كما لا يخفىٰ.

وسيأتي قول الصادق عليه السلام لمفضل: ﴿وما تسقط من ورقة إلّا (علموها) ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ وهو في علمهم، وقد

---

١ ـ بصائر الدرجات ص٥٧.

علموا ذلك وسيجيء بتمامه إن شاء الله، وتقدم ما يلازم هذا من أن الأئمة عليهم السلام هم الذين ينورون قلوب المؤمنين، وأن أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي يطعم العلم للمؤمنين، والحمد لله وحده.

الأمر الثاني: في بيان كيفية تعلمهم علم الغيب فنقول:

في بصائر الدرجات بإسناده عن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول «إن منا لمن ينكت في إذنه، وإن منا لمن يؤتىٰ في منامه، وإن منا لمن يسمع الصوت مثل صوت السلسلة يقع علىٰ الطست، وإن منا لمن يأتيه صورة أعظم من جبرئيل وميكائيل»، فهذه وجوه تعلمهم عليهم السلام العلوم الغيبية.

وقوله عليه السلام: «وإن منا لمن يأتيه صورة أعظم من جبرئيل وميكائيل» يشير إلىٰ ما ورد في بصائر الدرجات[1]، بإسناده عن أبي بصير قال: قلت: قول الله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ قال: «هو خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، وكّل بمحمد صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده وهو مع الأئمة يخبرهم ويسددهم».

وفيه[2] عن جابر قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله خلق الأنبياء والأئمة علىٰ خمسة أرواح: روح القوة، وروح الايمان، وروح الحيوٰة، وروح الشهوة، وروح القدس من الله، وساير هذه الأرواح يصيبه الحدثان، فروح القدس لا يلهو ولا يتغير ولا يلعب، وبروح القدس علموا يا جابر ما دون العرش إلىٰ ما تحت الثرىٰ».

فدلت هذه الأحاديث علىٰ أن علمهم عليهم السلام مطلقاً الذي يشمل الغيب أيضاً، بل جله هكذا من خلق هو أعظم من جبرئيل وميكائيل يخبرهم، وهو روح القدس الذي هو من الله تعالىٰ، وبه علموا ما دون العرش إلىٰ ما تحت الثرىٰ.

ومثل هذه الأحاديث كثيرة، وأحسن حديث في المقام يبين كيفية علمهم الغيب عليهم السلام هو ما في بصائر الدرجات بإسناده عن صالح بن سهل، عن أبي

---

١ ـ بصائر الدرجات ص٤٥٦.

٢ ـ بصائر الدرجات ص٤٥٤.

عبدالله عليه السلام قال: «كنت جالساً عنده فقال: ابتدأ منه يا صالح بن سهل، إن الله جعل بينه وبين الرسول رسولاً، ولم يجعل بينه وبين الإمام رسولاً، قال: قلت: وكيف ذلك؟ قال: جعل بينه وبين الامام عموداً من نور ينظر الله به إلىٰ الامام، وينظر الامام (إليه) إذا أراد علم شيء نظر في ذلك النور فعرفه».

ومثله فيه عن إسحق الحريري قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فسمعته وهو يقول: «إن لله عموداً من نور حجبه الله عن جميع الخلائق طرفه عند الله وطرفه الآخر في أُذن الإمام، فإذا أراد الله شيئاً أوحاه في أُذن الإمام».

ونظير هذا الحديث كثير جداً ويعلم منه إن علم الإمام مطلقاً من ذلك النور، ويمكن أن يكون الحديث الأول ناظراً إلىٰ علم الغيب العام، وهو ما جعل الله له سبباً للإمام عليه السلام وهو ما إذا بدا لله تعالىٰ أعلمه، التي علمت أن من مصاديقها تلك الأُمور الخمسة المذكورة في الآية المباركة: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ فإن قوله عليه السلام: «فإذا أراد الله شيئاً أوحاه»، ظاهر في تعليم هذا القسم من العلم بالغيب الخاص كما لا يخفىٰ، فتأمل.

فتحصل من جميع ما ذكرنا أن النبي والأئمة عليهم السلام يعلمون الغيب بالقرآن وبالروح القدس، كلّ ذلك بتعليم الله لا مطلقاً وأن الأخبار النافية عنهم علم الغيب محمولة علىٰ استقلالهم بالعلم كما تقدم بيانه، كيف لا وقد تقدم وصرّح في الأخبار الكثيرة أيضاً بأن العلوم كلها مستفادة من الاسم الأعظم، وهو بحروفها التي تبلغ اثنين وسبعين حرفاً عندهم عليهم السلام نعم واحد منها يختص به تعالىٰ؟

ونختم هذا البحث بحديثين:

أحدهما في بصائر الدرجات[1]، بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن اسم الله الأعظم علىٰ ثلاثة وسبعين حرفاً كان عند آصف منها حرف واحد، فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، ثم تناول السرير بيده، ثم عادت

١ ـ بصائر الدرجات ص٢٠٩.

الأرض كما كان أسرع من طرفة عين، وعندنا من الاسم اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله تعالىٰ إستأثر به في علم الغيب المكنون».

أقول: المراد من علم الغيب المكنون إما العلم الذي هو عين ذاته المقدسة، التي لا نهاية لها، فلا يكون محاطاً، بل هو محيط بكل شيء، وإما المراد منه علم الغيب الخاص كما لا يخفىٰ.

الثاني: فيه بإسناده عن عبدالحميد بن الديلم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالىٰ أوحىٰ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله: أنه قد قضيت نبوتك، واستكملت أيامك، فاجعل الاسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار علم النبوة عند علي بن أبي طالب عليه السلام فإني لا أترك الأرض إلّا ولي فيها عالم تعرف به طاعتي، وتعرف به ولايتي، حجة بين قبض النبي إلىٰ خروج النبي الآخر، فأوصىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله بالاسم الأكبر وميراث العلم، وآثار علم النبوة إلىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام».

أقول: فأُصول العلم عنده صلى الله عليه وآله وعندهم عليهم السلام كل ذلك منه تعالىٰ فكيف حينئذ يقال بعدم علمهم للغيب؟ نعم قد علمت مراراً أنه لا يكون إلّا منه تعالىٰ بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله.

وفي الكافي (باب نادر فيه ذكر الغيب) بإسناده عن معمر بن خلّاد قال: سأل أبا الحسن عليه السلام رجل من أهل فارس فقال له: أتعلمون الغيب؟ فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يبسط لنا العلم فنعلم، ويقبض عنّا فلا نعلم، وقال: سرّ الله عزوجل أسرّه إلىٰ جبرئيل عليه السلام وأسرّه جبرئيل إلىٰ محمد صلى الله عليه وآله وأسرّه محمد إلىٰ من شاء الله».

أقول: المراد بمن شاء الله هو أمير المؤمنين أو مع سائر الأئمة عليهم السلام ومعنى القبض والبسط في العلم هو تعليمه تعالىٰ لهم وعدمه، وهو العلم الذي يحدث لهم بالليل والنهار، والعلم الذي يحدث لهم ساعة بعد ساعة كما تقدم، والعلم الذي يحدث في ليالي القدر وليالي الجمعة كما لا يخفىٰ.

وفي البحار نقلاً عن بصائر الدرجات، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«سئل علي عليه السلام عن علم النبي صلى الله عليه وآله فقال: علم النبي صلى الله عليه وآله علم جميع النبيين وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلىٰ قيام الساعة.

ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأعلم علم النبي صلى الله عليه وآله وعلم ما كان، وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة».

وفي البحار[١]، مصباح الأنوار بإسناده إلىٰ المفضل قال: دخلت علىٰ الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: «يا مفضل هل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم؟

قلت: يا سيدي وما كنه معرفتهم؟

قال: يا مفضل مَن عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السنام الأعلىٰ.

قال: قلت: عرفني ذلك يا سيّدي.

قال: يا مفضل تعلم أنهم علموا ما خلق الله عزوجل وذرأه وبرأه، وأنهم كلمة التقوىٰ وخزان السموات والأرضين، والجبال والرمال والبحار، وعلموا كم في السماء من نجم وملك، ووزن الجبال وكيل ماء البحار وأنهارها وعيونها.

وما تسقط من ورقة إلّا علموها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين، وهو في علمهم وقد علموا ذلك.

فقلت: يا سيدي قد علمت ذلك وأقررت به وآمنت.

قال: نعم يا مفضل، نعم يا مكرم، نعم يا محبور، نعم يا طيب، وطابت لك الجنة ولكل مؤمن بها».

وأقول أنا: يا سيدي يا صاحب الزمان (روحي لك الفداء) قد علمت ذلك وأقررت به وآمنت.

فعلم من هذا الحديث الشريف موارد علومهم الغيبية، كلّ ذلك بتعليم الله تعالىٰ إياهم (صلوات الله عليهم أجمعين).

---

١. البحار ج٢٦ ص١١٦.

وفي الكافي وغيره أخبار كثيرة دلت علىٰ إخبارهم عليهم السلام بالأُمور الغيبية، وهي كثيرة جدّاً فراجعها، بل ظهر الإخبار بالمغيبات عن بعض أصحابهم كالميثم ورشيد الهجري، بل وعن كثير من العلماء الربانيين، وأولياء الله تعالىٰ الكاملين كما لا يخفىٰ إلّا أنه لابد من مؤمن كمفضل (رضوان الله عليه) يؤمن بهذه، جعلنا الله تعالىٰ من المؤمنين بهذه بمحمد وآله الطاهرين.

بقي شيء لا بأس بالإشارة إليه وهو أنه ربما يقال: إن قول الصادق عليه السلام في حديث صالح بن سهل: «ولم يجعل بينه وبين الإمام رسولاً»، ظاهر في أن تعلمهم العلم قد يكون بغير واسطة الرسول وهذا خلاف ما تقدم من كثير من الأخبار الدالة علىٰ أن الرسول أعلمهم، وأنه الواسطة بينهم وبين الله، وأنه لا علم لهم مطلقاً إلّا به ومنه صلى الله عليه وآله.

قلت: قد علمت في معنىٰ الولاية لهم عليهم السلام أن الولاية هي باطن النبوة، وهي النور المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ الذي قد عرفت مراراً أن هذا الروح هو خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، فهذا الروح التي به حقيقة النبوة ليس بينه وبين الله رسولاً، بل هو بنفسه مما أوحاه الله إليه.

نعم الرسول في كثير من شؤون الرسالة يوحىٰ إليه بواسطة الرسول (أي جبرئيل) إلّا أن حقيقة الرسالة هو ذلك الروح والنور الموحىٰ إليه صلى الله عليه وآله وهي منتقلة إلىٰ الأوصياء كما تقدم، ودلّت عليه كثير من الأخبار من قولهم عليهم السلام: «وإنه (أي ذلك الروح) لفينا، وإنه ما صعد منذ نزل، فهو يسدّد الأئمة ويخبرهم»، كما تقدم آنفاً.

إذا علمت هذا فاعلم أن المراد من قوله عليه السلام: «ولم يجعل بينه وبين الإمام رسولاً»، يشير إلىٰ ختم الرسالة كما كانت للنبي صلى الله عليه وآله بل الامام يعلم الأُمور بحقيقة الرسالة، التي هي ذلك النور؛ ولذا قال عليه السلام بعده: جعل بينه وبين الامام عموداً من نور.. الخ، فالمقصود من كلامه عليه السلام بيان أن الامام يعلم الأُمور بذلك النور، الذي هو حقيقة الرسالة، لا بالرسالة التي كانت لرسول الله من واسطة الرسول (أي جبرئيل).

ومن المعلوم أن هذا الروح والنور حقيقة أولاً وبالذات قائم بالنبي ﷺ فلا ينافي تعلّمهم عليهم السلام العلوم بذلك النور من أن يكون ذلك النور قائماً بالنبي أيضاً، ويعلم ما علموه به قبلهم كما تقدم ما يدل علىٰ ذلك.

والحاصل: أن الامام عليه السلام يعلم الأُمور بذلك النور لا بالرسالة، وهذا النور أولاً وبالذات قائم به ﷺ ثم بهم عليهم السلام فتأمل تعرف.

وأقول أيضاً: كيف أنهم عليهم السلام لا يعلمون الغيب مع أنه عندهم الاسم الأعظم وهم مظاهر علمه تعالىٰ وهم عليهم السلام في مقام الفناء لا علم لهم إلّا وهو علمه تعالىٰ بل لا شيء حينئذ إلّا علمه؟ فالقول: بأنهم لا يعلمون الغيب، في حال كونهم مظهراً لولايته تعالىٰ نقص لعلمه تعالىٰ، بل العالم بالغيب هو تعالىٰ فقط إلّا أنه ظهر تبارك وتعالىٰ فيهم، فبهم ملأت سماءَك وأرضك حتىٰ ظهر أن لا إله إلّا أنت، ولا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك، الدعاء.

وقد تقدم «فإن آمنت بما قلنا فهنيئاً لك وإلّا فإيّاك ثم إيّاك أن تنكر ذلك فتكفر من حيث لا تشعر» والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطاهرين.

الأمر الثاني: فيما يتعلق بقوله عليه السلام: «وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون».

أقول: قد يقرأ بتشديد الراء في المكرّمين اقتباساً من قوله تعالىٰ: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾، وهذا بعيد جدّاً خصوصاً مع تذييله بقوله عليه السلام: «الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» فإنه ظاهر في أنه اقتباس من قوله تعالىٰ: ﴿**بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾.

فإنهم عليهم السلام وإن كانوا أحسن مصداق لقوله تعالىٰ: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾ إلّا أنه لا يراد من هذه الجملة الاشارة إلىٰ هذه الآية، وعلىٰ أي حال لا بأس بالإشارة إلىٰ ما ورد في شرح قوله تعالى: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾ ثم تعقيب الكلام بشرح

المقصود من الجملة فنقول:

ففي تفسير نور الثقلين عن تفسير علي بن إبراهيم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله لا يكرم روح الكافر، ولكن كرّم أرواح المؤمنين، وإنما كرامة النفس والدم بالروح، والرزق الطيب هو العلم».

أقول: قد علمت سابقاً أنه ليس للكافر روح الايمان بل هو مختص بالمؤمن. وساير أرواح الكافرين لا كرامة لها، وهذا هو المراد من قوله: «إن الله لا يكرم روح الكافر؛ لما ليس فيه من روح الايمان، ولكن كرّم أرواح المؤمنين بروح الايمان المعطىٰ لهم، لا لسائر الأرواح فإنها لا كرامة لها» كما علمت.

نعم في المؤمن لنفسه ودمه أيضاً كرامة لما فيه روح الايمان، وهذا هو المراد من قوله عليه السلام: «وإنما كرامة النفس والدم بالروح (أي بروح الايمان الذي يكون في المؤمن)».

ثم إنه عليه السلام بيّن أمراً كلياً وهو أحسن وجه لكرامة الله للمؤمن بقوله عليه السلام: «والرزق الطيب هو العلم»، أي أن الله تعالىٰ وإن أكرم المؤمن بدنه ونفسه أيضاً كما ستأتي الإشارة إليه إلّا أن الكرامة الحقيقية هو العلم المشار به إلى المعرفة بالتوحيد والنبوة والولاية، فإنه الرزق الطيّب الذي أكرم به الله تعالىٰ المؤمن خاصة كما لا يخفىٰ.

وفيه عن الخصال، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «المؤمن أعظم من الكعبة».

أقول: لكرامته على الله تعالىٰ.

وفيه عن العيون بإسناده إلى الرضا عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن المؤمن يعرف بالسماء، كما يعرف الرجل ولده، وأنه لأكرم علىٰ الله تعالىٰ من ملك مقرب».

وعنه وبإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي كرامة المؤمن على الله أنه لم يجعل لأجله وقتاً حتىٰ يهمّ ببائقه، فإذا هم ببائقه قبضه الله إليه».

وفيه عن علل الشرائع بإسناده عن عبدالله بن سنان قال: سألت أبا

عبدالله عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: «قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إن الله عزوجل ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوه، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم».

أقول: فبهذين الغلبتين يعرف من بني آدم من هو مورد لكرامته تعالىٰ.

وفيه عنه، علي بن موسىٰ الرضا، عن أبيه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث طويل يقول فيه صلى الله عليه وآله: «وإن الملائكه لخدّامنا وخدّام محبينا، يا علي الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربّهم، ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا، يا علي لولا نحن ما خلق آدم ولا حوّا، ولا الجنة ـ ولا النار، ولا السماء ولا الأرض، وكيف لا نكون أفضل من الملائكة، وقد سبقناهم إلىٰ معرفة ربنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه؟ إن الله تبارك وتعالىٰ خلق آدم فأودعنا صلبه، وأمر الملائكة بالسجود تعظيماً لنا وإكراماً، وكان سجودهم لله عزوجل عبودية، ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلّهم أجمعون».

أقول: أي كيف لا نكون أفضل منهم، وقد سجدوا لآدم الذي دوننا في الشرف؟ وإنما صار مسجوداً لهم لكونهم عليهم السلام في صلبه، فسجد الملائكة لمن شرفه منهم عليهم السلام ولم يؤمروا عليهم السلام بالسجود لآدم لهذه الجهة، وهو كونهم أشرف منهم وكونهم سبباً للسجود كما لا يخفىٰ.

وفيه عن أُصول الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما خلق الله عزوجل خلقاً أكرم علىٰ الله عزوجل من مؤمن؛ لأن الملائكة خدّام المؤمنين، وأنّ جوار الله للمؤمنين، وأنّ الجنة للمؤمنين، وأن الحور العين للمؤمنين»، الحديث.

وفيه عن احتجاج الطبرسي رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث طويل وفيه: «يا رسول الله أخبرنا عن علي هو أفضل أم ملائكه الله المقربون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

وهل شرفت الملائكة إلّا بحبها لمحمد وعلي وقبول ولايتهما؟! إنه لا أحد من محبي علي عليه السلام نظّف قلبه من الغش والدغل والعلل ونجاسة الذنوب إلّا كان أطهر وأفضل من الملائكة».

أقول: وتقدم هذا الحديث بتمامه.

وفيه عن اعتقادات الامامية للصدوق رحمه الله: وقال النبي صلى الله عليه وآله: «أنا أفضل من جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وجميع الملائكة، وأنا خير البرية وسيد ولد آدم».

أقول: هذه جملة أحاديث دلّت علىٰ أن الله تعالىٰ كرّم النبي والأئمة عليهم السلام علىٰ الكلّ، وكرم المؤمنين شيعتهم على الكلّ غيرهم، وأنّ فضيلة كل أحد حتى الملائكة إنما هو بالاقرار بفضل محمد وآله وبولايتهم عليهم السلام هذا كلّه علىٰ قراءة والمكرّمين (بالتشديد) وهو كما تقدم خلاف الظاهر، بل الظاهر أنه اقتباس من قوله تعالىٰ: ﴿عباد مكرمون﴾ الآية، قال الله تعالىٰ: **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إلٰه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾**[1].

ففي تفسير نور الثقلين، عن تفسير علي بن إبراهيم: وقوله عزوجل: **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾**، قال: هو ما قالت النصارىٰ: إن المسيح بن الله، وما قالت اليهود: عزير بن الله، وقالوا في الأئمة ما قالوا، فقال الله عزوجل: سبحانه، انفة له بل عباد مكرمون، يعني هؤلاء الذين زعموا أنهم ولد الله، وجواب هؤلاء الذين زعموا ذلك في سورة الزمر في قوله عزوجل: **﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفىٰ مما يخلق ما يشاء﴾**.

وفيه أيضاً عن الخرائج والجرائح في أعلام أمير المؤمنين عليه السلام في روايات

١ ـ الأنبياء: ٢٦-٢٩.

الخاصة: اِختصم رجل وامرأة إليه فعلا صوت الرجل علىٰ المرأة، فقال له علي عليه السلام «اِخسأ وكان خارجيّاً فإذا رأسه رأس الكلب، فقال له رجل: يـا أمـير المـؤمنين صحت بهذا الخارجي فصار رأسه رأس الكلب فما يمنعك عن معاوية؟ فقال: ويحك لو أشاء أن آتي بمعاوية إلىٰ هاهنا علىٰ سريره؛ لدعوت الله حتىٰ فعل ولكنْ لله خزان لا علىٰ ذهب ولا فضة ولا إنكار علىٰ أسرار هذا تدبير الله أمـا تـقرأ: ﴿بـل عـباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾».

وفي حديث مثله في ذيله فقال: «نحن عباد مكرمون».

وفيه عن مصباح شيخ الطائفة رحمه الله في خطبة مروية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «وإن الله اِختص لنفسه بعد نبيه صلى الله عليه وآله من بريته خاصة، علّاهم بتعليته وسما بهم إلىٰ رتبته، وجعلهم الدعاة بالحقّ إليه، والأدلاء بالرشاد عليه لقرن قرن وزمن زمـن، أنشأهم في القدم قبل كلّ مذرّو ومبرّو، أنوار أنطقها بتمجيده بـتحميده، وألهـمها شكره وتمجيده، وجلعها الحجج علىٰ كـل مـعترف له بمـلكة الربـوبية وسـلطان العبودية، واستنطق بها الخرسات بأنواع اللغات بخوعاً له بأنـه فـاطر الأرضـين والسموات، وأشهدهم خلقه، وولّاهم ما شاء من أمره، جعلهم تـراجمـة مشـيته، وألسن إرادته عبيداً، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيـديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون».

وفيه في ذيل حديث نقله عن عيون الأخبار قال: «لا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ الله دينه».

وفيه عن تفسير علي بن إبراهيم وقوله: ﴿ومن يقل منهم إنّـي إله مـن دونـه فذلك نجزيه جهنم﴾، قال: من زعم أنه إمام وليس بإمام».

أقول: قد علمت فيما تقدم ما للأئمة عليهم السلام من المعجزات والكرامات، بـل ومـن عجائب الأُمور، فهذه قد توجب التوهم بأنهم عليهم السلام الالهة في الأرض أو إله مطلقاً، وهذه الآيات وتلك الأحاديث المروية عنهم عليهم السلام ردّ عليهم وعـلىٰ هـذا التـوهم،

فالآيات ترد من زعم فيهم أنهم إله أو والعياذ بالله ومن يقل منهم (أي من الأنبياء والأئمة) إني إله من دونه.

فحينئذ حاصل الآيات، ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾: أي تولد من الرحمن من ظهر برحمانيته، فهو يعطي كلّ ذي حق حقه، ويسوق إلىٰ كل مخلوق رزقه، فرد الله عليه بقوله: سبحانه، أي هو تعالىٰ منزه عن الولادة والتولد والتوليد لم يلد ولم يولد، وإنما الأنبياء والأئمة عليهم السلام خلق مدبرون، فليسوا بولد لله تعالىٰ، بل عباد مكرمون، قائمون بخدمة العبادة ورضا العبودية، قد وسموا بالفقر والعجز الذاتي بحيث لا قوة لهم إلّا بالله دعاهم إليه لما خلقهم، فأجابوه فأكرمهم بإجابته لخدمته بتلك الكرامات التي ليست لأحد غيرهم.

فهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول، لا في العبادة العملية والعبودية الصفتية، ولا في العبودية الذاتية ولا في الحظوظ النفسية، ولا في التبليغات الشرعية، بل يجرون في جميع ذلك بما حدّه لهم، وهم بأمره يعملون، هذا وقد أقرّ الله تعالىٰ لهم عليهم السلام بتلك الحالات والعبودية وشهد لهم عليهم السلام بذلك بقوله تعالىٰ: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي كل شيء من أمره عملوا به فهو يعمله، وأعمالهم عليهم السلام بمرءىٰ منه ومنظر، ولا يخفىٰ عليه تعالىٰ شيء منها.

ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ الله دينه كما تقدم، فالشفاعة الثابتة لهم بنص من الله تعالىٰ لا يقومون بها إلّا لمن ارتضىٰ الله دينه، فهم عليهم السلام بهذه المنزلة من كونهم محلاً للشفاعة منه تعالىٰ لا يرفعون مَن وضعه الله تعالىٰ، ولا يقدمون مَن أخره الله بالشفاعه إلّا إذا رضي الله تعالىٰ لهم، وأذن لهم بالشفاعة من شيعتهم ومحبيهم ومحبي محبيهم، وأيضاً قد أخبر الله تعالىٰ عنهم ـ مع كونهم عالمين بأمره، ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ ـ بأنهم عليهم السلام عاملون بجميع أوامره، وهم من خشيته مشفقون، خائفون من مقام عظمته تعالىٰ وجلون من لقائه.

كما قال تعالىٰ: ﴿والذين يؤتون ما أُتوا وقلوبهم وجلة إنهم إلىٰ ربهم راجعون﴾

وهذه خشية منهم هو أثر علمهم به تعالىٰ، ففي الدعاء عن السجاد ﷺ: «سبحانك أعلمهم بك أخوفهم منك»، وفيه: «لا علم إلّا خشيتك، ولا حكم إلّا الإيمان بك، ليس لمن لم يخشك علم، ولا لمن لم يؤمن بك حكم».

ثم إنه تعالىٰ أخبر (على الفرض) بأنه: ومن يقل منهم (أي الأنبياء والأئمة ﷺ أو غيرهم من سائر الناس) إني إله، أي إني لم أفعل ولم أعمل بأمره وبحوله وقوته، أو قال: إني أعمل بغير أمره وبغير قدرته وحوله، وأستقل في ذلك كلّه بنفسي، فإن هذا معنىٰ القول: أنه إله أي مستقل في تلك بنفسه لا بالله تعالىٰ كما لا يخفىٰ، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين.

والحاصل: أنهم ﷺ يتكلمون بأمره، ويسكتون بأمره، ويجاهدون بأمره ويتركون الجهاد بأمره، ويقتلون ويُقتلون بأمره فهذه مراتبهم التي رتبهم الله فيها، مع ما منحهم من القدرة والمعجزات، فمن رفعهم عن مراتبهم بأن غلا في حقهم، أو وضعهم عنها، ولو فرض أنهم ﷺ عاملون مع أنفسهم كذلك، وإن لم يعاملوا قطعاً، فهذا ظلم لذلك القائل مهما كان، فقال تعالىٰ في حقه: ﴿**فذلك نجزيه جهنم**﴾، ثم قال تعالىٰ قولاً كلياً: ﴿**كذلك نجزي الظالمين**﴾، أي مهما قال قائل بتلك الأقوال فهو ظالم يكون جزاؤه جهنم، فقال تعالىٰ: ﴿**كذلك نجزي الظالمين**﴾.

قال ﷺ: ورحمة الله وبركاته، وهذا عطف علىٰ: السلام علىٰ الدعاة إلىٰ الله.. الخ، وقد علمت قبلاً معنىٰ الرحمة والبركة، فلا نعيده، إلّا أن ذكر الرحمة والبركة هنا أيضاً معناه: أن تلك الأوصاف التي ذكر في هذا الفصل من السلام عليهم محفوظة عليهم من الله تعالىٰ، ومحفوظة برحمة الله تعالىٰ، ومشمولة ببركاته تعالىٰ في كل حال لهم في تلك الصفات بنسبتها والله العالم، والحمد لله ربّ العالمين.

انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث مبدوءًا

بـ«السلام على الأئمة الدعاة»

فهرس الموضوعات